

تَيْسِيرُ الْكَلَامِ الْحَمْدُ

فِي تَيْسِيرِ كَلَامِ الْمَسَانِدِ

تَأليفُ

الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرٍ السَّعْدِيِّ

قَدَّمَ لَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَقِيلٍ حَفْظُهُ اللَّهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعِثْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ

تَحْقِيقُ

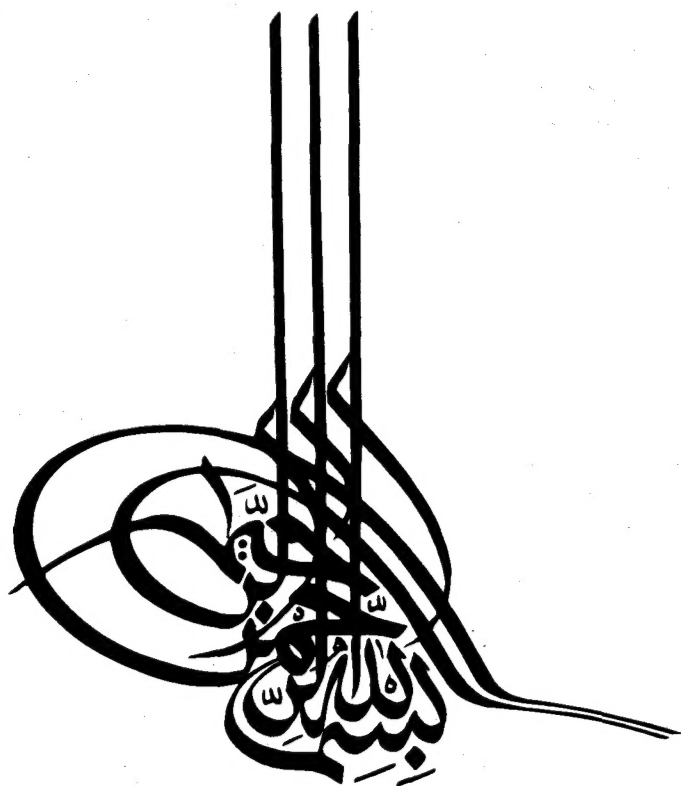
د. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَلَّا اللُّوَيْحِيُّ

التَّصْحِيحُ وَالْمَرَاجَعَةُ

بِقِسْمِ الْبَحْثِ وَالْإِعْدَادِ الْعِلْمِيِّ بِمَكْتَبَةِ دَارِ السَّلَامِ



بِإِذْنِ السَّلَامِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



تَسْبِيحُ الْكَرِيمِ الْحَمِيدِ
فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ



دار السلام للنشر والتوزيع

شارع الأمير عبدالعزيز بن جلوي
(الضباب سابقاً)

مقابل الغرفة التجارية

ص.ب ٢٢٧٤٣ الرياض ١١٤١٦

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢ - ٠٠٩٦٦١ / ٤٠٤٣٤٣٢

فاكس: ٤٠٢١٦٥٩ / ٠٠٩٦٦١

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

الحمد لله ولي الحمد ومستحقه، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أما بعد:

فإن مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع الدولي تُشرفُ بنشر كتاب: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) تأليف العلامة الشيخ: عبدالرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - وتفتخر أن كان إخراجها للكتاب في حلّة جديدة، وعلى ورق نفيس في مجلد واحد آمله في تسهيل قراءته وحمله ومطالعه، وذلك فضل من الله وإحسان، فله الحمد كثيرًا كما أجزل كثيرًا.

ولقد قام جماعة من العلماء والباحثين بمتابعة طباعة الكتاب وتصحيح ما كان من أخطاء مطبعية أو إخراجية بإشراف من محقق التفسير في الطبعة المعتمدة الدكتور: عبدالرحمن بن معلا اللويحق.

وقد تميز عملنا بما يلي:

١- أخذ الآيات القرآنية المفسرة والمستشهد بها من

مصحف الحاسب الآلي، ووضعها بين أقواس مميزة بنفس خط المصحف ضمانًا لسلامتها، وتمييزًا لها عن التفسير.

٢- تدارك ما كان من الأخطاء المطبعية واللغوية والتعليق على مواضع يسيرة أخرى.

٣- العمل على تحسين إخراج الكتاب حتى تكون قراءته أسهل بحيث لا تتزاحم الأسطر عند النظر، مع العمل - قدر الإمكان - على التناسب في الإخراج بين المصحف والآيات المفسرة.

وإننا إذ تم العمل ندعو الله عز وجل أن ينفع بجهدنا هذا علماء الأمة وطلبة العلم، وراغب في فهم الكتاب العزيز، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

دار السلام للنشر والتوزيع
الرياض

المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ : عبدالله بن عبد العزيز بن عقيـل .

مقدمة فضيلة الشيخ : محمد بن صالح العثيمين .

مقدمة المحقق .

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبيانًا لكل شيء، وجعله هدى وبرهانًا لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم، كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابننا الشيخ الفاضل: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة، مراعيًا في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبتني، وسررت بها جدًا مؤملًا أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظًا وفهمًا، لأنّه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة، بدلًا من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسأل الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق هذا الصنيع المبارك، وأن يجزيه أفضل الجزاء، وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها، وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء، وأن يتغمّد الجميع ومؤلف التفسير برحمته، إنه جواد كريم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

حرّر في ٢٧/٩/١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر، وذلك بتفسيره المسمّى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع عبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم، سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة، أو استطراد، أو ذكر قصص، أو إسرائيليّات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرؤها، مهما كان مستواه العلمي، فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجّه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى، التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافا لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منّ الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهيًا في

مقدمة

فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم، وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة، حيث استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مريد لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارئه، إنه كريم جواد، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين
في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة: منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه، إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره، وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه، فهو عمدة في

مقدمة المحقق

هاتفتني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما، ومقابلة للشيخ عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير ونسخه المخطوطة، وطبعاته، فبين أن في الطبقات عواراً كثيراً، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتييون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنهاء في عام ١٣٤٤هـ. وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً، وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه، إذ يمثل كتابة عالم ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد كتب نسخة واحدة، ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم يُنسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿فَإِمَّا بَأْيُنِكُمْ مَتَى هَذَا فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾.

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً وفهماً: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَبَ الْإِثْمَ وَيُبَيِّنَ الْوَحْيَ وَيُذَكِّرَ أَهْلَ الْأَلْبَابِ﴾ ومن سبل ذلك التدبر والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن قيض له جهازة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ، فألفوا في ذلك كتباً بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكليات، ودفعوا التعارضات المتوهمّة، وبيّنوا مراجع الضمائر، وعيّنوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهاً متعدّدة، وكانوا طرائق قدداً في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم، حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جلّ عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحاً في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانه على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور، إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني وبيان المراد، إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد منّ الله عليّ بالعباية بهذا التفسير، ومحة صاحبه - رحمه الله - وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومنّ الله عليّ بالعباية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادرة عن قراءته في مجلّداته السبعة التي كان عليها في أشهر طبعته السابقة، وكان الهم منصرفاً إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتاً إلى طبقات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى

الرحمن بن سعدى - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة،
في كل صفحة (٢٩) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة القصص،
وأخره آخر تفسير سورة الصافات.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة،
في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص)
وأخره آخر تفسير سورة الفتح.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة،
في كل صفحة (٢٩) سطراً، أوله أول تفسير سورة الحجرات،
وأخره آخر تفسير سورة القيامة.

المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة، في
كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان،
وأخره آخر تفسير سورة الناس.

النسخة الثانية:

المجلد الأول:

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في
تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر
السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت
هذه العبارة، أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في
هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا
أكتفي بذكري ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق
بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنائي»
تنشئ فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع
النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من
زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح
الأمر كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا

الرحمن في تفسير كلام المنان، من من الله على عبده، وابن
عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن
سعدى^(١) وفوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير
(هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿وَلَقَدْ يَمُرُّنَا الْقَرْيَةَ أَنَّا لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ
تَقْسِيمٍ﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضاً: «شرعت في
هذا التفسير المبارك غرة شهر ()»^(٢) سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله
أن يتمه بنعمته.

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش
وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل
صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة
إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية (١٢٩) من
سورة آل عمران.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في
كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من
سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّتَعَفِّفَةً وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وأخره
آخر تفسير سورة الأنعام.

المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة،
في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً، أوله أول تفسير سورة
الأعراف، وأخره آخر تفسير سورة هود.

المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة،
في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً، أوله أول تفسير سورة
يوسف، وأخره آخر تفسير سورة الإسراء.

المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة،
في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف،
وأخره آخر تفسير سورة النمل.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن
زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥ هـ)
وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي
الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارئ.
وعلى هذا الجزء هوامش وتعديلات بخط الشيخ عبد

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع
اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة
هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن
لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدى غفر الله له ولوالديه
وللمسلمين... آمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير
الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن
سعدى). (٢) الكلمة غير واضحة في الأصل، والذي يبدو أنه شهر صفر
أو محرم، لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

هذه المقدمة، وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة، في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطراً، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل، ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله، وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة، في كل صفحة ما بين (٢٥-٢٨) سطراً، وبدايته ونهايته كمثلته في النسخة الأخرى.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبدالله البسام رحمه الله، وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢) صفحة، في كل صفحة (٢٢) سطراً، وبداية الجزء ونهايته كمثلته في النسخة الأخرى.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله، وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة.

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات، وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء، بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة، وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ٢/٣٠/١٣٧٤هـ. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الآمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه، وقع النظر على الاختصار على طبعه، فجعلنا له مقدمة وختمناه بأصول وكليات من أصول وكليات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأجبت أن يكون الاختيار لجنايبكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب، أو الشيخ حامد، أو من ترجح وتحته على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصروف، وقد وصيت الشيخ: عبدالله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه، وأرجو الله أن يثيبكم الثواب

الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة، في كل صفحة (٣١) سطراً تقريباً.

المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان، بدأ الأول بنسخ اثنتي عشرة صفحة، ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة، ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسماً للناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة، كل صفحة (٣١) سطراً. وبداية المجلد ونهايته كمثلته في النسخة الأولى.

المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد البسام، وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله، ويقع في (١٠٣) صفحات، في كل صفحة (٢٨) سطراً، وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى.

المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر.

وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله، وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصولاً من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها، ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله، وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير.

وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجّه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله، وقد أُرُخ في ٢/٣١/١٣٧٤هـ، ونص الخطاب تجده في

الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إلخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية، فيغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

ومن أمثلة ذلك:

إنَّ الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة، فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح. وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فأتوا الآيات إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسّم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ، وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء، ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تفسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويليه المجلد الثاني، وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)^(٥) وليس الأمر كما قالوا، بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القارئون على هذه الطبعة في التفسير زيادات، وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها، لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات، فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته،

الجزيل، ويشكر مساعيك، ويجزيك عنا أفضل الجزاء، فأنت طال عمرك عوض النفس في كل شيء، والله الموفق والسلام.

محبك^(١) عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكليات التفسير للحاجة الشديدة إليها.

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء^(٢) فقال: (وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه؛ وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبدالله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خبر)^(٣) وبعدها عشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازهم، يسّر الله ذلك وسهّله)^(٤). وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً، ويبدو أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

وتتميّز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطباعات، وهي أصل جميع الطباعات السابقة، فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائداً إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيقات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعمد

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط (٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة. (٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦). (٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨). (٥) (١/٢٨٨).

وقد تابعت كل الطبعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل، ومثال ذلك:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة (زعم) إلى: (أخبركم أنه من عند الله)^(٥).

الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْعُدْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين، وجاء في الطبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)^(٦) وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تابعت الطبعات^(٧).

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنين، طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها، بل اعتمدت طبعتها الرئاسة العامة للافتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظات تظهر عوار تلك الطبعة، أذكر هنا جملة منها:

الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتمادًا كليًا على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقًا على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضًا، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنوانًا في وسط الصفحة (الجزء الثالث)^(١) وكذا عند الجزء الرابع، وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يثيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة، ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء، مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد السملة^(٢).

٣- زيادة قوله: من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضًا، وإذا وجدوا أسيرًا منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة (من ديارهم) فصار النص هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي ﴿و﴾ أرسلنا إلى مدين ﴿القبيلة المعروفة المشهورة﴾ شعيبًا ﴿فأمرهم﴾.

فعدل النص حتى صار بزياداته هكذا: (أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى مدين ﴿القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعيبًا الذي أمرهم﴾).

وبعدها بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله. فعدلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله^(٣).

وهذا كثيرًا جدًا، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما بعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما بنقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولًا في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحيح في بعض الجمل تصحيحًا خاطئًا - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيدًا عنه عرفًا، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجيبًا من العجب حيث غيرت (عنه) إلى عند أو كلمة (عرفًا) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر، أو بعيدًا عند عرفات، فهذا الذي يجب عليه الهدى)^(٤).

(١) (١٤٩/١). (٢) المخطوطة ب (٢٣/٢) والطبعة السلفية (٣/٢). (٣) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦). (٤) المخطوطة ب (٨٢)، الطبعة السلفية، (١١٧/١). (٥) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١). (٦) (١٣٨/١). (٧) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

الملحظ الثاني:

التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية، ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير والزيادة زيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً^(١) ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبه إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً^(٢). ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعلق على كلام الشيخ رحمه الله^(٣).

الملحظ الرابع:

الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هوامش لتلك التعقيبات فتعدى (مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بآراء بعدت عن الصواب، وجانبت الحق في أجلى معانيه مما شوّه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة، كما أنه اعترض على المؤلف، ورد أقواله بآراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه^(٤).

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة، ثم يشرع في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء، فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرع في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأ، ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات، أو الإضافة أو نحو ذلك.

الملحظ الثالث:

التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير، ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات، فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً، تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة، وهي قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَحْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية، فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصحاح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفحتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارئ للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه، كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار، زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥-١٠٧) من سورة الأنعام، حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها، ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من الجزء الثاني، ولم

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة. (٢) انظر طبعة النجار ٣٥٠/٥. (٣) انظر طبعة النجار ٢٥٤/١. (٤) الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تليف وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم.. الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»^(٦) فكأنه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ، وليس هذا بخطأ، بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً، وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليله في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

إنّ هذه الملاحظ ليست إلّا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجمّل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطباعات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ، وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النسخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراده الشيخ رحمه الله، فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل ساداً للثلمة ومبرئاً للذمة.

العمل الذي قمت به:

لقد منّ الله عليّ بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل، وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطباعات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعت إليه جاهداً هو: إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي:

أولاً: نسخ التفسير كما هو، ويتضمن ذلك: إثبات الآيات

وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم^(١).

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه، وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)^(٢)، (العبارة مهمة تحتاج إلى إيضاح)^(٣)، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)^(٤)، (وفي العبارة غموض كما ترى)^(٥).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكفي بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار، وأشير هنا إلى ثلاث تعقبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١- وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به: قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلّا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق) هكذا في النسختين، وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلّا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢- إقحام تعليقات لا محل لها، فمن ذلك: قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهره التوحيد:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه

فأمره مفوض لربه

٣- الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم

(١) المصدر السابق (٩). (٢) (١٠٤/١). (٣) (١٥٩/١). (٤) (٤/١).

(٥) (٢٤٠). (١) (٣٤٦/١). (٦) (١٧٥/١).

بقراءة الكتاب لمريد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والأعلام أو القبايل... ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزويد والتبكر لا حاجة له.

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت، وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات، واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه قدر الإمكان. وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون، وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبدالله بن عبد العزيز بن عجيل. وفضيلة والذي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء: الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملحوظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والإخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأمضوا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتني: الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادو، والأخ فيصل بن طلع المطيري، فلجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأسأل الله المغفرة عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان. والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩ هـ

في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء، ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس، وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة، وجعلت جل اعتمادي عليها، إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى، وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين [] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها، فقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ أنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار، فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً، يمكن الاستغناء عنها

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنائي) تنبئ فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها^(١).

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والاهتداء بها.

وكان حقيقاً بالبعد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [يقطع النظر عن المراد^(٤)].

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سبق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سبق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحبيت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولاقيده خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتمد، أن يسر ما قصدت، ويذل ما أردت، فإنه إن لم يسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

(١) في ب: وأسقامها. (٢) في ب: بتميز. (٣) في ب: وأنزله. (٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ.

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدىً للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها^(١).

وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهي، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَاطِ﴾ فهو هادٍ لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها، وحاثٌ عليها،

كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كَتَبَ أَهْكَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فيبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين^(٢) الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً

للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا

ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها،

ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله^(٣) بهذا اللسان لنعقله وتفهمه، وأمرنا بتدبره والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل

خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكرة،

وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِهِمْ يَتَغَمَّزُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ

بين المسلمين، أو قيل لفاعله: «هل أنت منتو» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاداً، أو طرداً، أو لفظة «قُتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يذكّره»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبّه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قبيح له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاعة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: ﴿لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾، ﴿لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾، ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ما لم يقترون به جواب من المسؤول^(١) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرده من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرّم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه. وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمتحقق^(٢) منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل متكئاً».

وأما لفظة «ما يكون لك» و«ما يكون لنا» فاطرده استعمالها في المحرّم، نحو: ﴿مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا يَحْسِبُنِي لِي يَحْيَى﴾.

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و«إن شئت فافعل» و«إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَاتًا إِلَى حِينٍ﴾ ونحو ﴿وَيَا لَيْتَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

ومن السكوت عن التجريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: ﴿وَإِنْ تَصَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ

لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحبّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبة، أو لثواب عاجل أو آجل^(٣)، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله^(٤) بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قرية، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها^(٥)، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبة إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث^(٦)، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربه، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسب إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلماً أو بغيّاً، أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخبية فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو الله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه: «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(٧) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء

(١) في ب: أو لثواب عاجلاً أو آجلاً. (٢) في ب: فاعليه. (٣) في ب: وإثارتها. (٤) في ب: بالخبت. (٥) في ب: عنه. (٦) في ب: من السؤال. (٧) في ب: فالمحقق.

وَيَسْحَرُونَ». وقوله: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ».

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ»

ويدل على حسن المنع منه قدرًا، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ»

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: «أَجْعَلْنَاهُ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: «لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى الْقَرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: «لَا يَسْتَوِي أَسْعَدُ النَّارِ وَأَسْخَبُ الْجَنَّةِ».

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ» الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقريب، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المفضل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم^(١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد: منها: أن يكون توطئةً وتقدمةً لإبطال ما بعده. ومنها: أن يكون موعظةً وتذكرة. ومنها: أن يكون شاهدًا على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله،

وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فعجزاه الله خيرًا.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقابًا معجلًا.

ومنها: أن فيه حثًا للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثمرت مع عاملها ما أثمرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حثَّ تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى^(٢) أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن

(١) كذا في ب، وفي أ: بعد. (٢) في ب: نظر إلى.

النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيمًا من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «أمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، وي بذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه، وكلما نقص نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت^(١) له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه^(٢) عما يضاف ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.

فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة. وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل
ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أمهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيمانًا بهم، ومحبةً لهم، وتعظيمًا لهم، وتعزيرًا وتوقيرًا.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصًا النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما منّ به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون^(٣) مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسيبهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزيه ومعلمه. وإذا كان من المستنكر جعل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!!

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصل للمؤمن^(٤) الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافًا كثيرًا.

قلو أراد إنسان^(٥) أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من

(١) في ب: أن يثبت. (٢) في ب: وينزهه. (٣) كذا في ب، وفي أ: المؤمن. (٤) في ب: للمؤمنين. (٥) في ب: الإنسان.

المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المقطعة. وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحبيرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة الثقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه^(١) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخيائث، أخبر بما في ضمنتها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتزويجهم عنها، وتكريمهم

(١) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير). (٢) زيادة من هامش ب. (٣) زيادة من هامش ب. (٤) في ب: إيمان العبد به. (٥) في ب: أن معرفة ذلك. (٦) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله^(١)، وغير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك.

ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها]^(٢) إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]^(٣) وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل.

فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهيه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه^(٤).

ومنها: أن العلم بذلك^(٥) حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن

وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] مواردنا، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات^(١) على الصلاح، والمحرمات مشتملات^(٢) على المفاسد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباءً منثوراً.

ورأيت يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها

(١) في ب: مشتملة. (٢) في ب: مشتملة.

واعتبار.

﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بممالكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدَان الناس فيه بأعمالهم خيرا وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مدعون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدّم^(٢) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده، و«العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و«الاستعانة» هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودا بها وجه الله، فهذهين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دُلْنَا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط، لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية، وأنفعها للعبد،

تفسير سورة الفاتحة

وهي مكية

(٧-١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٠ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٠ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٠ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ٠ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٠ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٠ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى] ﴿الله﴾ هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبياؤه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم، فلهم^(١) نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً، بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم [به] كل شيء، قدير: ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [هو] الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: هو المربي جميع العالمين - وهم من سوا الله - بخلقه لهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

وتريبته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأولياته، فيربهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم لهم ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى]، هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير والنعم وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط ﴿الضَّالِّينَ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿الله﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ كما تقدم.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرية والجبرية. بل تضمنت الردّ على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادةً، واستعانةً في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

تفسير سورة البقرة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥

(٥-١) ﴿الْم﴾ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ ٥ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
تقدم الكلام على البسملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل
السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها [من غير
مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً، بل
لحكمة لا نعلمها.

وقوله: ﴿ذَلِكِ الْكِتَابُ﴾ أي: هذا الكتاب العظيم الذي
هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه
كتب المتقدمين، من العلم العظيم، والحق المبين ﴿لَا رَيْبَ
فِيهِ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم
ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على
علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي
المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو
الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا
باليقين قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية
من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة،
وقال: ﴿هُدًى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة
الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى
لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل
الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من
الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في
دنياههم وأخرهم.

وقال في موضع آخر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فعمم، وفي هذا
الموضع وغيره ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع
الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله،
فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقايتهم، وأما
المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو
التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما بقي سخط الله وعذابه، بامتنال
أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية

الانتفاع، قال تعالى: ﴿تَكَايَأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَفَّوْا أَنَّهُ يُخَذَّلُكُمُ فَرَقَانًا﴾ فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات
الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق،
فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم
هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست
هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال
الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ﴾، حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به
الرسول، المتضمن لانتقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان
بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من
الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم
نشاهده، وإنما يؤمن به لخبر الله وخبر رسوله.

فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق
مجرد لله ورسوله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر
به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو

فالمؤمنون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ بَيْنِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب^(٣) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزيور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ يَرْجُونَ﴾، و«الآخرة» اسم لما يكون بعد الموت، وخصه [بالذكر] بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، و«اليقين» هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [مما خالفها] فهو^(٥) ضلالة.

وأنتى «على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي «بفي» كما في قوله: ﴿وَلَيْتَ أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغرس فيه محتقر.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبيل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك، فلهذا، لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول، فقال:

(٧، ٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر، وانصبغوا به، وصار وصفاً لهم لازماً، لا يزدهم عنه

لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب، [الإيمان بـ] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، [وما أخبرت به الرسل من ذلك]، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً^(١) بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(٢) من صلاته، إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قربة إلى الله، وأنتى «من» الدالة على التبعية، لينبهم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل يتنفعون هم بإنفاقه، ويتنفع به إخوانهم.

وفي قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفصلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾،

(١) كذا في ب، وفي أ: وباطنها. (٢) في ب: للبعد. (٣) في ب: بجميع الكتب. (٤) في ب: بالكتب السماوية كلها. (٥) في ب: فهي ضلالة.

بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقموا أيضًا عن كثير من فجورهم، [قال تعالى]: ﴿يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ أَنْ تُدْرِكَ عَلَيْهِمْ سُورَةُ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم يقولون بالأسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يُظهر المخادعُ لمن يخادعه شيئًا، ويبطن خلافه؛ لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن^(٣) هذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل ما يريد^(٤)، أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم^(٥) يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم [شيئًا]، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئًا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة، لهم العذاب الأليم الموجه المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم - من جهلهم وحماتهم - لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق، لأن^(٦) القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق، والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا، ومجبة [الفواحش] والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فَطَمَعَ الْآلِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فزُفِل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يتليهم بالمعاصي

رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم أنذرتهم، أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهؤلاء الكفار لا تنفيهم الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكان في هذا قطعًا لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غُشُوةٌ﴾ أي: غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدّت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِكُمْ أَفَئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر فقال:

(٨-١٠) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْتُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان»، وفي رواية: «وإذا خاصم فجر».

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودًا قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذلّ^(٢) من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفًا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلّى أحوالهم ووصفهم

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت وقعة بدر. (٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: ولهذا. (٤) في ب: ويحصل له مقصوده. (٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم فكانهم. (٦) في ب: وذلك أن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْآخِرِ مَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لُقُوا بِأَلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رَجِحتَ بِتَحَرُّثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

هم العقلاء أرباب الحجي والنهي.

فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه^(٩) جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجا مُعرِّف الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه، وفي [دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة والمؤمنين وصادقة عليهم. فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوي المجردة، والأقوال الفارغة، ثم قال تعالى:

(١٤، ١٥) ﴿وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هذا من قولهم بالسفاهة ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين، أظهروا أنهم

(١) في ب: ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها. (٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً. (٣) في ب: لأنه سبب فساد. (٤) في ب: لما. (٥) في ب: التي سببها. (٦) في ب: عليهم. (٧) في ب: لزعمهم. (٨) في ب: وفي ضمن ذلك. (٩) كذا في ب، وفي أ: السفه.

اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿وَقُلُوبٌ أَفْسَدَتْهُمُ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَنَّا رَاغُوا أَزَاعَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ فمقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنه بعدها، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُذًى﴾.

(١٢، ١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إذا نُهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية مع اعتقاد أنها معصية^(١) فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم إفساداً^(٢) ممن كفر بآيات الله، وصدَّ عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم - مع ذلك - أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً^(٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار، والنبات، بما^(٤) يحصل فيها من الآفات بسبب^(٥) المعاصي.

ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدبر لهم^(٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بفسده، كان سعيًا بالفساد فيها، وإخراياً لها عما خلقت له.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا قيل للمنافقين: آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا - يزعمهم الباطل -: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبَّحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، يزعمهم^(٧) أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوه إلى السفه؛ وفي ضمنه^(٨)، أنهم

عُمِيَ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَرَقٌّ يَّجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ مِّنَ الصُّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه، كمثل الذي استوقد نارًا، أي: كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور، وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراف، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها^(٥) وحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك^(٦)، إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلم^(٧) المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار، [وبس القرار].

فلهذا قال تعالى [عنهم]: ﴿صُمٌّ﴾ أي: عن سماع الخير ﴿بُكْمٌ﴾ [أي]: عن النطق به، ﴿عُمِيَ﴾ عن رؤية الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعًا منهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: أو مثلهم كصيب أي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فِيهِ ظُلُمٌ﴾ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب ﴿وَرَقٌّ﴾ وهو الضوء [اللامع] المشاهد مع^(٨) السحاب ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمُ الْبَرْقُ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ مَشَوْا فِيهِ

على طريقته، وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزون بالمؤمنين بإظهارنا لهم، أنا على طريقته، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحق المكر السيء إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيُذِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم، أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة أن يعطيهم مع المؤمنين نورًا ظاهرًا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفء نور المنافقين، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، ﴿يَادُّوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصُمْ وَارْتَمْتُمْ الْآيَةَ.

قوله: ﴿وَيُذِمْ﴾ أي: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: حائرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفًا عن حقيقة أحوالهم:

(١٦) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِفَعْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان^(١) النفس، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبس التجارة، وبس الصفقة صفقتهم^(٢).

وإذا كان من بذل^(٣) دينارًا في مقابلة درهم خاسرًا، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهمًا؟ فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة: واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن أعاليها^(٤)! فما ربحت تجارته، بل خسر فيها أعظم خسارة ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَيِّنُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة.

ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

(١٧-٢٠) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَعَمَ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ

(١) في ب: الأموال. (٢) في ب: وهذه صفقتهم فبس الصفقة. (٣) في ب: من يبذل. (٤) في ب: وترك عاليها. (٥) في ب: فاستضاءوا بها مؤقتًا وانتفعوا فحقت. (٦) في ب: هم كذلك. (٧) في ب: وظلمة. (٨) في ب: من:

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۖ أَي: وقفوا.

فهكذا حال^(١) المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في أذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده، وترعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل^(٢) أصابعه في أذنيه^(٣) خشية الموت، فهذا تمكن له^(٤) السلامة.

وأما المنافقون، فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم قدرة وعلمًا، فلا يفتونونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم، والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْصَرَهُمْ﴾ أي: الحسية، ففيه تحذير لهم وتخوف بالعقوبة الدنيوية، ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئًا فعله من غير ممانع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها ردُّ على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢٢، ٢١) ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أَعْتَدُوا رَيْبَكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ وَرَبَّ السَّمَاءِ يَنَاءَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا أمر عام لكل^(٥) الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها، وتتفعلون بالأنبياء، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع^(٦) الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمساكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والسماء: [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء ههنا،

السحاب، فأنزل منه تعالى ماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه [اوزروع] وغيرها ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ به ترتزقون، وتقوتون وتعيشون وتفكهون.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: نظراء وأشباهًا من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضررون.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق والتدبير، ولا في العبادة^(٧) فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية، المتضمن لانفراد بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرًا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه؛ لأنكم أنتمم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه، ثم قال تعالى:

(٢٤، ٢٣) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ - يامعشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه - في شك واشتباه، مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فههنا أمر نصف، فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا

(١) في ب: حالة (٢) في ب: فيجعل (٣) كذا في ب، وفي أ: أذنه. (٤) في ب: ربما حصلت له. (٥) في ب: لجميع. (٦) في ب: وجوه. (٧) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ صُمُّ
بُكْمٌ عُتَىٰ فُهِمٌ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُهم فِيءًا إِذَا نَهَمَ مِنَ الصَّوْعِ
حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٩﴾ يَكَاذِبُونَ يُخَفُّ
أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِشْوَاهُ فِيهِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا سُورَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾

على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين.

كما وصفه بالعبودية في مقام الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وفي مقام الإنزال فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وفي قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلأً للمعتزلة، وفيها أيضاً، أن الموحدين - وإن ارتكبوا بعض الكبائر - لا يخلدون في النار، لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فلو كان [عصاة الموحدين] يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلأً للخوارج والمعتزلة. وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر،

(١) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله: (بأفصحكم ولا بأعلمكم) وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى، وهي (من جنس آخر) فتكون الجملة هكذا (ليس من جنس آخر). (٢) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد ولهذا العرض. (٣) في ب: باتباعه. (٤) في ب: الذي ليس بصادق

بأعلمكم^(١)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم، لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب، زعم أنه من عند الله، وقتلتم أنتم: إنه تقوله وافتراه.

فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً، وأنتم أهل الفصاحة والخطابة، والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٢) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى، ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا، التي إنما تنقد بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله، فاحذروا الكفر برسوله، بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة [بأنواع] الكلام، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إلى آخره، دليل على أن الذي يرجى له الهداية من الضلالة، [هو] الشاك الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال، فهذا الذي إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق^(٣)، إن كان صادقاً في طلب الحق. وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعدما تبين له، لم يتركه عن جهل، فلا حيلة فيه.

وكذلك الشاك غير الصادق^(٤) في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه، فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دلالة

وأَنواع المعاصي على اختلافها .

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

لما ذكر جزاء الكافرين، ذكر جزاء المؤمنين، أهل الأعمال الصالحات، على طريقته تعالى في القرآن^(١)، يجمع بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد راغباً راهباً، خائفاً راجياً، فقال:

﴿وَبَشِّرِ﴾ أي: [يا أيها الرسول، ومن قام مقامه]^(٢) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة .

ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودينه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

فبشرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾، أي: بساتين جامعة من الأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، والأغصان والأفنان، وبذلك^(٣) صارت جنة، يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها .

﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتشرب^(٤) منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار .
﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا من جنسه، وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائماً متلذذون بأكلها .

وقوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قيل: متشابهاً في الاسم، مختلف الطعم^(٥)، وقيل: متشابهاً في اللون، مختلفاً في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا هو الصحيح^(٦) .

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهم بأكمل وصف وأجزه، وأوضحه، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فلم يقل: «مطهرة من العيب الفلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن، أنهن عُرِّبَ متحبيات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾
كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

والفعلي، ومظهر خلقهن من الحيض والنفاس والمنى، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات الستهن عن كل كلام قبيح .

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشِّر والمبشَّر، والمبشِّر به، والسبب الموصول لهذه البشارة، فالمبشِّر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشِّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصول لذلك، هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة، إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب .

(١) في ب: كما هي طريقته تعالى في كتابه . (٢) في أ: أي: يا محمد .
(٣) في ب: المديد ما صارت به الجنة . (٤) في ب: وتسقى . (٥) في ب: مختلفاً في الطعم . (٦) في ب: أحسن .

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى^(٢)، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسول الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا ييغون به بدلاً، فاقضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان، وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج عن الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الآية].

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه^(٣)؛ والذي بينهم وبين عباده^(٤)؛ الذي أكد عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا ءَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ وهذا يدخل في أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به، والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به، ومحبة، وتعزيره، والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب، والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق^(٥) التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون، فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق؛ وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون، فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معراضين عنها بالفسق والقطعية، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

ف ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: من هذه صفته ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح، شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفریطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ﴾، فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير، الذي [كان] العبد

وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتشيطهم على الأعمال بذكر جزائها [وثمراتها]، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرية عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم^(١).

(٢٦، ٢٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا ءَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا ءَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: أي مثل كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأن في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعتراض على الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فيفتهمونها، ويتفكرون فيها. فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضر بها عبثاً، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابعة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا ءَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون ويتحIRON، فيزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم.

ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة، وحيرة، [وضلالة]، وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة، [ورحمة]، وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

(١) في ب: نسأل الله من فضله. (٢) في ب: ثم ذكر حكمته وعدله في إضلال من يضل. (٣) في ب: وبين ربهم. (٤) في ب: الخلق. (٥) في ب: بحقوقهم.

بصدّد تحصيله وهو تحت إمكانه.

(٢٨) ثم قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله، الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال أجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون، فيجازيكم الجزاء الأوفى.

فإذا كنتم في تصرفه وتديبره وبرّه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيلق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة؟^(١) بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه، وتشكروه، وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه:

(٢٩) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: خلق لكم، برّاً بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع، والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة^(٢) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقّت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث؛ فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك.

ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَسْتَوَىٰ﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: ^(٣) فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها: الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عدت به «على»، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾^(٤)، ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عدت به «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فخلقها وأحكمها، وأتقنها، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ف ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَزُلْ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ و﴿يَعْلَمُ مَا تُسَبِّحُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَآخِثِي﴾.

وكثيراً ما يقرن بين خلقه للخلق، وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

(٣٠-٣٤) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا لَا نَعْلَمُ لَّا إِلَهَ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَّا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ هُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر^(٥)، أن الله - حين أراد خلقه - أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [ولهذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، ولهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المَجْعُول في الأرض سيحدث منه ذلك، فترهوا البارئ عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي: نطهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر.

فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، ولتظهر آياته لخلقهم، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم^(٦) من الخير والشر بالامتحان، وليبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه حجكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك.

(١) في ب: وسفه كبير، بل. (٢) في ب: الكريمة. (٣) لعل الصواب: معان، والله أعلم (الناسخ) (٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿أَلَمْ تَرَ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾. (٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله. (٦) في ب: المكلفين.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه ف ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصة والمصغر كالقصبة.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: عرض السميات ﴿عَلَى الْمَلَكِ﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟.

﴿فَقَالَ أَنِثُو بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ أي: نُزِّهَكَ عن الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿لَا عَلَّمَ لَنَا﴾ بوجه من الوجه ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه، ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة، التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا، واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترفهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحينئذ قال الله: ﴿يَقَادِمُ أَنِثُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أسماء السميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَقْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا، فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار، نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حينئذ عداوته لله، ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات: إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلماً، يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في

وَاذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
سُيِّحٌ بِمَحْمَدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ
فَقَالَ أَنِثُو بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا
سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
﴿٣٧﴾ قَالَ يَقَادِمُ أَنِثُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَقْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَذَقْنَا لِلْمَلَكَةِ أَسْجُدًا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
﴿٣٩﴾ وَقُلْنَا يَقَادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ ﴿٤١﴾
فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّاهُ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما جهلوا، وتبيينهم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته، بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له، لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداءً، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

(٣٦، ٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَقَادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ○ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ

لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه، بأن خلق منه زوجةً، ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة،

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتنال للأمر والاجتناب للنهي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقُّ﴾.

فرتب على اتباع هذه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، ففهما ممن اتبع هذه، وإذا انتفيا حصل ضدتهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء ممن اتبع هذه، وإذا انتفيا ثبت ضدتهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هذه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب.

وهذا عكس من لم يتبع هذه، فكفر به، وكذب بآياته ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها، ولا يفترون عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي. ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمة عليهم وإحسانه فقال:

(٤٠-٤٣) ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازَهُبُونَ ۝ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ۝ وَلَا تَلْسِنُوا أَلْسِنَ الْبَاطِلِ وَتَكُونُوا أَلْحَقَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسلي،

والأكل منها رغداً، أي: واسعاً هنيئاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: من أي أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة، الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء، [أو لحكمة غير معلومة لنا] ^(١) ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نهايا عنه، حتى أرلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه ﴿وَقَسَمَهُمَا﴾ بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فاعترأ به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجدد ويجتهد في ضرر عدوه وإبصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَرِيحَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، ﴿فَاتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهْمٍ لَّكُمْ عَدُوٌّ يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: مسكن وقرار ﴿وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم، ثم تتقلون منها للدار التي خلقتكم لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكنًا حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

(٣٧) ﴿فَلَقَدْ ءَادَمُ﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهمه الله ﴿مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾ وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية، فاعترف بذنبه، وسأل الله مغفرته ﴿فَاتَّابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ ورحمه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة، وعفا عنهم وصفح.

(٣٨، ٣٩) ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كرر الإهباط، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من رضائي

وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْسَوْا﴾ أي: تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا بِالْحَقِّ﴾ فهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل، وكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل، وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته، وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن ليس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وَأَتُوا زَكَاةَ﴾ مستحقيها ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعت بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

(٤٤) ﴿أَنذَرُوكَ النَّاسَ بِالْبَرِّ﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَسْئَلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَكُنْ أَوْ لَا تَقُولُونَ﴾ وأسمى^(١) العقل عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ

وإقامة شرعه، ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشيته، أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص، الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه.

وذكر الداعي لإيمانهم به فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب، غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً، فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به، كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه، فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أَوَّلَ كَاذِبِينَ﴾ أبلغ من قوله: (ولا تكفروا به)، لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها.

﴿وَلَيْتَى﴾ أي: لا غيري ﴿فَاتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ
هَذَا هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾
يَبْنَیْ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارْهُونُ ﴿٤٠﴾ وَعَامِنُوا إِنَّمَا أَنْزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
وَنَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ
﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَنْطُونَ أَنْهُمْ مَلْفُؤُونَ رَيْبَهُمْ وَأَنْهُمْ يَلِرُ جَعُونَ ﴿٤٦﴾
يَبْنَیْ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَقْنُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاعتادهم بالأفعال أبغ من اعتادهم بالأقوال المجردة.

(٤٥-٤٨) ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ○ الَّذِينَ يَنْطُونَ أَنْهُمْ مَلْفُؤُونَ رَيْبَهُمْ وَأَنْهُمْ يَلِرُ جَعُونَ ○ يَبْنَیْ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ○ وَأَقْنُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ○ أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنتهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة، لأن الخشوع، وخشية الله، ورجاء ما عنده، يوجب له فعلها، منشرحا صدره، لترقبه للشواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعو إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلا وافتقارا، وإيمانا به وبلقائه. ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يَنْطُونَ﴾ أي: يستيقنون ﴿أَنْهُمْ مَلْفُؤُونَ رَيْبَهُمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنْهُمْ يَلِرُ رَيْبَهُمْ﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، ومن لم يؤمن بقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

ثم كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظما لهم وتحذيرا وحثا.

وخوفهم بيوم القيامة الذي ﴿لَا تَجْزَى﴾ فيه، أي: لا تغني

﴿نَفْسٌ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ ولو كانت من العشرة الأقربين ﴿شَيْئًا﴾ لا كبيرا ولا صغيرا، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي: النفس، شفاعته لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسنة، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فداء ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفي الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه.

فقلوه: ﴿لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقل^(١) به النافع. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا نفى للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض كالعدل، أو بغيره كالشفاعة، فهذا يوجب للبدن أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع،

(١) في ب: المستقل.

وَأَذِّنْ لَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ
مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾ وَأَذِّنْ لَكُمْ الْبَحْرَ فَأَمَّا جَنِينُكُمْ
وَأَعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَذِّنْ لَكُمْ مُوسَى
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
﴿٥٣﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٤﴾
وَأَذِّنْ لَكُمْ مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٥﴾
وَأَذِّنْ لَكُمْ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
﴿٥٦﴾ وَأَذِّنْ لَكُمْ يُمُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْتَكُمْ الصَّعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال
وسعة الأرزاق فقال: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ
الْمَنَّاءَ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه
الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك، ﴿وَالسَّلْوَى﴾ طائر صغير
يقال له السمانى، طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن
والسلوى ما يكفيهم وبقيتهم ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي:
رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم يشكروا هذه
النعم، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن
الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين
﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيعود ضرره عليهم.

(٥٩، ٥٨) ﴿وَأَذِّنْ لَكُمْ أَنْزَلُوا مَنَؤُهُ الْقَبِيَّةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
رَغَدًا وَأَذِّنْ لَكُمْ الْبَابَ شَجَرًا وَفُتِلُوا جَهَنَّمَ لَكُمْ خَطِيئَتُكُمْ وَسَرَابِدُ
الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَسُّهُمْ فَتُفْسَدُونَ ﴿٥٩﴾ وهذا
أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية

وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار، فيعبده
وحده لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

(٤٩-٥٧) ﴿وَأَذِّنْ لَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ يَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ﴾ ○ وَأَذِّنْ لَكُمْ الْبَحْرَ فَأَمَّا جَنِينُكُمْ وَأَعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ○ وَأَذِّنْ لَكُمْ مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ○ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ○
وَأَذِّنْ لَكُمْ مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ○ وَأَذِّنْ لَكُمْ مُوسَى
لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى
بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ○ وَأَذِّنْ لَكُمْ يُمُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْتَكُمْ الصَّعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ○ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ○ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ
وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ﴾ هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه
التفصيل، فقال: ﴿وَأَذِّنْ لَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من
فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يَسُوءُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي:
يولونهم ويستعملونهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده بأن كانوا
﴿يَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ خشية نموكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: فلا
يقتلونهم، فأنتم بين قتل ومذل بالأعمال الشاقة، مستحيين
على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمن
الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر
أعينهم.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ أي: الإنجاء ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: إحسان ﴿مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام
بأوامره.

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليه
التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العظيمة، ثم إنهم
لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده،
أي: ذهابه.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم
الحجة، فهو أعظم جرماً وأكبر إثماً.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم
بعضاً، فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله.

﴿وَأَذِّنْ لَكُمْ يُمُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا
غاية الظلم والجراة على الله وعلى رسوله ﴿فَأَخَذْتَكُمْ
الصَّعِقَةَ﴾: إما الموت، أو الغشية العظيمة ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾
وقوع ذلك، كل ينظر إلى صاحبه.

سورة البقرة

٩

الجزء الأول

وَأَذِّنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ
اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَهُوسُفُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَافِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصِلَهَا قَالِ اسْتَبْدِلْ لَكَ الَّذِي هُوَ أَذْفُ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْيَظُوا وَصُرَّا فَإِنْ لَكُمْ مَسْأَلَةٌ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ
اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمُ الْحَقَّ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

المذكورة، ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المن والسلوى، فهذا غير
لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه
وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير
الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم
واحترارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم،
فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم
﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم
عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لم تكن غيبتهم التي رجعوا
بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبست الغنيمة
غنيبتهم، وبست الحالة حالتهم.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدلالات على الحق، الموضحة لهم، فلما كفروا
بها عاقبهم بغضبه عليهم، ﴿وَلَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾
الْحَقَّ

وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن

تكون لهم عزًا ووطنًا ومسكنًا، ويحصل لهم فيها الرزق
الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل،
وهو دخول الباب ﴿سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين ذليلين، وبالقول،
وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةً﴾ أي: أن يحط عنهم خطاياهم
بسؤالهم إياه مغفرته.

﴿نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجلاً وأجلاً.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم، ولم يقل: فبدلوا لأنهم لم
يكونوا كلهم بدلو ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل
حِطَّةً: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله، واستهزاء، وإذا بدلو
القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا
دخلوا يزحفون على أديبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر
سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾
منهم ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذاباً ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ
كَلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ،
﴿اسْتَسْقَى﴾ أي: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم
جنس، ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقبائل بني إسرائيل
اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ منهم ﴿مَشْرِبَهُمْ﴾

أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم
بعضهم بعضاً، بل يشربونه متعنين لا متكدرين، ولهذا قال:
﴿كَلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا
تعب ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَهُوسُفُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَافِهَا وَفُومِهَا وَعَدْسِهَا
وَبَصِلَهَا قَالِ اسْتَبْدِلْ لَكَ الَّذِي هُوَ أَذْفُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْيَظُوا
وَصُرَّا فَإِنْ لَكُمْ مَسْأَلَةٌ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمُ الْحَقَّ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي:

واذكروا، إذ قلتم لموسى على وجه التمثل لنعم الله والاحتقار
لها: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي: جنس من الطعام، وإن
كان كما تقدم أنواعاً لكنها لا تتغير ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا
تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على
ساقه، ﴿وَقِشَافِهَا﴾ وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي: ثومها والعدس
والبصل معروف.

قال لهم موسى: ﴿اسْتَبْدِلْ لَكَ الَّذِي هُوَ أَذْفُ﴾ وهو الأطعمة

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٠

الْمَائِدَاتِ

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ
 مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
 أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
 بِقُوَّةٍ وَآذَرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
 فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَبَعَلْنَا أَسْوَكَائِهِمْ
 بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَاحَقْنَاهُمْ وَمَوْعِظَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا
 هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْبَاطِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا
 ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَافِرِصٌ
 وَلَا يَكُرُّ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ
 لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
 إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم.

وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء.

وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه.

ولما كان أيضاً، ذكر بني إسرائيل خاصة يوم الاختصاص بهم، ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويحول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يهر عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم: ﴿وَأِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا

قتل النبي لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وَكَاؤُوا يَمْتَدُّونَ﴾ على عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لفوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تفرقت عندهم، ما يبين به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم - مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم - فكيف الظن بالمخاطبين؟!

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمل به بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمل به الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للمعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

(٦٢) ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة؛ لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى، والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدقوا رسوله، فإن لهم الأجر العظيم، والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.

حين قتلتم قتيلًا، وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلقتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم، وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أَنُذِخُوا هَذَاهُ﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس.

وأما العاقل، فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزائه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده، فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا:

﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما سنهنا؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ﴾ أي: كبيرة ﴿وَلَا يَكْرُ﴾ أي: صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ واتركوا التشديد والتعنت. ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْ هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي: شديد ﴿تَشْرُ الْأُظْطَرِينَ﴾ من حسنها.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ فلم نهتد إلى ما تريد ﴿وَأِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولَ﴾ أي: مذلة بالعمل، ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ بالحرارة، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مُسْلَمَةً﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ النَّاسُ جُنْدًا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالبيان الواضح، ولهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشد الله عليهم، ولو لم يقولوا: «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضًا إليها. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم: اضربوا القاتل ببعضها، أي: بعضو منها، إما بعضو معين، أو أي عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضربوه ببعضها فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء الله الموتى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتزجرون عن ما يضركم.

(١) كذا في ب، وفي أ: برفع الطور فوقكم.

ءَاتَيْنَاكُمْ يَقُوَّةً وَآذَكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ○ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ○ أي: واذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم^(١)، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التوراة ﴿يَقُوَّةً﴾ أي: بجد واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَآذَكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتابكم، بأن تتلوه وتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البالغ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم، وكان ذلك موجبًا لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

(٦٥، ٦٦) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا ذِرَّةً خَسِيرًا ○ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولقد تقرر عنكم حالة ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْفَرَكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآيات.

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم، وجعلهم ﴿ذِرَّةً خَسِيرًا﴾ حقيرين ذليلين.

وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم، ﴿وَمَا خَلَقَهَا﴾ أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

(٦٧-٧٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنُذِخُوا هَذَاهُ قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ○ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ○ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْ هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَشْرُ الْأُظْطَرِينَ ○ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ○ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسْلَمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا اتَّخَذَ النَّاسُ جُنْدًا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالبيان الواضح، ولهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشد الله عليهم، ولو لم يقولوا: «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضًا إليها. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعيم العظيمة، وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده.

ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل».

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَخَرَّجُ مِنْهُ الْآنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَى فَيْخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم.

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثنا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه - وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه - تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، فإذا كان مرتبتها أن تكون مشكوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به، والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

(٧٨-٧٥) ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ○ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا اتخذواهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ○ أولاً يعلمون أن الله يعلم ما يأمرون وما يأمرون ○ وممنهم من لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ○ هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم، وحالتهم ^(١) لا تقتضي الطمع فيهم،

فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أَرادها الله، ليوهما الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يروونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجي منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولاً بالسنتهم، ما ليس في قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: ﴿اتَّخَذُواهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنظفرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكيم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟

يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقل، فتتكون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض.

مخالفة في الحق الذي يقوله.

وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة كالرافضة، وتفصيلاً مثل كثير من المتسبين إلى الفقهاء.

(٨٠-٨٢) ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ الْكَافِرُ إِلَّا أَمْسَاً مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلْ كُلٌّ مِّنْ كَيْدِ سَكِينَةٍ وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِئْتُمْ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْكَافِرِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر - مع هذا - أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن.

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما:

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم.

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً، لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولتكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات.

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانيتهم ودعوايهم بصفة الهالكين والناجين، فقال: ﴿بَلَى﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿مَنْ كَسَبَ سَكِينَةً﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به - هنا - الشرك، بدليل قوله: ﴿وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِئْتُمْ﴾ أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته.

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْكَافِرِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُوتُ وَمَا يُغْلَبُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلمهم، فيظهر لعباده ما أنتم عليه.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُونَ﴾ أي: عوام، ليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم، وعوامهم، ومناقبيهم، ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم في الطافتين.

(٧٩) ﴿قَوْلِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ يَأْتِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ والدنيا كلها - من أولها إلى آخرها - ثمن قليل، ففعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين:

من جهة تلبس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَنفَتَمُونَ﴾ إلى ﴿يَكْتُمُونَ﴾ فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة.

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانياً، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده، مخالفاً لكتاب الله، لينال به دنيا، وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كنم ما عنده من الكتاب والسنة، لثلا يحتج به

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ
وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَءَ بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّكَارُ إِلَّا آتِيَانَا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ثُمَّ تَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِآثَرِهِ حَسَنٌ﴾.

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله، ورجاء لثوابه. ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ المواثيق عليكم ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ هذا استثناء، لثلا يوهم

تري، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعا بها سنة رسوله، فحاصل هاتين الآيتين، أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به.

(٨٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتغالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَأَعِيدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ مَبِغًا﴾ إلى آخر الآية.

فقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا، فلا يقبلونه إلا بالآيمان الغليظة والعهود الموثقة.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعل، مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده.

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما تقدم.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون

وَأَذِّنَا مِثْقَلَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ﴿٨٤﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
 إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ
 بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
 بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
 قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

من الأوقات «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» أي: يدفع عنهم مكروهه.
 ﴿٨٧﴾ «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
 وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ»
 يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى،
 وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون
 بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام،
 وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
 الْقُدُسِ» أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه
 الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم «بِمَا لَا
 تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ» عن الإيمان بهم «فَرِيقًا» منهم
 «كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ» فقدتم الهوى على الهدى، وآثرتم
 الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم، عصمهم الله وثبتهم.
 ﴿٨٤﴾ «وَأَذِّنَا مِثْقَلَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا
 تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ» ثُمَّ أَنْتُمْ
 هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ
 تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُهُمْ وَهُوَ
 مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ
 عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه
 الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن
 الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ
 مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم
 الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو
 قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا
 إذا اقتتلوا، أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم^(١)
 الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه
 من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب
 أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم
 بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن
 لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا
 وجدوا أسيراً منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالآخر
 وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: «أَفَتُؤْمِنُونَ
 بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَهُوَ فِدَاءُ الْأَسِيرِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» وهو
 القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر،
 واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى:
 «فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»
 وقد وقع ذلك، فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من
 قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
 يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ» أي: أعظمه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ».

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض
 الكتاب، والإيمان ببعضه، فقال: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ» توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم
 عار، فاختاروا النار على العار، فلماذا قال: «فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ
 الْعَذَابُ» بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ يَسْكَمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفَّنَا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

على جميع رسل الله .

وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُقْرَفُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ﴾ .

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردا شافيا، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات، والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به - بعد ذلك - كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله .

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافقا له في كل ما دل عليه من الحق ومهمنا عليه، فلم يؤمنوا بما أنزل عليكم، وتكفروا بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب، واتباع للهوى لا للهدى؟ وأيضا فإن كون القرآن مصدقا لما معهم، يقتضي أنه

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع .

(٨٨) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني، فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم، فقليلًا المؤمن منهم، أو قليلًا إيمانهم، وكفرهم هو الكثير .

(٨٩، ٩٠) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ يَسْكَمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق، وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به، وتيقنوه حتى إنهم كانوا إذا وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا، كفروا به بغيًا وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضبًا بعد غضب، لكثرة كفرهم، وتوالي شكهم وشركهم .

ولههم في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: مؤلم موجه، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فيفسد الحال حالهم، وبش ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به، ويكتبه وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم .

(٩١-٩٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفَّنَا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۖ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله، وهو القرآن، استكبروا وعتوا، ﴿قَالُوا تَوْفَّنَا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقًا، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۖ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مِنَ كَاتِبِ عُدْوَانِ لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدًا وَعَاهِدًا أَبَدَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو تمنى الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا من ذلك. فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحاداة لله ولرسوله، مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة. فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب.

ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا، فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المحالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور، لم يغن عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من العذاب شيئاً. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

(١) في ب: وشرها.

حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمرتلة من ادعى دعوى بحجة وبينه، ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته، ثم يأتي هو لبينته وحجته، فيقدح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن، كفراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلَمْ تَقُولُوا أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالادلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ اخَذْتُمُ الْيَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد مجيئه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة واستجابة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها^(١) بسبب كفرهم.

﴿قُلْ يَسْكَنُ يَأْتُرْكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله، لما غاب عنكم موسى نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمت بالقول، ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيت، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان، والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

(٩٤-٩٦) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۚ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۖ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا

مِنْهُمْ مَا يُعْرَفُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَرُجُوعِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا يَصْرِفُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لَعَثَابَةَ نَارٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٦ أَي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ﴿بَيِّنَةٌ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ﴾ الذي أنزل إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ﴾ وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين، وهم يعلمون صدقه، وحقية (٢) ما جاء به.

تبيين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفراً بكتابهم من حيث لا يشعرون.

ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم يتفق ماله في طاعة الله، أفنقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين وتخلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم.

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بذلك.

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاسَ لَبِئْسَ النَّاسُ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر.

﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى﴾ ينصحا، و ﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فَتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهياه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبه، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه

(١) في ب: التعجب. (٢) في ب: وحقية.

(٩٧، ٩٨) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٥ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٦﴾ أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعتهم من الإيمان أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل القرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدقاً لما تقدمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض، وفي الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته، وعداوة الله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق، على رسل الله، فيضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ يقول لنبينا ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

(١٠٠) ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَهِدُوا عَهْدًا نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا فيه التعجب (١) من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها.

ف﴿كَلِمَاتٍ﴾ تفيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض. ما السبب في ذلك؟.

السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم، لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

(١٠١-١٠٢) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَؤُلَاءِ هُمُومٌ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فَتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ

وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة.

﴿فَإِذَا زُلْزِلَ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر، ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدريّة في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دنيوية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها؛ كما أن المأمورات، إما مصلحة محضة، أو خيرها أكثر من شرها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه.

(١٠٥، ١٠٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رَاعِنَا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصّدون

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

بها معنى صحيحاً.

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدا لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائر، إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب، واستعمال الألفاظ التي لا تحتل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتل إلا الحسن، فقال: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور.

﴿وَاسْمَعُوا﴾ لم يذكر المسموع، ليعم ما أمر باستماعه، فدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة، لفظاً ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة.

ثم توعّد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجه، وأخبر عن عداوة اليهود والمشرّكين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حسداً منهم، وبعضاً لكم أن يختصكم بفضله، فإنه ﴿ذُو

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾.

ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

﴿١٠٧، ١٠٦﴾ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

النسخ، هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه وكان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ ﴿١٠٧﴾ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴿١٠٦﴾ أي: ننسها العباد، فنزلها من قلوبهم ﴿١٠٦﴾ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴿١٠٧﴾ وأنفع لكم ﴿١٠٦﴾ (أَوْ مِثْلَهَا) ﴿١٠٧﴾. فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد، خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح في النسخ، فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿١٠٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٠٦﴾ فإذا كان مالكا لكم، متصرفا فيكم، تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهي، فكما أنه لا حرج عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام.

فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟ وهو أيضاً، ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم. ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم، من حيث لا يشعرون بلفظه.

﴿١٠٨-١١٠﴾ ﴿١٠٨﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا ۚ وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٩﴾

يُنْهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ الْيَهُودَ، بَأَن

﴿١٠٦﴾ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴿١٠٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٨﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٩﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١٠﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا ۚ وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١١﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٤﴾

يسألوا رسولهم: ﴿١٠٨﴾ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴿١٠٩﴾ والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا إِنْ رَأَى اللَّهُ جَهْرَةَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلْ لَكُمْ شَيْئًا﴾ فلهذا ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وبقهرهم ^(١) عليه، كما في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ﴾، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾

يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد، إلى أن بعضهم ضلَّ بعضاً، وكفَّر بعضهم بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلُّ الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه ^(١) لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدَّق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتلأ أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَمَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وَسَمَىٰ﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقديرها، والخراب المعنوي، منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخرجوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة، فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا، حتى أذن الله له في فتح مكة، ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتِمَامَ الْمُنَافَرَاتِ بِحَسْرَةٍ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَكَذَا﴾.

وأصحاب الفيل قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى سلب الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه. وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها البارئ قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد، لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانًا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة

وسعوا في ذلك، وأعملوا المكاييد، وكيدهم راجع عليهم، [كما] قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجِئَ النَّهَارَ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم، والصفح، حتى يأتي الله بأمره.

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفُس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم أمرهم [الله] بالاستغفار في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدون عنده وافرًا موفرًا قد حفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١١٢، ١١١) ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ ءَامَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَن أَشْهَرُ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَكَفَرُوا بِآيَاتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أمانى غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا، فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان، لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، عُلم كذبهم بتلك الدعوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس بأمانيتكم ودعاويكم، ولكن ﴿مَن أَشْهَرُ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهًا إليه بقلبه ﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم، فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

وفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٨

الْبَقَرَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكُتُبَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِيَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾ أَي: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ خَصَّهْمَا بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريبها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يبتين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسَّعَ عَلَيْهِ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليهم بسرايركم ونياتكم فمن سعته وعلمه، وسَّعَ لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ يَقْنُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تقصصهم إياه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتربه نقص بوجه من الوجوه.

ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده،

الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذُنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

(١١٥) ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسَّعَ عَلَيْهِ﴾ أي: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ خَصَّهْمَا بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريبها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يبتين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسَّعَ عَلَيْهِ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليهم بسرايركم ونياتكم فمن سعته وعلمه، وسَّعَ لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ يَقْنُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تقصصهم إياه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتربه نقص بوجه من الوجوه.

ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده،

مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولداً؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام، وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص، وهو قنوت العبادة، فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

ثم قال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على وجه قد أنقهما وأحسهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يستعصى عليه، ولا يتمتع منه.

(١١٨، ١١٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي: قال الجهلة من

دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بَشِيرًا﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿نَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْحَجِيرِ﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

(١٢٠) ﴿وَلَوْ رَضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبْعِيَ يَأْمُرُكَ اللَّهُ هَٰذَا هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الذي أرسلت به ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

وأما ما أنتم عليه، فهو الهوى بدليل قوله: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يخص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ثم قال:

(١٢١-١٢٣) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ ۖ يَبْنِي ۖ يَسْمَعُونَ ۖ يَذْكُرُونَ ۖ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ۖ وَأَنفَقُوا ۖ يَوْمًا لَا يَجْرَىٰ تَنَسُّسٌ ۚ عَنِ النَّفْسِ ۖ سَيِّئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ ۖ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب، ومنهم عليهم به منة مطلقة أنهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنُكْفِرُكُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

(١٢٤، ١٢٥) ﴿وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي

أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا كما كلم الرسل ﴿أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةً﴾ يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَآلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ٱلْآيَةِ﴾.

وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۖ أَوْ يُنْفِلَ إِلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ٱلْآيَاتِ، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾.

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهدية ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ والثالث دخل في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقروا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمجد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله.

وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهدية قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسر أحواله عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر

الْبَقَرَةُ

١٩

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٤﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٥﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنِيسَ الْمَصِيرِ ﴿١٣٠﴾

ولا يقضون منه وطراً ﴿١٢٧﴾ جعله ﴿١٢٨﴾ آمناً ﴿١٢٩﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونهم أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمة وتعظيماً، وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن، مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا: ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً، فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة، ورمي الجمار، والتحر، وغير ذلك من أفعال الحج.

فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، أي: أوحينا

جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طواف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتنحه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، ويخلص ذنبه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد وهذه - لعمر الله - أفضل درجة، تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته، لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته، ونصحه لعباد الله، ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آله الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمال السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة. فأين الظلم وهذا المقام؟.

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو: هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حائطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه،

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٢٠

الْبَقَرَةِ

وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ أَلْقَاعَهُ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ اللَّهَ اخْطَبَاكُمْ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَتُؤْتُونَ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تُسَلِّمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَاللَّهِ أَبَايَكَ إِذْ رَفَعَهُ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتٍ وَحَدَّائِحُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد: ما هو أعم من ذلك، وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليباً عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح.

ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعتره التقصير، ويحتاج إلى التوبة، قالوا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهم، وليقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ لفظاً، وحفظاً، وتحفيظاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ معنى.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبري من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفوس^(٢) معها.

(١) في ب: يجعل. (٢) في ب: النفس.

إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجز والنجاسات والأقذار، ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه ﴿وَالْمُكِنِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ أي: المصلين.

قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد [الحرام]، ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى، وأضاف الباري البيت إليه لفوائد، منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك. ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكرمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه. (١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي شَأْنِهِ الْمُكِيدُ﴾ أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله بلداً آمناً، ويرزق أهله من أنواع الثمرات. ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأديباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق، وقيد بالمومن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيمتنع فيها قليلاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي: أجنه وأخرجه مكرهاً ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي شَأْنِهِ الْمُكِيدُ﴾.

(١٢٧-١٢٩) ﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ أَلْقَاعَهُ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ○ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ○ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما - مع هذا العمل - دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل^(١) فيه النفع العميم.

ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لاتباع الجوارح. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علِّمناها على وجه الإراءة والمشااهدة، ليكون أبلغ، يحتمل أن يكون المراد بالمناسك:

حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: مقدماته وأسبابه، فقال لبيه على وجه الاختبار، ولتقرّ عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ ؟ فأجابوه بما قرّت به عينه، فقالوا: ﴿تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ فلا نشرك به شيئاً، ولا نعدّل به أحداً ﴿وَنَحْنُ لَكُم مَّسْلُومُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ خَلَتْ أَيْ: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله، لا يؤخذ^(١) أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعائكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟.

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا كُنُوزُنَا هُوَ أَوْ نَصْرُنَا تَمْتَدُّوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال ﴿قُلْ﴾^(٢) له مجيباً جواباً شافياً: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، قائماً بالتوحيد، تاركاً للشرك والتنديد فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

(١٣٦) ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَيَسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَكُم مَّسْلُومُونَ﴾ هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو - بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان، وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾ أي: بالسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء،

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبِعِزَّتِكَ وحُكْمَتِكَ، ابعث فيهم هذا الرسول.

فاستجاب الله لهما، فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ».

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم، وأخبر عن صفاته الكاملة، قال تعالى:

(١٣٠-١٣٤) ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ○ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ○ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ○ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَكُم مَّسْلُومُونَ ○ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ خَلَتْ لَكُمُ الْمَآثِرُ مَا كَسَبَتْ وَكُلُّكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ما يرغب ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بعدما عرف من فضله ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: جهلها وامتنعها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون كما أنه لا أرشد وأكمل ممن رغب في ملة إبراهيم.

ثم أخبر عن حاله في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه ووقفناه للأعمال، التي صار بها من المصطفين الأخيار ﴿وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ﴾ امتثالاً لربه: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إخلاصاً وتوحيداً، ومحبة، وإنابة، فكان التوحيد لله نعته.

ثم ورثه في ذريته، ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه.

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء، قال: ﴿يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي: اختاره وتخير لكم رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به، واتصفوا بسرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي:

(١) في ب: لا يؤخذ. (٢) في ب: قال له.

الْأَنْبِيَاءُ

٢١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
 أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
 مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
 فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن لَّا تُولُوا فَإِنَّمَا
 هُم فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 ﴿١٣٧﴾ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
 عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
 وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
 نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَوْ اللَّهُ
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَفِلٍ غَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول
 الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل
 وخصوصاً محمداً ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا
 رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ دلالة على أن
 عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية
 والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك
 والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب
 والشرائع، وفيه أن الأنبياء مبلّغون عن الله، ووسائط بين الله
 وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته
 لعباده، أن ينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا
 تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين
 الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد
 معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا للخير، ولا ينهون
 إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر، ويشهد له

فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول
 الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن
 كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيراً معه أصل الإيمان، لكن
 فرق بين القول المجرد، والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قُولُوا﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدق
 بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل، منسوباً
 إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام
 بحبل الله جميعاً، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم
 واحداً، وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه
 أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلخ، دلالة على جواز إضافة
 الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب
 ذلك، بخلاف قوله: «أنا مؤمن» ونحوه، فإنه لا يقال إلا
 مقروناً بالاستثناء بالمشيئة، لما فيه من تركية النفس، والشهادة
 على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه موجود واحد أحد، متصف
 بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده
 بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من
 الوجوه.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ
 اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فدخل فيه الإيمان بما تضمنته
 كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله،
 واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما
 تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء
 وغير ذلك.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع
 الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً،
 وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرفهم، وإلتئانهم بالشرائع
 الكبار، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم
 على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب
 الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: بل تؤمن بهم كلهم،
 هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه
 على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم
 يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون
 بغيره، فيفرون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به،

العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، كفاك الله شرم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحَوُّنُكُمْ عِيدُونَ﴾ أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم.

فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجيب المتقرر للعقول الزكية -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده.

فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة عيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده.

ففسه بعبد كفر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة: من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصنع بغير دينه.

وفي قوله: ﴿وَتَحَوُّنُكُمْ عِيدُونَ﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة؛ لأن «العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال، والأقوال

بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

ولهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿وَتَحَوُّنُكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿لَكُمْ﴾ على العامل، وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل، بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة. فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

(١٣٧) ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَسْتَكْبِرُكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: فإن آمن أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ﴾ - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولئ: خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ للصرط المستقيم، الموصل لجنت النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه.

والهدى هو العلم بالحق، والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله، أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات،

(١) كذا في ب، وفي أ: من صبغه.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِوَ اللَّهِ مَن أَتَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ﴾. ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنة الله عليها، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فاطراف داخلية تحت الخطر.

فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات لليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج. بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلدين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة نحو سنة ونصف؛ لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة.

فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسألهم وأخبر بوقوعه وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالى باعتراض السفه، ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقد كان في قوله: «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم، وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى - مع هذا - لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ مَجِيئًا﴾: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله، حسداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمطلق يحمل على المقيّد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتهما حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب

الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مدير، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول، وأما من انقلب ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وأعرض عن الحق، واتبع هواه، فإنه يزداد كفرًا إلى كفره، وحيرةً إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ أي: صرفك عنها ﴿لَكِبَرَةٍ﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي هَدَىٰ اللَّهُ﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركنًا من أركان الإسلام، وهادمًا للذنوب والآثام، فلماذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هو من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيعه، وحفظه نعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزبل له، ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم، بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر. بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها، تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم.

وكان في هذا احترازًا عما يقال: إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قد يكون سببًا لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي

من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [كاملين] ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول، فهو مقبول، وما شهدت له بالرد، فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟

قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكَّ شكٌّ في فضلها، وطلب مزكِّيًّا لها، فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ، فلماذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهاد الأنبياء بهذه الأمة وزكاها نبيا.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطًا إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لَنَكُونُوا﴾ ^(١) شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

(١٤٣) يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبَرَةً إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي هَدَىٰ اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلّق عليه ثواباً ولا عقاباً، لتمام عدله، وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها

(١) في الأصل: ولتكونوا.

ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمداً وعدواناً، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين، لا عن جهل.

فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي: بكل برهان ودليل، يوضح قولك، وبين ما تدعو إليه ﴿مَا تَبِعُوا قَوْلَكَ﴾ أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبلية دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلية، وإنما كان الأمر كذلك، لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد ويتنفع بها من يتطلب الحق، وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق، فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلية بعض، فليس بغريب منهم - مع ذلك - أن لا يتبعوا قبلك يا محمداً! وهم الأعداء حقيقة الحسدة، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَارِكِهِمْ﴾ أبلغ من قوله: ولا تتبع؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ انصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: ﴿ولو أتوا بكل آية﴾ لأنهم لا دليل لهم على قولهم.

وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إنما قال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية^(١) نفس، حتى هم - في قلوبهم - يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى لا محالة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوًى﴾.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ مَا جَاءَكَ مِنْ أَمْرِ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿لَوْنِ أَفْئِدَتِهِمْ﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأثر الباطل على الحق، وهذا، وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخلية في ذلك، وأيضاً، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته^(٢)، فغيره من باب أولى وأحرى.

(١٤٦، ١٤٧) ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾

ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

(١٤٤) ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوِيتَكَ قِبَلَهُ رَضْنَهَا قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهِكَ﴾ ولم يقل: «بصرك» لزيادة اهتمامه، ولأن قلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فَلَوِيتَكَ﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك ﴿قِبَلَهُ رَضْنَهَا﴾ أي: تحبها، وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة، للصلوات كلها، فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

ولما ذكر تعالى - فيما تقدم - المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبغياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يخمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلماذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

(١٤٥) ﴿وَلَيْنِ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قَوْلَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَارِكِهِمْ وَمَا يَتَّبِعُهُمْ بِتَارِكٍ قِبَلَهُ بَعْضُ وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَمْرِ﴾ أي: بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

الَّذِينَ اتَّيْنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
 فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومٌ لِّهَا
 فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
 وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمْ نَفَعْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
 يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا فِي
 آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا إِلَيَّ وَلَا تَكْفُرُوا ﴿١٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في
 الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات،
 فالسابقون أعلى الخلق درجة.

والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة
 وصيام وزكوات^(١) وحج وعمرة، وجهاد، ونفع متعد وقاصر.
 ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير
 وينشطها، ما رتب الله عليها من الثواب، قال: ﴿إِنَّ مَا تَكُونُوا
 يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم
 القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿يَجْزِي الَّذِينَ اسْتَوُوا يَسًا
 عَمَلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾.

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف
 بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء
 الذمة: من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة،
 والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من
 آية!!

(١) في ب: وزكاة.

كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ..

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن
 محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك
 كما تيقنوا آباءهم بحيث لا يشتبهون عليهم غيرهم، فمعرفتهم
 بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون.

لكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا
 هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
 شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وفي ضمن ذلك تسلية للرسول
 والمؤمنين، وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم
 يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن [به]، ومنهم من
 كفر [به] جهلاً.

فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه
 من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه
 عن الحق، وتشيينه وتقييحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك،
 فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى
 حقاً من كل شيء؛ لما اشتمل عليه من المطالب العالية
 والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل
 مصالحها، ودفع مفسادها، لصدوره من ربك، الذي من
 جملة تربيته لك، أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية
 العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك
 وريبة فيه، بل تفكر فيه، وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين،
 لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومٌ لِّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا
 يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: كل أهل
 دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في
 استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة
 والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن
 الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله، والتقرب إليه، وطلب
 الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو
 الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا
 والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة،
 ولهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له
 الخلق، وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل
 الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها،

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ﴾ والأمة عموماً في قوله: ﴿قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ﴾.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهةً شبهةً، كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتُمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: ﴿وَلَا تَمْنَى عَلَيْكُمْ﴾ فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

فله الحمد على فضله، الذي لا نبغ له عدواً، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿وَلَمَّا تَهْتَدْتُمْ﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فله تبارك وتعالى - من رحمته بالعباد - قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين.

حتى إن من جملة ذلك أنه يقبض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تبين الأشياء، فلولو الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القسيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فله الحمد على ذلك.

(١٥٢، ١٥١) ﴿كَأَنَّا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَا لَمْ

(١٤٩، ١٥٠) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَيْنَ يَدَيْكَ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَىٰ عَلَيْكُمْ وَلَمَّا تَهْتَدْتُمْ ۝ أَي: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم، ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: جهته، ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أكد به - إن - واللام، لثلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولثلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقال هنا: ﴿إِلَّا بَيْنَ يَدَيْكَ لِلنَّاسِ حُجَّةٌ﴾ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلاً بيت المقدس، لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال الكعبة^(١) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه، إلا من ظلم منهم أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فللهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، ولهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٢) كل خير، فمن لم يخش الله، لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب، والمنافقون، والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فللهذا بسطها الله تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

بالقلب إقرارًا بالنعم واعتراقًا، وباللسان ذكرًا وثناء، وبالجوارح طاعة لله وانقيادًا لأمره، واجتنابًا لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية: من العلم وتركية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده، فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾ المراد بالكفر هنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، وعدم القيام بها. ويحتمل أن يكون المعنى عامًا، فيكون الكفر أنواعًا كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي، على اختلاف أنواعها وأجناسها، من الشرك فما دونه.

(١٥٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها.

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجزع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئًا، وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق، خصوصًا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ويوجد مقتضاها - وهو التسخط - إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلماذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفةً، وملكةً - بمعونته وتوقيفه وتسديده -، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره،

تَكُونُوا تَقْلِبُونَ ○ فَأَذْكُرُوا أَنذَرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع، والنعم المتممة، ليس ذلك بيد من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسلنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه.

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولًا على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني.

﴿وَرَبِّكُمْ﴾ أي: يظهر أخلاقكم ونفوسكم، بربوبيته على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتركيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادة، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿وَعَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها، فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلًا في تعليم الكتاب؛ لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعتبر عنه.

﴿وَعَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها.

فلماذا قال تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا أَنذَرَكُمْ﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضلها ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه، وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلماذا أمر به خصوصًا، ثم من بعده أمر بالشكر عمومًا، فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون

والرزق الروحي، وهو الفرح، والاستبشار^(٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية، أكمل من الحياة الدنيا. بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور^(٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله، وملازمة الصبر عليه.

فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب، لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم. لِمَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ: ﴿أَشْرَىٰ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

فوالله! لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء - بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه - إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة. وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

(١٥٥-١٥٧) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يتلي عباد بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عبادته؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر.

هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيتلي عبادته ﴿بَشِّرِ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاه بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال: من جوائح سماوية، وغرق، وضياح، وأخذ الظلمة للأموال: من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق، وغير ذلك. ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب: من الأولاد،

وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه [منقبة عظيمة]^(١) للصابرين.

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرقاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسر، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه - لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور^(٢)، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمشقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمتها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا غير ذلك من الأغراض، فإنه لم تقتض الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۚ وَلَسْتَ تَرَوُ الْبَالِدِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فهو أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة،

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: الأحوال. (٣) في ب: وهو الاستبشار. (٤) في ب: طير.

وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين، وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين!! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطئ النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

(١٥٨) ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ آلَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره، فقال: ﴿وَمَن يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية، وفعله النبي ﷺ وقال: «خذوا عني مناسككم».

﴿فَمَنْ حَجَّ آلَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يطوع بالسعي مفردًا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة، ولهذا منه.

وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خَيْرًا﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير

والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَاللَّزْرَى﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر يبرّد أو يبرّد، أو حرق، أو آفة سماوية: من جراد^(١) ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب - وهو وجود هذه المصيبة - وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتنال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له [السخط الدال على شدة النقصان].

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط قولاً وفعلًا، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيُخَيِّرُ الصَّابِرِينَ﴾ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبخشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكنا وأموالهم، فلا اعتراض عليه؛ بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك.

﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصبر.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ﴾ ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به،

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش، وفي أ: جند.

ذَلِكَ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهِ﴾ فدلَّ هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقيد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالمًا بعدم مشروعية العمل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامثل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الأجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

(١٥٩-١٦٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ هذه الآية، وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتوموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق المظاهرات له ﴿وَالْهُدَى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتمونه، فمن نبد ذلك وجمع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٩﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦١﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَارِ اللَّهِ فَمَن حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٦﴾

اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله. فالكاتم لما أنزل الله مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، ولهذا يطمسها ويعميها^(١) فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاغاً، وعزماً على عدم المعاودة، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن. ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التَّوَّابُ﴾ أي: الرجاء على عباده بالعتو والصفح، بعد الذنب

(١) في ب: وهذا يسعى في طمسها وإخفائها.

إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا.

﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة، فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قُبِلَ ذلك منهم لطفًا وكرمًا، لهذا حكم النائب من الذنب.

وأما من كفر، واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه، ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفًا ثابتًا، صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، أو في العذاب، والمعنيان^(١) متلازمان.

﴿لَا يَغْفِرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿وَلَا هُمْ يُظْهَرُونَ﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال - وهو الدنيا - قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

(١٦٣) ﴿وَاللَّهُكَرُّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يخبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفؤ، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤلَّه ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمَّت كل حي.

فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عُرِفَ عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبَيَّنَ لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحدًا من المخلوقين لا ينفع أحدًا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف، والرجاء والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق^(٢) من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقديرها

بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

(١٦٤) ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْغُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَثَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَلَغَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه، ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، يتتبع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي ﴿خَلْقِ السَّمَكَاتِ﴾ في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها وإقنائها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد، وفي خلق ﴿الْأَرْضِ﴾ مهادًا للخلق يمكنهم القرار عليها، والانتفاع بما عليها، والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم.

وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده.

﴿و﴾ في ﴿أَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت^(٣)، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير تنبَّهَرُ له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرِّفها، وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤلَّه ويُعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

(١) في ب: وهما متلازمان. (٢) في ب: المخلوقين. (٣) جرى الشيخ في جمع نبات على نوابت، وذلك في مواضع متعددة، ولعل الصواب (نباتات).

في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها. ﴿١٦٥﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلتقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنوابت، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإناة وعبادة؟.

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض - على خفته ولطافته - يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزل على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرت، أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفًا، ويصرفه عناية وعطفًا، فما أعظم سلطانه، وأغزر إحسانه، وألطف امتنانه!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببره، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره، وعفوه وصفحه، وعيم لطفه؟ فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

(١٦٥-١٦٧) ثم قال تعالى: ﴿وَيَرْسِلُ السَّيْلَ مَن يَخْجُدُ مِنَ دُونِ اللَّهِ أَلَدًا لَّيُجِزَّهُمْ كَحَسْبِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْزَقُونَ أَفْذَابًا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ○ إِذْ تَسَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ○ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُ فَنَنْبَرُوا مَعَهُمْ كَمَا تَنَبَّأُوا أَنَّ كَذَلِكَ يُرْسِلُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا

﴿١٦٦﴾ في ﴿أَلَّا تَكُنْ لَكَ الْبَحْرُ فِي الْبَحْرِ﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم، فمن الذي ألهمهم صنعها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر، تجري فيه بآذنه وتسخره، والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية، النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه، لا علم له ولا قدرة؟ ثم خلق له ربه القدرة، وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ وهو المطر النازل من السحاب ﴿فَأَخْبَا بِهِنَّ الْأَرْضُ بِمَدِّ مَوْتِهَا﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟.

﴿وَيَكُنْ فِيهَا أَيْ: فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

فمتها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة

(١) في ب: ومنها أنه بث فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَدْرِي لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٥﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٦﴾
إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا
لَنَّا كَرِهَ فَنَتَّبِعَ آيَاتَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ
أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾
يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّ أُمَّةٍ مِّنَ الْأَرْضِ حَلَلًا فَنُتَبَّعُوا
خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٩﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

شيء، فيتين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما
اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها
تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق
عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن
عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها، من
حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي
كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله،
ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم،
وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن
أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم
حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً،
فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل،
فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق،
فبطلت الأعمال بطلان متعلقها.

ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها،
فضرتهن غاية الضرر، ولهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق

هُم يَخْرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٧١﴾.

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين
وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى
علم اليقين، المزيله لكل شك، ذكر هنا أن ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع
هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء
ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم
والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد -
علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر
في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه
كلمة العذاب، وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا
يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به
في العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه.

وفي قوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما
المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة،
ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ
سَمُّهُمْ أَمْ يَتَّبِعُونَ مَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾، ﴿إِنْ
مِنْ إِلَّا آتَانَاهُ سَيِّئُهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

فالمخلوق ليس نداً لله، لأن الله هو الخالق، وغيره
مخلوق، والرب الرازق، ومن عده مرزوق، والله هو الغني
وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجه، والعبيد ناقصون
من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له
من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من
اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً، أو
صالحاً، أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة
الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم
أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من
يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح
العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من
الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ
الأنداد والانقياد لغير رب العباد، وظلموا الخلق بصددهم عن
سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أَنَّ
الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لعلمو علماً جازماً
أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة

تناول المأكولات المحرمة.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم، إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقيح الأشياء، وأعظمها مفسدة فقال:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تناهى قبحه، كالزنا، وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبت له نفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نذا، وأوثانا تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم. ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم.

ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله على معاني اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويذلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلينظر العبد نفسه، مع أي الداعيين هو، ومن أي الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملته المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان، الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل

المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً، لتعلقها بالحق، فجاز بتنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْتَبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتَبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝﴾.

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلورؤوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأما من يتمنونها، حقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قضي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدُكُمْ فَاعْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَفْسَكُمُ ۝﴾.

(١٦٨-١٧٠) ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ كُلَّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَكًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْلَحْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوَّلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات، حالة كونها ﴿حَلَكًا﴾ أي: محللاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم.

﴿طَيِّبًا﴾ أي: ليس بخبيث كالهيئة والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال، وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر.

ولما أمرهم بتابع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي، من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السواائب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً

الخسران في ولايته، والذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير.

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين، إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك، وقالوا: ﴿بَلْ نَسْتَعِمْ مَا أَفْتَنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فاستفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا، فأباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضللاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدتهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتباعه إن كان منصفاً.

(١٧١) ثم قال [تعالى]: ﴿وَكُلُّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاً وَنِدَاً صُمُّ بَنُوكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لَمَّا بين تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق، ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم - عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان - كمثل البهائم التي ينق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحاجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم، فلماذا كانوا صُمّاً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عُمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكمّ فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجُهلاء فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتباع الباطل، ونبد الحق - أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء، فإنه من أسفه السفهاء.

(١٧٢، ١٧٣) ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المستفوعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به

المرسلين في قوله: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً»؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق، خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: فاشكروه. فدل على أن من لم يشكر الله، فلم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مُضرة، لردائها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر، فإنه حلال طيب.

﴿وَالدَّمَ﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى. ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان، من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَاتٍ﴾ فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ كما تقدم.

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا، وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجئ إلى المحرم بجوع وعدم، أو إكراه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيع له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها ﴿فَلَا إِثْمَ﴾ [أي: جناح] ﴿عَلَيْهِ﴾.

وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقي يده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى

(١) في ب: مرض. (٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب: وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

الْمَرْكُوبَاتِ

٢٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَدْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلِهَتِهِ وَالتَّيَمَّنَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لِمَنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَا إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عَبْدِي بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيمة غيره، رُحِمَ يتيمة.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم الذين أسكتهم الحاجة، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحثَّ الله عباده على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته، وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة، على حسب استطاعته، ولو بتزويده، أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرث جنانية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنيًا ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار، أو عند الظلمة.

(١٧٧) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَدْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلِهَتِهِ وَالتَّيَمَّنَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَدْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، ولهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿وَالْمَلَأَتْكَ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ ﴿وَالْكَتَبَ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسوله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام ﴿وَالْيَتِيمَ﴾ عمومًا، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وَمَا فِي الرِّقَابِ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلًا كان أو كثيرًا، أي: أعطى المال ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي: حب المال، يبين به أن المال محبوب للنفس، فلا يكاد يخرج العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقريبًا إلى الله تعالى، كان هذا برهانا لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يحب إمساكه، لما يترجمه من العدم والفقر، وكذلك إخراج النفس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لَنْ نَّأُولِيَ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فكل هؤلاء ممن أتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك، من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قريتهم وحاجتهم.

ومن اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من قُفِدَ آبائهم ليصيروا كمن

بأنه من ذوي الأبواب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأبواب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لَمَّا كُمُتُمْ تَتُنَوَّنُ﴾ وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن يتقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

(١٨٠-١٨٢) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِيمَانًا فَاصْلَحْ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ أَي: فرض الله عليكم، يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾ [أي: مالا] وهو المال الكثير عرفاً، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري.

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين لهذا المعروف في آيات الموارث، بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء، وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تنفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهما لحظ ملحظاً، واختلف المورد.

فهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه^(٢) مهما أمكن الجمع، كان أحسن من ادعاء النسخ الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية، لما يتوهمه أن من

بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه، وجب على الولي [أي: ولي المقتول] أن يتبع القاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يحرجه.

﴿وَعَلَى الْقَاتِلِ إِدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(١).

وفي قوله: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَمْ يَنْصَرِفْ﴾ تريق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجاناً، وفي قوله: ﴿أَيُّدٍ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَمَدَكَ بِذَلِكَ﴾ أي: بعد العفو ﴿فَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئاً له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول؛ لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أي: تتحقق بذلك الدماء، وتقمع به الأشرقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُئي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكّر «الحياة» لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والأبواب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، ولهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٤﴾ أَيُّهَا مَعْدُودَاتُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ بِكُمُ الْفُسْرَ وَلِكَيْلَا يَرْيِبَكُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٦﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٧﴾

والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تشييط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمصارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله، واجتناب نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلّه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من

بعده قد يدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: الإيصال للمذكورين أو غيرهم ﴿بَدَلًا سَعَةً﴾، [أي: بعدما عقله، وعرف طريقه وتنفيذه، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِي يَبْدُلُهُ﴾، وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المتغير.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيه، وعليم بعمل الموصي إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصي إليه من التبدل، فإن الله عليم به، مطلع على فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة.

وأما الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهه عن الجور والجنف، وهو الميل بها عن خطأ من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصي إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبيرة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائرة، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غصّ من نفسه، وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدلّت هذه الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة.

(١٨٥-١٨٣) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ○ أَيُّهَا مَعْدُودَاتُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْفُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْفُسْرَ وَلِكَيْلَا يَرْيِبَكُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يخبر تعالى بما منّ به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع

إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله. وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات. وهذه جملة لا يمكن تفصيلها؛ لأن تفصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿وَتُكْمِلُوا أَلْوَدَكُمْ﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاثتهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله! أقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشd الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّأَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنفَعُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

(١٨٧) ثم قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ مَن لَّيَّسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا عَنْ عِلْمِ اللَّهِ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَنْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة. ثم سهل تسهيلاً آخر فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً، وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يطيقون الصيام ﴿فِدْيَةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامٌ مِّثْلَيْنِ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً، فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطبق للصوم بين أن يصوم - وهو أفضل - أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر.

[وقيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة، كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم مسكين^(١)، ولهذا هو الصحيح^(٢)].

﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد، مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لثلاثتهم أن الرخصة أيضاً منسوخة [فقال]: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: يريد الله تعالى أن يسر عليكم الطرق الموصلة

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام مسكين. (٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.
وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

﴿تِلْكَ﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حُدُّوا اللَّهَ﴾ التي حدها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: «فلا تفعلوها» لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه.

والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها، وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿تِلْكَ حُدُّوا اللَّهَ فَلَا تَعْدُوا﴾ فينهى عن مجاوزتها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: بين [الله] لعباده الأحكام السابقة أتم تبين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح:

﴿يَبَيَّنْتُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريره لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته، لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوى.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ولا تأخذوا أموالكم، أي: أموال غيركم، أضافها إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ ولأن أكله لمال غيره يجرى غيره على أكل ماله عند القدرة.

ولما كان أكلها نوعين: نوعاً بحق، ونوعاً بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل، قيده تعالى بذلك.

ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغضب والسرقة والخيانة في ديدة أو عارية، أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة، بمعاوضة محرمة، كعقود الربا والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء، والإجارة، ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء، وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجره على عمل، لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح، حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في

الْحَيْطُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبْشُرُوا وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها، الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكنهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.

﴿فَأَبَّ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجباً للإثم ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ما سلف من التخون.

﴿فَأَلْفَنُ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿بَشِيرُوهُمْ﴾ وطناً وقبلة ولمسا وغير ذلك ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: انوا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تستغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر - إذا فاتت - لم تدرك.

﴿وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه.

وفيه دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد.

وفيه أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق.

﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتُوا الصِّيَامَ﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى الْبَيْتِ﴾ وهو غروب الشمس.

ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام، ليست إباحته^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناء بقوله: ﴿وَلَا تَبْشُرُوا وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾ أي: وأنتم متصفون بذلك.

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد.

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة

(١) في ب: إباحة.

ذُلكَ الأخذ من الزكوات والصدقات، والأوقاف، والوصايا لمن ليس له حق منها، أو فوق حقه.

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً، ولا يحلل حراماً، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة، ولا شبهة، ولا استراحة.

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له، ويكون أكلاً لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك، فيكون أبلغ في عقوبته، وأشد في نكاله، وعلى هذا، فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً﴾.

(١٨٩) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول^(١) تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ﴾: جمع هلال، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: جعلها الله تعالى بلفظه ورحمته، على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم، من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج.

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتاً كثيرة، قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجازات، ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد، من صغير وكبير، وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية، لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرما لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدًا بذلك، وظناً أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر^(٢)، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَاتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَدِيقُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذْلُوبًا بَهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتبه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه، وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

(١٩٠-١٩٣) ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ○ وَاتَّقُوا اللَّهَ حَيْثُ تَقِفُونَ

عَلَى الظَّالِمِينَ^(١) أي: فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

(١٩٤) ﴿الَّذِينَ هَرَبُوا إِلَى اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَالْمُؤْمِنَاتِ قَصَصٌ مِمَّنْ أَعَدَّكَ عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ مِمَّا أَعَدَّكَ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ^(٢) يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ هَرَبُوا إِلَى اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهذا، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكماله، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام^(٣)، فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج.

وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ قَصَصٌ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها، فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام، أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله.

ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة [من الإنفاق عليه]، فإنه يجوز أخذه من ماله، وإن كان السبب خفياً، كمن جحد دين غيره، أو خانه في دبيعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿مِمَّنْ أَعَدَّكَ عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ مِمَّا أَعَدَّكَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدّها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق. ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه

(١) في ب: ويستدل في هذه. (٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام.

وَأَخْرَجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَجْرُكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ○ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ○ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ^(١) هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتال في الفتن بين المسلمين.

﴿الَّذِينَ يُفْتَلُونَ﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال. والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغیر مصلحة تعود للمسلمين. ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿وَأَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يُفْتَنُوا﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة. ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم.

وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه^(١) الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى فيظهر دين الله [تعالى] على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال.

﴿وَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا

أقرب إليه من حبل الوريد.

(١٩٥) ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك، وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة: الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبه، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغريب الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسببة أو حيات، أو يصعد شجرة، أو يبنائاً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة^(١) الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالّهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أن

تعبّد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من [ذكر] أحكام الصيام [فالجهاد]، ذكر أحكام الحج فقال:

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور:

أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً.

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناء الله، وهو الحصر، فلهاذا قال:

﴿إِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي ﷺ وأصحابه، لما صدهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدى، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر يحلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس، أو من البدن؛ لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في

(١) في ب: ومن ذلك.

بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر، تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك؛ لما فيه من الذل والخضوع لله، والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية ﴿مِنْ صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ مَدَقَّةٍ﴾ على ^(١) ستة مساكين ﴿أَوْ سَلَكٍ﴾ ما يجزىء في أضحية، فهو مخير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفع.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزىء في أضحية، ولهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفره واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول النُسكين له.

ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ«منى»، ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع.

﴿وَسَمِعَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿لَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن كان عنه مسافة قصر

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَقْتُلُوهُمْ وَآخَرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْدَى عَلَيْكُمْ فَاَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَتْلُقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْفُلْكِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

فاكثر، أو بعيداً عنه عُرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدي، لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله، عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتجراً على ترك الواجبات.

(١٩٧) ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ رَضِيَ فِيهِ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سَفُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْكَمْهُ اللَّهُ وَكَرَّوْا قُلُوبَكُمْ خَيْرَ الْزَّادِ الْقَوِيُّ وَاتَّقُوا بِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ يخبر

(١) في ب: أو إطعام ستة مساكين.

تعالى أن ﴿الْحَجَّ﴾ واقع في ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته، معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً.

﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِ الْحَجَّ﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً، ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِ الْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيده.

وقوله: ﴿فَلَا رَفْعَ وَلَا شُفُوكَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث وهو: الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهم، والفسوق، وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجidal، وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها^(١) يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ أتى بـ«من» لتنصيص العموم، فكل خير وقرية وعبادة داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمان المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها: من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسان قلبي وفعل.

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم، سؤالاً واستشراقاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة

الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ وَضَّ فِيهِ الْحَجَّ فَلَا رَفْعَ وَلَا شُفُوكَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ سَبَكِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ الْنَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

قرية لرب العالمين، ولهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية: بلغة ومتاع.

وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصول لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبداً، ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الأبواب فقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي.

(١٩٨-٢٠٢) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سَبَكِكُمْ فَاذْكُرُوا

من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها. وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمئة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومنَّ بها على ربه، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد العمل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب؛ لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم، وهِمَاتِهِمْ ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه. وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة، ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا، يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيئ واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاءً وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

(٢٠٣) ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَمَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».

اللَّهُ كَذَّكَّرُ أَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝
لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات، لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف، يكون ليلة النحر باثناً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً، ويدخل في ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والنوافل فيه.
الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم، كما قيده بالحرام.
السابع: أن عرفة في الحل، كما هو مفهوم التقييد بـ«مزدلفة».

﴿وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ أي: اذكروا الله تعالى، كما منَّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو: رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ«منى» ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك.

ولما كانت [هذه] الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها، باستغفاره والإكثار

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿سَكَنَ﴾ في الْأَرْضِ يُقْسِدُ فِيهَا ﴿أَي:﴾ يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض ﴿وَيُهْلِكُ﴾ بسبب ذلك ﴿الْحَرْثَ﴾ وَالنَّسْلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تتلف وتنقص، وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ وإذا كان لا يحب الفساد، فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص، ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتركيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف و ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر^(١) على الناصحين.

﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ التي هي دار العاصين والمتكبرين ﴿وَلَيْسَ إِلَهًا﴾ أي: المستقر والمسكن، عذاب دائم، وهم لا يقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يرجون الثواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياً بالله من أحوالهم.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَهْجَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْبَاسِ﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ إلى آخر الآية، وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوا، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

(٢٠٨، ٢٠٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ فَإِن رَّكِبْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق، كالعشر، وليس ببعيد.

﴿فَمَنْ تَجَلَّىٰ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده، في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيع كلا الأمرين، فالتأخر أفضل، لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور، وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط، قيده بقوله: ﴿لَيْنِ أَتَقَى﴾ أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزء من جنس العمل.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامثال أوامره واجتناب معاصيه، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُم إِلَىٰ عَشْرُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده، ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

(٢٠٤-٢٠٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهًا﴾ لما أمر تعالى بالإلثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة، الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه، ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿يُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ بأن يخبر: أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك؛ لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والالتقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيئتهم.

(١) في ب: والتكبر. (٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام النجار بتفسير الآية من عند نفسه، انظر طبعة النجار (١/٢٥٢-٢٥٤)، ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

حَصِيْمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا ﴿١١﴾ فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴿١٢﴾ أَي: فِي جَمِيعِ شُرَائِعِ الدِّينِ، وَلَا يَتْرَكُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَأَنْ لَا يَكُونُوا مِمَّنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، إِنْ وَافَقَ الْأَمْرُ الْمَشْرُوعَ هَوَاهُ فَعَلَهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ تَرَكَهُ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الْهَوَى تَبَعًا لِلدِّينِ، وَأَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَمَا يَعْجُزُ عَنْهُ يَلْتَزِمُهُ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، فَيُدْرِكُهُ بِنِيتِهِ.

ولما كان الدخول في السلم كافة، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضرر عليكم.

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَزَقْتَهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ أَلَبَيْتُمْ﴾ أي: على علم و يقين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل،
فإن العزيز القاهر^(١) الحكيم، إذا عصاه العاصي، قهره بقوته،
وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة
والجناة.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحقّ به الجزاء السيء على المفسدين، وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتشر الكواكب، وتكوّر الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك و] تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل، فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكلٌّ يجازى بعمله، فهنالكَ يعرض الظالم على يديه، إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة،
المبئين للصفات الاختيارية، كالاتواء، والنزول والمجيء،
ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو
أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله
وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل، خلافاً
للمعتزلة على اختلاف أنواعهم: من الجهمية والمعتزلة،

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي
يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى
وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ
النَّاسُ مِنْ يُعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ
عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣٩﴾ وَمِنْ
النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
رَبُّهُ بِالْعِبَادِ ﴿٤٠﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا
فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٤١﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَاجَاءِ نَكْمِ الْبَيِّنَاتِ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٤٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٤٣﴾

والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول - لأجلها - الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب.

فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي.
أما النقلي، فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب
والسنة، ظاهرها، بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة
والجماعة، وأنها تحتاج لدلائلها على مذهبهم الباطل أن
تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى، لا
يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقلي، فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه، والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن

لله ذاتاً لا تشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها، ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه، وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك، ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته، وما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيت.

الحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

(٢١١) ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ يَّسَّرُ وَمَن يَدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ يَّسَّرُ﴾ تدل على الحق، وعلى صدق الرسل، فتبينوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة، التي تقتضي القيام بها، بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفرة، فلهم استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه، ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية، فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى، وقام بحقوقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

(٢١٢) ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ولم يتقادوا لشعره، أنهم زُيِّنَتْ لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها، واطمأنوا بها، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، وعظموا من شاركتهم في صنعهم، واحترقوا المؤمنين، واستهزأوا بهم وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ يَّسَّرُ وَمَن يَدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَلِذِي الْأَرْقَانِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره.

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور، والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء السرمدي، الذي لا منتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين، ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله، وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

(٢١٣) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقعة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كما لها، ومن السيادة ألتها ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مَسَّهُمُ الْبَاسَاءُ﴾ أي: الفقر ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ أي: الأمراض في أبدانهم ﴿وَزُلْزُلُوا﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه قال ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلما اشتدت عليه وصعبت إذا صبر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحت، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ وقوله [تعالى]: ﴿إِنَّمَا أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.

(٢١٥) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: يسألونك عن النفقة، ولهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنهما، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به، وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر.

(١) زيادة من هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن الأقرب أن هذا محلها، ولهذا وليتسق الكلام يكون آخره هكذا: (وقيل: بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي: كان الناس) مكرراً.

يَهْدِي اللَّهُ الْبَلَدَ الْأَمْنًا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (أي: كان الناس) [أي كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق، وقيموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا^(١) مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات: من الرزق والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى الله بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ هو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، ولهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

لما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من هذه الأمة ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فعمم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وهدى - بفضلله ورحمته، وإعانتة ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضلله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ آلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ يخبر تبارك

الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه، كما قال [تعالى]: ﴿وَاللَّهُ يَمْلِكُ وَأَنْتُمْ لَا تَقْلُمُونَ﴾ فاللائق بكم أن تمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

ولما كان الأمر بالقتال، لو لم يقيد، لشمّل الأشهر الحرم وغيرها، أسئتي تعالى القتال في الأشهر الحرم فقال:

(٢١٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِيهِ قُلُوفٌ مُتَبَايِعَةٌ وَمِنْهُ مَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَاؤُنَّ يَغْنَمُوكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَفْضَلُوا وَمَنْ يَزِدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها، تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع، فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أموالهم، وكان ذلك - على ما قيل - في شهر رجب، غيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في تمييزهم ظالمين، إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردّهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام، الذي هو بمجرده كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟!!

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره على الحقيقة، فأخرجوهم ﴿مِنْهُ﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد.

فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين.

ومن بعد الوالدين، الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فلا إنفاق عليهم صدقة وصلة.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد، رحمة منه بهم ولطفاً.

﴿وَالسَّكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات، وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصّص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عمم تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَسْمُرُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية، فيها فرض القتال في سبيل الله، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون وقوا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتألف، ومع هذا، فهو خير محض، لما فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مرب، على ما فيه من الكراهة.

﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان، وتسلب الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب.

وهذه الآيات عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس - لما فيها من المشقة - أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس - لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة - فهي شر بلا شك.

وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطرداً، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمراً من الأمور، فقيض الله [له] من

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعهم عن دينهم، ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم، حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك، ساعون بما أمكنهم ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَسُدَّ ثُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون غيرهم، حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وثبوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخلهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم.

ولكن المرجو من الله تعالى، الذي من على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه - أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام-، وأن يخذل كل من أراد أن يطفىء نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم وينصر دينه، ويعلي كلمته، وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت على من قبلهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْقَهُونَ أَمْوَالَهُمْ يَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَرُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَكْفُرُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ.

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافراً ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لعدم وجود شرطها، وهو الإسلام ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل رده، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

(٢١٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحي العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الريح والخسران.

فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل.

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى، فترك المهاجر وطنه، وأمواله، وأهله، وخلّانه، تقرّباً إلى الله، ونصرة لدينه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدْعَنْ سَبِيلَ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢١٩﴾

وأما الجهاد، فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصره دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة - على لأوائها ومشقتها - كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجين رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمنٍّ وغرور، وهو دالٌّ على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن العبد - ولو أتى من الأعمال بما أتى به - لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله

ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ أي: لمن تاب توبة نصوحاً ﴿رَجِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعمّ جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولاً توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولاً إقذارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولاً إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخرًا، وهو الذي من بالسبب والمسبب.

(٢١٩) ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آثَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي: يسألك - يا أيها الرسول - المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما؛ ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما، وتحريم تركهما.

فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنون من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار، والطرب للنفوس عند تعاطيها، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجع ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته.

ولكن لما كانوا قد ألفوها، وصعب التحريم بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَذْلَمُ يَجُسَّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله: ﴿مُنْهَوْنَ﴾ وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا.

فأما الخمر: فهو كل مسكر خامر العقل وغطّاه، من أي نوع كان، وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية [بعوض^(١)]، سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة؛ لكونها معينة على الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع.

(٢٢٠، ٢١٩) ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسر من أموالهم، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق تمره.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم، ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا، أو تكليفاً لنا [بما يشق^(٢)]، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإلخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بيّن تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

(٢٢٠) ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ غَيْرُ حِكْمَةٍ﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء - من غير قصد - لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حرج وأثم، «والوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في

النافع، والعمل الصالح ﴿وَبَيْنَ أَيْتِهِ﴾ أي: أحكامه، وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيوجب لهم ذلك التذكير لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامثال لما ضيعوه.

(٢٢٢، ٢٢٣) ثم قال تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا إِلَيْهَا﴾ في المحيض ولا تقربوهن حتى يظهرن فإذا ظهرن فأأنوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ يَشْتِمَ وَذَرُوا لَهَا أَفْئِدَتَكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهَا وَبَيِّنْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض، كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود؟.

فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى، فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، فلهذا قال: ﴿فَأَعْرِضُوا إِلَيْهَا فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: مكان الحيض، وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا المحرم إجماعاً، وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملاستها في غير الوطء في الفرج جائز.

لكن قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾ يدل على أن المباشرة فيما قرب من الفرج، وذلك فيما بين السرة والركبة، ينبغي تركه كما كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض، أمرها أن تأتزر، فيباشرها.

وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحائض ﴿حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾ أي: يتقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لحله شرطان: انقطاع الدم، والاعتزال منه فلما انقطع الدم، زال الشرط الأول، وبقي الثاني، فلهذا قال: ﴿فَإِذَا ظَهَرْنَ﴾ أي: اغتسلن ﴿فَأَنُوهْنَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في القبل لا في الدبر، لأنه محل الحرث.

وفيه دليل على وجوب الاعتزال للحائض، وأن انقطاع الدم شرط لصحته.

ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده، وصيانة عن الأذى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي: من ذنوبهم على الدوام ﴿وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ أي: المتزهرين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث.

ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً، لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً، شرطاً لصحة الصلاة والطواف، وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال

المأكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان، وتوسعة على المؤمنين.

ولا فـ ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فخرجتم، وشق عليكم وأتمتم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فجزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة، عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورحمته.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيْنَ أَيْتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ لأن المؤمنة - ولو بلغت من الدمامة ما بلغت - خير من المشركة، ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه.

ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزوج - مع^(١) أن فيه مصالح كثيرة - فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار الولي في [النكاح].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابهما من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم

الخشيسة.

﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ مقابلة ومدبرة، غير أنه لا يكون إلا في القبل، لكونه موضع الحرث، وهو الموضع الذي يكون منه الولد.

وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث، وقد تكررت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم ذلك، ولعن فاعله.

﴿وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجامعها على وجه القرية والاحتساب، وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أحوالكم كونوا ملازمين لتقوى الله، مستعينين بذلك لعلمكم ﴿أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها.

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر المبشر به؛ ليدل على العموم، وأن لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير رتب على الإيمان، فهو داخل في هذه البشارة.

وفيها محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تشييطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنَّ تَرَوْا وَتَنَقَّلُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ المقصود من اليمين والقسم تعظيم المقسم به، وتأكيده المقسم عليه، وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك، إذا كان البر باليمين، يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فهى عبادة أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي: مانعة وحائلة عن أن يبروا: أن^(١) يفعلوا خيراً، أو يتقوا شراً، أو يصلحوا بين الناس.

فمن حلف على ترك واجب وجب حنته، وحرّم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحب له الحنت، ومن حلف على فعل محرم وجب الحنت، أو على فعل مكروه، استحب الحنت، وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنت.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه «إذا تراحمت المصالح، قدم أهمها»، فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتنال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدّمت لذلك.

ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَاللَّهُ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٣٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلَ إِصْلَاحٌ لَّهَا خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهَا فَأَعْرِضُوا عَنْهَا وَلَا تَعْلَمِ الْمُفْسِدِينَ

وَالْمُصَلِّينَ أَفْشَى اللَّهُ لَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَئِنَّكُمْ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ

يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنَّ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

(٢٢٥) ثم قال تعالى: ﴿لَا يُوَازِجُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْدِيكُمْ وَلَكِنْ يُوَازِجُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: لا يوازجكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللأغية التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: «لا والله»، و«بلى والله»، وكحلفه على أمر ماض، يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخذه على ما قصده القلب.

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

والله ﴿عَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه.

وكونه بين يديه .

(٢٢٦، ٢٢٧) ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص، وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن آلى من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حنث كفر، وإن أتم يمينة فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر.
وإن كان أبداً، أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينة، إذا طلبت زوجته ذلك؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفئته، وهو الوطء، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم.

ولكن الفئته والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم، غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضاً، حيث فاؤوا إلى زوجاتهم، وحنوا عليهن ورحمهن.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أي: امتنعوا من الفئته، فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه، أو قام به. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة، لقوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة يجبر، إما على الوطء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

(٢٢٨) ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرِيصُ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَوْ بَرِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: النساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿يَرِيصُ أَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي: حيض، أو أطهار على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القرء الحيض، ولهذا

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٩﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣٠﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَرِيصُ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَوْ بَرِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٢﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكُ مَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ أَوْ تَتَّبِعُوا هُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِحَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفْسِحَا حُدُودَ اللَّهِ فَالْجُنَاحُ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٣﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٤﴾

العدة عدة جكم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء، علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يقضي إلى اختلاط الأنساب.

ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ وحرم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يقضي إلى مفسد كثيرة، فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه واستعجالاً لانقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصل من قطع الرحم والإرث، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة - وهي الزنا - لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها، وإباحتها لغيره، وما

موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحلاً حراماً، أو حرماً حلالاً.

﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعفا ما لها في كثير من الأمور، كال ميراث ونحوه.

﴿وَاللَّهُ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه - مع عزته - حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيطان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات^(١) يدل على أن المراد بها الحرة.

(٢٢٩) ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ سَاكُنَا بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَرَيجًا يَحْسِنُ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارعتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم.

فأخبر تعالى أن ﴿الطَّلَاقُ﴾ أي: الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ ليمكن الزوج - إن لم يرد المضارة - من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على التنتين، فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلها أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿بِإِحْسَنِ﴾ ومن الإحسان، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلها قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها، لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه.

يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض، لتطول العدة، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرمة من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبتها إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاهاً؛ لكونها أجنبية عنه، فلها قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجربات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَوْلَاهُنَّ أَحَقُّ بِرِجْعٍ فِي ذَلِكَ﴾ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: رغبة وألفة ومودة، ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان:

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التريص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكرهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع، فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وللنساء على بعلتهن من الحقوق والولازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثلها، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا

(١) في ب: ونحوهما. (٢) في ب: الآية.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان، إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصًا الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه^(٢)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم وإلا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وَلَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَلَا يَمْلِكُهَا السَّمْعُ وَلَا يُدْرِكُهَا الْقُلُوبُ﴾ أي: شرائع التي حددها وبينها ووضحها ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم هم المستفوعون بها، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصًا بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: طلاقًا رجعيًا بواحدة أونتين. ﴿فَلَنْ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن.

﴿فَأَسْكُوهُنَّ مَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ مَعْرُوفٍ﴾ أي: إما أن تراجعوهن، ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا﴾ أي: مضارة بهن ﴿لَتَعَذَّبْنَ﴾ في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام فالحلال: الإمساك بمعروف^(٣)، والحرام: المضارة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا إِنَّا نَحْنُ اللَّهُ حَزُونًا﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثًا، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتنال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله - من رحمته - جعل له واحدة بعد واحدة، رفقا به وسعياً في مصلحته.

﴿وَأَذْكُرُوا يَمَعَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عموماً، باللسان حمداً وثناءً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله. ﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعه في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه،

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُمْسِكَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيَ افْتَدَتْ بِهِ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقه، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟.

والظلم ثلاثة أقسام: ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

(٢٣١، ٢٣٠) ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجَلَهُنَّ فَأَسْكُوهُنَّ مَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ مَعْرُوفٍ وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لَتَعَذَّبْنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تُلْجِدُوا إِلَيْتِ اللَّهُ هُزُؤًا وَأَذْكُرُوا يَمَعَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظِمُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَ﴾ أي: نكاحاً صحيحاً ويوطأها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، ولهذا بالاتفاق.

ويشترط^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد، لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني راعياً ووطئها، ثم فارقتها، وانقضت عدتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ أي: يجددا عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبداها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة، أنها إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة، أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

(١) في ب: ويتعين. (٢) في ب: أن ينظر. (٣) في ب: بالمعروف.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٣٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
 ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ
 أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ
 وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا
 وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
 مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ
 قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِدِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ قَرَضْتُمْ
 لَهُنَّ فَرِيضَةً فَانصِفْ مَا قَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوهَ أَوْعَفُوا
 الَّذِي بَيْنَهُمَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْمُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
 وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ
 سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى
 يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٤﴾ هَذَا حُكْمُ الْمُعْتَدَةِ مِنْ وَفَاةٍ، أَوْ
 الْمَبَاةِ فِي الْحَيَاةِ، فَيَحْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَبْنَاهَا أَنْ يَصْرَحَ لَهَا فِي
 الْخُطْبَةِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وَأَمَّا
 التَّعْرِضُ فَقَدْ أَسْقَطَ تَعَالَى فِيهِ الْجُنَاحَ.

والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهاذا
 حرم خوفاً من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في
 النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق
 زوجها الأول بعدم مواعيدتها لغيره مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل النكاح وغيره، فهو
 جائز للبائن، كأن يقول لها: إني أريد الزواج، وإني أحب أن
 تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز، لأنه
 ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه.

وكذا إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها
 إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ

ودل قوله: ﴿مَوْلُودٌ لَكُمْ﴾ أن الولد لأبيه، لأنه موهوب له،
 ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضي أو لم
 يرض، بخلاف الأم.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: على وارث الطفل إذا
 عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من
 النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب
 المعسرين، على القريب الوارث الموسر.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الأبوان ﴿فَصَلَا﴾ أي: فطام الصبي قبل
 الحولين ﴿عَنْ رَاضٍ مِنْهَا﴾ بأن يكونا راضيين ﴿وَتَشَاوَرَا﴾ فيما
 بينهما، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضياً
 ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في فطامه قبل الحولين.

فدلت الآية بمفهومها على أنه إن رضي أحدهما دون
 الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل، أنه لا يجوز فطامه.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِفُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي: تطلبوا لهم
 المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: للمرضعات ﴿وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
 أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: إذا توفي الزوج
 مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوباً،
 والحكمة في ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في
 ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل،
 فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف
 من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: من مراجعتها للزينة
 والطيب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه.

وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها
 زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع
 عليه بين العلماء.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم، ظاهرها
 وباطنها، جليها وخفيها، فمجازيكم عليها.

وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
 أَنْفُسِهِنَّ﴾ دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا
 يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك،
 واجب عليه.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ

أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب، وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب، والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٢٣٩، ٢٣٨) ثم قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً، وعلى الصلوات الوسطى وهي العصر خصوصاً، والمحافظة عليها أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها من واجب ومستحب وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: ذليلين^(٢) خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة.

﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ لم يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خفتم بصلاتكم على تلك الصفة فصلوها ﴿بِرِجَالٍ أَوْ رُكْبَانٍ﴾ أي: على أقدامكم أو ركباناً على الخيل والإبل وغيرها.

ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها، حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل، بل أوجب من صلاتها مطمئناً خارج الوقت ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: زال الخوف عنكم ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتامها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له، والمعنى كما هو ظاهر للتدبر. وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة). (٢) من هنا بدأ الاختلاف بين السخيتين، وقد أشرت إليه في المقدمة بشيء من التفصيل، وقد أثبت التفسير المأخوذ من النسخة ب في ملحق في آخر التفسير.

أَنْتُمْ سَتَذْكُرُونَهُ ۚ هَذَا التَّفْصِيلُ كُلُّهُ فِي مَقَدِّمَاتِ الْعَقْدِ. وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾ أي: تنقضي العدة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فاتنوا الخير، ولا تننوا الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

(٢٣٦) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمِمَّا عَوْنُ عَلَى الْوُسْعِ قَدْرُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرٌ مِّمَّا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناح وإثم، بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها، فإنه يجبر بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئاً من المال، جبراً لخواطرهن ﴿عَلَى الْوُسْعِ قَدْرٌ وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ أي: المعسر ﴿قَدْرٌ﴾ هذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿مِمَّا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهذا حق واجب ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن فكما تسبوا لتشفوهن واشتياقهن، وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهم - في مقابلة ذلك - المتعة.

فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارع ورحمته!! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون!!، فهذا حكم المطلقات قبل المسيس، وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن، فقال: (٢٣٧) ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْتُمْ مَا قَضَيْتُمْ أَوْ يَفْعُولَ أَوْ يَفْعُولَ الَّذِي يَكُونُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَقُولُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تغفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها ﴿أَوْ يَفْعُولَ الَّذِي يَكُونُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الزوج على الصحيح^(١)، لأنه الذي بيده حل عقدته؛ ولأن الولي لا يصح أن يغفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو

فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليعني نعمته عليكم ويزيدكم عليها، ثم قال تعالى:

(٢٤٠) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ﴾ أي: الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجاً فعليهم أن يوصوا ﴿وصيةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: يوصون أن يلزم من بيوتهم مدة سنة لا يخرج منها ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ﴾ أي: من مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك، وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَفَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقيل: لم تنسخها، بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر وعشراً واجبة، وما زاد على ذلك فهي مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم ينف الحرج عنهم.

(٢٤١، ٢٤٢) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ○ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ○ أي: لكل مطلقة متاع بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً لخطرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه المتعة واجبة على من طلقت قبل المسيس، والفرص سنة في حق غيرها كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها، وقيل: إن المتعة واجبة على كل مطلقة احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن القاعدة أن المطلق محمول على المقيد، وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل الفرض والمسيس خاصة، ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ﴾ أي حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم قال تعالى:

(٢٤٣-٢٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ○ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ○ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقص تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْزَكَاةِ أَلُوسَطَى وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ ﴿٢٣٩﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ زَكَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤٠﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤١﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٢﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٤﴾ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٥﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٦﴾

على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا ينبغي حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ إن الله تعالى ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفًا وحلمًا، وبيانًا لآياته لخلقه بإحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكرًا، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه فقال: ﴿وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فأحسنوا نيאתكم واقصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئًا، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاها ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في

سورة البقرة

٤٠

سورة البقرة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَأَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَوَّلِهِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من بينهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أَي: لعلمكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أَي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد أُلجئنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسييت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقرّ تولكلهم على ربه ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ فجنّبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ فعصمهم الله وبثبهم، وقرى قلوبهم، فالتزموا

سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرصاً فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذا الوهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِضْطٍ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عمن يشاء، فالتصرف كله بيديه، ومدار الأمور راجع إليه، فالإمسك لا يسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلماذا قال: ﴿وَالِيَهُ تَرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي ترك بها أوامر الله، وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى عياناً في هذه الدار، وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحادثة عليه، من تسميته قرصاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويسيطر وإليه ترجعون.

(٢٤٦-٢٤٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٠ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَأَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَوَّلِهِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٠ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقص تعالى على نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملأ بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في

أمر الله، ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فجازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ○ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴿مَجِيئًا لَطِيلَتُهُمْ﴾ ○ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا فكان هذا تعيينًا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي: كيف يكون ملكًا وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه، ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فلهذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وَرَادَهُ﴾ الله ﴿بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر مخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالمًا بالأمر وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا يفذه شيئًا ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحدًا عن أحد، ولا شريفًا عن ضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضًا آية حسية يشاهدونها، وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانًا طويلًا، وفي ذلك التابوت سكونية تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانًا.

(٢٤٩-٢٥٢) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ لِمَا قَالُوا وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَفَرَّقَا وَرَأَى أَنَّهُ قَلِيلٌ مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ ﴿كَمْ مِنْ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَئْتَهُ كَثِيرَةٌ﴾ يَذْنُ اللَّهُ ﴿أَي: بآرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره﴾ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، ف وقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قَالُوا﴾ جميعهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرونا على القوم الكافرين، من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم

أَقْدَامًا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوِيَّ الْكَثِيرِ ○ فَهَزَمُوهُمْ يَذْنُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ○ وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمَلَكُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَّمَهُ وَمَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ○ يَلِكُ ءَايَتُ اللَّهِ تَنْتُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ○ أي: لما تملك طالوت بني إسرائيل، واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل، وكانوا عددًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا، امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلاً على الله، وتضرعًا واستكانة وتبرؤًا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقتلتهم وكثرة عدوهم، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ﴾ أي: طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فأروا... قتلهم وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لكثرتهم وعددهم وعُددهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقهم ومطمئنين لخواطرهم، وأمروا لهم بالصبر: ﴿كَمْ مِنْ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَئْتَهُ كَثِيرَةٌ﴾ يَذْنُ اللَّهُ ﴿أَي: بآرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره﴾ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، ف وقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قَالُوا﴾ جميعهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرونا على القوم الكافرين، من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٤١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
 بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
 مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
 مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا
 طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
 يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِمْ مِنْ فَتَةٍ قَلِيلَةٍ
 غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥٤﴾
 وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
 عَلَيْنَا مَاءَ صَبَرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ
 دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
 وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو
 فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٦﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
 تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٧﴾

نقصانها وضررها، ومنها أن الاتكال على النفس سبب الفشل
 والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب
 النصر، فالأول كما في قولهم لبيهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَقْتَاتِلَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ فكانه نتيجة ذلك
 أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا
 بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَاءَ صَبَرًا وَثَبَّتْ
 أقدامنا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ○ فهزموهم بإذن
 الله: ومنها: أن حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب،
 والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليدبر
 العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز ومنها: أن
 من رحمته وسنته الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين
 بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسد الأرض باستيلاء
 الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

(٢٥٣) ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ
 وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ رُوحَ
 الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ

عليهم ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ عليه السلام، وكان
 مع جنود طالوت ﴿جَالُوتَ﴾ أي: باشر قتل ملك الكفار بيده
 لشجاعته وقوته وصبره ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: أتى الله داود
 ﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: من عليه بتملكه على بني إسرائيل
 مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم
 والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُ وَمَا يَشَاءُ﴾ من
 العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك
 والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم،
 فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين
 مطمئنين؛ لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله
 من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك، فلماذا
 قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
 الْأَرْضُ﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار
 وتكالب الكفار لفسد الأرض باستيلاء الكفار عليها،
 وإقامتهم شعائر الكفر، ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار
 دينه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث شرع لهم
 الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم، ومكنهم من
 الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال
 تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي:
 بالصدق الذي لا ريب فيها، المتضمن للاعتبار والاستبصار
 وبيان حقائق الأمور ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه شهادة من
 الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من
 أخبار الأمم السالفة، والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم، التي
 لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم، بل لم يكن في قومه
 من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبية
 صدقاً، الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله
 ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو
 الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد،
 وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل
 به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع
 لهؤلاء الملأ، حين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به
 كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن
 الحق كلما عورض وأوردت عليه شبه ازداد وضوحاً وتميز
 وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على
 استحقاق طالوت للملك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع
 وزوال شبه والريب، ومنها: أن العلم والرأي مع القوة
 المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقدان أحدهما أو فقد أحدهما

الْبَقَرَةُ

٤٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٦﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٧﴾

من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرًا موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو اقتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق، لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون، ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله، فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فهذا قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا من باب الحصر، أي الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ثم قال تعالى:

(٢٥٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ

شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض، بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على نبوته، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل: أيده بجبريل عليه السلام يلزمه في أحواله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال: ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ إفارادته غالبية ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية، فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدر في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحية، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم، ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

(٢٥٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا

والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلماذا قال: ﴿وَلَا يُؤُودُ﴾ أي: يتقله ﴿حِفْظُهُمَا وَمَوَ الْعَلِيِّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات العلي بقدره لكمال صفاته ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة، والكبرياء الجسيمة، والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلا، ثم قال تعالى:

(٢٥٧، ٢٥٦) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبين أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فلموفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيء القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل متصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم يتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص آخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغات فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً

الْحَقُّ الْعَظِيمُ﴾ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلماذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها، وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممثلاً لأوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الْحَقُّ الْقَيُّومُ﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء، من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإمامة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأْخُذُ بِهِ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسنة: النعاس ﴿لَمْ يَأْخُذْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك، وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر، لا يملك لنفسه ولا لغيره مقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فلماذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدىء الشافع قبل الإذن، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء، ولا من العلم مقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمتها من فيهما،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ
عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت
أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك
بالعروة الوثقى التي ﴿لَا انْقِصَامَ لَهَا﴾ وأما من عكس القضية
فكفر بالله وآمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي
بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل ماله إلى الجحيم
﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كلا منهما بحسب ما علمه منهم
من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة
الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم
إلى ذلك فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم
لربهم، بأن تولوه فلا يغون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد
اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم
بلطفه ومنّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر
والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان
جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر
والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فتولوا الشيطان وحزبه،
واتخذوه من دون الله ولئياً ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم،
فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أژاً،
ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان
والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان
جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم
والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في
دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾.

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَن آتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي
وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ
الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول
تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: إلى
جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما
حملة على ذلك إلا ﴿أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ فطغى وبغى ورأى
نفسه مترساً على رعيته، فحملة ذلك أن حاج إبراهيم في
ربوبية الله، فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،
وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير،
ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ ما يكون في
الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ولم يقل أنا

الذي أحيى وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما
زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً
فيكون قد أماته، ويستقي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه
إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون
شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم
﴿فإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي: عياناً يقربه كل أحد
حتى ذلك الكافر ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وهذا إلزام له بطرد
دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في
شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدح في سبيله ﴿فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته
وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن
يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى:
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبيهم على كفرهم
وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان
قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه، ويسر لهم أسباب
الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب
بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة

والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدلت بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جُملة بأن الله وحده هو الذي يحيى ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهرًا متصرفاً فيه إحياءً وإماتةً، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على صورته، ويعد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس، وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتتقاد لأمره ومشيتته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله. «من مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

(٢٥٩) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُغْيَى هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جَمَاركَ وَلِجَنَّتِكَ مَائِكَةَ لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْوُطَّاءِ كَيْفَ نُشْكِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا أيضاً دليل آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس، بل بقيت موحشة من أهلها مفقرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً و﴿قَالَ أَنَّى يُغْيَى هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استبعاداً لذلك وجهلاً بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حمارة، وكان معه طعام وشراب، ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه، وكان عهد حاله قبل موته، فقليل له: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً و﴿انْظُرْ إِلَى جَمَاركَ﴾ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتشر عظامه، وتفرقت أوصاله ﴿وَلِجَنَّتِكَ مَائِكَةَ لِلنَّاسِ﴾ على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجاً محسوساً مشاهداً بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْوُطَّاءِ كَيْفَ

نُشْكِرُهَا﴾ أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض ﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ فنظر إليها عياناً كما وصفها الله تعالى، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالى ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آية ودليلاً للناس لثلاثة أوجه، أحدها قوله: ﴿أَنَّى يُغْيَى هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ولو كان نبياً أو عبداً صالحاً لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحمارة ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت، ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حمارة وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي: تبين له أمر كان يحمله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم. ثم قال تعالى:

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِينَ قُلُوبِي قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَّفَهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَاهُنَّ وَيَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهذا فيه أيضاً أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليفه إبراهيم أنه سأله أن يريه بصره كيف يحيى الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عياناً ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلماذا قال الله له: ﴿أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ﴾ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِينَ قُلُوبِي وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان، ويكمل به الإيقان، ويسعى في نياله أولوا العرفان، فقال له ربه: ﴿فَخَذَ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَّفَهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمنهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يدك ﴿ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثُمَّ أَدْعَاهُنَّ وَيَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد، وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ لِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي متقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله

تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئاً عبثاً، ثم قال تعالى:

(٢٦١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ وهنا قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاهما إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مدعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ﴾ هذه المضاعفة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فيعطيه أجرهم بغير حساب ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاطمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

(٢٦٢، ٢٦٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه، ويطلب منه مقابلته، ولا أدية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر، لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالماً من المفسدات ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم، فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة

الْمُحْسِنِينَ

٤٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذَا قَالَ ابْرَهْمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَوَمِّنَ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٦﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٨﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنْفِقُ مَا يَشَاءُ الْمَنُّ وَالْأَذَى لِلَّذِينَ آمَنُوا لَأُنْظِلُّوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٩﴾

إحسان أيضاً بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم ﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ معناها، ومع هذا فهو ﴿حَكِيمٌ﴾ على من عصاه، لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلمهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم، ولا تغني عنهم الآيات، ولا تفيد بهم المثالات، أنزل بهم عقابه وحرّمهم جزيل ثوابه.

(٢٦٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُنْظِلُّوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى

النفس في إخراجها، وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان: إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهو لاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتاً من أنفسهم، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كَمَثَلِ جَنَّتٍ﴾ أي: كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ أي: محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره، فثماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس، ف ﴿أَصَابَهَا﴾ أي: تلك الجنة التي برؤية ﴿وَأَيْلٍ﴾ وهو المطر الغزير ﴿فَقَانَتْ أَكْثُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَأَيْلٍ قُطِلْ﴾ أي: مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أتفق أتم تنمية وأكملها، والمُنْعَمِي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، في الله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتنا وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خاملة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعميها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

(٢٦٦) ﴿أَيُّوْءُ أَمْذَكُمْ أَنْ تَكُوْنَتْ لَكُمْ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعملاً لنفسه، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَةً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتَضَلُّهُ كُتُلٌ صَغَوَانٍ عَلَيْهِ رُثَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ينهى عباده تعالى لطفًا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، فيه أن المن والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قبلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿وَلَا تَبْهَرُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضعف العمل سدى، وقوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَةً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراعاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده، وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور، فمثله المطابق لحاله ﴿كَمَثَلِ صَغَوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عَلَيْهِ رُثَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ أي: مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذاك حال هذا المرابي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدفته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها، وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّبَاعًا مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيحًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْثُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ قُطِلْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكوا عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّبَاعًا مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربه ﴿وَتَثْبِيحًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف

الْأَنْهَارِ

٤٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَلْمِيزًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَتَأْتَتْ أَكْشَاهَا ضَعْفَتٌ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٩﴾ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٧٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِتَّائِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٧١﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٧٢﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَهُوَ لَا يُؤْتَى إِلَّا أَزْوَاجًا ثَلَاثًا

فيها^(١) الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كلٌّ عليه، ونفقتهم ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصابت تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثورًا، ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا، فلهذا أمر تعالى بالتفكير وحثَّ عليه، فقال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٢٦٨، ٢٦٧) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَّائِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض، فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكرًا لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحًا لكم، بل هذا غاية الغش ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُضِلِّينَ﴾ بل أطيعوا

ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم وتطهيرًا لعيوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ وإحسانًا إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيمًا عليه، لأنه ﴿وَاسِعٌ﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فلينظر العبد نفسه إلى أيِّ الداعيين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أمورًا عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من التقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿مِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾ فمن أخرجت

(١) في النسختين: فيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧١﴾ إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧٢﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُوءٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٣﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٥﴾

نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

(٢٧١) ﴿إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ﴿إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ فظهرها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: فنعم الشيء ﴿هِيَ﴾ لحصول المقصود بها ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ أي: تسروها ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء ففهم الآية أن السر ليس خيراً من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار، ودل قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجاً وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق

له وجبت عليه، ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدور عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهي عن إخراجه ولا يجزىء في الزكاة، ثم قال تعالى:

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم، وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن من الله وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً، وأيّ خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية، فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرتهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين: قسم أجابوا دعوتهم فذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الأبواب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرتهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الأبواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

(٢٧٠) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وهذا فيه المجازاة على التفقات، واجبتها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات، ولم يوف ما أوجبه على

على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فلهذا قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشبهات أنفسهم ﴿بِالْأَيْلِ وَالْهَكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ إِذَا خَافَ الْمَقْصُورُونَ﴾ ولا هم يحزنون، إذا حزن المفرطون، فجازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشورور والمرهوب، ولما كمل تعالى حالة المحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة فقال:

(٢٧٥-٢٨١) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ○ ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِي الْأَصْدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ○ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ○ ﴿يَتَأْتِيهِمُ الرِّبَا نَسْفًا نَسْفًا اللَّهُ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ○ ﴿إِنْ لَمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتَرُوا فَكَيْفَ يُؤْمِنُ أَتُؤْمِنُونَ وَلَا تَقْلُمُونَ وَلَا تَقْلُمُونَ﴾ ○ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تَسْلُمُونَ﴾ ○ ﴿وَأَتُوا يَوْمَ تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة متقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: يصعره الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الويال، فكما تقلبت عقولهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت أراؤهم، وصاروا في هيتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم

ويتضمن ذلك حصول الثواب قال: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ففيه دفع العقاب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من خير وشر، قليل وكثير، والمقصود من ذلك المجازاة.

(٢٧٤-٢٧٥) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِأَنفُسِكُمْ وَجِدَ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ○ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْأَلُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ○ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالْهَكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يقول تعالى لنبية ﷺ ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، ففيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد، فلهذا قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: قليل أو كثير على أي شخص كان من مسلم وكافر ﴿لَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِأَنفُسِكُمْ وَجِدَ اللَّهُ﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً ولا مقال ذرة، كما لا يزداد في سيئاتكم، ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها، فوصفهم بست صفات: أحدها الفقر، والثاني قوله: ﴿أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبسون له، الثالث عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: ﴿لَا يَسْأَلُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سفراً للتكسب، الرابع قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرس فمجرد ما يراه^(١) يعرفهم بعلامتهم، السادس قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي

(١) في النسختين: يراه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِ فَآتَنَّهُمْ فَأَنَّهُمْ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
قُلُوبُهُمْ فَأَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي لَا يَجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٧٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَنذَرُوكُم بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَکُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ
ذُؤُوسٌ فَنَظَرُهُ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٨١﴾

منهم ما صدر، ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينتجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يهمله، حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وَإِن تُبْتِغُوا﴾ عن الربا ﴿فَلَکُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: أنزلوا عليها ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رؤوس أموالكم ﴿وَإِن كَانَتْ ذُؤُوسٌ﴾ المدين ﴿ذُؤُوسٌ﴾ لا يجد وفاء ﴿فَنَظَرُهُ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿إِذَا بَاسِقَاتُهَا أَوْ بَعْضُهَا﴾.

﴿وَإِن كَانَتْ ذُؤُوسٌ﴾ أي: أنزلوا عليها ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رؤوس أموالكم ﴿وَإِن كَانَتْ ذُؤُوسٌ﴾ المدين ﴿ذُؤُوسٌ﴾ لا يجد وفاء ﴿فَنَظَرُهُ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿إِذَا بَاسِقَاتُهَا أَوْ بَعْضُهَا﴾.

انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم، قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمته العظيمة: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ أي: لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم. وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قيضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه ﴿فَأَنَّهُمْ﴾ عن فعله وانزجر عن تعاطيه ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿أَخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره، ثم قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي: يذهب ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أُنْفِقَ منه لم يؤجر عليه، بل يكون زاداً له إلى النار ﴿وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: ينميتها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها، وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا، وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً ينفعهم لم يصدر

وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجليل والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

(٢٨٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيَّحْسَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعَ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلْيَمْلِكِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا جَاهِلِينَ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَإِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث: أنه لا بد للسلم من أجل، وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات، إما وجوباً وإما استحباباً، لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس: أن يكون عدلاً في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقراءة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر: قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين،

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيَّحْسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهَاً أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلْيَمْلِكِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا جَاهِلِينَ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَإِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝

فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حق من الحقوق التي البينة^(١) على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت، والله أعلم.

المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، **والخامس والثلاثون**: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿وَلَا يَأْبِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ **السادس والثلاثون**: أن من لم يتصف بصفة الشهاء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها، ولأنه ليس من الشهاء، **السابع والثلاثون**: النهي عن السامة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، **الثامن والثلاثون**: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أَسْطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، **التاسع والثلاثون**: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها، بل لا بد من اليقين، **الأربعون**: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضراً بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، **الحادي والأربعون**: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع بالإشهاد لقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَايَعْتُمْ﴾ **الثاني والأربعون**: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، **الثالث والأربعون**: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً، بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أداها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك، هذا على جعل قوله: ﴿وَلَا يُمْسِكُ كَذِبًا وَلَا شَهِيدًا﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما **الرابع والأربعون والخامس والأربعون**. **السادس والأربعون**: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق، لقوله: ﴿إِنْ تَقْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ **السابع والأربعون**: أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تنجز في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر، لقوله: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. **الثامن والأربعون**: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد، لقوله: ﴿وَمَنْ رَضِيَ مِنْ أَلْشَّهَادَةِ﴾. **التاسع والأربعون**: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس

ولواحقه، **السابع عشر**: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، **الثامن عشر**: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ **التاسع عشر**: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، **العشرون**: ثبوت الولاية في الأموال، **الحادي والعشرون**: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، **الثاني والعشرون**: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لظفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم، **الثالث والعشرون**: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، **الرابع والعشرون**: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، **الخامس والعشرون**: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، **السادس والعشرون**: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه النذب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يتيماً أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، **السابع والعشرون**: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، **الثامن والعشرون**: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، **التاسع والعشرون**: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال: إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها، وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات، والله أعلم. **الثلاثون**: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ بَنِيكُمْ﴾ والعبد البالغ من رجلنا، **الحادي والثلاثون**: أن شهادة الكفار ذكوراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، **الثاني والثلاثون**: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، **الثالث والثلاثون**: أن من نسي شهادته ثم دُكر فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فَتَنَصَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ **الرابع والثلاثون**: يؤخذ من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَهُ ۖ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمَنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
عَازِمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٦﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُ
يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٧﴾ أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ أَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ، لَا نَفَرٌ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٨﴾ لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا
تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٩﴾

بالنعمية العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي
جميع النعم تبع لها، ففسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن
تتصرنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك،
وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرتنا عليهم بالحجة
والبيان والسيف واللسان، بأن تمكن لنا في الأرض وتخذلهم
وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله
رب العالمين.

تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه، وصلى الله على
محمد وسلم.

ويشق عليها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ
حَرَجٍ﴾ فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق
على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية
عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة
وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة
المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف،
أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر
وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير،
وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا
تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان بـ«كسب» في الخير
الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل
بمجرد نية القلب وأتى بـ«اكتسب» في عمل الشر للدلالة على
أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمل به ويحصل
سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه،
وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير
والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه
قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أن
الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا
تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان:
ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد
شيئاً يجوز له قصده، ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله:
فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم
وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب، أو نجس،
أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو
فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام
التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه مغفوع عنه، وكذلك لا يحث
من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً
أو ماله فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد
الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها
الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أي:
تكاليف مشقة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وقد فعل
تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات
وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا
لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشور،
والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: ربنا
ومليكننا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا
فَعَمَلُكَ دَارَةً عَلَيْنَا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام، كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

(٦-١) ﴿الْعَلَّ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَقُولُوا الْأَلْبَابُ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بعدما بينها ووضحها وأزاح العلل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقَدَّرُ قدره، ولا يدرك وصفه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام،

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَلَّ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَقُولُوا الْأَلْبَابُ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بعدما بينها ووضحها وأزاح العلل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقَدَّرُ قدره، ولا يدرك وصفه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام،

الوقوف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ لأن التشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ [أَسْتَوَى]﴾^(١) فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة. وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيف يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكفون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ على «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى، والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون: ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والتشابه تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض^(٢)، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه، وزجر عن اتباع التشابه قال: ﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿أُولَئِكَ الْآلِفُ﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم، وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهمهم القشور التي لا حاصل لها ولا نتيجة تحتها^(٣) لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون

(١) سقطت كلمة (استوى) من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا. (٣) في الأصل القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحتها، ولعل الصواب ما أثبت.

وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيومته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

(٧-٩) ﴿هُوَ الَّذِي أَزَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَئِكَ الْآلِفُ ۝ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّهِمْ فَيَذَرُ فِيكَ سِكِّينَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ أَلَيْمًا﴾ القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكَ﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره ﴿و﴾ منه آيات ﴿أُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ أي: يلبس معناها على كثير من الأذهان لكون دلالتها مجعولة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد التشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال، وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى التشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على التشابه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإن التشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ للمفسرين في الوقوف على «الله» من قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قولان: جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب

ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك، وعافنا مما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: عظيمة توفقتنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُوبُ﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم، وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه ورد لمتشابهه إلى محكمه، بقوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلى به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الراعد عن الزلل، ثم قال تعالى:

(١٠-١٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ هَدَىٰ إِلَىٰ فِتْنَةٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا سَبَّحُوا بُحْبُوحَةَ رَبِّهِمْ وَأَلَّيْنَا بِالَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَخَدَّاهُمْ اللَّهُ يُدْهِبُهُمْ وَأَلَّيْنَا بِالَّذِينَ كَفَرُوا سَخِرُوا مِنْهُمْ وَنَحْنُ نَسْتَفْتِيكَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَقْسِ إِلَيْهَا قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا فِي فِتْنَةٍ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا كَافِرًا كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ مَثَلَهُمْ رَأَىٰ الْآمِينَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم، وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما يتفجع العبد بإيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْغَيْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظملاً، والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب، وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَخِرْتُ مِنْهُمْ وَمَنْ يَخْلُقُ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَقْسِ إِلَيْهَا قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا فِي فِتْنَةٍ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا كَافِرًا كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ مَثَلَهُمْ رَأَىٰ الْآمِينَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبس المهاد مهادهم، وبس الجزء جزاؤهم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿فِي فِتْنَةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا فِي فِتْنَةٍ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وَأَخْرَجُوا كَافِرًا﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفحراً وراء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلهذا قال: ﴿يَرَوْنَهُمْ مَثَلَهُمْ رَأَىٰ الْآمِينَ﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله: ﴿رَأَىٰ الْآمِينَ﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزمهم، وقتلوا صناديدهم، وأسرهم كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والآخرى مبجلة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والعُدَّة لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان.

(١) في الأصل: ممن، ولعل الصواب ما أثبت.

الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتضمنت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع ينقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تبييناً على أنه يجب إثارها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتقون، ثم فصل خصال التقوى، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟

(٢٠-١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَكُنْ بِأَكْبَرُ حَسَابٍ ۝ فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدَوْا ذَاتَ ثَمَرٍ فَلَا أَمْرَ عَلَيْكَ أَلْبَلَعُ ۖ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ بِالْإِبَادِ ۖ﴾ هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدا بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها، وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك، ودعوا إليه وبنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه، وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، فيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَنَنَا عَذَابِ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَسْطِ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَكُنْ بِأَكْبَرُ حَسَابٍ ۝ فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدَوْا ذَاتَ ثَمَرٍ فَلَا أَمْرَ عَلَيْكَ أَلْبَلَعُ ۖ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ بِالْإِبَادِ ۖ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهدا تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تركيبتهم وتعديلهم، وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة الثقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فاما الأدلة الثقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة الثقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير

منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه الخالق الرازق المدير لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره، انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها، وإن أحدًا من الخلق لا يملك لنفسه - فضلًا عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل، وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدًّا، ومن الأدلة العقلية أيضًا على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبيها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئًا، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المذدِّبات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير، دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعبرة يعتبر بها المعبرون، فيعلمون أن توحيد الله هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية الثقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته، فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام

لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحث عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلفت أهل الكتاب بعدما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلَهُكَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْوَلُؤُاُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام عليه، أن يقول لهم: قد ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَفِي آخِرَتِي﴾ أي: أنا ومن اتبعني قد أقرنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه، ففي هذا تأسيس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيد به أهل العلم من عباده، ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلتها الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين، وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطل، فلهذا قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ من النصارى واليهود ﴿وَالْأُمِّيَّةِ﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿ءَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ آسَلَمُوا﴾ أي: بمثل ما آمتم به ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ كما اهتديتم، وصاروا إخوانكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام، ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

(٢١، ٢٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ

يَعْتَرِ حَتَّى وَيَقْتُلُوا النَّبِيَّ وَيَكْفُرُوا بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَيَكْفُرُوا بِعَذَابِ آيَةٍ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي أَلْأَنفُسِ وَالْآخِرَةُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ هؤلاء الذين أخبر الله

عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً، وأي جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم وتوقيهم، ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها، المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نعمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله، ما أجراهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

(٢٣-٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَمُعْرِضُونَ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَسَنَا الشَّرُّ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم اتقياء لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الدم، وفي ضمنها التحذير لنا أن فعل فعلهم، فيصيبنا من الدم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع وطيع وينقاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرتهم على معاصي الله هو قولهم: ﴿لَن تَمْسَسَنَا الشَّرُّ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ افترؤا هذا القول فظنوه حقيقة، فعملوا على ذلك ولم ينتزجوا عن المحارم، لأن أنفسهم متهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم وخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها، لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما

سُورَةُ آلِ اْإِمْرَانِ

٥٣

سُورَةُ آلِ اْإِمْرَانِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَمُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَسَنَا الشَّرُّ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعِزِّ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلِ إِن تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ وَابْتَدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

كسبت، ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

(٢٦، ٢٧) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعِزِّ حِسَابٍ﴾ يقول لبيه ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك، والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد البارئ تعالى بها، فقال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقيصرة ومن تبعهم ويؤتية أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشية الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله، لا

يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرون عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَالْفِكَرَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُيَسَتْ فِيهَا قَالُوا تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْحَرُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فأخبر أن اتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وَعِزُّكَ مِّنْ تَشَاءَ﴾ بطاعتك ﴿وَوَيْلٌ مِّنْ تَشَاءَ﴾ بمعصيتك ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيتك وقدرتك ﴿تُولِيهِ الْيَلَدُ فِي النَّهَارِ وَتُولِيهِ النَّهَارُ فِي الْيَلَدِ﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزروع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وَتَرْزُقُ مِّنْ تَشَاءَ يَخْتَارُ حِسَابُ﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

يُوجَدُ سَبَبٌ يَسْتَقِلُّ بِشَيْءٍ، بَلِ الْأَسْبَابُ كُلُّهَا تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَمِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سَبَبًا لِحَصُولِ الْمَلِكِ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، الَّتِي مِنْهَا اجْتِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَاتِّفَاقُهُمْ، وَإِعْدَادُهُمُ الْآلَاتِ الَّتِي يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا وَالصَّبْرُ وَغَيْرُهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الْآيَةَ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ سَبَبًا لِلِاسْتِخْلَافِ الْمَذْكُورِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَالْفِكَرَ قُلُوبِهِمْ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُيَسَتْ فِيهَا قَالُوا تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْحَرُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ اتِّلَافَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَثَبَاتَهُمْ وَغَيْرُ ذَلِكَ سَبَبٌ لِلنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَأَنْتَ إِذَا اسْتَقَرَّتِ الدُّوَلُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَجَدْتَ السَّبَبَ الْأَعْظَمَ فِي زَوَالِ مَلِكِهَا تَرْكُ الدِّينِ وَالْفِرْقِ الَّذِي أَطْمَعَ فِيهِمُ الْأَعْدَاءُ وَجَعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِزُّكَ مِنْ تَشَاءَ﴾ بِطَاعَتِكَ ﴿وَوَيْلٌ مِنْ تَشَاءَ﴾ بِمَعْصِيَتِكَ ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لَا يَمْتَنَعُ عَلَيْكَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ بَلِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا طَوَّعَ مَشِيَّتَكَ وَقَدْرَتَكَ ﴿تُولِيهِ الْيَلَدُ فِي النَّهَارِ وَتُولِيهِ النَّهَارُ فِي الْيَلَدِ﴾ أَيْ: تَدْخُلُ هَذَا عَلَى هَذَا، وَهَذَا عَلَى هَذَا، فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْفُصُولِ وَالضِّيَاءِ وَالنُّورِ وَالشَّمْسِ وَالظَّلِّ وَالسَّكُونِ وَالْإِنْتِشَارِ، مَا هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كَالْفَرَخِ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَكَالشَّجَرِ مِنَ النَّوَى، وَكَالزَّرْعِ مِنَ الْبَذْرِ، وَكَالْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كَالْبَيْضَةِ مِنَ الطَّائِرِ وَكَالنَّوَى مِنَ الشَّجَرِ وَكَالْحَبِّ مِنَ الزَّرْعِ، وَكَالْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَهَذَا أَعْظَمُ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ مَسْخُورَةٌ مَدْبُورَةٌ لَا تَمْلِكُ مِنَ التَّدْبِيرِ شَيْئًا، فَخَلَقَهُ تَعَالَى الْأَضْدَادَ، وَالضَّدَّ مِنْ ضَدِّهِ بَيَانُ أَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ﴿وَتَرْزُقُ مِنْ تَشَاءَ يَخْتَارُ حِسَابُ﴾ أَيْ: تَرْزُقُ مِنْ تَشَاءَ رِزْقًا وَاسِعًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَلَا يَكْتَسِبُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

(٢٨-٣٠) ﴿لَا يَخْتَفِرُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ۚ إِلَّا أَنْ تَسْقُوهُمْ مِنْهُمُ ثَغْنَةً ۚ وَيُجْزِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۚ ۝ قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا بِعِلْمِهِ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ ۝ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۚ وَيُجْزِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۚ وَاللَّهُ زَوَّاقٌ بِالْجَوَادِ ۚ وَهَذَا نَهَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ بِالْمَحَبَّةِ وَالنَّصْرَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج» وأما قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَسْقُوهُمْ مِنْهُمُ ثَغْنَةً﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والثناء ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منك منكرًا» إلخ، فالؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه، وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله، بل غاية أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكنه الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يجهل الله إلا لمن أكرهه إلخ.

القيامة، فهو الذي توفي به النفوس بأعمالها، فلها قال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول: ﴿بَحْسَرَتِي عَلَى مَا فَطَرْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْزِزُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ ﴿يَوَلِّيْ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ التَّشْرِيقَيْنِ فَيَنسُ الْكُفْرَيْنِ﴾ فوالله ترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار، أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور، فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتفسر قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فنسأله أن يمن علينا بالحد من الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

(٣١) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة، فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حفظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبههم لله، وما

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٨﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزِيلُ مَنِي لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُ مِنْ يَشَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾

نقص من ذلك نقص.

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله، فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلها قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بل ييغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكان في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

(٣٧-٣٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ

أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً.

ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نجهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزي^(٢) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الشاء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكاهم مخلدة ومناقهم مؤبدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى، وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرًا﴾ أي: والدة مريم لما حملت ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾. أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿تَقَبَّلْ مِنِّي﴾ هذا العمل المبارك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ كأنها تشوقت أن يكون ذكرًا ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقفاً، ففي كلامها [نوع]^(٣) عذر من ربها، فقال الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرِيَّةً فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيدهم الله من الشيطان الرجيم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: بنت نباتاً حسناً في بدنها وخلقتها وأخلاقها، لأن الله تعالى قبض لها زكريا عليه السلام ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ إياه، وهذا من رفقته بها ليربيها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلاتها فكان ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِعْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا ﴿أَنْ لَّكَ هَذَا قُلْتُ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فضلاً وإحساناً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير حساب من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً

السَّامِعِ الْعَلِيمِ ۖ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرِيَّةً وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۖ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِعْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمِرِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن^(١) معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه لليران وولده للقربان وماله للضيغان، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده، لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ، فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار: ﴿وَمِنْ آلِيهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَآخِثِيَّتُهُمْ وَهَدِيَّتُهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من

(١) في الأصل: ومنمن (٢) في الأصل: نزدي. (٣) الكلمة غير واضحة في الأصل، ويبدو - والله أعلم - أنها كما أثبت.

سورة آل عمران

٥٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

هَذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِيعًا بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ أَي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له دعاءه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيدًا يرجع إليه في الأمور ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: ممنوعًا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالًا بخدمة ربه وطاعته ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فأى بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبيا من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، وكيف وقد اجتمعا، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجالاً لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على وجود الولد ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها، ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من الحراب ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِشَاءً﴾ أي: أول النهار وآخره.

لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاهها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلهذا قال تعالى:

(٣٨-٤١) ﴿هَذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ○ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ○ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ○ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِيعًا بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ○ أَي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له دعاءه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيدًا يرجع إليه في الأمور ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: ممنوعًا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالًا بخدمة ربه وطاعته ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فأى بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبيا من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، وكيف وقد اجتمعا، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجالاً لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على وجود الولد ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها، ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من الحراب ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِشَاءً﴾ أي: أول النهار وآخره.

(٤٢-٤٤) ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ○ يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ○ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ○ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ○ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ○ أَي: اختارك الله تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت: ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك الله تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت: ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ من الآفات المنقصة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلهذا قالت لها الملائكة: ﴿يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم ما أمرت به شكرًا لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله

فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيًا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله ﴿وَجِئَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: له الواجهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيئًا عند الله، يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربه، بل هو عليه السلام من سادات المقربين ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي النَّهْدِ وَكَهَلًا﴾ وهذا غير التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربه، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: يمن عليه بالصلاح، من من عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَّلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراه: كن فيكون، فمن تيقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة البارئ تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصًا لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده، ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها، فقال: ﴿أَفَرَأَى بِرَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أَفَرَأَى رَبَّكَ الْأَكْرَمُ ○ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ○ والمراد

نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قبضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عندهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهَمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقتنعوا عليها بأن ألقوا أفلأهم في النهر، فأيهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنتك رسول الله حقًا، فوجب عليهم الانقياد لك وامثال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ الآيات.

(٤٥-٥٨) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَشْتَرِي بِكَ كَهْنًا مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِئَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ○ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي النَّهْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ○ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَّلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ○ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ○ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَنَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْصِتُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُورِثَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ○ إِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ○ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْغَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمٌ ○ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا آتَيْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ○ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ○ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمًا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ○ فَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ○ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يَجُبُ الظَّالِمِينَ ○ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ○ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله، لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم،

سورة آل عمران

٥٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
 وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ أَيُّ طَيْرًا لَهُ رُوحٌ يَطِيرُ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِيءُ
 الْأَكْمَهَ ۖ وَهُوَ الَّذِي يُولِدُ أَعْمَى ۖ وَالْأَنْثَرَى ۖ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنْحِي
 الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَأَيُّ آيَةٍ أَكْبَرُ مِنْ جَعْلِ الْجُمَادِ
 حَيَوَانًا ۖ وَإِبْرَاءِ ذَوِي الْعَاهَاتِ الَّتِي لَا قُدْرَةَ لِلْأَطْبَاءِ فِي
 مُعَالَجَتِهَا ۖ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى ۖ وَالْإِخْبَارِ بِالْأُمُورِ الْغَيْبِيَةِ ۖ فَكُلُّ
 وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ بِمُفْرَدِهَا ۖ فَكَيْفَ بِهَا إِذَا
 اجْتَمَعَتْ وَصَدَّقَ بَعْضُهَا بَعْضًا ۖ فَإِنَّمَا مَوْجِبَةٌ لِلِإِقْبَانِ وَدَاعِيَةٌ
 لِلِإِيمَانِ ﴿وَمُصَدِّقَةٌ لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ ۖ أَيُّ آيَةٍ
 بَجَسْنِ مَا جَاءَتْ بِهِ التَّوْرَةُ وَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ۖ
 وَعَلَامَةُ الصَّادِقِ أَن يَكُونَ خَبْرُهُ مِنْ جِنْسِ خَبَرِ الصَّادِقِينَ ۖ يَخْبِرُ
 بِالصِّدْقِ ۖ وَيَأْمُرُ بِالْعَدْلِ مِنْ غَيْرِ تَخَالُفٍ وَلَا تَنَاقُضٍ ۖ بِخِلَافِ
 مَنْ ادَّعَىٰ دَعْوَىٰ كَاذِبَةٍ ۖ خُصُوصًا أَكْثَرُ الدَّعَاوَىٰ وَهِيَ دَعْوَىٰ
 النُّبُوَّةِ ۖ فَالْكَاذِبُ فِيهَا لَا يَدَّ أَنْ يَظْهَرَ لِكُلِّ أَحَدٍ كَذِبَ صَاحِبِهَا
 وَتَنَاقُضُهُ وَمُخَالَفَتُهُ لِأَخْبَارِ الصَّادِقِينَ وَمُوَافَقَتُهُ لِأَخْبَارِ
 الْكَاذِبِينَ ۖ هَذَا مُوجِبُ السَّنَنِ الْمَاضِيَةِ وَالْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ
 وَالرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بَعْبَادِهِ ۖ إِذْ لَا يَشْتَبِهُ الصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ فِي
 دَعْوَىِ النُّبُوَّةِ أَبَدًا ۖ بِخِلَافِ بَعْضِ الْأُمُورِ الْجَزْئِيَّةِ ۖ فَإِنَّهُ قَدْ
 يَشْتَبِهُ فِيهَا الصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ ۖ وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا
 هِدَايَةُ الْخَلْقِ أَوْ ضَلَالَتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَشَقَاؤُهُمْ ۖ وَمَعْلُومٌ أَنَّ
 الصَّادِقَ فِيهَا مِنْ أَكْمَلِ الْخَلْقِ ۖ وَالْكَاذِبُ فِيهَا مِنْ أَسْفَلِ الْخَلْقِ
 وَأَكْثَرُهُمْ وَأَظْلَمُهُمْ ۖ فَحِكْمَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ بَعْبَادِهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا
 مِنَ الْفُرُوقِ مَا يَتَبَيَّنُ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَقْلٌ ۖ ثُمَّ أَخْبَرَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ فِيهَا سَهُولَةٌ وَيسْرَةٌ ۖ فَقَالَ:
 ﴿وَلَا أُحِجِّلُ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ۖ فَذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ
 أَكْثَرَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ لَمْ يَنْسَخْهَا الْإِنْجِيلُ ۖ بَلْ كَانَ مَتَمِّمًا لَهَا
 وَمُقَرَّرًا

قوله: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه
 وأطيعوني، فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
 فَاعْبُدُوهُ﴾ استدلل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على
 توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي
 خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعمًا ظاهرة وباطنة، فليكن هو
 معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء
 والاستعانة وجميع أنواع العبادات، وفي هذا رد على النصارى
 القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه
 عبد مدبر مخلوق، كما قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
 نَبِيًّا ۖ وَقَالَ تَعَالَىٰ ۖ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ
 اعْبُدُونِي ۖ وَأُمِّي إِلَهُي ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ
 مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِن كُنتَ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ۖ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا
 مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ۖ وقوله ﴿هَذَا﴾ أي: عبادة
 الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الجحيم،
 ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ أي: رأى منهم عدم الانقياد
 له، وقالوا هذا سحر مبين، وهما يقتله وسعوا في ذلك ﴿قَالَ﴾

بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها،
 فيكون ذلك امتنانًا على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة
 والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر
 له كما لا آخر فضلًا زائدًا على ما أعطاه الله من الفضائل،
 فقال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فأرسله الله إلى هذا الشعب
 الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله،
 وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقًا ونبية صدقًا،
 ولهذا قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ
 الطَّيْرِ﴾ أي: أصوره على شكل الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
 طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: طيرًا له روح يطير بإذن الله ﴿وَأُبْرِيءُ
 الْأَكْمَهَ﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿وَالْأَنْثَرَى﴾ بإذن الله ﴿وَأُنْحِي
 الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وأي آية أعظم من جعل الجماد
 حيوانًا، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في
 معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل
 واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا
 اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية
 للإيمان ﴿وَمُصَدِّقَةٌ لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: آتيت
 بجسْنِ ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام،
 وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر
 بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض، بخلاف
 من ادعى دعوى كاذبة، خصوصًا أعظم الدعاوى وهي دعوى
 النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها
 وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار
 الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية
 والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبهه الصادق بالكاذب في
 دعوى النبوة أبدًا، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد
 يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه يترتب عليها
 هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن
 الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أسفل الخلق
 وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما
 من الفروق ما يتبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه
 السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسر، فقال:
 ﴿وَلَا أُحِجِّلُ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فذل ذلك على أن
 أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل، بل كان متممًا لها
 ومقررًا
 ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على صدقي ووجوب
 اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾ مِثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٣﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٤﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَهُمْ وَأَنْسَاءَنَا وَأَنْسَاءَهُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾

بالله وآياته ورسله ﴿فَاعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم

أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴿من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله﴾ قَالَ الْخَوَارِجُ ﴿وهم الأنصار﴾ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴿أي انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا:﴾ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقترنت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلماذا قال تعالى هنا: ﴿وَمَكْرُؤًا﴾ أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم جزاء لهم على مكربهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالاثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله، قال الله ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَيْنَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ مِثْلُ كَيْدِكِ الَّذِي بِنَاوْنَاهُ وَلَهُ اعْظَمُ حِكْمَةٍ فِي إِلْقَاءِ الشُّبْهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ، فوقعوا في الشبه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَيُبَيِّنَنَّ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظُّلُمِ وَمَا قُلُوهُ يُقِينَا﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المتتبعين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ أي: مصير الخلاق كلها ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطيء، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي:

سخطه وعذابه ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ وهذا منه عظمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وأخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت القواد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

(٥٩، ٦٠) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا من أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البتة والإلهية في المسيح، فادعائها في آدم من باب أولى وأحرى، فلماذا قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قصص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدر فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تتحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلة ويدعو إليه.

(٦١-٦٣) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ فَقُلْ

تَقَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكَ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكَ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلِكِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: ﴿فَمَنْ جادلَكَ و﴿حَاجَّكَ﴾ في عيسى عليه السلام، وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلِيمٍ﴾ بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلَكَ ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجدا له فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباحثته وملاعبته، فيدعون الله ويتهللون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلاً ولا مالاً وعوجلوا بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلماذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قصه الله على عباده هو ﴿الْفَصْلُ الْحَقُّ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَلِكِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاثلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل^(١).

(٦٤) ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَتِ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَتِ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مخصصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل، ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ فنفرده

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير، فقد أخرج تفسير قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد أبقيتها على ما هي عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ
 الْعَرْشُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٧﴾
 قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
 بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿٦٨﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
 إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ هَكَأَنْتُمْ هُنَا لَا حُجَّتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ
 بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
 وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٣﴾ يَٰ أَهْلَ
 الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٤﴾

وانصارهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود
 والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا
 ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت
 هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم،
 وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح
 له فيه، وفيها أيضا حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير
 من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من
 التاريخ، ثم قال تعالى:

(٦٩-٧٤) ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا
 يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ○ ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ○ ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
 بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَسْلُمُونَ﴾ ○ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ
 رِجْسًا ○ وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْفِتْنَةَ هَذِي اللَّهُ أَنْ
 يُؤْتِيَ أَحَدًا مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُجَازِيَكُمْ عَنْهُ بِقِسْمٍ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ
 يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ○ يُخَلِّصُ رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
 الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه

الله بالعبادة، ونخصه بالحب والخوف والرجاء، ولا نشرك به
 نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا
 جمادا ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضًا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بل تكون
 الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية
 الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا
 دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا
 مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم
 معاندون متبعون أهواءهم، فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل
 الفائدة في ذلك أنكم إذا قلمت لهم ذلك وأنتم أهل العلم على
 الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم، كما
 استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضا فإنكم
 إذا أسلمتم أنتم وأمتهم فلا يعبا الله بعدم إسلام غيركم لعدم
 زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا
 تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾
 الآية، وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما
 يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارا بيقينه
 وشكرا للنعمة ربه.

(٦٥-٦٨) ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
 أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ○ هَكَأَنْتُمْ هُنَا لَا
 حُجَّتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ○ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما ادعى
 اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني،
 وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة
 أوجه، أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم
 به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في
 أمر هم أجانب عنه، وهم جادلوا في أحكام التوراة
 والإنجيل، سواء أخطأوا أم أصابوا، فليس معهم المحاجة في
 شأن إبراهيم، الوجه الثاني: أن اليهود يتسبون إلى أحكام
 التوراة، والنصارى يتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة
 والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم
 إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم، فهل هذا: يعقل؟! فلماذا قال:
 ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك،
 الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى
 والمشركين، وجعله حنيفا مسلما، وجعل أولى الناس به من
 آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم
 الذين اتبعوه، وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم

الْبَاطِلِ

٥٩

سُورَةُ آلِ

يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لَمْ تَلْسُوتِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكم
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ
عِلْمُهُ ﴿٧٣﴾ يَخْصُصُ رَحْمَتَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَإِيمًا ذَاكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا
خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

دِينَكُمْ ﴿٧١﴾ أي: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع
دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من
هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا
مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت
عليكم الحجة، وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالحاصل أنهم
جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قطعاً عنهم
العلم، لأن العلم بزعيمهم لا يكون إلا عندهم، وموجباً
للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ فمادة
الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم
الحق، أو إثاره، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا
موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤثروا من العلم إلا
قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخبت نياتهم وسوء
مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم - والله الحمد - من
هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به
وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر

الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم،
كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئاً سعى
بجهدته على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها
في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طرق يقدرون عليه،
ولكن من لطف الله أنه لا يحق المكر السيئ إلا بأهله، فلهاذا
قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فسيهم في إضلال
المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم، قال
تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك أنهم
يسعون في ضرر أنفسهم، وأنهم لا يضروركم شيئاً ﴿يَتَّاهِلُ
الْكِتَابَ لَمْ تَكْفُرُوا﴾ يَأْتِيَتِ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿أي: ما الذي
دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل،
وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل
تشهدون به، ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات،
فهذا نهيمهم عن ضلالهم، ثم وبخهم على إضلالهم الخلق،
فقال: ﴿يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لَمْ تَلْسُوتِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان
الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن
العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا
الأمر مبهماً، وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب
على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد
العوام الذين يريدون الحق لمعرفة حتى يؤثروا، والمقصود
من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلموا به، ويميزوا
الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال
والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي
المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين،
قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن ما همت
به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال:
﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَجَهَ النَّهَارَ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه
المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما
خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه، عجباً
بأنفسهم، وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم، ويتابعونهم
على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو
كره الكافرون ﴿و﴾ قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ

(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأئمين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأئمين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأئميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوى الله وعدم التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأئمين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيُؤْتِيهِمْ مِمَّا أَكْفَرُوا بِهِمْ ثُمَّ يُغَدِّبُونَ اللَّهَ بِغَدَبَتِهِمْ فَتَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ لَعْنًا﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهؤلاء ﴿لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

(٧٨) ﴿وَلِإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِحَسَبِهِمْ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله: ﴿لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يلون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتزليل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

(٧٩، ٨٠) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يُوْتِيَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ وَالنَّبِيَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِعْمَ كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ولا

الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلماذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يُؤْتِيهِمْ مِنْ شِئْءٍ﴾ ممن أتى بأسبابه ﴿وَاللَّهُ رَاسِعٌ﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة، وهي نعمة الدين ومتمماته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يصفه الواصفون، ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

(٧٥-٧٧) ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدَيَّ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المؤمنين ○
إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيُؤْتِيهِمْ مِمَّا أَكْفَرُوا بِهِمْ ثُمَّ يُغَدِّبُونَ اللَّهَ بِغَدَبَتِهِمْ فَتَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ لَعْنًا وَالَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيُؤْتِيهِمْ مِمَّا أَكْفَرُوا بِهِمْ ثُمَّ يُغَدِّبُونَ اللَّهَ بِغَدَبَتِهِمْ فَتَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ لَعْنًا وَالَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيُؤْتِيهِمْ مِمَّا أَكْفَرُوا بِهِمْ ثُمَّ يُغَدِّبُونَ اللَّهَ بِغَدَبَتِهِمْ فَتَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ لَعْنًا وَالَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيُؤْتِيهِمْ مِمَّا أَكْفَرُوا بِهِمْ ثُمَّ يُغَدِّبُونَ اللَّهَ بِغَدَبَتِهِمْ فَتَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ لَعْنًا ○
والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه ﴿لَيْسَ﴾ عليهم ﴿فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأئمين حرمة، وأجازوا ذلك، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله، وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله ليس يخبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، فلماذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم إثماً من القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال: ﴿بِكُلِّ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأئمين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم.

﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَأَتَّقَى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنْزِلَ عَلٰى اِبْرٰهِيْمَ
وَاسْمٰعِيْلَ وَاسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْاَسْبَاطِ وَمَا اُوْتِيَ
مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَّبْتَغِ عِوَاذَ الْاِسْلَامِ
دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوْا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوْا
اَنَّ الرّٰسُوْلَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنٰتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظّٰلِمِيْنَ ﴿٨٦﴾ اُولٰٓئِكَ جَزَاؤُهُمْ اَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ
وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ اَجْمَعِيْنَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ ﴿٨٨﴾ اِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْ
بَعْدِ ذٰلِكَ وَاصْلَحُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رّحِيْمٌ ﴿٨٩﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ
كَفَرُوْا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ ثُمَّ اَزْدَادُوْا كُفْرًا لَّنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الضّٰلُّوْنَ ﴿٩٠﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَمَاوَاؤُهُمْ
كُفْرًا لَّنْ يُقْبَلَ مِنْ اَحَدِهِمْ مِّلٌ اِلَّا اَرْضٌ ذَهَبًا وَلَوْ
اَفْتَدٰى بِهٖٔ اُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نّٰصِرِيْنَ ﴿٩١﴾

بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل، بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِٗٔ اَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿فَلَمَّا رَاغُوا اَزَاحَ اللّٰهُ قُلُوْبَهُمْ﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة، ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال: ﴿وَأُولٰٓئِكَ هُمُ الضّٰلُّوْنَ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملاء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجبر ينقذهم من عذاب الله، فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياًذاً بالله من حالهم.

المسلمون المتقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويحازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنْزِلَ عَلٰى اِبْرٰهِيْمَ
وَاسْمٰعِيْلَ وَاسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْاَسْبَاطِ وَمَا اُوْتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى
وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُّسْلِمُوْنَ﴾
تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى:

(٨٥) ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ عِوَاذَ الْاِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله، فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بشوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

(٨٦-٨٨) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوْا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ
وَشَهِدُوْا اَنَّ الرّٰسُوْلَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنٰتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظّٰلِمِيْنَ ۝ اُولٰٓئِكَ جَزَاؤُهُمْ اَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ
اَجْمَعِيْنَ ۝ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ﴾
هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات ﴿وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحرى أن ييسر الله له أسباب الهداية، ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿اُولٰٓئِكَ جَزَاؤُهُمْ اَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ اَجْمَعِيْنَ ۝ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ﴾ أي: لا يفتّر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا يبالته أو إزالة بعض شدته، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم، وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم من خير لوجد، ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه.

(٩٠، ٩١) ﴿اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ ثُمَّ اَزْدَادُوْا كُفْرًا لَّنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الضّٰلُّوْنَ ۝ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَمَاوَاؤُهُمْ
كُفْرًا لَّنْ يُقْبَلَ مِنْ اَحَدِهِمْ مِّلٌ اِلَّا اَرْضٌ ذَهَبًا وَلَوْ اَفْتَدٰى بِهٖٔ
اُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نّٰصِرِيْنَ﴾ يخبر تعالى أن من كفر

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٢

الْمَلِكِ

لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَنِ انْفَقَا مِنْ شَيْءٍ
فَاتَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ﴿٩٢﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَنِ انْفَقَا مِنْ شَيْءٍ
فَاتَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ﴿٩٣﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي
إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾
فَمَنْ أَفَرَّئِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٥﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةٍ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ
مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾
قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عَوَاجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
بِعَظِيمٍ ﴿١٠٠﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ اتَّبِعُوا الْوَحْيَ الَّذِي يُنَزَّلُ فِي
فَرِّقَانٍ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠١﴾

(٩٢) ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَنِ انْفَقَا مِنْ شَيْءٍ
فَاتَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في
طرق الخيرات، فقال: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَنِ انْفَقَا مِنْ شَيْءٍ
فَاتَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ﴾ أي: تدرکوا وتبلغوا البر
الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المشويات،
الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ أي: من
أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة
الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على
إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فدخل في ذلك
إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما
أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب
إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما
نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مثاباً عليه
العبد، سواء كان قليلاً أو كثيراً، محبوباً للنفس أم لا، وكان
قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ مما يوهم أن إنفاق
غير هذا المقيد غير نافع، احتراز تعالى عن هذا الوهم بقوله:
﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل
يشيكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

(٩٣-٩٥) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ○ فَمَنْ أَفَرَّئِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ○ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن
النسخ غير جائز، فكفروا بعبسى ومحمد صلى الله عليهما
وسلم، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة
بالتحليل والتحریم، فمن تمام الإنصاف في المجادلة إلزامهم
بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني
إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى
نَفْسِهِ﴾ أي: من غير تحریم من الله تعالى، بل حرمه على
نفسه لما أصابه عرق التَّسَا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرمن
أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل والبانها،
وتبعه بنوه على ذلك، وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في
التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان
حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى: ﴿فَيُظْهِرُ مِنَ الذَّيْتِ هَادَاً حَرَمًا
عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٍ أُحْلَتْ لَهُمْ﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن
يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم
والعناد، فلماذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَفَرَّئِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى
إلى تحكيم كتابه، فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وتجبراً، وهذا

من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات
البيانات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما
أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلماذا
قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا
أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بالستهم: صدق الله،
معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة
على من أنكروها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله
أعظمهم علماً و يقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم
أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك
الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركة حصول الشقاوة، وفي
هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم
مشركون غير موحدین، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في
التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج
 وغيره، فقال:

(٩٦، ٩٧) ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةٍ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِلْعَالَمِينَ ○ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ
عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

المشركين به الكافرين برهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حبيتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهجه، ومن جعله حرماً أن كل من أراد بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم ها هنا كلاماً حسناً أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه، قال: فائدة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «ولله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «ولله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمل.

وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمشابه ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنِ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤول إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطع بعبزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج

عَنِ الْكَافِرِينَ يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضا ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، ﴿وَهَٰذِهِ لِبَلَّتَيْنِ﴾ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما منَّ به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يحتمل أن المراد به المقام المعروف، وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل: أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة، وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل: إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه. ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعهما، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرًا، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل بهذا الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرًا فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس، حتى نفوس

لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم، وبيانه أعني هذا تقرير السهلي، وهذا بعيد جدًا، بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس»، أي: يجب لله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالًا منها، ففي غاية البعد فتأمل، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: الله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْيَتَةُ﴾، ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي﴾، وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه: أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف «على» أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلًا، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: لعدم التزامه هذا الواجب وتركه، ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عمومًا، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنيًا عن العالمين كلهم، فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأکید، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البديل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البديل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناء به وتأكيدها، ثم تأمل كيف افتتح هذا

المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقًا بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان «مَنْ» هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحمله على باب «يعجبني ضرب زيد عمرًا» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول، والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه. وإذا ثبت أن «مَنْ» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه هنا أمور منها: أن «من» واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به، ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إخوانك من ذهب إلى السوق منهم، كان قبيحًا، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضيفته إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف المضاف في هذه أيضًا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأما المجرور من قوله «الله» فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقًا بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لما كان عبارة ها هنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير،

بلى إنه يبلى والهوى على
 حاله^(١) لم يبلى الملوان^(٢)
 وهذا محب قاده الشوق والهوى
 بغير زمام قبائد وعنان
 أتاك على بعد المزار ولو ونت
 مطيته جاءت به القدمان
 انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

(٩٨-١٠١) ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
 مِمَّنْ ءَامَنَ تَبَوَّءَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝
 يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ
 إِيمَانِكُمْ كُفْرًا ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْكِلُ عَلَىٰكُمْ مَا بَيَّنَّ اللَّهُ
 وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ يُوخِّ
 تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله
 التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون
 بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم
 النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله
 عنها وتحريفها وتعويجها عما جعلت له، وهم شاهدون
 بذلك، عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم
 العقوبة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
 الَّذِي يَمَآ كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلماذا توعدهم هنا بقوله: ﴿وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل محيط بأعمالكم^(٣) ونياتكم ومكركم
 السيء، فمجازيكم عليه أشر الجزاء لما توعدهم ووبخهم
 عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم لئلا
 يمكروا بهم من حيث يشعرون، فقال: ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن
 تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا ۚ وَذَلِكَ
 لِحَسْبِهِمْ وَبَغْيِهِمْ عَلَيْكُمْ، وشدة حرصهم على ردكم عن
 دينكم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
 يَرُدُّوكُمْ مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ
 مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب
 الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن

الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعو النفوس
 إلى قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ
 بَيِّنَةٍ﴾ الخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت
 العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة
 الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر
 خيرًا، ولا أدام، ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى،
 ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى،
 الرابع: ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين
 آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله، وفي وصفه بهذه
 الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه، وإن
 شطت بالزائرين الديار وتناوت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك
 بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على
 الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره،
 والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا
 إضافته إياه إلى نفسه، بقوله: ﴿وَلَطَّحَّرَ بَيِّنَتِي﴾ لكفى بهذه
 الإضافة فضلًا وشرقًا، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب
 العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقًا إلى رؤيته، فهذه
 المثابة للمحبين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطرا أبدًا، كلما
 ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبًا وإليه اشتياقًا، فلا الوصال
 يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة

إليه وهل بعد الطواف تداني
 وألثم منه الركن أطلب برد ما
 بقلبي من شوق ومن هيمان
 فوالله ما أزداد إلا صبابه
 ولا القلب إلا كثرة الخفقان
 فيا جنة المأوى ويا غاية المنى
 ويا منيتي من دون كل أمان
 أبت غلبات الشوق إلا تقربا
 إليك فما لي بالبعد يدان
 وما كان صدي عنك صد ملالة
 ولي شاهد من مقلتي ولسان

دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا
 فلبى البكا والصبر عنك عصاني
 وقد زعموا أن المحب إذا نأى
 سبلى هواه بعد طول زمان
 ولو كان هذا الزعم حقًا لكان ذا
 دواء الهوى في الناس كل زمان

(١) في الهامش كتب: أي: الهوى. (٢) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله:

بلى إنه يبلى المحب وإنه
 على حاله لم يبلى الملوان)
 ومراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي:

بلى إنه يبلى التصبر والهوى
 على حاله لم يبلى الملوان
 (٣) في الأصل: بأعمالهم، ولعل الصواب ما أثبت.

بذكرها، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتيال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وآمنوا به، واجتمعوا على الإسلام، وتآلفت قلوبهم على الإيمان، كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالات بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحَ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي قد استحققتكم^(١) النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بما منَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرهما، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكراً له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ، واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

(١٠٤، ١٠٥) ﴿وَلَنَتَكَلَّمَنَّ بِكُمْ أُمَّهُ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ولكن منكم أيها المؤمنون الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّهُ﴾ أي: جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس، وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكشفهم المكاييل والموازن، وتفقد أهل الأسواق، ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروع الكفايات، كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلَنَتَكَلَّمَنَّ بِكُمْ أُمَّهُ﴾ الخ

إيقانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُكَلِّمُ عَلَى اللَّهِ ءَايَتُكُمْ رَسُولُهُ﴾ أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجبها والجزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فضلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً، ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله، وبين الاعتصام بالله.

(١٠٢، ١٠٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحَ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشبثوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيئاً إليه على الدوام، ثبته الله عند موته، ورزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه، كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى، وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاتحاد يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الاتلاف ما لا يمكن عداها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالاتفاق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: استحققتكم.

سُورَةُ آلِ

٦٣

الْإِمْرَانِ

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٦﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلَسَوْتُمْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾

يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيهنئون وأكمل تهنته، ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يشرون بدخول الجنات ورضا ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا﴾ أي: نقصها ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ لأن أوامره ونواهيه مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك، فلا ينقص أحداً شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي

أي: لتكون منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشئ أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البالغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١٠٦-١٠٨) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَصْرًا وَسُرُورًا﴾ نصرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْسُلُهَا وَرَتَّبْنَاهُمْ لَذَّةَ مَا لَمْ يَنْ آتُوا مِنْ عَاصِرٍ ۚ كَانُوا أَغْشَىٰ وُجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريع: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: كيف أثرت الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَصُرَوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُواكُمْ يُؤَلِّمُكُمُ الْإِدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصِرُّوكمُ ﴿١١١﴾ ضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ يَمْدَحُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ وَيُخْبِرُ أَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَمِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ، وَذَلِكَ بِتَكْمِيلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِيمَانِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْقِيَامِ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبِتَكْمِيلِهِمْ لِغَيْرِهِمْ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْمُتَضَمِّنِ دَعْوَةَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ، وَجِهَادِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ الْمُسْتَطَاعِ فِي رَدِّهِمْ عَنْ ضَلَالِهِمْ وَغِيهِمْ وَعَصْيَانِهِمْ، فَهَذَا كَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أَمْرًا مِنْهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْأَمْرُ قَدْ يُمَثِّلُهُ الْمَأْمُورُ وَيَقُومُ بِهِ، وَقَدْ لَا يَقُومُ بِهِ، أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأُمَّةَ قَدْ قَامَتْ بِمَا أَمَرَهَا اللَّهُ بِالْقِيَامِ بِهِ، وَامْتَلَتْ أَمْرَ رَبِّهَا، وَاسْتَحَقَّتِ الْفَضْلَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وَفِي هَذَا مِنْ دَعْوَتِهِ بِلُطْفِ الْخُطَابِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، الْمَعَادُونَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الْعَدَاوَةِ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ رَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، فَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ضَرَرٌ فِي أَدْيَانِهِمْ وَلَا أَبْدَانِهِمْ، وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى أَذْيَةُ الْكَلَامِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْهَا مِنْ كُلِّ مَعَادِي، فَلَوْ قَاتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ لَوَلُوا الْأَدْبَارَ فَرَارًا، ثُمَّ تَسْتَمِرُّ هَزِيمَتُهُمْ وَيَدُومُ ذُلُّهُمْ، وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَاقِبَهُمْ بِالذِّلَّةِ فِي بَوَاطِنِهِمْ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ، فَلَا يَسْتَقِرُّونَ وَلَا يَطْمَئِنُّونَ ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عَهْدٌ ﴿مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ فَلَا يَكُونُ الْيَهُودُ إِلَّا تَحْتَ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ وَعَهْدِهِمْ، تَوَخَّذَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَيَسْتَدْلُونَ، أَوْ تَحْتَ أَحْكَامِ النَّصَارَى، وَقَدْ ﴿وَبَاءَ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿يَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ وَهَذَا أَكْثَرُ الْعُقُوبَاتِ، وَالسَّبَبُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَوْجِبَةِ لِلْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، فَكَفَرُوا بِهَا بَغْيًا وَعِنَادًا ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أَيِ: يَقَابِلُونَ أَنْبِيَاءَ

شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

(١١٠-١١٢) ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ لَنْ يَصُرَوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُواكُمْ يُؤَلِّمُكُمُ الْإِدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصِرُّوكمُ ﴿١١١﴾ ضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ يَمْدَحُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ وَيُخْبِرُ أَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَمِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ، وَذَلِكَ بِتَكْمِيلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِيمَانِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْقِيَامِ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبِتَكْمِيلِهِمْ لِغَيْرِهِمْ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْمُتَضَمِّنِ دَعْوَةَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ، وَجِهَادِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ الْمُسْتَطَاعِ فِي رَدِّهِمْ عَنْ ضَلَالِهِمْ وَغِيهِمْ وَعَصْيَانِهِمْ، فَهَذَا كَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أَمْرًا مِنْهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْأَمْرُ قَدْ يُمَثِّلُهُ الْمَأْمُورُ وَيَقُومُ بِهِ، وَقَدْ لَا يَقُومُ بِهِ، أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأُمَّةَ قَدْ قَامَتْ بِمَا أَمَرَهَا اللَّهُ بِالْقِيَامِ بِهِ، وَامْتَلَتْ أَمْرَ رَبِّهَا، وَاسْتَحَقَّتِ الْفَضْلَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وَفِي هَذَا مِنْ دَعْوَتِهِ بِلُطْفِ الْخُطَابِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، الْمَعَادُونَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الْعَدَاوَةِ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ رَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، فَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ضَرَرٌ فِي أَدْيَانِهِمْ وَلَا أَبْدَانِهِمْ، وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى أَذْيَةُ الْكَلَامِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْهَا مِنْ كُلِّ مَعَادِي، فَلَوْ قَاتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ لَوَلُوا الْأَدْبَارَ فَرَارًا، ثُمَّ تَسْتَمِرُّ هَزِيمَتُهُمْ وَيَدُومُ ذُلُّهُمْ، وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَاقِبَهُمْ بِالذِّلَّةِ فِي بَوَاطِنِهِمْ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ، فَلَا يَسْتَقِرُّونَ وَلَا يَطْمَئِنُّونَ ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عَهْدٌ ﴿مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ فَلَا يَكُونُ الْيَهُودُ إِلَّا تَحْتَ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ وَعَهْدِهِمْ، تَوَخَّذَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَيَسْتَدْلُونَ، أَوْ تَحْتَ أَحْكَامِ النَّصَارَى، وَقَدْ ﴿وَبَاءَ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿يَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ وَهَذَا أَكْثَرُ الْعُقُوبَاتِ، وَالسَّبَبُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَوْجِبَةِ لِلْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، فَكَفَرُوا بِهَا بَغْيًا وَعِنَادًا ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أَيِ: يَقَابِلُونَ أَنْبِيَاءَ

الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشْرَ مُقَابَلَةٍ، وَهُوَ الْقَتْلُ، فَهَلْ بَعْدَ هَذِهِ الْجِرَاءَةِ وَالْجَنَائَةِ شَيْءٌ أَكْثَرُ مِنْهَا، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، فَهُوَ الَّذِي جَرَأَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَقَتْلِ أَنْبِيَائِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

(١١٣-١١٥) ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفِّرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١١٥﴾ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى الْفَرْقَةَ الْفَاسِقَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَيَّنَّ أَفْعَالَهُمْ وَعُقُوبَاتِهِمْ، بَيَّنَّ هَاهُنَا الْأُمَّةَ الْمُسْتَقِيمَةَ، وَبَيَّنَّ أَفْعَالَهَا وَثَوَابَهَا، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَهُ، بَلْ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَرْقِ مَا لَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ، فَأَمَّا تِلْكَ الطَّائِفَةُ الْفَاسِقَةُ فَقَدْ مَضَى وَصْفُهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ تَعَالَى مِنْهُمْ ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أَيِ: مُسْتَقِيمَةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، قَائِمَةٌ بِمَا أَلْزَمَهَا اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَأْمُورَاتِ، وَمِنْ ذَلِكَ قِيَامُهَا بِالصَّلَاةِ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وَهَذَا بَيَانٌ لَصَلَاتِهِمْ فِي أَوْقَاتِ اللَّيْلِ وَطَوَّلِ تَهْجُدِهِمْ وَتِلَاوَتِهِمْ لِكِتَابِ رَبِّهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٥

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
 مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
 صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
 ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا
 وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
 صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
 هَتَأْتُمْ أَزْوَاجًا ثُجُوبُهُمْ وَلَا يُجِيبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
 وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْآيَاتِ
 مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
 إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تُمْسِكُوا وَإِنْ تَبْصُرْكُمْ سَيِّئَةً يَبْصُرْهَا
 بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
 إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
 تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٦﴾
 كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وكذبوا رسوله، وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحببت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

(١١٨-١٢٠) ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَتَأْتُمْ أَزْوَاجًا ثُجُوبُهُمْ وَلَا يُجِيبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْآيَاتِ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تُمْسِكُوا وَإِنْ تَبْصُرْكُمْ سَيِّئَةً يَبْصُرْهَا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ينهي تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهر ونهم على سرائرهم، أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية، وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء

وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيمانًا يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْكَفْرِ﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿و﴾ أنهم ﴿يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يبادرون إليها فينتهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير، ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته؛ ويتغمدهم بغفرانه، وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلًا كان أو كثيرًا ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يشبههم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِرِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقَعُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

(١١٦، ١١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، أي: لا تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئًا من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زادًا لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله، ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعًا يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله

فظهرت على أفواههم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يسمع منهم، فلهذا ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ حَيَالًا﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة، وعمل الأسباب التي فيها ضرركم، ومساعدة الأعداء عليكم، قال الله للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلى بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره، ولا يطلع له باطنه على شيء، ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه، قال الله مهيبًا للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبينًا شدة عداوتهم: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَىٰ لَهُمْ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّوْكُمْ وَتُوْمِنُوْنَ بِأَلْكَتِبِ كُتُبِهِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا ءَاَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيَكُمْ أَلْأَنْبِيَاءُ﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿قُلْ مُؤْمِنُوْا بِمَا يَخْبَرُكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرعون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿سَوْفُمْ﴾ أي: تغمهم وتحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصَرْتُمْ لَا تَنْفَقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم، لأنه محيط بهم علمه وقدرته، فلا منفذ لهم عن ذلك، ولا يخفى عليه منهم شيء.

(١٢١، ١٢٢) ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ هَمَّتْ طَآفِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْسَحَا لِلَّهِ وَلِيَّهُمَا وَكَلَّ اللَّهُ فَلْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا، نصرهم ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكمًا عامًا ووعدًا صادقًا لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجًا من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما

يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرًا يسيرًا، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ قَدْ أَصَابَكُمْ مِثْلُهَا﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرعون عليه من العدد بالأموال والرجال والعُدَد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلًا رجع عبدالله بن أبي المنافق بثلاث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا، وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم، وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلًا من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنمة الغنمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبدالله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أحلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبدالله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقالت ساقتهن، فجال المسلمون جولة ابتلاههم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قُتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة

- القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصِيرُوا تَصِيرُوا وَيَأْتُوَكُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا أَيُّ: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِحَسَّةٍ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا تَصِيرُوا وَتَقْتُلُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إمداده لكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرًا﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَاللَّطِيفُ قَلْبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين لبيّن لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال: ﴿عِنْدَ اللَّهِ الْفَتْحُ﴾ فلا يتمتع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

(١٢٧) ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُنَّمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فبهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم، الأمر الثاني: أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر

صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون، كل يتكلم بحسب ما في قلبه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنبأت العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فالله سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه لما ﴿هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفِشْلِ﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم، ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلهذا قال ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة، وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ الْقُلُوبُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في موطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:

(١٢٦-١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ إذ تقول للمؤمنين أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ○ بَلَىٰ إِنْ تَصِيرُوا تَصِيرُوا وَيَأْتُوَكُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِحَسَّةٍ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ○ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَاللَّطِيفُ قَلْبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْفَتْحُ الْحَكِيمُ ○ وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مائة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وقرسان طلب عير لقریش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكاك غيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيال الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة فاقتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتوا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله

إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّوَانْتُمْ أُولَئِكَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ يَقُولُ لِّلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٣٠﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٣١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣٢﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْفَلِتُوا خَائِبِينَ ﴿١٣٣﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣٤﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٦﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٧﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٨﴾

الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه، فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر، فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق، وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختصها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النعمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. تم السفر الأول من هذا التفسير المبارك يسر من الله وإعانة، فله الحمد والشكر والثناء، وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، ويليهِ المجلد الثاني، أوله قول الباري جل جلاله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا

الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما، إما نصر عليهم أو خذل لهم.

(١٢٨، ١٢٩) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ○ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشح رأسه وكسرت ربابته، قال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحرث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نهياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم، بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام، فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسببوا بذلك فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء غيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له، ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال: ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده، بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون، متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مثقال ذرة من

عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم - إذا صبروا واثقوا - نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ثم قال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ الآيات.

فكانت النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح، والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات، أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة، وهي قوله: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومرتين مقيدتين، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾. فقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لِمَنْ أَتَاهَا أَلَمًا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لِمَنْ أَتَاهَا أَلَمًا﴾: افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتنال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح.

فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر، ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن تزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير، ويستدفع غريمه، ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

ففي قوله: ﴿أَضْعَفُ مِثْقَلُهُ﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا، حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فلإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه؛ لأن تركه من موجبات التقوى.

والفلاح متوقف على التقوى، فلهمذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ و﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف

مُصْعَفَةً الآية، وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثالث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، وصلى الله على محمد وسلّم تسليمًا كثيرًا. بقلم جامعه عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدي، غفر الله له ولوالديه، وللمسلمين آمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا، قال تعالى:

(١٣٦-١٣٠) ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لِمَنْ أَتَاهَا أَلَمًا﴾ لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ○ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ○ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ○ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ○ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ الْكَفَافِينَ الْعِظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ○ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ○ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِعَمَلٍ أَلْمَلِينَ^(١) تقدم في مقدمة هذا التفسير، أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر، وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتضمن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهى عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه.

وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي.

ولهذه الآيات الكريمات، قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله [بها]، وحث على فعلها، وأخبر

والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والتفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم، وتباين أوصافهم.

فدخل في ذلك بذل الندي، وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنائياتهم وذنوبهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: صدر منهم أعمال [سيئة]^(٢) كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعده بالعاصين، ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعبوبهم، مع إقلاعهم عنها، وندمهم عليها فلماذا قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة [والجوار]^(٣) والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها، ولا يغيثون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَيَعْمَلُونَ فِيهَا أَبَدًا﴾ عملوا الله قليلاً فأجروا كثيراً فـ«عند الصباح يحمد القوم السرى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة.

وجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سَاقِفُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات، هم أولئك المؤمنون.

درجاتها، فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر، الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة، توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة.

ولهذا قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الآيات.

ثم أمرهم تعالى، بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته، التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْفَرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكمظون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل. والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه، مع السماح عن المسيء، ولهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلّى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكرامة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن، وأعلى، وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى]: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، [والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة الخالق]^(١)، فسرّها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في الأصل:

(السرور) والمثبت من طبعة النجار. (الناشر)

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٧

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٧) الَّذِينَ يَبْقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٩﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَّغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٤٠﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ
﴿١٤١﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٢﴾
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ
﴿١٤٣﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

بل شجعوا قلوبكم، وصبروها، وادفعوا عنها الحزن
وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق
بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر
الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي
والآخروي لا ينبغي منه ذلك.

ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثم سلّاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكيم
العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فأنتم [وهم] (١) قد تساوت في
القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى:
﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلَهُمْ تَأْلَمُونُ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ومن الحكيم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن
والكافر، والبر والفاجر، فידاول الله الأيام بين الناس، يوم
لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا

(١) في الأصل: (وليام) ولعل الصواب ما أثبت.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ هَذَا بَيَانٌ
لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٤١﴾ وهذه الآيات الكريمات،
وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين
ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة،
امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا
في مداولة ومجاوله، حتى جعل الله العاقبة للمتقين، والنصر
لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين،
وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذيين بأنواع
العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد
خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم،
أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت
به الرسل؟!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليلوهم ويتبين صادقهم
من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة
ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل
الشفاعة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم المستفدون بالآيات
فتهديهم إلى سبيل الرشاد، وتعظهم وترجرهم عن طريق
الغي، وأما باقي الناس، فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم
الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ للقرآن
العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموماً، وهدى
وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

(١٣٩-١٤٣) ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ ○ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ
الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ○ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ
الْكُفْرَ ○ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَلُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الظَّالِمِينَ ○ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْعَوْنَ مِنْ قَبْلِ
أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرْتُمْ يَقُولُ تَعَالَى مُشْجَعًا لِّعِبَادِهِ
الْمُؤْمِنِينَ، ومقوياً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا
وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا
في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى،
فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة
عليكم، وعون لعدوكم عليكم.

منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا أيضًا من الحكم أنه يتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسرء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهذا أيضًا من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضًا بدم المنافقين، وأنهم مبعوضون لله، ولهذا يبطئهم عن القتال في سبيله ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَيْنَاهُمُ فَتُبَّتْهُمْ وَقِيلَ لَهُمْ أَفْعَدُّوا مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذا أيضًا من الحكم، أن الله يمحص بذلك المؤمنين، من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، ويمحص الله أيضًا المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق.

ومن الحكم أيضًا أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سببًا لمحققهم، واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغيانًا إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة، واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم.

ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها، ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب - عند أبواب البصائر - منحًا يسرون بها، ولا يبالون

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوْتُهُ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فَوْتُهُ مِنْهَا وَسَخَّرْنَا لِنَفْسِكَ مَا تَرْضَى وَالْكَافِرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْتُمْ مَعَهُ رَيْثُوهَا كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٠﴾ فَجَاءَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥١﴾

بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يمتنون، ويودون حصوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أن كثيرًا من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر، يمتنون أن يحضرهم الله مشهدًا، يبذلون فيه جهدهم.

قال الله تعالى لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: رأيتم ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق، ولا تحسن، خصوصًا لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمتينهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

(١٤٥، ١٤٤) ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ

﴿وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ولم يذكر جزاءهم، ليدل ذلك على كثرة وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسناً.

(١٤٦-١٤٨) ﴿وَكَايْنِ بْنِ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا تسليية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وَكَايْنِ بْنِ نَبِيٍّ﴾ أي: وكم من نبي ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربّتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾.

ثم ذكر قولهم، واستنصارهم لربهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم، الذي قد سلم من جميع المنكبات.

وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، فلماذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق، ومعاملة الخلق. ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء الموصوفين^(٢).

(١) في ب: فلو وقع. (٢) في ب: المؤمنين.

الدُّنْيَا ثَوَابَهُ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم، وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنَ مَا تَأْتِي أَوْ فُتِنَ أُنْقَلَبَكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما ويخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتلأ أمر ربه، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

وفي هذه الآية الكريمة، إرشاد من الله تعالى لعباده، أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه فقد رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين، بعدة أناس من أهل الكفاية فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين، قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ، لأنهم هم سادات الشاكرين.

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بآجالها، بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى^(١) من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه، وقدره، وكتبه إلى أجل مسمى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة، ما تعلقت به إراداتهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٩

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوْكُمْ عَلٰى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰىكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيْرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِيْ
فِيْ قُلُوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَّا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ
مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَمَا وٰهُمْ اِلَّا النَّارُ وَيَسَّ
مَثْوٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ
وَعَدُهُ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاِذْنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِيْ الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰىكُمْ
مَّا تَحِبُّوْنَ مِنْكُمْ مِّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ
مَّنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُوْ فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ
﴿١٥٢﴾ اِذْ تَصْعَدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰى اَحَدٍ
وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ
عَمَّا يَغْمُرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوْا عَلٰى مَا فَاتَكُمُ
وَلَا مَا اَصْبَحَكُمْ وَاللّٰهُ خَيْرُ يَمَّا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً، حتى صرتم سبياً لأنفسكم، وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقت، فمن قائل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور؛ فعصيت الرسول، وتركت أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون وهو انخزال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره، فالواجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله ورسوله. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ، وثبتوا حيث أمروا. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: بعدما وجدت هذه الأمور

(١٤٩-١٥١) ثم قال تعالى: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوْكُمْ عَلٰى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ﴾ بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰىكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيْرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِيْ فِيْ قُلُوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَّا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَمَا وٰهُمْ اِلَّا النَّارُ وَيَسَّ مَثْوٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾

ولهذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين، من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم [قصدهم] ^(١) ردهم إلى الكفر، الذي عاقبه الخيبة والخسران، ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصرًا من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعه من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى، وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمتهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائبين.

ولا شك أن هذا من أعظم النصر؛ لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أو يكتبهم فيقبلوا خائبين، وهذا من الثاني. ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿يَمَّا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا﴾ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن.

فمن ثم كان المشرک مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، لهذا حاله في الدنيا وأما في الآخرة، فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وَمَا وٰهُمْ اِلَّا النَّارُ﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه، وليس لهم عنها خروج ﴿وَيَسَّ مَثْوٰى الظّٰلِمِيْنَ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم.

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعَدُهُ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاِذْنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِيْ الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰىكُمْ مَّا تَحِبُّوْنَ مِنْكُمْ مِّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُوْ فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعَدُهُ﴾

﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل، هانت عليكم تلك المصيبات، واغبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم. وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ مُنَاسٌ يَقْنِئُ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾. ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس. وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين.

وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم، أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصيبهم من النعاس ما أصاب غيرهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾. وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - شيء، فأسأوا الظن بربهم وبدينه وبنييه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيلة والقاضية على دين الله.

قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ الْأَمْرُ شَمْلُ الْأَمْرِ الْقَدْرِي، وَالْأَمْرُ الشَّرْعِي، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَعَاقِبَةُ^(١) النَّصْرِ وَالظَّفَرِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَإِنْ جَرَى عَلَيْهِمْ مَا جَرَى.

﴿يُخَفُّونَ﴾ يعني المنافقين ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾.

وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتركيزهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء

منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، لبيتين المؤمنين من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال: ﴿وَلَقَدْ عَمَّا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث من عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم، إن أصابتهم سراء فشكروا، جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

(١٥٤، ١٥٣) ﴿إِذْ تُصَوِّرُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ فَأَنْتُمْ عَمَّا يَخْرُجُونَ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ مُنَاسٌ يَقْنِئُ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِنْ مَضَاجِعُهُمْ وَلِيَبْلِغَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ يَذْكُرُهُمْ تَعَالَى حَالَهُمْ، فِي وَقْتِ انْهَزَامِهِمْ عَنِ الْقِتَالِ، وَيَعَاتِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿إِذْ تُصَوِّرُونَ﴾ أي: تَجِدُونَ فِي الْهَرَبِ ﴿وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار، والنجاء عن القتال.

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، وياشر الهيجاء، بل ﴿الرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ﴾ أي: مما يلي القوم يقول: ﴿إِلَى عِبَادِ اللَّهِ﴾، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لوماً بتخلفكم عنها.

﴿فَأَنْتُمْ﴾ أي: جازاكم على فعلكم ﴿عَمَّا يَخْرُجُونَ﴾ أي: غماً يتبع غماً: غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانْهَازِكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله - بلطفه، وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعبادة المؤمنين خيراً لهم، فقال: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر.

عن مظان القتل ﴿لَبَّرَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾^(١) فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ، من الموت والحياة.

﴿وَلِيَتَنَبَّأَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ﴿وَلِيَمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها، وما أكتته، فاقضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبئات الصدور، وسرائر الأمور.

(١٥٥) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين، بما يوفقههم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه.

ثم إن تاب وأتاب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب، فله الحمد على إحسانه.

(١٥٦-١٥٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلِلَّهِ يُجْعَلُ بَصِيرٌ ۚ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۚ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم.

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص، وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُرَىٰ﴾ أي: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَّاعَسَا بَيعُثُوا طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٦﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٧﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلِلَّهِ يُجْعَلُ بَصِيرٌ ﴿١٥٨﴾﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

القدر ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ولهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

ولكن لهذا التذكير لم يفدهم، إلا أن الله يجعل لهذا القول، وهذه العقيدة، حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيؤمنون ويسلمون، فيهدي الله قلوبهم، ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة.

قال الله رداً عليهم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المنفرد^(١) بذلك، فلا يغني حذر عن قدر ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً

سورة آل عمران

٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَيْنَ مَثَمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشُرُونَ ﴿١٥٩﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ
 اللَّهُ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِيظًا لَلْقَلْبِ لَا تَفْضُؤْ مِنْ حَوْلِكَ
 فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
 فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ
 فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ
 بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
 يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ
 نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ
 اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
 ﴿١٦٣﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ لِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٤﴾
 لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
 يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٥﴾
 أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْنَا إِنَّ هَذَا
 قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب أعمالها
 فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن
 المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ، أو لم يتم له
 مطلوب، فليس بملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً،
 وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً: - ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فكيف
 بغيره؟!

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: على أمر من الأمور بعد
 الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾
 أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك:
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، اللاجئين إليه.

(١٦٠) ﴿إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا
 الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن
 يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم

إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله،
 وما لكم إليه، فيجازي كلًا بعمله.

فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام
 بحبل الله!!

(١٥٩) ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِيظًا لَلْقَلْبِ
 لَا تَفْضُؤْ مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
 عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي برحمة الله لك
 ولأصحابك، من الله عليك أن ألنت^(١) لهم جانبك،
 وخففت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم
 خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك.

﴿وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا﴾ أي: سيء الخلق ﴿غَلِيظًا لَلْقَلْبِ﴾ أي:
 قاسيه، ﴿لَا تَفْضُؤْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام
 به هذا الخلق السيء.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى
 دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب
 الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس
 عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب
 الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف
 بغيره؟!

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء
 بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من
 اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد
 الله لدين الله؟.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير
 في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع
 بين العفو والإحسان.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى
 استشارة، ونظر، وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد
 والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره.

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يصير في
 القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا
 جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث
 - اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد^(٢)
 عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا
 جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح
 العموم. بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه
 محبة صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه، فطاعة غير تامة.

(١) في الأصل: لنت. (٢) في ب: يستبد.

توفيته وجزاءه، وكان الاقتصاد على الغال يوههم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

(١٦٢، ١٦٣) ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ هُمْ دَرَجَتُ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿هُم دَرَجَتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم. فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيه الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخت الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين، كل على حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، وוכל ملائكته الأمانة الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا ضَلَالًا مُبِينًا﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم، الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحاً لهم، مشفقاً عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها ﴿وَزَكَّيَهُمْ﴾ من الشرك، والمعاصي، والردائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

و﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابة، فيكون قد امتن الله عليهم بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها

من في أقطارها، وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد، وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وَإِنْ يَحْذُلْكُمْ﴾ ويحكمكم إلى أنفسكم ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا بد أن تتخذوا ولو أعانكم جميع الخلق.

وفي^(١) ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله، والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْ أَلْمُؤْمِنُونَ﴾ وتقديم المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله توكلوا، لا على غيره؛ لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فلا اعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلُّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الغلول: هو الكتمان من الغنيمة، [والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان]^(٢)، وهو محرم إجماعاً، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب.

وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدر فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً، وأظهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

فمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم؛ لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلُّ﴾ أي: يمتنع ذلك، ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يأت به حمله على ظهره، حيواناً كان أو متاعاً، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة.

﴿ثُمَّ تُؤَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ الغال وغيره، كل يوفي أجره ووزره، على مقدار كسبه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم.

وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة، لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر

المشركين قد ملئوا من الحق والغيط على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم.

فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة، وبرزوا لهم، لهذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿هُمُ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَيْ: فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي تَرَكُوا فِيهَا الْخُرُوجَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِسْنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وهذه خاصة المنافقين، يظهرهم بكلامهم وفعالهم ما يطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم.

ومنه قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فإنهم قد علموا وقوع القتال.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما»، [لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان]^(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فييديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا أَيْ: جَمَعُوا بَيْنَ التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ، وَبَيْنَ الْإِعْتِرَاضِ وَالتَّكْذِيبِ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، قَالَ اللَّهُ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا﴾ أَيْ: اذْهَبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم لو أطاعوك ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك، ولا تستطيعونه.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر، وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداها أقرب منه إلى الأخرى.

(١٦٩-١٧١) ﴿وَلَا تَحْصَيْنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ٥ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٥ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآيات الكريمة^(٢) فيها فضيلة^(٣) الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي

وثمراتها، ففارقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويظهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين.

(١٦٥-١٦٨) ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٥ ﴿وَمَا أَصَبْتُمْ يَوْمَ النَّفَى الْجَمْعَانِ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥ ﴿وَلِعَلَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْهَبُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَيْ: أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِسْنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ٥ ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ من المشركين ﴿مِثْلَهَا﴾ يوم بدر فقتلت سبعين من كبارهم، وأسرت سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستون، أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار.

﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أَيْ: مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا وَهَزَمْنَا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتم، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعدودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم، ومصيبتكم ﴿ذَلِكَ وَلَوْ تَشَاءُ اللَّهُ لَأْتَمَرَّتْ بِهِمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم النقي الجمعان، جمع المسلمين، وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له، ولا بد من وقوعه.

والأمر القدري - إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق، الذين لما أمروا بالقتال ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيْ: ذَبًا عَنْ دِينِ اللَّهِ، وحماية له، وطلباً لمرضاة الله ﴿أَوْ اذْهَبُوا﴾ عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة.

فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أَيْ: لَوْ نَعْلَمُ أَنْكُمْ يَصِيرُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ قِتَالٌ لَاتَّبَعْنَاكُمْ، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٧٢

الْمَدِينَةُ

وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّفَاقُّمِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٧٢﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَتَبِعْنَاكُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ
 يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ
 فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٣﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعْدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأْ وَأَنْفُسَكُمْ
 أَلَمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٤﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴿١٧٥﴾ فَرِحِينَ
 بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
 بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٦﴾
 ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٨﴾
 الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
 فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٩﴾

ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم، وتعزيتهم، وتنشيطهم
 للقتال في سبيل الله، والتعرض للشهادة، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ
 الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين
 بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَاتًا﴾ أي: لا يخطر ببالك وحسابناك
 أنهم ماتوا وفقدوا، وذُهِبَ عنهم لذة الحياة الدنيا، والتمتع
 بزهرتها، الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد
 في الشهادة ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه
 المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته. ولفظ:
 ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم.
 ﴿يُرْزُقُونَ﴾ من أنواع النعيم، الذي لا يعلم وصفه، إلا من
 أنعم به عليهم.

ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: مغتبطين
 بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك
 لحسنه، وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه،
 وعدم المنغص.

فجمع الله لهم، بين نعيم البدن بالرزق، ونيعم القلب
 والروح، بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم ^(١) النعيم
 والسرور، وجعلوا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾
 أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا
 بهم، وأنهم سينالون ما نالوا.

﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يستبشرون بزوال
 المحذور عنهم، وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يهنئ بعضهم
 بعضاً، بأعظم مهناً به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه
 ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميهِ ويشكره، ويزيده من
 فضله، ما لا يصل إليه سعيهم، وفي هذه الآيات إثبات نعيم
 البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي
 أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً وتبشير بعضهم
 بعضاً.

(١٧٢-١٧٥) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
 النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ حَسْبُنَا
 اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ دُونَ فَضْلِهِ عَظِيمٌ ﴿١٧٧﴾
 إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾
 لما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من
 المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، نذب أصحابه إلى
 الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله

ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حمراء الأسد»،
 وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾
 وهموا باستصلاككم، تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا
 إيماناً بالله، واتكالاً عليه.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ
 الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم.
 ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ دُونَ فَضْلِهِ﴾ أي: رجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّكُمْ
 سُوَةٌ﴾

وجاء الخبر المشركين، أن الرسول وأصحابه قد خرجوا
 إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم،
 واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله
 وفضل، حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة
 والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة،
 فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر
 عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ أَي: إِنَّ تَرْهيبَ مَنْ رَهَبَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ جَمَعُوا لَكُمْ، دَاعٍ مِنْ دَعَا الشَّيْطَانِ، يَخُوفُ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ عُدِمَ إِيْمَانُهُمْ، أَوْ ضَعُفَ.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: فَلَا تَخَافُوا الْمُشْرِكِينَ أَوْلِيَائِ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ نَوَّاصِيهِمْ بِيَدِ اللَّهِ، لَا يَتَصَرَّفُونَ إِلَّا بِقُدْرِهِ، بَلْ خَافُوا اللَّهَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلِيَائِهِ الْخَائِفِينَ لَهُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَجُوبُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيْمَانِ، فَعَلَى قَدْرِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ، يَكُونُ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ، وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ: مَا حَظَرَ الْعَبْدَ عَنْ مُحَارَمِ اللَّهِ.

(١٧٦، ١٧٧) ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيْمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى الْخَلْقِ، مُجْتَهِدًا فِي هِدَايَتِهِمْ، وَكَانَ يَحْزَنُ إِذَا لَمْ يَهْتَدُوا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ مِنْ شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِيهِ، وَحَرَصِهِمْ عَلَيْهِ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ، وَمُؤَيِّدُ رِسُولِهِ، وَمُنْفَذُ أَمْرِهِ مِنْ دُونِهِمْ، فَلَا تَبَالِهِمْ وَلَا تَحْفَلُ بِهِمْ، إِنَّمَا يَضُرُّونَ، وَيَسْعُونَ فِي ضَرَرِ أَنْفُسِهِمْ، بِفَوَاتِ الْإِيْمَانِ فِي الدُّنْيَا، وَحُصُولِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ هَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَسُقُوطِهِمْ مِنْ عَيْنِهِ، وَإِرَادَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابِهِ، خَذَلَهُمْ فَلَمْ يَوْفُقَهُمْ، لَمَّا وَفَّقَ لَهُ أَوْلِيَائِهِ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، عَدَلًا مِنْهُ وَحِكْمَةً، لَعَلَّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ غَيْرَ زَاكِيْنَ عَلَى الْهُدَى، وَلَا قَابِلِينَ لِلرُّشَادِ، لِفَسَادِ أَخْلَاقِهِمْ وَسُوءِ قَصْدِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَرَغِبُوا فِيهِ رَغْبَةً مِنْ بَذْلِ مَا يَحِبُّ مِنَ الْمَالِ، فِي شِرَاءِ مَا يَحِبُّ مِنَ السَّلْعِ ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بَلْ ضَرَرُ فَعْلِهِمْ يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَكَيْفَ يَضُرُّونَ اللَّهَ شَيْئًا، وَهَمْ قَدْ زَهَدُوا أَشَدَّ الزَّهْدِ فِي الْإِيْمَانِ، وَرَغِبُوا كُلَّ الرَّغْبَةِ بِالْكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ؟! فَاللَّهُ غَنِي عَنْهُمْ.

وَقَدْ قَبِضَ لِدِينِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْأَبْرَارِ الْأَزْكَيَاءِ سَوَاهِمَ، وَأَعْدَلَهُ - مِمَّنْ ارْتَضَاهُ لِنَصْرَتِهِ - أَهْلَ الْبَصَائِرِ وَالْعُقُولِ، وَذَوِي الْأَلْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ الْفَحُولِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَايَتُوا بِهِ ۖ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَلَغُوا عَلَيْهِمْ يَنْجُزُونَ لِلَّذِّكَانِ سُجْدًا﴾ الْآيَاتِ.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ حَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا

تُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أَي: وَلَا يَظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَنَابَذُوا دِينَهُ، وَحَارَبُوا رَسُولَهُ أَنْ تَرْكَنَّا إِيَّاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَعَدِمَ اسْتِثْنَالُنَا لَهُمْ، وَإِمْلَأْنَا لَهُمْ خَيْرَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَمَحَبَّةَ مَنْ لَاهُمْ، كَلَّا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لَشَرِّ رِيْدِهِ اللَّهُ بِهِمْ، وَزِيَادَةُ عَذَابٍ وَعَقُوبَةٍ إِلَى عَذَابِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فَاللَّهُ تَعَالَى يَمْلِكُ لِلظَّالِمِ، حَتَّى يَزِدَّادَ طُغْيَانَهُ، وَيَتَرَادَفَ كُفْرَانَهُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ أَخَذَهُ ^(١) أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدَّرٌ. فَلْيَحْذَرِ الظَّالِمُونَ مِنَ الْإِمْهَالِ، وَلَا يَظُنُّوا أَنْ يَفُوتُوا الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ.

(١٧٩) ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أَي: مَا كَانَ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَتْرَكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ، حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَالْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ.

(١) فِي ب: ثُمَّ أَخَذَهُ. (٢) فِي ب: التَّمْيِيزُ.

ثم ذكر ثانيًا أن هذا الذي بيد العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثًا السبب الجزائي، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فإذا كان خيرًا بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات عن الشر - لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يُجْزَى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك، الذي به العقاب.

(١٨١، ١٨٢) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَكَتُكَ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۚ ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ﴾ يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة، وأشنعها، وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم - بدل قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء - ﴿دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفتدة، وأن عذابهم ليس ظلماً من الله لهم، فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ﴾ فإنه منزه عن ذلك.

وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبايح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم «فحاص بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال - على وجه التكبر والتجرم - هذه المقالة، قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس بيدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: قتلهم الأنبياء بغير حق، هذا القيد يراد به أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعتهم، لا جهلاً وضلالاً، بل تمرداً وعناداً.

(١٨٣، ١٨٤) ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِسْنًا أَلَّا نُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّهُمْ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلَمَّا قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ فَإِنْ كَذَّبُوكُمْ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكُمْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِسْنًا﴾ أي: تقدم إلينا، وأوصى ﴿أَلَّا نُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فجمعوا بين الكذب على الله،

ولم يكن في حكمته أيضًا، أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فافقتضت حكمته الباهرة أن يتبلى عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل [الله] رسله، وأمر بطاعتهم، والالتقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس - بحسب اتباعهم للرسل - قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلقه.

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ يَمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ أي: ولا يظن الذين يبخلون، أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فيبخلوا بذلك، وأمسكوه، وضمنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يجعل ما بخلوا به، طوقاً في أعناقهم، يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «إن البخل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك»، وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهوؤلاء حسبوا أن يبخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، ويتقلب العباد من الدنيا، ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً: أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكاً للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمنعه لذلك منع فضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُوعُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٨٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا تُوَمِّنَ لِرُسُلٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا يُقْرَبَ نَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ وَيَأْتِيَنَّكُمْ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٨﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٩﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٩٠﴾ لَّسْبُلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٩١﴾

أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وَلَمَّا تُوَفَّقَتْ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ. بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

(١٨٦) ﴿لَّسْبُلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيتلون في أموالهم، من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعَب، والقتل، والأسر، والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يحب.

﴿وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا﴾

وحصر آية الرسل بما قالوه، من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقرآن تأكله النار، فهم - في ذلك - مطيعون لربهم، ملتزمون بعهده وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكاً لم يلتزموه، وباطلاً لم يعملوا به.

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ بأن أتاكم بقرآن تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواهم ^(١) الإيمان برسول يأتي ^(٢) بقرآن تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم، وتناقضهم.

ثم سلى رسوله ﷺ، فقال: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: هذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله، وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسول الله عن قصور بما أتوا به، أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الحجج العقلية، والبراهين النقليّة.

﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومثير أيضاً للأخبار الصادقة، فإن كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسول، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم، ولا يهمنك شأنهم.

(١٨٥) ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَلَمَّا تُوَفَّقَتْ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها التهديد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنقلة عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فَمَن زُحِرَ﴾ أي: أخرج ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلّى بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم

يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤا على محارم الله، وتهاوئا بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنًا قليلًا، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق.

﴿فَيْتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدنيوية والدنيوية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس، إلا لسوء حظهم، وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ أي: من القبايح، والباطل القولي والفعلية.

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك، ومحبة أن يحمدا على فعل الخير الذي ما فعلوه.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه، وسيصرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم يتقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمدا ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل لهذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَى نَوْجٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ○ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَجَعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وهي من نعم الباري على عبده، ومنته التي تحتاج إلى الشكر.

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو المالك للسموات والأرض وما فيهما من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم، بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

الَّذِينَ اشْتَرَوْا أَذًى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم، وفي دينكم، وكتابكم، ورسولكم. وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي بذلك؛ لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى، يقدر عليهم هذه الأمور، لما يريد به من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهن عليهم حملة، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء، والامتحان، وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله، والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم، الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها، وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

(١٨٨، ١٨٧) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيْتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ○ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى، على كل من أعطاه [الله] الكتب، وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتهم ذلك، ويخجل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبيته، ويوضح الحق من الباطل.

فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان.

وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم

وَاِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَ وَابُوهُمْنَا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٧٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٨٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٨١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٨٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٨٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٨٤﴾

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار، ويتضمن ذلك سؤال الجنة؛ لأنهم - إذا وقاهم الله عذاب النار - حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا الله بأهم الأمور عندهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها.

ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ وهو محمد ﷺ، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه ﴿فَآمَنَّا﴾ أي: أجابناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمنّ عليهم بالأمان التام.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل

(١٩٠-١٩٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها.

وأهم قوله: «آيات» ولم يقل: «على المطلب الفلاني» إشارة لكثرتها وعمومها؛ وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وبينه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية.

فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والانتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله، ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره، مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المتفكرون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم: ﴿قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب.

وأنهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٧٦

الْاِمْرَانِ

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اَنِّي لَا اُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْتِیْ بِبَعْضِكُمْ مِّنْ اَبْغَضِ الْاَذِیْنَ هَاجَرُوا وَاُخْرِجُوا مِنْ دِیْنِهِمْ وَاَوْدُوا فِي سَبِیْلِی وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَبَقَاتِهِمْ وَلَا ذَنْبَ خَلَنَهُمْ جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَرُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا یَعْرَنَكَ تَقَلُّبُ الْاَذِیْنَ كَفَرُوا فِي الْاِلْدِیِّ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِیْلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَیَبْسُ اِلْهَادُ ﴿١٩٧﴾ لٰكِنِ الْاَذِیْنَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَرُ خَلْدِیْنَ فِیْهَا نَزَّلَا مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَمَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَاِنْ مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْكُمْ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْكُمْ خَشِیْعِیْنَ لِلّٰهِ لَا یَشْتَرُونَ بِقَابِیْتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِیْلًا اُولٰٓئِكَ لَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ اِنْ اَبَیَ اللّٰهُ سَرِیْعَ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ یَاٰیَهَا الْاَذِیْنَ ءَاْمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزرًا يسيرًا، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأنابهم البر الرحيم من بره أجرًا عظيمًا، وعطاء جسيمًا، وفوزًا دائمًا. (١٩٩، ٢٠٠) ﴿وَإِنْ مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْكُمْ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْكُمْ خَشِیْعِیْنَ لِلّٰهِ لَا یَشْتَرُونَ بِقَابِیْتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِیْلًا اُولٰٓئِكَ لَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ اِنْ اَبَیَ اللّٰهُ سَرِیْعَ الْحِسَابِ﴾ ٠ يَأَيُّهَا الْاَذِیْنَ ءَاْمَنُوا اصْبِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴿٢٠٠﴾ أي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، ولهذا الإيمان النافع، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض.

ولهذا - لما كان إيمانهم عامًا حقيقيًا - صار نافعًا، فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال

الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم، وقيل تضرعهم. فلهذا قال:

(١٩٥) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اَنِّي لَا اُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْتِیْ بِبَعْضِكُمْ مِّنْ اَبْغَضِ الْاَذِیْنَ هَاجَرُوا وَاُخْرِجُوا مِنْ دِیْنِهِمْ وَاَوْدُوا فِي سَبِیْلِی وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَبَقَاتِهِمْ وَلَا ذَنْبَ خَلَنَهُمْ جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَرُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي: أجب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَاُخْرِجُوا مِنْ دِیْنِهِمْ وَاَوْدُوا فِي سَبِیْلِی وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَبَقَاتِهِمْ وَلَا ذَنْبَ خَلَنَهُمْ جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَرُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل.

﴿وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته، والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد.

(١٩٦-١٩٨) ﴿لَا یَعْرَنَكَ تَقَلُّبُ الْاَذِیْنَ كَفَرُوا فِي الْاِلْدِیِّ﴾ ٠ مَتَّعَ قَلِیْلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَیَبْسُ اِلْهَادُ ٠ لٰكِنِ الْاَذِیْنَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَرُ خَلْدِیْنَ فِیْهَا نَزَّلَا مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَمَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَّعَ قَلِیْلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

وأما المتقون لربهم، المؤمنون به - فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿هُمْ جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَرُ خَلْدِیْنَ﴾ فيها.

فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة

سُورَةُ النِّسَاءِ

٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
 زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
 بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَعَاوُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَكُمْ
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
 كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبِيِّ فَاتَّكِبُوا
 مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنًى وَتِلْكَ وَرَبُّنَا خَفْتُمْ أَلَّا تُعْدِلُوا
 فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَنُ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَعَاوُوا
 النِّسَاءَ صِدْقَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ تَفَسَّاهُ فَكُلُوهُ
 هَيْعًا مَرِيًّا ﴿٤﴾ وَلَا تَتَوَلَّوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
 قِيلًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَأَبْلُوا
 إِلَيْنَا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
 إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ
 غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا
 دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه أنه ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جعلتها خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليناسبها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور.

وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلتم لها، بالسؤال بالله، فيقول مَنْ يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأله بالله، فكما عظمتموه بذلك، فلتعظموه بعبادته وتقواه.

وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: مطلع على العباد، في حال حركاتهم وسكنونهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيها، مما يوجب مراقبته، وشدة الحياة

(١) في ب: هي. (٢) في النسختين: وهو، ولعل الصواب ما أثبت.

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ومن تمام خشيتهم لله، أنهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ عِبَادَتِ اللَّهِ شُكْرًا قَلِيلًا﴾ فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشكرون به ثمناً قليلاً.

وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فاتَّروا الحق، وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فاثابهم الله على ذلك، بأن وعدهم الأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستطيعون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب.

ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك، لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. والمصابرة أي^(١): الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والمرابطة وهي^(٢): لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحجوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلاص بها أو ببعضها. والله الموفق، ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته، ونسأله تمام النعمة.

تفسير سورة النساء

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه،

يتامى النساء، اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن؛ لعدم محبتكم إياهن - فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ما وقع عليهن اختياركم: من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختراروا على نظركم.

ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِحُسْبِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرُبِّتَ يَمِينُكَ».

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح بل وقد أباح له الشارع النظر إلى مَنْ يريد تزوجها، ليكون على بصيرة من أمره ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: ﴿مَتْنًى وَتِلْكَ وَرَبِّكَ﴾ أي: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَأْخُذَ ثَنَيْنِ فَلْيَفْعَلْ، أَوْ ثَلَاثًا فَلْيَفْعَلْ، أَوْ أَرْبَعًا فَلْيَفْعَلْ، وَلَا يَزِيدُ عَلَيْهَا، لِأَنَّ الْآيَةَ سَقَتْ لِبَيَانِ الْاِمْتِنَانِ، فَلَا يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى غَيْرِ مَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى إِجْمَاعًا.

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعًا، لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئًا من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القسم، في ملك اليمين ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين ﴿أَذْنَىٰ آلَا تَعُولُوا﴾ أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحًا - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن - خصوصًا الصداق الذي يكون شيئًا كثيرًا، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة - أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿صَدَقَتَيْنِ﴾ أي: مهورهن ﴿نَحْلَةً﴾ أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تمطلوهن، أو تبخسوا منه شيئًا، وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة، إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك.

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ بأن (١) في ب: وأوتى. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين فقدت آباؤهم الكافلون.

منه، بلزوم تقواه. وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض، وقرن الأمر بتقواه، بالأمر ببر الأرحام، والنهي عن قطعها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصًا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به.

تأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها، فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم. وفي قوله: ﴿وَنَقَلَ مِنَّا زَوْجَهَا﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج فينبهن وبينهن أقرب نسب، وأشد اتصال، وأقرب (١) علاقة.

(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَاكَ لَتِيَّةٌ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَنَدَّلُوا لَحْيَتَهُ بِالطَّبَاطِئِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم يتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين (٢) لهم، وهم صغار ضعاف، لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرؤوف الرحيم عبادة أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم، إذا بلغوا، ورشدوا، كاملة موفرة.

وأن لا ﴿تَنَدَّلُوا لَحْيَتَهُ﴾ الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بِالطَّبَاطِئِ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم.

ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرأ على هذه الحالة، فقد أتى ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثماً عظيمًا، ووزرًا جسيمًا، ومن استبدال الخبيث بالطيب، أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس، وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي على ماله، وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله، حفظه، والقيام به بما يصلحه وينمي، وعدم تعرضه للمخاوف والأخطار.

(٤، ٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَتْنًى وَتِلْكَ وَرَبِّكَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ آلَا تَعُولُوا ۝ وَمَا أَتَاكَ النِّسَاءُ صَدَقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَسًا مَرِيئًا﴾ أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في

لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً. فإن تبين رشدُه وصلاحه في ماله، وبلغ النكاح ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم، من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وَيَذَرَا أَنْ يَبْكُوهَا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها، وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة، فيغتنمونها، ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

(٧) ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم ^(١) وقسوتهم، لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقويأؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملاً، لتوطن على ذلك النفوس، فيأتي التفصيل بعد الإجمال، قد تشوقت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ أي: قسط وحصة ﴿وَمِمَّا تَرَكَ﴾ أي: خلف ﴿الْوَالِدَانِ﴾ أي: الأب والأم ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ عموم بعد خصوص ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: قد قدره العليم الحكيم، وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فها هنا توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة، الجارية للقلوب، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أُولُو الْقُرْبَى﴾ أي: الأقارب

سمحن لكم عن رضا واختيار، بإسقاط شيء منه، أو تأخيره أو المعاوضة عنه ﴿فَكُلُوْهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

وفي قوله: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة، غير مأمور به، بل منهى عنه، كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ وقال: ﴿الرَّائِيَةَ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُنْكَرٌ﴾.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا عَلَى الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ السفهاء، جمع «سفيه» وهو: من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشدِه، كالصغير وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يؤثروا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قِيَمًا لعباده، في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها.

فأمر الولي أن لا يؤتيم إيها بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبدل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعدوهم - إذا طلبوها - أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطهم، وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء، ما يفعلونه في أموالهم: من الحفاظ، والتصرف، وعدم التعريض للأخطار.

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة، والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

(٦) ﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَاتَّبِعُوا أَمْرَ رَسُولِهِ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ الابتلاء هو: الاختبار والامتحان؛ وذلك بأن يدفع لليتم المقارب للرشد، الممكن رشدِه، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشدِه من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف،

سُورَةُ النِّسَاءِ

٧٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرَّمٌ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

في بطونهم ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: نارًا محرقة متوقدة، وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

(١٢، ١١) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرَّمٌ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَاحُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ

(١) في ب: يردونهم.

غير الوارثين، بقرينة قوله: ﴿الْقِسْمَةَ﴾ لأن الوارثين من المقسوم عليهم، و﴿الْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ أي: المستحقون من الفقراء ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال، الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء، ولا نصب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطريهم، بما لا يضرهم، وهو نافعهم.

ويؤخذ من المعنى أن كل مَنْ له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إِذَا جَاء أَحَدُكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَلْيَجْلِسْهُ مَعَهُ، فَإِنْ لَمْ يَجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيَنَالُوهُ لِقْمَةً أَوْ لِقْمَتَيْنِ» أو كما قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبُركَ عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده، فأعطاه ذلك، علمًا منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حقًا سفيهاً، أو ثمَّ أهم من ذلك - فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يردوهم ^(١) ردًا جميلًا، بقول حسن، غير فاحش، ولا قبيح.

(١٠، ٩) ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر، مَنْ حضره الموت وأجنت في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته، والمساواة فيها بدليل قوله: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: سدادًا، موافقًا للقسط والمعروف، وأنهم يأمرون مَنْ يريد الوصية على أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء، من المجانين، والصغار، والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية، بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم من ذريتهم الضعاف ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد العذاب فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم، من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى.

فَمَنْ أَكَلَهَا ظُلْمًا، ف ﴿إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم وهم الذين أدخلوها

فالجواب أنه يستفاد من قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة، انتقل الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان.

وأيضاً فقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ إذا خلف ابناً وبناتاً، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبتين الثلثين.

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أخيها - فأخذها له - مع أخيها - من باب أولى وأحرى، وأيضاً فإن قوله تعالى في الأخنتين: ﴿وَإِنْ كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ نص في الأخنتين الثلثين. فإذا كان الأختان الثلثان - مع بعدهما - تأخذان الثلثين، فالابنتان - مع قربيهما - من باب أولى وأحرى، وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين، كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فَوْقَ أُخْتَيْنِ؟﴾ قيل: الفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان، لا يزيد بزيادتهن على الثلثين، بل من الثلثين فصاعداً.

ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين للذين فرضهما الله للبنات، أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس، تكملة الثلثين، ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن، اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن؛ لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم؛ فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص، وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: ﴿وَمِمَّا تَرَكَ﴾ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت، من عقار، وأثاث، وذهب، وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم^(١).

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوه وأمه ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولد صلب، أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ أَمْرَةً وَلَهُ: أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ أُخْتٌ مِّنْ ذَلِكَ فَهِيَ شَرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ غَيْرِ مُصَاكِرٍ وَصِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات الموارث المتضمنة لها، فإنها - مع حديث عبد الله بن عباس، الثابت في صحيح البخاري «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر» - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها، كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات، فإنه غير مذكور في ذلك.

لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة، ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي: أولادكم - يا معشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفساد، وتأمرونهم بطاعة الله، وملزمة التقوى على الدوام كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَوُذِّعَ النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فالأولاد - عند والديهم - موصى بهم.

فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب، وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحمُ بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين - مع كمال شفقتهم - عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين، إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقّت الفروض يقتسمونه كذلك.

وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه - مع وجود أولاد الصلب - فالميراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب، ذكوراً وإناتاً، هذا مع اجتماع الذكور والإناث، وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث، وقد ذكره بقوله:

﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُخْتَيْنِ﴾ أي: بنات صلب، أو بنات ابن، ثلاثاً فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِّمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ أي: بنتاً، أو بنت ابن ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟

الإخوة للأُم: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَّةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدْحُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾.

فأطلق لفظ الجمع، والمراد اثنان فأكثر، بالإجماع، فعلى هذا لو خلف أُمًا وأبًا وإخوة، كان للأُم السدس، والباقي للأب، فحجبوا عن الثلث، مع حجب الأب إياهم، [إلا على الاحتمال الآخر، فإن للأُم الثلث، والباقي للأب] (١).

ثم قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ أي: هذه الفروض والأنصبة، والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله، أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة.

وقدم الوصية - مع أنها مؤخرة عن الدين - للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها، شاقًا على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل، للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا﴾.

فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم، لحصل من الضر ما لا به عليكم؛ لنقص العقول، وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان، فلا يدرون أيُّ الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فَرِيضَتُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحكم ما شرعه، وقدر ما قدره على أحسن تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَزْوَاجِ﴾ أيها الأزواج ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَاحُكُمْ إِنْ لَا يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ أَرْبُعٌ مِّمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَكُمْ أَرْبُعٌ مِّمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ نَوْصُوبَ يَهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد

وأما الأب فمع الذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض شيء - كأبوين وابنتين - لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء، أخذ الأب السدس فرضًا، والباقي تعصيًا؛ لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم، وغيرهما. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِلَّذِي الثَّلَاثُ﴾ أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب - مع عدم الأولاد - لا فرض له، بل يرث تعصيًا المال كله، أو ما أبقى الفروض ولكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعمريتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دل على ذلك قوله: ﴿وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِلَّذِي الثَّلَاثُ﴾ أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين، إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب، فلم تدل الآية على إرث الأم، ثلث المال كاملاً، مع عدم الأولاد. حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين. ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلَّذِي السُّدْسُ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأُم، ذكورًا كانوا أو إنثاء، وارثين، أو محجوبين بالأب، أو الجد، [لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ شاملًا لغير الوارثين؛ بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة، إلا الإخوة الوارثون.

ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث، لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم (١). ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، ويشكل على ذلك، إتيان لفظ «الإخوة» بلفظ الجمع، وأجيب عن ذلك، بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع، ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وقال في

(١) زيادة من هامش ب، وهناك زيادة أخرى في هامش أ، وإن لم يبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع، وهي قوله: [وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم] وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل. (٢) زيادة من هامش ب.

في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والرقيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصة، والأخوات لغير أم، مع البنات، أو بنات الابن، من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة، يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات؛ فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة، بحسب قربهم، ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾. وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه^(٣) بأعظم الضرر، فلا يتنهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل، الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث، فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية، أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه، عوقب بحرمانه».

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له؛ وذلك أنه قد تعارض الموجب، الذي هو: اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذي هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة من كل وجه.

فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع، يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ يَصِفُ مَا تَرَكُوا زَوْجُكُمْ﴾ إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية، المقترضة للتشاكل والتناسب. والمؤمن والكافر لا تشاكل

الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجمالاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: من أم، كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة - هنا - الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلاله أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب، ولا جد، ولا ابن، ولا ابن ابن، ولا بنت، ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلاله، كما فسرنا بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق، والله الحمد.

﴿فَلِكُلٍّ وَاِجْرٌ مِنْهُمَا﴾ أي: من الأخ والأخت ﴿السُّدُسُ﴾. ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ أي: لا يزدون على الثلث، ولو زادوا عن اثنين، ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ أن ذكرهم وأنهم سواء، لأن لفظ «الشريك»^(١) يقتضي التسوية.

ودل لفظ: ﴿الْكَلَلَةُ﴾ على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلاله، فلو لم يكن يورث كلاله، لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً.

ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمايرية، وهي: زوج، وأم، وإخوة للأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف؛ وللأم السدس؛ وللإخوة للأم الثلث ويسقط الأشقاء؛ لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرق الله حكمه، وأيضاً فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصابات.

وقد قال النبي ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر»، وأهل الفروض هم: الذين قدر الله أنصباؤهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء، أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يَسْقُتُوكَ فَلِلَّهِ يَتِيْبُكُمْ فِي الْكَلَلَةِ﴾ الآية.

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب، لها النصف، والنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت لأب، أو الأخوات، تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت، أو الأخوات لأب^(٢)، وهو السدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات لأب، كما تقدم

(١) في ب: الشريك. (٢) في النسختين: أخوات الأب، والصواب - والله أعلم - ما أثبتته، وظاهر أنه سبق قلم. (٣) في الأصل: لمورثه.

وَلِسَحَقٌ وَيَعْقُوبُ^(١).

فسمى الله الجد وجد الأب أبا، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني الإخوة والأعمام وبينهم، وسائر أحكام^(٢) الموارث - فينبغي أيضًا أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه، فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة، ولا تنبيه، ولا قياس صحيح.

وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض، وقدر لأهل الموارث أنصبا، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضًا، أو لا.

فإن حجب بعضهم بعضًا، فالمحجوب ساقط لا يزاحم، ولا يستحق شيئًا، وإن لم يحجب بعضهم بعضًا فلا يخلو، إما أن لا تستغرق الفروض التركية، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تريد الفروض على التركية، ففي الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملاً، وفي الحالة الأخيرة، وهي - ما إذا زادت الفروض على التركية - فلا يخلو من حالين:

إما أن تنقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له، ونكمل للباقيين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعنت الحال الثانية، وهي: أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم، كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم (الرد)، فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركية، وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد، فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل ومعارضة؛ لقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فتعين أن يرد على أهل الفروض، بقدر فروضهم.

ولما كان الزوجان ليسا من القرابة، لم يستحقا زيادة على فرضهم المقدر [هذا عند من لا يورث الزوجين بالرد، وهم

بينهما، ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته، فوق عقول العالمين^(٣)] انتهى.

وأما (الرقيق)، فإنه لا يرث ولا يورث. أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيدته، وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيدته، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنِ﴾، ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدَّةُ﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، وأما الرقيق، فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له.

وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبع بعض أحكامه فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبته الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية، قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا يكون المبعوض يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

وأما (الخثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً، فإن كان واضحاً، فالأمر فيه واضح. إن كان ذكرًا فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم. وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن.

وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأُم - فالأمر فيه واضح.

وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين؛ لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل؛ لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء، أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأُم، كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَاكَ إِبراهيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبراهيمَ

(١) في ب: العاقِلين. (٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

الْمَرْثَةِ

٧٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّيْسَ لَكُنَّ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِيْنَ بِهَا أَوْ دِينَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصَوْنَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿١٥﴾

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٥ وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ١٥: أي: تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارث حدود الله التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها، وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصاء الوارثين.

ثم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ (٢) فالوصية للوارث بزيادة على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث». ثم ذكر طاعة الله ورسوله، ومعصيتهما عمومًا، ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فقال: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامتثال أمرهما، الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وقد جاء في ب بدل هذه الزيادة ما نصه: [عند القائلين بعدم الرد عليهما. وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد فالدليل المذكور شامل للجميع، كما شملهم دليل العول]. (٢) هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فالآية ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وأثبت الشيخ - زيادة ﴿فَلَا تَقْتَدِرُوهَا﴾ وليس هنا محلها، وعلى مقتضى ما أثبت فسر، فأبقيت الكلام كما هو، وعدلت الآية.

جمهور القائلين بالرد فعلى هذا تكون علة الرد كونه صاحب فرض قريبًا، وعلى القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يرد عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزدان بالرد كغيرهما فالعلة على هذا كونه وارثًا صاحب فرض، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنة، والقياس الصحيح والله أعلم^(١).

وبهذا يعلم أيضًا (ميراث ذوي الأرحام)، فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبًا، وبقي الأمر دائرًا بين كون ماله يكون لبيت المال، لمنافع الأجانب، وبين كون ماله يرجع إلى أقربائه المدلين بالورثة المجمع عليهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين توريث ذوي الأرحام.

وإذا تعين توريثهم، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدّر بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط، صاروا - بسببها - من الأقارب، فيترلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

وأما (ميراث بقية العصبية) كالبنوة والأخوة وبنينهم والأعمام وبنينهم... إلخ فإن النبي ﷺ قال: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلأُولَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ». وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ فإذا ألحقنا الفروض بأهلها، ولم يبق شيء، لم يستحق العاصب شيئًا. وإن بقي شيء أخذه أولى العصبية، وبحسب جهاتهم ودرجاتهم.

فإن جهات العصبية خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، فيقدم منهم الأقرب جهة، فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة، فإن كانوا في منزلة واحدة فالأقوى، وهو الشقيق، فإن تساوا من كل وجه اشتركوا، والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات، أو بنات الابن عصبات، يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلائنه ليس في القرآن، ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات.

فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن، فإنه يعطى للأخوات، ولا يعدل عنهن إلى عصبية أبعد منهن، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

(١٤، ١٣) ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ لَأَنْتَ يَا رَبُّ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ اتِّمُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَجْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

فالحبس غاية إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه، وندما عليه، وعزما أن لا يعودا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: عن أذاهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفقهه للتوبة، وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتومئ إليه هذه الآية لما قال: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ لم يكتف بذلك حتى قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد

درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

فمن أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة، والنجاة من النار ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه، بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي، فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته، وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية، وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

(١٦، ١٥) ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: النساء ﴿الَّتِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ﴾ أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها.

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي: من رجالكم المؤمنين العدول، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضًا فإن الحبس من جملة العقوبات.

﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: هذا منتهى الحبس ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا غير الحبس في البيوت. وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغيية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلًا، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا﴾ أي: الفاحشة ﴿وَمِنْكُمْ﴾ من الرجال والنساء ﴿فَأَذَاهُمَا﴾ بالقول والتوبيخ والتعير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسْنَ ويؤذين.

عياناً، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل، والجس، قد شرع الله تعزيراً لجنس المعصية، الذي يحصل به الزجر.

(١٧، ١٨) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ

ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا

حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُنْتُ الْأَنْثَىٰ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ توبة الله على عباده

نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد،

فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه،

كرماً منه وجوداً، لمن عمل السوء أي: المعاصي ﴿بِجَهْلَةٍ﴾

أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل

منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص

الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار،

وإن كان عالماً بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرط لكونها

معصية، معاقباً عليها.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ثم

يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل

معاينة الموت والعذاب قطعاً، وأما بعد حضور الموت، فلا

يقبل من العاصين توبة، ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى

عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ أَمْسْتُ أَنْتُ لَا إِلَهَ إِلَّا

الَّذِي آمَنْتُ بِهِ نَبِيُّ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا

قَالُوا أَمَآناً بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ الْكَفْرَآءُ بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ

يَنْفَعُهُمْ يُعْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَتَ اللَّهُ آلِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

وقال هنا: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾

أي: المعاصي فيما دون الكفر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُنْتُ الْأَنْثَىٰ وَلَا الَّذِينَ

يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وذلك،

أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار، لا تنفع صاحبها، إنما

تنفع توبة الاختيار، ويحتمل^(١) أن يكون معنى قوله: «من

قريب» أي: قريب من فعلهم للذنوب، الموجب للتوبة.

فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور

الذنوب، وأتاب إلى الله، وندم عليه فإن الله يتوب عليه،

بخلاف من استمر على ذنوبه^(٢)، وأصر على عيوبه، حتى

صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة،

والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل

السوء على علم تام^(٣)، ويقين، وتهاون^(٤) بنظر الله إليه، فإنه

سد^(٥) على نفسه باب الرحمة.

نعم قد يوفق الله عبده المصير على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة^(٦)، [التي] يحموها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلا منهما بحسب ما يستحق بحكمته ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته، توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه، والله أعلم.

(١٩-٢١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا

النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ تَهَيَّأُوا بِعِضِّ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ

بِفَتْحَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ

تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَعْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝ وَإِنْ أَرَدْتُمْ

أَسْتَبْدَالَ دَوَاجٍ مِّمَّا كَرِهْتُمْ فَلَا تَجِدُوا فِيهَا إِذَا تَوَلَّيْتُمْ فَلَا تَأْخُذُوا

بِهِنَّ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُنَّ مِثْلًا وَإِنَّمَا مِثْلًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُنَّ وَقَدْ

أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ كانوا

في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته، رأى قريبه، كأخيه،

وابن عمه ونحوهما، أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها

عن غيره، أحبت أو كرهت، فإن أحبها تزوجها على صداق

يحبها دونها، وإن لم يرضها عضلها، فلا يزوجه إلا مَنْ

يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبدل له شيئاً من

ميراث قريبه، أو من صداقها.

وكان الرجل أيضاً يعضل زوجته التي يكرهها

ليذهب ببعض ما آتاها، فهي الله المؤمنين عن جميع هذه

الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت، واختارت نكاح قريب

زوجها الأول، كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرْهًا﴾ وإذا أتت

بفاحشة مبينة، كالزنا، والكلام الفاحش، وأذبتها لزوجها،

فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها، عقوبة لها على فعلها،

لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل المعاشرة

القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف؛ من

الصحة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن

المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة، والكسوة ونحوهما، فيجب

على الزوج لزوجه، المعروف من مثله لمثلها، في ذلك

الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

(١) في هامش أ. ويؤيد هذا الاحتمال أن الله قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ

الْحَاضِرَةِ، ولم يقل: إنما يتوب الله، وبين اللفظين فرق ظاهر. (٢) في

ب: ذنبه. (٣) في ب: قائم. (٤) في ب: متهاون. (٥) في ب:

يسد. (٦) في ب: للتوبة النافعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨١

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ نِسَاءِ الْإِنْسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

الابن أباه، والأب ابنه، مع الأمر بیره.

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بس الطريق طريقاً لمن سلكه، لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالنتزه عنها، والبراءة منها.

(٢٤، ٢٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَالنَّمُصْنَتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَتَنَعَّوْا بِأَمْوَالِكُمْ مُخَصَّيْنَ عَنْ مُسْتَفِجٍ فَمَا اسْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْخُذُوا أَجُورَهُنَّ وَبَيْضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْقَرْيَضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذه الآيات الكريمات

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً، من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبته لها - فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول، وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك، وربما رزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كله مع الإمكان في الإمساك، وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم، بل متى ﴿أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ﴾ أي: تطبيق زوجة، وتزوج أخرى، أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج، ولكن إذا ﴿أَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ﴾ أي: المفارقة، أو التي تزوجها ﴿قِنْطَارًا﴾ أي: مالاً كثيراً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ بل وفروه لهن، ولا تطلوا بهن.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر، ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم، ولم ينكره عليهم، فدل على عدم تحريمه.

[لكن قد ينهى عن كثرة الصداق، إذا تضمن مفسدة دينية، وعدم مصلحة تقاوم] ^(١)، ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل، فإن إثمه واضح.

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها وبارشها المباشرة التي كانت حراماً قبل ذلك، التي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى المعوض، فثبت عليه العوض، فكيف يستوفي المعوض، ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد، والقيام بحقوقها ثم قال تعالى:

(٢٢) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانُوا فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: لا تزوجوا من النساء ما تزوجهن آبائكم، أي: الأب وإن علا ﴿إِنَّكُمْ كَانُوا فَحِشَةً﴾ أي: أمراً قبيحاً بفحش ويعظم قبحه ﴿وَمَقْتًا﴾ من الله لكم ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك

وحرّمه، وحرّم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما ذكراً، والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح **«الْمُحْصَنَتُ مِنَ النِّسَاءِ»** أي: ذوات الأزواج، فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق، وتنقضي عدتها **«إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»** أي: بالسبي، فإذا سبت الكافرة ذات الزوج، حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة، أو وهبت، فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة، حين خبرها النبي ﷺ.

وقوله: **«يَكْتَبُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»** أي: الزموه واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: **«وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ»** كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: **«أَنْ تَسْمَعُوا بِأَمْوَالِكُمْ»** أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم **«مُحْصِنِينَ»** أي: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم.

«غَيْرِ مُسْفِحِينَ» والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحسن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجه، وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: **«الَّذِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ»**.

«فَمَا اسْتَسْنَمُوا بِهِ» أي: ممن تزوجتموها **«فَتَأْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ»** أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقها.

«فَرِيضَةً» أي: إيتاؤكم^(٢) إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه، وإن شاء رده، أو معنى قوله «فريضة» أي: مقدرة قد قدرتموها، فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئاً.

«وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس، [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم

(١) في ب: وأصولهما وفروعهما. (٢) في الأصل: (إيتانكم)، ولعل الصواب ما أثبت.

مشمطات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحلات من النساء، فأما المحرمات في النسب، فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم، يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت، ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم، والعمة: كل أخت لأبيك، أو لجديك، وإن علا، والخالة: كل أخت لأُمك، أو جدتك وإن علت، وارثة أم لا، وبنات الأخ، وبنات الأخت، أي: وإن نزلت.

فهؤلاء من المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: **«وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ»**، وذلك كبنت العمة والعم، وبنت الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم، والأخت، وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتبيينه على أن صاحب اللبن يكون أباً للمرتضع، فإذا ثبت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كإخوتهما، وأصولهم، وفروعهم^(١).

وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، فيتشر التحريم من جهة المرضعة، ومن له اللبن، كما يتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين، كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع: حلالل الآباء وإن علوا، وحلالل الأبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين، وأمهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد.

والرابعة: الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه، كما قال هنا: **«وَرَبِّبْتُكُمْ إِلْتِي فِي حُبُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ»** الآية.

وقد قال الجمهور: إن قوله: **«الَّتِي فِي حُبُورِكُمْ»** قيد خرج مخرج الغالب، لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقيد بذلك فاندتان:

إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت، فمن المستقبح إباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن، والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبْطِلُوا آمِنًا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٣٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٢﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَّا نَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَذْخِلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٤﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًا وَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٥﴾

نهاكم عنه. ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع، أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم، كالميتة والدم ونحوهما، للمضطر، وكزوج الأمة للحر، بتلك الشروط السابقة، وذلك لرحمته التامة، وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان، من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه، وصبره، وقوته.

(٢٩، ٣٠) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ٥ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٢﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصب، والسرقات، وأخذها بالقمار، والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ يخبر تعالى بمنتها العظيمة، ومنتحة الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَفِّفَ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمالهم الكاملة، وتوفيقهم التام، فلذلك نفذ ما أَرَادَهُ، ووضح لكم، وبين بيانا ما بين لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يلطف لكم في أحوالكم، وما شرعه لكم، حتى تتمكنوا^(١) من الوقوف على ما حده الله، والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم، بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا، فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له فله الحمد والشكر على ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود، ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله، من لا يصلح للتوبة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: توبة نلم شعركم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم.

فهؤلاء يريدون ﴿أَنْ يُبْطِلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ أي: [أن] تنحرفوا عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه، فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم، وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم، بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين، وتخيروا أحسن الطريقتين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بسهولة ما أمركم به، و[ما]

(١) في ب: تتمكنوا.

نُصْلِيهِ نَارًا ﴿٣١﴾ أي: عظمة كما يفيد التذكير ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

(٣١) ﴿إِنْ تَجَتَبَوْا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات، غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلًا كريمًا، كثير الخير وهو الجنة، المشتعلة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر». وأحسن ما حدث به الكبائر، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

(٣٢) ﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة، وغير الممكنة، فلا تمنى النساء خصائص الرجال، التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال، تمنيا مجردا، لأن هذا هو الحسد بعينه، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك، ويسلب إياها.

ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل والأمانى الباطلة، التي لا يقرن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته، بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه، ولا على غير ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب.

﴿وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه.

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من جميع مصالحهم في الدين والدنيا، فهذا كمال العبد، وعنوان سعاده، لا من يترك العمل، أو يتكل على نفسه، غير مفقر لربه، أو يجمع بين الأمرين، فإن هذا مخذول خاسر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعطي من يعلمه أهلا لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل، وليس من الحق. ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات، والمكاسب الخالية من الموانع، المشتعلة على الشروط، من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُم رَحِيمًا﴾ ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتب من الحدود.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كيف شمل أموال غيرك، ومال نفسك، وقتل نفسك، وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: ﴿لَا يَأْكُل بعضكم مال بعض﴾ و﴿لا يقتل بعضكم بعضًا﴾ مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين، فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم، وتراحيمهم، وتعاطفهم، ومصالحتهم، كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل، التي فيها غاية الضرر عليهم، على الأكل، ومن أخذ ماله - أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات، وأنواع الحرف والإجارات، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحَرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ بَيْنَكُمْ﴾ أي: فإنها مباحة لكم.

وشرط التراضي - مع كونها تجارة - لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين، ويأتي به اختيارا.

ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوماً، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورا على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا، فلا ينفذ عقده.

وفيها أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُم رَحِيمًا﴾ ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم، وصانها، ونهاكم عن انتهاكها.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: أكل الأموال بالباطل، وقتل النفوس ﴿عَذَابًا وَظَلَمًا﴾ أي: لا جهلا ونسيانا ﴿فَسَوْفَ

ولعل هذا سر قوله: ﴿يَمَّا أَنْفَقُوا﴾ وحذف المفعول، ليدل على عموم النفقة، فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به.

وظيفتها، القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فَالْمُحْلِلَتُ لَمَنْ دَخَلَهَا فَإِنَّ الْفُتُورَ شُؤْرُهُمْ﴾ أي: مطيعات الله تعالى ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها، وماله، وذلك بحفظ الله لهن، وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن مَنْ توكّل على الله، كفاف ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي تَخَاوَنَ شُؤْرُهُمْ﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل.

﴿فَيُطَوَّرُ﴾ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاجعها، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح.

فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور، وأطعنكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ أي: فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ أي: له العلو المطلق بجميع الوجوه، والاعتبارات، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، الكبير الذي لا أكبر منه، ولا أجل، ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: رجلين مكلفين، مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكماً، إلا مَنْ اتصف بتلك الصفات، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق.

ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح، فلا يعدلا عنه.

(٣٣) ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَئِنْ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُم بِصِيْبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أي: ﴿ولِكُلٍّ﴾ من الناس ﴿جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ أي: يتولونه ويتولاهم، بالتعزز والنصرة، والمعاونة على الأمور ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وهذا يشمل سائر الأقارب، من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالى من القرابة.

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: حالقتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة، والاشتراك بالأموال، وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً.

قال تعالى: ﴿فَأَتَوْهُم بِصِيْبِهِمْ﴾ أي: أتوا الموالى نصيبهم، الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة، والمساعدة، على غير معصية الله، والميراث للأقارب الأدين من الموالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أي: مطلعاً على كل شيء، بعلمه لجميع الأمور، وبصره لحركات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

(٣٤) ﴿الزَّجَالَ قَوْمُونَ عَلَى الْإِنْسَاءِ يَمَّا فَضَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَصْلَحْتَ فَنَنْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَاوَنَ شُؤْرُهُمْ فَيُطَوَّرُ وَأَفْجَرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ يخبر تعالى أن ﴿الزَّجَالَ قَوْمُونَ عَلَى الْإِنْسَاءِ﴾ أي: قوامون عليهن بالزمامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهن أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضاً بالإنفاق عليهن، والكسوة، والمسكن.

ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿يَمَّا فَضَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء، وإفضالهم عليهن.

فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات، كالجهاد، والأعياد، والجمع.

وبما خصهم الله به من العقل، والرزانة، والصبر، والجَلَد، الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال، ويميزون عن النساء.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَقَفُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهُقًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسَمَسِ الْمَسَاءِ فَلَمْ يَجِدْ أَوْ مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ
الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتْلُوا السَّيْلَ ﴿٤٤﴾

خطوات الشيطان وأعماله، التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلماذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: بش المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن من يخل بما آناه الله، وكنم ما من به الله عليه، عاصي آثم، مخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله، فإنه آثم عاصي لربه، مستوجب للعقوبة؛ لأن الله إنما أمر بطاعته، وامتنال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فلماذا حث تعالى عليه بقوله:

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَقَفُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: أي شيء عليهم، وأي حرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو

فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له والوفاء معه، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يجب له ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة، أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده، (ويؤاكرامه، وتأثسه) (١)، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم، فمن قام بهذه الأمور فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المتقادر لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل، والثناء الجميل.

ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير متقادر لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: معجبًا بنفسه، متكبرًا على الخلق ﴿فَخُورًا﴾ يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله.

فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق ولهذا ذمهم بذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم، وخسارة غيرهم وهذه هي صفات الكافرين، فلماذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا في منع غيرهم، من البخل، وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم، والخزي الدائم، فعياذًا بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ليروهم، ويمدحهم، ويعظمهم.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ليس إنفاقهم صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله، ورجاء ثوابه، أي: فهذا من

الحق المبين .

فأما ما ورد من أن الكفار يكتُمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

(٤٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَءُوا الصَّلَاةَ وَانْتَرَسْتُمْ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد، فإنه لا يمكن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة؛ لا اختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حذّر تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران، وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنسَابُ وَالْأَذْنَافُ رِجْسٌ مِنْ عِنْدِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا﴾ الآية .

ومع هذا فإنه يشدّد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة، الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبين، والتوقّط لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل أي: تمرّون في المسجد، ولا تمكثون فيه. ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحلب للجنب المرور في المسجد فقط.

الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله، وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق.

ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾.

(٤٠-٤٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ۖ فَكَيْفَ إِذَا جِئْتَنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۖ يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَأَلُوكَ بِرَأْسِ الْآرْضِ لَوْ يَكْفُوتُونَ اللَّهَ حِدِيثًا﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك، من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيداها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا﴾ أي: إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير، والخير الغزير.

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْتَنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به، كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، شهادة أزكى الخلق، وهم الرسل على أممهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم، الذي هو أعم الأحكام، وأعدلها، وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح، والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة، والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لَوْ سَأَلُوكَ بِرَأْسِ الْآرْضِ لَوْ يَكْفُوتُونَ اللَّهَ حِدِيثًا﴾ أي: يتبعهم، ويكونون تراباً وعدماً، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبَسُنِي كَذْتُ رَبِّي﴾.

﴿وَلَا يَكْفُوتُونَ اللَّهَ حِدِيثًا﴾ أي: بل يقرون له بما عملوا، وتشهد عليهم الستتهم، وأيديهم، وأرجلهم، بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيههم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو

ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: يتولى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً، فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ، على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك.

فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم ﴿يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك. وهذا غاية الكفر والعناد، والشرود عن الانقياد.

وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره.

﴿وَرَدَعْنَا﴾ قصدهم بذلك: الرعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتماً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلوون به ألسنتهم، إلى الطعن في الدين، والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال: ﴿لِيَأْخُذُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُوا لَكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمُ﴾ وذلك لما تضمنه هذا الكلام، من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله، والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم.

فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردتهم الله، بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ لَعْنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(٤٧) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُوا غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَدَعْنَا لِيَأْخُذُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُوا لَكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمُ وَلَكِنَّ لَعْنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ يأمر تعالى أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي قد صدقها، فإنها أخبرت به، فلما وقع المخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً، فإنهم - إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً، فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ حث لهم، وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُوا غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَدَعْنَا لِيَأْخُذُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُوا لَكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمُ وَلَكِنَّ لَعْنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

أنفسهم من اليهود والنصارى، وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ، من كل مَنْ زكى نفسه بأمر ليس فيه، وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ﴾. ويقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ وهذا مجرد دعوى، لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ دُونِ آلِهَةٍ نَبَايَاهُ يَكْفُرْ بِهِ وَلَهُ آيَاتٌ لِيُثَبِّرَنَّ عَنْهُمْ سُبُوهُ وَيُؤْتِيَ السَّبْعَ شَوَّارًا﴾. ﴿وَلَا يَخَافُ الْعَذَابَ﴾. ﴿وَلَا يُخَوِّفُهُمْ﴾.

فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَمُنَ بِشَاءٍ﴾ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتخلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء، فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا بظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ قِيعًا﴾ وهذا لتحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار القليل الذي في شق النواة، أو الذي يقتل من وسخ اليد وغيرها.

قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُ عَلَى اللَّهِ الْكُتُبَ﴾ أي: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم، الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً. ولهذا قال: ﴿وَكُنْ بِرَبِّهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: ظاهراً بيناً، موجباً للعقوبة البليغة، والعذاب الأليم.

(٥٧-٥١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَطِيعُوا وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۚ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۚ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۚ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِعَجْمِهِمْ سَعِيرًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلَتْ لَهُمْ ظِلَالٌ ظَلِيلًا ۚ وَهَذَا مِنْ قِبَاعِ الْيَهُودِ، وحسدتهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعويض عنه بالإيمان

من جنس ذلك، بطمس وجوههم، كما طمسوا الحق، وردھا على أدبارھا، بأن تجعل في أفئدتھم، وهذا أشنع ما يكون. ﴿أَوْ نَقَعْنَهُمْ كَمَا لَمْنَا أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ بأن يطردھم من رحمته، ويعاقبھم بجعلھم قردة، كما فعل بإخوانھم الذين اعتدوا في السبت ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

(٤٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك^(١) من الذنوب، صغائرھا وكبائرھا، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك، فإنَّ المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً وما لهم يوم القيامة ﴿بَيْنَ شَفِيعٍ ۚ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: افترى جرماً كبيراً، وأي ظلم أعظم ممن سوى المخلوق - من تراب الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عن عبده - نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر، والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فيئنه تعالى، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب.

وأما التائب، فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجِبَادِ الَّذِينَ آسَرُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْظُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب.

(٤٩، ٥٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكَبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ يُرْكَبُونَ بِشَاءٍ وَلَا يَظْلَمُونَ قِيعًا ۚ أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُ عَلَى اللَّهِ الْكُتُبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون

بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد، على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام - على طريق المؤمنين فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لأجلهم، تملقاً لهم ومداهنة، وبغضاً للإيمان: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً، فما أسمعهم، وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!!

كيف سلخوا هذا المسلك الوحيم، والوادي الذميم!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء.

فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله، ورسله، وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله، في السر والإعلان والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان، والأنداد، والكاذبين، وعلى صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهديان.

وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس، وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً، ومراغمة للحق. وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته، وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنَ حَسْبُ لَعْنِهِ﴾ أي: يتولاه، ويقوم بمصالحه، ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا، بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا ويخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: شيئاً، ولا قليلاً، وهذا وصف لهم، بشدة البخل، على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله، فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك، الحسد للرسول

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنَ حَسْبُ لَعْنِهِ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلُوهُمْ ظِلًّا ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

وللمؤمنين، على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببذع ولا غريب على فضل الله.

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة، والكتاب، والملك الذي أعطاه من أعطاه، من أنبيائه كـ «داود» و «سليمان»، فإنعامه لم يزل مستمراً على عباده المؤمنين، فكيف ينكرون إنعامه، بالنبوة، والنصر، والملك، لمحمد ﷺ، أفضل الخلق، وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله، وأخشاهم له!!

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ، فنال بذلك السعادة الدنيوية، والفلاح الآخروي ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عناداً، وبغياً، وحسداً، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ تسعر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم، من أصناف الكفرة. ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: عظيمة الوقود، شديدة الحرارة.

الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء، والحكام، والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم، إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة الله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرؤا بمعصية الله، فإن أمرؤا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولعل هذا هو السر في حذف الفعل، عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطيعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر، فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه؛ من أصول الدين وفروعه، إلى الله وإلى رسوله، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى، يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما، فالرد إليهما شرط في الإيمان، فهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿حَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

(٦٠-٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُفْرِزُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِؤُسْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَتُ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ﴾ مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم ﴿قَدْ أُفْرِزُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِؤُسْ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن، واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق.

﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمُ

﴿كُلًّا نَبِغَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: احترقت ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليلغ العذاب منهم كل مبلغ، وكما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفًا لهم وسجية؛ كثر عليهم العذاب جزاءً وفاقا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله، وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا زَوْجٌ مَطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا، من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

(٥٨، ٥٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأٌ بَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَأْمُرُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ الأمانات: كل ما أوثمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال، والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

وقد ذكر الفقهاء أن من أوثمن أمانة؛ وجب عليه حفظها في حرز مثلها، قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤمن، ووكيله بمنزلة؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديًا لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبرّ والفاجر، والولي والعدو، والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله، من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل، ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نَبَأٌ بَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيها لاشتمالها على مصالح الدارين، ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتنال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٤﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُتَفَقِفِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا ﴿٦٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يُمْسِكُ
قَدَمَتَايَ يَدَيْهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٨﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٩﴾

رَحِيمًا ﴿٦٩﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول
التوبة والتوفيق لها، والثواب عليها، وهذا المجيء إلى
الرسول ﷺ، مخصص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك،
لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد
موته، فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا
رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه
اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة
للكتاب والسنة. ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج
من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض،
ثم لا يكفي ذلك ^(٢)، حتى يسلموا لحكمه تسليمًا، بانسراح
صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام
الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه

(١) في النسختين: معتدلين. (٢) في النسختين: تعظيم المطاع للمطيع،
وهو سبق قلم، وقد عدلت في ب عن طريق المطبعة السلفية إلى: تعظيم
المطاع من المطيع. (٣) في ب: هذا التحكيم.

مُصِيبَةً يُمْسِكُ قَدَمَتَايَ يَدَيْهِمْ ﴿٦٩﴾ من المعاصي، ومنها تحكيم
الطاغوت؟.

﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ معتدلين ^(١) لما صدر منهم، ويقولون: ﴿إِنْ
أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إِلَّا
الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في
ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لَقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾.

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾
أي: من النفاق والقصد السيء ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبال
بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقتروه ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ أي: بين
لهم حكم الله تعالى، مع الرغبة في الانقياد لله، والترهيب
من تركه.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: انصحهم سرًا
بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم
وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف
المعاصي، وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سرًا، ويبالغ في
وعظه، بما يظن حصول المقصود به.

(٦٥، ٦٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ○ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يخبر تعالى خبرًا، في ضمنه
الأمر، والحث على طاعة الرسول، والانقياد له، وأن الغاية
من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، ينقاد لهم المرسل إليهم
في جميع ما أمروا به، ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين،
تعظيم المطيع للمطاع ^(٢).

وفي هذا إثبات عصمة الرسل، فيما يبلغونه عن الله، وفيما
يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، فلولا
أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقًا.
وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء
الله وقدره، ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة
بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع
الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترب
السيئات - أن يعترفوا ويتوبوا، ويستغفروا الله فقال: ﴿وَلَوْ
أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ أي: معترفين بذنوبهم،
باخعين بها.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٨٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَلَوْ أَنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ فَرَادَى جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَبِطَ لَنْ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ لَنَا بِمَعَهُمْ قَافُورٌ فَوَرَا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

الأوامر الشرعية، حتى يألفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث) قوله: ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب، والبدن، ومن النعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومعجته وإثارة به، والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

(٧٠، ٦٩) ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا ﴿٧٠﴾ أي: كل مَنْ أطاع الله ورسوله - على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأنتى وصغير وكبير ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح، والسعادة

المراتب، وكميلها، فقد استكمل مراتب الدين كلها، فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العصاة.

(٦٦-٦٨) ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس، من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم، وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات؛ لتخفف عليه العبادات، ويزداد حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا همهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمع نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها، فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا.

وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه، ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل، وعدم النشاط، ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله ثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به. فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر، والنواهي، والمصائب، فيحصل لهم ثبات، يوفقون لفعل الأوامر، وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرها العبد، فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا، أو للشكر.

فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على

فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة، وأيضاً، فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم، أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهد وضغفاء، دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف، لا يقوى على الجهاد كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ الْآخِرَاءُ أَمْتًا قُلْ لَمْ تُؤْمِسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر غايات هؤلاء المتناقضين، ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال: ﴿إِن أَسْبَغْتُكُمْ مَّصِيبَةً﴾ أي: هزيمة، وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم.

﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف ﴿قَدْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَرَأَى كُنْ مَعَهُمْ شَيْدًا﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه وإن استراح قليلاً، فإنه يعقبه تعب طويل، وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

ثم قال: ﴿وَلَيْنَ أَسْبَغْتُكُمْ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة، ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم، ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها، ولو على يد غيرهم، من إخوانهم المؤمنين^(٢)، ويألمون بفقدائها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها، بل من حصل منه غير ما يليق، أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلماذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج في سبيله فقال: ﴿فَلْيَمِزْ لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه، فليقاتل في سبيل الله، المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ

مِنَ الْآخِرَةِ﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ وهم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل فعملوا الحق، وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله، ﴿وَالشَّهَادَةَ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَاكُمْ رَفِيقًا﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأنس بقربهم في جوار رب العالمين ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ الذي نالوه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والتجوارح.

(٧١-٧٤) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ۝ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَرَأَى كُنْ مَعَهُمْ شَيْدًا ۝ وَلَيْنَ أَسْبَغْتُكُمْ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ فَلْيَمِزْ لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۝ وَمَنْ يَفْعَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم والنفير في سبيل الله.

ولهذا قال: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي: متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش ويقم غيرهم ﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية والراحة للمسلمين في دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ ۝ أَي: أيها المؤمنون ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفاً وخوراً وجبنًا، هذا الصحيح.

وقيل معناه: ليبطئن غيره، أي يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون ولكن الأول أولى، لوجهين:

أحدهما: قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين. والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾.

الَّذِينَ بِالْآخِرَةِ ۖ أَي: يبيعون الدنيا، رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء هم الذين يوجه إليهم الخطاب؛ لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم، ووطنوها على جهاد الأعداء لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.

وأما أولئك المتناقلون، فلا يعبا بهم، خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلَّذِينَ سَجِدًا﴾ إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿إِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه «الذين» في محل نصب على المفعولية.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأن يكون جهاداً، قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصاً لله فيه، قاصداً وجه الله ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمة، وثناء حسناً، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٧٥) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ هذا حث من الله لعباده المؤمنين، وتيسيح لهم على القتال في سبيله وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء، والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم.

فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم ولياً ونصيراً، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال، والذب عن عيالتكم وأولادكم، ومحارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم، ويلام المتخلف عنه أعظم لوم، فالجهاد الذي فيه استقذاذ المستضعفين منكم أعظم أجراً، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

(٧٦) ثم قال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الذي هو الشيطان، في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه، ومتابعته، فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان، ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون، وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ الآية.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، وهو الحق، والتوكل على الله، فصاحب القوة، والركن الوثيق، يطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل، الذي لا حقيقة له، ولا عاقبة حميدة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مكره مهما بلغ، فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

(٧٧، ٧٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْفَقَ وَلَا تَطْلُمُونَ قَلِيلًا ۖ أَتَيْتُمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ كان المسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم؛ ويبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال - مع قلة عددهم وعددهم، وكثرة أعدائهم - لأدّى ذلك إلى اضمحلال الإسلام. فروعي جانب المصلحة العظمى على ما دونها،

ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت، من التوحيد، والصلاة، والزكاة ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبَتُّبًا﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كُتِبَ عليهم القتال في وقته المناسب لذلك.

فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس، وضعفاً وخوراً: ﴿يَبْنَؤُا لَوْ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ؟ وَفِي هَذَا تَضْجِرُهُمْ، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال - التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره، فمكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ﴾ أي: هلاً أخرت فرض القتال، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين، واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر.

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال فقال: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ أي: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله، في المدة القصيرة، مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها، هان عليها ذلك، فكيف إذا وزنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها:

فذاها - كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه - «أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها».

ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر، من تصور لذة - فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقال الله على لسان نبيه: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص، الذي لو قوبل بين لذاتها، وما يقترن بها من أنواع الآلام، والهموم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان - بالنسبة إلى الدنيا - شيء يسير، وأما الآخرة، فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فُكِرَ العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتيهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإيثار، والسعي له، والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُضَيِّعْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُضَيِّعْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِّنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

أَتَقَى: أي: اتقى الشرك، وسائر المحرمات. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: فسيحكم للدار الآخرة، ستجدونه كاملاً موفراً، غير منقوص منه شيئاً.

ثم أخبر أنه لا يغني حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئاً فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: في أي زمان، وأي مكان. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: قصور منيعة، ومنازل رفيعة.

وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله، تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

(٧٨-٨٠) ثم قال: ﴿وَإِنْ تُضَيِّعْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُضَيِّعْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِّنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ○ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ○ الآية. يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما

فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَهَادَةً قُلُوبُ اللَّهِ شَهِدَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

إذا علم أن الله تعالى كامل العلم، وتام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصرًا عظيمًا، يتقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

(٨١، ٨٠) ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿أَي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه، ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ؛ لأن الله أمر بطاعته مطلقًا، فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقًا، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة: حق لله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك، وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير، والتوقير، والنصرة، وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وله من الثواب والخير ما رتب على طاعة الله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعة الله ورسوله، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا.

﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغًا ومبينًا وناصحًا، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتموا أم لم يهتموا، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿الآية﴾.

ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا، في الحضرة والمغيب، فأما مَنْ يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه، أو أبناء جنسه، ترك الطاعة، وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه مَنْ قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك ﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: بيتوا ودبروا غير طاعتك، ولا ثم إلا المعصية.

جاءت به الرسل، المعارضين لهم: أنهم إذا جاءتهم حسنة، أي: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وأنهم إن أصابتهم سيئة أي: جدد، وفقير، ومرض، وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: بسبب ما جئنا به يا محمد.

تطيروا برسول الله ﷺ، كما تطير أمثالهم برسول الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذَا وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً يَبْغُوا يَمُوسَىٰ وَمِنْ مَعَهُ﴾ وقال قوم صالح: ﴿أَطْرَقْنَا بِكَ وَمِنْ مَعَكَ﴾ وقال قوم ياسين لرسولهم: ﴿إِنَّا نَطْرُقُكَ لَكِن لَّا نَسْمَعُكَ لَنَسْمَعَنَّكَ﴾ الآية. فلما تشابهت قلوبهم بالكفر، تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل مَنْ نسب حصول الشر، أو زوال الخير، لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخل في هذا الذم الوخيم.

قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: من الحسنة والسيئة، والخير والشر. ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره وخلقه ﴿فَإِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة ﴿لَا يَكَادُونَ يَقْهَوْنَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون حديثًا بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا.

وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم، وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه، فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر، والحسنات والسيئات، كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببًا لشر يحدث، هم ولا ما جاؤوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فَرِنَ اللَّهُ﴾ هو الذي من بها ويسرها بتيسير أسبابها ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدنيا ﴿فَرِنَ نَفْسِكَ﴾ أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر.

فإنه تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه، فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله حقًا بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة،

تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والراية، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إداعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرراً من أعدائهم، فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة^(١)، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا فيحجم عنه؟ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: في توفيقكم، وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿لَأَكْبَحْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر، فإذا لجأ إلى ربه، واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه، ووقفه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

(٨٤) ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَرَحْمَةُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله، من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمان أو أحدهما، فهذا قال لرسوله: ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ أي: ليس لك^(٢) قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

﴿وَرَحْمَةُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين، وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

وفي قوله: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة، لأن التبييت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي.

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، ففيه وعيد لهم.

ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف، فإنهم لا يضره شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه، ولهذا قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة؛ والطريق الموصلة إلى العذاب؛ وصفة أهلها؛ وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً، وعملاً، وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَؤُنَا إِلَيْهِمْ وَليَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَآ﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، فترى الحكم والقصة والإخبارات، تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا يتقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور.

فلذلك قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله؛ لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

(٨٣) ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَأَكْبَحْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا

(١) في ب: ما فيه مصلحة. (٢) في النسخين: ليس عليك.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾ أي: قوة وعزة ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ بالمذنب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته، ولم يجعل لهم باقية. ولكن - من حكمته - يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

(٨٥) ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا﴾ المراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره، وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء.

وَمَنْ عَاوَنَ غَيْرَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه، ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان، وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا﴾ أي: شاهداً حفيظاً، جسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كل ما يستحقه.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتكلمين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقتزن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداء ورداً، فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلاً في ذلك، ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها.

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلاً، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردّها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة، مَنْ حيا بحال غير مأمور بها، كـ «على مشغول بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصلاً ونحو ذلك» فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك مَنْ أمر الشارع بهجره، وعدم تحيته، وهو العاصي غير

النائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى.

ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله، وحكمه المحمود.

(٨٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيِّثَا﴾ يخبر تعالى عن انفراد بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية؛ لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته، أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء - وهو يوم القيامة - فقال: ﴿لِيَجْمَعََنَّكُمْ﴾ أي:

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٢

سُورَةُ النِّسَاءِ

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ
فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾ وَذُو لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّى يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فُخِّدُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٩٠﴾
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلْكُمْ
وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩١﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ
مَارَدُؤًا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعَزَلُوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ
السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩٢﴾

ويستلزم أيضًا بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر مؤقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، سواء كان مؤمنًا حقيقة، أو ظاهر الإيمان.

وأنهم إن لم يهاجروا، وتولوا عنها ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي وقت، وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق: فرقتين أمر بتركهم، وحتم [على] ذلك.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: تقتلهم، وفرقة تقول: لا، فانزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

أولكم وأحركم، في مقام واحد.

في ﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثًا، يحيون ثم يموتون، وأما الدليل السمعي، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنِيَ عَنْكَ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره، وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها، فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] (١) والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل؛ لمناقضته للخبر الصادق اليقيني، فلا يمكن أن يكون حَقًّا.

(٨٨-٩١) ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ○ ودُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فُخِّدُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ○ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلْكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ○ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُؤًا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعَزَلُوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٢)

المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيه اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهره من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم.

فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون، قد تكرر كفرهم، وودوا - مع ذلك - كفرهم، وأن تكونوا مثلهم، فإذا تحققت ذلك منهم ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

إحداهما^(١) من يصل إلى قوم، بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حق الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقُولُوا أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضًا أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَّاكُمْ﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم، ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك، فهؤلاء إن ﴿اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبْسِطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْآفْتَةِ أَرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم، ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها، فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم، لا خوفًا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفًا لا احترامًا، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(٢) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح انضاحًا عظيمًا، اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ أي: المسالمة والمودة، ﴿وَيَكُونُوا أَيْدِيَهُمْ فُحْدُورُهُمْ وَأَقْبَلُواهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ وَأَوَّلَتْكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيقَةٌ فَلِيَهُمْ سُلْطَانٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَيْسِيًّا شَهْرِيًّا مُتَّاعِيًّا تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن أي: متعمدًا، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك، إما من كافر أو من فاسق، قد نقص إيمانه نقصًا عظيمًا، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك.

فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»، فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًا، لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجرب على محارم الله.

ولكنه لما كان قد فعل فعلًا شنيعًا، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حرّاً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع؛ فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضع بعته، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك، فإن التحرير: تخليص مَنْ استحققت منافعها لغيره، أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية، فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ، وشبه

(١) كذا في ب، وفي أ: أحدها. (٢) في ب: سيقدمون.

لتكون رادعة، وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك، من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح، وكف المفساد، [ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل، حذراً من تحميلهم^(١)]، ويخف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم، بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخفت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه، أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

(٩٣) ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَكَفَيْتُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾
تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعياداً ترجف له القلوب، وتتصدع له الأفئدة، وتزعج منه أولو العقول.

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده، أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعياً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكبائر والمعاصي، بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة، الذين يخلدونهم في النار، ولو كانوا موحدين، والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم - رحمه الله - في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه مقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها.

العمد ﴿مُسْلَمَةً إِلَىٰ أَهْلِيهِ﴾ جبراً لقلوبهم. والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَذِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق، ﴿فَنَ لَّمْ يَذَّ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر.

فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض، والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل، توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم، من تقصير، وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وَكَاتَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم، كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، في أي وقت كان، وأي محل كان، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته، أن أوجب على القاتل، كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة، ويخرجها من رق العبودية للمخلوق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية، إلى التعب لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله، ومدّها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عدها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ،

(١) زيادة من هامش: ب (٢) في ب: عليهم.

وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى
أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ
مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَتِلَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَأْتِيهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَسُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

قَبْلُ فَمَنْ آتَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين، إذا خرجوا جهاداً في
سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا، ويتثبتوا في جميع أمورهم
المشتبهة، فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين؛ لأن ذلك
تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج
إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟ فإن
التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف
لشروع عظيمة، ما به يعرف دين العبد، وعقله، ووراثته،
بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها^(١)، قبل أن يتبين له
حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي.

كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية، لما لم
يتثبتوا، وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال
غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس

(١) في السختين: بداوتها.

وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع،
وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع
بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة
الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة
الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه
النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا
قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى
العقاب وممانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى
هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدريّة، وهو مقتضى
الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسيباتها،
خلقاً وأمراً.

وقد جعل الله سبحانه لكل ضدّاً يدافعه، ويقاومه،
ويكون الحكم للأغلب منهما، فالقوة مقتضية للصحة
والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل
القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية
والأمراض، والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض
للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا
ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة، ولا
يدخل النار، وعكسه، وَمَنْ يدخل النار ثم يخرج منها،
ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث، في سرعة
الخروج، وبطئه، وَمَنْ له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله
به في كتابه، من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده رأي
عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه، وربوبيته،
وعزته، وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك
إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته،
كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق
النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل
إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من
نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في
عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله، انتهى كلامه،
قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

(٩٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَسُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا
تَقُولُوا لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٤

الْمُجَاهِدِينَ

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ مَلَائِكَةً ظَالِمًا أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْ أَفِينَا كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَا وَمَنْهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْتَكُمَا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

غير عذر، فَمَنْ كَانَ مِنْ أُولِي الضَّرَرِ، راضياً ببقوده، لا ينيى الخروج في سبيل الله، لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

وَمَنْ كَانَ عَازِمًا عَلَى الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لولا وجود المانع، يتمنى ذلك، ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة مَنْ خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر، والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصحيحين» أن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى بَعْرَةِ نَجِيحِكُمْ

الأمر، فهذا عاتبهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُوتُ عَرْصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَائِدٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له، إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى، وهي مضرة له - أن يذكرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى - مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثله، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

فإذا كان مَنْ خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تعوذاً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت، في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر، ويبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كلًّا ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

(٩٦، ٩٥) ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لا يستوي مَنْ جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، وَمَنْ لم يخرج للجهاد، ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل، والقعود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر، كالمرضى، والأعمى، والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين، من

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصًا التائبين المنيبين إلى ربهم.

﴿رَحِيمًا﴾ بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك، رحيمًا بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يحرمنا خيره بشرًا ما عندنا.

(١٠١، ١٠٢) ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ۝ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَتَعَتِكُمْ فَيَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ مِثْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَىٰ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة الخوف، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في السفر، وظاهر الآية، [أنه] يقتضي الترخيص^(١) في أي سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصًا للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده، إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفوره لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

وإزالة الوهم في هذا الموضوع ظاهرة؛ لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما:

(١) في ب: الترخيص. (٢) في ب: الترخيص.

ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل، لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة، ونحوهما - مما يحتاج إلى سفر - من شروط الاستطاعة.

(١٠٠) ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ هذا في بيان الحث على الهجرة، والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن مَنْ هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغما في الأرض وسعة، فالمراعم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا؛ وذلك أن كثيرا من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتًا بعد الألفة، وفقرا بعد الغنى، ودلا بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه، كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية، كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصًا إن كان مستضعفًا.

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله، وجهاد أعداء الله، ومراغمتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاطة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم، وأولادهم، وأموالهم لله، كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام، والجهاد العظيم، والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل مَنْ فعل فعلهم حصل له ما يحصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: قاصداً ربه، ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصرة لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ بقتل أو غيره ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم، وحصل منه ابتداء، وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم، ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال:

سورة النساء

٩٥

سورة النساء

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْيَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَّيُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعَدُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِحَكْمٍ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تُكِنُّ السُّخْرَىٰ خَصِيمًا ﴿١٠٤﴾

فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴿١٠١﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتمم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْيَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: الذين معك أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها. ﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَّيُصَلُّوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى، منتظرًا للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم، حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، كلها جائرة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين: أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة،

ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره، والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما بكرة أن تؤتى معصيته. وقوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

إحداهما: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة، وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: أن «من» تفيد التبعض، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضة، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِذَ الْكُفْرُ الَّذِي يَدُلُّ ظَاهِرُهُ أَنَّ الْقَصْرَ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِوُجُودِ الْأَمْرِينِ كِلَيْهِمَا، السَّفَرُ مَعَ الْخَوْفِ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُ اخْتِلَافِهِمْ إِلَى أَنَّهُ هَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ قَصْرُ الْعَدَدِ فَقَطْ أَوْ قَصْرُ الْعَدَدِ وَالصِّفَةِ؟ فَإِلَّا شَكَالَ، إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِذَ الْكُفْرُ الَّذِي يَدُلُّ ظَاهِرُهُ أَنَّ الْقَصْرَ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِوُجُودِ الْأَمْرِينِ كِلَيْهِمَا، السَّفَرُ مَعَ الْخَوْفِ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُ اخْتِلَافِهِمْ إِلَى أَنَّهُ هَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ قَصْرُ الْعَدَدِ فَقَطْ أَوْ قَصْرُ الْعَدَدِ وَالصِّفَةِ؟ فَإِلَّا شَكَالَ، إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ.

فعلى هذا يكون هذا القيد آتي به نظرًا لغالب الحال التي كان النبي ﷺ، وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنه ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة. ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ

وفي قوله: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكما في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم، حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

(١٠٣) ﴿إِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ يَمِينًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم صلاة الخوف وغيرها، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد، منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإلابة إلى الله تعالى في المحبة، وامتلاء القلب من ذكره، والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة التي حقيقتها: أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان، ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن، والخوف، فأمر بجبرها بالذكر بعدها. ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

منها: أن الذكر لله تعالى - مع الصبر والثبات - سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْيَتِيمَ ءَامِنًا إِذَا لَيْسَ فِيكَ فَاثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ لَكُمْ نَفْلًا خَيْرًا﴾ فأمر بالإكثار منه في هذه الحال، إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿إِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا أتمتم من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فأتوا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهرا وباطنا، بأركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: مفروضا في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتا لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

ودل قوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الصلاة ميزان

وقت اشتداد الخوف من الأعداء، وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلو لا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد، ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به لو صلوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف.

وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به حربه المؤمنين، وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم حيثما تفقوهم، ويأخذوهم، ويحصرهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم، فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال، لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿إِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَّارِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأن الرسول ﷺ ثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولا ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

نَقِيدَ. وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ○ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ○ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِفُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظًا في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملًا أيضًا على الحق، فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿وَمَتَّ كَلِمَتَكَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبين جميع الدين، وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما، معناهما واحد. فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام.

وقوله: ﴿يَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ﴾ أي: لا بهواك، بل بما علمك الله وألهمك. كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ○ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وفي هذا دليل على عصمته ﷺ، فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها. وأنه يشترط في الحاكم^(١) العلم والعدل، لقوله: ﴿يَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت.

ورتب أيضًا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيانتها، من مُدَّعٍ ما ليس له، أو منكِرٍ حقًا عليه، سواء علم ذلك، أو ظنه.

ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية، والحقوق الدينية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إِنِ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ «الاختيان»

الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار - وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها، وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَىٰ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلَيْتَهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. أي: لا تضعفوا ولا تكتسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في جهادهم، والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم، ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم، والتعب، والجراح ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية، والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وهم قد تساوت فيهما فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا مَنْ توالى عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا مَنْ يبدل مرة، ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه، والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية، وآمال رفيعة، من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين. فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط، والشجاعة التامة؛ لأن مَنْ يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان مَنْ فاءت بين العباد، وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كامل العلم، كامل الحكمة.

(١٠٥-١١٣) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ يَمَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ○ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ○ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ○ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ○ هَتَأْتُهُمْ هَوْلًا جَدَلْتُهُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ○ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ○ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَىٰ

سورة النساء

٩٦

سورة النساء

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدَلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَانًا أَمِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَانَتْهُمْ هَوَلَاءَ جَدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
الْقِسْمَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتيت، فإن
لذته تقضي، ويعقبها من الهموم، والغوم، والحسرات،
وفوات الثواب، وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في
الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل
الحقيقي بخلاف الذي (٣) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه -
بجهله وظلمه - يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو
ترتب عليها ما ترتب، والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى الْمَعَاصِي،
واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًا، يستلزم
الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا
يعود، فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة،
فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من
النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة،

و«الخيانة» بمعنى الجنابة والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي
عن المجادلة، عن مَنْ أَذْنَبَ وَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ عَقُوبَةٌ، مِنْ حَدِّ أَوْ
تَعْزِيرٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجَادِلُ عَنْهُ بِدَفْعٍ مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنَ الْخِيَانَةِ، أَوْ
بِدَفْعٍ مَا تَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْعَقُوبَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَمِيمًا﴾ أي: كثير الخيانة
والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا
كالتعليل للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا
يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهذا
من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق
عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة
والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد
بارزوا الله بالعظام، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم، وهو
معه بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما
لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء
بالجنابة، والسعي في ذلك للرسل ﷺ، ليفعل ما يبتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض
والسموات، المطلع على سرائرهم وضمايرهم، ولهذا
توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: قد
أحاط بذلك علما، ومع هذا لم يعالجهم بالعقوبة بل استأنى
بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم،
الموجب للعقوبة البليغة.

﴿هَتَانَتْهُمْ هَوَلَاءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ
اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: هبكم
جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض
ما تحذرون (١) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني
عنهم وينفعهم؟ وَمَنْ يَجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَوَجَّهَ
عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما
كانوا يعملون؟ ﴿يَوْمَ يُؤْيِيهِمُ اللَّهُ ذُبُنَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ الْبَاقِي﴾ فَمَنْ يَجَادِلُ عَنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَمَنْ
أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟.

وفي هذه الآية إرشاد (٢) إلى المقابلة بين ما يتوهم من
مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه وبين
ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها، فيقول
مَنْ أَمَرْتَهُ نَفْسَهُ بِتَرْكِ أَمْرِ اللَّهِ: ها أنت تركت أمره كسلا
وتفريطًا، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب
الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرام
والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهيه من

(١) في ب: ما يحذرون. (٢) في ب: الإرشاد. (٣) في ب: مَنْ.

الذنب، وإن كان مذنبًا ﴿فَقَدْ أَحْصَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: فقد حمل فوق ظهره بهتانًا للبريء وإثمًا ظاهرًا بينًا، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها.

فإنه قد جمع عدة مفسدات: كسب الخطيئة والإثم.

ثم رمي مَنْ لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على مَنْ لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضًا من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفسادات التي نسال الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر مته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ وذلك أن هذه الآيات الكريمة قد ذكر المفسرون أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم، فرموها ببيت مَنْ هو بريء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق مَنْ وجدت السرقه ببيته، وهو البريء، فهم رسول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فأنزل الله هذه الآيات تذكيرًا، وتبيينًا لتلك الواقعة، وتحذيرًا للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان: ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب، فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال، [كما حفظه عن الضلال في الأعمال]^(١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ لكون ذلك المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والحرمان، والإثم والخسران.

وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر. (٣) في النسختين: وهذا.

ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءًا» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه - في نفسه - سيئًا غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده. وسمي ظلم النفس «ظلمًا» لأن نفس العبد ليست ملكًا له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للصراط المستقيم علمًا وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب. فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه، وخيانة، وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم، من صغير وكبير، فمَنْ كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُزْوَ وَارِزَّةٌ وَزَرْ أُخْرَى﴾.

لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضًا عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن مَنْ ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحدًا بذنب أحد، ولا يعاقب أحدًا أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب، وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأتامة بالسوء، مع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر له ويوفق للتوبة.

وإن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافًا بنظر ربه، وتهاونًا بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ أي: ذنبًا كبيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك، ﴿ثُمَّ يَرَوْهُ﴾ أي: يتهم بذنبه ﴿بَرِيًّا﴾ من ذلك

نَفَرُوا ۖ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا ۚ يَتَنَبَّأُ إِنَّ بَعَثَ لِحِطَّةِهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَفَقَاتِلُوا آلِي نُبَيْحٍ حَتَّىٰ تَقْتُلُوهُ ۚ إِنَّكَ أَمْرٌ مُّشْكِكُ ۚ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَالصِّلِحُ خَيْرٌ﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه، بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِبْغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت، واقرن بها ما يمكن من العمل.

(١١٥، ١١٦) ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، ويعانده فيما جاء به ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية، والبراهين النبوية.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم.

﴿تَوَلَّىٰ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: تركه وما اختاره لنفسه، ونخذه، فلا نوقفه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلاله حائرًا، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَكْبَادَهُمْ وَأَنصَرَّهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ويدل مفهومها على أن مَنْ لم يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام:

(١) في ب: الخلق. (٢) في النسختين: استقصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

والحكمة: إما السُّنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السُّنة تنزل عليه، كما ينزل القرآن، وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى، فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنْتُ نَذْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ثم لم يزل يوحى الله إليه، ويعلمه، ويكمله، حتى ارتقى مقامًا من العلم، يعتذر وصوله على الأولين والآخرين.

فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق^(١). وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها^(٢) ولا يتيسر إحصاؤها.

(١١٤) ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِبْغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون. وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال، أو علم، أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتسبيح، والتحميد، ونحوه.

كما قال النبي ﷺ: «إن بكل تسيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» الحديث.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر، دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضًا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٧

الْمُحْكَمَاتُ

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمْرٍ بَصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٥) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٦) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَن يَشْرِكْ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٧) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا سَاطِنًا مَّرِيدًا﴾ (١١٨) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدَّنَ مِن عِبَادِكَ نَفْسِيًّا مَّفْرُوضًا﴾ (١١٩) وَلَا أَضْلَنَّهُمْ وَلَا تُبَيِّنْهُمْ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (١٢٠) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢١) أُولَٰئِكَ مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَحْدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢٢)

شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً أي: عدلاً خياراً؛ ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به، أو نهى عنه، أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة؛ لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِن لَّزَعَمَ فِي شَيْءٍ رَّدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَوْسَلَ﴾ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمرين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

(١١٧-١٢١) ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا سَاطِنًا مَّرِيدًا﴾ ○ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدَّنَ مِن عِبَادِكَ نَفْسِيًّا مَّفْرُوضًا ○ وَلَا أَضْلَنَّهُمْ وَلَا تُبَيِّنْهُمْ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (١٢٠) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢١) أُولَٰئِكَ مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَحْدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢٢)

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشَّيْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه الشئ، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل.

وقوله: ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً. فنه ما يخلد في النار، ويوجب جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم، عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك، بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا

عن الصراط المستقيم، ضلّالاً في العلم، وضلّالاً في العمل.

﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ أي: مع الإضلال، لأمنيتهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، ﴿قُلْ هَلْ تَتَّقُونَ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الآية.

وقال تعالى عن المنافقين: إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَضْتُمْ أَفْئَادَكُمْ إِلَىٰ آلِهَتِكُمْ فَتَبَتُّوهُمْ فَأُولَٰئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبَإَ فَذَكَرْنَاهُمْ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ أَذَانُكَ﴾ أي: بتقطيع أذنانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فبعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال، يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال.

﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ أَذَانُكَ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والتفلج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتديره. ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفلطين على قبول الحق وإثارة، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد؛ من توحيد، وحبه ومعرفته، فافترسهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئب للغنم المفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من

أَذَانُكَ الْأَفْعَامُ وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ أَذَانُكَ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا ۝ أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا حَتَّىٰ يَحِصَّ لَهُمْ ۝

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثاً، أي: أوثاناً وأصناماً، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقداء لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها نفعا ولا ضرا، ولا تنصر أنفسها ممن يريد بها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنی، والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والافتراء بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير!!

هل هذا إلا من أقيح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف!! ومع ذلك^(١) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة.

وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حَرِيمًا لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: مقدراً.

علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاه.

وأقسم في موضع آخر ليعوينهم ﴿لَأَقْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَٰهِي ظَنُّهُمْ فَاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله أنه يتخذهم^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ﴾ أي:

(١) في ب: ومع هذا. (٢) في النسختين: إنهم يتخذهم.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابعة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان. وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقرية، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فله ما أحلى ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون.

وتمام ذلك وكمال الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره حقاً كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمناً، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ، لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

(١٢٣، ١٢٤) ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا يَجْزِي بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا يُصِيرَ ۝ وَمَنْ يَمْعَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَبْظَلُمُونَ شَيْئًا﴾ أي: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والأماشي أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلهما لكانت من جنسها، وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟! فإني أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك مَنْ ينتسب إلى الإسلام، لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئاً، إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ

(١) كذا في ب، وفي أ: وفاطركم. (٢) في ب أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها.

توليه من ربهم وفاطركم^(١)، وتوليه لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ وأي خسار أبين وأعظم، ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياها؟! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولي مولا، وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم، والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افترقوا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية، ويخوفهم عند إثارة مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم بالأمانى الباطلة؛ التي هي - عند التحقيق - كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: مَنْ انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مخلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الأباد.

(١٢٢) ولما بين مال الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مال السعداء أوليائه فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٢) أي: ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان.

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح، كل له من الثواب المرتب على ذلك، بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح.

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وشئته رسوله.

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٨

الْبَرِّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٥﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ
وَلَا يَحْدِلْهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُحِيطًا ﴿١٢٩﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوُلَدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٣٠﴾

الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع لشريعة الله، التي أرسل الله بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مانئاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين: محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلًا، لأنه وفى بما أمر به، وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذة خليلًا، ونوه بذكره في العالمين.

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى

يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين؛ لأن السوء شامل لأي ذنب كان^(١)، من صفات الذنوب وكبارها، وشامل أيضًا لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوي أو آخروي.

والناس في هذا المقام درجات، لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبة، جوزي بالخلود في العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحًا، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، و﴿بعض﴾^(٢) الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله لطفًا بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْدِلْ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضًا كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، ولهذا قال: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس، والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا مما عملوه من الخير، بل يجلدونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام

(١) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان. (٢) زيادة من هامش ب.

فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم، وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح مَنْ لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه وفقد أبيه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدداً أو لازماً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلًا بحسب عمله.

(١٢٨) ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا وَاعِرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصِلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليتها لزوجها، أو لضررتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى، أن الصلح بين مَنْ بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيه من الإصلاح، وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحل حراماً، أو حرّم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه، وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه، ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به، وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له، ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جبلت

بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

(١٢٧) ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالسُّتُعَيْنِ مِنَ الْوِلْدَانِ إِذْ تَقُولُ لِيَنْكَحِ الْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن، وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهيًا، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار.

ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من اليتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء ﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج ليتنفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَرَغِبْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: ترغبن عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿وَالسُّتُعَيْنِ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد. ﴿وَإِنْ تَقُولُوا لِيَنْكَحِ الْيَتَامَى بِالْعَدْلِ التَّامِ، وهذا يشمل القيام عليهم بالزمامهم أمر الله، وما أوجبه على عباده،

الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحذور، والصبر على المقدور، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب، والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتوهن.

(١٣٠) ﴿وَإِنْ يَنفَرَا يَمْنَنَّ اللَّهُ كُلاًَّ مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِنْ يَنفَرَا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يَمْنَنَّ اللَّهُ كُلاًَّ﴾ من الزوجين ﴿مِنْ سَعْيِهِ﴾ أي: من فضله، وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة. وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمًا﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادته من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان، حرمة عدلاً وحكمة.

(١٣١، ١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَعْطَلَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَعْطَلَةِ﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة والكسوة، والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين

النفوس على الشح، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له. فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك، والافتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل - حيثئذ - عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا﴾ أي: تحسبوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسبوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات أو تحسبوا بفعل المأمور، وتتقوا بترك المحذور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

(١٢٩) ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَعْطَلَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَعْطَلَةِ﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة والكسوة، والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا وَاعِرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٣﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَآ كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٤﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٦﴾ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٧﴾ إِنَّ يَشَاءُ يَذْهَبَ عَنْكُمُ أَيْمُنُ النَّاسِ وَيَأْتِ يَخْرِبَتِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٩﴾

ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا، سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبها منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.

وله الحكمة تعالى في توفيق مَنْ يوفقه، وخذلان مَنْ يخذله، وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(١٣٥) ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَسُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته.

يغيبها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات، وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل [واحد] منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره شيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه، ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه، ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومن عليهم بلطفه، وهدهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد، ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين ﴿الْعَنُوتُ الْحَمِيدُ﴾ فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدييره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزّه عن كل نقص.

(١٣٣، ١٣٤) ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبَ عَنْكُمُ أَيْمُنُ النَّاسِ وَيَأْتِ يَخْرِبَتِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٨﴾ أي: هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشئمة النافذة فيكم ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبَ عَنْكُمُ أَيْمُنُ النَّاسِ وَيَأْتِ يَخْرِبَتِ﴾ غيركم، هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعاب بهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهّل ويملي، ولا يمهّل.

ثم أخبر أن مَنْ كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قصر سعيه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ نِعِرْضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴿١٣٨﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٩﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَبُغُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤١﴾

(١٣٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى مَنْ لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمراً له بالدخول فيه، وذلك كأمر مَنْ ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكُتُبِ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا بَعَثَكُمْ﴾ الآية.

وإما أن يوجه إلى مَنْ دخل في الشيء، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات.

ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن، من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص، وفهم معناه واعتقده، فإن ذلك من الإيمان المأمور به. وكذلك سائر

والقسط في حقوق آدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك^(١)، كما تطلب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط، القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحياب، بل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير - بزعمكم - رحمة له، بل اشهدوا بالحق على مَنْ كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على مَنْ نصح نفسه، وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادته القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم - إن اتبعتموها - عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه، حتى يرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمَنْ سلم من هوى نفسه، وثَّق للحق، وهدى إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط، نهى عن ما يضاد ذلك، وهو لُيُّ اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا من اللُيِّ؛ لأنه الانحراف عن الحق.

﴿أَوْ تَقْرِضُوا﴾ أي: تركوا القسط المنوط بكم، كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه، الذي يجب عليه القيام به.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم، خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض، ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل، أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً، لأن الأولين تركا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

ظنوا أنه يروج على الله، ولا يعلمه، ولا يبيده لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم، وأي خداع أعظم ممن يسعى سعياً يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟! ويدل بمجردة على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!!

ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُفْسِقُونَ وَالْمُفْسِقَتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا ذُنُوبَكُمْ فَنُفِصَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِالْحُكْمِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ۝ يَأْذُوبُهُمْ أَلَمَ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُوا كَسَالَى﴾ متقلبين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل.

﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله، فلهذا ﴿لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن ممتلىء قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً، أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَجِدْ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: لن تجد طريقاً لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتنبهها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق، ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم، وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختار أيهما أولى به، وبالله^(٤) المستعان.

(١) في ب: المنافقين. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: فله.

(٤) في ب: والله.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالة، ولا ينفع الكافرين^(١) مجرد كونهم - في الظاهر - مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر تحقيق موالة المنافقين للكافرين، ومعاداتهم للمؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَكُمْ﴾ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ فَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ليسلموا من القدر والظعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء، وليتصروا بهم.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم يقل: فتح، لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله.

فإذا كان ذلك ﴿فَالُوا أَلَمْ تَسْخَرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: نستولي عليكم ﴿وَتَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين، بجميع وجوه المنع من تغنيدهم، وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان، حتى إن [بعض]^(٢) المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله^(٣) الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

(١٤٣، ١٤٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى كَسَالَى النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَجِدْ لَهُ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفران،

(١٤٤) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن ﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أُنذرنا وحذرننا منها، وأخبرنا بما فيها من المفاسد، فسلوكمها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فعلها يجعل الله عليه سلطاناً مبيناً.

(١٤٥-١٤٧) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب.

وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من تاب إلى الله عليهم بالتوبة من السيئات ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والباطن ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام، والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الحرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً كل المنافاة للنفاق، فذكرهما

الَّذِينَ يَرَبُّونَكُمْ وَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ فَالْوَأَلَمَ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ فَأَلْوَأَلَمَ تَسْتَحِذُوا عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤٦﴾ إِنْ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٧﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٥٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥١﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٥٢﴾

لفضلتهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدى فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام، الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاثتهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين، وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكِر، عليم. يعطي المتحلمين

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٥١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٥٢) ﴿يَسْأَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَنَتْ فَعَفُّوْا عَنْ ذَلِكَ وَعَٰثِنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُبِينًا﴾ (١٥٣) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١٥٤)

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتب على ذلك بأن أحوالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنيها عن ذكر ثوابها الخاص:

(١٥٠-١٥٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٥١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٥٢)

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل

لأجله الأثقال، الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وأوسع الإحسان، ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهرهم وباطنهم، وأعمالهم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأني شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا يتنفع بعقابكم. بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

(١٤٨، ١٤٩) ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩) يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغيض ذلك ويمقتة ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم، والقدف، والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغيضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ (١٤٨) أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويشكي^(١) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك عفوه، وعدم مقابلته أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء، والحسن، والمباح، أخبر تعالى أنه سميع فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغيض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ﴾ (١٤٩) أي: عمن أساءكم في أبدانكم، وأموالكم، وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزء من جنس العمل، فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩) أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم سترة، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الْغَيْبِ وَمَا قُلُّوهُ يَفِينًا ○ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ○ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ ○ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ○ فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُجُلَتِ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ○ وَأَعَذَّهِمُ الزَّبْرَ وَكَذَّبُوا عَنْهُ وَأَكْفَهُمْ أَمْوَالُ الْكَافِرِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ○ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة، كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مذبذب ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقًا، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقًا فلا تؤمنوا به، ولا تصدقوه؟

بل نزول القرآن مفرقًا بحسب الأحوال مما يدل على عظمته، واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ○ وَلَا يَأْتُونَكَ بِبَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْوِيمًا﴾.

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله عيانًا، واتخاذهم العجل إليها يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدة مستغفرين، فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة. وباخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق، ومن قولهم: إنهم

دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيهم من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمني، فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله؛ لأن ذلك من تمام تولى، ومن عادى أحدًا من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ الْآيَاتِ.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به، موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به، موجود مثلها، أو أعظم منها، فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى، ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقًا، ذكر عقابًا شاملًا لهم، ولكل كافر فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ﴿وَلَمْ يُفِرُّوْا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله، ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

(١٥٣-١٦١) ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمَتِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَى سُلْطَنًا مُبِينًا ○ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَاتِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ اتَّخَذُوا الثَّابِتَ حُجَّةً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ○ فِيمَا تَقْصِيهِمْ بَيِّنَاتُهُمْ وَكَفَرِهِمْ إِذْ بَيَّنَّا لِلَّهِ وَقُلُّوهُمُ الْآيَاتِ يَعْزِرُ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ كُفْرَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ ○ إِلَّا قَلِيلًا ○ وَكَفَرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ○ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قُلْنَا لِلنَّبِيِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا قُلُّوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا

فَمَا نَقِضْهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقْتُلْهُمْ أَلْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكَفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكَفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيَمَ
بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أَخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فِظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا
حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هَوَّاهُ عَنْهُمْ وَأُولَئِكَ أَمْوَالُ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَنَكُنَّ
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟
وحينئذ لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه، مما هو
مخالف لشرعية القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا
بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه
لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ، هو الحق،
وما عداه فهو ضلال وباطل.

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات
التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم
واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من
الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه. فمنعوا المحتاجين ممن
يباعونهم عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من
كثير من الطيبات التي كانوا بصددهم حلها، لكونها طيبة. وأما
التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن
الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

(١٦٢) ﴿لَنَكُنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما ذكر

قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما
صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه.

وادعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه،
وبصددهم الناس عن سبيل الله، فصددهم عن الحق، ودعوههم
إلى ما هم عليه من الضلال والغي، وبأخذهم السحت والربا،
مع نهى الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا
الرسول محمدًا أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، وهذه الطريقة
من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل.

وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل، ما جعله شبهة
له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله
الشيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا
الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل
هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ،
يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه، في نبوة من يدعون
إيمانهم به، ليكنفى بذلك شرهم، وينقمع باطلهم. وكل حجة
سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به، فإنها ونظيرها وما هو
أقوى منها، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه
المقابلة، لم يبسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها، وأحال
على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل
اللائق ببسطها.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾
يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود إلى أهل
الكتاب. فيكون - على هذا - كل كتابي يحضره الموت،
ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه
إيمان لا ينفع لأنه إيمان اضطرار. فيكون مضمون هذا التهديد
لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون
عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم
وقيامهم!!

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع إلى
عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل
الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح،
وذلك يكون عند اقتراب الساعة، وظهور علاماتها الكبار.
فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في
آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل
الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدًا،

ولما ذكر اشتراكهم بوحية، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، الزبور الذي خص الله به داود عليه السلام، لفضله وشرفه. وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل ترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار. فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء، أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ عليه نعمته بإرسالهم، أن ينهما بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

(١٦٦) ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّاتِيكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾. يحتمل أن يكون المراد، أنزله مشتملاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية، والأحكام الشرعية، والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبية على وجه شهادته. وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدق له، ومن كذبه وعاداه كان عدوه، واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويجب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه.

فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر!!؟

ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم، ولجلالة هذا المشهود عليه.

معايير أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم، فقال: ﴿لَكِنَّ الرَّايِسُونَ فِي آلِهِ﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأمر لهم بالإيمان التام العام ﴿وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وأمر لهم بالأعمال الصالحة من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، للذين هما أفضل الأعمال. وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد، ورجوا الوعد.

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأنهم جمعوا بين العلم، والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب، والرسل السابقة واللاحقة.

(١٦٣-١٦٥) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا كُنَّا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله: من الشرع العظيم، والأخبار الصادقة، ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمداً ﷺ، ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعترف بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة. فلم يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستئناساً بسلوكهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي آلِهِ﴾، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيَّاسِينَ ۖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

فكل محسن، له من الثناء الحسن بين الأنعام بحسب إحسانه، والرسل - خصوصاً هؤلاء المسنون - في المرتبة العليا من الإحسان.

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
وَعَاثَيْنَا دَاوُدَ وَزَبُورًا ﴾ (١٦٧) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا ﴿ ١٦٨ ﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿ ١٦٩ ﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿ ١٧٠ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا
﴿ ١٧١ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿ ١٧٢ ﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ ١٧٣ ﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ
الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا
فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ ١٧٤ ﴾

وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم - غير لائق بحكمة الله ورحمته. فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد. فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته. وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم، والصرط المستقيم، فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يُعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق. ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب، والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله، وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه وبقائه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أبدانهم، وقلوبهم،

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وكفى بالله شهيدًا.

(١٦٧-١٦٩) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لما أخبر عن رسالة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها، وشهدت ملائكته - لزوم من ذلك ثبوت الأمر المقرر، والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم توعد من كفر بهم فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل نفسه، وأضل غيره، فباء بالآئمين، ورجع بالخسارتين، وفاتته الهدياتان، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر - عند إطلاق الظلم - يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه. فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصرط المستقيم. ولهذا قال: ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ.

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي: لا يبالى الله بهم ولا يعبأ، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

(١٧٠) ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به. فالسبب الموجب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق. أي فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق.

فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق - في جهلهم يعمهون،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٥

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَتَّاهِلُ الْكَتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ

وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَبَرَزُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَتَّاهِلُ النَّاسُ
فَدَجَاءَكُمْ بِرَهْنٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِي رَحْمَتِهِ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكاملة.
أرسل الله روحه جبريل عليه السلام فنفخ في فرج مريم عليها
السلام. فحملت بإذن الله، بعيسى عليه السلام.
فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب
بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة،
أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى، فحبهم
الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي
يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه
نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي:
هو المنفرد بالالوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.
﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزهه وتقدس. ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له،
مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.
ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه
قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم
عليها تعالى.

وأرواحهم، ودنياهم، وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من
المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل، فمن ثمرات
الإيمان، فالنصر، والهدى، والعلم، والعمل الصالح،
والسرور، والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعم،
كل ذلك مسبب عن الإيمان. كما أن الشفاء الدنيوي
والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على
الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه،
لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو
العليم بمن يستحق الهداية والغواية. الحكيم في وضع الهداية
والغواية موضعهما.

(١٧١) ﴿يَتَّاهِلُ الْكَتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى
اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ
أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ينهى تعالى
أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر
المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في
غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعهم عن مقام النبوة والرسالة
إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله.

فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك.
ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام
يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهى عنهما، وهما قول الكذب
على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله،
وشرعه، ورسله. والثالث: مأموره، وهو قول الحق في هذه
الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن
عيسى عليه السلام، نصّ على قول الحق فيه، المخالف
لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل
إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي
درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثوبات.
﴿وَهُ﴾ أنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: كلمة
تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما
كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.
وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي

الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين. وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

(١٧٤، ١٧٥) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنْزِلَتْ إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مَتْنٍ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمُ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة، والأنوار الساطعة، وقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: حجج قاطعة على الحق، تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سَرَّيْهِمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية. فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَأُنْزِلَتْ إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم، إن لم يقتبسوا من خيره.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتزويه من كل نقص وعيب.

﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: لجأوا إلى الله، واعتمدوا عليه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مَتْنٍ وَفَضْلٍ﴾ أي: فستعظمهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿وَيَهْدِيهِمُ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به، ويتمسك بكتابه، منعمهم من رحمته، وحرهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان. نسأله تعالى العفو والعافية والمعافة.

(١٧٢، ١٧٣) ﴿أَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْضَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فترهم عن الاستنكاف، وتزيههم عن الاستكبار من باب أولى. ونفي الشيء فيه إثبات ضده. أي: فيعسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوا وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْضَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات، من واجبات، ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشروب، والمناجح، والمناظر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن. بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي، رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم، فيحصل لهم المطلوب، ولا من ينصرهم، فيدفع عنهم المزهوب، بل قد تخلى عنهم أرحم

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِذَا مَا بَيْنَ عَيْنَيْكُمْ وَعَيْنِ الْمُضِيِّ وَأَنْتُمْ حُرٌّ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها.

وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم. والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه، والتآلف بين المسلمين، وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها^(١). ثم قال ممتناً على عباده ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم، رحمة بكم ﴿بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ﴾ من الإبل والبقر والغنم. بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء، وحمر الوحش ونحوها من الصيد. واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح.

﴿إِلَّا مَا بَيْنَ عَيْنَيْكُمْ﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْبَتُهُمْ وَأَلَدُهُمْ وَلَحْمُ الْفَخْرِزِيرِ﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات، وإن كانت من بهيمة الأنعام، فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثنى منها الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرٌّ﴾ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفيين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَبِيعُوا أَنْفُسَكُمْ فَذَلِكُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَأَنْتُمْ حُرٌّ إِنْ كُنْتُمْ كَانَتْ أَتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي: في الكلاله بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهي الميت يموت، وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَبِيعُوا أَنْفُسَكُمْ فَذَلِكُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَأَنْتُمْ حُرٌّ﴾ لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب، ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والإخوة بالإجماع لا يرثون مع الوالد. فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وَلَكُمْ أَخْتٌ﴾ أي: شقيقة، أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها.

﴿فَلَهُمَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وَهُوَ﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي الأختان ﴿أَتْنَتَيْنِ﴾ أي: فما فوق ﴿فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيْنِ﴾ فيسقط فرض الإناث، ويعصبن إخوتهن.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها، ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً، لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم، بسبب جهلكم وعدم علمكم.

﴿وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ أي: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلية، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام، في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء. فله الحمد والشكر.

(١) في هامش ما نصه (ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل لإطلاقها) وليس هناك علامة تدل على موضع الزيادة. ويبدو أن موضعها هنا - والله أعلم -.

حرم، أي: متجرون على قتله في حال الإحرام، وفي الحرم فإن ذلك لا يحل لكم، إذا كان صيداً، كالظباء ونحوه.

والصيد: هو الحيوان المأكول المتوحش.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: فمهما أَرَادَهُ تعالى حكم به حكماً موافقاً لحكمته، كما أمركم بالوفاء بالعقود، لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم.

وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صوناً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام، احتراماً للإحرام وإعظاماً.

(٢) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْجَأُوا شَعْبَرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْجَأُوا شَعْبَرَ اللَّهِ﴾ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها. والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح، وعن اعتقاده.

ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم. ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ الْفَسِمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَسَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقاً. وبأن النبي ﷺ، قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم، غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه. وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله، إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٦

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ أَمْرَهُمَا لَئِيسٌ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَلَا نِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ

يُتَيْنِ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفَاءَ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْجَأُوا شَعْبَرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتداء الكفار المسلمين بالقتال فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرم وغيره، بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي: ولا تحلوا الهدى الذي يهدى إلى بيت الله في حج، أو عمرة، أو غيرهما، من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحملوه ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموهم من جاء به.

﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يقتل له فلا تد أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، وليعرف أنه هدى فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر المسنونة.

يأثم صاحبها، ويحرج ﴿وَالْمُذْرِنَ﴾ وهو التعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على مَنْ عصاه، وتجراً على محارمه. فاحذروا المحارم، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والأجل.

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيطَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُيْعَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْقُسُوا بِالْأَرْزَاقِ ذَلِكَ مِمَّا فُسِّقَ﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَبَّسُ عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم، إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك، وقد لا بين.

فأخبر أنه حرم ﴿الْمَيْتَةَ﴾ والمراد بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضربها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بأكملها. وكثيراً ما تموت بعلقة تكون سبباً لهلاكها، فتضرب بالأكلة. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسماك فإنه حلال.

﴿وَالْدَّمُ﴾ أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. ﴿وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه. وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصارى، يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث. ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ذكر عليه اسم غير الله، من الأصنام والأولياء والكواكب، وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى ﴿وَالْمَنْخَقَةُ﴾ أي: الميتة بخنق، بيد، أو جبل، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً، أو حصى، أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد ﴿وَالْمُتَرَدِّيةُ﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل، أو جدار، أو سطح ونحوه، فتموت بذلك ﴿وَالنَّطِيطَةُ﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ من ذئب، أو أسد، أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيد، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل. وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ راجع لهذه المسائل، من منخقة، وموقودة، ومتردية، ونطيحة، وأكلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها. ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع

﴿وَلَا يَأْمِنُ أَلَيْتَ الْحَرَامِ﴾ أي: قاصدين له ﴿يَتَنَفَّوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً﴾ أي: مَنْ قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة، والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته، والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموه، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر، الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِمِهِمْ هَكَذَا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم. والتخصيص في هذه الآية، بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن مَنْ قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدق مَنْ هذه حاله، عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْكَافِرِ يَغْلِبْ يُدْفَعْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم، يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل. ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم، واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد، على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جُنِيَ عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على مَنْ كذب عليه، أو يخون مَنْ خان.

﴿وَتَوَاتَوْا عَلَى الْإِلِّ وَالْتَقَوْا﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿وَلَا تَوَاتَوْا عَلَى الْإِلِّ﴾ وهو التجرؤ على المعاصي التي

وأحكامهم، إلى علوم غير علم الكتاب والسنة: من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه. وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم دينا، كما ارتضيتكم له. فقوموا به شكرا لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة، في قوله: ﴿حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ النَّبِيَّةَ﴾ (في تحصيله) أي: مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ أي: مائل ﴿لِلْإِثْمِ﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال. ورحمه بما يقيم به نيته، من غير نقص يلحقه في دينه.

(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَيِّبِينَ تُؤْمِنُونَ بِمَا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقْنُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ من الأطعمة؟ ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل. فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري. ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخباث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخباث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح. والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليما، بأن يسترسل إذا أرسل، ويتزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم. وما أكل منه الجارح

(١) كذا في ب، وفي أ: كدمه. (٢) كذا في السختين: ولعل الأقرب: فحرم.

حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها. [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة، فإذا ذكأها وفيها حياة حلت، ولو كانت مبانة الحشوة، وهو ظاهر الآية الكريمة] (١). ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْآزَلَةِ﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها. وهي قداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا هم أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القداح المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحدا منها. فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره. وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه. وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل به. فحرّمه (٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه، بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم. ﴿ذَلِكُمْ فَتَقُ﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرّمها الله صيانة لعباده، وأنها «تَقُ» أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

(٣) ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحْصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ

واليوم المشار إليه يوم عرفة؛ إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالا بليغا، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يشوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون. ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ - سنة عشر - حجة الوداع لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وحذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع. ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم

فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخفة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بقله، لم يباح. [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها، أو مخالبيها. والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أي: المحصلات للصيد، والمدركات لها^(١). فلا يكون فيها على هذا دلالة. والله أعلم^(٢)].

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحتها صيده وتعليمه، جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه، ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذمومًا، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله معتمدًا، لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة، فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(٥) ﴿الْيَوْمَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبَ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ وَالْمُؤْمِنَاتُ وَالْمُؤْتَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾. كرر تعالى إحلل الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٠٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْنَتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مُحْصَاةٍ غَيْرِ مُتَحَافِةٍ لِأَنْفِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيْبَ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مَعَ لَكُمُ اللَّهُ فَعَلُوا بِمَا أَمْسَكَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٧﴾ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيْبَ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْتَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرِ مُسْتَفْجِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٨﴾

الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين. وذلك لأن أهل الكتاب، ينتسبون إلى الأنبياء والكتب. وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك. فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم.

والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح، كالحبوب والثمار، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك، ولو كان من طعام غيرهم. وأيضًا فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك على أنه كان طعامًا، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتملك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿حَلَلٌ لَّكُمْ﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه. ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ﴾ الْمُحْصَنَاتُ أي: الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُسَمِّيَكُمْ عَلَيْهِمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام
كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله:

أحدها: أن هذه المذكورات فيها، امثالها والعمل بها من
لوازم الإيمان، الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا
بمقتضى إيمانكم، بما شرعناه لكم.
الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ﴾ أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها
عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما
تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض
والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشتترط له الطهارة،
حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة
والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة
من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين
والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسُّتَّة، ويدخل فيه
الشعور التي فيه. لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء
إلى البشرة. وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين. و
«إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»، كقوله تعالى:
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل
جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست
للتبعية، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع
الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو
إحدهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق
المسح، ولم يقيد بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه، ولم
يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿٦﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ
يُؤْمِنَ﴾. ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح
نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يباحن، ولا يجوز
نكاحهن للأحرار مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ فَتَنَكُمْ
الْمُؤْمِنَاتِ﴾. وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز
لأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول، وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن،
سواء كن مسلمات أو كتابيات، حتى يثبتن لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي
لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِذَا بَلَغَتُمُوهُنَّ أَرْبَعِينَ﴾ أي: أباحنا لكم نكاحهن،
إذا أعطيتموهن مهورهن. فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها
فإنها لا تحل له. وأمر بإيتائها، إذا كانت رشيدة تصلح
للإيتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع
مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها، أو
وليها أو غيرهما.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي: حالة كونكم - أيها الأزواج
- محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي: زانين مع كل أحد ﴿وَلَا مُتَجِدِّينَ﴾
أَخْلَافًا. وهو: الزنا مع العشيقات، لأن الزناة في الجاهلية،
منهم من يزني مع من كان، فهذا المسافح. ومنهم من يزني مع
خدنه ومحبه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة. وأن
شرط الزوج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي:
ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو
شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على
كفره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُوتْ
وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي: الذين خسروا
أنفسهم، وأموالهم، وأهلهم يوم القيامة، وحصلوا على
الشقاوة الأبدية.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
الكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ
جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ

التيتم مع وجود الماء، لحصول الضرر به. وبأقيها يجوز عدم للماء، ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السيلين من بول وغائط، ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدل بها مَنْ قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران. فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عما يستقدر التلفظ به^(١)، لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَكَةً أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَايِطِ﴾.

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة، ناقض للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم، لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.

الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت، وليس معه ماء، فإنه يلزمه طلبه في رحله، وفيما قرب منه، لأنه لا يقال «لم يجد» لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أن مَنْ وجد ماء لا يكفي بعض طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطهارات، مقدم على التيمم، أي يكون طهوراً، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾.

السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم لقوله: ﴿تَتِيمُوا﴾ أي: اقصدا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض، من تراب وغيره. فيكون على هذا قوله: ﴿فَأَسْكُوْا بِرُجُوْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه، ويعلق بالوجه واليدين. وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيباً، بل خبيثاً.

الأربعون: أنه يمسح في التيمم، الوجه واليدين فقط، دون بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿بِرُجُوْكُمْ﴾ شامل لجميع الوجه وأنه يعممه^(٢) بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.

(١) كذا في ب، وفي أ: فيه. (٢) في ب: يعمه.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب. وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين، على قراءة الجري في ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وتكون كل من القراءتين محمولة على معنى. فعلى قراءة النصب فيها، غسلهما إن كانتا مكشوفتين. وعلى قراءة الجر فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة. ولأنه أدخل ممسوحاً - وهو الرأس - بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية.

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب. بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه. وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين. وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة المأمور به.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه، أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على مَنْ أنزل المني، يقظة أو مناماً، أو جامع ولو لم ينزل.

الرابع والعشرون: أن مَنْ ذكر أنه احتلم ولم يجد بللاً، فإنه لا غسل عليه، لأنه لم تحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر منه الله تعالى على العباد، بمشروعية التيمم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه، السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء. فالمرض يجوز

الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك.

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين، لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية، فلم يقيد. [وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم، لأن السياق في الأحداث. وهو قول جمهور العلماء]^(١).

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان، التيمم عنهما، فإنه يجزئ، أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فَامْسَحُوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء. ولأن الله بدأ بمسح الوجه، قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر. وإنما هو رحمة منه بعباده، ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكمل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح. الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة، تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها، ليزداد معرفة وعلماً، ويزداد شكراً لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

(٧) ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ عَالِمُ ذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَكَمَلُوا الصَّلَاةَ لَكُمْ مَغْفِرَةً وَاجْرَعُظِيمٌ ﴿٩﴾

وفيه زوال للعجب من النفس، بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه. و﴿وَمِيثَقَهُ﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق. وإنما المراد بذلك، أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما. ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار

هَمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان. وأنهم - كما أنهم يعدّون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة - فليعدّوا أيضًا إنعامه عليهم، بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء، قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه، فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين، ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه. وهذا يشمل كل مَنْ هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومناق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ويتبرأوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

(١٣، ١٢) ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزِيتُمْ عَنْهُمُ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِفَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد. وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم يقوموا به. ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: رئيسًا وعريفًا على مَنْ تحته، ليكون ناظرًا عليهم، حاثًا لهم على القيام بما أمروا به، مطالبًا يدعوه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ للنبياء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المونة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، وال مداومة على ذلك ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ جميعهم

والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم، على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته، ومحبة، والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، علمه بصلاح قلوبكم.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، بأن تنشط للقيام بالقسط، حركاتكم الظاهرة والباطنة. وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية. وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا في أفعالكم. وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله مَنْ لا عدل عنده ولا قسط. بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم، فاشهدوا له، ولو كان كافرًا أو مبتدعًا. فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله. ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وأجلاً.

(٩، ١٠) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين - المؤمنين به، وبكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالعمو عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها، بعد ما أبانت الحقائق ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٠٩

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَحِيمِ ﴿١٠٩﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ
 اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
 فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ
 إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ
 وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
 حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
 ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١١﴾ فِيمَا
 نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
 يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
 ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٢﴾

عظيمة. وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل مَنْ اتصف
 بصفاتهم.

فكل مَنْ لم يرق بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان
 له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم،
 وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به. وأنه لا بد أن
 يتلى بالخيانة. نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذُكِّروا به حظًا، لأنه هو أعظم
 الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية. كما قال تعالى:
 ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ
 لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَأَوْا إِثْمَهُ لَوْ حَضَرَ عَظِيمٌ﴾.
 وقال في الحظ النافع: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا
 يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي: فإنهم وفوا بما عاهدوا
 الله عليهم فوقهم، وهداهم للصراط المستقيم.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ أي: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم
 من الأذى الذي يقتضي أن يعفى عنهم واصفح. فإن ذلك من
 الإحسان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان: هو أن تعبد الله

الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي:
 عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة
 ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو الصدقة والإحسان،
 الصادر عن الصدق والإخلاص، وطيب المكسب. فإذا قمت
 بذلك ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما
 فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما
 يترتب عليها من العقوبات.

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد
 بالإيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما
 يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكانه
 قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه،
 أم نكثوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي:
 بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أنا ﴿لَعْنَتُهُمْ﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من
 رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم
 يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: غليظة لا
 تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم
 تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على
 العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير
 إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: ابتلوا
 بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما
 أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. فإنهم ذكروا
 بالتوراة وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظًا منه. وهذا
 شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه، وضاع عنهم، ولم يوجد
 كثير مما أنساهم الله إياه، عقوبة منه لهم. وشامل لنسيان
 العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به.
 ويستدل بهذا على أهل الكتاب، بإنكارهم بعض الذي قد ذكر
 في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ
 مِنْهُمْ﴾ أي: خيانة الله ولعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم [عن] مَنْ يعظمهم،
 ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاظهم على كفرهم، فهذه خيانة

كانك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

(١٤) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْهُمُ مَقَسُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذاك أخذنا على ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاؤوا به، فنقضوا العهد ﴿فَقَسُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ نسياناً علمياً، ونسياناً عملياً.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة. وهذا أمر مشاهد، فإن النصارى لم يزلوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق ﴿وَسَوْفَ يُنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فيعاقبهم عليه.

(١٥، ١٦) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي: أنه بين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم. فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم، ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم، فالحرص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم.

فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكاثرون به بينهم، وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك.

﴿وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة، وعماية الضلالة.

﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم، من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن

سورة المائدة

١١٠

سورة المائدة

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْهُمُ مَقَسُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً - سبيل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة إلى نور الإيمان والسنة، والطاعة، والعلم، والذكر.

وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(١٧، ١٨) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقالت اليهود والنصارى نحن آتينا الله وأجبتوه

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾
أي: فأى شيء خضعكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك، ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

(١٩) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فَتَرَوْ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذلك حجبتهم، لئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعانا لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها. ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

(٢٠-٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْنُونَ أَمَّا الْفَالِغُونَ ○ يُقَوِّمُوا أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى آخِرِ الْقصة (٣).

لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه، وأسره واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواله، وقاربوا وصول بيت المقدس. وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم، ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدّموا على الجهاد فقال لهم: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتهم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة.

فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم. ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل. مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم. وآدم أولى منه، خلق بلا أب ولا أم. فهلا ادعوا فيها الإلهية، كما ادعوا في المسيح؟

فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة. فردّ الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم، ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

﴿و﴾ من الأدلة أَنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون. فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلها معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم، [كآدم]^(١). فنوع خلقته تعالى بمشيئته النافذة التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَ﴾.

والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح. قال الله ردّا عليهم، حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم، [لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه]^(٢).

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ تجرى عليكم أحكام العدل والفضل.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١١

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَعْزُبُ عَنْهُ مَنَ شَاءَ وَيُعَذِّبُ مَنَ شَاءَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَتَاهِلُ لِكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَءَاثَنَكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَنْهَا فَنَنْفِلِبُوهَا خَيْرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمُ وَكَلَّ اللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ، حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله! لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ». ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: فلا يبدان لنا بقتالهم، ولستُ بجبار على هؤلاء.

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقضته حكمتك. ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوة موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ

﴿وَأَثَنُكُمْ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَا لَمْ يُوْتِ أَثَرًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم. فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يَنْقُورُ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله. وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿وَلَا تَرْتُدُّوا﴾ أي: ترجعوا ﴿عَنْ أَذْيَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وأخسرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم - بمعصيتكم - من العقاب. فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ﴾ شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

﴿وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشد، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله. ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعداً خاصاً.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمُ﴾ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون. ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد فقالوا: ﴿وَكَلَّ اللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر، ونصراً على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١٢

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
 ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
 فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
 قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ
 لِتُقْتَلَني مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
 رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بَيْنِي وَأَنْتَ فَتَكُونَ
 مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ
 لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾
 فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَدِّي
 سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَدِّيهِ أَخْبَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
 الْغُرَابِ فَأُوَدِّي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

مدافعة فقال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وليس ذلك جبنًا مني ولا عجزًا. وإنما ذلك لأنني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والخائف لله لا يقدم (٢) على الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار.

وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ﴾ أي: ترجع ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني، فإني أؤثر أن تقتلني، فتبوء بالوزرين ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار.

فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل. «ومن سرَّ

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. (٢) في ب: لا يقوم.

سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة. وتلك المدة أيضًا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق، ولا يبقون مطمئنين. وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها. وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر. ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات. بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقىها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها. ولتظهر ناشئة جديدة تربي عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصًا قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم، لا ظلمًا منا.

(٢٧-٣١) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر القصة (١). أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقًا لا كذبًا، وجدًا لا لعبًا. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين. أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان، الذي أداهما إلى الحال المذكورة.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: أخرج كل منهما شيئًا من ماله، لقصد التقرب إلى الله ﴿فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ بأن عُلِمَ ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم: أن علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه.

﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسدًا وبغيًا ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر - مترفًا له في ذلك - ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأني ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أنني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك، وعلى كل أحد. وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصًا لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له مخبرًا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ
نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ
أَنْتَ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَيْنَهُمْ
لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمثلهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

(٣٣، ٣٤) ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَنْتَ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض، بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنتقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم - عند إقامة الحد عليهم - أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه، ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ. أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية

سُتَّة سِيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها، لأنه أول من سن القتل». فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا ﴿لِيُرِيَهُ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُؤَرَى سُوءَ أَخِيهِ﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِينَ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة بني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنُّه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعو إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق. فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره. وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء. فتجرؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعًا.

وكذلك مَنْ أَحْيَا نَفْسًا أَي: استبقى أحدًا، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعًا. لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ.

ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفسًا بغير حق، متعمدًا في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفًا مكافئًا، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسدًا في الأرض، بإفساده لأحيان الناس، أو أبدانهم، أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل. وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصول على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من الناس ﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاؤوا بالبينات والحجج.

والحج. والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها، من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله.

فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله. ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه الله. فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيب الله له الدعاء.

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه، الجهاد في سبيله، وهو: بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله، بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجل الطاعات، وأفضل القربات.

ولأن مَنْ قام به، فهو على القيام بغيره أخرى وأولى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله، بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته.

والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل مرهوب. فحقيقته السعادة الأبدية، والنعيم المقيم. (٣٧، ٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَبَنَاتُهُمْ مَعَهُمْ لَيَفْتَدُونَ بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ بِخُرُوجِكَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما تُقْبَلُ منهم، ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات، ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبدًا، بل هم ماكثون فيه سرمداً.

(٣٨-٤٠) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ السارق: هو مَنْ أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وحد اليد عند الإطلاق من الكوع. فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسنت في زيت، لتسد العروق فيقف الدم، ولكن السُّتة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختروا، ويرتدع غيرهم. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا، تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالا، نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه، وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ذَلِكَ﴾ النكال ﴿لَهُمْ جَزَاءٌ فِي أَلْدُنْيَا﴾ أي: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة. وأن فاعله محارب لله ولرسوله. وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: من هؤلاء المحاربين.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ أي: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل، والصلب، والقطع، والنفي. ومن حق الآدمي أيضًا، إن كان المحارب كافرًا ثم أسلم. فإن كان المحارب مسلمًا، فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل، وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب - بعد القدرة عليه - أنها لا تسقط عنه شيئًا. والحكمة في ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحراية، فغيرها من الحدود - إذا تاب مَنْ فعلها، قبل القدرة عليه - من باب أولى.

(٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله، والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد، ويذل غاية ما يمكنه من المقدور، في اجتناب ما يسخطه الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة. ويستعين بالله على تركها، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه.

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له. وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل. والبدنية: كالزكاة

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما. فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها. فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه. وذلك أن يكون المال محرزاً. فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه. فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، ولقطع العضو الذي صدرت منه الجناية. فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى. فإن عاد، فقبل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يحبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَسَبَ﴾ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس.

﴿تَكْلَلًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عز وحكم فقطع السارق. ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله^(١) ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

(٤١-٤٤) ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهُمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٥ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلشَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٦ وَكَفَىٰ بِكُفْرَانِكُمْ وَعِدَّتُكَ الْتَوْرَةَ

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً لِّمَا كَسَبَا كِتَابًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهُمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٥ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا الْيَتِيمَاتِ الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبِيِّينَ وَالْأَحْبَارَ يَمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونَ وَلَا تُشَكَّرُوا بِتَابِكُمْ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ٦ كَانَ الرُّسُولُ ﷺ مِنْ شِدَّةِ حَرَضِهِ عَلَى الْخَلْقِ يَشْتَدُّ حَزَنُهُ لِمَنْ يَظْهَرُ الْإِيمَانُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْكُفْرِ. فَأَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى، إِلَى أَنَّهُ لَا يَأْسَى وَلَا يَحْزَنُ عَلَى أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ. فَإِنْ هَؤُلَاءِ لَا فِي الْعِيرِ وَلَا فِي النَفِيرِ. إِنْ حَضَرُوا لَمْ يَنْفَعُوا، وَإِنْ غَابُوا لَمْ يَفْقَدُوا.

ولهذا قال مينا للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهُمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ فإن الذين^(٢) يؤسى ويحزن عليهم، مَنْ كَانَ مَعْدُودًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وحاشا لله، أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا، فإن

(١) في ب: الله له. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذي.

﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأت مخير في ذلك. وليست هذه منسوخة، فإنه - عند تحاكم هذا الصنف إليه - يخير بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم، بسبب أنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي، إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم.

وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم. فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمتنع ذلك من العدل في الحكم بينهم. وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه.

ثم قال متعجباً لهم^(١): ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعَدُوهُ التَّوْبَةَ فِيهَا حُكْمٌ اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم - لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه - لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم، لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم.

وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً، لم يرضوا بذلك، بل أعرضوا عنه، فلم يرضوه أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ الَّذِينَ صَنيعَهُمْ﴾ ﴿يَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان. لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمَا﴾ بين الذين هادوا، أي: اليهود في القضايا والفتاوى ﴿الَّتِي نُبَيِّنُكَ اللَّهُ﴾، واتقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد.

فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام، قد اقتدوا بها واتموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود، من الاقتداء بها؟ ما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف

الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبع به بدلاً.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود ﴿سَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغبي. وهؤلاء الرؤساء المتبوعون ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل، وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي جلب معانٍ للألفاظ، ما أرادها الله ولا قصدتها، لإضلال الخلق، ولدفع الحق. فهؤلاء المتقادون للدعاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا همم. فلا تبال أيضاً إذا لم يتبعوك، لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤبه له، ولا يبالي به.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى.

يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق أهواءكم، فاقبلوا حكمه. وإن لم يحكم لكم به، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك. وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلذلك صدر منهم ما صدر. فدل ذلك على أن مَنْ كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي، اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي، وإن لم يحكم له سخط، فإن ذلك من عدم طهارة قلبه. كما أن مَنْ حاكم وتحاكم إلى الشرع، ورضي به، وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب. ودل على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو النار وسخط الجبار.

﴿سَمِعُوا لِلْكَذِبِ﴾ والسمع ههنا، سمع استجابة أي: من قلة دينهم وعقلهم، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب.

﴿أَكْتَلُوا لِلشَّحْتِ﴾ أي: المال الحرام، بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب التي بغير الحق. فجمعوا بين اتباع الكذب، وأكل الحرام.

سَمِعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصْرِوْكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَفَى بِحَكْمُونِكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَاللِّسَنُ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾

المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة. فهذا قد من الله عليه بمئة عظيمة، كفرها، ودفع حظاً جسيماً، محروماً منه غيره. ففسألك اللهم علماً نافعاً، وعملاً مقبلاً، وأن ترزقنا العفو والعافية، من كل بلاء يا كريم. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحكم الباطل الذي يعلمه، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه. وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر، قد استحق من فعله العذاب الشديد.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَاللِّسَنُ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا،

(١) في الأصل: (فتكتمون الحق وتظهرون الباطل) ولعل الصواب ما أنبت. (٢) في ب: بما.

ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم أئمة دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس، والتأكل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار.

وقوله: ﴿وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين أي: العلماء العاملين المعلمين، الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين.

والأحبار أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم.

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه.

وهم شهداء عليه، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه. فالله تعالى قد حمل أهل العلم ما لم يحمله الجاهل، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا. وأن لا يقتدوا بالجهال، بالإخلاد إلى البطالة والكسل. وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة، من أنواع الذكر، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور التي إذا قام بها غير أهل العلم، سلموا ونجوا.

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصاً الأمور الأصولية، والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فتكتموا الحق، وتظهروا^(١) الباطل، لأجل متاع الدنيا القليل. وهذه الآفات إذا سلم منها العالم، فهو من توفيقه، وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه ما^(٢) أودعه من العلم، واستشهده عليه، وأن يكون خائفاً من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيته من القيام بما هو لازم له. وأن لا يؤثر الدنيا على الدين.

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلصاً للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبال بما استحفظ عليه. قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ

والربايون والأخبار. إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافاة. والعين تطلع بالعين، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن ينزع بالسن. ومثل هذه ما أشبهها، من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف.

﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ والاقتصاص: أن يفعل به كما فعل. فمن جرح غيره عمدًا، اقتص من الجراح جرحًا مثل جرحه للمجروح، حدًا، وموضعًا، وطولًا، وعرضًا وعمقًا. وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه.

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: بالقصاص، في النفس وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا عن جنى، وثبت له الحق قبله.

﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أي: كفارة للجاني، لأن الآدمي عفا عن حقه. والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه. وكفارة أيضًا عن العافي، فإنه كما عفا عن جنى عليه، أو على من يتعلق به، فإن الله يعفو عن زلاته وجنباياته.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس، كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. فهو ظلم أكبر، عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

(٤٦، ٤٧) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين، الذين يحكمون بالتوراة، بعدنا ورسولنا عيسى ابن مريم، روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم. بعثه الله مصدقًا لما بين يديه من التوراة، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة، بالحق والصدق، ومؤيد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية.

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام، كما قال تعالى عنه أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا حُدَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ بتبتيها والشهادة لها والموافقة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم الذين يتفنعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتدعون عما لا يليق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٦

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ ۝﴾ ﴿٥٠﴾

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

(٤٨-٥٠) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إنزالًا بالحق، ومشتملًا على الحق في أخباره وأوامره ونواهيهِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأنه شهد لها، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها. وأخبرت به فصار وجوده مصداقًا لخبرها.

الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء.

﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ والصحيح أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم، وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة. وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وَأَن حَكَمْتَ فَأَحْكَمَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده. وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: إياك والاعتراض بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب والفرض اتباعه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فَاعْلَمْ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أَن يُبَيِّنَهُمْ بَعْضَ ذُنُوبِهِمْ﴾ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي: طبعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية. وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل، والقسط، والنور، والهدى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَّ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾ فالموقف هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين: هو العلم التام الموجب للعمل.

(٥١-٥٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

﴿وَمُهَمِّمِينَ عَلَيْهِ﴾ أي: مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين. وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَنَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق، بدلاً عما جاءك من الحق، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها. وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تبعاً لشرعية واحدة، لا يختلف متأخرها ولا [متقدمها].

﴿وَلَكِن لِّبَسَلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويتلى كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم. فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فَأَسْتَفِيقُوا الْحَزْزَ﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره، مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها، ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة. بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه ﴿فَتُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل

يَقْوَىٰ يُخَيِّمُهُمْ وَيُخَيِّمُونَهُ أَوَّلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه، وأن لله عبداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدياتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوامهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله ﴿يُخَيِّمُهُمْ وَيُخَيِّمُونَهُ﴾ فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبد] يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذه».

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أَوَّلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أدلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورقهم ورافتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم، وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَيُّدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَةً بَيْنَهُمْ﴾ فالغلظة

الظالِمِينَ ○ فَزَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالَّتِجِّجِ أَوْ آتٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينٌ ○ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٥﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين يبين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم. فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة. ولا يبالون بضرهم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ يَنْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَنْتَهُمْ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون. فلو جتتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك. ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن ممن يدعي الإيمان، طائفة تواليهم، فقال: ﴿فَذَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة فإننا ﴿نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافئوننا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيء-: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالَّتِجِّجِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أَوْ آتٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يئأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم، ﴿فَيُصِيبُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا﴾ أي: أضمرنا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينٌ﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأدل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والمواولة. ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً، فطل كيدهم وطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

(٥٤) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِيَّاهُمْ لِلْعَمَلِ كَحِطِّ أَعْمَالِهِمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ رَدَّدَ عَلَيْكُمُ الْكُفْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَأْتِيَ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ وَمِنْكُمْ يُخَيِّدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله، وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة. وإن أدبل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخبر أمره الغلبة والانتصار، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا.

(٥٨، ٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ○ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ. ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء، يحبونهم، ويتولونهم، ويدعون لهم ^(١) أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض

(١) كذا في ب، وفي أ: ويدعون إليهم.

والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللاتمين، وتفترق قوته عند عدل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقدير رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما مَنَّ به عليهم من الصفات الجليلة، والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه؛ لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي مَنَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

(٥٦، ٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ○ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى مَنْ يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، فكل مَنْ كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، وَمَنْ كَانَ وَلِيًّا لله فهو ولي لرسوله، وَمَنْ تَوَلَّى الله ورسوله كان تمام ذلك تولي مَنْ تولا، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة، بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقها منهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي: خاضعون لله ذليلون، فإداة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم.

وَاِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوًا وَلِئَامًا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ يَا هَلَالِ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ مَتَىٰ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ الْقَوْلُ آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَالِمُ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٢﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحَّةَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحَّةَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفَقِّهِمْ فِي شَأْنِهِمْ وَلِيُزِيدَهُمْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طَعِينًا وَكُفْرًا وَالْقِسْمَ بَيْنَهُمُ الْعُدَّةُ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾

السكوت، فلو كان عيبكم، وأنتم سالمون من الفسق - وهيهات ذلك - لكان الشر أخف من قذحكم فينا مع فسقكم. ولما كان قذحكم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم، مخبراً عن شناعة ما كانوا عليه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ الذي نقمتم فيه علينا، مع التنزل معكم ﴿مَن لَّعَنَهُ اللهُ﴾ أي: أبعد عن رحمته ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت. ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم، وأثابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين، وهذا النوع من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه، وكذلك قوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل. ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ الْقَوْلُ آمَنَّا﴾ نفاقاً ومكرًا ﴿وَهُمْ قَدْ دَخَلُوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء،

أمورهم، التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم. وكذلك التزامهم لتقوى الله، التي هي امتثال أوامره، واجتناب زواجره مما تدعوهم إلى معاداتهم.

وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قذحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم.

إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلهم، ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون! حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم - فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قذح فيه، أو قذح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق، وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذ هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحمق؟ وهذا فيه من التهيج على عداوتهم، ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

(٥٩-٦٣) ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكِتَابُ هَلْ تَتَّقُونَ مَتَىٰ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ الْقَوْلُ آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَالِمُ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحَّةَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحَّةَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول: ﴿يَتَّخِذُ الْكِتَابُ﴾ ملزماً لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قذحهم فيه قذح بأمر ينبغي المدح عليه: ﴿هَلْ تَتَّقُونَ مَتَىٰ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وكتبته السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان، فإنه كافر فاسق؟ فهل تتقون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين!!

ومع هذا فأكثرهم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون -

وأقبح حالاً منهم!!؟

﴿وَاللَّهُ أََعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، خيرها وشرها.

ثم استمر تعالى يعدد معاصيهم، انتصاراً لقدحهم في عبادة المؤمنين، فقال: ﴿وَرَوَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: يحرصون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وَأَكْلِهِمُ النَّسَحَ﴾ الذي هو الحرام، فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا في غاية الذم لهم، والقبح فيهم. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّزَّازِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ النَّسَحَ﴾ أي: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة - عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم.

فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيتهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبونهم في الخير ويرهبونهم من الشر ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

(٦٤-٦٦) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بل يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفْقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِذَا نَزَلَ بِكَ مِنَ رَبِّكَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ وَكَثُرُوا وَالْفِتْنَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَثَلًا أَوَقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَالُ اللَّهِ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ○ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا لَهُمْ سَبِيلًا سَيِّئَاتِهِمْ وَلَئِنَّهُمْ كَانُوا أَتْرَابًا وَالتَّوْبَةُ وَالْإِنجِيلُ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفِلُوا مِنْ فَوْهِمْ وَمِنْ نَحْوِ أَجْلِهِمْ مِّنْهُمْ أَنَّهُ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشيعة، وعقيدتهم الفظيعة، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: عن الخير والإحسان، والبر.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهذا دعاء عليهم بجنس مقالاتهم، فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقاً عليهم.

فكانوا أبخل الناس، وأقلهم إحساناً، وأسوأهم ظناً بالله، وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي، ولهذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفْقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لا حجر عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، فإنه تعالى قد بسط فضله، وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن

يتعرضوا لنفحات جوده، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم.

فيده^(١) سحاء الليل والنهار، وخيره في جميع الأوقات مدرار، يفرح كرباً، ويزيل غماً، ويعني فقيراً، ويفك أسيراً، ويجبر كسيراً، ويجيب سائلاً، ويعطي فقيراً عائلاً، ويجيب المضطرين، ويستجيب للسائلين، وينعم على من لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصياً، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر، ويوجد على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال، ثم يحمدهم عليها، ويضيفها إليهم، وهي من جوده وينيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف، ولا يخطر على بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه، فسبحان من كل النعم التي بالعباد فمنه، وإليه يجأرون في دفع المكارة، وتبارك من لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده.

وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة، ونحوهم ممن حاله كحالهم، ببعض قولهم، لهلكوا، وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم، ولا يهملهم.

وقوله: ﴿وَلَئِذَا نَزَلَ بِكَ مِنَ رَبِّكَ آيَةٌ مِّنْ رَبِّكَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا أعظم العقوبات على العبد^(٢)، أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتن الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها، والاستسلام لله بها، وشكراً لله عليها، أن تكون لمثل هذا زيادة غي إلى غيه، وطغيان إلى طغيانه، وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إغراضه عنها، ورده لها، ومعاذته إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة.

﴿وَالْقِيَتَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا يتآلفون، ولا يتناصرون، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم، متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة.

﴿كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ ليكيدوا بها الإسلام وأهله،

(١) في ب: فيده. (٢) في ب: وهذا أعظم من العقوبات على العبد.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَرَىٰ مِنْ أُمَّةٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولُ رَبِّكُمْ لَا تَهْوِ أَنْفُسُكُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي: فما امتثلت أمره.

﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يشيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصيهم بيد الله، وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى لنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قل لأهل الكتاب منادياً على ضلالهم، ومعلناً بباطلهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد أمتمت، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق تمسكتهم، ولا على

وأبدوا، وأعادوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم ﴿أَطْفَأَ اللَّهُ﴾ بخذلانهم، وتفرق جنودهم، وانتصار المسلمين عليهم.

﴿وَسُعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يجتهدون ويجلدون، ولكن بالفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إلى دينهم الباطل، والتعويق عن الدخول في الإسلام.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم على ذلك.

[ثم قال تعالى]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وهذا من كرمه وجوده، حيث لما ذكر قبائح أهل الكتاب ومعاييبهم، وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه، وجميع رسله، واتقوا المعاصي، لكفر عنهم سيئاتهم، ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم، التي فيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: قاموا بأوامرهما ونواهيهما، كما نذبهم الله وحثهم، ومن إقامتهما الإيمان بما [دعوا] ^(١) إليه، من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم، أي: لأجلهم وللاعتناء بهم ﴿لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: لأدر الله عليهم الرزق، ولا مطر عليهم السماء، وأثبت لهم الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملاً غير قوي ولا نشيط ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: والمسيء منهم الكثير، وأما السابقون منهم، فقليل ما هم.

(٦٧) ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ، بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ، من العقائد، والأعمال، والأقوال، والأحكام الشرعية، والمطالب الإلهية، فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا، وأنذر، وبشر، وعلم الجاهل الأميين، حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ، بقوله، وفعله، وكتبه، ورسله.

فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين، ورجال المسلمين.

(٧٢-٧٥) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ

ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۝ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِن إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾^(١) يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية.

والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فأنبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أحداً من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العباد - الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ ينفذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى. كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين^(٣)! كيف خفي عليهم رب العالمين؟

قال تعالى - راداً عليهم وعلى أشباههم -: ﴿وَمَا مِن إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه، فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم توعدهم بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، ويبن أنه يقبل التوبة عن عباده، فقال: ﴿أَفَلَا

أصل اعتمدتم.

﴿حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أي: تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما، والتمسك بكل ما يدعوان إليه.

﴿وَقِيمُوا﴾ ما أنزل إليكم من رزق الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم، فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

(٦٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّارِتُونَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتب^(١)، من أهل القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد، وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، [والعمل الصالح]^(٢). فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فله النجاة، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها، وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

(٧٠، ٧١) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكْوِينَ فَتَنَةً فَضَلُّوا فَاصْطَبُوهَا وَكُفَرُوا ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: عهدهم القبل بالإيمان بالله، والقيام بواجباته، التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ إلى آخر الآيات.

﴿وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد ولكن ذلك لم ينفع فيهم ولم يقد.

﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبه، وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة.

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكْوِينَ فَتَنَةً﴾ أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذاباً ولا عقوبة، واستمروا على باطلهم، ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ عن الحق ﴿ثُمَّ﴾ نعشهم و ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه، وأتابوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك، حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة، ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٠

وَحَسِبُوا أَن لَّاتَكُونَ فَتَنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي أَسْرَدُ يَا عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَسْتَهْوَ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٩﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّهُ صَدِيقَةٌ كَإِنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أُنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أُنْظِرْ أَنَّ يُؤَفَّكُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾

على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبله فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه، هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

(٧٧-٨١) ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَتَتْ إِلَيْهِ مَا آخَذَهُمْ أُولَئِكَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُوا﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح ما تقدم حكايته عنهم، وكقولهم في بعض المشايخ، اتباعا لـ ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾

يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله - عما كانوا يقولونه، ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ عن ما صدر منهم ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾.

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه، الذي هو الحق، فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: هذا غايته، ومنتهاى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر، ولا من التشريع، إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم، تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿وَأُمُّهُ﴾ مريم ﴿صَدِيقَةٌ﴾ أي: هذا أيضا غايتها، أن كانت من الصديقين، إله الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء، والصديقية، هي: العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح، وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيه، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلا وشرقا.

وكذلك سائر النساء، لم يكن منهن نبيه، لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾.

إذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمّه صديقة، فلا شيء اتخذهما النصراني إلهين مع الله؟.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد.

ولما بين تعالى البرهان قال: ﴿أُنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئا، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

(٧٦) ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين من ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع.

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات

مِنْ قَبْلُ ۖ أَي: تقدم ضلالهم.

﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس، بدعوتهم إياهم إلى الدين الذي هم عليه، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم، وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: بعبثانهم الله، وظلمهم لعباد الله، صار سبباً لكفرهم، وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً، فيشارك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة، لما فيه من المفساد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم، أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الإكثار بها.

ومنها: أن ذلك يجريء العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدر على ما كانوا يقدر على أولاً.

ومنها: [أنه بترك^(١)] الإنكار للمنكر يندرس العلم، ويكثر الجهل؛ فإن المعصية مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟!!

ومنها: أن بالسكوت^(٢) على معصية العاصين ربما تزينت

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٢١

الْحَمْدُ لِلَّهِ

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْنِ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَآنَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالافتداء بأضرابه، وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالمحبة والموالاة والنصرة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة. وهي: سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم. فقد ظلمتهم أنفسهم، حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوا النعيم المقيم.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه؛ يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك. (٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

سورة المائدة

١٢٢

سورة المائدة

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَعَافِرُوهَا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾ بَنَاتُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَبِيبَتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٦﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتِهِمْ أَوْ تحْرِيرِ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٨﴾

جَعَلَنكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿٨٢﴾ فكانهم ليموا على إيمانهم، ومسارعهم فيه، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي: وما الذي يمنعنا، من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق، طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأَي مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجبا للمسارعة والالتحاق بالإيمان، وعدم التخلف عنه؟

قال الله تعالى: ﴿فَأَنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: بما تفوهوا به من الإيمان، ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآيات نزلت في النصاري الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالنجاشي وغيره، ممن آمن منهم.

وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركون إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين ذكر عقاب المسيئين فقال:

كفر به وعاداه، وأوضح في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء.

وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي ومن فسقهم موالاة أعداء الله، ثم قال تعالى:

(٨٦-٨٧) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا فَعَلْنَا ذَلِكَ بِإِنْ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم، ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغيا وحسداً وعناداً وكفراً.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا فَعَلْنَا ذَلِكَ بِإِنْ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهَبَانًا﴾ أي: علماء

متزهدين، وعبادا في الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة؛ مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو، عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقرابهم من المسلمين، ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بحسب ما سمعوا من الحق الذي يتقنوه، فلذلك آمنوا، وأقروا به فقالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة، وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهداتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١) كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

(٨٨، ٨٧) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَت مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَنْهَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَت مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها.

فجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء. والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿وَلَا تَقْصِدُوا إِنْكَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم، ويعاقبهم على ذلك. ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً، لا سرقة، ولا غصباً، ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق.

وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه فإنه لا يتم إلا بذلك ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه من طعام، وشراب، وسرية، وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله، فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِمَ تَحَرَّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية. إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظاهر.

ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات، ويحرمها نفسه، بل يتناولها، مستعيناً بها، على طاعة ربه.

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾^(٢) أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

﴿تَكْفُرْتُمْ﴾ أي: كفارة اليمين التي عقدتموها بقصدكم

﴿إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾.

وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمُ﴾ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ واحداً من هذه الثلاثة ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَكَفَرَةِ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ تكفرها، وتمحوها، وتمنع من الإثم.

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفت من الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله، حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

فعلى العباد، شكر الله تعالى على ما من به عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبينها.

(٩٠، ٩١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ وَيَصَدِّكُم عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر، وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره.

والميمر: وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبيين، كالمرأهة ونحوها.

والأنصاب التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله.

والأزلام التي يستقسمون بها. فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها، واجتنابها.

فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها، وعدم التدنس

(١) كذا في ب، وفي أ: لأنه. (٢) في ب كتب الآية كاملة.

بأوضارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يُحذر منه، وتحذر مصابده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها، ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبین، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للبعد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح، ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فإن في الخمر من انغلاب العقل، وذهاب حجاء، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب، ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعاده، فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيتها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة!! فهل فوق هذه المفاصد شيء أكبر منها!!؟

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاصد - انزجر عنها، وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير، ولا زجر بليغ.

(٩٢) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاز عما نهى الله ورسوله عنه

الْمَائِدَةُ

١٢٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبِئْسَ مَا كَفَرُوهُ مِنَ الصِّدْقِ إِنَّهُ لَا يَدْرِيكُمْ وَرَمَاهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ مِنْ خَافَهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَضَلَّ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْنَطُوا مِنَ الصِّدْقِ وَأَنْتُمْ مَحْرُومُونَ مِنْ قَوْلِهِ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدٌ أَفَجَاءَ مِثْلُ مَا قُنَّ مِنَ النِّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرْتُمْ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

كذلك. وهذا الأمر أمر الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن.

وقوله: ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبین ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما أمرتم به، ونهيتم عنه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدى ذلك، فإن اهتديتم فلا تنفسم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه، وما حمل به.

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لما نزل تحريم الخمر، والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولما كان نفى الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: بشرط أنهم

الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم، قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا﴾ أي: قتل صيداً عمدًا ﴿فَ﴾ عليه ﴿جَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به.

والاعتبار بالمماثلة أن ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش - على اختلاف أنواعه - بقرة.

وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون ﴿هَذَا بَلِغُ الْكَيْبَةِ﴾ أي: يذبح في الحرم.

﴿أَوْ كَفَّرَ طَعَامًا مَسْكِينًا﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابل المثل من النعم، طعام يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء: يَقُومُ الجزاء، فَيُشْتَرَى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدَّ بَرٍّ أو نصف صاع من غيره ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ أي: يصوم عن إتمام كل مسكين يوماً ﴿يُدْفَقُ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وَوَإِلَّا أَمْرٌ﴾ ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد ذلك ﴿فَيَنْقُصُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطيء، كما هو القاعدة الشرعية - أن المتلف للنفس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد، وأما المخطيء فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله، وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد، وهو ظاهر الآية، والفرق بين هذا وبين التضمنين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه الله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم^(١).

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى

تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد.

ويدخل في هذه الآية الكريمة من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

(٩٤-٩٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ يَخَافُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بَلِغُ الْكَيْبَةِ أَوْ كَفَّرَ طَعَامًا مَسْكِينًا أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُقَ الْآثَمَ ۚ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝ أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدٌ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُمْ مَتَاعٌ لَكُمْ وَلِلنَّسَاءِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَأَنْفَعُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ هذا من منن الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرًا، ليطيعوه، ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا بَدَأَ أَنْ يَخْتَبِرَ اللَّهُ إِيْمَانَكُمْ﴾.

﴿لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة سيرة، تخفيفاً منه تعالى ولطفًا، وذلك الصيد الذي يتليكم الله به ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ﴾ أي: تتمكنون من صيده؛ لئتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء فقال: ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ علمًا ظاهرًا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿مَنْ يَخَافُ بِالْغَيْبِ﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيشبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى مِنْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجه، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: محرمون في

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلاً منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرح به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد كما لا إثم عليه).

الْبَيْتُ الْحَرَامُ

١٢٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ، مَتَّعَالِكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١١﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿١٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاسْتَعْلُوا عَنْ أَسْيَاءٍ إِنْ تُبْدَلْ لَكُمْ تَسْوِكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَلْ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٨﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾

تعالى الصيد البحري فقال: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ﴾ أي: أحل لكم - في حال إحرامكم - صيد البحر وهو الحي من حيواناته، وطعامه وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر ﴿مَتَّعَالِكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم، وانتفاع رفقتكم الذين يسبرون معكم ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً؛ لأن الإنسي ليس بصيد، وماكولاً؛ فإن غير المأكول لا يصاد، ولا يطلق عليه اسم الصيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون، فيجازيكم، هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقموا بها، فيعاقبكم؟.

(٩٧-٩٩) ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ○ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ○ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يخبر تعالى أنه جعل ﴿الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتقحم^(١) - من أجله - الأهوال، ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتتعدد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهِيمَةٍ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ومن أجل كون البيت قِيَمًا للناس قال مَنْ قَالَ من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة، فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ﴾ أي: وكذلك جعل الهدى والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدى - قِيَمًا للناس، يتنفعون بهما، ويشابون عليهما.

﴿ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحهم الدينية والدنيوية.

﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم

واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب - العاجل والآجل - على مَنْ عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه، فيشمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته، وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فيجازيكم بما يعلمه - تعالى - منكم.

(١٠٠) ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للناس - محذراً عن الشر ومرغباً في الخير -: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

(١) في ب: وتقحم.

(١٠٣، ١٠٤) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْرَةٍ وَلَا سَیْبَةٍ وَلَا وَصِيَّةٍ وَلَا حَاجٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذِبُهُمْ لَا يَعْثُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝﴾ هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرّموا ما أحله الله، فجعلوا بأرائهم الفاسدة شيئاً من مواشيهم محرّماً، على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْرَةٍ وَلَا سَیْبَةٍ﴾ وهي: ناقة يشقون أذنّها، ثم يحرمون ركوبها، ويرونها محترمة ﴿وَلَا سَیْبَةٍ﴾ وهي: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئاً^(١) اصطلاحاً عليه، سيبوها، فلا تركب، ولا يحمل عليها، ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله، يجعله سائبة ﴿وَلَا حَاجٍ﴾ أي: جمل يحمي ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم، فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله، وصادرة من جهلهم، وعدم عقلهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذِبُهُمْ لَا يَعْثُرُونَ﴾ فلا نقل فيها ولا عقل، ومع هذا فقد أعجبوا بأرائهم، التي بنيت على الجهالة والظلم. فإذا دعوا ﴿إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أعرضوا، فلم يقبلوا، و﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله. ولو كان في آباؤهم كفاية ومعرفة ودراية، لكان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً، أي: ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله، الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدى وإيقاناً. (١٠٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعْزُوكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: اجتهدوا في إصلاحها، وكمالها، وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا صليتم لا يضرركم من ضل عن الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضر نفسه.

ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يضر العبد تركهما وإهمالهما، فإنه لا يتم هده إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر، بيده،

(١) في ب: فهو. (٢) كذا في الأصل، وفي النسخ المطبوعة (سأ) ولعله المراد - والله أعلم -.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرْ أُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ﴾ فأمر أولي الأبواب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران، وفاته الأرباب.

(١٠١، ١٠٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّئَكُمْ عَنْهُنَّ وَإِنْ سُئِلْتُمْ عَنْهَا جِئْ بِزَكَاةٍ الْقُرْءَانِ بُدِّئَكُمْ عَنْهَا عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آباءهم، وعن حالهم في الجنة أو النار فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع، ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها.

وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك، فهذا^(١) مأمور به، كما قال تعالى: ﴿تَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا جِئْ بِزَكَاةٍ الْقُرْءَانِ بُدِّئَكُمْ﴾ أي: وإذا وافق سؤالكم محلّه، فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، تبد لكم، أي: تبين لكم وتظهر، وإلا، فاسكتوا عما سكت الله عنه.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه، وعفا عنه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً، وبالحلم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

وهذه المسائل التي نهيتهم عنها ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: جنسها وشبهها، سؤال تعتن لا استرشاد، فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم».

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

الْمَائِدَةِ

١٢٥

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ
لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا هْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيْنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ
بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةٌ أَلَمْ تَضُرَّوْهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آَرَيْتُمْ لَا تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَلَا تَكْفُرُ شَهْدَةُ اللَّهِ إِنَّهَا إِذَا لَمِنَ الْأَثِيمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ عُرِضَ
أَنْتَهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ
اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ
مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّهَا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ
أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ
أَيْمَنِهِمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٠﴾

ولسانه، وأنكره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره.

وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مآلكم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى، ﴿فَيْنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر.

(١٠٦-١٠٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةٌ أَلَمْ تَضُرَّوْهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آَرَيْتُمْ لَا تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا تَكْفُرُ شَهْدَةُ اللَّهِ إِنَّهَا إِذَا لَمِنَ الْأَثِيمِينَ ۝ فَإِنْ عُرِضَ عَنْ أَنْتَهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّهَا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يخبر تعالى خبراً متضمناً للأمر، بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل، ممن يعتبر شهادتهما.

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين.

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةٌ أَلَمْ تَضُرَّوْهُمَا﴾ أي: فأشهدوهم، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يحبسا ﴿وَمِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ التي يعظمونها.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أنهما صدقا، وما غيرا، ولا بدلاً، هذا ﴿إِنْ آَرَيْتُمْ﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموها، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لَا تَشْتَرِي بِهِ﴾ أي: بأيماننا ﴿ثَبَّتًا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا ﴿لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فلا نراعيه لأجل قربته منا ﴿وَلَا تَكْفُرُ شَهْدَةُ اللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي: إن كتمانها ﴿لَمِنَ الْأَثِيمِينَ﴾.

﴿فَإِنْ عُرِضَ عَنْ أَنْتَهُمَا﴾ أي: الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما، وأنهما خانا ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فليقم رجлан من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا، وخانا ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّهَا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن ظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة، وتأكيدها،

وردها على أولياء الميت، حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذَلِكَ أَدَّى﴾ أي: أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما^(١) بعد الصلاة أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيراً، ولا بدلاً، فيبرأ بذلك من حق يتوجه إليهما، فإن لم يصدقهما، ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين،

(١) في النسخين: يحلفونهم.

وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون.

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «ميم الداري» و«عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت، أن يوصي.

ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتاً.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد، وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ. وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر، إذا لم يكن محذور. ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين - إذا ارتب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهم، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، يحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيده اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة، حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها، والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرية منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون القرينة - مع أيمانهما - قائمة مقام البيعة.

(١٠٩، ١١٠) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ ○ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُحْيِيَ ابْنَ مَرْيَمَ أَتَكْفُرُ بِعَمِّيَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ لِدَانِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَرْصَامَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُّثِثٌ ﴿١٠٩﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأحوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: ماذا أجابتكم به أممكم؟.

فـ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وإنما العلم لك، يا ربنا، فانت أعلم منا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُحْيِيَ ابْنَ مَرْيَمَ أَتَكْفُرُ بِعَمِّيَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ لِدَانِكَ﴾ أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم عليك نعماً، ما أنعم بها على غيرك.

﴿إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: إذ قوتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله، وقيل: إن المراد «روح القدس» جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به، وبملازمته له، وتثبيتته في المواطن المشقة.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر. وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ الآية.

﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتاب يشمل الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها. ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه.

والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع، وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: طيراً مصوراً لا روح فيه، فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين ﴿وَالْأَرْصَامَ﴾ أي: الأعمى ﴿بِإِذْنِي﴾ فهذه آيات بينات، ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى، وقوى بها دعوته.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ لما جاءهم الحق مؤيِّداً بالبينات الموجبة للإيمان به ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وهموا بعيسى أن يقتلوه، وسعوا في ذلك، فكفَّ الله أيديهم عنه، وحفظه منهم، وعصمه.

فهذه من امتنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى شكرها، والقيام بها، فقام بها عليه السلام أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

(١١١-١٢٠) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾ إلى آخر الآيات. (١) أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً وأعوأنا، فأوحيت إلى الحواريين أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله واشهد بأتنا مسلمون.

فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

والحواريون: هم الأنصار كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك، وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافعاً للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظمهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿أَتَقْنُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن يتقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قَالُوا زَيْدٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ بالإيمان، حين نرى الآيات العيانة، فيكون (٢)

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوا أَلَعَلَّ آمَنَّا لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ (١١٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٢٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١٢١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

﴿وَقَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٢٣)

قَدْ صَدَّقْنَا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات، وتكرر السنين.

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القومية، وفضله وإحسانه عليهم ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: اجعلها لنا رزقاً.

فسأل عيسى عليه السلام نزولها أن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة (١) في بأكمل الآيات إلى قوله: ﴿وَقَوَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (٢) في ب: حتى يكون.

الدنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكَ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكَ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة، وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم، والعقاب الشديد. واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك.

ويدل على ذلك أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود، ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم، من الحظ الذي ذكروا به فسوه.

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْخُذُونِي وَأُمِّي إِلَهُيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى، فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون.

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني. و﴿أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: «لم أقل شيئاً من ذلك». وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ فأنما عبد متبع لأمره، لا متجرى على عظمتك. ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أنني عبد مربوب، فكما أنه

الْبَقِيَّةُ

١٢٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكَ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكَ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْخُذُونِي وَأُمِّي إِلَهُيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢١﴾

ربكم فهو ربي.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ممن لم يقم به ﴿لَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك، بما تعلمه فيهم من خير وشر.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بأحوالهم، فلو لا أنهم عباد متمردون، لم تعذبهم ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، الحكيم: حيث كان من مقتضى حكمتك، أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مبيناً لحال عبادهم يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي، ومن السعيد: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم، ونياتهم على الصراط المستقيم، والهدي القويم،

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٢٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمُرُّونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَنْبِئُهُمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُعْمِكْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُّثِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾

﴿يَنْبُلُوكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه مَنْ
تذكر ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهي: الدار الآخرة، التي يتنقل
العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.
﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾
أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.
وذكر الله الظلمات بالجمع؛ لكثرة موادها، وتنوع طرقها؛
ووَحد النور؛ لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة، لا تعدد
فيها، وهي الصراط المتضمنة للعلم بالحق، والعمل به، كما
قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

(٣) ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي
الأرض، فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم، خاضعون
لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، الملائكة المقربون،
والأنبياء، والمرسلون، والصديقون، والشهداء،

(١) في الأصل (إليهم) ولعل الصواب ما أثبت.

فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد
صدق عند ملك مقتدر، ولهذا قال: ﴿كَلِمَ جَنَّتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم واقترائهم، وثمره
أعمالهم الفاسدة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك
بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا
قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع
الأمور منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله
رب العالمين.

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ
ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾ هذا إخبار عن
حمده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال
عمومًا، وعلى هذه المذكورات خصوصًا. فحمد نفسه على
خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة
علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير،
وعلى جعله الظلمات والنور.

وذلك شامل للحسي من ذلك، كالليل والنهار، والشمس
والقمر، والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك
والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين والطاعة.
وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة،
وإخلاص الدين له.

ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَقُولُونَ﴾ أي: يعدلون به سواء. يسوونهم به في العبادة
والتعظيم، مع أنهم لم يساووا الله في شيء من الكمال، وهم
فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ وذلك بخلق مادتهم وأبيكم آدم
عليه السلام ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: ضرب لمدة إقامتهم في هذه
الدار أجلًا، تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل
إليكم^(١) به رسله.

والصالحون.

فهذه سُنة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين،
فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم.

(٧-٩) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُتِيَ الْأُمَمُ شَرًّا لَا يُظْهَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيكُونَ﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جنتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وتيقنوه ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظلماً وعلواً: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

فأي بيعة أعظم من هذه البيعة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس، الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه؟؟!

﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً تعنتاً مبيناً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم، وبصيرة، وغيب: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده. هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم، وعدم إنظارهم، لأن هذه سُنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها.

فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد، وأرفق بهم، مع إهمال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع.

فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقتهم قواهم الفانية.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيكُونَ﴾ أي: وكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً، وذلك بسبب ما ليسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وعدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم،

وهو تعالى يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدينكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

(٤-٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمُ وَالرَّسُولَ السَّامَةَ عَلَيْهِمْ يَذَرُّونَ وَجْعَلْنَا الْأَتْهَرُ يُعْرَى مِنْ عُيُوبِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المثلثات، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أديارهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: فسوف يرون ما استهزأوا به، أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تَكْذِبُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدُوا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يُعْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: كم تابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلتناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن ﴿مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ﴾ من الأموال والبنين والرفاهية.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ يَدَارًا وَجَعَلْنَا الْآتَنَ تَجْرَى مِنْ عَيْنِهِمْ﴾ فبينت لهم بذلك ما شاء الله، من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون. فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم أنواع اللذات.

فجاءتهم رسلهم بالبينات، فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧﴾ مَن يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٨﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٠﴾

والذنب ذنبهم حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

(١٠، ١١) ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ يقول تعالى - مسلماً لرسوله ومصبراً ومتهدداً أعداءه، ومتوعداً: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لما جاؤوا أممهم بالبينات، كذبوهم واستهزأوا بهم، وبما جاؤوا به، فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب ﴿فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم. فإن شككتهم في ذلك، أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأممًا في المثلث تالفين.

قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار، وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار، وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

(١٢) ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى لنبينه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررًا لهم وملزمًا بالتوحيد: ﴿لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من الخالق لذلك، المالك له، المتصرف فيه؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِلَّهِ﴾ وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟!

وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعبوبهم، وقوله: ﴿لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج البينة والبراهين ما يجعله حق اليقين. ولكن أبي الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على

بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرأوا على الكفر به، فحسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١٣-٢٠) ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧﴾ مَن يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٨﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٠﴾ قُلْ أَنَّى هُوَ أَكْبَرُ شَهْدَةً قُلْ اللَّهُ شَهِدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ، وَمَنْ يَلْبَغِ إِلَيْكُمْ لَشَهَادَتُونَ أَنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ يُرَوُّنَهُ كَمَا يَرَوْنَ آيَاتَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقل، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد، ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله.

والإلهية.

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يبين به الهدى، وينقمع به الشرك.

فذكر أن ﴿لَكُمْ﴾ تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي آلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها، وجنّتها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها.

فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم، القاهر المالك.

فهل يصح في عقل ونقل، أن يعبد من هؤلاء الممالك، الذي لا نفع عنده ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للخالق، المدبر المالك، الضار النافع؟

أم العقول السليمة، والفطر المستقيمة، تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟!

﴿الْصَّبِيحُ﴾ لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات ﴿أَلْفَلَيْمٌ﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة، يتولاني، وينصرني؟ فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومدبرهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ أي: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق الرزاق، الغني، الحميد؟!

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدُ﴾ الله بالتوحيد، وأنقاد له بالطاعة. لأنني أولى من غيري، بامتثال أوامري.

﴿وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ونهيت أيضاً عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض عليّ، وأوجب الواجبات.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإن المعصية في الشرك، توجب الخلود في النار، وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه مَنْ صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، وَمَنْ نجا فيه فهو الفائز حقاً، كما أن مَنْ لم ينج منه، فهو الهالك الشقي.

ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسراء. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَشِيرٌ﴾ من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أو همٍّ أو نحوه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بَشِيرٌ فَمَوْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر، وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر، ﴿الْخَبِيرُ﴾ المطلع على السرائر والضمائر، وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿قُلْ﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ على هذا الأصل العظيم؟ ﴿قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ فهو ﴿شَيْدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلا أعظم منه شهادة، ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم. كما قال تعالى: ﴿لَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ○ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ○ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾.

فالله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق، ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء مَنْ خالفه، وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدق بإقراره وبفعله، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة، وينصره، ويخذل مَنْ خالفه وعاداه، فأَيُّ شهادة أكبر من هذه الشهادة؟!!

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذْكُرَ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ﴾ أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن، لمنفعتكم ومصلحتكم، لأتذكركم به من العقاب الأليم، والندارة إنما تكون بذكر ما ينذركم به، من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، التي مَنْ قام بها فقد قبل النذارة.

فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيها المخاطبون، وكل مَنْ بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسله: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً آخَرًا قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي: إن شهدوا فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أذكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه^(١) أدنى شبهة، فضلاً عن الحجج.

واختر لنفسك أي الشهادتين، إن كنت تعقل ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالافتداء به، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿وَلَئِنْ بَرِئْتَ بِمَا تَشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان، والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته، وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: يعرفون صحة التوحيد ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته، ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه، ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان.

قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا أعظم ظلماً وعناداً، ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتماعا، افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بادعاء^(٢) الشريك له والعوين، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاء به الرسل أو من قام مقامهم.

(٢٢-٢٤) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ثم لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ○ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن مال أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: ﴿إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: إن

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لِتَشْهَدُوا أَنْتُمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُمْ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ مُجْدِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا لَئِنْ لَنَا نَرْدُ وَلَا تُكْذِبُ رَبَّنَا لَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين ﴿انْظُرْ﴾ متعجباً منهم ومن أحوالهم ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضر ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ مُجْدِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا يتفنعون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير.

(١) في ب: على ما خالفوه. (٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣١

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا قَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلْسَاءَ مَا يَرِزُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ يَمُزُّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِحُجَّتِهِمْ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ
رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوُوا وَحَتَّى آتَاهُمُ نَصْرًا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْنِي
نَقْفًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيَاتٌ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

الكافرين ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لرأيت أمرًا عظيمًا، وهو لا جسيمًا.

﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ فأقروا، واعترفوا، حيث لا ينفعهم ذلك ﴿قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿٣١﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا قَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلْسَاءَ مَا يَرِزُونَ ﴿٣١﴾ أي: قد خاب وخسر، وحرَم الخير كله، مَنْ كَذَبَ بِلِقَاءِ اللَّهِ، فأوجب له هذا التَّكْذِيبُ الاجترار على المحرمات، واقتِراف الموبقات ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ﴾ وهم على أفتَح حال وأُسُوته، فأظهروا غاية الندم، و﴿قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا قَرَّطْنَا فِيهَا﴾ ولكن هذا تحسّر ذهب وقته.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلْسَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ فإن وزرهم وزر يثقلهم، ولا يقدرُونَ على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأييد في غضب الجبار.

﴿٣٢﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغشية وأغشية، لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء ﴿وَفِي آذَانِهِمْ﴾ جعلنا ﴿وَرُءَى﴾ أي: صممًا، فلا يستمعون ما ينفعهم.

﴿وَأَن يَرَوْا كَلَّ أَيْدِيَهُمْ لَا يَتَمُوتُوا﴾ وهذا غاية الظلم والعدا، أن الآيات البينات الدالة على الحق لا ينقادون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه.

ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة التي ليست عن الله، ولا عن رسله، وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأبناء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟.

﴿٢٦﴾ ﴿وَهُمْ يَتَهَوَّنَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّنَ عَنْهُ وَكَانَ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم: أي المشركون بالله، المكذبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن يضرُوا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئًا ﴿وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا تَكْذِبَ يَأْتِي رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يقول تعالى - مخبرًا عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ ليوبخوا ويقرعوا، لرأيت أمرًا هائلًا، وحالًا مفضعة، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردون إلى الدنيا.

﴿فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا تَكْذِبَ يَأْتِي رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلِ فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات، ولكن الأغراض الفاسدة صدهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمانة وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾. ﴿وَقَالُوا﴾ منكرين للبعث ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا، إلا الحياة الدنيا وحدها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾

إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ○ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِلَّ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك، وبلي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع.

والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر، فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿وَالْمَوْقِفُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يحتمل أن المعنى، مقابل للمعنى المذكور، أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك، ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبتهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمنًا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تعنتًا وعنادًا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقرحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة.

كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَقْعُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ○ أَوْ تَكُونَ لَكِ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ○ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَسَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ الآيات.

﴿قُلْ﴾ مجيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِلَّ آيَةً﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته، مدعنة لسلطانه؟

ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم - لجهلهم وعدم علمهم - يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها - لعوجلوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل.

فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن، ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جحود منهم لما علموه حقًا.

حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب. فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهوم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلب الصبيان.

وأما الآخرة، فإنها ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائتها ودوامها، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح.

ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون أي الدارين أحق بالإيتار.

(٣٣-٣٥) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ يَبِغِضُونَكَ ○ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ○ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ ○ وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْإِجْهَالِينَ﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك، ولم تأمر بك بما أمرك به من الصبر، إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية، فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك.

﴿فَأِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه - قبل البعثة - الأمين، ﴿وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ يَبِغِضُونَكَ ○ وَيَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ○ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَسَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يديك (١).

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرًا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ ○ مَا بِهِ يَشْتَبِهُ فُؤَادُكَ، وَيطمئن به قلبك.

﴿وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم، ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئًا. وهذا قطع لطمعه في هداية أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال، ﴿فَلَا تَكُونُ مِنَ الْإِجْهَالِينَ﴾

الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يزلونها على منازلها.

(٣٧، ٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْقِفُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٨) وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ نَزِلَ آيَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا فَرْطَانِي مِنَ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُوبَكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسَارِ اللَّهِ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٤﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٦﴾

فضله وحكمته.

(٤٠، ٤١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الْعَادِلِينَ بِهِ غَيْرُهُ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب، التي يضطر إلى دفعها، هل تدعون آلهتهم وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وتخلصون لله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به،

(١) في ب: بالباطل.

مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقي في القلوب أدنى شك وارتباب.

فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك مَنْ هلك عن بينة، ويحيى مَنْ حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

(٣٨) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرْطَانِي مِنَ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية والهاوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا، كما كانت نافذة فيكم.

﴿مَا فَرْطَانِي مِنَ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقهم لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد.

ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَزَكَّا عَلَيْكَ الْكِتَابَ نَبِيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمد عليه الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُوبَكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسَارِ اللَّهِ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسوله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿مُتَمِّمُونَ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبِكُمْ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل^(١).

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: منغمسون في ظلمات الجهل، والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم، ف ﴿مَنْ يَسِّرِ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَعْتُمْ أَوْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه.

﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم، فاحذروا أن تقيموا على الظلم، فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

(٤٨، ٤٩) ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يكفرون. يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذر والمنذر به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة، ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابته لدعوتهم وعدمها - إلى قسمين:

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: آمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يمسهم العذاب﴾ أي: ينالهم، ويدوقونه ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

(٥٠) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى لنبينا ﷺ المقترحين^(١) عليه الآيات أو القائلين له: إنما تدعوننا لتتخذك إلهاً مع الله:

﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: مفاتيح رزقه ورحمته ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وإنما ذلك كله عند الله، فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يُمسك فلا مرسل له من بعده، وهو - وحده - عالم الغيب والشهادة، ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدٌ﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها ﴿إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: هذا غايتي ومنتهاى أمري وأعلاه، إن أنبئ إلا ما يوحى إليّ، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك. فإذا عرفت منزلتي، فلاي شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمراً لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان، بغير ما هو بصده؟.

ولاي شيء - إذا دعوتكم، بما يوحى إليّ - تلزموني أني (١) في ب: أم (٢) زاد هنا في الطبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (ان يخاطب) المقترحين.

وتجعلون له شركاء؟ هل ذلكم على ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل^(١) تفترون على الله الكذب؟

(٤٢-٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاهْتَدَوْا بِآيَاتِنَا وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ كِتَابًا يُفَصِّلُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا آياتنا ﴿فَاحْذَرُوا بِآيَاتِنَا وَالضَّرَّاءَ﴾ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، رحمة منا بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْزَعُونَ﴾ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: استحجرت فلا تلين للحق ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: اصطلموا بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، فإنه بذلك تبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

(٤٦، ٤٧) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَبُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَعْتُمْ أَوْ جَهَنَّمَ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ يخبر تعالى أنه كما أنه المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها، فإنه المتفرد بالوحدانية والإلهية فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ فبقيت بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿مَنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله.

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: ننوعها، ونأتي بها من كل فن، ولتنير الحق، وتبين سبيل المجرمين ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ مع هذا البيان التام ﴿يَصْذَبُونَ﴾ عن آيات الله، ويعرضون عنها.

سورة الأنعام

١٣٣

سورة الأنعام

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ
 مِّنَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ
 ثُمَّ يَصْدِفُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنُكِّمُ عَذَابَ اللَّهِ
 بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا
 نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
 عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
 إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ
 أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا
 إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
 ﴿٦١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾

وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم .
 وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً [من قريش، أو]
 من أجلاف العرب، قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك
 ونتبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا
 نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء .
 فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك،
 فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها .
 ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ
 بَيْنِنَا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم
 غنياً وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم ضيعاً، فإذا
 مَنَّ الله بالإيمان على الفقير، أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة
 للغني والشريف .

فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من
 ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن
 صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق .
 وقالوا محقرين لمن يرونها دونهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم،

أدعي لنفسه غير مرتبتي، وهل هذا إلا ظلم منكم، وعناد،
 وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين مَنْ قَبِلَ دعوتي، وانقاد لما
 أوحى إليّ وبين مَنْ لم يكن كذلك - ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
 وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتتزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما
 هو أولى بالاختيار والإيتار .

(٥٥-٥١) ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ
 لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
 رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
 وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ
 وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا
 أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ
 سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ
 نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَلَقَدْ رُسِّنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي الْغَافِقِينَ ﴿٥٧﴾ هَذَا الْقُرْآنُ نَذَارَةٌ لِلْخَلْقِ
 كُلِّهِمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾
 فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، ولذلك
 يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم .

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾
 أي: لا من يتولى أمرهم؛ فيحصل لهم المطلوب، ويدفع
 عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم، ليس
 لهم من الأمشيء .

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن
 الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه .
 ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾
 أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص،
 رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء
 العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة، في أول
 النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من
 الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل .

فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم
 مستحقون لموالاتهم ومحبتهم، وإدنائهم وتقريبهم، لأنهم
 الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، الأعزاء في الحقيقة وإن
 كانوا عند الناس أذلاء .

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 شَيْءٍ﴾ أي: كل له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح .
 ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر
 أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه
 معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه،

قال الله - مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومثته عليهم، دون من ليس بشاكر.

فإن الله تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من من الله عليهم بالإيمان، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون، ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيثهم، ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلاماً، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك.

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنذَرُ غُفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به.

﴿وَكَذَلِكَ نَفَعُ الْأَكْثَرَ﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه.

﴿وَلِتَسْتَوِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الموصلة إلى سحق الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

(٥٦-٥٨) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عَنِيدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ قُلْ لَّوْ أَن عَنِيدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفَقَضَى الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة ولا

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّقَوْلِ أَهْوََاءٍ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَن يَبِينُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا جَاءَكُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ نَفَعُ الْأَكْثَرَ الْبَيِّنَاتِ وَلِتَسْتَوِيَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٩﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عَنِيدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴿٦٠﴾ قُلْ لَّوْ أَن عَنِيدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفَقَضَى الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَعَلَّمَ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّرْقَةٍ إِلَّا أَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦٢﴾

شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال.

ولهذا قال: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته، وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة، لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق، فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم.

﴿و﴾ لكنكم أيها المشركون - ﴿كَذَّبْتُم بِهِ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء، وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إِنَّ الْحُكْمَ

(١) كذا في ب، وفي أ: استمررتم.

الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أتى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط، بجميع الحوادث. (٦٠-٦٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ۚ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ هذا كله تقرير لالوهيته، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهذا حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويعتهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدينية.

وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا آجالهم، فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا إلى غيره ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر. ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون، ولا يسكنون إلا بإذنه.

ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۚ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۚ يَكُونُونَ مَتَّعُونَ﴾، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قُدْرًا ۚ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، ﴿وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه، ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك، إلا بحسب المراسيم الإلهية، والتقايد الربانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب.

ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويشيهم على ما

إِلَّا لِلَّهِ﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته، فلا اعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل، وقص على عباده الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك مَنْ هلك عن بينة، ويحيى مَنْ حي عن بينة.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً، يحمد عليه حتى مَنْ قضى عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قُلْ لِلْمُسْتَغْلِبِينَ بِالْعَذَابِ، جَهْلًا وَعِنَادًا وَظُلْمًا﴾ ﴿لَوْ أَنِّي دَعَيْتُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فأوقعته بكم، ولا خير لكم في ذلك.

ولكن الأمر عند الحليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجربون، وهو يعافهم، ويرزقهم، ويسدي عليهم نعمه، الظاهرة والباطنة. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

(٥٩) ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً، لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار، من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك، مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّزْقٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفار، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذر الخلق؛ وبذور النوايت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحبطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة، ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد، المجيد،

الْبَاقِي

١٣٥

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ يَدْعُوهُ، نَضَرُوا وَحُفِيَةً لِّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٩﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٧١﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٧٢﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٤﴾

بَعْضٌ: أي: في الفتنة، وقتل بعضهم بعضًا.

فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم، والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف.

ولكن عاقب من عاقب منهم، بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون^(١).

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ﴾ أي: تنوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا مربة فيه، ولا شك يعتريه ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أحفظ أعمالكم،

(١) في ب: العالمون.

عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبت في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة مَنْ ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!!

أما والله! لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونهم بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافيههم ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه. ولمقتوا أنفسهم أشد المقت، حيث اتقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

(٦٤، ٦٣) ﴿قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ يَدْعُوهُ نَضَرُوا وَحُفِيَةً لِّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ○ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ○ أي: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، الداعين معه آلهة أخرى، ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية: ﴿مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: شداندهما ومشقاتهما، وحين يتعذروا أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعًا بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون - وأنتم في تلك الحال: ﴿لِّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة التي وقعنا فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله أي: المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ لا تفنون لله بما قلتم، وتسنون نعمه عليكم فأبى برهان أوضح من هذا؛ على بطلان الشرك، وصحة التوحيد!!!

(٦٧-٦٥) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ○ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ○ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أي: يخلطكم ﴿شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ

وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿لَكُلِّ بَرٍّ مُسْتَفَرٍّ﴾ أي: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما توعدون به من العذاب.

(٦٨، ٦٩) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَاثِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْفَرُوا﴾ المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدرح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأتمه تبعاً، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره. فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرّم، أو فاعل لمحرّم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه - فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْفَرُوا﴾ أي: ولكن ليذكرهم، ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى.

وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكور من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ، مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب^(١)، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

(٧٠) ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَمِبًا وَلَهُمْ وَعَرَتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ رَبِّهِمْ أَنَّ تُبْسَلَ نَفْسٌ يَمَّا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوبِ

اللَّهُ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه، وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعا، وجداً لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله، لا رياء وسمعة.

هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما مَنْ زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً، بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله فهو لعب. فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يعتربه، وتنتظر حاله، ويحذر من فعله، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وَذَكَرَ رَبَّهُ﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحُسن، وما يضر العباد نهياً عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة، الداعية لتركه.

وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجترئه على علّام الغيوب، واستمراره على ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها؛ لترتدع وتنتجر، وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوبِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع.

﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدَلٍ﴾ أي: فتنتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي: لا يقبل ولا يفيد. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿يَمَّا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار، قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

(٧١-٧٣) ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُمْ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أُوْتَيْنَا قُلْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمَّا لِمِثْلِهِمْ لَيْسَ لِي مِنَ الْفَالِكِ ۝ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

(١) في ب: كان تركه هو الواجب

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الدَّاعِينَ مَعَهُ غَيْرِهِ، الَّذِينَ يَدْعُونَكُمْ إِلَى دِينِهِمْ، مِينًا وَشَارِحًا لوصف أَلِهَتِهِمْ، الَّتِي يَكْتَفِي الْعَاقِلُ بِذِكْرِ وَصْفِهَا، عَنِ النَّهْيِ عَنْهَا، فَإِنْ كُلُّ عَاقِلٍ إِذَا تَصَوَّرَ مَذْهَبَ الْمُشْرِكِينَ جَزَمَ بِبَطْلَانِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَامَ الْبَرَاهِينُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

وهذا وصف يدخل فيه كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إِنْ الْأَمْرُ إِلَّا لِلَّهِ. ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ أَي: وَنَقْلَبُ بَعْدَ هِدَايَةِ اللَّهِ لَنَا إِلَى الضَّلَالِ، وَمِنَ الرُّشْدِ إِلَى الْغِي، وَمِنَ الصِّرَاطِ الْمَوْصِلِ إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ، إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي تَقْضِي بِسَالِكِهَا إِلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: أَضَلَّتْهُ وَتَبَيَّهَتْ عَنْ طَرِيقِهِ وَمَنْهَجِهِ، الْمَوْصِلِ إِلَى مَقْصِدِهِ، بَقِيَ ﴿حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَبُ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ وَالشَّيَاطِينُ يَدْعُونَهُ إِلَى الرَّدْيِ، بَقِيَ بَيْنَ الدَّاعِينَ حَائِرًا.

وهذه حال الناس كلهم، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ يَجِدُونَ فِيهِمْ جَوَازِبَ وَدَوَاعِيَ ^(١) مُتَعَارِضَةً، دَوَاعِيَ ^(٢) الرِّسَالَةِ وَالْعَقْلِ الصَّحِيحِ، وَالْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ وَالصُّعُودِ إِلَى أَعْلَى عَالَمِينَ.

ودواعي ^(٣) الشَّيْطَانِ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُ، وَالنَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، يَدْعُونَهُ إِلَى الضَّلَالِ، وَالتَّزَوُّلِ إِلَى أَسْفَلِ سَافَلِينَ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ مَعَ دَاعِي الْهُدَى، فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا أَوْ أَغْلِبِهَا.

ومِنْهُمْ مَنْ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ.

ومِنْهُمْ مَنْ يَتَسَاوَى لَدَيْهِ الدَّاعِيَانِ، وَيَتَعَارَضُ عِنْدَهُ الْجَاذِبَانِ، وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَعْرِفُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أَي: لَيْسَ الْهُدَى إِلَّا الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ ضَلَالٌ وَرَدَى وَهَلَاكٌ ﴿وَأَمَرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بِأَنْ نَقْدَاقَ لِتَوْحِيدِهِ، وَنَسْتَسْلِمَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَنَدْخُلَ تَحْتَ رِقِّ عِبَادِيَّتِهِ، فَإِنَّ هَذَا أَفْضَلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعِبَادِ، وَأَكْمَلُ تَرْبِيَةٍ أَوْصَلَهَا إِلَيْهِمْ.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي: وَأَمَرْنَا أَنْ نَقِيمَ الصَّلَاةَ بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَسُنَنِهَا وَمَكْمَلَاتِهَا ﴿وَأَتَّقُوا﴾ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا عَنْهُ نَهَى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَي: تَجْمَعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، خَيْرَهَا وَشَرَهَا.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لِأَمْرِ الْعِبَادِ وَبِنَهَاهُمْ، وَبِشَيْئِهِمْ وَبِعَاقِبِهِمْ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا مَثْنَوِيَّةَ، وَلَا يَقُولُ شَيْئًا عَيْنًا ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خَصَّهُ بِالذِّكْرِ - مَعَ أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ - لِأَنَّهُ تَقَطَّعَ فِيهِ الْأَمْلَاقُ، فَلَا يَبْقَى مُلْكٌ إِلَّا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ النَّامَةُ، وَالنِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَالْإِحْسَانُ الْعَظِيمُ، وَالْعِلْمُ الْمَحِيطُ بِالسَّرَائِرِ وَالْبَوَاطِنِ وَالْخَفَايَا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

(٧٤-٨٣) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ اعْبُدْ أَتُجَدِّدُ أَصْنَامًا هَلْهِيَ

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: دَوَاعٍ. (٢) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: دَاعٍ. (٣) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: دَاعِي.

الْأَنْعَامُ

١٣٧

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَأَيْتَ أَصْنَامًا مَّا إِلَهَةٌ إِنِّي أَرَأَيْتُكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآلِفِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتَمْنَحُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

وَمِنَ الشُّرَكِيِّ ﴿٨٢﴾ فترا من الشرك، وأذن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان، [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة، من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفولته، فليس عليه دليل] (١).

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتَمْنَحُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي فائدة لمحاجة من (٢) لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه.

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ فإنها لن تضرنني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنه - وحده - المعبود المستحق للعبودية.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ وحالها حال العجز، وعدم النفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

(١) زيادة من هامش ب، وهي بخط الشيخ - رحمه الله - . (٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.

إِنِّي أَرَأَيْتُكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٥ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٤﴾ إلى آخر القصة، يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثنيا عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، إذ قال لأبيه أزر:

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا مَّا إِلَهَةٌ أَي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً، وتركتهم عبادة خالفكم، ورازقكم، ومدبركم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان، والعلم التام، بجميع المطالب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ أي: أظلم ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ لعله من الكواكب المضئية، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره؛ ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: على وجه النزول مع الخصم أي: هذا ربي، فهل ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعالم أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب ذلك الكوكب ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآلِفِينَ﴾ أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبراً له في جميع شؤونه.

فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟ وهل اتخذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي: طالعا، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ تنزلاً ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الكوكب ومن القمر، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ تقرر حينئذ الهدى، واضمحل الردي ف ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه ﴿وَمَا أَنَا

﴿قُلْ﴾ للذين عرضوا عن دعوتك: ﴿لَا أَشْتَكُم عَلَيْهٖ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم مغرمًا ومالًا، جزاء عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَهُ الْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في ذرونه، ويتذكرون به معرفة ربهم، بأسمائه، وأوصافه، ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْلُسُوهُ قَرَاطِيسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة، [من اليهود والمشركون،] ^(١) وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفى لأعظم منه، امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأى قدح في الله أعظم من هذا؟!!

﴿قُلْ﴾ لهم - ملزمًا بفساد قولهم وقرره، بما به يقرون - : ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾ في ظلمات الجهل ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، وهاديًا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملأ ذكره القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون فيه بما شاءوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك أخفوه وكنموه، وذلك كثير.

﴿وَعَلَّمْتُهُ﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات فأجب عن هذا السؤال ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمهم بهذا الإلزام ﴿ذَرَهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

(٩٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ

دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ بن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب ﴿وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ابني عمران ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم ﴿وَالِيسَىٰ كُلٌّ﴾ من هؤلاء ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم، وأنتمتهم.

﴿وَأَسْمِعِلْ﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ ﴿وَيُوسُفَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ بن هاران، أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَّلْنَا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق.

فالرسل الذين قصهم الله في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك.

﴿وَمِنَ ءَابَائِهِمْ﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم. ﴿وَأَخْيَيْنَاهُمْ﴾ أي: اخترناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى المذكور ﴿هُدًى اللَّهِ﴾ الذي لا هدى إلا هداة. ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم، فلا هادي لكم غيره، ومن شاء هدايته هؤلاء المذكورون.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ فإن الشرك محبط للعمل، موجب للخلود في النار، فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم، فغيرهم أولى.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِيهِ﴾ أي: امش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم.

وقد امثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وبهذا الملحوظ استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

الْأَنْعَامُ

١٣٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمُكُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٣﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا خَوْلَانَا وَمَا خَوْلَانَاكُمْ وَرَأَى ظُهُورَكُمْ وَالَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَآكِنُ تَزْعُمُونَ ﴿٩٦﴾

الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٣﴾ أي: ﴿وهذا﴾ القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته، وسعة مبراته ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق.

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وأنزلناه أيضًا؛ لتنذر أم القرى، وهي مكة المكرمة، ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان، فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذة الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب، عمرت أركانه، وانقاد لمراضي الله.

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها، ومكملاتها، جعلنا الله منهم.

(٩٤، ٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولقد جئتمونا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا خَوْلَانَا وَمَا خَوْلَانَاكُمْ وَرَأَى ظُهُورَكُمْ وَالَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَآكِنُ تَزْعُمُونَ﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، ممن كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب، وتغيير الأديان، أصولها، وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفاصد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه، وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله؟ ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته!!

ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحترضين بالضرب، والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتخصيها للخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويدلكم، والجزاء من جنس العمل.

فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ترفعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها، وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند

وعظمته سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ﴾ شامل لسائر الحبوب، التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يثبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنواب، على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها.

وفيلق النوى عن الأشجار، من النخيل، والفواكه، وغير ذلك، فيتفلق الخلق من الآدميين والأنعام والدواب، ويرتعون فيما فلق الله، من الحب، والنوى، ويقتاتون، ويتفنعون بجميع أنواع المنافع، التي جعلها الله في ذلك.

ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهز العقول، ويذهل الفحول، ويريهم من بدائع صنعته، وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿يُنْزِلُ الْحَيَّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً ونحو ذلك.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتبديرها ﴿اللَّهُ﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربّى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه ﴿فَالِقُ ثُفُوكُورٍ﴾ أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة مَنْ هذا شأنه، إلى عبادة مَنْ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!!!

ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم إلا بوجود النهار والنور ﴿جَمَلُ اللَّهِ﴾ ﴿أَيْلُ سَكَا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة.

الاحتضار، وقيل الموت وبعده، وفيه دليل على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة، فإنهم إذا وردوها، وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال، ولا أولاد ولا جنود، ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء، فإن الأشياء إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها، التي هي أسبابها.

وفي ذلك اليوم تقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح، والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنهما وقبحهما، وسرورها وغومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال، فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُنْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ﴾ أي: أعطيناكم، وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَأَى ظُهُورَكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئاً ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة، والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالكم، والمستحق لعبادتهم، فشرّكهم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيويخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ أي: قطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها. فلم تنفع ولم تُجِدْ شيئاً.

﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الربح، والأمن، والسعادة، والنجاة، التي زينها لكم الشيطان، وحسنها في قلوبكم، فتنطقت بها ألسنتكم. واغتررتم بهذا الزعم الباطل، الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم، وأهلكم، وأموالكم.

(٩٥-٩٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَالِقُ ثُفُوكُورٍ ○ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلَ أَيْلُ سَكَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ○ وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَدْ فُصِّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فُصِّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ○ يخبر تعالى عن كماله،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٠

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٩٩﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٥٠﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَبَنُوهُ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِبْنَ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٥﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾

يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها.

وأودعهم الله في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة، التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر وأما هذه الدار، فإنها مستودع وممر.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبياناته.

(٩٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَبَنُوهُ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من أعظم منته العظيمة التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعًا، وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء، مما يأكل

﴿و﴾ جعل تعالى ﴿السَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما، واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذَلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي - من عزته - انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر.

﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير، ونظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها.

ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله، وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئًا، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبسًا، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض، ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه، وأوصافه تفاوتًا لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه.

وجعل الله لهم مستقرًا، أي: منتهى ينتهون إليه، وغاية

المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها: التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

(١٠٠-١٠٤) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنَ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ٥ ﴿يَدْعِي السَّمَكَاتُ وَالْأَرْضُ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لِي صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكُنِّي عَنْهُمْ عَلِيمٌ﴾ ٥ ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ٥ ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ الْبَاصِرُ﴾ ٥ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده، وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به، من قریش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والالوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أي: انتفكوا، واقتروا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم.

ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

﴿يَدْعِي السَّمَكَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: خالقهما، ومتقن صنعتها، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لِي صَاحِبَةً﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه.

والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿وَهُوَ يَكُنِّي كُلَّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما

الناس والأنعام، فرفع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون، وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر مَنْ أسدى النعم، وعبادته والإجابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ أَيْ: من ذلك النبات الخضر.

﴿جَبًا مَّزَكَّابًا﴾ بعضه فوق بعض، من بر، وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع.

وفي وصفه بأنه مترابك، إشارة إلى أن حبوه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، معجمة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أخرج الله ﴿مِنْ طَلْعِهَا﴾ وهو الكفري، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قَوَانٌ دَائِيَةٌ﴾ أي: قريبة سهلة التناول، متدلية على مَنْ أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرب ومراق، يسهل صعودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَّتٍ مِّنْ أَعْتَبٍ وَالزَّيْتُونِ وَالرَّمَّانِ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عمَّ جميع الأشجار والنواب.

وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَخَيْرٌ مُّشْتَبِهًا﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهًا في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقتاتون، ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظُرُوا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل، إذا أثمر.

﴿وَيَعْبُدُوهُ﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً، وآيات، يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل مَنْ تفكر أدرك

السرائر والخفايا، والخبايا والبواطن.

ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى، من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور، التي يكرهها العبد، ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب الذي ربى خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبين الآيات، وتوضيح المشكلات.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فإن الله هو الغني الحميد.

﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بأن بصر فلم يتبصر، وزجر فلم يتزجر، وبين له الحق فما انتقاد له ولا تواضع، فإنما عماء مضرته عليه.

﴿وَمَا أَنَا﴾ أيها الرسول ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما عليّ البلاغ المبين، وقد أدبته، وبلغت ما أنزل الله إليّ، فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فلست موظفاً فيه^(١).

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزاً، بل مشروعاً في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثاناً وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب

اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر، فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربى جميع الخلق بالتعم، وصرف عنهم صنوف النقم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه، فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتديره، خلقاً وتديراً وتصرفاً.

ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته، وتمامه، وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه، ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله.

وأما الباري تبارك وتعالى، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن لأحد أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً، ولا فطوراً، ولا في تدبيره نقصاً وعيباً.

ومن وكالته: أنه تعالى توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغريات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم.

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دلّ على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال: «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات، صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك

(١) انتقل الشيخ - رحمه الله - بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا﴾ فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ذات الأرقام (١٠٥-١٠٧) فقام النجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من كلام الشيخ - رحمه الله - انظر طبعة النجار (٢/٤٥٠-٤٥٢).

سورة الأنعام

١٤١

الأنعام

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٩﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١١٠﴾
فَدَجَّكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ نَضْرِبُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾
اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَعْرَضَ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾ وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ وَنُصَدِّرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْكَلْبَكةَ
وَكَلَّمَهُمُ النَّوْىَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١٨﴾ أَيْ: وَأَقْسَمَ الْمُشْرِكُونَ الْمَكْذِبُونَ
لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يَا اللَّهَ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَيْ: قَسَمًا اجْتَهَدُوا
فِيهِ، وَأَكَّدُوهُ.

العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة،
وسب، وقدح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم
يحمون لدينهم، ويتعصبون له، لأن كل أمة زين الله لهم
عملهم، فرأوه حسناً، وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى
إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب
الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم، مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة،
يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون
من خير وشر.
وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية، وهي أن
الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم
ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تقضي إلى الشر.

(١٠٩-١١١) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ وَنُصَدِّرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْكَلْبَكةَ
وَكَلَّمَهُمُ النَّوْىَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١٨﴾ أَيْ: وَأَقْسَمَ الْمُشْرِكُونَ الْمَكْذِبُونَ
لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يَا اللَّهَ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَيْ: قَسَمًا اجْتَهَدُوا
فِيهِ، وَأَكَّدُوهُ.

﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿لَيُؤْمِنُنَّ
بِهَا﴾. وهذا الكلام الذي صدر منهم، لم يكن قصدهم فيه
الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به
الرسول قطعاً، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات،
والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى
شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به.

فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعنت الذي لا يلزم
إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم.

فإن الله جرت سنته في عباده، أن المقترحين للآيات على
رسلهم، إذا جاءتهم، فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة،
ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيْ: هو الذي يرسلها
إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء.

فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما
توجهون إلي توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع
ذلك فليس معلوماً أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون،
بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا
يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ وَنُصَدِّرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَيْ: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة
يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة بتقلب القلوب،
والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط
المستقيم.

وهذا من عدل الله، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على
أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم
يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسباً
لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم، ومشيتهم وحدهم،
وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم
الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدون للرسول
بالرسالة، وتكليم الموتى، ويعثم بعد موتهم، وحشر كل
شيء إليهم حتى يكلمهم ^(١) ﴿قُبُلًا﴾ ومشاهدة، ومباشرة،
بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ
الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون، فلذلك رتبوا إيمانهم

(١) في ب: وحشرنا عليهم كل شيء حتى يكلمهم.

على مجرد إتيان الآيات.

وإنما العقل والعلم، أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه، وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

(١١٣، ١١٢) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيُقْتَلُوا وَلِيَقْتَلُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ يقول تعالى - مسلماً لرسوله محمد ﷺ - وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يزين بعضهم لبعض، الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات، حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني.

بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك.

﴿وَلِيُقْتَلُوا﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه، ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة.

ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة.

فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم.

وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية، والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التموهيات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة.

فإن كانت حقاً قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة،

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَ وَلَكُمُ الْمَوْتُ وَحُشِرْنَا عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيُقْتَلُوا وَلِيَقْتَلُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستتير ويتضح، إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه - حينئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون.

(١١٤، ١١٥) ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَنَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: قل يا أيها الرسول: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه، فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم، وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب

ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور، أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

(١١٨، ١١٩) ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وَمِمَّا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَقْصُضِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، فَلْيَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُحَلَّلَةِ، وَيَعْتَقِدُوا حَلَالَهَا، وَلَا يَفْعَلُوا كَمَا تَفْعَلُهُ الْجَاهِلِيَّةُ، مِنْ تَحْرِيمِ كَثِيرٍ مِنَ الْحَلَالِ، ابْتِدَاعًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِضْلَالًا مِنْ شَيَاطِينِهِمْ.

فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فصله الله، فما لم يفصله الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخضمة، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْسَتْ بِالذِّمَّةِ وَهُمْ الْخَنَازِيرُ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا حجة، فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة.

فهؤلاء معتدون على شرع الله، وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين.

بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق

والجور. وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: موضعاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قيلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ولهذا تواطأت الإخبارات ﴿فَلَا تَشْكُنْ فِي ذَلِكَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وَوَعَدْتُكَ رَّبِّكَ صِدْقًا وَعَدَلًا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي، فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لَّا مَبْدَلَ لِكَلِمَتَيْهِ﴾ [حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها] ^(١).

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل.

(١١٧، ١١٨) ﴿وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِمَّا يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انصرفوا في أديانهم، وأعمالهم، وعلومهم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قيلاً، وأصدق حديثاً، و﴿هُوَ أَعْلَمُ مِمَّا يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي، فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله،

إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

فتباً لمن قَدَّم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة، والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهاها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم، وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل بمجرد ما على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب. لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان. وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصيه إلا الله.

(١٢٢-١٢٤) ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّئِلٌ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِجِّينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي.

﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصراً في أموره، مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير، مؤثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشر، مبغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي؟

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء. فبني تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا

والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم، والقرب منه.

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظِلَافَ الْإِنَّمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الْإِنَّمِ يَكْسِبُونَ الْإِنَّمِ سَجِرُونَ بِمَا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ المراد بالإثم جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، فنهي الله عباده عن اقرار الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب.

ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك، واجباً متعيناً على المكلف. وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر، والعجب، والرياء، ونحو ذلك. حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّاطِطِينَ لَيُؤْخَوْنَ إِلَى أُولِيَآيِهِمْ يُجْجِدِلُونَهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام والهة، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو اللحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية، عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْتَهُمْ وَلَعَلَّهَا سَبَبُ نَزُولِ آيَةِ﴾ لقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّاطِطِينَ لَيُؤْخَوْنَ إِلَى أُولِيَآيِهِمْ يُجْجِدِلُونَهُمْ﴾ بغير علم.

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة الله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة. وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند

يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكانه قيل: كيف يؤثر مَنْ له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيراً؟! فأجاب بأنه ﴿زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسوها، ورأوها حقاً. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم. فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقباح. وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون غير متساوين.

فمنهم: القادة، والرؤساء، والمتبوعون، ومنهم: التابعون المرؤسون. والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمًا﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿يَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل.

وإنما مكرمهم وكيدهم يعود على أنفسهم، لأنهم يمحرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته، بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين.

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة. وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه.

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً عن أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل، ومتبرؤ من كل خلق دنيء، أعطاه الله منها ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه عند مَنْ لا يستأهله، ولا يتركه عنده.

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه وإن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٣

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَبُرَ لَكُمْ يُضِلُّونَ بِهِ أَوْ يَهْمُ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَذَرُوا أَظْهَرَ الْإِيمَانِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِيمَانَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٦﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْزِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٧﴾ أَوْ مَن كَانَ مِيثَاقًا بَيْنَهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مِّثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمًا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾

كان تعالى رحيمًا، واسع الجود، كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله.

ثم توعد المجرمين فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إهانة وذل، كما تكبروا على الحق أذلهم الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي: بسبب مكرمهم، لا ظلمًا منه تعالى.

(١٢٥) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: - ميثاق لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله - إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذًا به - غير مستقل - فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومن عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

وإن علامة من يرد الله أن يضلّه، أنه يجعل صدره ضيقًا حرجًا أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد

انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدة يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة له فيه.

وهذا سببه عدم إيمانهم هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان. وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، يشره الله لليسرى. ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسيصره للعسرى.

(١٢٦، ١٢٧) ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ لَمْ دَارُ السَّلَاحِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿أَي: معتدلاً، موثقاً إلى الله، وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل. فهذا قال: ﴿لَمْ دَارُ السَّلَاحِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات.

ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن مولاه واتبع هواه، فإنه سُلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

(١٢٨-١٣٥) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجَنَّا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا مَتَّوْنَكُمْ خَلْدَيْنَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا إِنبِئْتُمْ بِأَنفُسِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِقَاءَ الْوَعْدِ الَّذِي هَدَيْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا وَكَذَلِكَ نَقُولُ ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنْكُمْ عَمَلٌ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْخِلْكُمْ فِيهِمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا

فَمَنْ يَرْدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِإِسْلَامِهِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ، يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ لَمْ دَارُ السَّلَاحِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجَنَّا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا مَتَّوْنَكُمْ خَلْدَيْنَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا إِنبِئْتُمْ بِأَنفُسِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِقَاءَ الْوَعْدِ الَّذِي هَدَيْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا وَكَذَلِكَ نَقُولُ ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنْكُمْ عَمَلٌ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْخِلْكُمْ فِيهِمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا

يَشَاءُ كَمَا أَنْتَ كَافٍ مِّنْ دُرِّتِهِ قَوْمٌ أَحَدِينَ ﴿إِنْ مَا تُوَسَّدُونُ لَأَبَىٰ وَمَا أَشَدُّ مُمْجِرِينَ﴾ قُلْ يَقُولُوا عَمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنْ عَابِلْتُمْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُمْ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزروهم إلى المعاصي: ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: من إضلالهم، وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي؟ وقمت محاربين الله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟ فالיום حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وستزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يسمع. فلا تسأل حينئذ، عما يحل بهم من النكال والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً. وأما أولياؤهم من الإنس، فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: تمتع كل من الجنّي

والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجني يستمتع بطاعة الإنسي له، وعبادته، وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بحسب خدمة الجني له بعض شهواته. فإن الإنسي يعبد الجني، فيخدمه الجني، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية. أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلَّذِي أَتَيْنَا لَنَا﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي تجازي فيه بالأعمال. فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حاجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿الْأَنَارُ مَتَوَكَّنْكُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا﴾.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمتها، فحكمته الغاية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها.

﴿وَكَذَلِكَ نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: وكما ولينا الجن المردة، وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس، وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله، يؤذه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير ويفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرهما.

والذنوب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولوى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاية ظلم واعتساف. ثم ويخ الله جميع من أعرض عن الحق ورده، من الجن والإنس، وبين خطأهم، فاعترفوا بذلك، فقال:

﴿يَمَعْتَرُ الْإِنِّي وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتَّبِعُونَ عَلَيْكُمْ مَا يَأْتِي﴾ الواضحات البينات، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي، والخير والشر، والوعد والوعيد.

﴿وَنَذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنْ مَا تُوَعَّدُونَ لَا تِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٠﴾ قُلْ يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِرِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣١﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَقْلِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٣﴾

والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضيع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، فـ ﴿قَالُوا﴾ بلى ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّضْنَاهُمْ لِمِصْرَةِ الدُّنْيَا﴾ بزيئها وزخرفها، ونعيمها، فاطمانوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة.

﴿وَسَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد، حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم حاكماً عليهم بالعذاب الأليم: ﴿أَدْخُلُوا فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلاقتهم كما استمتعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم، إنهم كانوا خاسرين. أي: الأولون من هؤلاء والآخرون. وأني خسران أعظم من خسران جنات النعيم، وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟! ولكنهم وإن اشتركوا في الخسران، فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتاً عظيماً.

﴿وَلِكُلِّ﴾ منهم ﴿دَرَجَةٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المروءس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة، وإن

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ أنا أو أنتم .
وهذا من الإنصاف بموضع عظيم، حيث بين الأعمال وعاملها، وجعل الجزاء مقرونًا بنظر البصير، ضاربًا فيه صفيًا عن التصريح الذي يغني عنه التلويح . وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عن ما جاءت به الرسل، عاقبته سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُلْقِي الْأَطْلُيُونَ﴾ فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته [فيه] الاضمحلال والتلف «إن الله يلجمي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» .

(١٣٦-١٤٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَكَذَلِكَ زُفَّتْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ يُرَدُّوهُمْ وَيَلِيسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَقَالُوا هَذِهِ أَتَعْبَدُ وَحَرْتُ حَجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ خُرْمَتُ طُهُورِهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْرَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءَ عَلَيْهِ سَجَرِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ خَالِصَةً لِّكُفْرِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَرْوَاحِنَا وَإِنْ يَكُن مِثْنَهُ فَهُم فِيهِ شُرَكَاءُ سَجَرِهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل، وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئًا من خرافاتهم، لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ ولشركائهم من ذلك نصيبًا، والحال أن الله تعالى هو الذي ذراه للعباد، وأوجده رزقًا، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير: متهم على الله في جعلهم له نصيبًا، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع .

وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئًا في ذلك .
وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصلًا إلى الشركاء .
وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به، ولم يصل إلى

اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق، ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما أتاهم مولاهم، وقنعوا بما جباهم .

فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وداده .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفْلٍ عَمَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ فيجازي كلاً بحسب عمله، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم وقصدًا لمصالحهم . وإلا فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين .
﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْتُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مُّكَرِّمِينَ﴾ .

فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها، وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم اتخذتموها قرارًا؟ وتوطئتم بها، ونسيتم أنها دار ممر لا دار مقر، وأن أمامكم دارًا، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟ .

وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويرحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها، فثم الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب .

هنالك، والله! ما تشبهه الأنفس، وتلذ الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب .

فله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات، وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون! ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة الوصول إلى هذه الدار .

﴿إِنْ مَا تَوْكَدُونَ لَأَنْتَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ لله، فارين من عقابه، فإن نواصيك تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه .

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله، وبيئت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه، فامتنعوا من الانقياد لأمره، واتبعوا أهواءهم، واستمروا على شركهم: ﴿يَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، ورضيتموها لأنفسكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على أمر الله، ومتبع لمراضي الله .

يدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم.

فنعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرْتُ جَبْرًا﴾ أي: محرم ﴿لَا يَطْعُمَهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا مَنْ أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهرها، ويسموننها الحام.

وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْرَوْنَ﴾ على الله من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعينونها - محرمًا ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأُنْثَى خَالِصَةٌ لِّذَكَرٍ﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء.

﴿وَمَحْرَمٌ عَلَى الْأُنْثَى﴾ أي: ناسئنا، هذا إذا ولد حيًا. وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتًا، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصَفَّهُمْ﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله.

﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيه ويرزقهم جل جلاله.

ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردى والضلال.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿أَفْتَرَاءٌ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: كذبًا يكذب به كل معاند كفار. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: قد ضلوا ضلالًا

الله منه شيء. وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسمًا قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالحق لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه، ولا يقبل عمل مَنْ أشرك به.

وقسمًا جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك. وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأنفسهم إلى ما جعلوه لله، رده إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ أشرك معي شيئًا تركته وشركه».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركًا، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفة المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل أولادهم، وهو: الواد، الذين يدفنون أولادهم خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح.

ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم، ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه. ولكن اقتضت حكمته، التخليه بينهم وبين أفعالهم، استدراجًا منه لهم، وإمهاً لا لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿قَدْ رَضُّهُمْ وَمَا يَفْرَوْنَ﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضرروا الله شيئًا.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عمومًا، وجعلها رزقًا ورحمة، يتمتعون بها ويتفنعون، قد اخترعوا فيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ
 نَشَاءُ مِنْهُمْ وَأَنْعَمُ حَرَمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ
 أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ
 خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ
 مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
 سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ
 قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي
 أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
 مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَا حَقَّهُ يَوْمَ
 حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
 وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلًّا بِمَنْزِلِ رِزْقِكُمْ
 اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا
 حول لها، بل حولها حصاها في الزروع، وجذاذ النخل.
 وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة،
 إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت
 حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع
 والثمر، أنه لا يضمناها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع
 قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل
 يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبعث خارصاً يخرص للناس ثمارهم،
 ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعثرها من
 الأكل وغيره من أهلها، وغيرهم.

(١٤٢-١٤٤) ﴿وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلًّا بِمَنْزِلِ رِزْقِكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ تَمَنَّى أَرْبَعٌ مِنَ الْبُكَارِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبُكَارِ اثْنَتَيْنِ قُلْ أَلَا لَكُمْ مِنْ حَرَمٍ آيَةُ الْبُكَارِ إِنَّا أَسْمَكْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنَا يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَتَيْنِ قُلْ أَلَا لَكُمْ مِنْ حَرَمٍ

بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

(١٤١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ أَي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

﴿مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: بعض تلك الجنات، مجعول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرش في الأرض.

وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرشونها وينمونها.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا﴾ في شجره ﴿وَعَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي: النخل والزرع ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآثَا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصاء المقدرة في الشرع.

أمرهم أن يعطوها يوم حصاها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول. لأنه الوقت الذي تشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجها على أهل الزروع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع، بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقت عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٧

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ثُمَّ نَبَيٍّ آتَوْا مِنْ الصَّانِّ أَتَيْنِ وَمِنَ الْمُعْزِ أَتَيْنِ
 قُلْ أَلَّذِكْرُ بِي حَرَمٌ أَمْ الْأُنثِيَّتُ بِي أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْأُنثِيَّتُ نَبِيُّ بَعْلِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٦﴾
 وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتَيْنِ قُلْ أَلَّذِكْرُ بِي
 حَرَمٌ أَمْ الْأُنثِيَّتُ بِي أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّتُ
 أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٧﴾ قُلْ لَا أَجِدُ
 فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
 مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ
 فِسْقًا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
 رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
 كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
 شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا
 اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٩﴾

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك. فلما بين بطلان قولهم
 وفساده، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا
 في اتباع شرع الله. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ
 بِهِذَا﴾ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى، لا سبيل لكم إلى
 صدقها وصحتها. وهي أن تقولوا: إن الله وضانا بذلك،
 وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً
 لما دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب. وهذا افتراء لا يجعله
 أحد، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: مع كذبه وافتراءه على الله، قصده
 بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله، بغير بيّنة منه ولا برهان،
 ولا عقل ولا نقل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا إرادة
 لهم في غير الظلم والجور، والافتراء على الله.

(١٤٦، ١٤٥) ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ
 يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ
 رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
 رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
 وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ

أَرِ الْأُنثِيَّتُ بِي أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّتُ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ
 إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي:
 ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي:
 بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل
 والركوب عليها، لصغرها كالفصلان ونحوها، وهي الفرس،
 فهي من جهة الحمل والركوب، تنقسم إلى هذين القسمين.

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع، فإنها كلها تؤكل،
 ويستنعق بها. ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْذُرُوا
 خُطُوطَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقة وأعماله التي من جملتها أن
 تحرموا بعض ما رزقكم الله. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فلا
 يأمركم إلا بما فيه مضرته وشقاؤكم الأبدى.

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها
 حلالاً طيباً، فصلها بأنها: ﴿ثُمَّ نَبَيٍّ آتَوْا مِنْ الصَّانِّ أَتَيْنِ﴾
 ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ الْمُعْزِ أَتَيْنِ﴾ كذلك. فهذه أربعة، كلها
 داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها.

فقل لهؤلاء المتكلفين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء،
 أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزماً لهم بعدم
 وجود الفرق، بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿أَلَذِكْرُ بِي﴾ من
 الضأن والمعز ﴿حَرَمٌ﴾ الله، فلستم تقولون بذلك وتطردونه،
 ﴿أَرِ الْأُنثِيَّتُ بِي﴾ حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم،
 لا تحريم الذكور الخالص، ولا الإناث الخالص من الصنفين.

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى، أو على
 مجهول فقال: ﴿أَمْ﴾ تحرمون ما ﴿أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
 الْأُنثِيَّتُ﴾ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز، من غير فرق بين ذكر
 وأنثى، فلستم تقولون أيضاً بهذا القول.

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة، التي
 حصرت الأقسام الممكنة في ذلك، فإلى أي شيء تذهبون؟
 ﴿نَبِيُّ بَعْلِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ودعواكم.

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في
 العقل، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة. وهم لا يقولون
 بشيء منها. إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون
 عليها اصطلاحات من عند أنفسهم، حرام على الإناث دون
 الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من
 الأقوال، التي يعلم علماً لا شك فيه، أن مصدرها من الجهل
 المركب، والعقول المختلفة المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن
 الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا
 برهان.

بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.
فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو
الآخر منها فقط: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وصف شامل لكل محرم،
فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث
المستفزة التي حرّمها الله على عباده، صيانة لهم، وتكرمة
عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من الشئ، فإنها تفسر
القرآن، وتبين المقصود منه. فإذا كان الله تعالى لم يحرم من
المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله -
دل ذلك على أن المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله،
مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير،
وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في
تحريمهم ما أحله الله، وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت
لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة. وليس منها
محرم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله به،
وما سوى ذلك، فحلال.

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن
بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع
الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها
كما يمنون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين
الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة، كله^(١) من باب التنزيه
لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب، ولكنه حرم
عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا
كُلَّ ذِي ظُفَرٍ﴾ وذلك كالإبل، وما أشبهها.

وحرّمنا عليهم ﴿مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَرِ﴾ بعض أجزائها، وهو
﴿شُحُومُهَا﴾.

وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية
والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال: ﴿إِلَّا مَا
حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾ أي: الشحم المخالط للأعضاء
﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ التحريم على اليهود ﴿جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ﴾ أي: في
ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم
هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ في كل ما
نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن

(١) في ب: كلها.

ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ
وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من
الحلال، ونسبوه إلى الله، وأبطل قولهم، أمر تعالى رسوله أن
يبين للناس ما حرّمه الله عليهم، ليعلموا أن ما عدا ذلك
حلال. مَنْ نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل، لأن
التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال
لرسوله:

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ﴾ أي: محرماً
أكله، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه.

﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ والميتة: ما مات بغير ذكاة شرعية،
فإن ذلك لا يحل. كما قال تعالى: ﴿حَرَمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةَ وَالْذَّمَّ
وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾.

﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند
ذكاتها، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن، فإذا خرج من
البدن زال الضرر بأكل اللحم.

ومفهوم هذا اللفظ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق
بعد الذبح، أنه حلال طاهر.

﴿أَوْ لَحْمِ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي: فإن هذه الأشياء
الثلاثة رجس، أي: خبث نجس مضر، حرّمه الله لطفاً بكم،
ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث.

﴿أَوْ﴾ إلا أن يكون ﴿فَسَقَا أَيْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ يَدٌ﴾ أي: إلا أن
تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة التي
يعبدونها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن
طاعة الله إلى معصيته.

أي: ومع هذا، فهذه الأشياء المحرمات، من اضطر
إليها، أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها، بأن
لم يكن عنده شيء، وخاف على نفسه التلف.

﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ أي: مرید لأكلها،
من غير اضطرار، ولا متعد أي: متجاوز للحدد، بأن يأكل
زيادة عن حاجته ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ أي: فالله قد سامح مَنْ كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في
هذه الآية، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها كالسباع، وكل ذي
مخلب من الطير ونحو ذلك. فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة
قبل تحريم ما زاد، على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر
المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما
أوحى إليه في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات،

أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

(١٤٧) ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: فإن كذبت هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي: عامة شاملة [الجميع] المخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها، التي رأسها وأساسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين كثر إجرامهم وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

(١٤٨، ١٤٩) ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَاوُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم، ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۝ الْآيَةُ

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه. فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان.

فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم الأداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ومن بنى حججه على الخرص والظن، فهو مبطل خاسر. فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَاوُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْكُمْ مَنْ إِمْلَيْتُمْ تَحْنُ تَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَلَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٤٨)

ومنها: أن الحجة لله البالغة التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة.

فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة^(١) الفاطعة باطل، لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة، يتمكن بها من فعل ما كُلف به. فلا أوجب الله على^(٢) أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه. فالاحتجاج - بعد هذا - بالقضاء والقدر، ظلم محض، وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات.

فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة

(١) في ب: الآية (٢) في الأصل: (على) ولعل الصواب ما أثبت. (٣) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطيء.

وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها.

ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل، أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب. ﴿إِلَّا بِآِلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخال التي تصلح بها أموالهم، ويتفعون بها. فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها والتصرف بها، على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْيَتِيمُ أَشَدُّ﴾ أي: حتى يبلغ ويرشد، ويعرف التصرف. فإذا بلغ أشده أعطي حينئذ ماله، وتصرف فيه على نظره.

وفي هذا دلالة على أن اليتيم - قبل بلوغ الأشد - محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد.

﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والوفاء التام. فإذا اجتهدتم في ذلك، ف ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بقدر ما تسعه، ولا تضيق عنه. فمن حرص على الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير، لم يفرط فيه ولم يعلمه، فإن الله عفو غفور^(١).

وبهذه الآية ونحوها استدل الأصوليون، بأن الله لا يكلف أحدا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر، وفعل ما يمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَوْلًا تَحْكُمُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَفْصِلُونَ بَيْنَهُمُ الْخِطَابَ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِهِ عَلَى الْمَقَالَاتِ وَالْأَحْوَالِ﴾ فأعدوا في قولكم بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، والإنصاف وعدم كتمان ما يلزم بيانه. فإن الميل على من تكره بالكلام فيه، أو في مقالته من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق، وبعدها منه.

وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد، من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاهد به بين الخلق. فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصَنَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم

بِالْإِسْلَامِ

١٤٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢)
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُقَالُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ﴾ (١٥٧)

حق القيام، وتعرفون ما فيها من الحكم والأحكام.

ولما بين كثيراً من الأوامر الكبار، والشرائع المهمة، أشار إليها وإلى ما هو أعم منها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أي: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله في كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتناولوا الفوز والفلاح، وتدركوا الآمال والأفراح. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: تضللكم عنه وتفرقكم يميناً وشمالاً، فإذا ضللتكم عن الصراط المستقيم، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علماً وعملاً، صرتم من المتقين وعباد الله المفلحين. ووجد الصراط، وأضافه إليه، لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المعين للسالكين على سلوكه.

أجمع، ولا أوضح، ولا أبين منه.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا [بعدم] كمالها وتامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ يُسَنَّةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا اسم جنس، يدخل فيه كل ما يبين الحق.

﴿وَهْدَىٰ﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم. فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه، والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ونأى بجانيه.

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. ﴿يَمَّا كَانُوا يَصْدُقُونَ﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيئ ﴿وَمَا رُبُّكَ يَظُنُّكَ لِلْعَيْدِ﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلفين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخريين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى. فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِلَىٰ مَا تُنظُرُونَ﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيتهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان، ولا صالح الأعمال. ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن

(١٥٤-١٥٧) ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلْقَا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ○ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغفيلين ○ أو تقولوا لو أنَّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم يسنة من ربكم وهدي ورحمة فمن أظلم ممن كذب بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَجَرِي الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يَصْدُقُونَ ﴿ثم﴾ في هذا الموضع، ليس المراد منها الترتيب الزمني، فإن زمن موسى عليه السلام متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري. فأخبر أنه أتى ﴿مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ وهو: التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالاً لإحسانه. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جملتها وتامها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة، والخير الكثير ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيانات عليهم ﴿يُلْقَا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة الفاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿كُنْتُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحت عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله، وعواقبها الوخيمة ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

﴿وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب

الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت.

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات، صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقطع عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَّرْنَا بِمَا كُنَّا بِيهِ مُشْرِكِينَ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ.

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رَأَوْها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حينئذ باب التوبة.

ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿فَلْيَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾ فستعلمون أننا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالاستواء، والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيهه بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير. وفيه أن من جملة أشرط الساعة طلوع الشمس من مغربها، وأن الله تعالى حكيم، قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه. فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو، إذا كان مع العبد الإيمان. فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

(١٥٩، ١٦٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تنفي الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً، ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل

سورة الأنعام

١٥٠

سورة الأنعام

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ قُلِ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خِفَاءً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلِ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلِ أَغَيْرَ اللَّهِ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

البدع والضلال والمفرقين للأمة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والاتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية.

وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يردون إليه، فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله، أو حق خلقه ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف.

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(١٦١-١٦٥) ﴿قُلِ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خِفَاءً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قُلِ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ۝ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِلنَّذِيرِ بِهِ ۝ وَذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝
وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
۝ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ۝ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ
الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعْلُورَ مَا كَانُوا يَعْبِيدُونَ ۝
وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَوِيكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿يَعْلَمُونَ﴾
منه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ في وقت من
الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أَخَصَّنَا اللَّهُ وَنُورُهُ﴾ وقال تعالى:
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

(٩، ٨) ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال: ﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَن خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي:
والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه
ولا ظلم بوجه.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته
﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون من المكروه،
المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الريح العظيم،
والسعادة الدائمة.

﴿وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها
﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل

مفصلاً. ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيق وشك
واشتباه. بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وأنه أصدق
الكلام، فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدق
بأوامره ونواهي، ولا تخش لائماً ومعارضاً.

﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ الخلق، فنعظهم، وتذكرهم، فتقوم الحجة
على المعاندين. ﴿وَوَ﴾ ليكون ﴿ذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال
تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط
المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد،
وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتَّبِعُوا
مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم،
وهو ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل
عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه، كملت تربيتكم، وتمت
عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق،
ومعاليها.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تتولونهم وتتبعون
أهواءهم، وتركون لأجلها الحق. ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾
﴿فَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة، لما أثرتم
الضار على النافع، والعدو على الولي.

ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به
رسلهم، لثلا يشابهوهم^(١) فقال: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا
بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: في حين
غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على
قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا
أغنت عنهم آلتهم التي كانوا يرجونها، ولا أنكروا ما كانوا
يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾
كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ مِّنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا
بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَحَسُوا بِأَنسَانَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿لَا
تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَسَبِّحُوا لِلَّهِ مَا تَكُونُونَ﴾ ﴿قَالُوا
يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَانَهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَامِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: لنسألن الأمم
الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿وَيَوْمَ
يُؤَدِّيهِمْ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات.

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما
أجابتهم به أمهم.

ومنها: أن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ بمجرد ما كافية لنقص إبليس الخبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه، وتكبره، والقول على الله بلا علم. وأي نقص أعظم من هذا؟!!

ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه. وأما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق.

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: ﴿فَاهْطِ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تلبق بأخبث خلق الله وأشرهم.

﴿فَأَخْرَجَ إِيَّكَ مِنَ الصَّغِيرِ﴾ أي: المهانين الأذلين، جزاء على كبره وعجبه، بالإهانة والذل.

فلما أعلن عدو الله بعداوة الله، وعداوة آدم وذريته، سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه، أجابه لما سأل فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

(١٦، ١٧) ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفَعِدَنَّكَ مِنْ صِرْطِكَ الْمُسْتَقِيمِ ۖ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: قال إبليس - لما أبلس وأيس من رحمة الله - ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفَعِدَنَّكَ مِنْهُ﴾ أي: للخلق ﴿صِرْطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: لألزم الصراط ولأسعى غاية جهدي، على صد الناس عنه، وعدم سلوكهم إياه.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه، من إدراك بعض مقصوده فيهم.

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ فإن القيام بالشكر، من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حَرِبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وإنما نهى الله على ما قال وعزم على فعله، لتأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

لهم العذاب الأليم ﴿يَمَّا كَانُوا يَجَازِفُونَ﴾ فلم ينقادوا لها، كما يجب عليهم ذلك.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده بذكر المسكن والمعيشة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هيأناها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها، وسخر أسبابها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله، الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النعم.

(١١-١٥) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۖ قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَن تَسْجُدَ لِمَا كُنْتَ تَخْلُقُ مِن تَرَابٍ ۖ وَقُلْنَا يَا إِبْلِسُ خُذْ أَصْحَابَكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَخَرِّجْهَا مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۚ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أصلكم ومادتهم التي منها خرجتم: أبيكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء.

ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم، إكراماً واحتراماً، وإظهاراً لفضله، فامتثلوا أمر ربهم ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم أجمعون ﴿إِلَّا إِبْلِسَ﴾ أبي أن يسجد له، تكبراً عليه، وإعجاباً بنفسه، فوبخه الله على ذلك وقال:

﴿مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَن تَسْجُدَ﴾ لما خلقت بيدي، أي: شرفته وفضلته بهذه الفضيلة التي لم تكن لغيره، فعصيت أمري، وتهاونت بي؟

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن تَرَابٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين، لعلو النار على الطين وصعودها. وهذا القياس من أفسد الأقيسة، فإنه باطل من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص، يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعاً لها.

فأما قياس يعارضها، ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص، فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ مَا مَنَّكَ الْأَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْطُ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لَا مَلَائِكَةً جِهَنَّمُ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَكَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾

(١٨) ﴿قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لَا مَلَائِكَةً جِهَنَّمُ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿أَخْرَجْ مِنْهَا﴾ خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام، بل ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: مذمومًا ﴿مَذْمُورًا﴾ مبعداً عن الله، وعن رحمته، وعن كل خير. ﴿لَا مَلَائِكَةً جِهَنَّمُ﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهذا قسم منه تعالى، أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

(١٩-٢٣) ﴿وَيَتَكَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾

أي أمر الله تعالى، آدم وزوجته حواء التي أنعم الله بها عليه، ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أَرَادَا، إلا أنه عَيَّنَ لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحرم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزالا ممثلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة، خدعتهما بها، وموه عليهما وقال:

﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَذُكُّ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمَلَائِكَةُ لَا يَرَوْنِي﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: من جملة الناصحين، حيث قلت لكما ما قلت.

فاغترأ بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل. ﴿فَدَلَّهُمَا﴾ أي: نزلهما عن رتبتهما العالية التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدا على أكلها.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العري الباطن من التقوى في هذه الحال، أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا، وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبنا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ فلم اقترعتما المنهي، وأطعتما عدوكما؟

فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه، وضررنا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثُمَّ اتَّخَذَ رَبُّهُ فِتْنَةً لِبَنِي آدَمَ ﴿٢٤﴾ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾

هذا، وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاقرار وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعدا.

(٢٥، ٢٦) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ بَنِي آدَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ يُلُوسًا يَوْمَ يَأْتِي سَوْءُ يَوْمِكُمْ دَرَيْشًا وَبَاسًا الْفَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ أي: لما أهبط الله آدم

قَالَ رَبِّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَُدُو وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسَفَّرٌ مِّنْغَ إِلَى حِينٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ ﴿٢٩﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِمَّنْ آيَتِ اللَّهُ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَءَ تَكْمُ إِنَّهُ يَرِيَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنا الشَّيْطَانَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرُنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشیطان ﴿٣٣﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾

(٢٨-٣٠) ﴿٢٨﴾ وَإِذا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرُنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾ يقول تعالى مبيّنًا لقيح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها ﴿٢٨﴾ فَعَلُوا فَحِشَةً وهي كل ما يستفحش ويستفح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة.

﴿٢٩﴾ قَالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا ﴿٣٠﴾ وصدقوا في هذا ﴿٣٠﴾ وَاللَّهُ أَمَرُنا بِها ﴿٣١﴾ وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال: ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ ﴿٣٣﴾ أي: لا يليق بكماله وحكمته، أن

وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهما فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوهما الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها. ثم إذا استكملوا بعثهم الله، وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمراكب، والمناجح ونحوها. قد يسر الله للعباد ضروريها، ومكمل ذلك، ولبين لهم ﴿٣١﴾ أن هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال:

﴿٣٠﴾ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴿٣١﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

وأما اللباس الظاهري، فغايتة أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات. أو يكون جمالًا للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.

وأيضًا، فبتقدير عدم هذا اللباس، تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة.

وقوله: ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم، وتشبهون ﴿٣٢﴾ باللباس الظاهر على الباطن.

(٢٧) ﴿٢٧﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَءَ تَكْمُ إِنَّهُ يَرِيَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنا الشَّيْطَانَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ يقول تعالى محذرًا لبني آدم، أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿٣٠﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ﴿٣١﴾ بأن يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتتقادون له ﴿٣٢﴾ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿٣٣﴾ وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه.

فأنتم تريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم، حتى يفتنكم إن استطاع. فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

ف ﴿٣٣﴾ يَرِيقُكُمْ عَلَى الدَّوام، و ﴿٣٤﴾ يَرِيَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴿٣٥﴾ من شياطين الجن ﴿٣٦﴾ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنا الشَّيْطَانَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لَا

مشوها.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس
التنظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة،
وباستعمال التجميل فيها، ونظافة السترة من الأدناس
والأنجاس.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: مما رزقكم الله من الطيبات
﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك. والإسراف إما أن يكون بالزيادة على
القدر الكافي، والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم،
وإما أن يكون بزيادة الترفه والتتوق في المأكول والمشرب
واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام.

﴿إِنَّمَا لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فإن السرف ييغضه الله، ويضر
بدن الإنسان ومعيشتة، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن
يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة،
الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن
الإسراف فيهما.

(٣٢، ٣٣) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: - منكرا على من
تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه،
والطيبات من الرزق، من مأكول ومشرب بجميع أنواعه، أي:
من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد،
ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا
به على عبادته، فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال:
﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: لا
تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على
معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها
وعلى التمتع بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات،
ويعلمون أنها من عند الله، فيعملونها ويفهمونها.

ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من
الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ أي: الذنوب الكبار
التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا

يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون
ولا غيره ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأي افتراء أعظم من
هذا.

ثم ذكر ما يأمر به فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل
في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور.

﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجهوا لله،
 واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصا «الصلاة» أقيموها
ظاهرا وباطنا، ونقوها من كل نقص ومفسد ﴿وَادْعُوا تَخْلُصِينَ
لَهُ الدِّينَ﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له.

والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا
ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم، سوى عبودية الله
ورضاه.

﴿كَأَ بَدَأْكُمْ﴾ أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ للبعث، فالقادر على بدء
خلقكم، قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداءة.

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى﴾ الله، أي: وفقهم للهداية، وسر
لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
الضَّلَالَةُ﴾ أي: وجبت عليهم الضلالة، بما تسببوا لأنفسهم،
وعملوا بأسباب الغواية.

ف ﴿إِنَّهُمْ أَغْوُوا الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ
الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾.

فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية
الشیطان، حصل لهم النصب الوافر من الخذلان، ووكلوا
إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران. وهم يحسبون أنهم
مهتدون، لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقا،
والحق باطلا.

وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة
للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما
تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل
والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومنه، وأن
الضلالة بخذلانه للعبد، إذ تولى - بجهله وظلمه - الشيطان،
وتسبب لنفسه بالضلال. وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال،
أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانته من
ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

(٣١) ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على نبي
آدم لباسا يوارى سواهم وريشا -: ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ
كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، وفرضها
ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحا

للعذاب المهين الدائم.

(٣٨) فقالت لهم الملائكة: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: في جملة أمة. ﴿فَدَخَلَتْ مِنْ قَلْبِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِنْسِ﴾ أي: مضوا على ما مضيت عليه، من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والوبار.

كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لَعَنَتْ أَخْنَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ يَبْعَثُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء، والمقلدين الأتباع. ﴿قَالَتْ أَخْرَبَهُمْ﴾ أي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء ﴿وَأَوْلَهُمْ﴾ أي: لرؤسائهم، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: عذبهم عذابا مضاعفا لأنهم أضلونا، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

(٣٩) ﴿وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأَخْرَبَهُمْ﴾ أي: الرؤساء، قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: قد اشتركنا جميعا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأئى فضل لكم علينا؟ ﴿قَالَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْكُمْ ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب.

﴿فَدَوُّوا أَلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال، أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، فهذه الآيات ونحوها، دللت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله، مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافتراءهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

(٤٠، ٤١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. وكذلك نجزي الظالمين. يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته، فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها. كما لم تصعد في الدنيا إلى

الْمُلْكُ

١٥٥

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ فَدَخَلَتْ مِنْ قَلْبِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادْرَأَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَبَهُمْ لَا وَلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأَخْرَبَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَدَوُّوا أَلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا أَوْ لَيْتَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ فَجَرَّ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رُشِمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزء من جنس العمل.

ومفهوم الآية، أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله، المصدقين بآياته، تفتح لها أبواب السماء، حتى تخرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبتهج بالقرب من ربها، والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسما، في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال.

أي فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله، محال دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾، وقال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي

وخيرات ليس لها حد محدود.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ﴾ لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به ﴿قَالُوا لَنَحْمِذُ لَكَ الَّذِي هَدَيْتَنَا لِهَذَا﴾ بأن من علينا، وأوحى إلى قلوبنا فأمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعمة الرب الكريم الذي ابتدأنا بالنعمة، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة، ما لا يحصىه المحصون، ولا يعده العادون.

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْكَ أَن هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من بهدائته واتباع رسله. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم، بعد أن كان علم يقين [لهم]، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاؤوا به حق اليقين، لا مزية فيه ولا إشكال ﴿وَوُودُوا﴾ تهنته لهم، وإكراماً، وتحية، واحتراماً ﴿أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

(٤٤، ٤٥) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَبْتَنُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ يقول تعالى - لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل، ونظقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح، الجنة، فأدخلناها، وأرانا ما وصفه لنا ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ قد وجدناه حَقًّا، فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب.

﴿فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ﴾ أي: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال: ﴿أَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى

الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد. (٤٢، ٤٣) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ فِتْنًا أَلَّا وَضَعَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ وَكَانَتْ هَذِهِ حَقًّا قَالُوا الَّذِي هَدَيْتَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْكَ أَن هَدَيْتَنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَوُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر الله تعالى عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات، الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى:

﴿لَا تَكُنْ فِتْنًا أَلَّا وَضَعَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ وَكَانَتْ هَذِهِ حَقًّا قَالُوا الَّذِي هَدَيْتَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْكَ أَن هَدَيْتَنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَوُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعلها في هذه الحال، أن تقى الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لَا يَكُنْ فِتْنًا أَلَّا وَضَعَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ وَكَانَتْ هَذِهِ حَقًّا قَالُوا الَّذِي هَدَيْتَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْكَ أَن هَدَيْتَنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَوُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: لا يحولون عنها، ولا ييغون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات، وأصناف المشتريات، ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غَلٍّ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه، على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله، حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة، ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي يفجرونها تفجيراً، حيث شأوا، وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات، أنهار تجري في غير أخدود،

سورة الأعراف

١٥٦

سورة الأعراف

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّ مُؤَذِّنًا يَنبَغُهُمْ أَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَنُؤَدِّيَنَّهُمْ وَلَهُمْ حُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصُرُهُمْ فَلَقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا لَئِنْ أَفَاضَ اللَّهُ بِكُمْ مَاءً لَكُنْتُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

استبصاركم على الحق، وعلى من جاء به، وعلى من اتبعه. ثم أشاروا لهم، إلى أناس من أهل الجنة، كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ احتقاراً لهم، وازدراء، وإعجاباً بأنفسكم، قد حشمت في أيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب. ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء، إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، بل آمنون مطمئنون، فرحون بكل خير.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَبُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴿إلى أن قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ على الْأَرَاكِ يَطْرُون﴾ واختلف أهل العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

الظَّالِمِينَ ﴿إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلمًا، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصدوا غيرهم، فضلوا وأضلوا.

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين إليه، ﴿و﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عِوَجًا﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾.

وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب، ورجائهم للثواب. ومفهوم هذا النداء، أن رحمة الله على المؤمنين، وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

(٤٦-٤٩) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَنُؤَدِّيَنَّهُمْ وَلَهُمْ حُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وإذا صُرِفَتْ أَبْصُرُهُمْ فَلَقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿الْأَعْرَافُ﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار، ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: علاماتهم التي بها يعرفون ويميزون. فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يحيونهم، ويسلمون عليهم، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم، إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصُرُهُمْ فَلَقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا منظراً شنيعاً، وهو لا فظيلاً ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. فأهل الجنة [إذا رآهم أهل الأعراف] يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجiron بالله من حالهم، هذا على وجه العموم.

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف، وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رآهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا مغيث ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكاره، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا، فالיום اضمحل، ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك، أي شيء نفعكم

والصحيح في ذلك، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم - برحمته - الجنة، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِإِيمَانِنَا يَجْعَدُونَ ۝ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَا عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَعَلِ لَنَا مِن شُعَاءٍ فَنَسْتَعْمَلُ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، وحين يمسهم الجوع المفرط، والظما الموجه، يستغيثون بهم، فيقولون: ﴿افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

﴿لَهُوَ وَلَعِبًا﴾ أي: لهدى قلوبهم، وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخرًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم.

﴿وَعَرَّتُهُمُ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها وزخرفها، وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها، ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: تركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء.

﴿وَمَا كَانُوا بِإِيمَانِنَا يَجْعَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا، لا عن قصور في آيات الله وبيانه، بل قد ﴿جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَا عَلَىٰ هُدًى﴾ أي بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمر، فجهله بعض الأحوال، فيحكم حكمًا غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِإِيمَانِنَا يَجْعَدُونَ ۝ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَا عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَعَلِ لَنَا مِن شُعَاءٍ فَنَسْتَعْمَلُ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، وحين يمسهم الجوع المفرط، والظما الموجه، يستغيثون بهم، فيقولون: ﴿افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

﴿لَهُوَ وَلَعِبًا﴾ أي: لهدى قلوبهم، وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخرًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم.

﴿وَعَرَّتُهُمُ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها وزخرفها، وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها، ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: تركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء.

﴿وَمَا كَانُوا بِإِيمَانِنَا يَجْعَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا، لا عن قصور في آيات الله وبيانه، بل قد ﴿جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَا عَلَىٰ هُدًى﴾ أي بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمر، فجهله بعض الأحوال، فيحكم حكمًا غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغنى والرشد، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا انقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة، إلا استحقاقهم أن يحل بهم، ما أخبر به القرآن.

ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ۝

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم، مقرين بما أخبرت به الرسل: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَعَلِ لَنَا مِن شُعَاءٍ فَنَسْتَعْمَلُ لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا. ﴿فَمَا نَنفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم، كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلوكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث، أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا، مما تمنى أنفسهم به، ويعددهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ السَّمَاءُ بِطَبَقٍ حَبِيبٍ وَالسَّمَاءُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى مبيِّنًا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما، على عظمهما وسعتهما، وإحكامهما وإتقانها، وبديع خلقهما.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاها، وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿اسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم، الذي يسع السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يُغْشَى السَّمَاءُ بِطَبَقٍ حَبِيبٍ﴾ المضىء، فيظلم

الْمُحْسِنِينَ

١٥٧

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٨﴾ أَدْعَاؤُكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٩﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَنَاسِكِ اللَّهِ إِذَا أُنْفِثَتْ سَحَابًا فَيُقَا لَاسْقِنَهُ لِيُزِيلَ مَتَنَ الْبُيُوتِ فَانْزِلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرِجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦١﴾

إِصْلَاحِهَا ﴿٥٨﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ﴿٥٨﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، طمعًا في قبولها، وخوفًا من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه، قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلًا، ولا آمنًا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحسانًا، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبًا منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب، الذي حصل لهم في النهار.

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل، وهكذا أبدًا على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي بتسخيره وتدبيره، الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته، وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تبغي العبادة إلا له.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها، وأوصافها، وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوت.

فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: عظم وتعالى، وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه، لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل، والبر الكثير، فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولما ذكر من عظمته وجلاله، ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده، المعبود المقصود في الحوائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

(٥٦، ٥٥) ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾.

الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: إلحاحًا في المسألة، ودؤوبًا في العبادة ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: لا جهرًا وعلانية يخاف منها الرباء، بل خفية وإخلاصًا لله تعالى.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء: كون العبد يسأل الله مسائل، لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ

سورة الأعراف

١٥٨

سورة الأعراف

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِيَنَّ رِبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يُخْرِجُ
إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَنْذِرُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَتَقَوْمِ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
رُسُلَنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ
هُودًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ
لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

(٥٨، ٥٧) ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ يَلِكُ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ وَيَأْتِيَنَّ رِبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ بين تعالى أثرًا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: الرياح المشرات بالغيث التي تنيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله.

﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، وألقحه ريح أخرى ﴿سُقْنَهُ يَلِكُ مَيْتٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله. ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب، وسخر الله له ريحًا تدره، وتفرقه بإذن الله. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعدما كانوا رفاتًا متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادًا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكر في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.

ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر فقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يَخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾ الذي هو مستعد له ﴿يَأْتِيَنَّ رِبِّهِ﴾ أي: بإرادة الله ومشيته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك.

﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾ من الأراضي ﴿لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلا نباتًا خاسًا لا نفع فيه ولا بركة.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: تنوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال، ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاقرار بنعمه، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله، فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام، والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم. وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث

مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتعلمه، وتثبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلًا قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالقطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ الآيات.

(٥٩-٦٤) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ إلى آخر القصة (١). لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عانداهم ولم يتقدم لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد، ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين -:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان، ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾

﴿أَوْ عَجِمْ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعّلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهرًا وباطنًا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة.

فلم يفد فيهم، ولا نجح ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَعْيَبْنَاهُ﴾ والذين معهم في الفلك ﴿أَي: السفينة التي أمر الله نوحًا عليه الصلاة والسلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين، وأهله، ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها.

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولو الأبواب، فسخروا منه، واستهزؤوا به، وكفروا.

(٧٢-٦٥) ﴿وَإِلَّا عَادُوا لَحُمُوا هُمًّا﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادَ﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿لَحُمًا﴾ في النسب ﴿هُمًّا﴾ عليه السلام، يدعوههم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض.

ف ﴿قَالَ لَهُمْ: ﴿يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سخطه وعذابه، إن أقمت على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

ف ﴿قَالَ أَلَمْ أَكُنْ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين.

وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحكم عماهم، حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقًا، الكاذبون.

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقاله لكل شيطان مرید، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من لا يغني عنه شيئًا من الأشجار والأحجار؟.

(١) في ب، كتب الآيات كاملة.

أي: وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿قَالَ أَلَمْ أَكُنْ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال. ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالًا مبينًا واضحًا لكل أحد.

وهذا من أعظم أنواع المكابرة التي لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام، قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئًا، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات.

فلولا أن لهم أذهانًا تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم ردًا لطيفًا، وترقق لهم، لعلمهم ينقادون له، فقال:

﴿يَتَقَوُّوا لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾ أي: لست ضالًا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه، أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها، وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً، تأمرهم بالأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها.

ولهذا قال: ﴿أَتُنْفِئُكُمْ رِسَالَتِي رَفِي وَأَصْحُ لَكُمْ﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيد، وأوامره، ونواهيه، على وجه النصيحة لكم، والشفقة عليكم.

﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتتقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

وأي كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى؟

﴿قَالَ يَقُولُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْلُغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ.

فالواجب عليكم أن تلتقوا ذلك بالقبول والانقياد، وطاعة رب العباد.

﴿أَوْ يَحْتَسِبُ أَن جَاءَهُ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنذِرُكُمْ﴾ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واحمدوا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم.

﴿وَإِذْ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، الَّتِي خَصَّكُمْ بِهَا، وَهِيَ أَن زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَشَاطَةً﴾ في القوة، وكبر الأجسام، وشدة البطش ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه الواسعة، وأياديه المتكررة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها، وأداء حقها ﴿تَقْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب، فوعظهم، وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا، ولا استجابوا.

ف ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من دعوته، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿أَحْسَبْنَا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فيحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات، وأكمل الأمور من الأمور التي لا يعارضون بها، ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون، من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل، من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم، وقالوا: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا مَعِدَانَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم.

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَیٌّ﴾ أي: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحان وقت الهلاك.

سورة الأعراف

١٥٩

سورة الأعراف

أَيْلُغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٥﴾ أَوْ يَحْتَسِبُ أَن جَاءَهُ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنذِرُكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَشَاطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُقْلِحُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا أَحْسَبْنَا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّمَا نَعْبُدُ مَا نَكُنُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَیٌّ أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٦٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْيَوْمِ ﴿٧٠﴾

﴿أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: كيف تجادلون على أمور، لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتوها آلهة، وهي لا شيء من الإلهية فيها، ولا مثقال ذرة و﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطاناً.

فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه.

﴿فَانظُرُوا﴾ ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وفرق بين الانتظرين، انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والثواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين.

فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: هوداً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معهم ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم

﴿وَنَجِّنُوا الْجِبَالَ بَيُوتًا﴾ كما هو مشاهد إلى الآن، من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أحلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء والأشراف، الذين تكبروا عن الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمَلُوكَ أَنْ صَلَحَ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟.

فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا يَمَآ أَزْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من توحيد الله، والخبر عنه، وأمره ونهيه.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ حملهم الكبر أن لا يتقادوا للحق الذي انقاده الضعفاء.

﴿فَقَرُّوا النَّاقَةَ﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء، أن يصيبهم عذاب أليم، ﴿وَكَبَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد، لا جرم، أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم.

﴿وَقَالُوا﴾ مع هذه الأفعال متجرين على الله، معجزين له، غير مباليين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يَصْلُحُ أَتَيْنَا يَمَآ نَعِدُنَا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب ﴿وَقَالَ﴾ مخاطباً لهم، توبيخاً وعتاباً، بعدما أهلكهم الله: ﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به، وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم، والدين القويم ﴿وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة، أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على

الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج، فلم يتقادوا لها، وأمروا بالإيمان، فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي، والفضيحة.

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِقَنَّةٍ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِغَادٍ قَوْمٍ هُوَ﴾.

وقال هنا: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَائِلَتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعداء، ونعتهم الكبر والفساد.

(٧٩-٧٣) ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إلى آخر قصتهم^(١). أي: ﴿وَو﴾ أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز، وجزيرة العرب.

أرسل الله إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماوية، لا يقدر الناس عليها، ثم فسرنا بقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشریف، لكم فيها آية عظيمة.

وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿هَآ شَرِبْتُ وَلَكُم شَرِبْتُ يَوْمَ نَعْلُومٍ﴾ وكان عندهم بشر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناولونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها، ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها، وتصدر الناقة عنهم.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ﴾ أي: يعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ كَرُّوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض تمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿مِّنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون.

﴿تَتَخِدُّونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة

(١) في ب، كتب الآيات كاملة.

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتُنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَفْسُخُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَقَبُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَقْنَابُ مَا تَعْدَنَّا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٨٠﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٢﴾

النِّسَاءُ: أي: كيف تذكرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محلٌ تخرج منه الأثتان والأخبث، التي يستحي من ذكرها فضلًا عن ملاستها وقربها.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه.

﴿وَمَا كُنَّا جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ أي: يتزهون عن فعل الفاحشة ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الباقين المعذنين، أمره الله أن يسري بأهله ليلاً، فإن العذاب مصبح قومه، فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: حجارة حارة شديدة من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصلاً حين عقروها، رعى ثلاث رغيات، وانفلق له الجبل، ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى، ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحاً قال لهم: ﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا.

وأى لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوعدت يوماً فيوماً، على وجه يعمهم ويشملهم [احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب] (١).

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟ فالقرآن، فيه الكفاية والهداية، عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ، مما لا يناقض كتاب الله، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

(٨٠-٨٤) ﴿وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر القصة (٢). أي: ﴿و﴾ اذكر عبادنا ﴿لَوْ طَافَ﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه، يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بينا بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٥﴾ الهلاك والخزي الدائم.

(٨٥-٩٣) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ إلى آخر القصة (١) أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدينة ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد، من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ للناس ﴿يُكَلِّ صِرَاطٌ﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و﴿تُوعِدُونَ﴾ من سلوكها و﴿وَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أراد الاهتداء به و﴿تَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم.

وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته، ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لصيرتها، والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله، ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَّكَرَكُمُ﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات، والنسل، والصحة وأنه ما ابتلاكُم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراج الأرزاق، وكثرة النسل.

﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنكم لا تجدون في مجموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات، ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا﴾ وهم الجمهور منهم ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وهم الأشراف، والكبراء منهم، الذين اتبعوا أهواءهم، ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق، ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه، واستكبروا عنه، فقالوا لنبههم شعيب، ومن معه من المؤمنين

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْظُرُونَ ﴿٨٦﴾ فَأَجْبَنَتْهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرَكَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَ تَكْذِيبُكُمْ بِئْسَتْ مِّن رَّبِّكُمْ فَاوْفُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ. وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٠﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٩١﴾

المستضعفين: ﴿لَخُرَجَاكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتُؤَدِّيَنَّ فِي يَلِينًا﴾ استعملوا قوتهم السبعية في مقابلة الحق، ولم يراعوا دينًا، ولا ذمة، ولا حقًا، وإنما راعوا، واتبعوا أهواءهم، وعقولهم السفهية التي دلهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعًا في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعده إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قَالَ» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبًا من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ أي: أننا نبعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا بطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها؟

﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عَذَابًا فِي يَدَيْكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٦٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ (٨٨) ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ (٩٠) ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ (٩١) ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ﴾ (٩٢) ﴿فَنَوَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَكِي مَنِاسِكِي وَرَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة، في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ أي: صرعى ميتين، هامدين.

قال تعالى ناعياً حالهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفتيوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب، فقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ أي: الخسار محصور فيهم؛ لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ

مِنَهَا﴾ أي: اشهدوا علينا، أننا إن عدنا إليها بعدما نجانا الله منها، وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكاً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن هذا من المحال، فأيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها، مبغضون لما هم عليه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه، فإنهم كاذبون. ومنها: اعترافهم بمئة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى، والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال.

وحيث إن الله من عليهم يقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله، وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب، وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ وفتحته تعالى لعباده نوعان:

فتح العلم بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين.

فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ محذرين عن اتباع شعيب:

إِذَا لَخِيسِرُونَ ﴿٩٤﴾

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: ﴿يَقُولُ لَقَدْ أَتَيْنُكُمْ بِرِسَالَتِي بَيِّنَاتٍ مِّنْ أَنَا وَإِلَيْكُم مَّا تَكْفُرُونَ﴾ أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا نصحي ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

﴿فَكَيْفَ ءَاتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم؟ أتاهم الخير فردوه، ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحققهم، فعياًذا بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة تبرا منهم أنصح الخلق لهم؟

(٩٤، ٩٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاوِ وَالْأَفْرَاسِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ثم بدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَمَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّةُ وَالْأَسْرَةُ فَآخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له، إلا ابتلاهم الله ﴿وَالْأَسَاوِ وَالْأَفْرَاسِ﴾ أي: بالفقر، والمرض، وأنواع البلايا.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إذا أصابتهُم، أخضعت نفوسهم فضرعوا إلى الله، واستكانوا للحق.

﴿ثُمَّ﴾ إذا لم ينفذ فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فَأَذَرْنَا عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء.

﴿حَتَّىٰ عَمَّوْا﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّةُ وَالْأَسْرَةُ﴾ أي: هذه عادة جارية، لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات الزمان، وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والتكبير.

حتى إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا أسرها كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لم يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما أتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا متقلبين عنه.

(٩٦-٩٩) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٦٣

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءَ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ قُرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَاهُمْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يَكْسِبُونَ ○ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ○ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ○ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأثبت لهم من الأرض ما به يعيشون، وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش، وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلايا، ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو واخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي: المكذبة، بقرينة السياق ﴿أَن

المكذبين رسلهم، تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبيانات المبينات للحق، بياناً كاملاً، ولكنهم لم يفهم هذا، ولا أغنى عنهم شيئاً.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، وردهم الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ عقوبة منه، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلّموا أنفسهم.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام، لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على ألسنة رسله.

﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

(١٠٣-١٧٠) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إلى آخر قصته^(٢)، أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبارة، وهم فرعون وملؤه، من أشrafهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن لم يتقادوا لحقها، الذي من لم ينقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها.

﴿فَظَنَّرَ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بشس الرفد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ﴿يَتَّبِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربّي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية؛ التي من جملتها أنه

يَأْتِيهِمْ بِأَسَاسٍ أي: عذابنا الشديد ﴿يَنبَأُ وَهُمْ بِآيَمُونُ﴾ أي: في غفلتهم، وغرتهم، وراحتهم.

﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا شَئِي وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك؟!

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين ﴿فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإن من آمن من عذاب الله، فهو^(١) لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسول حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً، على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجلّلاً أن يتلى بلبلة تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

(١٠٠-١٠٢) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يَأْتِيكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ○ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين^(٢) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أولم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟

أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: إذا نههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم، ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

﴿يَأْتِيكَ الْقُرَىٰ﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: ولقد جاءت هؤلاء

(١) في ب: فإنه. (٢) في هامش ب في بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين. (٣) في ب: أورد الآيات كاملة.

سورة الأعراف

١٦٤

سورة الأعراف

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بَيِّنَةً مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ
جِئْتَ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْفَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
لِلنَّظِيرِ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوا أَنِجْهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ
بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ
تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا
أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَ وَبِسَحَرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغُلِبُوا
هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ

غلبوا ف ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ؟.

ف ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قَالُوا﴾ على وجه التالي وعدم المبالاة، بما جاء به موسى: ﴿يَكُومُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾ ما معك ﴿وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾. ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَلْقُوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم، وما مع موسى.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيتهم، إذا هي من سحرهم، كأنها حيات تسعى، ف ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجد له نظير من السحر. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فآلقاها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

(١) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله، ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر.

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم بينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل، الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: ﴿فَأَلْفَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حية ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان، دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ماهر في سحره.

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام، وسفهاء العقول، بأنه ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: يريد أن يجليكم^(١) عن أوطانكم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به، إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحيثئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون:

﴿أَنِجْهُ وَأَخَاهُ﴾ أي احبسهما، وأمهلهما، وابعث في المدائن أناساً يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ حُشًى﴾ فتوكل فرعون فجمع كيدهم ثم أتى.

وقال هنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن

رَبَّنَا مُقْلُونَ ﴿١﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فإله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا، وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إِلَّا أَنْتَ أَمَرْنَا [يَا أَيُّهَا] رَبَّنَا [لَمَّا جَاءَتْنَا]﴾ (١) فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا يَعَابُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَحِقُّ صَاحِبَهُ الْعُقُوبَةَ، فَهُوَ ذَنْبُنَا.

ثم دعوا الله أن يشتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أي: أفض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: عظيمًا، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير.

﴿وَنُؤَفِّقْ مُسْلِمِينَ﴾ أي: متقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا، وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلمًا وعلوًا، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أَنْذَرْتُ مُوسَى وَفُؤْمُوهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾ أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبًا لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى، بحالة لا ينمون فيها، ويأمن (٢) فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: نستبقيهن فلا نقتلن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

فـ ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ موصيًا لهم في هذه الحالة، التي لا يقدرון معها على شيء، ولا مقاومة بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيتم أمركم ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج.

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: أمنا برينا. (٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

﴿فَوَقَّعَ الْحَقُّ﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ففعلوا هنالك ﴿أي في ذلك المقام﴾ ﴿وَأَنقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ أي: حقيرين، قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر الذين يعرفون من أنواع السحر وجزيئاته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يدان لأحد بها.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ قَالُوا أَمَّا رَبِّي فَأَعْبُدْ رَبِّي مُوسَى وَهَارُونَ ﴿أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ متهددًا على الإيمان: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَّا لَكُمْ﴾ كان الخبيث حاكمًا مستبدًا على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه.

وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَأَسْخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وقال هنا: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَّا لَكُمْ﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجروء عليّ، ثم موه على قومه وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ مَكْرَهُوا فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر، فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو، ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية الهيّة، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أحل بكم من العقوبة.

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِي﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿ثُمَّ لَأَصْلَحَنَّكُمْ﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّا إِلَى

سورة الأعراف

١٦٥

سورة الأعراف

قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ
 فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ
 فِي الْمَدِينَةِ لَخُجْرُومِهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٨﴾ لَا قُطْعَنَ
 أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَا صَلَبَتُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٩﴾
 قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَا نَقِمُّ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا
 بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ رَبَّنَا أَفَرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ
 ﴿١٧١﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيَفْسِدُوا
 فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُوكَ وَالْهَتَاكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي
 نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧٢﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
 اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٣﴾ قَالُوا أُوذِينَا
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ
 أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
 بِالْأَسِنَّةِ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٧٥﴾

سواء نزلت عليهم الآيات، أم لم تنزل.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق
 أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأكل
 ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم، ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ قيل: إنه الدباء،
 أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف،
 ﴿وَالصَّفَاةَ﴾ فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وأذتهم أذية شديدة
 ﴿وَالدَّمَ﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من
 المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا
 يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿وَإِلَى مُقْسَلٍ﴾ أي: أدلة وبيانات على أنهم كانوا كاذبين
 ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق.

﴿فَأَسْكَنُوا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وَكَانُوا﴾ في سابق أمرهم
 ﴿قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على
 الغي والضلال.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: العذاب، يختمل أن المراد

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه، حتى
 يتحكموا فيها، ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يداولها
 بين الناس، على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة
 للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة - فإن
 النصر لهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة لهم على قومهم.

وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة أن يفعل من الأسباب
 الدافعة عنه أدى الغير ما يقدر عليه، وعند العجز أن يصبر
 ويستعين بالله، وينتظر الفرج.

﴿قَالُوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب
 فرعون، وأذيتة: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ فإنهم يسومونا
 سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا
 جِئْتَنَا﴾ كذلك.

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم موسى، مرجحاً [لهم] ^(١) الفرج والخلاص
 من شرهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي
 الْأَرْضِ﴾ أي: يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فَيَنْظُرَ
 كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه
 الله لما جاء الوقت الذي أرادته الله.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْأَسِنَّةِ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ
 لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون
 في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وستته في الأمم، أن
 يأخذهم بالأساء والضراء، لعلهم يضرعون، والآيات.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْأَسِنَّةِ﴾ أي: بالدهور والجذب
 ﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يتعظون أن ما حل
 بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم،
 فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ أي: الخصب وإدراك الرزق ﴿قَالُوا
 لَنَا هَذِهِ﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها
 ﴿وَإِنْ نُصِيبْهُمْ سَيْئَةً﴾ أي: قحط وجذب ﴿يَقُولُوا يَمُوسَى وَمَنْ
 مَعَهُ﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع
 بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ظَلَمْنَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه
 وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في
 ذلك، بل ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وَقَالُوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن
 باطلهم: ﴿مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُحَرِّثَهَا بِهَا قَمَاعًا عَنْكَ يَوْمَئِذٍ﴾
 أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بأية جزمت أنها
 سحر، فلا نؤمن لك، ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من
 العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات،

سورة الأعراف

١٦٦

سورة الأعراف

فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّنَسْحَرَنَ بِهَا فَمَا نَعْنِ لَكَ يَٰمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ ۖ يَمَاعِهَدْ عِنْدَكَ لِّئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٧٠﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٧١﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا ۚ الَّذِينَ بَسَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ لَكُمُ رِبْكُ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ۚ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧٢﴾

الهائلة، والمساكن المزخرفة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ حَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَحَوْرَانَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿فَاتُوا﴾ أي: مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ عَلَىٰ أَصْنَائِهِمْ﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها.

﴿فَقَالُوا﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم: ﴿يَٰمُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمُ الْإِلَٰهُ﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة، كما اتخذها هؤلاء.

﴿فَقَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّجْهُولُونَ﴾ وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخالفه وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا؟.

ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَغُلُّوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها،

به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده، من الوحي والشرع ﴿لِّئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا أنه إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِ﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعده بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به، ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيبغيهم هو وجنوده.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرِينَ﴾ يجمعون الناس؛ ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرِذْمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآطُونَ ۖ وَإِنَّا لَجَبِيحٌ حَدِيثُونَ ۖ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّتِ وَيُثِيرُونَ ۖ وَكُنُوزَ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ۖ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ۖ فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ۖ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ وَارْتَفَعْنَا نَحْمَ الْآخَرِينَ ۖ وَاتَّبَعْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۖ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۖ﴾.

وقال هنا: ﴿فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدماً لآل فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورشهم الله ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ والمراد بالأرض ههنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين أي: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿وَتَمَّتْ لَكُمُ رِبْكُ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِإِلَٰهِهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من الأبنية

فالعامل باطل، وغايته باطلة.

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَعِيَكُمْ إِلَهًا﴾ أي: أأطلب لكم إلها غير الله المألوه، الكامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؟.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله، وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وآله ﴿يَسْؤُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأ، وهو أنهم كانوا ﴿يَقُولُونَ أَنبَأْهُمْ وَنَسْخَبْهُمْ نِسَاءَهُمْ فِي ذَلِكُمْ﴾ النجاة من عذابهم ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم، انتهوا عن ذلك.

ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، ويتهيأ لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصيا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُقْنِي فِي قَوْمٍ﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أي: اتبع طريق الصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقته له لإنزال الكتاب ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بما كلمه، من وحيه، وأمره، ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه ومودة لرؤيته.

فـ ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال الله ﴿لَنْ تَرِنِيْ﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبثون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة.

فإنه قد دلّت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى.

ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقتعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ إذا تجلّى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرِنِيْ﴾.

وَجَوْرَ نَابِئِيْ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَفَاتِ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرُ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَعِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَنبَأْهُمْ وَنَسْخَبْهُمْ نِسَاءَهُمْ فِي ذَلِكُمْ وَبَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٣١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّقَتِ رَبِّهِ أَزْبَعِيْ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُقْ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِيْ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ الأصم الغليظ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: انهار مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها^(١) ﴿وَخَرَّ مُوسَى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صَعِقًا﴾.

فتبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً و[لذلك]^(٢) ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك.

﴿ثَبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له، مما كان يجمله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال:

﴿يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: اخترتك واجتبتك، وفضلتك، وخصصتك بفضائل عظيمة، ومنافق جليلة، ﴿بِرِسَالَتِي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق. ﴿وَبِكَلِمَتِي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها

(١) كذا في ب، وفي أ: وعدم ثبوت. (٢) زيادة من هامش ب.

الْمُؤْمِنِينَ

١٦٨

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ لِمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي
فَخُذْ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦٨﴾ وَكُتِبْنَا
لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ
شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنَهَا سَاورِيكُمْ
دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٩﴾ سَاصْرِفْ عَنْ عَائِلَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٧٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٧١﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَرِ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٧٢﴾ وَلَمَّا سَقِطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَعِفَّرْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧٣﴾

فلذلك اضمحلت وبطلت.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ صاغة
السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿لَهُ خُورٌ﴾
وصوت فعبده، واتخذوه إلها.

وقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ موسى، وذهب
يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم
رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات؟.

ولهذا قال مبيّنًا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية، ولا
الفعلية، ما يوجب أن يكون إلها، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾
أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا
الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي:
لا يدلهم طريقًا دينيًا، ولا يحصل لهم مصلحة دينية، لأن من
المقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم، ولا ينفع،
ولا يضر، من أبطل الباطل، وأسمج السفه، ولهذا قال:

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة في
غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وفيها دليل
على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله

موسى الكريم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين،
﴿فَخُذْ مَاءً أَتَيْتُكَ﴾ من النعم، وخذ ما أتيتك من الأمر والنهي
بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ﴾ لله على ما خصك وفضلك.

﴿وَكَتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد
و﴿مَوْعِظَةٌ﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من
أفعال الشر، ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام الشرعية،
والعقائد والأخلاق، والآداب.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد واجتهاد على إقامتها، ﴿وَأْمُرْ
قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنَهَا﴾ وهي الأوامر الواجبة، والمستحبة،
فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل
شريعة - كاملة، عادلة، حسنة.

﴿سَاورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم
عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون.

وأما غيرهم، فقال عنهم: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِلَتِي﴾ أي عن
الاعتبار في الآيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب
﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: يتكبرون على
عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه
الصفة حرمة الله خيرًا كثيرًا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما
يتنفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لإعراضهم،
واعتراضهم، ومحادثهم الله ورسوله، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾
أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله،
والإلى دار كرامته.

﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغِيِّ﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء
﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، والسبب في انحرافهم هذا الانحراف
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، فردهم لآيات
الله، وغفلتهم عما يراد بها، واحتقارهم لها - هو الذي
أوجب لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشاد، ما
أوجب.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا
به رسلنا، ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لأنها على غير
أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق
بجزائه.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في بطلان أعمالهم، وحصول ضد
مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَسْمُكُونَ﴾ فإن أعمال من لا يؤمن
باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثوابًا، وليس لها غاية تنتهي إليها،

الْمُؤْمِنِينَ

١٦٩

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي أَعْيَلْتُمُوهُ أَمَرْتُكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجْعُرُهُ ۖ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنْ الَّذِينَ أَخَذُوا
الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي
نُحُوتِهَا هُذًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ
مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِّبْقًا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَتَّبِعُكَ بِمَا فَعَلَ
السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ اشَاءَ وَتَهْدِي
مَنِ اشَاءَ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ كَمَا أَغْضَبُوا رَبَّهُمْ وَاسْتَهَانُوا بِأَمْرِهِ.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فكل مفتر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك. فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى^(١)، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من شرك، وكبائر، وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى، وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا ﴿وَأَمَّنُوا﴾ بالله، وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَغَفُورٌ﴾ يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول التوبة، والتوفيق

(١) في النسخين: قتلى كثيرة.

تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿وَلَمَّا﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بصلاتهم، ندموا و﴿سُيِّطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ فتنصلوا إلى الله وتضرعوا ﴿فَالَوْ لَيْنَ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ فبدلنا عليه، وبرزقنا عبادته، وبوقفنا لصالح الأعمال ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل، ﴿لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: ممثلاً غضباً وغيظاً عليهم، لتنام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكما نصحه وشفقته ﴿قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي: بس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمد.

﴿أَعْيَلْتُمُوهُ أَمَرْتُكُمْ﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب، فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿وَالْقَى الْأَلْوَابَ﴾ أي: رامها من الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته ﴿يَجْعُرُهُ إِلَيْهِ﴾ وقال له: ﴿مَا مَعَكَ إِذْ كُنْتُمْ ضَلُّوا ۚ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَفَعَصَيْتُمْ أَمْرِي﴾ لك بقولي: ﴿أَخْلَفْتَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْتَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ف ﴿قَالَ يَبْنَؤُكُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ و ﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ هذا تريق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي﴾ أي: احتقروني حين قلت لهم: ﴿يَغْفِرُوا إِنَّمَا قُتِلَتْهُ يَدِي وَإِنْ رَزَقْتُكُمْ الرَّحْنَ فَأَلْبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي: فلا تظن بي تقصيراً ﴿فَلَا تَشْمِتْ فِي الْأَعْدَاءِ﴾ بنهرك لي، ومسك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا عليّ عثرة، أو يطلعوا لي على زلة ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فتعاملني معاملة من تعاملهم.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير، و ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾ هارون ﴿وَأَدْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين، من جميع الشرور، وثم كل خير وسرور.

﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا، وأمهاتنا، وأولادنا، وأنفسنا.

قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَجَلَ﴾ أي: إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ

لأفعال الخير وقبولها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ﴿فَإَخَذَ الْأَلْوَاخَ﴾ التي ألفها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة ﴿وَفِي نُحُوتِهَا﴾ أي: مشتملة ومتضمنة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير، وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين [هم] ﴿لِيَرْبِيَهُمْ بِرِهَابٍ﴾ أي: يخافون منه ويخشونه.

وأما من لم يخف الله، ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا عتواً ونفورا، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿وَلَمَّا تَابَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَتَرَاجَعُوا إِلَى رُشْدِهِمْ﴾ اختار موسى ﴿مِنْهُمْ سَعِيدَ رَجُلًا﴾ من خيارهم؛ ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه، فلما حضروا قالوا: يا موسى ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ فتجروأوا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ﴿فَإَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فصعقوا وهلكوا. فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويتبتل، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ﴾ أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين.

﴿أَتَمْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأُسُفْهَاءُ مِنَّا﴾ أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله، واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى، وتفضل.

فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك، والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبه من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذئلك السبيين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

(١٥٦) فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح،

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٧٠

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا نَأْتِيكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ قَالُوا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَعَزُّوهُ وَنَحَرُّوه وَاتَّبَعُوا الشُّورَ الَّتِي آتَتْهُمْ أُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧) ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رُسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ حسنة، وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب.

﴿إِنَّا هَذَا نَأْتِيكَ إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا مقربين بتقصيرنا، منيبين في جميع أمورنا، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ممن كان شقيفاً، متعرضاً لأسبابه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، صغارها، وكبارها.

﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة مستحقها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ احتراز عن

جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ أَي: عربيكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿الَّذِي لَمْ يُلَاقِ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولاً عظيماً يدعوكم إلى الله، وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله ﴿يُخَيِّرُ وَيُيَسِّرُ﴾ أَي: من جملة تدابير: الإحياء والإماتة التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومعبراً يعبر منه إلى دار البقاء التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رُسُولَهُ إِلَهًا﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الَّذِي يُؤْتِي وَيُخَيِّرُ وَيُيَسِّرُ﴾ أَي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده، وأعماله ﴿وَأَتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتُم ضلالاً بعيداً.

(١٥٩) ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ أَي: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أَي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم، وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم بقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَاقِبَتِنَا يُوَفُونَ﴾ وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره.

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معائب بني إسرائيل، المناهية للكمال المناقضة للهداية، وربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

(١٦٠) ﴿وَوَعَدْنَاهُمْ﴾ أَي: قسمناهم ﴿أَثْنَتَيْ عَشَرَ آبَاطًا أُمًّا﴾ أَي: اثنتي عشرة قبيلة، متعارفة، متوالفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَفَهُ قَوْمُهُ﴾ أَي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ماء يشربون منه، وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء.

فأوحى الله لموسى إجابة طلبتهم ﴿أَنِّي أَصْرِبُ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس،

سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ.

والسياق في أحوال بني إسرائيل وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي؛ لأنه من العرب، الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ باسمه وصفته التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه، ونفعه.

﴿وَنَهَيْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه، وأمر به، ونهى عنه، وأحلّه، وحرمه، فإنه ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناحج. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناحج، والأقوال، والأفعال.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه، ولا أغلال، ولا مشقات، ولا تكاليف ثقال.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أَي: عظموه وبجلوه ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات ويقتدى به إذا تعارضت المقالات، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعزره، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧١

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أَمَّا أَوْحِينَآ إِلَى مُوسَى
إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ وَآبِ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ
وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعُزْ
لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٧﴾ فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٨﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٩﴾

كامنًا في نفوسهم.

﴿وَسَأَلَهُمْ﴾ أي: أسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي: على ساحله، في حال تعذيبهم
وعقاب الله إياهم.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن
يعظموه ويحترموا ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله،
وامتنحهم، فكانت الحيتان تأتيتهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾
أي: كثيرة طافية على وجه البحر.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا
تَأْتِيهِمْ﴾ أي: تذهب في البحر، فلا يرون منها شيئًا
﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم، هو الذي
أوجب أن يبتليهم^(١) الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا
فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر،
فتجبلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرة، وينصبون لها
الشباك، فإذا جاء يوم السبت، ووقعت في تلك الحفر

(١) كذا في ب، وفي أ: يبلهم.

يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت من
ذلك الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ جارية سارحة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ أي: قد قسم على كل قبيلة
من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينًا،
فعلموها، واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة،
والمخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم.

﴿وَوَطَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ فكان يستريحهم من حر الشمس
﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو الحلوى ﴿وَالسَّلْوَى﴾ وهو لحم
طير، من أحسن أنواع الطيور، والذها، فجمع الله لهم بين
الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الحلوى واللحوم،
على وجه الراحة والطمأنينة.

وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم
يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فوتوها كل خير،
وعرضوها للشر والنفمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه.

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي:
ادخلوها لتكون وطنًا لكم ومسكنًا، وهي ﴿إيلياء﴾ ﴿وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة
الثمار، رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث
شاؤوا.

﴿وَقُولُوا﴾ حين تدخلون الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: احطط عنا
خطايانا، واعف عنا.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لربكم، مستكينين
لعزته، شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع، وسؤال المغفرة،
ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل،
فقال: ﴿نَفْعُزْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من خير الدنيا
والآخرة، فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي، بل بدَّلَ ﴿الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا، بدل طلب المغفرة، وقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ (حبة
في شعيرة)، وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبدلهم
للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا وهم يزحفون على
أستاههم.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رِجْزًا مِنَ
السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا شديدًا، إما الطاعون وإما غيره، من
العقوبات السماوية.

وما ظلمهم الله بعقابه، وإنما كان ذلك ﴿بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ﴾ أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير
ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان

سورة الأعراف

١٧٢

سورة الأعراف

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخِعْنَا لَ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَإِذَا تَأَذَّتْ قُلُوبُهُمْ لَمَّا وَاعَتْهُمْ قَلْبًا لَهُمْ كُفُّوا قُرَّةَ حُسْنِ
الْوَجْهِ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا عَاوَا مِنْ مَأْشَوَاعِنَهُ فُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قُرَّةَ حُسْنِ
الْوَجْهِ ﴿١٦٨﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوبُهُمْ لَمَّا بَلَغْنَا لَيْلَةَ الْقِيَامَةِ مِنْ
يَوْمِ بُرْهٍ سَاءَ يَوْمُهُمْ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابٍ إِذَا هُمْ فِيهِ لَكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ
الَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابٍ إِذَا هُمْ فِيهِ لَكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٠﴾ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْأُخْرَى
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٢﴾

والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد،
أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:
معظمهم اعتدوا وتجرؤوا، وأعلنوا بذلك.
وفرقة أعلنت بنهيهم، والإنكار عليهم.

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم وقالوا
لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم
يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ
للتصحيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن
يعاقبهم الله، إما بهلاك، أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ﴾، أي:
لنعذر فيهم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا
نيأس من هدايتهم، فربما نجع فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.
وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة،
وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل
بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما ذكروا به،
واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿اتَّخِعْنَا لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وهكذا سنة
الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون
بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوبُهُمْ لَمَّا بَلَغْنَا لَيْلَةَ الْقِيَامَةِ﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت
﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وأما الفرقة
الأخرى التي قالت للناهيين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ
مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فابتدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم
كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد
العقوبة.

فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن
الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به
البعض سقط عن الآخرين، فافتقروا بإنكار أولئك، ولأنهم
أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم
كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد
العقوبة.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَاوَا مِنْ مَأْشَوَاعِنَهُ﴾ أي: فسوا فلم يلينوا،
ولا اعطوا ﴿فُلْنَا لَهُمْ﴾ قولاً قدرياً ﴿كُفُّوا قُرَّةَ حُسْنِ الْوَجْهِ﴾ فانقلبوا
بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة
والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوبُهُمْ﴾ أي:

أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿لَمَّا بَلَغْنَا لَيْلَةَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يهينهم، ويذلهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له
العقوبة في الدنيا ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر
له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه
الطاعات، ويشبه عليها بأنواع المثوبات. وقد فعل الله بهم ما
أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا
تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

(١٦٨) ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: فرقناهم
ومزقناهم في الأرض، بعدما كانوا مجتمعين ﴿مِمَّنْهُمْ
الَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابٍ إِذَا هُمْ فِيهِ لَكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ ورويتهم دون
ذلك. أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون
لأنفسهم ﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ﴾ على عادتنا وسنتنا ﴿بِالْحُسْنِ
وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالعسر واليسر.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى،
يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح،
وطالح، ومقتصد، حتى خلف من بعدهم خلف؛ زاد شرهم

وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم.

(١٧١) ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لَبْلَجًا فَوْقَهُمْ﴾ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة.

فالزمهم الله العمل وتنق فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم ﴿كَانُمْ ظُلَّةً وَظَنُوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ﴾ وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدة واجتهاد.

﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ دراسة ومباحثة، واتصافاً بالعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك.

(١٧٢-١٧٤) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۖ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۖ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَنْبِيَاءَ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون، ويتوالدون قرناً بعد قرن.

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرتهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم، ومليكنهم.

﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد أقرنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير، وتبدل، بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

أي: إنما امتحناكم، حتى أقررتم بما تقرر عندهم، من أن الله تعالى ربكم، خشية أن تكفروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وترغمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندهم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لا هون.

فاليوم قد انقطعت حججكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فقد أودع الله في فطركم ما يدلهم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آبائكم، ويعلو عليه.

﴿وَرِثُوا﴾ بعدهم ﴿الْكِتَابَ﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبدل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سَتَغْفِرَ لَنَا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة، فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشترى آيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جراتهم: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق، اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم.

﴿و﴾ الحال أنهم قد ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَلَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكَل التي تصاب، وتوكل رشوة على الحكم، بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إثارة، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب. وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأنى له العقل والرأي؟

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَسَكَّبُونَ يَالْكَتِبَ﴾ أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم.

ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون، وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم، ونياتهم، ومصالحين لأنفسهم، ولغيرهم.

سورة الأعراف

١٧٣

سورة الأعراف

وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَاءَ آتِنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿١٧٤﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا
فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكُهُ
يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِىٰ وَمَن يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

نفسه، فلهاذا قال تعالى:

﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿وَلَكِنَّهُ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخلد إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فَمَثَلُهُ﴾ في شدة حرصه على الدنيا، وانقطاع قلبه إليها ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكُهُ يَلْهَثُ﴾ أي: لا يزال لاهثًا في كل حال، وهذا لا يزال حريصًا حرصًا قاطعًا قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها، وردوها، لهوانهم على الله، واتباعهم لأهوائهم بغير هدى من الله.

﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ أي: ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي آناه الله آياته،

نعم، قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين، ومذاهبهم الفاسدة، ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبياناته، وآياته الأفقية، والنفسية، فأعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره، وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد والميثاق الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟.

ولهذا لما كان هذا أمرًا واضحًا جليًا، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما أودع الله في فطرتهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

(١٧٥-١٧٨) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٰ وَمَن يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ أي: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير، والحبر النحرير.

﴿فَاقْصُصْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: انسلك من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلك منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه، حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فآزاه إلى المعاصي أژًا ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى

سورة الأعراف

١٧٤

سورة الأعراف

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
 وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٤﴾ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٥﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِهَا الْقَوْمُ وَلَٰكِنْ قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَغْثَةُ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٦﴾

بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنی، أي: له كل اسم حسن، وضابطه أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً، لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة، واسعة لكل شيء.

و«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء،

يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيهاً للعباد، ويحتمل أن المراد به بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته، فانسلك منها.

وفي هذه الآيات الترويح في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخذلان.

ثم قال تعالى - مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال -: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَكْرُوهَاتٍ﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ﴾ حقاً لأنه أثر هدايته تعالى ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ خَيْرٌ﴾ لأنهم هم الخسرون ﴿لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالين، المتبعين إبليس اللعين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: أنشأنا وبثنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: البهائم التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسلوا خاصية العقل.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله، وطاعته، وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبه

ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَرَزَّوْا الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي أَسْمِهِمْ سَيِّجَرُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له. إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألّتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى، ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها. فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أن الله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

(١٨١) وقوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة، كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق، ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم، إذا حكموا في الأموال، والدماء، والحقوق، والمقالات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله، وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١٨٦-١٨٢) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ○ أُولَئِكَ يَنْفَكُّوْا مَا بَصَّاحِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ○ أُولَئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ○ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ○ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادِيٍّ لَمْ يَدْرَهُمْ فِي طُعْنِهِمْ يَعْهَوْنَ﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم، حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون، ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشرّاً إلى شرهم. وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث

لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي بليغ. ﴿أُولَئِكَ يَنْفَكُّوْا مَا بَصَّاحِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي: أو لم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فليظنوا في أخلاقه وهديه، ودلّه وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعوا إلا لكل خير، ولا ينهوا إلا عن كل شر.

أفبهذا يا أولي الألباب من جنّه؟ أم هو الإمام العظيم، والناصح المبين، والماجد الكريم، والرووف الرحيم؟.

ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب. ﴿أُولَئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدلّ أعظم دلالة على علم الله وقدرته، وحكمته، وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفردّه بالخلق، والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسيح الموحد المحبوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت، وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذٍ من استدراك الفارط.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟ أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟.

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادِيٍّ لَمْ يَدْرَهُمْ فِي طُعْنِهِمْ يَعْهَوْنَ﴾ أي: متحيرين^(١) يترددون، لا يخرجون منه، ولا يهتدون إلى حق.

(١٨٧، ١٨٨) ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهُا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَلُثَ فِي السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يُسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ

(١) في ب: يتحIRON ويترددون.

الموصلة إليه، والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك، ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمة مبنية جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع، أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر، عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به، من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان، بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبيّنه لهم غاية البيان والإيضاح.

(١٨٩-١٩٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ خَفِيًّا فَهَمَزَتْ بِهِ فَلَمَّا أَفْلَتْكَ دَعَاُ اللَّهِ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَلَاحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ○ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمَا صَلَاحًا فَجَلَا لَمْ شَرَكَا فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا فَعَلَّكَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ○ أَبَشَّرَكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْفُونَ ○ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصُدُّونَ ○ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ﴾ أي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم. ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة، ما يقتضي سكن أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزم الشهوة.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي تجللتها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة، وذلك الجماع النسل، [وحينئذ^(١) ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يتقلاها.

﴿فَلَمَّا﴾ استمرت به و ﴿أَفْلَتْكَ﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حيّاً صحيحاً سالمًا لا آفة فيه. [كذلك]^(٢) فدعوا ﴿اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَلَاحًا﴾ أي: صالح الخلقة تامها، لا نقص فيه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمَا صَلَاحًا﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿فَجَلَا لَمْ شَرَكَا فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا﴾ أي: جعل الله شركاء في ذلك الولد، الذي انفرد الله بإيجاده، والنعمة به، وأقرّ به أعين والديه، فعبداه لغير الله.

كُنْتُ أَتْلُمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ الشَّوْءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُوكَ﴾ أي: المكذوبون لك، المتعتنون ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: إنه تعالى مخص بعلمها ﴿لَا يَحِلُّهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿فَلَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يَسْأَلُوكَ كَأَنكَ حَافِيٌ عَنْهَا﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة، المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته، وسعة علمه.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم، ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَتْلُمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ الشَّوْءُ﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكره، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تقضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أنني لا أعلم لي بالغيب.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر العقوبات الدنيوية والدينية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها. ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالشواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال

(١) زيادة من هامش ب، وفي أ: فحملت. (٢) زيادة من هامش ب.

إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبد الحارث» و«عبد العزيز»^(١) و«عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما من الله عليهما بما من من النعم التي لا يحصيه أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرًا، فلذلك قرههم الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجًا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة، ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه، ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة، والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتًا موقتًا، تشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجهم سويًا صحيحًا، فأتهم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدًا، ويخلصوا له الدين، ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله من لا ﴿يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ولا ﴿يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي: لعابديها ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِوْنَ﴾.

فإذا كانت لا تخلق شيئًا، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن أنفسها، فكيف تتخذ مع الله آلهة؟ إن هذا إلا أظلم الظلم، وأسفه السفه.

وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام التي عبدتم من دون الله ﴿إِلَى الْهَدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَائِرُونَ﴾، فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تهدي ولا تهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورًا مجردًا، جزم بطلان إلهيتها وسفاهة من عبدها.

(١٩٤-١٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿إِنْ وَلِيَ اللَّهُ أَلْوَىٰ نَزَلَ إِلَيْكَ وَهُوَ بِتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ أي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين، في أنها تستحق من العبادة شيئًا ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإن

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَاَمَرَتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لِيْنَ آتَيْنَا صَلَاحًا لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٩٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَلاَحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٠٠﴾ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهَدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَائِرُونَ ﴿٢٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿٢٠٥﴾

استجابوا لكم، وحصلوا مطلوبكم وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفرية.

وهذا لا يحتاج إلى التبيين فيه، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، فهي عادية لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان.

فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتوها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها، وأقوى على كثير من الأشياء، فلا شيء عبدتموها.

﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم، على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إهمال ولا انتظار^(٢)، فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

لأن وليي الله الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار.

(١) في ب: العزى. (٢) كذا في ب، وفي أ: إنظال.

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الذي فيه الهدى، والشفاء، والنور، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم، وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فالْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع، ولا يضر - تولاهم الله، ولطف بهم، وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

(١٩٧، ١٩٨) ﴿وَالَّذِينَ دَعَوْهُ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ وإن دَعَوْهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار، في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها.

فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات، من آدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ وأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها، وتقربوا لها بأنواع العبادات؟.

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسموات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدروا على كيد بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتجى بجلاله، وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَتَرْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله! نظر اعتبار، يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك، وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

(١٩٩) ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبعاتهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز

١٧٦
إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٧﴾
وَالَّذِينَ دَعَوْهُ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٨﴾ وَإِن دَعَوْهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٩﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٠٠﴾ وَإِنَّا نُرْغِزُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ تَائِيًا فَالُؤْلُوا لَا جُنَاحَ عَلَيْهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٥﴾ وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٨﴾

عن تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برٍّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية، أو دنوية.

ولما كان لا بد من أدية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله فمن أذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرملك لا تحرمه، ومن قطعك فصِّلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى:

(٢٠٠-٢٠٢) ﴿وَإِنَّا نُرْغِزُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآنات.

فهذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول، فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. وإلا فمن آمن، فهو ﴿هُدًى﴾ له من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة. (٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُريءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين، حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

(٢٠٥، ٢٠٦) ﴿وَأَذْكُرْ نَكَاتِكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلًا، وغيره تبعًا، بذكر ربه في نفسه أي: مخلصًا خاليًا.

﴿تَضَرَّعًا﴾ أي: متضرعًا بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفًا من الله، وجل القلب منه خوفًا أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: كن متوسطًا، لا تجهر

إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ○ إِنَّكَ أَلَمَّا أَتَيْتَ أَتَقَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ○ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ.

أي: أي وقت، وفي أي حال ﴿يَزَعَجْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ﴾ أي: تحس منه بوسوسة، وتثبیط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول.

﴿عَلِيمٌ﴾ ببيتك وضعفك، وقوة التجانك له، فسيحملك من قنطته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْآتِيسِ﴾ إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطًا، ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسّه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أتى، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيّرًا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين، وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنبًا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك. فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القيادة لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا جِئْتَنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أُنْتَبِخْتُ مِّن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد. فإذا جنتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك، لم ينفادوا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ﴾ من آيات الاقتراح، التي يعينونها ﴿قَالُوا لَوْلَا جِئْتَنَاهَا﴾ أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدير لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْتَبِخْتُ مِّن رَّبِّي﴾ فإنا عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على

المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟.

﴿قُلْ لَهُمُ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ يُضَاعَفَانِ حَيْثُ شَاءَ، فَلَا اعْتِرَاضَ لَكُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بَلْ عَلَيْكُمْ إِذَا حُكِمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَنْ تَرْضَوْا بِحُكْمِهِمَا، وَتَسْلَمُوا الْأَمْرَ لَهُمَا، وَذَلِكَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن، والتقاطع، والتدابير، بالتوادد، والتحاب، والتواصل، فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء، والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله، فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته الله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه. ولما كان الإيمان قسامين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك، ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وَإِذَا ثَلِثَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرهم قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم، في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم الدينية، والدنيوية، ويشقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل

بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴿وَالْفُدُوءُ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالُ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة، في الاشتغال به.

وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذلاً، ساكناً وتواطئاً عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه، وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عبداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تربحوا عليه أضعافاً مضاعفات ما عملتم، فقال:

﴿إِذَا الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين، وحملة العرش والكرسيين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ بل يدعون لها، وينقادون لأوامر ربهم ﴿وَيَسْبُحُونَ﴾ الليل والنهار، لا يفترون. ﴿وَلَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف، والله الحمد والشكر والثناء، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا ثَلِثَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الأنفال: هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة، من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها

الْمُؤْمِنِينَ

١٧٨

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ
مِّنَ الْمَلَكِيَّةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَ لَهُمُ
كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تَوَلَّوْهُمْ إِلَّا ذُبَارٌ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبْرَهُمْ لَا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من
الحدث والخبث، وليطهركم من وساوس الشيطان ورجزه.
﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يثبتها، فإن ثبات القلب أصل
ثبات البدن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ فإن الأرض كانت سهلة
دهسة فلما نزل عليها المطر، تلبدت، وثبتت به الأقدام.
ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون
والنصر والتأييد.

﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهمهم
الجراءة على عدوهم، ورغوبهم في الجهاد وفضله.
﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الذي هو أعظم
جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين، وألقى الرعب في
قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم
الله أكتافهم.

﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الرقاب ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: مفصل.

وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يشتوا
الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر،

يعتقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم
قريش، فخرجوا لمنع غيرهم، في عدد كثير وعدوة وافرة من
السلاح، والخيول والرجال، يبلغ عددهم قريبا من الألف.
فوعده الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالغير،
أو بالنفير، فأحبوا الغير لقلّة ذات يد المسلمين، ولأنها غير
ذات الشوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم، وأراد أمرا أعلى
مما أحبوا.

أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين
وصناديدهم ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ فينصر أهله
﴿وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يستأصل أهل الباطل، ويرى عباده
من نصره للحق أمرا لم يكن يخطر ببالهم.

﴿لِيُحَيِّقَ الْحَقَّ﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته
وصدقه، ﴿وَيُبَيِّلَ الْبَاطِلَ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على
بطلانه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فلا يبالي الله بهم.

(٩-١٤) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ
بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكِيَّةِ مُرَدِّفِينَ﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾
يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ
وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
الْأَقْدَامَ ﴿١٠﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ
وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ
يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣﴾ أَي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما
قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبت منه أن
يعينكم وينصركم ﴿فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ وأعانكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم ﴿بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكِيَّةِ مُرَدِّفِينَ﴾ أي:
يردف بعضهم بعضا، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي إزال الملائكة ﴿إِلَّا
بُشْرَىٰ﴾ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾
وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عدد.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار الذي يخذل
من بلغوا من الكثرة، وقوة العدد والآلات ما بلغوا.

﴿حَكِيمٌ﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء
مواضعها.

ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسا
﴿يُغَشِّيكُمْ﴾ [أي:] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف
والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾ لكم، وعلامة على النصر
والطمأنينة.

فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فأراً، وإنما ولي دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح.

وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

(١٧-١٩) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئَلَّيْكَ الْيَوْمِينَ مَنَ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۝ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُنْفِ عَنْكُمْ فَفَتْحَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون - : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش، وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه، وفمه، وعينيه منها، فحينئذ انكسر حدهم، وفترزندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.

يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك - حين رميت التراب - أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا ﴿وَلِئَلَّيْكَ الْيَوْمِينَ مَنَ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً، وثواباً جزيلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد، وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد أقداراً موافقة لعلمه وحكمته، ومصالحة عباده، ويجزي

أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم.

وذلك لأنهم ﴿سَأَلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: حاربوهما، وبارزوهما بالعداوة، ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه، وقتيلهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب المذكور ﴿فَدُوفُوهُ﴾ أيها المشاققون لله ورسوله عذاباً معجلاً ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة، ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حق.

منها: أن الله وعدهم وعداً، فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْأَنْفِثَةِ فِتْنَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ بَرَّوْنَهُمْ مِّنْهُمْ رَأَىٰ الْآيَةَ﴾.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب، التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته، ويسرها بأسباب داخلية وخارجية.

(١٥، ١٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاُدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة والإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب الموقية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار، إذا التقى الزحفان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْاُدْبَارَ﴾ بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصره لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهاقاً للكافرين.

﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مقره ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه،

كلًا بحسب نيته وعمله.

﴿ذَلِكُمْ﴾ النصر من الله لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مضعف كل مكر وكيد، يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محققًا بهم.

﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا﴾ أيها المشركون، أي: تطلبوا من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه ما كان نكالًا لكم، وعبرة للمتقين ﴿وَأَنْ تَنْهَبُوا﴾ عن الاستفاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأنه ربما أهملتم، ولم يجعل لكم النعمة ﴿وَأِنْ تَعُودُوا﴾ إلى الاستفاح وقاتل حزب الله المؤمنين ﴿نَعْدُ﴾ في نصرهم عليكم.

﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون وتقاتلون، معتمدين عليهم شيئًا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفًا قليلًا عدده، وهذه المعية التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان.

فإذا أدبل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطًا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما انهزم لهم راية [انهزامًا مستقرًا] (١) ولا أدبل عليهم عدوهم أبدًا.

(٢٠، ٢١) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامتثال أمرهما واجتتاب نهيهما.

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال.

(٢٢، ٢٣) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَلَا عِلْمَ اللَّهِ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَهُمْ وَلَوْ أَسْمَهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الضُّمُّ﴾ عن استماع الحق ﴿الَّذِينَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٩

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئْسَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بِلَاءٌ حَسَنًا ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَبُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدُ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَهُمْ وَلَوْ أَسْمَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

عن النطق به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم، فهو لاء شر عند الله، من جميع (٢) الدواب؛ لأن الله أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه وعدموا - بذلك - الخير الكثير، فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية.

والسمع الذي نفاه الله عنهم سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرًا يصلحونه لسماع آياته.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَهُمْ وَلَوْ أَسْمَهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه، وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه، الذي لا يزكو لديه، ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

﴿لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على منته العظيمة، وإحسانه التام، بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

(٢٨، ٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُولُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتهمهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها، استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة^(٢) ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية، ستؤدى لمن أعطها، وترد لمن استودعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

فإن كان لكم عقل ورأي، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

(٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ قُرْآنًا وَيَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع، يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبار.

الرابع: الأجر العظيم، والثواب الجزيل لمن اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

(١) هكذا في النسختين، والمراد ظاهر، وهو أن اتقاء هذه الفتنة يكون بالنهي عن المنكر. (٢) في ب: محبة.

(٢٤، ٢٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وَأَتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ غَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمراً به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهاها عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته، وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء، ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك».

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

﴿وَأَتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ غَاصَّةً﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره. وتقوى^(١) هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.

(٢٦) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَتَأْتِيَكُمْ بِصَرْهٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى ممثلاً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فَتَأْتِيَكُمْ بِصَرْهٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب، بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال:

﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله [تعالى فلهذا] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه.

ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: المشركون ﴿أَوْلِيَاءَ﴾. يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم، ﴿إِنْ أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً، غيرهم أولى به.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي صغيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟!.

فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.

لا جرم، أورثهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم - بعدما مكن لهم فيه -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقال هنا: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(٣٧، ٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ

الْمُؤْمِنُونَ

١٨١

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

وَمَا لَهُمْ أَلَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ إِنْ أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٧﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي اللَّهِ فَاِنِ انْتَهُوا فَاِنِ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ

كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ○ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين، وكيدهم، ومكرهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ليطلوا الحق، وينصروا الباطل، ويطلوا توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿سَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: فيسددون هذه النفقة، وتخف عليهم، لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة، وخزياً، وذلاً. ﴿وَيُغْلَبُونَ﴾ فتذهب أموالهم، وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يجمعون إليها، ليدفوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، فيجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تخصصه، فيجعل

الخيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص.

﴿فَرِكْمُهُ جَمِيعًا يَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
الذين خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

(٣٨-٤٠) ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِيَّاتِ ۖ وَفِيْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمُوا لِلَّهِ فَإِنَّ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصَيْرٍ ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يَغْمُ أَلْمَوْلَى وَيَغْمُ النَّصِيرُ﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد، ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له.

﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الجرائم ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِيَّاتِ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فليستظروا ما حل بالمعاندن، فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون.

فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين فقال:

﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك، وصد عن سبيل الله ويذعنوا لأحكام الإسلام ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمُوا لِلَّهِ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

﴿إِنْ أَنْتَهُوا﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصَيْرٍ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة وأوضعوا في الإضاعة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يَغْمُ أَلْمَوْلَى﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، ويسر^(١) لهم منافعهم الدينية والدنيوية ﴿وَيَغْمُ النَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاة وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له، ولا قائمة له.

(٤١، ٤٢) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ عَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِيَّةِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُورِيِّ

وَالرَّكْبِ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمُهُ﴾ أي: وباقيهم لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ للراجل سهم، وللفراس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم، وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين للفقراء، من صغار، وكبار، ذكور، وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو^(٢) الغريب المنقطع به في غير بلده.

[وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف، ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء، بل ذلك تبع للمصلحة، وهذا هو الأولى]^(٣).

وجعل الله أداء الخمس على وجه شرطاً للإيمان فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وهو يوم «بدر» الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأظهر الحق، وأبطل الباطل.

﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين، ما دل على أن ما جاء به هو الحق ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا (١) كذا في ب، وفي أ: وتيسر. (٢) في ب: وهم. (٣) زيادة من هامش ب.

يغالبه أحد إلا غلبه.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينَا﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، وهم بعدوته أي: جانبه البعيد من المدينة، فقد جمعكم واد واحد.

﴿وَالرَّكْبُ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ﴾ أي: لا بد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم، أو لهم، يصدفكم عن ميعادكم^(١).

﴿وَلَكِنْ﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدراً في الأزل، لا بد من وقوعه.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليكون حجة وبينة للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم بطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله.

﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة و يقيناً، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الألباب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

عليم بالظواهر، والضمائر، والسرائر، والغيب، والشهادة (٤٤، ٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْتَعَثُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الضُّدُورِ﴾ وإذ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ إِذِ التَّقِيَمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عدداً قليلاً، فيشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم، وثبتت أفئدتهم.

ولو أراكمهم الله إياهم كثيراً فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْتَعَثُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك، فوقع من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ لطف^(٢) بكم ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الضُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سبباً للطفه وإحسانه بكم، وصدق الله رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم، قليلاً في أعينهم، ويقللهم - يا معشر المؤمنين - في أعينهم، فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى.

سورة الأنفال

١٨٢

سورة الأنفال

﴿وَأَعْلَمُوا أَنْمَاعَكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْنٌ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النِّفْقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقَصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْتَعَثُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الضُّدُورِ﴾ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ إِذِ التَّقِيَمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥)

﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين وقتل قادتهم، ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد، له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفًا بالباقيين الذين من الله عليهم بالإسلام.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل الذي لا جور فيه، ولا ظلم.

(٤٥-٤٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ○ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِعَاةُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ○ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاةَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ○ وَإِذْ زَيْنُ لَهْمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفَيْتَانِ لُكْحًا عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي مَا

(١) في ب: عن ميعادهم. (٢) في ب: أي لطف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٣

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّعُوا أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَهْبِطَ رِحَابُكُمْ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَاوِرِ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَازِي عَمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لِغَالِبٍ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكَ﴾ أي: طائفة من الكفار تقا تلکم.

﴿فَاتَّبَعُوا﴾ لقتالها، واستعملوا الصبر، وحبس النفس على
هذه الطاعة الكبيرة التي عاقبتها العز والنصر.

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾
أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر
والثبات، والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشى
خلف ذلك في جميع الأحوال.

﴿وَلَا تَتَزَوَّعُوا﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها،
﴿وَنَفْسَلُوا﴾ أي: تجنبوا ﴿وَنَهَبَ رِحَابَكُمْ﴾ أي: نحل
عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على
طاعة الله ورسوله.

﴿وَأَصْبِرُوا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم، واخضعوا له.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَاوِرِ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه،
وهذا الذي أبرزهم من ديارهم، لقصد الأشر والبطر في
الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم: أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من
أراد سلوكه، ﴿وَاللَّهُ يَمَازِي عَمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلذلك أخبركم
بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على
ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى، وإعلاء دين
الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه،
وجذب الناس إلى سبيل الله القويم، الموصل لجنت النعيم.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ حسنها في قلوبهم
وخدعهم، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾، فإنكم
في عَدَدٍ وَعُدَدٍ، وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ من أن يأتيكم أحد، ممن تخشون
غائلته، لأن إبليس قد تبدى لقریش في صورة سراقه بن مالك
ابن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة
كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم،
وأثروا على حرد قادرين.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ المسلمون والكافرون، فرأى

الشیطان جبریل علیه السلام یزع الملائكة خاف خوفا شديدا
و﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أي: ولى مدبرا، ﴿وَقَالَ﴾ لمن خدعهم
وغرهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: أرى
الملائكة الذين لا يدان، لأحد بقتالهم.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في
الدنيا ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان قد سؤل لهم، ووسوس
في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار
لهم. فلما أوردتهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرا منهم، كما
قال تعالى: ﴿كَذَلِكِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ٥ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا
أَنْتَهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك
وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين، حين أقدموا - مع
قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ﴾ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه
الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه

من الطاعة إلى المعصية، فيكفروا نعمة الله، ويبدلوها كفرًا، فيسلبهم إياها، ويغيرها عليهم، كما غيروا ما بأنفسهم.

والله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى (٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ حين جاءتهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وَأَعْرَفْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخدمهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

(٥٥-٥٧) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُنْقِضُونَ ﴿فَإِنَّمَا تَنَفَّقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَفُتِرَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يشترن على عهد عاهدوه، ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله، فهم شر من الحميم والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذهاب هؤلاء ومحققهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم ولهذا قال:

﴿فَإِنَّمَا تَنَفَّقْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فَفُتِرَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به] (٣) عبرة لمن بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي:

من خلفهم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم.

وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل بالمعاصي، بل وزجرًا لمن عملها أن لا يعاودها.

ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أعطي عهدًا لا يجوز خيائته وعقوبته.

(١) في ب: المكذبة. (٢) كذا في ب، وفي أ: على. (٣) زيادة يقتضيها السياق ليست في النسختين.

احتقارًا لهم، واستخفافًا لعقولهم، وهم - والله - الأخفَاء عقولًا، الضعفاء أعلامًا.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام. فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان وثاقًا بربه، مطمئن القلب لا فرعًا ولا جبانًا، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ لا يغالب قوته قوة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجره.

(٥٠-٥٢) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ لَشَيْءٍ ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُوبُهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق، وعظم كربهم، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بالعقاب ﴿يَذُوبُهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ لا يعجزه أحد يريد أخذه ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾.

(٥٣، ٥٤) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّنًا بِعَمَلِ النَّعَمَةِ عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ وَأَعْرَفْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ﴾ ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين (١)، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم، وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن ﴿اللَّهُ لَمْ يَكُ مُعَيَّنًا بِعَمَلِ النَّعَمَةِ عَلَى قَوْمٍ﴾ من نعم الدين والدنيا، بل يبقها، ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرًا، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

سورة الأنفال

١٨٤

سورة الأنفال

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ كَذَابٌ عَالِ
فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
يَذُوبُهُمْ ۖ وَآغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَاذِبٍ لَامِينَ ﴿٥٩﴾
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾
الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ
وَهُمْ لَا يُثِقُونَ ﴿٦١﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ
مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ
قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٦٣﴾
وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۖ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ ﴿٦٤﴾
وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ ۖ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۖ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنْ جَنَحُوا
لِلْسَلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمرين، يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة^(١) منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يُخَفْ منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾، وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم. ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۖ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ أي: لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين، وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها، فلهذا قال لعباده المؤمنين:

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ ۖ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۖ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم، وإبطال دينكم، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية، وأنواع الأسلحة ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع، والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي»، ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ ۖ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم بدور مع علته.

فإذا كان شيء موجود^(٢) أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك؛ لأن «ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ ۖ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاثلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

(١) في ب: المحقة. (٢) في النسخين: إذا كان موجوداً شيئاً.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً مضاعفاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

(٦١-٦٤) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بصرك. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وألف بيت قلوبهم لو أنفق ما في الأرض جميعاً ما ألفت بيت قلوبهم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يكأبها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا للسلام. أي: الصلح وترك القتال.

﴿فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضهم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه، والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.

فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال: ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فلـ ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصَرِّهِ﴾ والمؤمنين. أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثقفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله

فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب، وفضة وغيرهما، لتأليفهم بعد تلك النفرة، والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلَفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته أن ألفت بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ﴿وَمَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية، والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

(٦٥، ٦٦) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا بِغَلِيظٍ مِائَتٍ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَلْفَنَ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةً يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأنهمضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم، وينشط همهم، من الترويح في الجهاد، ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة، المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَشْرُونَ صَبَرُوا بِغَلِيظٍ مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض، والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله، وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال: ﴿أَلْفَنَ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فلذلك اقتضت رحمته

وحكمته التخفيف، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾^(٦٧) وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٦٨) بعونه وتأنيده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين، يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر، وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، [إذا غلب على ظنهم الضرر]^(٦٩)، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿وَأَلْفَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر^(٧٠) لازم، وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر نكتة بديعة، لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك، [فإذا فعلوها، صارت الأسباب الإيمانية، والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به، من النصر لهذا العدد القليل]^(٧١).

(٦٧-٦٩) ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْتَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦٧) لَوْلَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٦٨) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٦٩) هذه معانيه من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين، وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في

وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصُرُوفِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ^(٦٢) وَالْفَافِيَاتِ قُلُوبُهُمْ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفْتَتِ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آتِيهَا بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٦٣) يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٦٤) يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^(٦٥) الْفَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٦٦) مَا كَانَتْ لِيَنْتَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٦٧) لَوْلَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٦٨) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٦٩)

هذه الحال، قتلهم واستئصالهم.

فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْتَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما ينبغي، ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم، وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصولة، فالأوفق أن لا يؤسروا.

فإذا أئخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم، وإبائهم.

يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبائهم. ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمرهم بما يوصل إلى ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن يتصر من

سورة الأنفال

١٨٦

سورة الأنفال

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْضِلَكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا ۚ وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ﴿٧٢﴾ هذا عقد موالاة ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتماثل اتصال بعضهم ببعض.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم، في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما لم يهاجروا، لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء.

لكنهم ﴿إِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُ اللَّهُ﴾ أي: عهد

(١) في ب: كثيرًا. (٢) في ب: وقد تكفل.

الكفار من دون قتال لفعل لكنه حكيم، يتلي بعضكم بعض. ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم - أيها الأمة - العذاب ﴿لَمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر».

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم، ولم يحلها لأمة قبلها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم، ولازموها شكرًا لنعم الله عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصي.

﴿رَحِيمٌ﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم، وجعلها حلالًا طيبًا.

(٧٠، ٧١) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْضِلَكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن يُريدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۚ وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ. فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبرًا لخاطره، ومن كان على مثل حاله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ أي: من المال، بأن ييسر لكم من فضله خيرًا وأكثر^(١) مما أخذ منكم.

﴿وَيُعْضِلُكُمْ﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في السعي لحربك، ومنابدتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم، وهم تحت قبضته.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

(٧٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي

المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصابات، وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعها الدينية عليكم ما يناسبها. تم تفسير سورة الأنفال والله الحمد.

تفسير سورة براءة ويقال: سورة التوبة

وهي مدنية

(١، ٢) ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخَذِّرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر، يسبحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق.

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر، بزيادة على أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده، إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله، ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه فإن الله لا بد أن يخزيه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر، ولم يبال بوعيد الله له.

(٣) ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه، وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم، من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل

بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما أتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض^(١)، فلا يوالىهم إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: موالاته المؤمنين، ومعاودة الكافرين، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين، وعاديتم المؤمنين.

﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد، والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين، التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الآيات السابقة في ذكر عقد الموالاتة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاتة بعضهم لبعض، وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله، تمحى بها سيئاتهم، وتضمنحل بها زلاتهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم^(٢).

فهذه الموالاتة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير، وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين

(١) في ب: بعض. (٢) كذا في ب، وفي أ: له ما لكم وعليه ما عليكم.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مَخْزِي الْكَافِرِينَ ۖ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۖ ﴿٢﴾ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ
فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا حُزْمَهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴿٣﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ائْتِ بِغَلَبَةِ يَدَيْهِمْ فَاعْلَمُوا لَا يَعْلَمُونَ ۖ ﴿٤﴾

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شيئاً،
لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله،
المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، ويأبى الله
إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.
﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرون
عليه، ورابطوا في جهادهم، وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك،
ولا تزالوا على هذا الأمر، حتى يتوبوا من شركهم.
ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي:
أدوها بحقوقها ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾
أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما
عليكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين،
ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.
وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو
الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر

(١) كذا في ب، وفي أ: الله. (٢) في ب: إليهم.

المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار.
فأمر النبي ^(١) مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم
النحر، وقت اجتماع الناس، مسلمهم وكافرهم، من جميع
جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين،
فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم:
لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة
تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة
- يوم النحر - ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي
الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار
على الشرك فقال: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

أي: فانتبه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده
المؤمنين.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم مفعط في
الدنيا بالقتل، والأسر، والجلاء، وفي الآخرة بالنار، وبش
القرار.

(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا
وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِهِمْ عَهْدَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ﴾ أي هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين
﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ واستمروا على عهدهم،
ولم يجز منهم ما يوجب النقص، فلا نقصوكم شيئاً، ولا
عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أتموا لهم ^(٢) عهدهم إلى مدتهم،
فلت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر
بالوفاة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا
الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

(٥) ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَخُذُوا حُزْمَهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول
تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: التي حرم فيها قتال
المشركين المعاهدين، وهي أشهر التيسير الأربعة، وتمام
المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان
﴿وَخُذُوا حُزْمَهُمْ﴾ أسرى ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ﴾ ضيقوا عليهم، فلا
تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً
لعباده.

الْمُشْرِكِينَ

١٨٨

سُورَةُ الْبُرَاجِ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْفُقُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَضَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصِلُ الْآيَةِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ○ أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَضَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ○ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصِلُ الْآيَةِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ○

أي: ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، و﴿لَا يَرْفُقُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ﴾ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبغضون لكم صدقاً ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ لا ديانة لهم، ولا مروءة.

﴿أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لآيات الله.

الصادق رضي الله عنه.

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْهَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب منك أن تجيره، وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة، ومن أخذ بقولهم: إن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سعوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده، ولا عند رسوله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ من المشركين ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفاضل حرمة أوجب أن يراعوا فيها.

﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ولهذا قال:

(٨-١١) ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْفُقُوا فِيكُمْ إِلَّا

﴿فَصَدُّوا﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً أَي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله.

فالوصف الذي جعلهم^(١) يعادونكم لأجله ويغضونكم هو الإيمان، فذبوا عن دينكم، وانصروه واتخذوا من عاداه لكم عدوًّا، ومن نصره لكم وليًّا، واجعلوا الحكم يدور معه وجودًا وعدمًا، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية^(٢) تميلون بهما حيثما مال الهوى، وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء، ولهذا: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن شركمهم، ورجعوا إلى الإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين، لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبدًا حقيقًا.

لما بين من أحكامه العظيمة ما بيّن، ووضع منها ما وضع، أحكامًا وحكمًا، وحكمًا، وحكمة قال: ﴿وَتَقْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أَي: نوضحها ونميزها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فالإلهام سياق الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك، وكرمك [وإحسانك، يا رب العالمين].

(١٢-١٥) ﴿وَإِنْ كَثُرُوا أَتَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ○ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ كَثُرَتْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ○ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَتَوْتُبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وَإِنْ كَثُرُوا أَتَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أَي: نقضوها وحلوا، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم، أو نقصوكم، ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أَي: عابوه، وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن.

﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ أَي: القادة فيه، الرؤساء الطاعين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم، ولأن غيرهم تبع لهم. وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ أَي: لا عهود ولا موثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالكم إياهم ﴿يَنْتَهُونَ﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقضية لقتالهم فقال: ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ﴾ حيث نقضوا العهد، وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت^(٣) قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم، على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿اتَّخَذْتَهُمْ﴾ في ترك قتالهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنه^(٤) أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتركوا أمر الله ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ○ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾ فإن في قلوبهم من الحق والغيط عليهم، ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهَم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالاً للغيط الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين، واعتناؤه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿وَيَتَوْتُبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقه للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

(١) في النسختين: جعلوهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في ب: طبيعية. (٣) في ب: أعانت. (٤) في ب: فإله.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ إِنْ اسْتَحَبُّوا أَي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَنُكِمَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم تجرأوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَمِثْلُهُمُ الْأُمَمَاتُ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب والعشرة^(١) ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أَي: قراباتكم عموماً ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أَي: اكتسبتموها، وتعبتم في تحصيلها.

خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها، ممن تأتية الأموال من غير تعب ولا كد. ﴿وَبِحَرَّةٍ تُحْشُونَ كَسَادَهَا﴾ أَي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿وَمَسْكَنٌ رَضَوْنَهَا﴾ من حسنها وزخرفتها، وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فأنتم فسقة ظلمة. ﴿فَقَرَّبُوا﴾ أَي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الذي لا مرد له.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلازمة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتيه،

الاسم، أنه المراد ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِقَاءِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فالجهد والإيمان بالله، أفضل من سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ﴾ بالنفقة في الجهاد، وتجهيز الغزاة ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أَي: لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿يَرْحَمُهُمْ مِنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير، ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا قِيَمَةٌ ثَقِيلَةٌ﴾ من كل ما اشتتهه الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها، ولا ييغون عنها جوداً ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرتة على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء: كن فيكون.

(٢٣، ٢٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَنُكِمَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ○ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنَوْنَهَا وَبِزَوَّجْتُمْ أَهْلًا مَحَبَّةً وَمِنْكُمْ أَكْبَرُ مِنْكُمْ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ رَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يقول

ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.

(٢٧-٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْثُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ ۚ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۚ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواقع الحروب والهيجاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نُغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة! يا أهل سورة البقرة!

فلما سمعوا صوته عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم، ونسأهم، وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْثُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهم والغم، حين انهزمتم ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي على رحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ﴾ أي منهزمين. ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة ما

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا أَسَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُحَيْرَةٌ تَحْسُونَهَا وَمَسْكَنُكُمْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْثُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل، والمقطعات، مما يشتها ويسكنها، ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يشنونهم ويشرونهم بالنصر.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نسائهم، وأولادهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم، وقبول توباتهم، فلا يأسئ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤْفَكَوْنَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٌ﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً؟!

وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر - كغيره - طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب^(١) منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تقذروهم من النجاسات، وإنما المراد - كما تقدم - نجاستهم المعنوية بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ ءَايَهَا الْمُسْلِمُونَ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله ﷺ والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي ﷺ، أمر أن يجلو من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعد كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

(٢٩) ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم.

ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، فلا يتبعون شرعه في

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يغتسل مما أصاب).

الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين كِتَابِي وغيره.

(٣٠-٣٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَنُؤْفِكُونَ ۚ أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۚ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه، على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهذه المقالة، وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فبدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرأوا فيها على الله، وتنقصوا عظمتة وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في «عزير» أنه ابن الله، أنه لما سَلَطَ الله الملوك^(٢) على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو لأكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ابْنُ اللَّهِ﴾ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يُضَاهُونَ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَنُؤْفِكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تنفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكير وتسلط للعقل عليه - فإن لذلك سببًا وهو أنهم: ﴿أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماءهم ﴿وَرُهَبَانَهُمْ﴾ أي: العبَّاد المتجربين للعبادة.

تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه ما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء، وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وعنى ذلك القتال ﴿حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: حتى يذلوها^(١) في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقرؤهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون، مما ينفي عزهم وتكبرهم، وتوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقداه لهم.

وإلا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية، وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم؛ لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع، لا مفهوم له.

وبدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية، وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما

(١) كذا في ب، وفي أ: يذلونها. (٢) في ب: أنه لما تسلط الملوك.

وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة، والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة، المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

(٣٥، ٣٤) ﴿كَانُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبَرَّرَهُمْ بِكَذَابِ آلِهِمْ ۖ يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّنُ بِهَا جَاثِيَهُمْ وَجُثُوبُهُمْ يُطْهَرُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هدايتهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها، ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله. فهؤلاء الأحبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدتهم الناس عن سبيل الله. ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: يمسكونهما ﴿وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكثر المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِكَذَابِ آلِهِمْ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أموالهم، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحرق كل دينار أو درهم على حدته.

(١) في الأصل (ومن ضاهوه) ولعل الصواب ما أثبت.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يُحْلُونَ لهم ما حرم الله فيحلوهم، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتعنونهم عليها.

وكانوا أيضًا يغفلون في مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصّد بالذبائح والدعاء والاستغاثة.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهًا من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله، فما ﴿أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبدوا أمر الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالى عظمته عن شركهم وافترائهم، فإنهم يتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أضلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه، وافتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَنْ يَطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِهِمْ﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نورًا، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة. فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده. فهؤلاء اليهود والنصارى ومن [ضاهاهم]^(١) من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورُهُ﴾ لأنه النور الباهر الذي لا يمكن لجميع الخلق، لو اجتمعوا على إطفائه، أن يطفئوه، والذي أنزله، جميع نواصي العباد بيده. وقد تكفل بحفظه من كل من يريد به سوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتقاً على بيان الحق من الباطل، في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٢

سُورَةُ الْبُرَاجِ

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَا
 أَنْ يُمْرُ نُورُهُ. وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي
 أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
 كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
 أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى
 عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ
 وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ
 تَكْتِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
 شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
 أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
 يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

نحو قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألوهم من الشر شيئاً. ويحتمل أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب التفير على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَفْرِؤْا كَافَّةً﴾ الآية. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بعونه ونصره وتأییده. فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

(١) في ب: الحُرْم.

﴿تَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم تويخاً ولوماً: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفق في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجة في الواجبات، والنهي عن الشيء، أمر بضده.

(٣٦) وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول فيها: ﴿إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه القدري ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر [شهراً].

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حُرْمًا، لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على مَنِّهِ بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهى لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرام^(١) لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ، أخذاً بعموم

الجزء العاشر

١٩٣

سورة البقرة

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

يَحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقْلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَنْزِلُ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي^(١) اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضا، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم. ف ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقْلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض، والدعة، والسكون فيها.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا، وسعى لها، ولم يبال بالآخرة، فكانه ما آمن بها.

﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أفليس قد جعل الله لكم عقولاً، تَرُونُ بها الأمور، وأبها أحق بالإشارة؟ أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة؟

فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا، حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته

(١) في ب: ودواعي.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا. فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله. ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فأروها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

(٣٩، ٣٨) قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقْلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة، نزلت في غزوة تبوك، إذ نذب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حاراً، والزاد قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

وتأييده.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: الثبات والطمأنينة، والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

﴿وَأَيَّدُوا بِحُجُوبٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكرام الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه، حقيقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع. فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم، بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم، ويظهروا عليهم.

والثاني: نصر المستضعف الذين طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي كلماته القديرة وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ بِيَوْمِ الْأَشْهَادِ﴾، ﴿وَلَا جُنْدًا لَهُمُ الْعَالَمُونَ﴾، فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حربه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة، فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحة الجميلة. وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

(١) في آ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح، فيبدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأي رأيتم إثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهي النفس، وتلد الأعين، وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وفر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من غد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفي فقال:

﴿إِلَّا تَتُوبُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيه من المضار الشديدة. فإن المتخلف قد عصى الله تعالى وارتكب لنهي، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعد الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلَّا تَتُوبُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أرادته، ولا يغالبه أحد.

(٤٠) ﴿إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوا بِحُجُوبٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فالله غني عنكم، لا تضرونه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فالتجأوا إلى أن يخرج.

﴿ثَانِينَ﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور^(١) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال.

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بعونه ونصره

الْمُؤْمِنِينَ

١٩٤

سُورَةُ الْبُرَةِ

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
 لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ
 عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
 مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾
 عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبَالِغِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
 فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
 لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
 وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُمُ
 مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِكُلِّكُمْ بَيِّنَاتٌ مِمَّا
 أَلْفَنَتْهُ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ٥ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ
 الْبَالِغِينَ ٥ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ٥ يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ
 ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ أَي: سامحك وغفر لك ما أجزيت.
 ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾، بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من
 الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.
 ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في
 ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في
 الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحتشم عليه
 حاش، فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر.
 ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبَالِغِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من
 تقواه. ومن علمه بالمؤمنين، أنه أخبر، أن من علاماتهم أنهم
 لا يستأذنون في ترك الجهاد.
 ﴿إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ
 قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك

وفيهما أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين،
 مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه
 مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

(٤١، ٤٢): ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥ لَوْ كَانَ عَرَضًا
 قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
 لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيجاً لهم على النفير
 في سبيله - فقال: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: في العسر
 واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع
 الأحوال.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابدلوا
 جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي
 هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب
 الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد
 في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه
 رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر
 لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

﴿لَوْ كَانُ﴾ خروجهم لطلب العرض القريب، أي منفعة
 دنيوية، سهلة التناول ﴿و﴾ كان السفر ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي:
 قريباً سهلاً.

﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ
 الشُّقَّةُ﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر،
 فلذلك تناقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل
 العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة
 السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: سيحلفون
 أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم عذراً، وأنهم لا يستطيعون
 ذلك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع،
 ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين الذين تخلفوا عن النبي ﷺ
 في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا
 النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين
 له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة
 إلى عذرهم فقال:

(٤٣-٤٥) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ

الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك. ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم. فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذَنُ لِي وَلَا تَقْتَتِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب فيقول: ﴿أَتَذَنُ لِي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَقْتَتِي﴾ في الخروج. فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر، لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس». ومقصوده - بقبحه الله - الرياء والنفاق، بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن الشر.

قال الله تعالى - مبيناً كذب هذا القول - : ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى، وفتنة عظمى محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجرؤ على الإثم الكبير، والوزر العظيم. وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمه، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.

(٥١، ٥٠) ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَكَانُوا فِيهِمْ فَرِحُونَ ۝ قُلْ لَنْ يُصِيبَكُمْ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبعوضون للدين صراحةً: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ ۖ كُنْ مِنْهُمْ وَإِذَا نَكَرُوا عَلَى الْعَدُوِّ فَسَبِّحْهُمْ ۖ أَيُّ: تحزنهم وتغمهم ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ ۖ كَادَالَةَ الْعَدُوِّ عَلَيْكَ﴾ يَقُولُوا متبجحين بسلامتهم من الحضور معك.

﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما ينبجنا من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ بِمُصِيبَتِكَ﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

قال تعالى - راداً عليهم في ذلك - : ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَكُمْ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ.

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء.

قلتُ رغبتهم في الخير، وجنبوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأنفوا في ترك القتال. ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

(٤٦-٤٨) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُمْ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ۚ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْصَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۚ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعداءهم التي اعتدوها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع، إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون ﴿لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُمْ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿ثَبَّطَهُمْ﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ من النساء والمعدورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: نقضاً ﴿وَلَأَوْصَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم، وإلقاء العداوة بينكم. ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم. فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم؟

فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عبادة المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: حين هاجرتكم إلى المدينة، بذلوا الجهد. ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: أداروا

الْمُؤْمِنُونَ

١٩٥

سُورَةُ الْبُرَاجِ

لَقَدْ اتَّبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿١٩٥﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُّ لِي وَلَا تَنْفِيئِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩٦﴾
﴿١٩٧﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا
وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿١٩٨﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١٩٩﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَخُنْ
تَرَبَّصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ
أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرْبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٢٠٠﴾ قُلْ
أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٠١﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٢٠٢﴾

يُعَذِّبُهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ○
وَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرُقُونَ ○ لَوْ يَعْلَمُونَ مَلَكًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مَذْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ
وَهُمْ يَخْتَفُونَ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين
ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها. وأول بركانها عليهم أن
قدموها على مرضى ربهم، وعصوا الله لأجلها.
﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمراد
بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي
الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.
فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها،
فهي - لما ألهمتهم عن الله وذكره - صارت وبالأعلى عليهم، حتى
في الدنيا. ومن وبأها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها،
وإرادتهم لا تتعدها فتكون متتهى مطلوبهم، وغاية مرغوبهم،
ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا
من الدنيا ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.
فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم،
والحسرة الملازمة.

﴿وَكَلَّ اللَّهُ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا
عليه في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، ويقبوا به في
تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه. وأما من توكل
على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

(٥٢) ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَخُنْ
تَرَبَّصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا
فَتَرْبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أي: قل للمنافقين الذين
يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا
تربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسينين، إما
الظفر بالأعداء والنصر عليهم، ونيل الثواب الأخروي
والديني. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق،
وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نترصد بكم
أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا،
بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم.

﴿فَتَرْبِصُوا﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ بكم الشر.
(٥٣، ٥٤) ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ○ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا
أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى
وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ يقول تعالى - مبينًا بطلان نفقات
المنافقين، وذاكرًا السبب في ذلك -:

﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾ من أنفسكم ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ على
ذلك، بغير اختياركم.
﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ شيء من أعمالكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا
فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله. ثم بين صفة فسقهم
وأعمالهم، فقال:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا
إيمان لهم، ولا عمل صالح. حتى إن الصلاة التي هي أفضل
أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالي، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون
يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر
وثبات نفس. ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه
ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب
إليها، ولا يتفق إلا وهو منشراح الصدر، ثابت القلب، يرجو
ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

(٥٥-٥٧) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

الْبَرَاءَةُ

١٩٦

سُورَةُ الْبَرَاءَةِ

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
 وَيَحْفَرُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ
 قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا
 أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ
 فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا
 هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ
 لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
 وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ
 الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ ذُنَّ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ
 لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع
 صنفان متفاوتان: فالفقر أشد حاجة من المسكين، لأن الله
 بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي
 لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام
 كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة، ما
 يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل
 وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع،
 أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل
 عملاتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم. والمؤلف قلبه: هو السيد
 المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى
 بغيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا
 يعطيها. فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا

وَيَحْفَرُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ
 قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي: يخافون
 الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا
 أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن
 تتبرأوا منهم، فيخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قوي القلب، ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك
 على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة. ولكن المنافقين خلع
 عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

ثم ذكر شدة جبنهم فقال: ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا﴾ يلجأون
 إليه عندما تنزل بهم الشدائد. ﴿أَوْ مَغْرَبًا﴾ يدخلونها
 فيستقرون فيها ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه
 ﴿لَوْ لَوْ إِلَى اللَّهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾ أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم
 ملكة يقتدرون بها على الثبات.

(٥٩، ٥٨) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا
 وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ
 إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين، من يعيبك
 في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها
 وعييبهم لقصد صحيح، ولا لرأي رجيح، وإنما مقصودهم أن
 يعطوا منها.

﴿إِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾
 وهذه حالة لا ينبغي للعبد أن يكون رضاء وغضبه، تابعا لهوى
 نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه
 تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى
 يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وقال هنا: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي:
 أعطاهم من قليل وكثير. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا الله،
 فرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن
 يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ
 رَاغِبُونَ﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا،
 لسلما من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية.

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

(٦٠) ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا
 وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا
 الصَّدَقَتُ﴾ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة
 المستحبة لكل أحد، لا يخص بها أحد دون أحد. أي: إنما
 الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصروا

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْتَ لَمْ تَرَ جَهَنَّمَ خَلِيلًا
فِيهَا ذَلِكَ الْخَبْرُ الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين
﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بالأقوال الردية، والعيب له ولدينه.
﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَى﴾ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية
للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه،

فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين
صالح وكاذب. وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم، أنهم
غير مكترئين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا
مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم
الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك، إلى
الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضًا بذلك، وهو قدر زائد على
مجرد الأذية.

ومنها: قذحهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه وتفريقه
بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتهم
إدراكاً، وأتقهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْنَى
خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً. وأما
إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار
الكذب، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم^(٢)، وامتناله
لأمر الله في قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لَيُخْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب،
وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم.

﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَنُكَرًا﴾ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه
يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل
ردوها، ففسدوا دينهم وآخرتهم. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾
بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن
العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتميه.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَيُؤْذِينَكُمْ﴾ فيتراو مما صدر منهم من
الأذية وغيرها. فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ أَنَّ يَرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً
على رضا ربه. فدل هذا على انتفاء إيمانهم، حيث قدموا رضا
غير الله ورسوله.

أنفسهم من ساداتهم. فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم،
فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في
حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى. ويدخل في هذا أنه
يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وَفِي
أَرْقَابٍ﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون
لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر
وقتته، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهما، بما لا يبذله لأحدهم أو
لهم كلهم. فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى
لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً. والثاني: من غرم لنفسه ثم
أعسر، فإنه يعطى ما يُؤَوِّي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة
الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على
غزوهم، من ثمن سلاح، أو دابة، أو نفقة له ولعيله، ليتوفر
على الجهاد، ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن نقرغ القادر على الكسب لطلب
العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل
الله.

وقالوا أيضًا: يجوز أن يعطى منها الفقير، لحج فرضه،
[وفيه نظر]^(١).

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير
بلده. فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف
الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه
﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾.

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:
أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين
ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه، وانتفاع الإسلام به.
فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات
الخاصة والعامّة للإسلام والمسلمين. فلو أعطى الأغنياء زكاة
أموالهم على الوجه الشرعي لم يبق فقير من المسلمين.
ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار،
وتحصل به جميع المصالح الدينية.

(٦١-٦٣) ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَى قُلْ
أَدْنَى خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا
وَنُكَرًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ
لَيُؤْذِينَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ أَنَّ يَرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝

(١) زيادة من هامش: ب. (٢) في النسختين: بشأنه.

وهذا محادثة لله ومشاققة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي^(١): يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجراً على محارمه.

﴿فَأَن تَأْرَجَهِمْ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أظفر منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عياداً بالله من أحوالهم^(٢).

(٦٤-٦٦) ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ تُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ○ ولكن سألتهم ليقولوا: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ قُلِ يَا آلِهَةَ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ○ لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْدَبُ طَائِفَةً يَا نَهْمُ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أسرارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لغائبتين:

إحداهما: أن الله سَتَرٌ، يحب السر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف.

قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِرُوكَ فِيهَا إِلَّا قَالِيلاً ○ مُلْعُونِينَ أَيْنَمَا شَقُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْسِيلاً﴾.

وقال هنا: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين.

﴿قُلِ اسْتَزِرُّوا﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية. ﴿إِنَّ اللَّهَ تُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ وقد وقى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي يبيتهم وفضحتهم، وهتكت أسرارهم.

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطونا [أو أکذب ألسناً]^(٣)، وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك.

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ﴾ أي نتكلم بكلام لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب.

يَحْذَرُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَن تَأْرَجَهِمْ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ تُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ قُلِ يَا آلِهَةَ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٩﴾ لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْدَبُ طَائِفَةً يَا نَهْمُ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٢﴾

قال الله تعالى - مبيناً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك - : ﴿قُلِ لَهُمْ﴾ ﴿يَا آلِهَةَ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ○ لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فإن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج عن الدين، لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومنافض له أشد المنافضة.

ولهذا لما جاؤوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿يَا آلِهَةَ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ○ لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نَعْدَبُ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصاً السريرة التي يكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة.

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول، أو تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب، وإن كان عظيماً.

(٦٧، ٦٨) ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَذَابُ مُّهِمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ لَأَنَّهُمْ اشْتَرَكُوا فِي النِّفَاقِ، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو الكفر والفسق والعصيان.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الصدقة، وطرق الإحسان، فوصفهم بالبخل. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ من رحمته، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَذَابُ مُّهِمٌ﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعادة لله ورسوله، والكفر بآياته.

(٦٩، ٧٠) ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِيَنَّهُمْ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

يقول تعالى محذراً للمنافقين، أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ

سُورَةُ الْبُرَةِ

١٩٨

سُورَةُ الْبُرَةِ

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِيَنَّهُمْ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ أُولَئِكَ بَعْضُ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا مِنْ أَلْفَوْزٍ الْعَظِيمِ ﴿٧٢﴾ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَي: قرى قوم لوط.

فكلهم ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِيَنَّهُمْ﴾ أي: بالحق الواضح الجلي، المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا فاتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم. استمتعتم بخلافكم أي: بنصيبتكم من الدنيا، فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة، معرضين عن المراد منه، واستعتم به على معاصي الله، ولم تعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم، كما فعل الذين من قبلكم ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: وخضتم بالباطل والزور، وجادلتهم بالباطل لتدحضوا به الحق. فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتع بالباطل، وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك، ما استحق من قبلهم، من فعلوا كفعلهم.

وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبتهم وما خولوا من الدنيا فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله.

وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق، لإدحاض الباطل.

عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها. ﴿وَرِضْوَتٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم. فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم، ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات أكبر من نعيم الجنات.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

(٧٤، ٧٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ ○ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَمْلَأُونَ وَمَا نَعْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: بالغ في جهادهم والغلبة عليهم حيث اقتضت الحال الغلبة عليهم.

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان، والسيف، والبيان.

ومن كان مدعياً للإسلام، بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر، فهذا ما لهم في الدنيا. ﴿وَمَا فِي الْآخِرَةِ﴾ ○ ﴿وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم: «ليخرجن الأعز منها الأذل» والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول.

فإذا بلغهم أن النبي ﷺ، قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا.

قال تعالى مكدباً لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾. فإسلامهم السابق - وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر - فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.

﴿وَهُمْ يَمْلَأُونَ مَا قَالُوا﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول الله

قوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

(٧٢، ٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْتِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ○ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض^(١)، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ أي: ذكروهم وإنائهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في المحبة والمواودة، والائتماء والنصرة ﴿يَأْتِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها، وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيفة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يبعثون عنها جَوْلاً ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقبلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرقاً في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيفة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتترع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات

(١) في ب: من بعض.

سورة البقرة

١٩٩

سورة البقرة

يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جِهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبَيْتُ الصِّيرِ ﴿٧٦﴾ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ
مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
وَهُمْ أَيْمَانُ لَمْ يَنْتَهِوا وَمَا نَفَعُهمُ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعِدْهُمْ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ
آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾
فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
﴿٧٩﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا
اللَّهِ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٨٠﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمُ
الْغُيُوبِ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٢﴾

أخلف.

فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهده، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ﴾، وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة»، جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على النواصب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية. فلما لم يعطهم، جاؤوا، فأخبروا بذلك

ﷺ في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصددهم عن قصدهم.

﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ مَا نَقَمُوا ﴿وَعَابُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿بَعْدَ أَنْ كَانُوا فَقَرَاءَ مَعُوزِينَ. وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ، أَنْ يَسْتَهْنُوا بِمَنْ كَانَ سَبَبًا لِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمَغْنِيًا لَهُمْ بَعْدَ الْفَقْرِ. وَهَلْ حَقُّهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَعْظُمُوهُ وَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَجْلُوهُ؟ فَاجْتَمَعَ الدَّاعِي الدِّينِي وَدَاعِي الْمَرْوَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لِأَنَّ التُّوبَةَ أَصْلٌ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَإِنْ يَسْتَوُوا﴾ عَنِ التُّوبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿يَعِدْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَالْحُزَنِ عَلَى نَصْرَةِ اللَّهِ لِدِينِهِ، وَإِعْزَازِ نَبِيِّهِ، وَعَدَمِ حَصُولِهِمْ عَلَى مَطْلُوبِهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ فِي عَذَابِ السَّعِيرِ.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ، وَيَحْصِلُ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَكْرَهُ، وَإِذَا انْقَطَعُوا مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَتَمَّ أَصْنَافُ الشَّرِّ وَالْخُسْرَانِ، وَالشَّقَاءِ وَالْحِرْمَانِ.

(٧٨-٧٥) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴿أَي: وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ ﴿لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنَ الدُّنْيَا فَبَسَطَهَا لَنَا وَوَسَّعَهَا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فَنَصَلَ الرَّحِمَ، وَنَفَرِيَ الضَّيْفَ، وَنَعَيْنَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَنَفَعَلَ الْأَفْعَالَ الْحَسَنَةَ الصَّالِحَةَ.

﴿لَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لَمْ يَفُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾ عَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِنْفِاقِ ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أَي: غَيْرَ مُلتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مُستمرًا ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني، ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفِي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد

النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بركاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

(٧٩، ٨٠) ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً. فلما حث الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم، كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم القليل، فيلمزون المكثرون منهم، بأن قصده بنفقتهم الرياء والسمنة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيقولون: مراءون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿و﴾ يلمزون ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾. فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفُتْنَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى، وبغض للدين.

ومنها: أن اللزم محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللزم في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي [هو] إعانتة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأيُّ شر أكبر من هذا؟!.

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: (الله غني عن صدقة هذا)، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة

المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السموات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه. فـ «الله - وإن كان غنيا عنهم - فهم فقراء إليه ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝». وفي هذا القول من التشبيط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ۝﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها.

﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يغيثون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح، فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى، بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

(٨١-٨٣) ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَهُ لَخُرُوجُ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِلِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهازة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهشبي، والعراقي، وابن حجر والسيوطي والمناوي وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف، كما أن من رواها: معاذ بن رفاع، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة منتها أيضاً. ينظر المحلى: (٢٠٨/١١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨)، وفيض القدير (٤/٢٥٧)، وفتح الباري (٨/٣)، ولباب النقول للسيوطي (١٢١) وتخرجه الأحياء للعراقي (٣/٣٢٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٠

سُورَةُ الْبُرْءَةِ

أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُكُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نَوَكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْ نَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

وحذروا من الحر الذي يقي منه الظلال، ويذهب البكر^(١) والأصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لما آثروا ما ينفى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي: فليمتنعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيرًا في عذاب أليم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

﴿فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم. ﴿فَاسْتَعِذْ نَوَكَ لِلْخُرُوجِ﴾ لغیر هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿تَقُلْ﴾ لهم عقوبة ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فسيغني الله عنكم.

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿وَتَقَلِّبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصِرْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن المثاقيل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضًا تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخًا لهم، وعارًا عليهم ونكالًا أن يفعل أحد كفعلهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ومن كان كافرًا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل

ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين، يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين.

﴿٨٥﴾ ﴿وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى يتقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفندتهم عليها متحرقة.

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْ نَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور.

تعالى في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ يُمْرُونَ فِيهَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.﴾ ﴿اسْتَذْنَكَ أُولُوا الطَّلَاقِ مِنْهُمْ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبينين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاثر والاستئذان في القعود ﴿وَقَالُوا دَرَكًا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

(٨٩، ٨٨) ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ○ **عَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله، يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرُّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ غير متساقلين ولا كسولين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب، وأكمل الرغائب.

﴿عَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فَبِمَا لَمْ يَرْغَبْ بِمَا رَغِبُوا فِيهِ، وَخَسِرَ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ وَأَخْرَاهُ، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ عَابِدُوا اللَّهَ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا يَكْفِيرًا﴾.

(٩٠-٩٣) ﴿وَعَلَى الْمُعْذَرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ○ **لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ** ○ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِجَّكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتْهُمْ تَقْبِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْجًا أَلَّا يَحِدُّوا مَا يُنْفِقُونَ ○ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ**

الجزء العاشر

٢٠١

سورة البقرة

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ عَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِجَّكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتْهُمْ تَقْبِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْجًا أَلَّا يَحِدُّوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباينين في الاعتذار لجفائهم وعدم حياتهم، وإيتائهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، ففقدوا وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿الْمُعَذَّرُونَ﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى الرسول ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في دعوهم بالإيمان، المقضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة. لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَبْصَارِهِمُ الَّذِينَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ وَالْقِتَالِ.﴾ ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ وهذا شامل

لجميع أنواع المرض الذي^(١) لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحمى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: لا يجدون زادا، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم. فهؤلاء ليس عليهم جرح، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم، أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في [نفسه]^(٢)، أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفرط، أن عليه الضمان.

﴿وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئا ﴿فُلْتُمْ﴾ لهم معذرة: ﴿لَا أَحَدٌ مَّا أَهْلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ فَبِغْضٍ مِنَ الدَّمْعِ حَرْكًا أَلَّا يَحْدُثُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ فإنهم عاجزون، باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشفقة، ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله، وهو أن من نوى الخير، واقرن بنيتة الجازمة سعيي فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بتوجهه واللوم يتناول الذين^(٣) يستأذنون وهم أغنياء قادرين على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رَضُوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال، لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

(٩٤-٩٦) ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُونَ لِيْ تُوْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

ثُمَّ تَرْدُّوْنَ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْعَنْبِ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقِلْتُمْ إِلَيْهِمْ يَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا تَعْلَمُ لَهُمْ سِرُّهُمْ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ ۝ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝ لَمَّا ذَكَرَ تَخَلَّفَ الْمُنَافِقِينَ الْأَغْنِيَاءُ، وَأَنَّهُمْ لَا عَذْرَ لَهُمْ، أَخْبَرَ أَنَّهُمْ سِرُّهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۝ مِنْ غَرَاتِكُمْ ۝ قُلْ لَهُمْ ۝ لَا تَعْتَذِرُونَ لِيْ تُوْمِنَ لَكُمْ ۝ أَي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

﴿ثُمَّ تَرْدُّوْنَ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْعَنْبِ وَالشَّهَادَةُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو فضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما يقبل قوله وعذره ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه، بحيث يبقى كأنه لم يذنب، [فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة]^(٤)، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية. وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقِلْتُمْ إِلَيْهِمْ يَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم. ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ أي: إنهم قدر خبيثاء، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

(١) في النسخين: التي. (٢) زيادة من هامش: ب. (٣) في ب: واللوم يتأكد على الذين. (٤) ما بين المعقوفين موجود في النسخين، مشطوب في ب بخط مغاير، وقد حذف من المطبوع، والسياق يحتاج إلى تأمل - والله أعلم -.

الْمُؤْمِنِينَ

٢٠٢

سُورَةُ الْبُرَاجِ

يَعْتَذِرُونَ لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنُتَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَالْأَعْرَابُ مِنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَالْأَعْرَابُ مِنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا قُرْبَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغيظه. وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ولم يقل: «فإن الله لا يرضى عنهم» ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضى الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعداء في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم فلا حياء ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس.

وفي هذه الآيات إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾. وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

(٩٧-٩٩) ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ○ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ○ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا قُرْبَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية، والأعمال والأحكام، فهم أخرى ﴿وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من أصول الإيمان، وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية. ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية. فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأعظم مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، وأشح فيها.

فمنهم: ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: يراها خسارة ونقصا، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرها. ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فعليهم دائرة السوء.

وأما المؤمنون فلمهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبي الحسنة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق، ويعمل

بمقتضى الإيمان.

﴿وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿و﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿صَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيهاً لنفع صلوات الرسول: ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَىٰ لَهُمْ﴾ تبرعهم إلى الله، وتنمي أموالهم، وتحل فيها البركة.

﴿سَيُجَنِّدُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جملة عباد الصالحين إنه ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عبادته برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباد المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثواب.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعريضهم وباديته، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص، ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدراً أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك، فإن في معرفتها يتمكن من فعلها إن كانت مأموراً بها^(١)، أو تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشراح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرمًا.

(١٠٠) ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة، وبدروها إلى الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين الله.

﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيُصْرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

﴿و﴾ من ﴿الْأَنْصَارِ﴾ ﴿الَّذِينَ بَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْرَجُونَ مِنْ حَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الدم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ييغون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ تَعَنُّ تَعْلَمُهُمْ سَعْدُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً منافقون ﴿مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ﴾ أي: تمرنوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿تَعَنُّ تَعْلَمُهُمْ سَعْدُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن^(٢)، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

ويحتمل أن المراد سغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرهه.

(١٠٢، ١٠٣) ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْ دِيَارِهِمْ هَاجِرِينَ هَاجِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿عَنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: أخرجوا منها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

(١) في ب: إن كانت مأمورة. (٢) في ب: والغم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٣

سُورَةُ الْبَرَاءَةِ

وَالسَّائِقُونَ^(١) الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
 لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٢) وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
 مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُ
 نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ
 عَظِيمٍ^(٣) وَآخَرُونَ أَاعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
 وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ^(٤)
 خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
 إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٥) أَلَمْ يَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
 اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(٦) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
 وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُدُّوا زُرُوقَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٧) وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ
 اللَّهِ إِمَّا يُبْعِدُهُمْ وَإِمَّا يَنْتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٨)

الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال تنمي
 ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما
 أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمي، كالحبوب
 والثمار والماشية المتخذة للنماء، والدر، والنسل، فإنه تجب
 فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للقتية، لم
 تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا
 يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية
 بالقتية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج
 زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة
 والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه، لمن أدى
 زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهرا، بحيث يسمعه
 المتصدق فيسكن إليه.

(١) في ب: دالة.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحا،
 إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن
 الكفر والشرك الذي هو شرط لكل عمل صالح. فهؤلاء
 خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجروء على
 بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع
 الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عَسَى اللَّهُ
 أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة،
 اللتان لا يخلو مخلوق منهما. بل لا بقاء للعالم العلوي
 والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على
 ظهرها من دابة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَمِيزُ الْيَقِينِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَ وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ
 أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

ومن مغفرته: أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا
 أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنابوا، ولو قبيل
 موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم،
 فهذه الآية دلت^(١) على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم
 يتب توبة نصوحا، أنه تحت خوف والرجاء، وهو إلى
 السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل
 لا يزال مصرا على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمرا له بما يطهر
 المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة
 المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب
 والأخلاق الرذيلة.

﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ أي: تنميههم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة،
 وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والآخروي،
 وتتمى أموالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموما،
 وخصوصا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم.

﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار
 لهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله،
 وعلى قدر نيته. فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم
 بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته، دعا
 له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع

حكمته أن يخذلهم ولا يوفقه للتوبة، فعل ذلك .

(١٠٧-١١٠) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا

بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ

إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا

لَمَسْجِدُ أُتُتِسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ

يُحْيُونَ أَنْ يَضَلُّوا وَاللَّهُ يُحْيِي الْمُتْهِرِينَ ۚ أَفَمَنْ أَسْسَ

بُنْيَتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْسَ بُنْيَتَهُ عَلَى

شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَهُ فِي نَارٍ حَمِيمٌ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَالِمِينَ ۚ لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ

تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۚ كَانَ أَنَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ

أَهْلِ قِبَاءٍ، اتَّخَذُوا مَسْجِدًا إِلَى جَنْبِ مَسْجِدِ قِبَاءٍ، يريدون به

المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من

المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصنًا عند الاحتياج إليه،

فبين تعالى خزيهم، وأظهر سرهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: مضارة للمؤمنين

ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: قصدهم فيه

الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا

ويختلفوا، ﴿وَإِزْوَاجًا﴾ أي: إعدادًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إعاقة للمحاربين لله ورسوله الذين تقدم

حراهم، واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب،

الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى

المدينة، كفر به، وكان متعبدًا في الجاهلية، فذهب إلى

المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر، بزعمه أنه

ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد ومائلة،

هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل

الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه، ويحرقه، فهدم

وحرق، وصار بعد ذلك مزيلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك

المسجد ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي:

الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ شهادة الله عليهم أصدق من

حلفهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي

بني ضرارًا أبدًا، فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه.

وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله، وعموم كرمه وأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب، أعظم فرح يقدر.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم، أي يقبلها ويأخذها بيمينه، فيربها لأحدهم كما يربي الرجل فلوه، حتى تكن التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية] ^(١) مرارًا. ولا يمل الله من التوبة على عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه، وموالاتهم عدوهم.

﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

(١٠٥) ﴿قُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ وَالشَّهَادَةُ يَتَشَكَّرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿أَعْمَلُوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ وَالشَّهَادَةُ يَتَشَكَّرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر. ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه، وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم، ولو كانت باطنة.

(١٠٦) ﴿وَالْآخِرُونَ مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ﴿وَالْآخِرُونَ﴾ من المخلفين مؤخرون ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ففي هذا، التخويف الشديد للمخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم، غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَفِرْقَانًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْشَرُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرًا مَّنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْنِلُونَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

اطلع على مقصود أصحابه .

منها: أن العمل وإن كان فاضلاً بغيره النية، فينقلب منها عنة، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى .

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها .

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واثلاثهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار، بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله .

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها .

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه . وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال

(١) كذا في ب، وفي أ: وأمر به: الحمد .

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء»، وهو مسجد «قباء»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائره دينه، وكان قديماً في هذا، عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعب، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْشَرُونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات، والأحداث .

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث . ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحززون من مخالفة الله ورسوله .

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم .

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك، والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث .

ثم فاضل بين المساجد، بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: على نية صالحة، وإخلاص «وَرِضْوَانٍ» بأن كان موافقاً لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، «خَيْرًا مَّنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ» أي: على طرف «جُرْفٍ هَارٍ» أي: بال، قد تداعى للانهدام، «فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» لما فيه مصالح دينهم ودنياهم .

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً وريباً ماكتاً في قلوبهم . ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يغفو الله عنهم، وإلا فبنائهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه .

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل، ولا يخلق، ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به، فله الحمد (١) .

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار الذي

الله فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾. ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره حتى كان يزور قباء كل سبت، يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعليها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له، من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد، وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

(١١٢) ﴿الْمُؤْمِنُونَ الْمَحِيدُونَ الْخَائِدُونَ السَّاعُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْكَاهِنُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات، ونيل الكرامات؟ فقال: هم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

﴿الْمَحِيدُونَ﴾ أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

﴿الْخَائِدُونَ﴾ الله في السراء والضراء، والبسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

﴿السَّاعُونَ﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي: المكثرون من الصلاة المشتعلة على الركوع والسجود.

﴿الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

﴿وَالْكَاهِنُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره حتى كان يزور قباء كل سبت، يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعليها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له، من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد، وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

(١١١) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ﴾ وذلك هو الفوز العظيم. يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿اشْتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ فهي المثلن والسلعة المبيعة.

﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والحدود الحسان، والمنازل الأنينقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يذبلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته، وإظهار دينه ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾ التي هي

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا، والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم، قوة وضعفاً، وعملاً بمقتضاه.

(١١٣، ١١٤) ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: لمن كفر به، وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً، فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له. ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه. فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقة لربه وتأديباً معه.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: رجأع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار، والإنابة إلى ربه.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفز جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿لَا رَحْمَتَ لَكَ﴾ وهو يقول له: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾.

فعليكم أن تقتلدوا به، وتبوعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ كما نهى الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ الْحِمْدُونَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ
الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّكَاهُوتِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانِ
اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ
حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ
حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْهِ ﴿١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ
دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٨﴾

(١١٥، ١١٦) ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية، بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْهِ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما

لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير

الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني، المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سُدىً مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده؟! فلماذا قال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُرِّئٍ مِّنْ اللَّهِ مِن وَلَدٍ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْفُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَوُّوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَكَلَّ الْفَلَاحَةَ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِّنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أذن في توبتهم، ووقفهم لها لِيَتُوبُوا أي لتقع منهم، فيتوب الله عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان.

﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد، أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتنَّ عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب، ولا يحرص إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خَلَقُوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُتَّ في قبول عذرهم، أو في رده] ^(٢)، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أنَّ الله تعالى مَنَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩) أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى،

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْفُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَوُّوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَكَلَّ الْفَلَاحَةَ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِّنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْفُسْرَةِ﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك» ^(١) وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم، وأيدهم وقواهم. وزيغ القلب، هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَوُّوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن رافته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم، وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى الَّذِينَ خَلَقُوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، و﴿صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبتها ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢١﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٣﴾

باجتناب ما نهى الله عنه، والبعد عنه. ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفطور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية.

(١٢٠، ١٢١) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب الذين أسلموا، فحسن إسلامهم - : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ فِي بَقَائِهَا وَرَاحَتِهَا، وَسُكُونِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها. فعلمة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مجاعة.

﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا﴾ كالظفر بجيش، أو سرية، أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال، آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن ذلك، هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا

فيها. ففي هذه الآيات أشد ترغيب، وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يقول تعالى منها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: جميعاً لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم، وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتهم، فقال: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

يَتَّيْمًا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلَهُ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ
ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بَيْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ الْبُرْجَةِ
الْأُولَى

الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها، من الطائفتين.

قال تعالى - مبينًا الحال الواقعة - : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والارغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا، بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: مرضًا إلى مرضهم، وشكًا إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿وَوُضِعَ الطَّعْنُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، حَتَّىٰ ﴿مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - موبخًا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق - : ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصًا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علمًا، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجاهل ما لا يعلمون، فأَيُّ منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا.

وفي هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتنبية لطيف، لفائدة مهمة، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة، من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق، وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

(١٢٣) ﴿يَتَّيْمًا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلَهُ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وهذا أيضًا إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة واللباب.

﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعِينَكُمْ وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قَبْلَهُ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدًا.

(١٢٤-١٢٦) ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ○ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ○ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يقول تعالى مبينًا حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أي: حصل

رَجِيْرٌ أَي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيـره، وتوقيـره ﴿فَإِنْ آمَنُوا، فَذَلِكَ حَظُّهُمْ وَتَوَفَّقِهِمْ، وَإِنْ نَوَلُوا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أَي: الله كافٍ في جميع ما أهمني ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لا معبود بحق سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات.

وإذا كان ربُّ العرش العظيم الذي وسع المخلوقات، كان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه، فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

تفسير سورة يونس

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠، ١) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يقول تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام الدالة آياته على الحقائق الإيمانية، والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَي: لهم جزاء موفور^(١)، وثواب مذكور عند ربهم، بما قدموه، وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به، ف﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنه ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: موفر.

مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي، ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجدده وينميـه، ليكون دائماً في صعود.

(١٢٧) وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ يَوْمَ تَأْتِيكُمْ يَوْمَ نَصْرَوُا﴾ صرفك الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المناققين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هَلْ يَرِيكُمْ يَوْمَ تَأْتِيكُمْ يَوْمَ نَصْرَوُا﴾ متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أَي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿يَأْتِيهِمْ يَوْمَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فقها ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا - إذا نزلت سورة - آمنوا بها، واتقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تُحْكِمُ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُظْهَرُونَ إِلَيْكَ تَنْظُرَ الْمَغْنَمِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

(١٢٨، ١٢٩) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيْرٌ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصـح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تفيركم عنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾

أي: بينُ السحر، لا يخفى - بزعمهم - على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

(٤، ٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكَ عِلْمُ اللَّهِ رَبِّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يقول تعالى - مبيّنًا لربوبيته، وإلهيته، وعظمته - : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة. ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإمارة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين. فأنواع التدابير نازلة منه، وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزّه^(١)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي هذا شأنه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال. ووصف الربوبية، الجامع لصفات الأفعال.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ﴿أَقْلًا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه الديني، وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنَ إِنَّكَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكَ عِلْمُ اللَّهِ رَبِّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَعَلَّكُمْ أَعِدَّةَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

بعد موتكم لميقات يوم معلوم.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم يُنكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل، منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعده صادق، لا بد من إتمامه.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله، وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

مراهمهم^(٢)، ونهاية قصدهم. فسعوا لها، وأكبوها على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصولها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكانهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست بدار ممر، يتزود منها المسافرون، إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فلا يتفكرون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَذَا صَفُهُمْ﴾ مأوئهم النار أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها.

﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي. فلما ذكر عقابهم، ذكر ثواب المطيعين فقال:

(١٠، ٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان. والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. أضافها الله إلى النعيم، لاشتغالها على النعيم التام. نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنفحات المشجيات، والمناظر المفرجات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

(٦، ٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ سَجًا وَالنَّهَارَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّجْمِينَ وَالْحَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته: من الشمس والقمر، والسموات والأرض وجميع ما خلق فيها من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيومته، وما فيها من الأحكام، والإتقان، والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء، والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة بره وإحسانه. وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله، وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود، المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا غيره من المخلوقات المربوبات، المفتقرات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار. فإن بذلك تفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة. وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاقاً لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقرينة.

(٨، ٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلاً عن الآخرة.

﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية

(١) في ب: الدلائل. (٢) في ب: أمرهم.

سورة يونس

٢٠٩

سورة يونس

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ
النَّارُ يَمَا كَانُوا يُكَسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سَبْحًا
لِلَّهِمْ وَنَحْبُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْهَا دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلْنَا لَهُمْ
بِالْخَيْرِ لَقَضَيْنَا إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
ضُرَّهُ مَرَّكَ أَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زَيْنَ الْمُسْرِفِينَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قضاء غرضه، فإذا أناله إياه، لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنًا مستحبًا في العقول والفطر. ﴿كَذَٰلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٣، ١٤) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق، فلم يتقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم، متجرى على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن

(١) كذا في ب، وفي أ: عقوبة منه.

﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سَبْحًا لِلَّهِ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما ﴿يَحْيِيهِمْ﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والاثم، موصوف بأنه ﴿سَلَامٌ﴾، وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سَبْحًا لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا: سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (١١) ﴿لَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلْنَا لَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَيْنَا إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر، إذا أتوا بأسبابه، وبأدبرهم بالعقوبة على ذلك، كما يجعل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقَضَيْنَا إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ أي لمحققتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم، ولا يمهلهم ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم، ما ترك على ظهرها من دابة. ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده، أو أهله، أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة، لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم.

وقوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَ أَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضرر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائمًا وقاعدًا، ومضطجعًا، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَ أَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي: استمر في غفلته معرضًا عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأَيُّ ظلم أعظم من هذا الظلم؟! يطلب من الله

قبلكم واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أُنذر فقد أَعذر.

(١٥-١٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِشُرَءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سَبِّحُنْهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ۝﴾

فإذا كان الرسول العظيم، يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما ينبغي ولا يليق ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ليس لي غير ذلك، فإني عبد مأمور.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فهذا قول خير الخلق، وأدبه مع أوامر ربه ووحيه، فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد، والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟!

فإن زعموا أن قصدهم أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوا فهم كَذَّبَ في ذلك، فإن الله قد بين من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرفها كيف يشاء، تابعا^(١) لحكمته الربانية، ورحمته بعباده.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا طَوِيلًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي حيث لم أقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أَتَقَوْلُهُ بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرا طويلا، تعرفون حقيقة حالي، بأني أُمِّي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أعلم من أحد؟!

فاتينكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعياء العلماء، فهل يمكن - مع هذا - أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِشُرَءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سَبِّحُنْهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ۝﴾

فلو أعلمتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتكم جزما لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ^(٢) أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ؟﴾!

فلو كنت مُتَّقِوًا لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح ما دمت كذلك.

ودل قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية، أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بقاء الله، وعدم رجائه، وأن من آمن بقاء الله فلا بد أن يتقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ

كقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ فَلْيَكُنْ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ الآيات.
وكقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَبُوءَ﴾ الآيات.

﴿قُلْ﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو
المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم،
وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا
غاية ولا تعليل.

﴿فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ السُّنْطَرِينَ﴾ أي: كل ينتظر
بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

(٢١) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ
فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَكْرُرُ﴾ يقول
تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كالصحة بعد
المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما
أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة،
بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أي يسعون بالباطل،
ليبتلوا به الحق.

﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله،
فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب
الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم
[الله] عليه أوفر الجزاء.

(٢٢، ٢٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي
الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئٍ وَوَرَّحُوا بِهَا جَهَاتَهَا يَرْجِعْ عَصَافٌ وَسَاءَ لَهُمْ
الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ
لَيْنَ أَجْبَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَجَبْتَهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما
ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة
لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تويد ذلك وهي
حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال:
﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بما يسر لكم من الأسباب
المسيرة^(١) لكم فيها، وهداكم إليها.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ أي: السفن البحرية ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ
بِرِيحٍ طَبَئٍ﴾ موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.
﴿وَوَرَّحُوا بِهَا﴾ واطمانوا إليها، فينما هم كذلك، إذ ﴿جَاهَتْهَا
بِرِيحٍ عَاصِفٍ﴾ شديدة الهبوب ﴿وَسَاءَ لَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا

وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول
تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله
ﷺ.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: لا تملك
لهم مقال ذرة من النفع، ولا تدفع عنهم شيئاً.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولاً خالياً من البرهان ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ
اللَّهِ﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده،
وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال
تعالى - مبطلاً لهذا القول - : ﴿قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط
علماً بجميع ما في السموات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس
له شريك ولا إله معه، أفأنتم - يا معشر المشركين - تزعمون
أنه يوجد له فيها شركاء؟ أفنخبرونه بأمر خفي عليه،
وعلمتوه؟ أنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أطل من هذا
القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء، أعلم
من رب العالمين؟.

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده
وبطلانه. ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقديس وتنزه
أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد
الذي لا إله في السموات والأرض إلا هو، وكل معبود في
العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلاً وشرعاً وفطرة.
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

(١٩، ٢٠) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝
وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ
فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ السُّنْطَرِينَ﴾ أي: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا
أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا،
فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب
ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بإمهال العاصين،
وعدم معاجلتهم بذنوبهم ﴿لَفُتِي بَيْنَهُمْ﴾ بأن ننجي المؤمنين،
ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ﴾ ولكنه أراد امتحانهم، وابتلاء بعضهم ببعض،
ليبين الصادق من الكاذب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون المتعتنون، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ
آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾. يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها،

سُورَةُ يُوسُفَ

٢١١

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفٌ
 ءَايَاتِنَا أَفَلَّ تَأْتُلُ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْذِبُونَ مَا تَمْكُرُونَ
 ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
 وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
 وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
 اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ثُمَّ أَلَيْنَا مَرْجِعَكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾
 إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا
 أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ
 بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ
 يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ﴿٢٤﴾ أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشكَّ البيان.

ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شَوَّقَ إلى الدار الباقية فقال:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَ وَرِيَادَةً وَلَا يَرْجُوْا وَجْهَهُمْ قَرَّرَ وَلَا ذِلَّةَ أُولَئِكَ أَحَبُّ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

عَمَّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام، والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه. فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة، بعد البيان والرسل.

أَتْنَمُ أُحِيطَ بِهِمْ ﴿٢١﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالخلقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٢﴾ أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق. فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة!؟

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: غاية ما تؤملون ببغيكم، وشروءكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها، التزر اليسير الذي سينقضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تنتقلون عنه بالرغم.

﴿ثُمَّ أَلَيْنَا مَرْجِعَكُمْ﴾ في يوم القيامة ﴿فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها، ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار ﴿وَمَا تَأْكُلُ﴾ الْأَنْعَامُ ﴿كَأَنْوَاعِ الْعُشْبِ، وَالْكَلَاءِ الْمُخْتَلَفِ الْأَصْنَافِ.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: تزخرت في منظرها، واكتست في زيتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزرة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إراداتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا

وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها، وتمامه، وبقاءه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبادته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم ﴿لِمُتَىٰ﴾ وهي الجنة الكاملة في حسناتها و﴿زِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿وَلَا يَرَهُمْ وَأُوجِبُهُمْ قَرَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - : ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ اللَّهِ﴾، وأولئك أصحاب الجنة الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَرَهَقَهُمْ ذُلٌّ مَّا لَمْ يَنْ أَلَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَتْ أَغْشِيَتُ وُجُوهَهُمْ قَطَعًا مِّنْ أَلِيلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي.

فجزاؤهم سيئة مثلها أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وَرَهَقَهُمْ﴾ أي تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهريهم، فتكون سوادًا في الوجوه^(٢).

﴿كَانَتْ أَغْشِيَتُ وُجُوهَهُمْ قَطَعًا مِّنْ أَلِيلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، ويا بعد ما بينهما من التفاوت؟!

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۖ تَنْظُرُ ۚ أَنْ يُقَالَ يَا قَاظِرَةُ ۖ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْفَعُهَا قَرَّةٌ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۖ﴾.

(٢٨-٣٠) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ ۖ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبِينُ﴾ ﴿وَيَبِينُكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَفِيلِينَ ۖ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۖ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم ﴿فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا، خالص المحبة وصَفْوُ الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية، بغضًا وعداوة. وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ﴾ فإننا نتره الله أن يكون له شريك أو نديد.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبِينُ﴾ ﴿وَيَبِينُكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَفِيلِينَ﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْتَدَ لَكُمْ يَنْبَغِي ۖ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي ۖ إِنَّا كُنَّا عِبَادُونَ ۖ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَنِسَاءُ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِينَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾.

فالملائكة الكرام، والأنبياء، والأولياء ونحوهم يتبرأون ممن عبدتهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إليهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك. فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك اليوم ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: تنفد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه

(١) في ب: فكما. (٢) في ب: في وجوههم.

من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تفعهم وتدفع عنهم العذاب.

(٣١-٣٣) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يأنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضل بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ عكس هذه المذكورات.

﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزاماً بالحجة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿فَذَلِكُمُ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المألوه المعبود المحمود، المربي جميع الخلق بالنعم وهو ﴿الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن عبادة مَنْ هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه. فتباً لمن أشرك به، ووبخاً لمن كفر به، لقد عدمو أقولهم بعد أن عدمو أديانهم،

٢١٢ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قُطْعَانٌ لَّيْلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَيَوْمَ نُحْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ فَكُفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبْتَثِلُكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٩﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٤٠﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾

بل فقدوا دنياهم وأخرهم.

ولهذا قال [تعالى] عنهم: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ما أراهم ^(١) الله من الآيات، البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

(٣٤-٣٦) ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ وَمَا يَبْعَثُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقِينُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى - مبيهاً عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله - : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي يتبدى ^(٢) ثم يعيده.

وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز ^(٣) ﴿قُلِ اللَّهُ

(١) في ب: بعد أن أراهم.

يَسْبُدُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ مِنْ غَيْرِ مَشَارِكٍ، وَلَا مُعَاوَنَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ.

﴿فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة، إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقُونَ.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بيانه وإرشاده أو يالهامه وتوفيقه.

﴿قُلْ اللَّهُ﴾ وحده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بالادلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

﴿أَنْتَ لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تُهْدَى ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله، أوصاف معنوية، ولا أوصاف فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقص الموجبة لبطان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين الشيطان للإنسان، أقبح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه، وظنه حقاً، وهو لا شيء.

ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه ليس لله شريك أصلاً، عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَفْتِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾. فسموها آلهة، وعبدوها مع الله، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

(٣٧-٤١) ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنزَلْنَاهُ سُورَةً مَثَلَهُ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ○ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ○ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ○ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ الْأَطْلَانِ إِنَّ الظَّنَّ لَا يَفْتِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنزَلْنَاهُ سُورَةً مَثَلَهُ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ فَإِن تَسْمِعُ الضَّمَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾

الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وهو كتاب الله الذي تكلم به [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!.

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقوله أحد على رب العالمين، لعاجله بالعقوبة وبادهه بالنكال.

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين.

أنزله ﴿تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة.

جاء به ﴿و﴾ أَن ﴿مِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفَتْ قِرَاءَتِهِ لِلوحي، لَا عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِشَادِ، بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِجِ وَالتَّكْذِيبِ، وَتَطْلُبُ^(١) الْعَثَرَاتِ، وَهَذَا اسْتِمَاعٌ غَيْرُ نَافِعٍ، وَلَا مُجْدٍ عَلَى أَهْلِهِ خَيْرًا، لَا جَرَمَ أَسَدَ عَلَيْهِمْ بَابُ التَّوْفِيقِ، وَحَرَمُوا مِنْ فَائِدَةِ الْإِسْتِمَاعِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُشْعِصُ الْقَصَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾. وَهَذَا الْإِسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ الْمَقَرَّرِ، أَيْ: لَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الَّذِينَ لَا يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ وَلَوْ جَهَرَتْ بِهِ، وَخُصُوصًا إِذَا كَانَ عَقْلُهُمْ مَعْدُومًا.

فَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَحَالِ إِسْمَاعُ الْأَصَمِّ الَّذِي لَا يَعْقِلُ لِلْكَلَامِ، فَهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ كَذَلِكَ مَمْتَنِعٌ إِسْمَاعُكَ إِيَاهُمْ إِسْمَاعًا يَنْتَفَعُونَ بِهِ.

وَأَمَّا إِسْمَاعُ الْحُجَّةِ فَقَدْ سَمِعُوا مَا تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ حُجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةِ، فَهَذَا طَرِيقٌ عَظِيمٌ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ قَدْ أَسَدَ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ طَرِيقُ الْمَسْمُوعَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْخَبَرِ.

ثُمَّ ذَكَرَ اسْتِدَادَ الطَّرِيقِ الثَّانِي، وَهُوَ طَرِيقُ النَّظَرِ فَقَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ فَلَا يَفِيدُهُ نَظَرُهُ إِلَيْكَ، وَلَا سَبْرَ أحوَالِكَ شَيْئًا، فَكَمَا أَنَّكَ لَا تَهْدِي الْعَمِيَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ، فَكَذَلِكَ لَا تَهْدِي هَؤُلَاءِ.

فَإِذَا فَسَدَتْ عَقُولُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُم الَّتِي هِيَ الطَّرِيقُ الْمَوْصِلَةُ إِلَى الْعِلْمِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ، فَأَيْنَ الطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ لَهُمْ إِلَى الْحَقِّ؟

وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ الْآيَةَ، أَنَّ النَّظَرَ إِلَى حَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهَدْيِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَأَعْمَالِهِ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدَلَةِ عَلَى صِدْقِهِ، وَصَحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، وَأَنَّهُ يَكْفِي الْبَصِيرَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَدَلَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا﴾ فَلَا يَزِيدُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يَجِئُهُمُ الْحَقُّ فَلَا يَقْبَلُونَهُ، فَيَعَايِبُهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالطَّبِيعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَالخَتْمِ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ.

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سُرْعَةِ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا حَشَرَ النَّاسَ وَجَمَعَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، كَأَنَّهُمْ مَا لَبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَكَأَنَّهُمْ مَا مَرَّ عَلَيْهِمْ نَعِيمٌ وَلَا بؤْسٌ، وَهُمْ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، كَحَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا. فَفِي هَذَا الْيَوْمِ يَرْبِحُ الْمُتَقُونَ، وَيَخْسِرُ

﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: لَا شَكَّ وَلَا مَرِيَّةَ فِيهِ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الْيَقِينُ: تَنْزِيلُ مَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي رَبَّى جَمِيعَ الْخَلْقِ بِنِعْمِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ تَرْبِيَّتِهِ أَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي فِيهِ مَصَالِحُهُمُ الدِّينِيَّةُ وَالْدُنْيَوِيَّةُ، الْمَشْتَمِلُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أَيْ: الْمَكْذِبُونَ بِهِ عِنَادًا وَبَغْيًا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ مُحَمَّدٌ عَلَى اللَّهِ، وَاخْتَلَفَهُ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ - مَلْزَمًا لَهُمْ بِشَيْءٍ - إِنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ، أَمْ كُنْ مَا ادَّعَوْهُ، وَإِلَّا كَانَ قَوْلُهُمْ بَاطِلًا.

﴿فَأَنَّا إِنَّا بِسُورَةِ يَنْفِيلِهِ وَأَدْعَاؤِ مَنْ أَسْتَطَاعَتْهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يَعَاوَنُكُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِسُورَةِ مِثْلِهِ، وَهَذَا مُحَالٌ، وَلَوْ كَانَ مُمْكِنًا لَادْعَاوُ قُدْرَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَأَتَوْا بِمِثْلِهِ.

وَلَكِنْ لَمَّا بَانَ عَجْزُهُمْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا قَالُوهُ بَاطِلٌ، لَا حَظَّ لَهُ مِنَ الْحُجَّةِ. وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ، الْمَشْتَمِلِ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي لَا حَقَّ فَوْقَهُ، أَنَّهُمْ لَمْ يَحِيطُوا بِهِ عِلْمًا.

فَلَوْ أَحَاطُوا بِهِ عِلْمًا، وَفَهَمُوهُ حَقَّ فَهْمِهِ، لَأَدْعَاوُ بِالْتَّصْدِيقِ بِهِ. وَكَذَلِكَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ الَّذِي وَعَدَهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ وَيَحِلَّ بِهِمُ النَّكَالُ، وَهَذَا التَّكْذِيبُ الصَّادِرُ مِنْهُمْ مِنْ جِنْسِ تَكْذِيبٍ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وَهُوَ الْهَلَاكُ الَّذِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدًا.

فَلْيَحْذَرِ هَؤُلَاءِ أَنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ، فَيَحِلَّ بِهِمْ مَا أَحْلَى بِالْأَمَمِ الْمَكْذِبِينَ، وَالْقُرُونِ الْمَهْلِكِينَ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الثَّبَتِ فِي الْأُمُورِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبَادِرَ بِقَبُولِ شَيْءٍ أَوْ رَدِّهِ، قَبْلَ أَنْ يَحِيطَ بِهِ عِلْمًا.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أَيْ: بِالْقُرْآنِ وَمَا جَاءَ بِهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْعِنَادِ وَالظُّلْمِ، وَالْفُسَادِ، فَسَيَجَازِيهِمْ عَلَى فُسَادِهِمْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فَاسْتَمِرَّ عَلَى دَعْوَتِكَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، لِكُلِّ عَمَلِهِ ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ رِبِّيُّونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا رِبِّيُّوهُ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

(٤٤-٤٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتُمْ تُشْعِصُ الْقَصَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتُمْ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ○ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ بَعْضِ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ وَلَمَّا

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: وَتَطْلُبُ.

سورة يونس

٢١٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَكَ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّهُمْ لَبِئْسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِمَارَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّتُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٢﴾ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ بِهِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٤﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٥﴾

يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٢﴾ أي: أي بشارة استعجلوا بها، وأي عقاب ابتدروه؟

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ بِهِ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخًا وعتابًا - في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون -

﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ﴾ فإن سعة الله في عبادته أنه يعتبرهم إذا استعجلوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق: ﴿قَالَ أَمْسَتْ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَوْمَ اتَّخَذْتُمُ آلِهَتًا مِنَ الَّذِينَ فِي الْآثَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَيْنَهُمْ لَمَّا تَرَأَوْا بَأْسًا شَيْءٌ إِلَّا مَا كُنْتُمْ فِي عِبَادَةٍ﴾، وقال هنا: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ بِهِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ﴾ فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

الذين كذبوا بقاء الله، وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

(٤٦) ﴿وَلَمَّا تَرَيْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّتُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقرُّ به نفسك.

وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينتهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

(٤٧-٤٩) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ رَّسُولٌ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ هم ﴿رَسُولُهُمْ﴾ بالآيات، صدقه بعضهم، وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم. فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

وإما حسابهم وإنزال العذاب عليهم، فمن الله تعالى، ينزله ﴿عليهم﴾ إذا جاء أجل الذي أجله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية.

فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب، فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ولهذا قال:

(٥٠-٥٢) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ بِهِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ﴾ وقت نومكم بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ في وقت غفلتكم ﴿مَاذَا

(٥٨، ٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يقول تعالى - مرغبا للخلق، في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: تعظكم، وتذكركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، والمقتضية لعقابه، وتذكركم عنها بيان آثارها ومفاسدها ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القاذحة في العلم اليقيني. فإن ما فيه من المواعظ، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة.

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، ونمتا على تكرار ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبهة القاذحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهدى هو العلم بالحق والعمل به. والرحمة هي: ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به. فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والتجّاح، والفرح والسرور. ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةً وَمَنَةً، وَفَضْلُ تَفَضُّلِ اللَّهِ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ﴾ ﴿وَرَحْمَتِهِ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفة. ﴿فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب. وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضل ورحمته، لأن ذلك مما

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفر عنكم ساعة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

(٥٣-٥٦) ﴿وَيَسْتَعِذُّونَكَ أَهْلُ الْاِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْتَعِذُّونَكَ أَهْلُ الْاِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ﴾ أي: يستخبرك المكذوبون على وجه التعتن والعناد، لا على وجه التبين والرشاد^(١).

﴿أَهْلُ الْاِي وَرَبِّي﴾ أي: أصحاب حشر العباد، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؟.

﴿قُلْ﴾ لهم مقسما على صحته، مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ﴾ لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ الله أن يعثبكم، فكما ابتدأ خلقكم، ولم تكونوا شيئا، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿و﴾ إذا كانت القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعا ذلك، وإنما النفع والضّر، والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وَأَسْرُوا﴾ [أي:] الذين ظلموا ﴿النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ندموا على ما قدموا، ولات حين مناص ﴿وَفُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي. ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين الثقلية والعقلية.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير^(٢)، لا شريك له في ذلك.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرا وشرها.

يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منها، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال [تعالى عن] قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَالِغِ﴾.

(٥٩، ٦٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَا إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ۚ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى - منكراً على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم^(١) -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ يعني أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها الله رزقاً لهم ورحمة في حقهم.

قل لهم - موبخاً على هذا القول الفاسد -: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ؟﴾ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم فعملهم أنهم مفترون.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ كثير، وذو إحسان جزيل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما ألا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة، الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته، وإطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تتلون من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٩) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَجَدَاءً تَكُمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَا إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: وقت شروعيكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي: ما يغيب^(٢) عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر، كثيراً ما يقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) في ب: ما حرمه. (٢) في النسختين: ما يغاب.

سورة يونس

٢١٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿٦٢﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٥﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْعَوْا إِلَى
 الظَّنِّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ إِنْ لِلَّهِ يَفْقَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ
 لَا يَفْلَحُونَ ﴿٧٠﴾ مَتَّعْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
 ثُمَّ نُنْفِقُهُمْ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾

تُعْزُّهُمْ، ولا تضرك شيئاً ﴿٦٢﴾ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٦٣﴾ يؤتيها من يشاء، ويمنعها ممن يشاء.

قال تعالى: ﴿٦٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿٦٥﴾ أي: فليطلبها بطاعته، بدليل قوله بعده: ﴿٦٦﴾ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿٦٧﴾.

ومن المعلوم أنك على طاعة الله، وأن العزة لك ولأتباعك من الله ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾.

وقوله: ﴿٧٠﴾ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧١﴾ أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو - تعالى - يسمع قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً، فاكثف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله فهو حسبه.

﴿٦٦، ٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْعَوْا

﴿٦٢-٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٨﴾ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبابه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿٦٩﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ ﴿٧٠﴾ فيما يستقبلونه، مما أمامهم من المخاوف والأحوال ﴿٧١﴾ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٢﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿٧٣﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٧٤﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتنال الأوامر واجتناب النواهي. فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله [تعالى] ولياً، ﴿٧٥﴾ وَلَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿٧٦﴾.

أما البشارة في الدنيا، فهي الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَتَنَّا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تُخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَابْتِشَرُوا بِالْغَنَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٧٨﴾.

وفي القبر، ما يبشر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم. وفي الآخرة، تمام البشري بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿٧٩﴾ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴿٨٠﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قوله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿٨١﴾ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٢﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب. وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشري شاملة لكل خير وثواب، رتبته الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيده.

﴿٨٣﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدر فيك، وفي دينك، فإن أقوالهم لا

في أقطار الأرض ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْرِبِينَ﴾ وهو الهلاك المخزي، واللعة المتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترى إلا قدحًا وذمًا.

فليحذر هؤلاء المكذبون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقسام المكذبين، من الهلاك والخزي والنكال.

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعِدِّينَ﴾ أي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمُ﴾ المكذبين، يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم من أسباب الردى.

﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: كل نبي أئد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أن الله تعالى عاقبهم، حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعِدِّينَ﴾ أي: نختم عليها، فلا يدخلها خير. وما ظلمهم [الله]، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إلى آخر القصة. (٣) أي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين.

﴿مُوسَى﴾ بن عمران كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتردين بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا، بَعَثْنَاهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبع للرؤساء.

﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ظلمًا وعلوًا، بعدما استيقنوها.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: وصفهم بالإجرام والتكذيب.

(١) في النسختين: ولا تذخرون. (٢) في النسختين: بادي. (٣) في ب أحمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تذخروا^(١) من مجهودكم شيئًا.

﴿وَأَحْضَرُوا﴾ شُرَكَاءَكُمْ الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مشتبهًا خفيًا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: اقضوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ أي: لا تمهلون ساعة من نهار. فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ^(٢) قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسلطنة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدرُوا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يدعون، ولهذا قال:

﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتكم إليه، فلا موجب لتوليكم، لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده.

ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجَرٍ﴾ على دعوتي، وعلى إجابتكم فتقولوا: هذا جأنا لياخذ أموالنا، فتمتعون لأجل ذلك ﴿إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه ﴿وَأَيْضًا فَإِنِّي مَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ وَأَخَالَفُكُمْ إِلَى ضِدِّهِ، بَلْ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأننا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، فلم يزدحم دعاؤه إلا فرارًا، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له إذا فار التتور: ﴿فَاجْعَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ ففعل ذلك.

فأمر الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا، فالتقى الماء على أمر قد قُدر: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ تجري بأعيننا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ حَلَائِفَ﴾ في الأرض، بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين، المربي جميع خلقه بالنعيم. فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ردوه فلم يقبلوه، و﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لم يفهمهم - فبجهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحرًا مبينًا ظاهرًا، وهو الحق المبين.

(٧٧) ولهذا ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ - موبخًا لهم عن ردهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس - : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ؟﴾ أي: أقولون إنه سحر مبين؟.

﴿أَسِحْرٌ هَذَا؟﴾ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه، فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق. ﴿وَلَا يُلَاحِظُ السَّحَرُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاح، وعلى يديه النجاح. وقد علموا بعد ذلك، وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

(٧٨) ﴿قَالُوا﴾ لموسى رادين لقوله بما لا يرده: ﴿أَجِئْنَاكَ لِتُغْنِيَنَا عَمَّا وَعَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ أي: أجتئنا لتصدنا عما وعدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله، وتأمنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟ فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة، يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام.

وقولهم^(١): ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وجتئنا لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من أرضنا. وهذا تمويه منهم، وترويج على جهالهم، وتهيج لعوامهم على معاداة موسى، وعدم الإيمان به.

وهذا لا يحتج به من عرف الحقائق وميز بين الأمور، فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين.

وأما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال هذه الأمور، فإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء به خصمه، لأنه لو كان له حجة لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقًا في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذبًا، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام، كل من عرف حاله وما يدعو إليه، عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض. وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين: هداية الخلق، وإرشادهم لما فيه نفعهم.

ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تكبرًا وعنادًا، لا لبطان ما جاء به موسى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٧

سُورَةُ يُونُسَ

﴿وَأَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ بَيِّنَاتٍ﴾ إذ قال لقومه: ﴿يَقُولُونَ كَانِ كِبَرُكُمْ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (٧٦) ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٧٨) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٩) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٨٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٨١) ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ؟ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ﴾ (٨٢) ﴿قَالُوا أَجِئْنَاكَ لِتُغْنِيَنَا عَمَّا وَعَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٣)

وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رما به موسى وهارون. (٧٩) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا للحق الذي جاء به موسى مغالطًا^(٢) لملئه وقومه: ﴿أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ أي: ماهر بالسحر، متقن له.

فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ للمغالبة مع موسى^(٣) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي: أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئًا، وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبال بهم، وبما جاءوا به.

(٨١) ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كانت حيات تسعى، ف﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟!

(١) في ب: وقوله. (٢) في ب: ومغالبا. (٣) في ب: للمغالبة لموسى.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَوِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أُنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ
 مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
 عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَيَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى
 خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَمَّالٌ
 فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُصْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ
 ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
 تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا
 بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ
 أَنْ تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا يُبَصِّرُوكُنَا وَاجْعَلُوا يَبُوتَكُمْ قِسْلَةً
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى
 رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
 وَاسْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٨٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ حين اشتد الأمر على
 قومه من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنهم عن دينهم.
 ﴿أَنْ تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا يُبَصِّرُوكُنَا﴾ أي: مروهم أن يجعلوا لهم
 بيوتاً، يتمكنون [به] من الاستخفاء فيها.
 ﴿وَاجْعَلُوا يَبُوتَكُمْ قِسْلَةً﴾ أي: اجعلوها محلاً تصلون
 فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع
 العامة.
 ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر
 يسراً، إن مع العسر يسراً، وحين اشتد الكرب وضاق الأمر،
 فرَّجه الله ووسعه، فلما رأى موسى القسوة والإعراض من
 فرعون وملئه ^(١) دعا عليهم، وأمن هارون على دعائه، فقال:
 (٨٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ يتزينون بها
 من أنواع الحلبي والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب
 الفاخرة، والخدام، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ عظيمة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا

وهكذا كل مفسدٍ عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى
 بمكر، فإن عمله سيطل ويضمحل، وإن حصل لعمله رَوْجَانٌ
 في وقت ما، فإن ماله الاضمحلال والمحق.
 وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى،
 وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم
 ويرقيها، وينميها على الدوام، فألقى موسى عصاه، فتلقف
 جميع ما صنعوا، فطل سحرهم، واضمحل باطلهم.
 (٨٢) ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَيَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فألقى
 السحرة سجداً، حين تبين لهم الحق، فتوعدهم فرعون
 بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا
 على إيمانهم.
 وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل
 استمروا في طغيانهم يعمهون، ولهذا قال:
 (٨٣) ﴿فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: شباب من
 بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم
 الإيمان.
 ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ عن دينهم ﴿وَإِنْ
 فِرْعَوْنُ لَمَّالٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم
 أن يخافوا من بطشه.
 ﴿و﴾ خصوصاً ﴿إِنَّهُ﴾ كان ﴿لَمِنَ الْمُصْرِفِينَ﴾ أي:
 المتجاوزين للحد في البغي والعدوان.
 والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من
 قومه، أن الذرية والشباب أقبل للحق، وأسرع له انقياداً،
 بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -
 بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق
 من غيرهم.
 (٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما
 يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَقُومُوا
 بوظيفة الإيمان.
 ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي: اعتمدوا عليه، والجاؤا
 إليه واستنصروه.
 (٨٥) ﴿فَقَالُوا﴾ ممثلين لذلك: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، أو
 يغلبونا فيفتنونا بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما
 غلبوا.
 (٨٦) ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لنسلم من شرهم،
 ولنقيم [على] ديننا على وجه تتمكن به من إقامة شرائعه،
 وإظهاره من غير معارض، ولا منازع.

(١) في النسختين: وملئهم، ولعل الصواب ما أثبت.

سُورَةُ يُوسُفَ

٢١٩

الْأَلِيمُ

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَمَا اسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْفَنِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدْنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

يُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ ﴿٩٥﴾ أَي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فَيُضِلُّوْنَ وَيُضِلُّوْنَ.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أَي: أتلغها عليهم إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة غير متففع بها.

﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أَي: قسها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

قال ذلك غضبًا عليهم، حيث تجرأوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

(٨٩) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ﴾ هذا دليل على أن موسى [كان] يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكًا للداعي في ذلك الدعاء.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على دينكما، واستمرا على دعوتكما ﴿وَلَا تَتَّبِعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم. فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أنهم يتبعون، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، يقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أَي: موسى وقومه ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ وَهُمْ لَنَا لَعَابُطُونَ ○ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ.

فجمع جنوده، قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده بغيا وعدوا، أَي: خروجهم باغين على موسى وقومه، ومعتدين في الأرض. وإذا اشتد البغي، واستحكم الذنب، فانتظر العقوبة.

(٩٠) ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه فضربه، فانقلب اثني عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل. وساق فرعون وجنوده خلفه ^(١) داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.

حتى إذا أدرك فرعون الغرق، وجزم بهلاكه ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي: المتقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

(٩١) قال الله تعالى - مبينًا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له -: ﴿ءَالْفَنِّ﴾ تؤمن، وتقر برسول الله ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ﴾ أَي: بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن

الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

(٩٢) ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدْنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك. فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة بيدنه، ليكون لهم عبرة وآية.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فذلك تمر عليهم وتكرر فلا ينتفعون بها، لعدم إقبالهم عليها.

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ أَي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرها

(١) في أ: وجنودهم خلفهم، وفي ب عدلت إلى: وجنوده خلفه.

ومن بعده^(١) وكعب الأحبار وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي يتسبون إليه، فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم^(٢) على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ. فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه. فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب^(٣).

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى: كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل. وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم، وتمويهاً لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئة الظاهرة.

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال: ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَزْوَاجُ آلِ إِيْلَاقَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار وهو عدم الربح أصلاً، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده،

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية، وهي قوله: (وكعب الأحبار وغيرهما). (٢) في السخطين: وآخرهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٣) في ب: أهل الكتاب.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في الحق ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجب لاجتماعهم واتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

والإفذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصلحتهم العامة متفقة، فلا شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصلحتهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم لطفًا بعبادك المؤمنين، يَجْمَعْ شملهم ويرأب صدعهم، ويرُدُّ قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

(٩٤، ٩٥) ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنِلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

﴿فَتَنِلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: أسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم. فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته.

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهاناً على صدقه، فكيف يكون ذلك؟ فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم. وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» (وأصحابه، وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه،

فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه علماً وعملاً.

فذلك يكون العبد من الراحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

(٩٧، ٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرَّوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً، وغياً إلى غيهم، وما ظلمهم الله، ولكن ظلّموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به.

فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً، فيؤمنون لا ينفع الذين ظلّموا معذرتهم، ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَنَعَهَا يُبَدِّلُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من قرى المكذبين ﴿ءَامَنَتْ﴾ حين رأت العذاب ﴿فَتَنَعَهَا يُبَدِّلُهَا﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً، لما قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنِيَ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ف قيل له: ﴿ءَاتَيْنَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسُكْرُنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۖ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّ اللَّهُ الْبَاقِيَ فَذَٰلِكَ فِي عِبَادِهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان، لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا﴾ بعدما رأوا العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق. ولا بد لذلك من حكمة لعالم

الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ يَانَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُكَ ۖ فَامْتَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، [بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه]^(١)، والله أعلم.

(٩٩، ١٠٠) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمِيعًا﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين.

﴿أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله^(٢) [على]^(٣) شيء من ذلك.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته ومشيته، وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهده.

﴿وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الضَّلَالِ﴾ أي: الشر والضلال ﴿عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقون بالاً لنصائحه ومواعظه.

(١٠١-١٠٣) ﴿قُلِ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْتَنِي الْآلِهَتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَكِّمٌ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ۖ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السموات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وَمَا تُعْتَنِي الْآلِهَتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها ﴿إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الهلاك

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في النسختين: غير الله، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة. (٣) زيادة يقتضيا السياق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخَرِيفِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْأَيُّتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مَثَلِ أَيَّامٍ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١١٠﴾ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا تَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٢﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وإمام المتقين وخير الموقنين:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أي: في ريب واشتباه، فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة. ولهذا قال: ﴿فَلَا تَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿وَلَكِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يمتيتكم ثم يبعثكم، ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.

﴿وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو الله تعالى.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرُك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها. وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله

والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة، وشدائدهما.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿ثُمَّ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

(١٠٦-١٠٧) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا تَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ، سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أي: في ريب واشتباه، فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة. ولهذا قال: ﴿فَلَا تَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿وَلَكِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يمتيتكم ثم يبعثكم، ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.

﴿وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو الله تعالى.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرُك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها. وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله

غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره!؟

(١٠٧) ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر: كفقر ومرض، ونحوها ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضرُوا أحداً لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرد الله.

ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لجميع

الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين. فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدا من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا، لما بين الدليل الواضح قال بعده:

(١٠٨، ١٠٩) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِفِينَ ۝ أَيُّهَا الرُّسُولُ، لما تبين البرهان ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية، والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي، ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ يهدي الله: بأن علم الحق وتفهمه، وآثره على غيره فلنفسه والله تعالى غني عن عبادته، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ولا يضر الله شيئا، فلا يضر إلا نفسه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسيبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علما وعملا وحالا، ودعوة إليه، ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دُم على ذلك وأثبت، ﴿حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِفِينَ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام، والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه

وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِفِينَ ۝

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكُنْتُ أَحْكَمْتَ عَيْنَهُ ثُمَّ قُضِلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝

أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝

بالسيف والسنان بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان.

فله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس - والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

[وهي: مكة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿الرَّكُنْتُ أَحْكَمْتَ عَيْنَهُ ثُمَّ قُضِلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ يقول تعالى: هذا ﴿رَكُنْتُ﴾ عظيم، ونزل كريم ﴿أَحْكَمْتَ عَيْنَهُ﴾ أي: اتقنت وأحسننت، صادقة أخبارها،

بل ﴿يَعْلَمَ مَا يُرْسَوْنَ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرًا ولا جهرًا، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا نثيت صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا، أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - ﴿يَتَوَنَّنُونَ صُودَهُمْ﴾ أي: يحدودبون، حين يرون الرسول ﷺ لثلا يراهم، ويسمعهم دعوته، ويعظمهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟!

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

(٦) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْوَدَّهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها^(١) على الله.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْوَدَّهَا﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه، وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه. فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علمًا بذواتها، وصفاتها.

(٨،٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَنْزِلُكُمْ أَنْتُمْ حَمَلٌ وَلَكِنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَعْرُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْوَيْلِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَلَكِنْ أَخْرَأَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِنَّ أَتَمَّ مَعْدُودٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْهَشُونَ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿و﴾ حين خلق السموات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السموات والأرض، استوى عليه، يدبر

عادلة وأمرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه.

﴿ثُمَّ قِيلَتْ﴾ أي: ميزت وبينت بيانًا في أعلى أنواع البيان، ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿حَكِيمٍ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة، وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه ﴿لَّا تَقْدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنْهُ﴾ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على المعاصي، بعقاب الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين لله، بثواب الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمِيعُكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتتفنون.

﴿إِلَّا أَكَلِ مُسَكَّنٍ﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وَأِنْ لَوُؤُا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

(٥) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَوَنَّنُونَ صُودَهُمْ لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُرْسَوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَتَوَنَّنُونَ صُودَهُمْ﴾ أي: يميلونها ﴿لِيَسْتَحْفُوا﴾ من الله، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.

قال تعالى - مبيّنًا خطأهم في هذا الظن - ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء.

(١) في ب: فإنه على كل شيء قدير. (٢) في ب: فزرعهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٢

سُورَةُ هُودٍ

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ إِنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى
أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَا يَوْمُ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ
لَيَكْفُرُ كَفُورًا ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأٍ
مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿١٠﴾
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ
مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

الأمر، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة.

ولهذا قال: ﴿يَبْلُوكُمْ إِنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما في السموات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه».

قيل: يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟. فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل. وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْثَرُ بَيْنَهُنَّ لِيُعَلِّمَهُنَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته، ومعرفة بآسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك. فمن انقاد وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء، وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم يصدقوك، بل كذبوك أشد الكذب^(١)، وقدحوا فيما جنت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ألا وهو الحق المبين.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت مقدر فبئس طأوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً، على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال

﴿أَلَا يَوْمُ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

(٩-١١) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كَفُورًا﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ○ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم، بأن الله إذا أذاقه منه رحمة، كالصحة والرزق والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، ويتقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيراً منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويطير، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ أي: فرح^(٢) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدراؤهم، وأي عيب أشد من هذا؟!.

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

(١) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب. (٢) في ب: يفرح.

كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب.

وفيها أن هذا القرآن معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

(١٦، ١٥) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْشَوْنَ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زيتها من النساء والبنين والقناطر المقنطرة، من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً، فهذا لا يكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمناً لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْشَوْنَ﴾ أي: لا ينقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خالدين فيها أبداً، لا يُفْتَر عنهم العذاب؛ وقد حرّموا جزيل الثواب.

﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

(١٧) ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ

(١) في ب: أي أنه قد افتراه. (٢) في ب: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ من عند الله. والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور ﴿وَأَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ وهو الفوز بجنت النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين.

(١٢-١٤) ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يقول تعالى - مسلماً لنبه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين -: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ﴾، أي: لا ينبغي هذا لملكك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدق عما أنت عليه، فترك بعض ما يوحي إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾. فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة. فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه، ولا يضق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه، وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟.

أم عليك حسابهم، ومطالب بهدايتهم جبراً؟.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: افترى محمد هذا القرآن؟. فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه قد افتراه^(١)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ على شيء من ذلكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ [من عند الله]^(٢)، لقيام الدليل والمقتضى، وانتفاء المعارض.

﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدّه اعتراض المعارضين، ولا قدح القادحين، خصوصاً إذا

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٢٣

سُورَةُ

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ
وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَلَمْ يَسْتَجِبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَتَى بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لِلَّهِ
إِلَٰهَ الْوَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ
عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّهِ يَوْتِلُوهُ شَاهِدًا مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ
مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَأْتِ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مَتْنُهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدْتُمْ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

الناس ظلمًا ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ليجازيهم
بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿يَقُولُ
الْأَشْهَدُ﴾ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم:
﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾
أي: لعنة لا تنقطع، لأن ظلمهم صار وصفًا لهم ملازمًا، لا
يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا
بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس
إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.
﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: يجتهدون في
ميلها، وتشيينها، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة،
فيحسون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليسوا فائتين الله،
لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه.

(١) كذا في ب، وفي أ: أنزل.

مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَأْتِ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مَتْنُهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿يَذْكُرُ تَعَالَىٰ حَالُ رَسُولِهِ
مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ وَرَثَتِهِ الْقَائِمِينَ بدينه، وحججه
الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد
مثلهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بالوحي الذي
أنزل ﴿اللَّهُ فِيهِ الْمَسَائِلُ الْمَهْمَةُ، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك
البينة.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدًا
مِّنْهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين
شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد
بذلك إيمانًا إلى إيمانه.

﴿وَمَنْ شَهِدَ ثَلَاثَ وَهُوَ﴾ كُتِبَ مُوسَىٰ التوراة التي
جعلها الله ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن
بالصدق، ويوافق فيما جاء به من الحق.

أي: أفمن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد
الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات
والجهالات ليس بخارج منها؟!

لا يستتون عند الله، ولا عند عباد الله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي:
الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن حقيقة،
فيشمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: القرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: سائر
طوائف أهل الأرض، المتحزبة على رد الحق ﴿فَأَلْتَأْتِ
مَوْعِدُهُ﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مَتْنُهُ﴾ أي: في
أدنى شك ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلمًا وعنادًا وبغياً،
ولا فمن كان قصده حسنًا، وفهمه مستقيمًا، فلا بد أن يؤمن
به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

(١٨-٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ
يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدْتُمْ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا
كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّعْيَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْخَسِرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو
وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو
ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهو لاء أعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٤

سُورَةُ هُودٍ

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
 السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ
 فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَآخَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْنَى
 وَالْأَصْوَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
 ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٨﴾
 أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
 ﴿٢٩﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْنِكَ يَا بَشْرَ
 االرَّأْيَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ
 ﴿٣٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثَنِي رَحْمَةً
 مِنْ عِنْدِهِ فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٣١﴾

فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركها.

(٢٥-٤٩) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾
 إلى آخر القصة^(١). أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحًا أول
 المرسلين ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك
 فقال لهم: ﴿إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بينت لكم ما أنذرتكم
 به بيانا زال به الإشكال.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده،
 واتركوا كل ما يعبد من دون الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 أَلِيمٍ﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله، وتطيعوني.

(٢٧) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الأشراف
 والرؤساء، رادين لدعوة نوح عليه السلام، كما جرت العادة
 لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

﴿مَا تَرْنِكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا﴾ وهذا مانع - بزعمهم - عن
 اتباعه، مع أنه - في نفس الأمر - هو الصواب الذي لا ينبغي
 غيره، لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فيدفعون عنهم
 المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم
 الأسباب.

﴿يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي: يغلظ ويزداد، لأنهم ضلوا
 بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أي: من بغضهم للحق ونفورهم
 عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعا يتفنون
 به ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ كأنهم حُرٌّ مُشْتَفِرَةٌ ﴿فَرَّتْ مِنْ
 قَسْرَتِهِمْ﴾، ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ينظرون نظر عبدة
 وتفكر، فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم والبكم الذين لا
 يعقلون.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب،
 واستحقوا أشد العذاب، ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي
 اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم
 ألهمتهم التي يعبدون من دون الله، لما جاء أمر ربك.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقا وصدقا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾
 حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده، لشدة حسرتهم
 وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، نستجير بالله من
 حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء، ذكر أوصاف السعداء وما لهم
 عند الله من الثواب، فقال:

(٢٣، ٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْنَى
 وَالْأَصْوَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم، أي: صدقوا واعترفوا، لما أمر الله
 بالإيمان به من أصول الدين وقواعده.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب
 والجوارح وأقوال اللسان، ﴿وَآخَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا
 له واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته
 وخوفه ورجائه والتضرع إليه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ
 فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه،
 ولا خيرا إلا سبقوا إليه.

﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء
 ﴿كَالْأَعْنَى وَالْأَصْوَرِ﴾ هؤلاء الأشقياء ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ مثل
 السعداء.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستوون مثلاً، بل بينهما من الفرق
 ما لا يأتي عليه الوصف ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعمال التي تنفعكم

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

أمر، بخلاف الملائكة.

﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كُونُوا بِكَ مِنْ أَدْنَىٰ بَابٍ أَوْ يَخْرُجُوا مِنْ دُونِهَا﴾ أي: ما نرى اتباعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم.

وهم - في الحقيقة - الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملا، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخسر؟

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب يعرفونه ويتحققونه، لا كالأموال الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم ﴿بَلْ نَحْنُكُمْ كَذِبٌ﴾ وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح مجابوا: ﴿يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على يقين وجزم، يعني وهو الرسول الكامل القدوة، الذي يتقاد له أولو الألباب، ويضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقاً، فإذا قال: إني على يمينه من ربي، فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً.

﴿وَأَنْتَ رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِهِ﴾ أي: أوحى إلي وأرسلني، ومن علي بالهداية، ﴿فَقَبِلْتَ عَلَيْنَا﴾ أي: خفيت عليكم، وبها تفاقمت.

﴿أَنْزَلْنَاهُمْ﴾ أي: أنكرهمكم على ما تحققناه، وشككتهم أنتم فيه؟ ﴿وَأَنْتُمْ لَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صاداً لنا عما كنا عليه.

وإنما غايته أن يكون صاداً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ﴾ وأنت لهم كاهن.

﴿وَيَقُولُ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعوتي إياكم ﴿مَالاً﴾ فستستقلون المغرم.

﴿إِنْ أَجَرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل ألقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُمْ ثَلَفُوا رَبَّهُمْ﴾ فمسيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنت النعيم.

﴿وَلَكِنَّتَ أَرْيَاكَ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتهم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدلتهم على بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿وَيَقُولُ مَنْ يَصْرِفُ مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ﴾ أي: من يمنعني من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: غايتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِئْ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملا الذين كفروا: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلمهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لَيَمُنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تأيس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمتقهم، وتقنع لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.

فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح، فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فزيد منك أن تبينه لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك، لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون،

وعلى نبيهم متجرؤون، ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ أَيُّ: إِنْ اقْتَضَتْ مَشِيئَتُهُ وَحُكْمَتُهُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ، فَعَلْ ذَلِكَ ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، وَأَنَا لَيْسَ بِيَدِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أَيُّ: إِنْ إِرَادَةُ اللَّهِ غَالِبَةً، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَغْوِيَكُمْ لَرَدِّكُمْ الْحَقَّ، فَلَوْ حَرَصْتُ غَايَةَ مَجْهُودِي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ أْتَمَّ النَّصْحَ - وَهُوَ قَدْ فَعَلَ عَلَيْهِ السَّلَامَ - فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنَافِعٍ لَكُمْ شَيْئًا ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَشَاءُ، وَيُحْكَمُ فِيكُمْ بِمَا يَرِيدُ ﴿وَالْيَا تُرْجِعُونَ﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرْتَنَاهُ﴾ هَذَا الضَّمِيرُ مُحْتَمَلٌ أَنْ يَعُودَ إِلَى نُوحٍ كَمَا كَانَ السِّيَاقُ فِي قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ قَوْمَهُ يَقُولُونَ: افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَكَذَبَ بِالْوَحْيِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرْتَنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ﴾ أَيُّ: كُلُّ عَلَيْهِ وَزَرُهُ ﴿وَلَا تَزِدْ وَارِدُهُ وَزْدًا أُخْرَىٰ﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرْتَنَاهُ﴾ أَيُّ: هَذَا الْقُرْآنُ اخْتَلَفَهُ مُحَمَّدٌ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، أَيُّ: فَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَقْوَالِ وَأَبْطَلِهَا، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَكْتُبْ، وَلَمْ يَرْحَلْ عَنْهُمْ لِدَرَسَةِ عَلَى أَهْلِ الْكُتُبِ، فَجَاءَ بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي تَحْدَاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ.

فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللاتق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرْتَنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيُّ: ذَنْبِي وَكَذْبِي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ﴾ أَيُّ: فَلَمْ تَسْتَلْجُوا فِي تَكْذِيبِي.

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ أَيُّ: قَدْ قَسَا ﴿فَلَا يَنْتَهِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ: فَلَا تَحْزَنُ، وَلَا تَبَالِ بِهِمْ وَأَبْغَالِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ مَقْتَهُمْ، وَأَحَقُّ عَلَيْهِمْ عَذَابُهُ الَّذِي لَا يَرِدُ. ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أَيُّ: بِحِفْظِنَا، وَمَرَأَىٰ مِنَّا،

الْبَقَرَةُ

٢٢٥

سُورَةُ

وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنَّ آيَاتِنَا لَهُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا أَيْتَنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرْتَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفَرْتَنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَنْتَهِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٤﴾

وعلى مرضاتنا ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيُّ: لَا تَرَاغِبْنِي فِي إِهْلَاكِهِمْ ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أَيُّ: قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، وَنَفَذَ فِيهِمُ الْقَدْرَ.

فامثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَرَأَوْا مَا يَصْنَعُ ﴿سَجَرُوا مِنْهُ قَالُوا إِنَّ سَجَرًا مِمَّا﴾ الْآن ﴿وَأَنَا سَجَرٌ مِنْكُمْ كَمَا سَجَرْتُمْ﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ بَأْسِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ، وَقَدْ عِلِمُوا ذَلِكَ حِينَ حَلَّ بِهِمُ الْعِقَابُ.﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أَيُّ: قَدَرْنَا بِوَقْتِ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿وَوَارَ السُّورِ﴾ أَيُّ: أَنْزَلَ اللَّهُ السَّمَاءَ بِالْمَاءِ الْمُنْهَمَرِ، وَفَجَّرَ الْأَرْضَ كُلَّهَا عَيْونًا حَتَّى التَّنَائِيرِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ النَّارِ فِي الْعَادَةِ، وَأَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنِ الْمَاءِ، تَفَجَّرَتْ، فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَر.

﴿فَلَمَّا﴾ لَنُوحٍ: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْنٍ أَتَيْنِي﴾ أَيُّ: مِنْ كُلِّ صَنَفٍ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ، ذَكَرَ وَأُنْثَى، لَتَبْقَى مَادَّةُ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْأَصْنَافِ الزَّائِدَةِ عَنِ الزَّوْجَيْنِ، فَلَأَنَّ السَّفِينَةَ لَا تَطْبِقُ حَمْلَهَا ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾

﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَقْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها. ﴿وَأُمَمٌ سَتُغْتَبِهُنَّ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يَنْسَهُنَّ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك، أحللنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسيؤخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلا من من عليه برسالته.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها، فاحمد الله واشكره، واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم، والصراط المستقيم، والدعوة إلى الله ﴿إِنَّ الْعَقَبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

(٥٠-٦٠) ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ ليمتكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره، وتجويزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: ﴿يَنْقُورُ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ إِجْرًا﴾ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجاناً.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما أدعوكم إليه، وأنه موجب لقبوله، مُتَّفِقُ المانع عن رده.

﴿وَيَنْقُورُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى.

﴿فإنكم إذا فعلتم ذلك﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿بكثرة الأمطار التي تخبص بها الأرض، ويكثر خيرها.

﴿وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾، فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ عنه، أي: عن ربكم ﴿بِتَجْرِمِينَ﴾ أي: مستكبرين عن عبادته، متجربين على محارمه.

﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِينَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُحِ أَهْطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَتُغْتَبِهُنَّ ثُمَّ يَنْسَهُنَّ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقَبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورُ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ إِجْرًا إِن أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ أَمْ نَكُونُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿فَقَالُوا﴾ رادين لقوله: ﴿يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إن كان قصدهم بالبينة، البينة التي يقرحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.

بل أهل العقول وأولو الأبواب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط، ومن آياته وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدَ إِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾

سورة هود

٢٢٨

سورة هود

إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْتِكَ بَعْضُ الْهَيْئَةِ بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَا
مِنْ دَآئِبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُهَا بِصَبْرٍ إِنْ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَبَسْتَخْلِفَ
رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ ربي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَبِیَوْمِ الْقِيَمَةِ إِلَّا أَنْ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ إِلَّا
بَعْدَ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ
يَقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَهًا إِنْ ربي قَرِيبٌ مُجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا لِيَصْلُحْ فَكَذَّبْتُمْ فَبِمَا رَجَعُوا قَبْلَ هَذَا أَنَّهُمْ لَئِنْ
تَعْبُدُوا مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

حَفِيفٌ ﴿٦٢﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي
﴿مَا نَذَّرَ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالْزَمِيرِ﴾.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعاد، فأصبحوا لا يرى إلا
مساكنهم.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم، لأنهم
﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾
فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا
﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع
المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ أي: متسلط على عباد الله
بالجبروت ﴿عَنِيدٍ﴾ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح

أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم، ويعجزهم،
ويقول لهم: ﴿إِنْ تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ﴾.

﴿إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ
فَكَدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ وهم الأعداء الذين لهم السطوة
والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي طريق كان وهو
غير مكترث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدر أن
ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك آيات لقوم يعقلون.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: لا
نترك عبادة آلِهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بيعة بزعمهم
﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تأيس منهم لنبيهم هود عليه
السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿إِنْ تَقُولُ﴾ فيك ﴿إِلَّا اعْتَرَبْتِكَ بَعْضُ الْهَيْئَةِ بِسُوءٍ﴾ أي:
أصابتك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل، فسبحان
من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق
الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من
حكايتها عنهم لولا أن الله حكاهما عنهم.

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق
أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلِهتهم أذى فقال: ﴿إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا﴾ أي:
اطلبوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثُمَّ لَا
تُنْظِرُونَ﴾ أي: لا تمهلون.

﴿إِنْ تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله
﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: هو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم^(١)،
وهو الذي ربانا.

﴿مَا مِنْ دَآئِبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُهَا بِصَبْرٍ﴾ فلا تتحرك ولا تسكن
إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم
يسلطكم عليّ، لم تقدرُوا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة
أرادها.

﴿إِنْ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على عدل، وقسط،
وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي
جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم،
التي يحمد ويشن عليه بها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ﴾ فلم يبق عليّ تبعة من شأنكم.

﴿وَبَسْتَخْلِفَ ربي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون بعبادته ولا يشركون به
شيئاً ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا
تضره معصية العاصين، ولا تنفع طاعة المطيعين^(٢) ﴿مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلَعَلَّهَا﴾، [إِنَّ ربي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) كذا في الأصل، وهو غير صحيح. لأن (إياكم) ضمير منصوب
منفصل، وقد عطفه على الضمير المجزوء (نا) في (مدبرنا) والضمير
المنصوب لا يجوز عطفه على الضمير المجزوء، فلو قال: ومدبرنا
ومدبركم، لكان صحيحاً. والله أعلم. (الناشر) (٢) في ب: الطائعين.

صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أَتَنْهَلْنَا أَنْ تَبْدُ مَا يَبْدُ آبَاؤُنَا﴾ وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاتهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها.

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم ترى، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿وَإِنَّا لَنَبِيِّ رَبِّنَا﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب، وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿قَالَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: برهان ويقين مني ﴿وَأَتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ أي: من عليّ برسالته ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه، وما تدعونني إليه؟

﴿فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ مَا تَرِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ أي: غير خسار وتباب وضرر.

﴿وَيَقُولُونَ هَذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءُ﴾ أي: بعقر ﴿فَيَأْكُلُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عَقَرُوهَا فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ بل لا بد من وقوعه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أُنْمَارُ﴾ بوقوع العذاب ﴿بَجَحْنَا صَلَاحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ أي: خامدين لا حراك لهم.

(١) في ب ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بُدًّا لَكُمْ﴾.

ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكتهم الله.

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَ﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لهم أيضاً لعنة.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم وربائهم ﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هَوِيَ﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

(٦١-٦٨) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إلى آخر قصتهم^(١). أي ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون الحجر، ووادي القرى، ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحًا﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ﴿قَالَ يَقُولُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له الدين ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم فيها ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحراثون ما شئتم، وتتفعلون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فَأَسْتَفِرُّوهُ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص. فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْآرِيدِ﴾ والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَجِبْ وَأَقْرَبْ﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهذا النوع، قرب يقتضي إلفاطه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم بنبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبينهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٩

سُورَةُ هُودٍ

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِن رَّبِّي وَءَاتَيْنِي مِنهُ رَحْمَةً فَمَن يَبْصُرُ مِني مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ هَٰذَا يَذُوبُنِي غَيْرَ تَخْصِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَّكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُونَهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَاذْكُرُوا عَذَابَ قُرَيْبٍ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَلِذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿١٧﴾ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ الْآلَ إِن تَمُودًا كَفَرُوا وَرَأَيْتُمُ اللَّامُودَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالُوا إِنَّا نَبَأُكَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكْرَهُهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٢٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ نَبْشَرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٢١﴾

الأفعال، لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط.

معجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيفه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾ بالولد، التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِن فِيهَا لَتَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ﴾ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر، وعزم غضب عند جهل الجاهلين.

﴿أَوَّهٌ﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات ﴿ثَنِيذٌ﴾ أي: رجاء إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عن سواه، فلذلك كان يجادل عن من حتم الله بهلاكهم.

فقيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ

(١) في ب: فيها. (٢) في ب أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِأَنْفَلِيكَ يَبِيدُ﴾.

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأنهم - لما جاءهم العذاب - ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا بها^(١)، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿آلَا إِن تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة، ﴿آلَا بَعْدُ لَتَمُودَ﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

(٨٣-٦٩) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ إلى آخر القصة^(٢). أي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِالْبَشْرَى﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمرؤا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالِ سَلَامٌ﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية. ﴿فَمَا لَيْتَ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أَن جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًا على الرضف سميتا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فَمَا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿نَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظن أنهم أتوه بشرًا ومكرهه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

﴿فَقَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم ﴿قَائِمَةٌ﴾ تخدم أضيافه ﴿فَضَحَكْتُ﴾ حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجبًا.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿قَالَتْ يَتْلُوَنَّ أَزْوَاجًا وَمَنَا عَجْرٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ فهذان مانعان من وجود الولد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصًا فيما يديره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَرَكَنُكُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ إِنَّهُ حَيِّدٌ حَيِّدٌ أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد

رَبِّكَ ﴿وَاتَّبَعْتُمْ ءَاتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ فلا فائدة في جدالك .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لَوْطًا سَيِّئًا﴾ أي: شق عليه مجيئهم ﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب جرد، مرد في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله .

﴿فَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين .

﴿قَالَ يَقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من أضيافي، لوهذا كما عرض لسليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه، لاستخراج الحق، ولعلمه أن بناته متمتع منالهن، ولا حق لهن فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى^(١) .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم .
﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة .

﴿فَقَالُوا﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا بِبَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء، فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَوْمِ قَوْمِي أَوْءَايْتُ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كقبيلة مانعة لمعتكم .

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أفقرى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر متناه واشتد الكرب ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي: أخبروه بحالهم، ليطمئن قلبه، ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء، ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم .

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .

﴿إِلَّا أَمْرًا نَاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف .

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له:

الْمَلَأْنَا كَيْدَهُ

٢٣٠

سُورَةُ هُودٍ

قَالَتْ يَوْلَيْتُ لَأَكُونَ مِنَ الْعَجُوزِ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخَانٌ هَذَا لَشَقَّيٌّ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٨﴾ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٩﴾ يَتَذَكَّرُ فِيهِمُ فَرَحِيضٌ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٨٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٨١﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي الَّذِي مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا بِبَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٨٣﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَوْمِ قَوْمِي أَوْءَايْتُ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٤﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ الَّذِي الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٥﴾

﴿الَّذِينَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بتزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿حَمَلْنَا﴾ ديارهم ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبناها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿مَنْصُورٍ﴾ أي متتابعة، تتبع من شد عن القرية .

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿بَعِيدٍ﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم .

(٨٤-٩٥) ﴿وَالَّذِي مَدِينٌ أَخَاهُ شُعَيْبٌ﴾ إلى آخر القصة^(٢) .
أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدِينٍ﴾ القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين، ﴿أَخَاهُ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ لأنهم يعرفونه، وليتمكنوا من الأخذ عنه .

﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَقُومُوا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا - مع

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي مَدِينٌ أَخَاهُ شُعَيْبٌ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣١

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
 حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
 وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدِينٍ آخَاهُ
 شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
 وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ
 وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُورُ
 أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
 بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
 بِحَفِيفٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ
 تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
 إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
 كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِّنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
 مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

والغواية، أي: أن المعنى كيف تكون أنت الحليم الرشيد،
 وأباؤنا هم السفهاء الغاؤون!!

وهذا القول الذي أخرجه بصيغة التهكم، وأن الأمر
 بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه، إن صلاته تأمره
 أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في
 أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،
 وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق
 عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة
 والسلام الحليم الرشيد.

﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِّن رَّبِّي﴾
 أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به ﴿وَرَزَقْنِي مِّنْهُ رِزْقًا
 حَسَنًا﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني.

﴿و﴾ أنا لا ﴿أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾ فلست
 أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا،
 حتى تتطرق إليّ التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر، إلا
 وأنا أول مبتدئ لتركه.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ليس لي من

شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك
 فقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ بل أوفوا الكيل
 والميزان بالقسط.

﴿إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: بنعمة كثيرة وصحة، وكثرة
 أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة
 الله فيزيها عنكم.

﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: عذاباً يحيط
 بكم، ولا يبق منكم باقية.

﴿وَيَنْقُورُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل
 الذي ترضون أن تعطوه، ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي:
 لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال
 والميزان.

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن الاستمرار على
 المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا،
 ويهلك الحرث والنسل.

﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: يكفيكم ما أبقى الله لكم من
 الخير، وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية، وهو
 ضار لكم جداً.

﴿إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ﴿وَمَا أَنَا
 عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها،
 وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت
 به.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾
 أي: قالوا ذلك على وجه التهكم ببنيتهم، والاستبعاد لإجابتهم
 له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي
 لله، وتتعب له، أفإن كنت كذلك، أفيرجب لنا أن نترك ما يعبد
 آباؤنا، لقول ليس عليه دليل، إلا أنه موافق لك، فكيف
 نتبعك، ونترك آباءنا الأقدمين، أولي العقول والألباب!؟

وكذلك لا يوجب قولك لنا ﴿أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ ما قلت
 لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل
 لا نزال نفعل فيها ما شئنا، لأنها أموالنا، فليس لك فيها
 تصرف.

ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾
 أي: أنتك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك
 سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا
 تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه

المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي، شيء بحسب استطاعتي.

ولما كان هذا فيه نوع تركية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والافتكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجِرُ مَتَكُمُ شِقَاقِي﴾ أي: لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ من العقوبات ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ لا في الدار ولا في الزمان.

﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ عما اقترفت من الذنوب ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما يستقبل من أعماركم، بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته، وترك مخالفته.

﴿إِنْ رَبِّي رَجِمَ وَدُودٌ﴾ لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته ويحيه، ومعنى الدود من أسماؤه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو «فعل» بمعنى «فاعل» ومعنى «مفعول».

﴿قَالُوا يَسْغَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ﴾ أي: تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ﴾ وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه.

﴿وَأَنَا لَرَبِّكَ فِينَا ضَعِيفٌ﴾ أي: في نفسك لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: جماعتك وقبيلتك ﴿لَرَجَحْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

﴿فَقَالَ﴾ لهم مترققاً لهم: ﴿يَقَوْمُ ارْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله.

﴿وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَأَاهُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه.

﴿إِنْ رَبِّي يَمَّا تَمَلُّونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٢

سُورَةُ هُودٍ

وَيَقَوْمٍ لَا يُجِرُ مَتَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَسْغَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَرَبِّكَ فِينَا ضَعِيفٌ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَحْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ ارْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَأَمَّا قَوْمُ لُوطٍ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩٣﴾ كَانُوا يَمْنَعُونَ فِيهَا الْأَبْعَدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ شُعُودٌ ﴿٩٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرًا فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٦﴾

عملتم أتم الجزاء.

﴿و﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال: ﴿يَقَوْمِ ارْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على حالتكم ودينكم.

﴿إِنِّي عَائِلٌ سَوْفَ تَمْلُكُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويحل عليه عذاب مقيم أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب.

﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ ما يحل بي ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ما يحل بكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يهلك قوم شعيب ﴿بَجَعْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾ لا تسمع لهم صوتاً، ولا ترى منهم حركة ﴿كَانُوا يَمْنَعُونَ فِيهَا﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تعموا فيها حين أتاهم العذاب.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك.

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء، لحسن

ومنها: أن وظيفة الرسل وستتهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، وبدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة. وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه، وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه، متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لمولاه ومسيده، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر. كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: (إن التائب إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود)، فإن الله قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عَمَلَةً وَخَدَمًا لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين، وهم الحكام، فهو المتعين. ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا، مقدمة، والله أعلم.

(٩٦-١٠١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا

مراجعتهم لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير: منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه، لأن شعبيّاً دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكايل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقته في المكايل والموازين موجبة للوعيد، فسرقته - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخش أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بغيرِ﴾ أي: فلا تسبوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿يَقِنْتَ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق، ما ليس في التكاليف على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه منقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فيإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.

ومنها: أن من تكلمة دعوة الداعي وتماها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ مِنْ مَّا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٣

سُورَةُ هُودٍ

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
 الْمُرُودُ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ
 الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ
 مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيئًا ﴿١١١﴾
 وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ
 أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
 ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَسْهُودٍ ﴿١١٣﴾ وَمَا
 نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴿١١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي
 النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٦﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ
 ﴿١١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْآخِرَةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُودٍ ﴿١١٨﴾

﴿وَذَلِكَ يَوْمَ مَسْهُودٍ﴾ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ حتى الأنبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: الخلق ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون.

(١٠٦) وأما جزاؤهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ أي: حصلت لهم الشقاوة، والخزي والفضيحة، ﴿فَنِي النَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مشدد عليه عقابها، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

(١١) في ب أورد الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيئًا﴾.

وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ إلى آخر القصة (١). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰٓ بْنَ عِمْرَانَ ﴿بِأَيِّنَّا﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام.

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: حجة ظاهرة بينة، ظهرت ظهور الشمس ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ﴾ أي: أشراف قومه لأنهم المتبوعون وغيرهم تبع لهم، فلم يتقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ بل هو ضالٌ غاوٍ، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ ﴿أي: في الدنيا﴾ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿أي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.﴾ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿أي: بس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ﴾ لتندرب به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿وَبِئْسَ قَائِمٌ﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم ﴿و﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والعناد. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

﴿وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيئًا﴾ أي: خسار ودمار، بالصد مما خطر ببالهم.

(١٠٢) ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أخذِهِ للظالمين بأنواع العقوبات ﴿لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الآخورية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم، وبجماعتهم الدينية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخيرهم وعدم معالجتهم بالعذاب ﴿لَفُصِّ بَيْنَهُمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، ويقوا في شك منه مريب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وَإِنَّ كَلَامَنَا لَكُنَّا لَكُوفِيهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: لا بد أن الله يقضي بينهم^(١) يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كل بما يستحقه.

﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَمْعَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿حَبِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم، دقيقها وجليلها.

ثم لما أخطر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلوكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَمْعَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: ﴿وَلَا تَزْكُوا﴾ أي: لا تميلوا إلى الذين ظلموا فإنكم إذا ملت إليهم وافقتموهم على ظلمهم، أو رضيت ما هم عليه من الظلم ﴿فَتَسْكُمُ النَّارُ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم. ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقه على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الرعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم!! نسأل الله العافية من الظلم.

(١١٤، ١١٥) ﴿وَاقْرَأْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.

(١٠٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار التي هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: خالدين فيها أبداً، إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته، فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز ﴿فَنُفِيَ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَرُ﴾ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنُوصٍ﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنُوصٍ﴾ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو راق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب، والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

(١١٠-١١٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُصِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكُنِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٌ وَإِنَّ كَلَامَنَا لَكُنَّا لَكُوفِيهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَمْعَلُونَ حَبِيرٌ﴾ فاستقيم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَمْعَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا تزكوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو

الْحَسَنَاتِ

٢٣٤

سُورَةُ

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ
 آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿١١٧﴾
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَقَضَى إِلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ
 ﴿١١٨﴾ وَإِن كُنَّا لَأَيُّؤِفَتُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ﴿١١٩﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 فَمِمَّا كُنْتُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ
 لَا تُنصِرُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ
 اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ
 ﴿١٢٢﴾ وَأَصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾ فَلَوْلَا
 كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٢٥﴾

قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم،
 ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة^(١).

﴿و﴾ لكن ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: اتبعوا
 ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يغيروا به بدلاً.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه،
 فلذلك حَقَّ عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب، وفي هذا
 حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أسد
 الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى،
 ويصبرون منهم على الأذى، ويصرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها

يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

(١١٧) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى
 الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى النفي، أي: إنه لم يكن في القرون
 السالفة أولو بقية... إلخ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لكن بقى قليل
 بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا، لكن ما ذكرنا في
 الأصل... ثم لم يوضح باقي الكلام لإصابته بالبل، وهو يسير.

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ○ وَأَصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
 يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفِي
 النَّهَارِ﴾ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر
 وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ ويدخل في ذلك
 صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنها مما
 تُزَلَّفُ العبد وتقربه إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فهذه الصلوات
 الخمس، وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات،
 وهي - مع أنها حسنات - تقرب إلى الله، وتوجب الثواب،
 فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر، كما
 قيدها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:
 «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى
 رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»، بل كما
 قيدها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ
 تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَا تُهَوِّنْ عَنْهُ نَكَفَرَكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتَدْخُلْكُمْ
 مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من لزوم الاستقامة على
 الصراط المستقيم وعدم مجاوزته وتعبه، وعدم الركون إلى
 الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات
 يذهبن السيئات الجميع ﴿ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ يفهمون بها ما
 أمرهم الله به ونهاهم، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة
 للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات، ولكن تلك الأمور
 تحتاج إلى مجاهدة النفس، والصبر عليها، ولهذا قال:

﴿وَأَصِرْ﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله، وعن
 معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن
 الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وفي
 هذا ترغيب عظيم، للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى
 ثواب الله كلما ونت وفترت.

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ
 الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ لما ذكر تعالى إهلاك الأمم
 المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب
 الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب
 والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا
 من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى،
 فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جداً.
 وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما

مُخْلِئُونَ أَي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يغفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

(١١٨، ١١٩) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلِفِينَ﴾ ○ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين، مخالفين للضوابط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلal في قول غيره.

﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، فهو لاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفوقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿و﴾ لأنه تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فلا بد أن يسير للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

(١٢٠-١٢٣) ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ○ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ○ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ○ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاغْبِئْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي، قلبك ليطمئن واثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المتافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٥

سُورَةُ هُودٍ

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلِفِينَ ○ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ○ وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ○ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ○ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ○ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاغْبِئْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ○

سُورَةُ يُسُفٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ أَيْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ○ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ○ تَحْنُ نَقْصُصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ○ إِذْ قَالَ يُسُفُ لَأَبِيهِ يَأْتِ بِإِنِ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كُتُبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ○

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقُّ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله، فيفعلونها. وأما من ليس من أهل الإيمان، فلا تفهمهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعدما قامت عليهم الآيات ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: حالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ما كنا عليه ﴿وَانظُرُوا﴾ ما يحل بنا ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب.

﴿فَاغْبِئْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة، فقال:

(٦-٤) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝ قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْبِضُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ أُمَمٍ يَتَعَوَّبُ كَمَا آتَمَّتْهُ عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الأسرانيات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب، فهو مستدرِك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحاً، فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك، مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

فقله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام، قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظافاً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتناء الله له، وإصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تبعاً له فيها، ولهذا قال:

أمر الله به مما تَقْدِرُ عليه، وتوكل على الله في ذلك. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم. [وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٧هـ].^(١)

المجلد الرابع من تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام الرب المنان لجامعه الفقير إلى الله: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، آمين.

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَافِلَ ۝ يَخْبَرُ تَعَالَىٰ أَنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ هِيَ ۝ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ أَي: البين الواضحة الفاظه ومعانيه، ومن بيانه وإيضاحه: أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها، [المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة]^(٢) وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

فإذا عقلت ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والالتقاد إليه، و ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وذلك لصدفها وسلاسة عبارتها ورونق معانيها ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض ميثم من الله وإحسان.

﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَافِلَ﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب، ولا الإيمان، قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٣٦

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالَ يَبْنِي لَكَ نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ ءَايَاتٍ لِّلْمُتَلَبِّينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ آيِكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا بِتَقَاتِلِ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَخَشِئْتُ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

أي: من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهلاً لفعله، وإزالة لشغاعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

(١٠) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ الَّذِينَ أَرَادُوا قَتْلَهُ أَوْ تَبْعِيدهَ﴾: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ فَإِنَّ قَتْلَهُ أَكْثَرُ إِثْمًا وَأَشْنَعُ، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ﴾ وتوعده على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أبق منكم، لأجل أن ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحفظون فيه.

وهذا القاتل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي.

(١) في الأصل (في القصص) ولعل الصواب ما أثبت.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيت في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية ودنيوية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كل ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه: ﴿يَبْنِي لَكَ نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ لا يفتري عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي تسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتبها عنهم.

(٧-٩) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ ءَايَاتٍ لِّلْمُتَلَبِّينَ ۚ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۚ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ آيِكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ ءَايَاتٍ﴾ أي: غير وأدلة على كثير من المطالبات الحسنة ﴿لِّلْمُتَلَبِّينَ﴾ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا [بالقصص] والبيانات.

﴿إِذْ قَالُوا﴾ فيما بينهم ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي خطأ بَيِّن، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها.

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ آيِكُمْ﴾ أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾

لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر.
فيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه
بأهله وإخوته، على وجه العز والتمكين له في الأرض.
﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ليكون إتيانهم متأخراً عن
عادتهم، وبكاؤهم دليلاً لهم، وقرينة على صدقهم، فقالوا -
معتردين^(١) بَعْدُ كاذب - ﴿يَتَأَبَّأْنَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ إما على
الأقدام، أو بالرمي والنضال ﴿وَرَزَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا﴾
توفيراً له وراحة ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ في حال غيبتنا عنه في
استباقنا ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: تعذرنا
بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن
على يوسف، والرقعة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعا أن نعتذر بالعذر
الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم ﴿و﴾ مما أكدوا به قولهم،
أنهم ﴿جَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَرٍّ كَذِبٍ﴾ زعموا أنه دم يوسف حين
أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوهم بذلك، و ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق
بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال، لومن رؤيا
يوسف التي قصها عليه^(٢)، ما دله على ما قال.

﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أما أنا
فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أنني أصبر على هذه
المحنة، صبراً جميلاً، سالمًا من السخط والتشكي إلى
الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد
من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا
بَنِي وَحُرَّتِي إِلَى اللَّهِ﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر
الجميل، لأن النبي إذا وعد وقى.

(١٩، ٢٠) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ
يَبْنَؤُنِي هَذَا غَلْمٌ وَأَسْرُوهُ يَضَعَنَّ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرُّهُ
يَسْتَبِخِرُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي:
مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي:
قافلة تريد مصر ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: فرطهم ومقدمهم الذي
يعس لهم المياه، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو
ذلك ﴿فَأَدْلَى﴾ ذلك الوارد ﴿دَلْوَهُ﴾ فتعلق فيه يوسف عليه
السلام وخرج ﴿قَالَ يَبْنَؤُنِي هَذَا غَلْمٌ﴾ أي: استبشر وقال:
هذا غلام نفيس ﴿وَأَسْرُوهُ يَضَعَنَّ﴾ وكان إخوته قريباً منه،
فاشتراه السيارة منهم ﴿يَسْتَبِخِرُ دَرَاهِمَ﴾ أي: قليل جداً، فسره
بقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

(١) في الأصل متعذرين، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من هامش
ب.

(١١-١٤) ﴿قَالُوا يَتَأَبَّأْنَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُ
لَنَصْحُونُ﴾ أَرْسَلَهُ مَعَا عِدَا رَزَقَ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَمُ لَحْفُطُونَ ﴿قَالَ
إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ
غَافِلُونَ﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا
لَخَيْرِيرُونَ﴾.

أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم:
﴿يَتَأَبَّأْنَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُ لَنَصْحُونُ﴾ أي: لأي
شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا
موجب؟ ﴿و﴾ الحال ﴿إِنَّا لَمُ لَحْفُطُونَ﴾ أي: مشفقون عليه،
نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام
لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم،
ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما
يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا:
﴿أَرْسَلَهُ مَعَا عِدَا رَزَقَ وَيَلْعَبُ﴾ أي: يتتزه في البرية
ويستأنس ﴿وإِنَّا لَمُ لَحْفُطُونَ﴾ أي: سراعيه، ونحفظه من أذى
يريده.

فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: مجرد
ذهابكم به يحزنني ويشق عليّ، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو
مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله ﴿و﴾ مانع ثان، وهو أنني
﴿أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: في حال
غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة
حريصون على حفظه، ﴿إِنَّا إِذَا لَخَيْرِيرُونَ﴾ أي: لا خير فينا
ولا نفع يرجى منا، إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم
المانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

(١٥-١٨) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَآخَعُوا أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَجَاءَهُمْ
عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَتَأَبَّأْنَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَرَزَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ
مَتْلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾
﴿وَجَاءَهُمْ عَلَى قَيْصِهِ بِدَرٍّ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَّرْ
جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف
بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة
الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما
أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجب، ثم إن
الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة
﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: سيكون منك معاتبة

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٣٧

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا نَادِ هَبْنَا تَسْتَقِ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلْ لَدُنْهُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِهِ يَدُ مِرْكَدِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِحَبْسٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّةَ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْ عَنِّي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَبِضُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ○ وَإِنْ كَانَ قَبِضُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ○ فَلَمَّا رَأَى قَبِضُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ○ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ○ هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محتته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارههاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن ﴿رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر.

﴿و﴾ زادت المصيبة، بأن ﴿غَلَقَتْ الْأَنْوَابَ﴾ وصار المحل

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه.

والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يُسْرِوْا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: إما ينفعنا كتفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هم سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطّل، ولا يغلبه مغالب، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ﴿لَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علماً نافعاً.

ودل هذا على أن يوسف وقى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة.

(٢٣-٢٩) ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَنْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ○ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَوَّرَتْ عَنْهُ أُلُوهَهُ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ○ وَاسْتَقْبَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَبِضَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ

خاليًا، وهما أمانان من دخول أحد عليهما، بسبب تغلق الأبواب، وقد دعتة إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيده، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم.

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها همًّا تركه الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمار بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، ﴿وَقَالَ مَعَادَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي. فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلق.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلق من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكارها ما كانوا به من خيار خلقه.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، وذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألقيا سيدها، أي زوجها لدى الباب، فرأى أمرًا شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿مَا جَرَاءَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم تقل (من فعل بأهلك سوءًا) تبرئة لها وتبرئة له أيضًا من الفعل.

وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أو يعذب عذابًا أليمًا.

فبرأ نفسه مما رمت به، وقال: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما.

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٨

سُورَةُ يُوسُفَ

وَزَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهْنَ رَبَّهٗ. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَرَاءَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ شَاهِدًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْزَقُ فَتُدْنِهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبية وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي الكاذبة فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلبًا للستر على أهله ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

فأمر يوسف بالإعراض، وهي ^(١) بالاستغفار والتوبة.

(٣٥-٣٠) ﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُو لَيَكُونُنَّ مِنَ الْصَّغِيرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة، فجعلن يلمنها، ويقلن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: هذا أمر مستقب، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تبغي منها، وهي حالة تحط قُدرها وتضعه عند الناس.

وكان هذا القول منهن مكرًا، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنن به امرأة العزيز، لتحقق امرأة العزيز، وترهين إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكرًا، فقال:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهم إلى منزلها للضيافة.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ أي: محلاً مهياً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرت في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أن ترج، أو غيره ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام ﴿وَقَالَتِ لِيُوسُفُ﴾: ﴿اخرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ في حالة جماله وبهاثة.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أعظمته في صدورهن، ورأين منظرًا فائقًا، لم يشاهدن مثله ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ من الدهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: تنزيهاً لله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للنظارين، وعبرة للمتأملين.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٣٩

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُو لَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَنبَأُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُ إِلَّا نَبِّئَاكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير - أرادت أن ترهين جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك، ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم يزدها مرور الأوقات إلا قلقًا ومجبة وشوقًا لوصاله وتوقًا.

ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُو لَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن، و﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيده، وجعلن يكدهن في ذلك.

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾

إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ۚ أَي: فلتطمئن قلوبكما،
فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتكما غداؤكما أو
عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن
يأتكما.

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهم إلى
الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع
لدعوته، وأقبل لهما.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ التعبير الذي سأعبره لكم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي
رَبِّي﴾، أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إلي به، وذلك
﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾
والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم
يدخل فيه أصلاً.

فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم
﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِتْرَيمَ وَاسْتَحَقَّ وَعَقُوبٌ﴾ ثم فسر تلك
الملة بقوله: ﴿مَا كَانُوا لَنَا﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَنْ
نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين
والعبادة.

﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ النَّاسُ﴾ أي: هذا من أفضل
منته وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا، فإنه
لا أفضل من ملة الله على العباد بالإسلام والدين القويم، فمن
قبله وانقاد له فهو حظ، وقد حصل له أكبر النعم وأجل
الفضائل.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلذلك تأتيهم المنة
والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من
الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى. فإن الفتيين - لما
تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسن
معلم - ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها، كلها من فضل
الله وإحسانه، حيث مَنَّ عَلَيَّ بترك الشرك واتباع ملة آبائي
فهذا وصلت إلى ما رأيتم، ف ينبغي لكم أن تسلكوا ما
سلك.

ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿يَصْصَحِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ
مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: أرباب عاجزة ضعيفة
لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين
أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع
المعبودات التي يتخذها المشركون، أ تلك ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ﴾
الذي له صفات الكمال، ﴿الْوَحِيدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله،
فلا شريك له في شيء من ذلك.

﴿الْقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء

أي: أمل إليهم، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء
﴿وَأَنْتُمْ﴾ إن صبوئ إليهم ﴿مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن هذا جهل، لأنه أثر
لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعة في
جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه!! فإن
العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين، وأعظم
اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم
تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى
أيسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُ﴾ لدعاء
الداعي ﴿الْقَلِيمُ﴾ بنيت الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية
لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه
الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر
الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح.

﴿بَدَأَ لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ الدالة
على براءته، ﴿لَيَسْجُنَنَّهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر
ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر، ويشاع مع
وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة
لهم، فادخلوه في السجن.

(٣٦-٤٠) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي
أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ
مِنْهُ نَبْتًا يَتَّوِيلُهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ
تَرْفَاقُهُ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ وَاتَّبَعْتُ
مِلَّةَ آبَائِي إِتْرَيمَ وَاسْتَحَقَّ وَعَقُوبٌ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ النَّاسُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ۝ يَصْصَحِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
ذَلِكَ الدِّينُ الْقَلِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿و﴾ لما
دخل يوسف السجن، كان في جملة من ﴿دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ
فَتَيَانٍ﴾ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على
يوسف ليعبرها، ف ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ
الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ
مِنْهُ نَبْتًا يَتَّوِيلُهُ﴾ أي: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما،
وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان
إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى
غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه.

ف ﴿قَالَ﴾ لهما مجيباً لطلبتهما: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تَرْفَاقُهُ﴾

المقام المحمود الذي يغطيه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِمَّا﴾ أي: من الفتن، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَأَذْكُرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تغييره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أَفَنَسِيَ فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَعًى عَجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهتمهم.

فعبّر يوسف السبع البقرات السمان، والسبع السبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السبلات اليابسات، بأنهن ستين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحرث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك.

وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب. والسبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب إلى سني الجذب، فقال:

﴿تَرْزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ ذَاكًا﴾ أي: متابعات. ﴿فَا حَصَدْتُمْ﴾ من تلك الزروع ﴿فَذَرُّوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِي سُبُلِهِ﴾ لأنه أبقي له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: دبروا أيضًا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: مجذبات جداً ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن.

يَأْسِتَ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ○ قَالَ تَرْزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ ذَاكًا فَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِهِ ○ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ○ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ○ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَأْكُلُ النَّاسُ فِيهِ يَعْصِرُونَ ○ لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة التي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أي: سبع من البقرات ﴿عَجَافٌ﴾ وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُنَّ نهاية في القوة.

﴿وَرَأَيْتُ سَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ يأكلن سبع سبلات ﴿يَابِسَتٍ﴾ ﴿يَأْتِيهَا الْغُلَّةُ أَفْتَوًى فِي رُبْعَيْنِ﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلزُّرْعَةِ مَعْبُورِينَ﴾ فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهًا. ﴿وَقَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، [بما ليس بعذر]^(١)، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام، فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًا لها غاية، فعبّر يوسف - وقعت عندهم موقعًا عظيمًا، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَي: بعد السبع الشداد﴾ عامٌ فيه يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أفواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه، زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة. فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

(٥٠-٥٧) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ يَدَيْهِنَ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَدَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا؟ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ يَدَيْهِنَ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ أَتَجْعَلُنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا تَجْزِ الْأَخْرَجُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمن عنده ﴿أَتَأْتُونِي بِهَذَا؟﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه، فلما جاء يوسف الرسول، وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

فـ ﴿قَالَ﴾ للرسول ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني به الملك ﴿فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ يَدَيْهِنَ﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

فأحضرهن الملك، وقال: ﴿مَا خَطْبُكُمْ؟﴾ أي: شأنكن ﴿إِذْ رَدَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فهل رأيته منه ما يريب؟.

فَبَرَأَتْهُ و ﴿قُلْ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحيث زال السبب الذي تتبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز فـ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ﴾ أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن^(٢) ﴿أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقواله وبراءته.

﴿ذَلِكَ﴾ الإقرار الذي أقرت، [أنني راودت يوسف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤١

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالُوا أَضُغْتُ أَهَلَمْ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٢﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُسَبِّغُ لَهَايَ أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ ۖ إِنْ لَا قَلِيلًا مِمَّا تَكُونُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ كُنَّ مَاقَدًا لَكُمْ لَنْ لَا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ يَدَيْهِنَ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَدَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا؟ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ يَدَيْهِنَ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَ أَتَجْعَلُنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَجْزِ الْأَخْرَجُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ يَقُولُ

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها، أي: ليعلم أنني حين أقرت أنني راودت يوسف، أنني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجزئني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك، ذلك ليعلم يوسف حين أقرت أنني الذي راودته، وأنه صادق، أنني لم أخنه في حال غيبته عني ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تركية لنفسها، وأنه لم يجز منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ أي: من المراودة والهلم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ فنجاه من نفسه الأماره، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى

(١) في ب: التعيير. (٢) كذا في ب، وفي أ: لسجن يوسف.

سورة يوسف

٢٤٢

الأنبياء

﴿وَمَا أَتَى نَفْسِي إِلَّا النَّفْسُ لَامِرَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَهُ رَبِّي﴾ ^(٥٨) **إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ^(٥٩) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ ^(٦٠) آمِينَ ^(٦١) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ^(٦٢) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ^(٦٣) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ^(٦٤) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ^(٦٥) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُؤْنِسُ بَأْخَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ ^(٦٦) أَيْ أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ^(٦٧) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون ^(٦٨) قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ^(٦٩) وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا يَضْعَعَهُمْ فِي رَحْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(٧٠) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ^(٧١)

تَرَوْتَ أَيْ أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ^(٦٧) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون ^(٦٨) قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ^(٦٩) وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا يَضْعَعَهُمْ فِي رَحْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(٧٠) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ^(٧١) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ خَيْرٌ حَفِظْتُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^(٧٢) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْنَهُمْ وَجَدُوا يَضْعَعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ يَضْعَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَتَبِعُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ^(٧٣) قَالَ لَنْ أَرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَمَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ^(٧٤) وَقَالَ يَبْنَئُ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا لَكُمْ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ^(٧٥) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَتْ تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوْهُ عَلِيمٌ لِمَا عَلَنَتْهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ^(٧٦) أَيْ: لَمَّا تَوَلَّى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ، دَبَّرَهَا أَحْسَنَ تَدْبِيرٍ، فزَرَعَ فِي أَرْضِ مِصْرَ

رَبِّهَا، مُنَادَةً لِدَاعِي الْهَدْيِ، مُتَعَصِيَةً عَنْ دَاعِي الرَّدْيِ، فَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ النَّفْسِ، بَلْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بَعْدَهُ.

﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٥٩) أَيْ: هُوَ غَفُورٌ لِمَنْ تَجَرَأَ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، إِذَا تَابَ وَأَتَابَ ﴿رَحِيمٌ﴾ يَقْبُولُ تَوْبَتَهُ، وَتَوْفِيقَهُ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ امْرَأَةٍ الْعَزِيزِ، لَا مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي كَلَامِهَا، وَيُوسُفَ إِذَا ذَاكَ فِي السِّجْنِ لَمْ يَحْضُرْ.

فَلَمَّا تَحَقَّقَ الْمَلِكُ وَالنَّاسُ بِرَاءَةِ يُوسُفَ التَّامَةِ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ وَقَالَ: ﴿أَتُؤْنِسُ بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ ^(٥٩) أَيْ: أَجْعَلْهُ خَصِيصَةً لِي، وَمَقْرَبًا لَدَيَّ، فَاتَّوَهَّ بِهِ مَكْرَمًا مُحْتَرَمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ ^(٦٠) أَعْجَبَهُ كَلَامُهُ، وَزَادَ مَوْقِعَهُ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا﴾ ^(٦١) أَيْ: عِنْدَنَا ﴿مَكِينٌ آمِينَ﴾ ^(٦٢) أَيْ: مُتَمَكِّنٌ، أَمِينٌ عَلَى الْأَسْرَارِ.

فَقَالَ: يُوسُفَ طَلِبًا لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَةِ ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ^(٦٢) أَيْ: عَلَى خَزَائِنِ جَبَايَا الْأَرْضِ وَغَلَالِهَا، وَكَيْلًا حَافِظًا مُدَبِّرًا.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٦٢) أَيْ: حَفِيظٌ لِلَّذِي أَتَوَلَّاهُ، فَلَا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَضَابِطٌ لِلدَّخْلِ وَالخَارِجِ، عَلِيمٌ بِكَيْفِيَةِ التَّدْبِيرِ، وَالْإِعْطَاءِ، وَالْمَنْعِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ حَرَصًا مِنْ يُوسُفَ عَلَى الْوَلَايَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ رَغْبَةٌ مِنْهُ فِي النِّفْعِ الْعَامِ، وَقَدْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْكِفَاةِ وَالْأَمَانَةِ وَالْحِفْظِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ.

فَلِذَلِكَ طَلَبَ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَجْعَلَهُ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَيَجْعَلَهُ الْمَلِكُ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ وَوَلَاةَ إِيَّاهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ^(٦٠) أَيْ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ وَالْمَقْدَمَاتِ الْمَذْكُورَةِ، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ^(٦١) فِي عَيْشٍ وَرَغْدٍ وَنِعْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَجَاءَ عَرِيضٌ، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ ^(٦٢) أَيْ: هَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِيُوسُفَ الَّتِي أَصَابَهُ بِهَا، وَقَدَّرَهَا لَهُ، وَلَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى نِعْمَةِ الدُّنْيَا.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٦٣) وَيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ سَادَاتِ الْمُحْسِنِينَ فَلَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ^(٦٤) مِنْ أَجْرِ الدُّنْيَا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ^(٦٥) أَيْ: لِمَنْ جَمَعَ بَيْنَ التَّقْوَى وَالْإِيمَانِ. فَبِالتَّقْوَى تَرَكَ الْأُمُورَ الْمَحْرُمَةَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ وَصَغَائِرِهَا، وَبِالْإِيمَانِ التَّامِ يَحْصُلُ تَصَدِيقُ الْقَلْبِ، بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالتَّصَدِيقِ بِهِ، وَتَتَّبِعَهُ أَعْمَالُ الْقُلُوبِ وَأَعْمَالُ الْجَوَارِحِ، مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَاتِ.

(٥٨-٦٨) ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ^(٦٥) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُؤْنِسُ بَأْخَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ ^(٦٦)

جميعها في السنين المخصصة زرعًا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبى من الأطعمة شيئًا كثيرًا، وحفظه، وضبطه ضبطًا تامًا، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَمْ يُنْكُرُوهُ﴾ أي: لم يعرفوه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تديره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه، وهو بنيامين.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿آتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام.

ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

ف ﴿قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ آبَاؤُهُ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعًا به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَلِنَا لَنَعْلَمَنَّ﴾ لما أمرتنا به.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفَتَاتِهِ﴾ الذين في خدمته: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة.

﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: بضاعتهم إذا رآوها بعد ذلك في رحالهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل الترحج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَنَابَنَا مَعَ وَنَا الْكَيْلُ﴾ أي: إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ﴾ أي: ليكون ذلك سببًا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَأِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى.

﴿قَالَ خَيْرٌ حَفِظْتُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤٣

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظْتُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَا بَنَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لِيَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُوهُهُمْ إِذَا عَلِمَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليّ، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

ثم إنهم ﴿لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلومًا عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم - ترغيبًا في إرسال أخيه معهم -: ﴿يَا بَنَا مَا نَبْغِي﴾ أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفّى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟.

﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخيها صار سببًا لكيله لنا، فَمِيرُنَا^(١) أهلنا، وأتينا^(٢) لهم بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

(١) في ب: فمير. (٢) في ب: وناتى.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: عهداً ثقيلاً، وتحلفون بالله ﴿لَأَنْتُمْ بِهِ﴾ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قيل لكم به، ولا تقدرون دفعه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: تكفينا شهادته علينا، وحفظه وكفاته، ثم لما أرسله معهم وصّاهم إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَحِيدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(١) رجل واحد، وهذا سبب.

﴿و﴾ إلا ف ﴿مَا أَتَيْنِي عَنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاء وحكم به لا بد أن يقع ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصّيتكم به من السبب ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإنه بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و ﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ﴾ ذلك الفعل ﴿بِعَيْنِ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَلَهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

(٦٩-٧٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسُرِقُونَ﴾ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسُرِقُونَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٨١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٨٥﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾

فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ○ قَالَ مَكَدَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَاهُ ○ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به، [و]اضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن العاقبة خير لنا. ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ وهو الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسُرِقُونَ﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال.

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عن سرق منه،

(١) كذا في ب، وفي أ: ابن.

هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه، ولهذا أسرها يوسف في نفسه ﴿وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسرا الأمر في نفسه، و ﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشر منه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

ف ﴿قَالُوا يَكُونُ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه ﴿فَبَدَأَ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسن البنا وإلى أبينا بذلك. ف ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذن من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل: «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿ظَلَلْنَا فِيهِ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

(٨٠-٨٣) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجَاتًا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَكُونُ لَكُمْ سَرَقٌ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۝ وَشَتَّى الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْغَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: فلما استيسأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خَلَصُوا نَجَاتًا﴾ أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم ف ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَكُونُ لَكُمْ سَرَقٌ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۝ وَشَتَّى الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْغَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن تأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أنا ما شهدنا بشيء لم

لتسلم له سرقة، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿مَاذَا تَقْفُدُونَ﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

﴿قَالُوا نَقْفُدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: أجرة له، على وجدانه ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِتُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جَزَاؤُهُ﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبت عليه السرقة، كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿بَدَأَ﴾ المفتش ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل «وجدناها، أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ يُّوسُفَ﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿مَا كَانَ لِیَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتيم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿رَفَعَ دَرَجَتَهُ مِمَّنْ شَاءَ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ فكل عالم، فوفاً من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤٥

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا مَتَعْنًا عِنْدَهُ إِنَّآ إِذَا ظَلَمْنَاهُ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا أَسْتَفْسَوْا مِنْهُ خَلَصُوا عَيْنًا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ لَمْ نَكْذِبْ وَلَمْ نَغْیُرْ وَلَمْ نَبْدِلْ بَلْ هَذَا الْوَاقِعُ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ وَأَخْبَرُوهُ بِهَذَا الْخَبَرِ اشْتَدَّ حُزْنُهُ وَتَضَاعَفَ كَمَدُهُ وَاتَّهَمَهُمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَةِ كَمَا اتَّهَمَهُمْ فِي الْأُولَى وَ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أَي: الْجَأْ فِي ذَلِكَ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ الَّذِي لَا يَصْحَبُهُ تَسْخِطٌ وَلَا جُزَعٌ وَلَا شَكْوَى لِلخَلْقِ ثُمَّ لَجَأَ إِلَى حُصُولِ الْفَرَجِ لَمَّا رَأَى أَنَّ الْأَمْرَ اشْتَدَّ وَالْكُرْبَةُ انْتَهَتْ فَقَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أَي: يُوسُفَ وَ «بَنِيَّامِينَ» وَأَخُوهُمْ الْكَبِيرَ الَّذِي أَقَامَ فِي مِصْرَ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي يَعْلَمُ حَالِي وَاحْتِيَاجِي إِلَى تَفْرِيجِهِ وَمُتَّيَّةٍ وَاضْطِرَارِي إِلَى إِحْسَانِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَتَهَى بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ الرَّبَّانِيَّةُ.

(٨٤-٨٦) ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبِیْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُوا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرْزِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: وَتَوَلَّى يَعْقُوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ أَوْلَادِهِ بَعْدَمَا أَخْبَرُوهُ هَذَا الْخَبَرَ وَاشْتَدَّ بِهِ الْأَسْفُ وَالْأَسَى وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ وَالْكَمَدُ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُ كَثْرَةَ الْبُكَاءِ حَيْثُ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَي: مَمْتَلِئُ الْقَلْبِ مِنَ الْحُزَنِ الشَّدِيدِ ﴿وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أَي: ظَهَرَ مِنْهُ مَا كَمُنَ مِنَ الْهَمِّ الْقَدِيمِ وَالشُّوقِ الْمَقِيمِ وَذَكَرَتْهُ هَذِهِ الْمَصِيبَةُ الْخَفِيفَةُ بِالنِّسْبَةِ لِلأُولَى الْمَصِيبَةِ الْأُولَى فَقَالَ لَهُ أَوْلَادُهُ - مُتَعَجِّبِينَ مِنْ حَالِهِ -

﴿تَاللَّهِ تَقْتَوُوا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أَي: لَا تَزَالُ تَذْكُرُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أَي: فَاتِيًا لَا حَرَكَ فَيْكَ وَلَا قُدْرَةَ عَلَى الْكَلَامِ.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أَي: لَا تَتْرَكَ ذِكْرَهُ مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَى ذِكْرِهِ أَبَدًا.

﴿قَالَ﴾ يَعْقُوبُ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ﴾ أَي: مَا أَبْثَ مِنْ

الكلام ﴿وَحَرْزِي﴾ الَّذِي فِي قَلْبِي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا إِلَى غَيْرِكُمْ مِنَ الْخَلْقِ فَقُولُوا مَا شِئْتُمْ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ أَنَّهُ سِيرَدُهُمْ عَلَيَّ وَيَقْرَعُنِي بِالْاجْتِمَاعِ بِهِمْ.

(٨٧، ٨٨) ﴿يَبْنَیْ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأْتِيَهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الشَّرُّ وَحُشْنَا يَضْعَعُ مُرْجَحُهُ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

أَي: قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِيهِ: ﴿يَبْنَیْ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أَي: احْرُضُوا وَاجْتَهِدُوا عَلَى التَّفْتِيشِ عَنْهُمَا ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ فَإِنَّ الرِّجَاءَ يَوْجِبُ لِلْعَبْدِ السَّعْيَ وَالِاجْتِهَادَ فِيمَا رَجَاهُ وَالْإِيَّاسَ يَوْجِبُ لَهُ التَّحَاوُلَ وَالتَّبَاطُؤَ وَأَوَّلَى مَا رَجَا الْعِبَادَ فَضَلَ اللَّهُ وَإِحْسَانَهُ وَرَحْمَتَهُ وَرَوْحَهُ ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ فَإِنَّهُمْ - لِكُفْرِهِمْ - يَسْتَبْعِدُونَ رَحْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ بَعِيدَةٌ مِنْهُمْ فَلَا تَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ.

وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ بِحَسَبِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ رَجَاؤُهُ لِرَحْمَةِ

الله وَرَوْحِهِ.

الْبُحْرَانِ

٢٤٦

سُورَةُ يُوسُفَ

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا
 مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ
 ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ
 وَجَحْنَا بِضِئَةِ مَرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا
 إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
 يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَتَنُكَّ
 لَأَنْتَ يَوْسُفَ قَالَ أَتَايَوْسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ
 عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنَّ يَتَقَى وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا
 وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾
 أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
 وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
 الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
 تُفِيدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

الخلق، وخيار المصطفين.

(٩٣-٩٨) ﴿٩٣﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
 بَصِيرًا وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ○ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ
 أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفِيدُونِ ○ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي
 ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ○ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ
 بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ○ قَالُوا
 يَبْنَابَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ○ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
 رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ○ أَي: قال يوسف عليه السلام
 لإخوته: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾
 لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح
 يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم
 - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه،
 ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها
 العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.
 ﴿وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: أولادكم وعشيرتكم
 وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد
 المعيشة، وضنك الرزق.

فذهبوا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أَي: على يوسف ﴿قَالُوا﴾
 متضرعين إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ وَجَحْنَا بِضِئَةِ
 مَرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أَي: قد اضطررنا نحن
 وأهلنا ﴿وَجَحْنَا بِضِئَةِ مَرْجَلَةٍ﴾ أَي: مدفوعة مرغوب عنها
 لقلتها، وعدم وقوعها الموقع ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكِيلَ﴾ أَي: مع عدم
 وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب ﴿إِنَّ اللَّهَ
 يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.
 فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رقى لهم يوسف رقة شديدة،
 وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

(٨٩-٩٢) ﴿٩٢﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
 جَاهِلُونَ ○ قَالُوا أَتَنُكَّ لَأَنْتَ يَوْسُفَ قَالَ أَتَايَوْسُفَ وَهَذَا أَخِي
 قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنَّ يَتَقَى وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ○ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا
 لَخَاطِئِينَ ○ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ○ ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما يوسف
 فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله - والله أعلم - قولهم:
 ﴿إِنْ يَسْرِفْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أو أن الحادث الذي
 فرق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له،
 ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ
 لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿أَتَنُكَّ
 لَأَنْتَ يَوْسُفَ قَالَ أَتَايَوْسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾
 بالإيمان والتقوى، والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر
 والتقوى ﴿إِنَّهُ مَنَّ يَتَقَى وَيَصِيرُ﴾ أَي: يتقي فعل ما حرم الله،
 ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَإِنَّ
 اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا
 يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أَي: فضلك علينا
 بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية
 الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتباعد لك عن
 أهلك، فأثرك الله تعالى، ومكنت مما تريد ﴿وَإِنْ كُنَّا
 لَخَاطِئِينَ﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم
 على يوسف.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام كرماً وجوداً: ﴿لَا
 تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ أَي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ
 اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير
 تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة
 والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤٧

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا سِتْفَعِرُنَا دُثُونًا إِنَّا كُنَّا خَطِيعِينَ ﴿١٠٢﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَفْعِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٥﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شَمَّ يعقوب ريح القميص فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون﴾ أي: تسخرون مني، وترعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم، فقالوا: ﴿اللَّهُ إِنَّكَ لَمِنَ الضَّلَالَةِ الْكَبِيرَةِ﴾ أي: لا تزال تائها في بحر الحب، لا تدري ما تقول.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ﴿أَلْقَاهُ﴾ أي: القميص ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴿أي: رجع على حاله الأولى بصيرًا﴾ بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفتنون رأيه، ويتعجبون منه منتصرًا عليهم، متبجحًا بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن. فأقروا بذنوبهم ونجعوا بذلك و ﴿قَالُوا يَتَّبِعَانَا سِتْفَعِرُنَا دُثُونًا﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف ﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطلبهم، ومسرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَفْعِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

(١٠٠، ٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿أي:﴾ فَلَمَّا تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها، فلما وصلوا إليه، و﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام ^(١) والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ادْخُلُوا مَصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: أبوه، وأمه، وإخوته، سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له: ﴿يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ

رُءُوسِي مِن قَبْلُ﴾ حين رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إحسانًا جسيمًا ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إيتائكم من البداية من إحسان الله إليَّ.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ جعل الإحسان عائدًا إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب.

﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فلم يقل: «نزع الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك

الفرقة الشاقة.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل برة وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْعَالِمُونَ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

(١٠١) ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقرًا بنعمة الله شاكرا لها داعيًا بالثبات على الإسلام:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتديرها ووزيرا كبيرا للملك ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي: أدم علي الإسلام وثبنتي عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

(١٠٢) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾ الإنباء الذي أخبرناك به ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الذي لولا إباحاؤنا إليك، لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضرا لديهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحدا أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمهم إلا بوحيه ﴿وَمَا كُنْتَ بِعَيْنِ الْغَيْبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الآيات، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله ﷺ حق

(١٠٣-١٠٧) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ يَسْتُرُونَ ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم، قد أصبحت

فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا، ولهذا قال:

﴿وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتكروه.

﴿وَكَأَيِّنْ﴾ أي: وكم ﴿مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا ﴿يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ يَسْتُرُونَ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال:

﴿أَفَأَمِنُوا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعممهم ويستأصلهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله، ويتروكا ما يكون سببا في عقابهم.

(١٠٨، ١٠٩) ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَنْظُرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ للناس: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ أي: أحث الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يعدهم عنه.

ومع هذا فأنا ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿وَوُ﴾ كذلك ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ أي: لم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤٨

سُورَةُ يُوسُفَ

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾
وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾ أَفَأَمْسُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُونَ ﴿١١٩﴾
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٠﴾ حَتَّى
إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يَرِدُ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
﴿١٢١﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْفِرُ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٢٢﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإثارة - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل، تحصل لهم الرحمة.

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة، التي قال الله في أولها: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد.

فمن ذلك، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى محنة ومنعة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع واتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من

نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلا تبي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿تُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولاً، وأصح آراء، ولتبين أمرهم ويتضح شأنهم. ﴿أَفَلَا يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيكم ما أصابهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منغص منكذ منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام، في تزايد وتواصل ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤثّر الذي هو خير على الأبدني.

(١١٠، ١١١) ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يَرِدُ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهّلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهّلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعده الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَّشَاءُ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يَرِدُ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يرد عذابنا عن مجرميهم، وتجراً على الله ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلفة ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿وَتَفْصِيلَ

قصها فأحسنها، ووضحها وبَيَّنَّها.

ومنها: أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا، وإن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبني عليه المناسبة والمثابة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكباً له ساجدين، وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، فكَذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات، كما يهتدى بهذه الأنوار ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرماً، لما هو فرع عنه، فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة، أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود [له] معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظماً محترماً، عند أبويه وإخوته.

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِيكَ رُؤْيَاكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمراً، أن الذي يعصر في العادة يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سبيرز للطيور، بمحل تمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنيلات، بالسنتين المخصة، والسنتين المجذبة، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمنت، وإذا أجذبت صارت عجافاً، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدًا.

يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أُمِّي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرتة، لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَسْتَيْ لَا نَقْصُ رُؤْيَاكَ عَلَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته، وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِيكَ رُؤْيَاكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسِّرُ يَمَنَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض، والسرور والغبطة، ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء ييكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن

حقه، فالح خير الراحمين.

ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْهَبْ وَاسْكُنْ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم: أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتمم ذلك بأن لا يشرب عليهم ولا يعيرهم به.

ثم بره العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق. ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة، أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً لا يجوز. ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراء^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وجبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن - بسببها - مدة طويلة.

ومنها: أن اللهم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن اللهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم «رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»، وإنما اللهم الذي يلام عليه العبد، اللهم الذي يساكنه، ويصير عزماً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه بيران إيمانه، وصدق إخلاصه، من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي، ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَوَّفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْخَالِصِينَ﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنه من إخلص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله الله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فرَّ هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينه، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد، حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقر مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحكم شاهداً فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لُمتها على ذلك أن تقطن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ زَوَّجْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾.

(١) كذا في أ، وفي ب: سيّد، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: ﴿وَتَرْوُءُ﴾ فسمى الله فعلهم شراء مع كونه حراماً.

العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿أَذْكُرْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال، أو جاه، أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسني، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعفنه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي يتفجع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخضبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿فَقُصِّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وقال الملك: ﴿أَقْرَأُ فِي رُؤْيَايَ﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه، من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَافِظٌ عَلَيْهَا﴾ وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله

وقالت بعد ذلك: ﴿الَّذِي حَصَصَ الْخُبْرَ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَوْنُ الصَّافِيَيْنِ﴾ وقالت النسوة: ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على مواجهة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة. ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية له في الشدة، ف«يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فأرهما مشوفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياها فيها من الكمال والعلم، إيمانه، وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المقتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصيح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى

تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أُوْبٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴿١١٠﴾

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّوع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَكَادَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل: «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل: «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأن يبقى عند أخيه^(١)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه، إما بمشاهدة، أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفى بما وعده، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافي الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حيثئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر، وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر

(١) في الأصل (كفاية) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).

وحقوق عباد، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه [كفاءة]^(١)، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فهذه الأمور ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، وجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكتها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن، إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخرى، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَى الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجعبة، وأن هذا غير منافض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل الأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوُنَّ أَنَّ أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

ومنها: أن سوء الظن - مع وجود القرائن الدالة عليه - غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب، حيث قال لبنينه: ﴿يَبْنِي لَا

ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُهَا الضُّرُّ﴾ ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَاسٍ إِنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ وَصِيٍّ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولي، ليحدث لذلك شكرًا كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

فسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً مقبلاً، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الرعد

وهي مدنية، وقيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الرَّءْيَاءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّءْيَاءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَبِّرَاتٌ وَجَعَلَتْ مِنْ أَغْصَانٍ زَرْعًا وَنَحِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءَاكُافُ تَرَابٍ أَءَا لَفَى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَغْنَاهُمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم، العمل بما أحب الله. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه، وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً، فلذلك أكثر الناس غير متفتحين به، لعدم السبب الموجب للاتفاق.

(٢-٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَبِّرَاتٌ وَجَعَلَتْ مِنْ أَغْصَانٍ زَرْعًا وَنَحِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة

لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجيال الرواسي التي جعلها الله أوتادًا لها .

﴿و﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيرًا كثيرًا، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلْنَا فِيهَا رِزْقَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد .

﴿يَفْثَى أَيْلُ النَّهَارِ﴾ فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم، غشي النهار الليل، فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار .

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لَشُكُورًا فِيهِ وَلَسْتُمْ أَتَىٰ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ على المطالب الإلهية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها، وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى .

ومن الآيات على كمال قدرته، وبديع صنعته، أن جعل ﴿فِي الْأَرْضِ قَطْعًا مُّتَجَوِّرَاتٍ﴾ فيها أنواع الأشجار ﴿مِنْ أَشْجَبٍ وَرَزَّعٍ وَنَخِيلٍ﴾ وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صِنَوَانٌ﴾ أي: عدة أشجار في أصل واحد، ﴿وَعَبَّرَ صِنَوَانٌ﴾ بأن كان كل شجرة على حداثها، والجميع ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وأرضه واحدة ﴿وَنُفِصِلَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ لونا، وطعما، ونفعا، ولذة؛ فهذه أرض طيبة، تنبت الكلا والعشب الكثير، والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاصقتها، لا تنبت كلا، ولا تمسك ماء، وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلا، وهذه تنبت الزروع والأشجار، ولا تنبت الكلا، وهذه الثمرة حلوة، وهذه مرة، وهذه بين ذلك .

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلا، ولا يعون له قبيلا .

(٥) ﴿وَأَن تَحِبَّ فَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَنَافِي خَلْقِي جَدِيدٌ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَغْشَاهُمْ وَأُولَٰئِكَ

والسلطان الدال على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة ﴿يَغْيِّرُ عَمَدَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض ﴿أَسَوَّىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله .

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم، ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ بتدبير العزيز العليم ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بسير منتظم، لا يفران ولا يتيان، حتى يجيء الأجل المسمى وهو طي الله هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار، فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها، فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقواما ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفف ويرفع، ويقل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام، لتدبير ما جعلهم على تدبيره .

وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع، والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها، وإيضاحها وتمييزها، ﴿لِمَّا كُنْتُمْ﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية، والآيات القرآنية ﴿يُلَقِّدُ رَبُّكُمْ تَوَتُونَ﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور .

وأیضا، فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثا، فكما أنه أرسل رسله، وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيهم، فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيهم جزاؤه، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها، ومهدا للعباد، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا﴾ أي: جبلا عظاما، لئلا تميد بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها، لأنها على تيار ماء،

أَفْسَحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يحتمل أن معنى قوله: ﴿وَإِنْ نَعَجَبَ﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحده، فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَفَنَا لَكَ خَلْقٌ جَدِيدٌ﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا ترابًا، أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق.

فلما رأوا هذا ممتنعًا في قدرة المخلوق، ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة، ولم يكونوا شيئًا.

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من العجائب، فإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب.

ولكن ذلك لا يستغرب على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وجحدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها ﴿وَأُولَئِكَ أَكْذَبُ﴾ المانعة لهم من الهدى ﴿فِي أَغْشَايِهِمْ﴾ حيث دُعُوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فقلبت قلوبهم وأندبتهم، عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا.

(٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُكَ إِلَى يَمِينِهِ قَبْلُ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِهُمُ الْغُلُكُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم [الله] الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَتِنَا بِمَذَاقٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْغُلُكُتُ﴾ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوهم نازلًا إلى العباد، وهم لا يزال شرهم^(١)، وعصيانهم إليه صاعدًا. يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يخرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فهو طيبهم، يبتليهم بالمصائب، ليظهرهم من المعائب ﴿فَلْيَبْغُوايَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى

فإنه ﴿عَلَيْهِ الْكَفَّيَّةُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته ﴿الْمُتَعَالَى﴾ على جميع خلقه، بذاته وقدره وقهره.

(١) في ب: شركهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: واقتراه.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٥٠

سُورَةُ الرَّعْدِ

وَسَتَجْلُوَنَا بِالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ
 قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
 ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ
 وَمَا تَرْذَلْنَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ
 الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
 بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
 مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
 وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
 وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزِفَ خَوْفًا وَطَمَعًا
 وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
 وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
 مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب
 التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتضع له
 المخلوقات العظام التي يخاف منها، وترجع العباد، وهو
 شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له،
 ولهذا قال:

(١٤) ﴿لَمْ دَعُوهُ لَقِيَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ
 إِلَّا كَبْسِطٍ كَتَبَهُ إِلَى آَلَاءِ لِيَلْعَنَهُمْ وَهُمْ لَا يَلْعَنُونَ إِلَّا فِي
 ضَلَالٍ﴾ أي: لله وحده ﴿دَعُوهُ لَقِيَ﴾ وهي عبادته وحده لا شريك
 له، وإخلاص دعاء العباد، ودعاء المسألة له تعالى. أي: هو
 الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء،
 والحب، والرغبة، والرغبة، والالابنة، لأن ألوهيته هي الحق،
 وألوهية غيره باطلة، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان،
 والأنداد التي جعلوها شركاء لله.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ أي: لمن يدعوها ويعبدها، بشيء قليل
 ولا كثير، لا من أمور الدنيا، ولا من أمور الآخرة، ﴿إِلَّا
 كَبْسِطٍ كَتَبَهُ إِلَى آَلَاءِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿يَلْعَنُ﴾ يسط
 كفيه إلى الماء ﴿قَاتٍ﴾، فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول

﴿سَوَاءً يَنْسُرُ﴾ في علمه وسمعه، وبصره.

﴿مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي:
 مستقر بمكان خفي فيه ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: داخل سره في
 النهار، والسرب هو ما يخفي فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو
 غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

﴿لَهُ﴾ أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من الملائكة، يتعاقبون في
 الليل والنهار.

﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: يحفظون
 بدنه وروحه من كل من يريد بسوء، ويحفظون عليه أعماله،
 وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد
 أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم
 ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾
 من النعمة والإحسان، ورغد العيش ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾
 بأن يتنقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية،
 أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك
 إياها.

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا
 إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير
 والسرور والغبطة والرحمة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي:
 عذاباً وشدّة، وأمرًا يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

﴿ف﴾ إنه ﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ ولا أحد يمنعهم منه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ
 دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع
 عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله، خشية
 أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

(١٢، ١٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزِفَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ
 السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ
 وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ
 شَدِيدُ الْحَالِ﴾ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزِفَ خَوْفًا
 وَطَمَعًا﴾ أي: يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر
 على بعض الثمار ونحوها، ويطمع في خيره ونفعه ﴿وَيُنشِئُ
 السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من
 السحاب المزجج للعباد، فهو خاضع لربه، مسبح بحمده
 ﴿و﴾ تسبح ﴿الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: خشعاً لربه، خائفين
 من سطوته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من
 السحاب ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، بحسب ما شاء
 وأراد ﴿هُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد
 شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب.

وَحَقَّقَ عِبَادَهُ قَدْ كُتِبَ ذَلِكَ، وَسَطَرَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: ﴿يُؤَيَّلُنَا مَا لَ هَذَا الصَّكِّبِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجع، والنار الحامية، والزقوم، والزمهرير، والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ﴿وَيَسَّ لَهَاذِهِ﴾ أي: المقر والمسكن مسكنهم.

(١٩-٢٤) ﴿أَفَنَنْتَ بِعَلَىٰ أَنَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْيَنَ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْيُسْكَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخْلِفُونَ صَوًّا الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لَمْ تُغْنِ الدَّارُ ۝ جَنَّتْ عَنْهُمْ يَتْلَوْنَ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمُ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكَ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾
يقول تعالى مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَنَنْتَ بِعَلَىٰ أَنَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْيَنَ﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به، فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالبعد أن يتذكر ويتفكر، أي: الفريقين أحسن حالاً، وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره.

﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة الذين هم لب العالم، وصفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي عهده إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التميم لها، والنصح فيها، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لَا يَنْقُضُونَ الْيُسْكَ﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود، والأيمان والنذور التي يعقدها العباد، فلا يكون العبد من أولي الأبواب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبه ومحبة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم، ببرهم بالقول والفعل، وعدم عقوبهم، ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا، ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والممالك، بأداء حقهم كاملاً موفراً، من الحقوق الدينية والدنيوية.

يَصْرَبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْيُسْكَ فَأَمَّا الزَيْدُ فَيَذْهَبُ جُنَّةً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَكُنْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَصْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها، بالأودية التي تسيل فيها السيول، فوَادٍ كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبير يسع علماً كثيراً، ووَادٍ صغير يأخذ ماء قليلاً، كقلب صغير يسع علماً قليلاً وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات، عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة. كذلك الشهات والشهوات، لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب خالصاً صافياً، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَصْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

(١٨) ﴿لِذَٰلِكَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ صَوًّا الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لَهَاذِهِ﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر ثوابه، وغير مستجيب، فذكر عقابه فقال: ﴿لِذَٰلِكَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربه فيما يريد منهم، فلمهم ﴿الْحَسَنَ﴾ أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن.

فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها، ومن الثواب العاجل والآجل، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال، وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة فـ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم، وأتى لهم ذلك؟

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ صَوًّا الْحِسَابِ﴾، وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ، وما ضيعوه من حقوق الله

سُورَةُ الرَّعْدِ

٢٥٢

﴿أَفَن يَعْلَمَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذْكُرُ
أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْمُثَقُ
﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا زَكَاةً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ
بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَعْنَةٌ ﴿٢٦﴾ وَقَوْلُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

المنازل العالية، والجنان الغالية ﴿فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ .

فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به فقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرأوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للثواب. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمرضاة ربه، ورجاءاً للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومتناه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، ﴿وَأَتَوْا زَكَاةً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة، كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعَلَانِيَةً، ﴿وَيَدْرُسُونَ بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيقطعون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة، ومناقبهم الجميلة ﴿لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾، فسرها بقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا ييغون عنها جَوْالاً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ من الذكور والإناث ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ يهتئونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم، ويقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حُلَّتْ عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه

سُورَةُ الرَّعْدِ

٢٥٣

الْبَقَرَةُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ
 مَثَابُكُمْ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
 لَتَلَتْهُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
 قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُكُمْ ﴿٣٣﴾
 وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوَكُلَّمْ
 بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ آمَنُوا
 أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 تُصِيبُهُمُ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ
 وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْأَعْوَادَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ
 مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
 عِقَابِ ﴿٣٥﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
 لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ
 يَبْظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ
 السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَأْلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٧﴾

من دعوى الشريك له تعالى، أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئاً من العبادة، ولكن ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم، وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه ليس لأحد من الأمور شيء.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من عذاب الدنيا، لشدة ودوامه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم، لا مانع منه.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل من جميع

الكتب المنزلة - : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ من الكتب الإلهية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ جناها وأنهارها ﴿أَوْ كُلَّمْ بِهِ الْمَوْتُ﴾ لكان هذا القرآن ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يفترون من الآيات ما يفترون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟.

﴿أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعاً، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على كفرهم، لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم، أو تحل قريباً منها، وهم مصرون على كفرهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْأَعْوَادَ﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم، وعنادهم، وظلمهم.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يقول تعالى لرسوله - مثباً له ومسلماً - : ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فلست أول رسول كُذِّبَ وأُوذِيَ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسلمهم، أي أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذيين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك، واستهزأوا بك بامهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

﴿٣٤، ٣٥﴾ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَأْلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى، كمن ليس كذلك؟.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له، ولا يد ولا نظير ﴿قُلْ﴾ لهم، إن كانوا صادقين: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ لتعلم حالهم ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكاً، وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَبْظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ أي: غاية ما يمكن

أنواع الثمار.

﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ دائم أيضًا ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقَوْ﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكُتِبَ بِفِرْحَتٍ يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكُتِبَ﴾ أي: منّا عليهم به وبمعرفة ﴿يَفْرَحُونَ يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضًا، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدق.

﴿فَمَنْ أَهْتَكَنَ فَلَنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ إنما أنت يا محمد منذر، تدعو إلى الله ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أي: بإخلاص الدين لله وحده ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابُ﴾ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

(٣٧) ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَكِنْ أَتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكمًا عربيًا، أي: محكمًا متقنًا، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده وينافضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعده رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه.

(٣٨، ٣٩) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس، حتى يستغفروا رسالتك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلا شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟ وإن طلبوا منك آية اقترحوها، فليس لك من الأمر شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والله لا يأذن فيها

إلا في وقتها الذي قدره وقضاه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبًا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير، في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله ثبوتها أسبابًا، ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان، من أسباب طول العمر، وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببًا

أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئًا ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عَقِيَ الدَّارِ﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين للكفر وأعماله.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به ﴿قُلْ لَهُمْ - إِنْ طَلَبُوا عَلَى ذَلِكَ شَهِيدًا: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما ثبت به رسالته.

وأما فعله، فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن واتبع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم، لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد، والحمد لله رب العالمين.

للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

(٤٠، ٤١) ﴿وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به ﴿وَأَمَّا تُرِيدُكَ﴾ إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك ﴿أَوْ تَوَفِّيكَ﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلًا لك ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ والتبيين للخلق.

﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

ثم قال - متوعداً للمكذبين - : ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قيل: بإهلاك المكذبين، واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال.

والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك، أن أراضى هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويحتاحها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيهاً لهم قبل أن يحتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا حُكْمُهُ الشَّرْعِي، والقُدْرِي، والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافقه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

(٤٢، ٤٣) ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عَقِيَ الدَّارِ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يرسلهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله وبيارزونه ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْتُبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعوته، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم.

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه، إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

وليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده عزيز السلطان، حميد في أقواله، وأفعاله، وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض، خلقاً ورزقاً وتدبيراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، تواعد من لم ينقد لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة.

﴿وَصُدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه، وعلى السنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة ﴿وَبِغْيًا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: يحرصون على تهجينها وتبجيلها، للتفجير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤﴾

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا وشاقوا الله ورسوله، وحاربوهما، فأبى ضلال أبعد من هذا؟!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها، مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

(٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولاً ﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كان على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾، ممن لم ينقد للهدى، ويهدي من يشاء، ممن اختصه برحمته.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي - من عزته - أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقلب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٥٦

سُورَةُ الْاِبْرٰهِيْمِ

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

النعمة ضد ذلك.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضروا الله شيئاً ﴿فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

(٩-١٢) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله، أمور مطلوبة، محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في حالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغیرهم، وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

(٥-٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليذكروا نعمه، وليحذروا عقابه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في أيام الله على العباد ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء والعسر والضييق، شكور على السراء والنعمة.

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته، وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بقلوبكم وألسنتكم ﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يولونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿وَيَدْعُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: ييقنونهم فلا يقتلونهم ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الإنجاء ﴿بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فروع وملاه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟.

وقال لهم - حاثاً على شكر نعم الله - : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: أعلم ووعد ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمي ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم، والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرفها في مرضاة الله تعالى، وكفر

الله فضله، ويمتنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته، وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويتقون به في تيسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه ﴿وَمَا كُنَّا إِلَّا أَنْ نَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا. أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع [كيدهم ومكرهم]^(١)، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَقُولُونَ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَقُلْ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ فَيَكْفُرُوا بِجَمِيعَةٍ ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ.

﴿وَالْكَافِرِينَ عَلَى مَا عَادِيْتُمُونَا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾

(١) في الأصل (كيدكم ومكرهم) ولعله سبق قلم.

اللَّهُ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَصِّنَا عَلَى مَا عَادِيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يقول تعالى - مخوفاً عباده - ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه، وبسطها ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالادلة الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم يتقادوا لها، بل استكبروا عنها ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْوِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْتِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ صريحاً لرسولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: موقع في الريبة، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.

ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ إِنِّي اللَّهُ شَكٌّ﴾ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الرب فيه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: ليشيكم على الاستجابة لدعوته، بالثواب العاجل والأجل، فلم يدعكم ليتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: فكيف تفضلونا بالنبوة والرسالة ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا نَعْبُدُ آبَاءَنَا﴾ فكيف تترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟

﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومراهم بينة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح وحقيقة، أننا بشر مثلكم ﴿وَلَكِنْ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن ﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على

وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام، توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

(١٣-١٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَسُكْنَنَّهُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّنْ وَرَأْيِهِ جَهَنَّمُ وَسُفَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعدين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها، يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة، ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها، وإن رجعا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟.

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال، ما بقي حيثن إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بأنواع العقوبات.

﴿وَلَسُكْنَنَّهُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ﴾ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم، جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا،

الْمُرْسَلِينَ

٢٥٧

سُورَةُ الْاِبْرٰهِيْمِ

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَبَ عَلَىٰ مَاءٍ أَدْيَمُونَ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَسُكْنَنَّهُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَأْيِهِ جَهَنَّمُ وَسُفَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا ۖ اٰسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذٰلِكَ هُوَ أَضْلَلُ الْبَعِيدِ ﴿١٨﴾

واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحو به، وإلا فالله حلیم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، وعاند الرسل، وشاقهم.

﴿مِّنْ وَرَأْيِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها، فيذاق حيثن العذاب الشديد ﴿وَسُفَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ من العطش الشديد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَمِوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كٰفِرٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

(١٨) ﴿ثُمَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَامٌ أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصُّلْبُ الْقَبِيضُ﴾ يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئاً، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذلك أعمال الكفار ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ ولا على مثقال ذرة منه، لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

﴿ذَلِكَ هُوَ الصُّلْبُ الْقَبِيضُ﴾ حيث بطل سعيهم، واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها، ليكيدوا بها الحق، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائد عليهم، ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

(١٩-٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ فِي يَسَاءٍ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ۝ يَبْهَ تَعَالَىٰ عِبَادُهُ بِأَنَّهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ﴾ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما، على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

يحمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم، يكونون أطوع لله منكم، ويحمل أن المراد أنه: إن يشأ يُفنيكم ثم يُعْذِبُكم بالبعث خلقاً جديداً، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده، من أحوال القيامة.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جداً ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْئِينَ وَاحِدَةً﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَيَبْرَزُوا﴾ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حين ينفخ في الصور، فيخرجون من الأحداث إلى ربهم، فيقفون في أرض

سُورَةُ الْاِبْرٰهِيْمِ

٢٥٨

سُورَةُ الْاِبْرٰهِيْمِ

الَّتِي تَرَأَىٰ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ فِي يَسَاءٍ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتُمُ الْأَمْثِرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّةٌ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، ويبرزون له، لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟

فيقول ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ أي: التابعون والمقلدون ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم المتبوعون الذين هم قادة في الضلال ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزيتموه لنا فأغويتمونا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ولو مثقال ذرة ﴿قَالُوا﴾ أي: المتبوعون والرؤساء «أغويناكم كما غوينا» و﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ﴾ فلا يغني أحد أحداً ﴿سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ عليه ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

(٢٢، ٢٣) ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتُمُ الْأَمْثِرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ

ولا خطر على قلب بشر ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا يُؤْذِنُ رَبُّهُمْ﴾ أي: لا يحولهم وقوتهم بل يحول الله وقوته ﴿يَجْعَلُهُمْ فِيهَا سَلَامًا﴾ أي: يُحْيِي بعضهم بعضًا بالسلام، والتحية، والكلام الطيب.

(٢٤-٢٦) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يُؤْذِنُ رَبُّهَا وَيَصْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۚ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ منتشر ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وهي كثيرة النفع دائماً.

﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا﴾ أي ثمرتها ﴿كُلَّ حِينٍ يُؤْذِنُ رَبُّهَا﴾ فكذاك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، وفروعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائماً، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره ﴿وَيَصْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراد الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه، فله أتم الحمد وأكمله وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكَل والمطعم، وهي شجرة الحنظل ونحوها ﴿اجْتُثَّتْ﴾ هذه الشجرة ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا ثمر إلا كل قول خبيث، وعمل خبيث، يستضر به صاحبه ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره.

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام الذي يستلزم أعمال الجوارح ويشمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات بالهداية إلى

عَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يُؤْذِنُ رَبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو سبب لكل شريف وقع في العالم، مخاطباً لأهل النار، ومبتزاً منهم ﴿لَمَّا فَصَّي الْأُمُورُ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ على السنة رسله، فلم تطيعوه، فلو أطعتموه، لأدرتكم الفوز العظيم، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ الخير ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منتبكم به من الأمانى الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: هذا نهاية ما عندي، أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبت لي، أتباعاً لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿وَلَا تَكُونُوا يَكُونُوا وَلَوْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فأنتم السبب، وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿مَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَا أَنَا بِمُفْرِغٍ﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: تبرات من جعلكم لي شريكاً مع الله، فلست شريكاً له، ولا تجب طاعتي ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خالدين فيه أبداً.

وهذا من لطف الله بعباده، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه^(١)، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم ﴿وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾.

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية، أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات، ما به يتجراؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أنبته، فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يُؤْزِرُهُمْ إلى المعاصي أژاً، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بمواليته والاتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ولما ذكر عقاب الظالمين، ذكر ثواب الطائعين فقال: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: قاموا بالدين، قولاً، وعملاً، واعتقاداً ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من اللذات والشهوات، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت،

(١) في ب: وجنده.

اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراتها.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: (من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟) هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: (الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبي).

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ، في الفتنة وصفقتها، ونعيم القبر وعذابه.

(٢٨-٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمْعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارَ ۖ وَجَعَلُوا اللَّهَ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ﴾ يقول تعالى - مبيّنًا حال المكذبين لرسوله من كفار قریش، وما آل إليه أمرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمْعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صدمهم غيرهم حتى ﴿أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهي النار، حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالا على قومهم، من حيث يظن نفعمهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الواقعة.

﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَيَنَسُّ الْقَرَارَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ أُنْدَادًا﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا الله من الأنداد، ودعوههم إلى عبادتها، ﴿قُلْ﴾ لهم متوعداً: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم، ﴿فَإِن مَّصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مالكم ومقرمكم وماواكم فيها، وبش المصير.

(٣١) ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَافٌ﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين أمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، أن يتزهوا بالفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥٩

سُورَةُ الْاِبْرٰهِيْمِ

تَوَقَّعْتُ أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَثَلُ كَمْثَةٍ خَيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ أَجْتَنَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٣٣﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٣٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارَ ﴿٣٦﴾ وَجَعَلُوا اللَّهَ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَافٌ ﴿٣٨﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِيَتَجَرَّ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٩﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٤٠﴾

الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿وَمَثَلُ كَمْثَةٍ خَيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ أَجْتَنَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

(٣٢-٣٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِيَتَجَرَّ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يخبر تعالى: أنه وحده ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على اتساعهما وعظهما ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ المختلفة الأنواع ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ورزقاً لأنعامكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿لِيَتَجَرَّ﴾

الْبَحْرِ بِأَمْرٍ ۖ فَهُوَ الَّذِي يَسِّرْ لَكُمْ صُنْعَهَا، وَأَقْدِرْكُمْ عَلَيْهَا، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْآفَاقَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ لا يفتران، ولا نبيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمعتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَّ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ مبصرًا، لتبتغوا من فضله.

﴿وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيتكم وحاجتكم، مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ فضلًا عن قيامكم بشكرها ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرى على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كَفَّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار، كما أن نعمته تتكرر عليهم في جميع الاوقات. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي:

﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة إذ قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ أي: الحرم ﴿آمِنًا﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، وسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرُده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني وإياهم، جانبًا بعيدًا عن عبادتها، والإلمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه، بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها، فقال:

﴿٣٦﴾ ﴿رَبِّ إِنِّي أَصْلَحْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: ضلوا بسببها ﴿فَنِّيَعْنِي﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لتمام الموافقة ومن أحب قومًا وتبعهم، التحق بهم.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من

الْمُرَادُ بِالْعِبَادَةِ

٢٦٠

الْمُرَادُ بِالْعِبَادَةِ

وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٦﴾ رَبِّ إِنِّي أَصْلَحْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَّعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصْلَحْتُ مِّنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٩﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٤١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤٢﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٣﴾

تمرد عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَصْلَحْتُ مِّنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وذلك أنه أتى بـ «هاجر» أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام، حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا داع ولا موجب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعًا متوكلاً على ربه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَصْلَحْتُ مِّنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيمًا لدينه، ﴿فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحبهم، وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمدًا ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم،

فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

﴿مُطَهَّرِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص، ولا ملجأ ﴿مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها قد غلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ أي: أفندتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم، وحزن وقلق.

(٤٤-٤٦) ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۚ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمُ الْآثِمَاتِ ۚ وَكَفَّ مَكْرَهُمُ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والتكذيب، وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: رُدنا إلى الدنيا، فإننا قد أبصرنا، ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذّبة في هذا الوعد ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ عن الدنيا، وانتقال إلى الآخرة، فما قد تبين جنتكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدعون.

﴿و﴾ ليس عليكم قاصرٌ في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿سَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمُ الْآثِمَاتِ﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحلّ الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم، ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﴿مَكْرَهُمْ﴾ الذي وصلت إراداتهم، وقد لهم عليه، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو محيط به علماً وقدرة، فإنه عاد مكرهم عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ الشَّيْءَ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أي: ولقد كان

وافترض الله حج هذا البيت، الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيباً، جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقُّه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَأَرْزَقَهُمْ مِّنَ الشَّجَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجيئ إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

(٣٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا، أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها، والتي لا نعلمها، ما هو مقتضى علمك ورحمتك ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين.

(٣٩) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر، في حال الإياس من الأولاد، نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ أي: لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يخيب رجائي، ثم دعا لنفسه ولذريته.

(٤٠، ٤١) فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۚ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ فاستجاب الله له في ذلك كله، إلا أن دعاءه لأبيه، إنما كان عن موعدة وعده إياه، فلما تبين له أنه عدو الله، تبرأ منه.

(٤٢، ٤٣) ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ مُطَهَّرِينَ﴾ أي: رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ﴿وَلَا شَدِيدٌ لِلظَّالِمِينَ، وتسلية للمظلومين، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدّر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يُمْلِي للظالم ويمهله، ليزداد إثمًا، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ والظلم - ههنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه، وظلمه لعباد الله ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تطرّف من شدة ما ترى من الأحوال، وما أزعجها من القلاقل.

الجزء الثالث عشر

٢٦١

سورة إبراهيم

مُهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَاهُمْ
هَوَاءً ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم
مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّتْهُ رُسُلُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو أَنْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا
بِهِ ۚ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق، وبمن جاء به - من عظمه
- لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿مَكْرُوا
مَكْرًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.
ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل، لينصر
باطلاً، أو يبطل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً،
ولم يضروا الله شيئاً، وإنما ضرروا أنفسهم.

(٤٧-٥٢) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّتْهُ رُسُلُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو أَنْتِقَامٍ ۝ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ
الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝
سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ
وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ بقول تعالى: ﴿فَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّتْهُ رُسُلُهُ﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم
وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم
في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً،
على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون
من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن
الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه
﴿عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه،
وذلك في يوم القيامة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾
تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبدل صفات، لا تبدل
ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى
ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى
فيه عوجاً ولا أمناً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال
ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى يمينه.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم،
ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته، وأفعاله
العظيمة، وفهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتديره، فلا
يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم بالإجرام، وكثرة
الذنوب، في ذلك اليوم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: يسلسل
كل أهل عمل من المجرمين، بسلاسل من نار، فيقادون إلى
العذاب، في أذل صورة وأشنعها، وأبشعها.

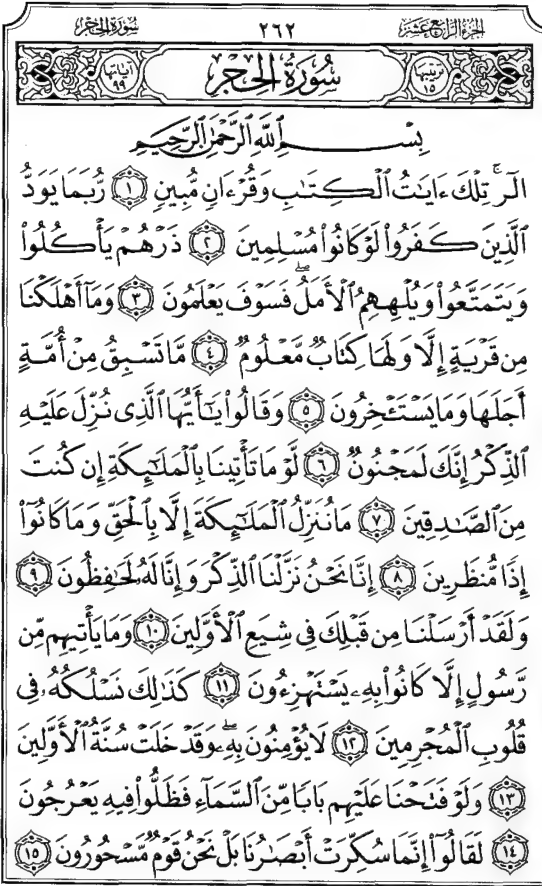
﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ أي: ثيابهم ﴿مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ وذلك لشدة اشتعال
النار فيهم وحرارتها، وتنن ريحها ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ﴾ التي هي
أشرف ما في أبدانهم ﴿النَّارُ﴾ أي: تحيط بها، وتصلها من

كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا
ظلماً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا
قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر،
بالعدل والقسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ
حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ويحتمل أن معناه: سريع
المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة كما يرزقهم
ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن
شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:
﴿هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ﴾ أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى
أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من
الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما
أعد الله لأهلها من العقاب ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ﴾ حيث
صرف فيه من الأدلة والبراهين، على ألوهيته ووحدانيته، ما
صار ذلك حق اليقين.



﴿وَلْيَذْكُرْ أُولَئِذَا الْأَلْبَابُ﴾ أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم ففعلونه وما يضرهم فتركوه، وبذلك صاروا أولي الأبواب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم، لما أخذوه غصًا طريًا، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها. وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي، لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ۝ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ۝ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝ مَا تَسْقِي مِنْ أَمَةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ يقول تعالى معظماً لكتابه، مادحاً له: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني، وأفضل المطالب ﴿وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ للحقائق، بأحسن لفظ وأوضحه، وأدله على المقصود، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول، والفرح والسرور.

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها، والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون، أي: متقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء، وتظهر أوائل الآخرة، ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

ف ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بلذاتهم ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: يؤملون البقاء في الدنيا، فيلهيهم عن الآخرة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى، فإن هذه سته في الأمم. ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كانت مستحققة للعذاب ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ مقدر لإهلاكها.

﴿مَا تَسْقِي مِنْ أَمَةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ وإلا فالذنوب لا بد

من وقوع أثرها وإن تأخر.

(٦-٩) ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تظن أنا ستبعك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَكَةِ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل.

أما الظلم فظاهر، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنّت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة، الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرته، فليس في إنزال الملائكة خير لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إهمال على من لم يتبعه وينقله.

﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا،

مطمع فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

(١٦-٢٠) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَةً لِلنَّظِيرِينَ ۝ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا وَمَنْ أَسْتَمْتُمْ لَكُمْ يَرْزُقِينَ﴾.

يقول تعالى مبيّنًا كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي: نجومًا كالأبراج، والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَرَازِبَةً لِلنَّظِيرِينَ﴾، فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها على باريها.

﴿وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ إذا استرق السمع، أتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروسًا ممنوعًا من الآفات.

﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين منير يقتله أو يخبله.

فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه، فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمها ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها، على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالًا عظامًا، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتشبه أن تزول ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: نافع متقوم، يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعنان، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف، ﴿وَمَنْ أَسْتَمْتُمْ لَكُمْ يَرْزُقِينَ﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبود وإماء، وأنعام، لنفصكم، ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

(٢١) ﴿وَرَبَّانِي مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ﴾ أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ فلا يزيد على ما

ولن يؤمنوا بـ ﴿مُنْظَرِينَ﴾ أي: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلًا لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ويكفيهم من الآيات، إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء، من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر ﴿وَنَا لَكُمْ لِحَفِظُونَهُ﴾ أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم.

وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها، والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه، إلا وقض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه: أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوًا يحتاجهم.

(١٠-١٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبتهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسولهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

(١٤، ١٥) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانًا بأنفسهم، لقالوا - من ظلمهم وعنادهم، منكرين لهذه الآية - ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ أي: أصابها سكر وغشاوة، حتى رأينا ما لم نر ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا

قدره الله، ولا ينقص منه.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَتَّبِعْكُمُ وَمَا أَنتُمْ لَمْ يَخْزَيْنَ﴾ أي: وسخرنا الرياح، رياح الرحمة، تالقح السحاب، كما يلحق الذكر الأنثى، فنبشا عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد، ومواسيهم، وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم، ما هو مقتضى قدرته ورحمته ﴿وَمَا أَنتُمْ لَمْ يَخْزَيْنَ﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه يتابع في الأرض، رحمة بكم، وإحسانًا إليكم.

(٢٣-٢٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا ويميتهم لآجالهم، التي قدرها ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ وليس ذلك بعزیز، ولا ممتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقًا جديدًا، ويحشرهم إليه.

﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٢٦-٤٤) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّجْدِينَ ۝ قَالَ يَبْنَائِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجْدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوْتُ لَازِيَةً لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَخَوِيَّتَهُمْ أَجْعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ۝ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ آتَاكَ مِنَ الْغَايِبِينَ ۝ وَإِنَّ هَاجَمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْعِينَ ۝ لَهَا سَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ يذكر تعالى نعمته وإحسانه على آيينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وقتته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أي: من طين قد يبس، بعدما خمر حتى صار له صلصلة

سورة الحجر

٢٦٣

سورة الحجر

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظَرِ ۝ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ إِلَّا آمَنَ اسْتَرْقَ السَّعَ فَاتَّبَعَهُ شَبَابٌ مُمِينٌ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا الْكُرْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بُرْزُقِينَ ۝ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِالْقَدَرِ مَعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَكُمْ مَاءً وَنَحْنُ نَحْنُ لَكُمْ رَبُّكُمْ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّجْدِينَ ۝

وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه، من طول مكثه.

﴿وَالْجَنَّ﴾ وهو أبو الجن أي: إبليس ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ خلق آدم ﴿مِنْ نَارِ السُّمُورِ﴾ أي: من النار الشديدة الحرارة، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة:

﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ جَسَدًا تَامًا وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ﴾ فامثلوا أمر ربهم.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيمًا لأمر الله، وإكرامًا لآدم، حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّجْدِينَ﴾ وهذه أول عداوته لآدم وذريته، قال الله: ﴿يَبْنَائِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجْدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره وقال: أنا خير من آدم.

﴿قَالَ﴾ الله معاقبًا له على كفره واستكباره: ﴿فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٦٤

سُورَةُ الْحَجَرِ

قَالَ يٰٓإِبْرٰهٖمَ مَا لَكَ اَلَّا تَكُوْنَ مَعَ السَّجِدِيْنَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمَ اَكُنْ
لَا سَجْدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَٰصِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُوْنَ ﴿٣٣﴾ قَالَ
فَاَخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَٰجِعٌ ﴿٣٤﴾ وَاِنْ عَلٰٓيْكَ اَلْعَنَةُ اِلَى يَوْمِ
الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِيْ اِلَى يَوْمِ يُّعٰثُوْنَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَاِنَّكَ
مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ ﴿٣٧﴾ اِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
اَغْوَيْتَنِيْ لَآ اُزِيْنُ لَهُمْ فِي الْاَرْضِ وَلَا اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِيْنَ ﴿٣٩﴾
اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِيْنَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هٰذَا صِرَاطٌ عَلٰٓى
مُّسْتَقِيْمٍ ﴿٤١﴾ اِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ اِلَّا مَن
اَتَعَكَ مِنَ الْغَاوِيْنَ ﴿٤٢﴾ وَاِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اَجْمَعِيْنَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبْعَةُ اَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُوْمٌ ﴿٤٤﴾ اِنَّ
الْمُتَّقِيْنَ فِيْ جَنَّتٍ وَعِيُوْنَ ﴿٤٥﴾ اَدْخَلُوْهَا سَلٰمًا اٰمِيْنَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غِلٍّ اِخْوَانًا عَلٰٓى سُرُرٍ مُّقْبِلِيْنَ
﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيْهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِيْنَ ﴿٤٨﴾
﴿تَبٰٓءَ عِبَادِيْ اَنِّ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ ﴿٤٩﴾ وَاَنَّ عَذَابِيْ
هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ ﴿٥٠﴾ وَلَنَشْفِيَنَّ عَنْ صَیْفٍ اِبْرٰهِيْمَ ﴿٥١﴾﴾

الثمار اللذيذة، في جميع الأوقات.

ويقال لهم حال دخولها: ﴿اَدْخَلُوْهَا سَلٰمًا اٰمِيْنَ﴾ من
الموت، والنوم والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من
النعيم، الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض، والحزن،
والهم، وسائر المكدرات ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ فتبقى
قلوبهم سالمة من كل دغل^(١) وحسد، متصافية متحابية ﴿اِخْوَانًا
عَلٰٓى سُرُرٍ مُّقْبِلِيْنَ﴾.

دل ذلك على تزاورهم، واجتماعهم، وحسن أدهم فيما
بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكتين
على تلك السرر المزينة، بالفرش واللؤلؤ، وأنواع الجواهر.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيْهَا نَصَبٌ﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن
الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات ﴿وَمَا
هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِيْنَ﴾ على سائر الأوقات.

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة، من مفعولات الله، من
الجنة، والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال:

رَٰجِعٌ ﴿٥١﴾ أي: مطرود مبعد من كل خير ﴿وَاِنَّ عَلٰٓيْكَ اَلْعَنَةَ﴾
أي: الذم، والعيب، والبعد عن رحمة الله ﴿اِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾
ففيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره، وبعده من
الخير.

﴿قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِيْ﴾ أي: أمهلني ﴿اِلَى يَوْمِ يُّعٰثُوْنَ﴾ قال
﴿فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ﴾ إلى يومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ ﴿وليس إجابة الله
لعدائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له
وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاة دون عدوه، ممن
ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما
يريده منا.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا اَغْوَيْتَنِيْ لَآ اُزِيْنُ لَهُمْ فِي الْاَرْضِ﴾ أي: أزين لهم
الدنيا، وأدعوهم إلى إثارها على الأخرى، حتى يكونوا
منقادين لكل معصية.

﴿وَلَا اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِيْنَ﴾ أي: أصدهم كلهم عن الصراط
المستقيم ﴿اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِيْنَ﴾ أي: الذين أخلصتهم
واجتبتهم، لإخلاصهم وإيمانهم، وتوكلهم.

قال الله تعالى: ﴿هٰذَا صِرَاطٌ عَلٰٓى مُسْتَقِيْمٍ﴾ أي: معتدل
موصول إلي، وإلى دار كرامتي.

﴿اِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ﴾ تميلهم به إلى ما تشاء
من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم، وانقيادهم
لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿اِلَّا مَن اَتَعَكَ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك، بدلاً من طاعة
الرحمن، ﴿مِنَ الْغَاوِيْنَ﴾ والغاوي: ضد الراشد، فهو الذي
عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.

﴿وَاِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اَجْمَعِيْنَ﴾ أي: إبليس وجنوده ﴿لَهَا سَبْعَةُ
اَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من
أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُوْمٌ﴾ بحسب أعمالهم، قال الله
تعالى: ﴿فَنَكْبِكُوْا فِيْهَا هُمْ وَالْغَاوِيْنَ﴾ وَحُوْدٌ اِلَيْسَ اَجْمَعُوْنَ.

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه، أتباع إبليس، من النكال
والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأولياؤه من الفضل العظيم،
والنعيم المقيم فقال:

(٤٥-٥٠) ﴿اِنَّ الْمُتَّقِيْنَ فِيْ جَنَّتٍ وَعِيُوْنَ﴾ اَدْخَلُوْهَا سَلٰمًا
اٰمِيْنَ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غِلٍّ اِخْوَانًا عَلٰٓى سُرُرٍ مُّقْبِلِيْنَ﴾
لَا يَمَسُّهُمْ فِيْهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِيْنَ ﴿تَبٰٓءَ عِبَادِيْ اَنِّ اَنَا
الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ وَاَنَّ عَذَابِيْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ.

يقول تعالى: ﴿اِنَّ الْمُتَّقِيْنَ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان،
وما يدعوهم إليه، من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِيْ جَنَّتٍ
وَعِيُوْنَ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار، وأبنت فيها جميع

سورة الحجر

٢٦٥

سورة الحجر

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرُتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ بَشِيرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَبَشْرُتَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُتَجَوِّهُمُ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا نَحْنُ لَئِنْ أَلْفَدِيرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَهُمْ لَا مَفْطُوحٌ مُصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْفُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

وبركاته عليكم، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزل راجيًا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله:

﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق، لرحمة الله، شيئًا كثيرًا، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمرهم.

(٥٧-٧٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُتَجَوِّهُمُ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا نَحْنُ لَئِنْ أَلْفَدِيرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

(١) في ب: بالأسباب.

﴿يَتَوَّعُ عِبَادِي﴾ أي: أخبرهم خبرًا جازمًا، مؤيدًا بالأدلة ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا في الأسباب^(١) الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب، وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا، فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبههم ﴿أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيمُ﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله، الذي لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لَا يَدْرِي عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿حذروا، وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته، وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

(٥١-٥٦) ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ صَبِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرُتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ بَشِيرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَبَشْرُتَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ يقول تعالى لنبهه محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ صَبِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة، فإن في قصصك عليهم أنباء الرسل، وما جرى لهم، مما يوجب لهم العبرة، والافتداء بهم، خصوصًا إبراهيم الخليل الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيئه هم الملائكة الكرام، أكرمهم الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلموا عليه، فرد عليهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوفاً، ذهب مسرعًا إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم، عجلًا حينًا فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه، خاف منهم أن يكونوا لصوصًا أو نحوهم.

ف ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو: إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة، بأنه ذكر لا أنثى، عليم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى ﴿وَنَبِّئْتَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فقال لهم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أَبَشْرُتُمُونِي بِالْوَلَدِ عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فِيمِ بَشِيرُونَ﴾ أي: على أي وجه تبشرون وقد عدت الأسباب؟

﴿قَالُوا أَبَشْرُتَكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه، لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص - يا أهل هذا البيت - رحمة الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦٦

سُورَةُ الْحَجَرِ

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ لَعَنَّاكَ إِنَّمَا لِفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٨﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّمَا لِلَّسِبِيلِ مُقِيمٍ ﴿٨١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴿٨٤﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٥﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٦﴾
وَكَانُوا يُخَوِّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا ءَامِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ
السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّصْحَ الْجَبِيلَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ ءَايَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ
الْعَظِيمَ ﴿٩٢﴾ لَآتَمِدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ وَقُلْ إِنِّي
أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٩٤﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ ﴿٩٥﴾

عذاب يوم عظيم ﴿٨٠﴾ أَي: ديار قوم لوط، وأصحاب
الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أَي: لبطريق واضح، يمر بهم
المسافرون كل وقت، فَيُبَيِّنُ من آثارهم ما هو مشاهد
بالأبصار، فيعتبر بذلك أولو الأبواب.

(٨٠-٨٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وءَايَيْنَاهُمْ
ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٥﴾ وَكَانُوا يُخَوِّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا ءَامِينَ ﴿٨٦﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٧﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٨﴾ يخبر
تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر
المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي:
كذبوا صالحًا، ومن كذب رسولًا فقد كذب سائر الرسل،
لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء
به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ
ءَايَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي
من جملتها تلك الناقة، التي هي من آيات الله العظيمة.

﴿وَكَانُوا﴾ - من
كثرة إنعام الله عليهم - ﴿يُخَوِّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا ءَامِينَ﴾ من
المخاوف مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة، وصدقوا
نبيهم صالحًا عليه السلام، لأَدَّرَ الله عليهم الأرزاق،
ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم - لما
كذبوا، وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا:
﴿يَنْصَلِحُ اقْتِنَا يَمَا تَوَدَّ أَنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم،
وأصبحوا في دارهم جاثمين هَلَكَى، مع ما يتبع ذلك من
الخزي واللعة المستمرة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن
أمر الله إذا جاء، لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا
غزارة أموال.

(٨٥، ٨٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّصْحَ الْجَبِيلَ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ ﴿٩١﴾ أَي: ما خلقناهما عبثًا وباطلاً، كما يظن ذلك أعداء
الله، بل ما خلقناهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي منه، أن يكونا بما
فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته
وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له
وحده لا شريك له، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها
﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿فَاصْصَبْ
الصَّصْحَ الْجَبِيلَ﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة
المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل
الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لي
معنى أحسن مما ذكرت هنا.

وهو: أن المأمور به هو الصفح الجميل، أي: الحسن
الذي قد سلم من الحقد، والأذية القولية والفعلية، دون
الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا
يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين
الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لكل مخلوق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء،
فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه
خلقه، وذلك سائر الموجودات.

(٨٧-٩٣) ﴿وَلَقَدْ ءَايَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ لَا
تَمِدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٩٣﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى
الْمُقَسِّمِينَ ﴿٩٤﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩٥﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ يقول تعالى مُتَمَتِّيًا على رسوله:
﴿وَلَقَدْ ءَايَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾ وهن - على الصحيح - السور
السبع الطوال: «البقرة» و «آل عمران» و «النساء» و «المائدة»
و «الأنعام» و «الأعراف» و «الأنفال» مع «التوبة». أو أنها
فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف ﴿الْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾

على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتثنيها فيها.

وعلى القول بأن «الفاتحة» هي السبع المثاني، معناه: أنها سبع آيات، تنثني في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ولذلك قال بعده:

﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَيْكَ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكرك، بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغتر بها الجاهلون، واشتغل بها آتاك الله، من المثاني والقرآن العظيم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يُرتقب.

فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل، وأفضل العوض ﴿وَأَخْفِضْ جَانِحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن لهم جانبك، وحسن لهم خلقك، محبة وإكرامًا وتوددًا.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْنَذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقریب والبعيد، والعدو والصاديق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُتَسَيِّئِينَ﴾ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: أصنافًا وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهونه، فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مُفْتَرَى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ من أقوال الكفرة المكذبين به الذين جعلوا قدهم فيه، ليصدوا الناس عن الهدى.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَذِّنَّهُمْ أَجَعِينَ﴾ أي: جميع من قدح فيه وعابه، وحرفه وبدله ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا أعظم ترهيب، وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه^(١).

(٩٤، ٩٥) ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم، ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله، ويعلن بذلك لكل أحد ولا يُعَوِّقُهُ عَنْ أَمْرِهِ عَاتِقٌ وَلَا تَصُدُّهُ أَقْوَالُ الْمُتَهَوِّكِينَ ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تبالي بهم، واترك مشائمتهم ومسابتهم، مقبلًا على شأنك ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

سُورَةُ الْحَجَرِ

٢٦٧

سُورَةُ الْحَجَرِ

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩٤﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَذِّنَّهُمْ أَجَعِينَ ﴿٩٥﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٨﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٠٠﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٠١﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٠٢﴾

سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَّىٰ أَمَرَ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنفَعُ خَلْقُهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

(٩٦) وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به، إلا أهلكه الله، وقتله شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضًا يؤذون الله ويجعلون معه ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ وهو ربهم وخالقهم، ومدبرهم ﴿سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غِبْ أفعالهم إذا وردوا القيامة.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء. فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم.

(٩٨) فأتى يا محمد ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: أكثر من ذكر الله، وتسبيحه، وتحميد، والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر، ويشرحه، ويعينك على أمورك.

(٩٩) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع

العبادات، فامتثلَ ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷻ، تسليمًا كثيرًا.
تم تفسير سورة الحجر.

تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١، ٢) ﴿أَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ الْبُرُوجِ﴾ ١ ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ظُلْمًا مِّنْ اللَّهِ﴾ ٢ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَعَتَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٣ ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ٤ يقول تعالى - مقربًا لما وعد به محققًا لوقوعه -: ﴿أَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ الْبُرُوجِ﴾ ٥ فإنه أت، وما هو أت فإنه قريب ﴿سُبْحَنَهُ وَعَتَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦ من نسبة الشريك، والولد والصاحبة والكفء، وغير ذلك مما نسبته إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه، مما يجب أتباعه في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ممن يعلمه صالحًا، لتحمل رسالته.

وزيدة دعوة المرسلين كلهم ومدارها، على قوله: ﴿أَنذَرْتُكُمْ أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحت وتجاهد من حاربها، وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

(٣-٩) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ١ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ٢ ﴿وَالْأَنفُسُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٣ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ﴾ ٤ ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسُكُم إِلَىٰ بَلَدِكُمْ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ٥ ﴿وَالْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لَازِمَةً وَبَيْنَهُمَا غِطَاءٌ وَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سِوَىٰ طَبَقٍ﴾ ٦ ﴿وَلَا يَحِيطُ بِشَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ ٧ هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق

السموات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكنًا لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: ﴿تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم، فإنه الإله حقًا، الذي لا تنبغي العبادة، والحب، والذل، إلا له تعالى، ولما ذكر خلق السموات [والأرض] (١)، ذكر خلق ما فيها.

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لم يزل يدبرها، ويرقيها، وينميتها، حتى صارت بشرًا تامًا، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم، فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ آدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿وَالْأَنفُسُ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب، والفرش، والبيوت.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ﴾ أي: في وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بشبابكم، وأولادكم، وأموالكم، وتعجبون بذلك ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسُكُم﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم ﴿إِلَىٰ بَلَدِكُمْ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ ولكن الله ذلها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة، والأقطار الشاسعة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿وَالْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لَازِمَةً﴾ سخرناها لكم ﴿لِرَبِّكُمْ دِفْءٌ وَبَيْنَهُمَا غِطَاءٌ﴾

سورة النحل

٢٦٨

المعجم

وَتَحْمِلُ أُنْفُسُ كُفْمٍ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِشِقِّ
 الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْإِغَالُ
 وَالْحَمِيرُ لِرَكْبُوهَا وَزِينَةٍ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
 وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ
 شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ
 بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
 الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
 وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
 مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
 ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
 سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لَكُمْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيَهُ
 وَلِتَسْتَغْوُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل
 الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرمة
 أكلها، والخيول لا تستعمل - في الغالب - للأكل، بل ينهى
 عن ذبحها لأجل الأكل خوفًا من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في
 الصحيحين أن النبي ﷺ، أذن في لحوم الخيل.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من
 الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو،
 ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها
 بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد،
 أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير فإنه لو ذكر لم يعرفوه،
 ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلًا جامعيًا يدخل فيه ما
 يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما
 نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما
 لا نعرف له نظيرًا في قوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ذَوِيَّانٍ﴾.

فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيول،
 والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجمل الباقي في
 قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي،
 وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر
 الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وَكَلَّ اللَّهُ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم الذي هو
 أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف
 الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار
 الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل
 الغاؤون عنه، وسلوكوا الطرق الجائرة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه هدى بعضًا كرمًا وفضلًا، ولم يهد آخرين
 حكمة منه وعدلاً.

(١٠، ١١) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ
 وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ
 وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾
 بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب
 الرقيق اللطيف، ورحمته، حيث جعل فيه ماء غزيرًا منه
 يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج
 لهم الثمرات الكثيرة، والنعم الغزيرة.

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
 مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: سخر
 لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا
 تستغنون عنها أبدًا، فبالليل تسكنون وتنامون، وتستريحون،

وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم،
 وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح
 الأشجار والثمار، والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة
 البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضرورات
 والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.

وفيها وفي النجوم من الزينة للسماء، والهداية في ظلمات
 البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع
 دلالاتها، وتنصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها
 في التدبر والتفكر، فيما هي مهياة له مستعدة، تعقل ما تراه،
 وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم
 التي لا عقل لها.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد،
 من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات،
 وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه آية على كمال
 قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي

مُسْتَكْبِرُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُخَبِّرُونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١٤﴾ لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العظيمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفاء له ولا ند له، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً، لا قليلاً، ولا كثيراً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق، أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل أخلصوا له الدين ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ عدداً مجرداً عن الشكر ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ فضلاً عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد، بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة، وجوده عميم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!!

ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم، ولا غيره ﴿أَمْ أَوْلَتْ غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، أفشخ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتباً لعقول المشركين، ما أضلها، وأفسدها! حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسوا بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُمْ كَالْإِهْوَ الَّذِي وَجِدَ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فأهل الإيمان والعقول، أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته، وأفعاله المقدسة ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ لهذا

العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿لَقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يستحضرون في ذاكرتهم، ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

(١٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَسْتَوُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهياً لمنافعكم المتنوعة، ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ وهو السمك، والحوث الذي يصطادونه منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ أي: تتمر البحر العجاج الهائل، بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم، وأمتعتهم، وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياًها، وتثنون على الله الذي من بها، فله تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى مما يتمنون، وآتاهم من كل ما سألوه، لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

(١٥، ١٦) ﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُبِيدَ بِكُمْ وَاتُّخِذَ وَبِيلاً لِّلْعَالَمِينَ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَّمَكَ وَإِلَاحَهُمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: ﴿وَالَّذِي﴾ الله تعالى لأجل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رَوًى﴾ وهي الجبال العظام؛ لئلا تמיד بهم وتضطرب بالخلق، فيمتكون من حرث الأرض والبناء، والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحرثهم، أنهاراً على وجه الأرض، وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلاً أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناحية، ﴿لِّلْعَالَمِينَ تَهْتَدُونَ﴾ السبل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال، سلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

(١٧-٢٣) ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْ أَوْلَتْ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ إِنَّهُمْ كَالْإِهْوَ الَّذِي وَجِدَ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ

الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أَي: حَقًّا لَا بَدَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ السُّكْرَانَ﴾ بَلْ يَغْضَهُمْ أَشَدَّ الْغَضَى، وَسِيَّجَازِهِمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(٢٤-٢٩) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ أَوْزَارُ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ۝ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ بَيْنُنَا وَبَيْنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْنَا السَّقْفُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَ الْيَوْمِ وَالْأَوَّلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْلَا السَّلَامَةُ كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَأَدْخَلُوا أَبُوبَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُنْكَرِينَ﴾ يقول تعالى مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ﴾ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعرفون بها، أم تكفرون وتعادنون؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمج، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم، ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَيَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون، فكلُّ مستقِلٍّ بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ أي: بش ما حملوا من الوزر المثلث لظهورهم، من وزرهم، ووزر من أضلوه.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ برسلمهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاؤهم به، وبنوا من مكرمهم قصورًا هائلة ﴿فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذابًا، عذبوا به ﴿وَأَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سيفعهم، ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه.

وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ تُعِيدَ بِكُمْ ۖ وَاتُّخِذَ آوُسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْبِلَاقِلَ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوبُونَ ۖ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءَ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَاجِرُمْ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوبُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذِلْ رُجُوكُمْ
قَالُوا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا
سَاءَ مَا يَزُرُّونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَاتَّخَذَ اللَّهُ بَنِينَ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم، وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل، يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضًا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبآلًا عليهم، فصار تدميرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيء ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم، واقتراءهم على الله. ﴿وَيَقُولُ آتِنِ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالتهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﴿صَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، ﴿قَالَ الَّذِينَ أَرَأَوْا الْعِلْمَ﴾ أي: العلماء الربانيون ﴿إِنَّ الْآخِرَ لَكَيْتٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالسَّوَّةُ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وفي هذا فضيلة أهل العلم ، وأنهم الناطقون بالحق في هذه

سُورَةُ النَّحْلِ

٢٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ
 كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَى
 الْيَوْمَ وَالسَّوَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْ أَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ مَاعِلًا تَعْمَلُونَ مِنْ سُوءٍ بَلَى
 إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
 خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ
 لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
 هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
 ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
 مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ
 الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
 اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
 سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب، وسرور الأرواح،
 إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه
 عليه حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم، لم تخطر على قلوبهم.
 فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس
 كمثل شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله، وآثار تلك
 النعوت، وعظمة الملك والملكوت، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ
 الْمُتَّقِينَ﴾ لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم، من
 الفروض، والواجبات المتعلقة بالقلب، والبدن، واللسان،
 من حقه، وحق عبادته، وترك ما نهاهم الله عنه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾
 أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم،
 ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته،
 وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال
 عليه.

﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: التحية الكاملة، حاصلة
 لكم، والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون
 ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، والانقياد

الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند
 خلقه.

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة، وفي القيامة فقال: ﴿الَّذِينَ
 تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال
 التي كثر فيها ظلمهم وغيبهم، وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك
 المقام، من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿قَالُوا لَوْ أَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ مَاعِلًا تَعْمَلُونَ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ﴾ أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يعبدونهم
 من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فيقال لهم:
 ﴿بَلَى﴾ كنتم تعملون السوء، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئاً، وهذا في بعض مواقف
 القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظناً أنه ينفعهم، فإذا
 شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا
 واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار، حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب
 اللائق بحالهم ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم، فإنها مَثْوًى
 الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم
 والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتقر عنهم من
 عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم
 الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

(٣٠-٣٢) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ
 أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
 جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ
 كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر الله قيل
 المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا
 وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به
 على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد،
 وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في
 عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن
 وسرور.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع
 اللذات والمشتبهات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات
 منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ
 الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا
 يَشَاءُونَ﴾ أي: مهما تمتته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم،
 حصل لهم على أكمل الوجوه وأنماها، فلا يمكن أن يطلبوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧١

سُورَةُ النِّحْلِ

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَنَّمُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

عليهم بالقدر، فليس للرسول من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

(٣٧، ٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾
 ○ إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين
 يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتبع سبيل الغي.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون

لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومته عليهم، لا يحولهم وقوتهم.

(٣٤، ٣٣) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
 ○ فأصابهم سيات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكروا فلم يتذكروا ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا، حتى نزل بهم العذاب.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله، ليكون مآلها إلى كرامة الله، فظلموها، وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة، والشقاء الملازم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا﴾ أي: عقوبات أعمالهم وأثارها ﴿وَوَاقٍ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب، استهزؤوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

(٣٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة، والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم، حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب، فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من^(١) القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشئنة تصدر عنها أفعالهم، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا، وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريد، من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية، والحسية ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغت الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا

مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك.

﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ وتبذل جهدك في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

(٣٨-٤٠) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿إِسْرِينَ لَهُمُ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿يَخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ﴾ أَنَّهُمْ ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَي: حلفوا أيماناً مؤكدة مغلفة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحياهم بعد أن كانوا تراباً، قال تعالى مكذباً لهم: ﴿بَلَى﴾ سيعيثنهم، ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء.

ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث فقال: ﴿إِسْرِينَ لَهُمُ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء، لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون خطباً لجحهم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدونها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد، فإنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أَرَادَهُ وشاءه.

(٤١، ٤٢) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْرِئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿يَخْبِرُ تَعَالَى بِفَضْلِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَمْتَحِنِينَ﴾ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ أَي: في سبيله، وابتغاء مرضاته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بِالْأَذْيَةِ وَالْمَحَنَةِ مِنْ قَوْمِهِم، الَّذِينَ يَفْتَنُونَهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ، فَتَرَكُوا الْأَوْطَانَ وَالْخِلَانَ، وَانْتَقَلُوا عَنْهَا لِأَجْلِ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ، فَذَكَرَ لَهُمْ ثَوَابَ عَاجِلًا فِي الدُّنْيَا مِنَ الرِّزْقِ الْوَاسِعِ، وَالْعِيشِ الْهَنِئِ الَّذِي رَآوهُ عَيَانًا، بَعْدَمَا هَاجَرُوا، وَانْتَصَرُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَافْتَتَحُوا الْبُلْدَانَ، وَغَنَمُوا مِنْهَا الْغَنَائِمَ الْعَظِيمَةَ، فَتَمَلَّوْا، وَأَتَاهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً. ﴿وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ﴾ الَّذِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ

﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَوَصْوَنِ وَجَنَّتِ لَمْ فِيهَا نَيْمٌ مُقِيمٌ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذى فيه، والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابته، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

(٤٣، ٤٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِالْأَيْمَانِ وَالزَّبْرِ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِئَسْخِرَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكَرُونَ ﴿يَقُولُ تَعَالَى لَنُبَيِّنَ لَكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ﴾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ أَي: لست ببعيد من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كامليين لا نساء ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام، ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم ﴿فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أَي: الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نَبَأُ الْأَوَّلِينَ، وشككتكم: هل بعث الله رجلاً؟.

فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجلاً يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم، وتركية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأنه بذلك يخرج الجاهل من التبعية، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتركية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أَي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد، من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة ﴿لِئَسْخِرَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين

معانيه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه، بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

(٤٧-٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۚ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۚ أَوْ يَأْخُذَهُ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب، وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرة، وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تَقْلِبِهِمْ وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تَخَوُّفِهِمْ من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيههم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم^(١) أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعددهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فَلْيَسْتَحِ الْمَجْرَمُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ تَكُونَ نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نَازِلَةٌ فِي جَمِيعِ اللَّحَظَاتِ^(٢)، ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَمْهَلُ وَلَا يَهْمِلُ، وأنه إذا أخذ العاصي، أخذه أخذ عزيز مقتدر، فَلْيَتُوبَ إِلَيْهِ، وَلْيَرْجِعْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ إِلَيْهِ، فإنه رؤوف رحيم.

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة، وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه، والعمل بما يحبه ويرضاه.

(٥٠-٤٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُوا ظُلُمَاتُ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۚ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۚ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ وَيَقَعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلمتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ وعن ﴿الشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ أي: كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته وجلاله ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله، وتدبيره عنده.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادته، على كثرتهم، وعظمه أخلاقهم

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا مِنْهُ ۚ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ يَالَيْتَنِي وَالزُّبُرُ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٨﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُوا ظُلُمَاتُ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٣﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ وَيَقَعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا الْهِنِ اثْنَيْنِ إِتْمَاهُ لِلَّهِ وَحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَعَرَّ اللَّهُ نَفَقُونَ ﴿٥٦﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْثَرُونَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ إِذَا كُفِّ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾

وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة، والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره.

﴿وَيَقَعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره طوعاً واختياراً، وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجدوا اضطراراً، ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وير وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين، من الملائكة وغيرهم من [المخلوقات].

(٥٥-٥١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا الْهِنِ اثْنَيْنِ إِتْمَاهُ لِلَّهِ وَحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ۚ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَعَرَّ اللَّهُ نَفَقُونَ ۚ وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْثَرُونَ ۚ ثُمَّ إِذَا كُفِّ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۚ

لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا بِسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراذه بالنعم والوحدانية فقال: ﴿لَا تَجِدُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد في ذاته، وأسمائه، ونعوته، وأفعاله، فَلتَوَحِّدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فَإِنِّي فَارَهِقُونَ﴾ أي: خافوني، وامتلوا أمري، واجتنبوا نهبي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ إِلَهُ وَاحِدًا﴾ أي: الدين، والعبادة، والذل في جميع الأوقات، لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله، وينصبغوا بعبوديته.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات، فإنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، والله المتفرد بالعباءة والإحسان، ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ﴾ ﴿فَرَى اللَّهُ﴾ لا أحد يشركه فيها ﴿ثُمَّ إِذَا مَنَّكُمْ الضُّرُّ﴾ من فقر، ومرض، وشدة ﴿فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ أي: تضجون بالدعاء والتضرع، لعلكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة، فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ أي: أعطيناها، حيث نجيناها من الشدة، وخلصناهم من المشقة ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ في دنياكم قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفركم.

(٥٦-٦٠) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ثَالِثُ لِّشَيْءٍ عَمَّا كَسَبُوا فَقَرِئُونَ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سَحِجَّةً وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي الزُّبَابِ ۝ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وظلمهم، وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾

لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا بِسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ثَالِثُ لِّشَيْءٍ عَمَّا كَسَبُوا فَقَرِئُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سَحِجَّةً وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي الزُّبَابِ ۝ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّنْ دَآئِبَةٍ وَلَكِن يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَاجِرَمٌ ۖ إِنَّهُمْ لِنَارٌ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ثَالِثُ لِّشَيْءٍ عَمَّا كَسَبُوا قَبْلَكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ وِلِيُّهُمْ يُؤْمِنُونَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

الآية ﴿لِّشَيْءٍ عَمَّا كَسَبُوا فَقَرِئُونَ﴾ ويقال: ﴿ءَالله أَوْتِ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّونَ ۝ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفَرُّونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: كاظم على الحزن والأسف، إذ بُشِّرَ بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد، فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمْ يَدُسُّ فِي الزُّبَابِ﴾ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له أزدًا القسمين، وهو الإناث، اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها، ويكرهونها، فكيف

ينسبونها لله تعالى؟ فبئس الحكم حكمهم.

ولما كان هذا من أمثال سوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فالحق أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال، والمحبة والإنابة والمعرفة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه، ويثنى على كماله فيه.

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِيدُونَ﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ من غير زيادة ولا نقص ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات، فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل.

﴿لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِيدُونَ﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

(٦٢، ٦٣) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَصِفُوا لَهُمْ الشَّيْءَ الْكَذِبَ أَلَمْ يَكُفْ لَكُمْ مِنَ النَّارِ وَأَنْتُمْ مُقِرُّونَ ۖ تَأْتِيهِمْ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَنْعَلَهُمْ فَهُمْ وَلَيْتَهُمْ أَلْيَوْمَ وَقَدْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى أن المشركين ﴿يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد الله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده!!

﴿وَهُمْ﴾ مع هذه الإساءة العظيمة - ﴿يَصِفُوا لَهُمْ الشَّيْءَ الْكَذِبَ أَلَمْ يَكُفْ لَكُمْ مِنَ النَّارِ وَأَنْتُمْ مُقِرُّونَ ۖ تَأْتِيهِمْ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ كُفْرَكُمْ أَهْلَكُمْ فَهُمْ مُقِرُّونَ﴾ مقدمون إليها، ما كانوا فيها، غير خارجين منها أبداً.

يَبَيِّنُ تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّبَ فقال [تعالى]: ﴿تَأْتِيهِمْ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً يدعونهم إلى التوحيد ﴿فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْعَلَهُمْ﴾ فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن

ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿وَقَدْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

(٦٥) ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَرَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر، وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذورحة واسعة، وجود عظيم.

(٦٦، ٦٧) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْفَةِ لَعِزَّةً تُشْفِكُنَّ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ يَبَنِ فَرِيٍّ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۖ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخَذِّلُونَهُمْ مِنْهُ سَكَرًا وَرَقًّا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْفَةِ﴾ التي سخرها الله لمنافعكم ﴿لَعِزَّةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله، وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرت والدم، فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر سائغًا للشاربين، للذته، ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية، لا أمور طبيعية.

فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طريًا ونضيجًا، وحاضرًا ومدخرًا، وطعامًا وشرابًا يتخذ من عصيرها ونبذها، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ جل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبيدة، وأنواع الأشرية اللذيذة المباحة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيدة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمته، حيث عم^(١) بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

(١) كذا في ب، وفي أ: عم.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٧٤

سُورَةُ النُّحْلِ

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

(٦٨، ٦٩) ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتعام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

(٧٠) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ إِلَى اللَّهِ أَزْوَاجًا وَلَكُمْ فِيهَا مَعَالِمٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد، ونقلهم في الخلقة طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يُرِيدُ إِلَى اللَّهِ أَزْوَاجًا أَي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه، حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَالِمٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الأدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

(٧١) ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كَفَرُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَعَدَّوْنَ﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون، إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعل منكم أحراراً، لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبید ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟! هل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله؟! ولهذا قال: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَعَدَّوْنَ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوا إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحداً.

(٧٢) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يخبر تعالى عن منتهى العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، ويتنفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكّل، والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا تترك، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله!!

﴿وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجعلونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه؟

(٧٣-٧٦) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ رَبِّقًا يَنْ سَمَوَاتٍ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَقْهَرِ يَوْمَ اللَّهِ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا

سورة النحل

٢٧٥

سورة النحل

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَارِ قَاحِسًا
فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَتْبَعَكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٢﴾
الَّذِينَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾

الله، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها
لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ونذاً، لمن لا يقول إلا
الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ
الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو
تعالى المنفرد بغيب السموات والأرض، فلا يعلم الخفايا
والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري
أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت، لم تكن ﴿إِلَّا
كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم
إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفتت الفرص لمن يريد الإهمال
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة،
إحياؤه للموتى.

(٧٨) ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هو
المنفرد بهذه النعم حيث ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا
تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ولا تقدرون على شيء، ثم إنه ﴿جَعَلَ لَكُمْ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها

اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى
شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَارِ قَاحِسًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَتْبَعَكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يخبر تعالى عن جهل المشركين
وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله،
والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السموات والأرض، فلا
ينزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا
يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا يستطيعون لو
أرادوا، فإن غير المالك للشيء، ربما كان له قوة واقتدار على
ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك
الأرض والسموات، الذي له الملك كله، والحمد كله،
والقوة كلها؟!

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ المتضمنة للتسوية بينه
وبين خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه
بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فلماذا ضرب
تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك،
أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً،
والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف
المال، وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً،
هل يستوي هذا وذاك؟ لا يستويان، مع أنهما مخلوقان، غير
محال استواؤهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي
ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع
الوجوه، بالربِّ الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على
كل شيء؟؟!

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكانه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى
المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلو
علموا حقيقة العلم، لم يتجروا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني مثل ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَتْبَعَكُمْ﴾ لا يسمع
ولا ينطق و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير و﴿هُوَ كَلٌّ
عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم
نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر
بالعدل، وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله
مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عُبد من دون

سورة النحل

٢٧٦

سورة النحل

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ طَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَمُكِّرُونَهَا وَكَثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا لَهُمْ يُسْتَعْنَوْنَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَاهُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَشْرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَـةَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ﴿ظِلَالًا﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال، والأكام ونحوها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: مغارات، تكنكم من الحر والبرد والأمطار، والأعداء. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ أي: البسة وثيابًا ﴿تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ ولم يذكر الله البرد، لأنه قد تقدم أن هذه السورة، أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها وامتداداتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾.

﴿تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ﴾ أي: وثيابًا تقيكم وقت البأس والحرب، من السلاح، وذلك كالدرع، والزرذ، ونحوها، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لَكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تُسَلِّطُونَ﴾ لعظمته، وتقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليتها ومسديها، فكثر النعم من

(١) كذا في الأصل، والاستغناء عن هذا الضمير هو السائغ في اللغة.

(٢) في الأصل (البيوت والغرف والبيوت).

وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فساثر الأعضاء، والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم، شيئًا فشيئًا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة الثالثة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك، كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الظُّلُمِ مُسْحَرَاتٍ فِي جَوْ السَّكَنِ مَا يُمَكِّنُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لأنهم المتنفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم، فإن نظرهم نظر لهُوَ وغفلة. ووجه الآية فيها، أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته، وعلمه الواسع، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

(٨٠-٨٣) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ طَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَمُكِّرُونَهَا وَكَثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ يُذَكِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ نِعْمَهُ، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكِنُّكُمْ من الحر والبرد، وتستركم أنتم (١) وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت (٢) التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر ﴿يُؤْتُوا تَسْتَخِفُونَهَا﴾ أي: خفيفة الحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿و﴾ جعل لكم ﴿مِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَةً﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك. ﴿وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتتفنون بها، فهذا مما سخر الله للعباد لصنعتهم وعمله.

عليكم.

فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَنَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ فدخلوا النار، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم، ومن حمد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

(٨٨) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَادَتْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَزَقْنَاكَ عَلَى الْكِتَابِ تَبِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ذكر ذلك أيضًا هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر. وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمة، لأنه أعظم إطلاعا من غيره على أعمال أمة، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ يومئذ يؤدِّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو شئوا بهم **الْأَرْضُ**.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاكَ عَلَى الْكِتَابِ تَبِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بالفاظ واضحة، ومعان جلية.

حتى إنه تعالى ينشئ في الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمروها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبيدها بالفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر، بحسب ثبوتها في القلب. وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى. فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم

الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبى الظالمون إلا تمرداً وعناداً.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿إِنَّ تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن طاعته، بعد ما ذُكِّرُوا بنعمه وآياته ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء، بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير، والإنذار والتحذير، فإذا أدبت ما عليك، فحسابهم على الله، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصدهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسله.

(٨٤-٨٧) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وإذا رآ الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون. وإذا رآ الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دُونِكَ فَأَلْفَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ. وألفوا إلى الله يومئذ أسلماً وصلَّ عنهم مَنَا كَانُوا يَقْتَرُونَ. يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليها بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله، أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

فـ **لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا** في الاعتذار، لأن اعتذارهم بعدما علم يقيناً بظلال ما هم عليه، اعتذار كاذب، لا يفيدهم شيئاً، وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا، ليستردكوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل ييادهم العذاب الشديد، الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونها، لأنهم لا حساب عليهم، لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقررون بها، ويفتضحون.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يوم القيامة وعلموا بظلالها، ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فتوهوا بأنفسهم بظلالها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها ﴿فَأَلْفَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث جعلتمونا شركاء الله، وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقاً للألوهية، فاللوم

سورة النحل

٢٧٧

سورة النحل

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
 الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ
 أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى
 هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
 وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
 وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾
 وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
 بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
 اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ
 غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا
 بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلْوَكُمْ
 اللَّهُ فِيهِ وَلِييُنْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٩٢﴾
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

الجزئيات. فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء
 ذي القربى، فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على
 فحشاء أو منكر أو بغي، فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم
 حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى عنه. وبها يعتبر ما عند
 الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من
 جعل من كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين
 جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه،
 بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرركم
 ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به، ففهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا
 تذكروتموه وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا
 شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بوفاء ما
 أوجبه العبد على نفسه فقال:

(٩٢، ٩١) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
 بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
 تَفْعَلُونَ﴾ ○ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا

ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة.
 فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح والرحمة، ما
 ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب
 وبره، وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بترتيبه على
 معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة
 والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء
 بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا
 يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

(٩٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى
 وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
 فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق
 عباده. فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة، بأن يؤدي
 العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة
 منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام،
 فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية
 الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب
 القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان
 رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات، أن
 تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء
 جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا
 تخدعهم وتظلمهم.

فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كتفع
 الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى
 إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم -
 لتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.
 ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريهم وبعيدهم، لكن كل
 ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم
 استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق،
 والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير
 ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.
 وبالبغي، كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال
 والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات،
 لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر

تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله، من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته. يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً ﴿وَلَسْتَ تُلْقَىٰ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم عليها، أتم الجزاء وأعدله. (٩٤) ﴿وَلَا تَنجِدُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثبُوتِهَا وَتَذَوَّقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ﴿وَلَا تَنجِدُوا أَيْمَنَكُمْ﴾ وعهودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها. فإنكم إذا فعلتم ذلك، نزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم ﴿وَتَذَوَّقُوا الشَّوْءَ﴾ أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حيث ضللتكم وأضللتكم غيركم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مضاعف.

(٩٥-٩٧) ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ○ مَا عِنْدَكُمْ يَفْذُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَدَقُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان، لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تناولونه بالنقض وعدم الوفاء. ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والأجل، لمن أثار رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن ﴿يَفْذُ﴾ ويفنى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ببقائه، لا يفنى ولا يزول. فليس يعاقل من أثار الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ○ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآزِرِينَ﴾ وفي هذا، الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على حق الله، فإن هذا الزهد واجب.

ومن الدواعي للزهد، أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت، ما يدعوه إلى إثارة أعلى الأمور. [وليس الزهد الممدوح، هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر ونحوها. بل لا يكون العبد زاهداً زهداً صحيحاً، حتى يقوم بما يقدر عليه، من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل. فالزهد الحقيقي هو

لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها برّاً. ويشمل أيضاً ما تعاقد عليه هو وغيره، كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكد على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: ﴿وَلَا تَنفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدان ﴿كَفِيًا﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله، واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً. فكما اتمنتك وأحسن ظنه فيك، فلتب له بما قلت وأكدته.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ يجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَأَنِّي﴾ تغزل غزلاً قوياً، فإذا استحکم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنكَتًا﴾ فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكَذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

وقوله: ﴿لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر، أتمها، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لمعجزه. وإن كان قوياً، يرى مصلحته الدنيوية في نقضها، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه.

كل ذلك دوراناً مع أهوية النفوس، وتقديماً لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية، لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوةً من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قبض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

﴿وَلَيَبْيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كلاً بما عمل، ويخزي الغادر.

(٩٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَسْتَ لَكَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لجمع الناس على الهدى، وجعلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولكنه

الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع^(١).

﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على طاعة الله، وعن معصيته، وفضطوا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الحسنه عشر أمثالها، إلى سبعمائه ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها، فإنه التصديق الجازم، المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات. فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً، من حيث لا يحتسب.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

(٩٨-١٠٠) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ ۝ اِنَّهٗ لَيْسَ لَہٗ سُلْطٰنٌ عَلٰی الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَلٰی رَبِّہِمۡ يَتَوَكَّلُوْنَ ۝ اِنَّمَا سُلْطٰنُہٗمۡ عَلٰی الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْہٖمۡ وَالَّذِيْنَ ہُمۡ بِہٖ مُّشْرِكُوْنَ ۝ اٰی: فإذا أردت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد، عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله، في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوس وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التَّحَلِّي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَہٗ سُلْطٰنٌ﴾ أي: تسلط ﴿عَلٰی الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَلٰی رَبِّہِمۡ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُوْنَ﴾، فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه، شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

﴿وَاِنَّمَا سُلْطٰنُہٗمۡ﴾ أي تسلطه ﴿عَلٰی الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْہٖمۡ﴾ أي:

وَلَا تَنْخِذُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا دَخَلَ بَيْنَكُمْ فَتْرٌ قَلِيلٌ ثُمَّ بَعَثْنَا إِلَيْكُمْ عَذَابًا وَتَذَقُّوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ ﴿١٠٢﴾ إِنَّهٗ لَيْسَ لَہٗ سُلْطٰنٌ عَلٰی الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَلٰی رَبِّہِمۡ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴿١٠٣﴾ اِنَّمَا سُلْطٰنُہٗمۡ عَلٰی الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْہٖمۡ وَالَّذِيْنَ ہُمۡ بِہٖ مُّشْرِكُوْنَ ﴿١٠٤﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا يُفْرِكُ قَالُوا اِنَّمَا اَنْتَ مُفَرِّكٌ بَلْ اَكْثَرُہُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴿١٠٥﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَهُدًى وَبُشْرٰى لِلْمُسْلِمِيْنَ ﴿١٠٦﴾

يجعلونه لهم ولياً. وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه. فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فازَّهم إلى المعاصي أژاً، وقادهم إلى النار قَوْدًا.

(١٠١، ١٠٢) ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا يُفْرِكُ قَالُوا اِنَّمَا اَنْتَ مُفَرِّكٌ بَلْ اَكْثَرُہُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَهُدًى وَبُشْرٰى لِلْمُسْلِمِيْنَ﴾ يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتتبعون ما يروونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآوه كذلك، قدحوا في الرسول وبما جاء به، ﴿قَالُوا اِنَّمَا اَنْتَ مُفَرِّكٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿بَلْ اَكْثَرُہُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشره. ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب

المدح أو القدرح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول، المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿يُلْقِ﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً فإنهم يعلمون أنه الحق. وإذا شرع حكماً [من الأحكام]، ثم نسخه، علموا أنه أبده بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه، هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويشيرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكين فيه أبداً. وأيضاً، فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم، مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة [أكثر]،^(١) فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

(١٠٣-١٠٥) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن قبل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بَشَرٌ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِّسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب، ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض

سورة النحل

٢٧٩

سورة النحل

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۚ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مِّن شَرٍّ بِكَفَرٍ صَدْرًا فَعَلَيْتَهُمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۚ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمُ أَبْصَارُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ۚ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۚ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ

والفساد، ما يوجب رده بمجرد تصوره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كالمعاندين لرسوله، من بعد ما جاءتهم البينات ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويقول عليه ما لم يقل. فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم فأظهر الله خزيبهم، وبين فضائهم، فله تعالى الحمد.

(١٠٦-١٠٩) ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مِّن شَرٍّ بِكَفَرٍ صَدْرًا

سورة النحل

٢٨٠

سورة النحل

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حُلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِنِعْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لَشَاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَاقَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب، صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم، واستقامت أمور دينهم ودنياهم. فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ كل يقول: نفسي نفسي، لا يهमे سوى نفسه. ففي ذلك اليوم يفتر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١١٣، ١١٢) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون. وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنصرة

فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَغَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ۝ لَا جَرَءَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿يُخَيِّرُ تَعَالَى عَنْ شِنَاعَةِ حَالٍ﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ ﴿فَعَمِي بَعْدَ مَا أَبْصَرَ، وَرَجَعَ إِلَى الضَّلَالِ بَعْدَ مَا اهْتَدَى، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْكَفْرِ، رَاضِيًا بِهِ مُطْمَئِنًّا، أَنْ لَهُمُ الْغَضَبُ الشَّدِيدُ مِنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ، الَّذِي إِذَا غَضِبَ لَمْ يَقُمْ لَغَضَبِهِ شَيْءٌ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿أَي: فِي غَايَةِ الشَّدَةِ، مَعَ أَنَّهُ دَائِمٌ أَبَدًا.﴾

وَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿حَيْثُ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ، طَمَعًا فِي شَيْءٍ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا، وَرَغْبَةً فِيهِ، وَزَهْدًا فِي خَيْرِ الْآخِرَةِ. فَلَمَّا اخْتَارُوا الْكَفَرَ عَلَى الْإِيْمَانِ، مَنَعَهُمُ اللَّهُ الْهَدَايَةَ، فَلَمْ يَهْدِهِمْ، لِأَنَّ الْكَفَرَ وَصَفَهُمْ، فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يَدْخُلُهَا خَيْرٌ، وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ، فَلَا يَنْفِذُ مِنْهَا مَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَصِلُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ. فَشَمَلَتْهُمُ الْغَفْلَةُ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْخِذْلَانُ، وَحَرَمُوا رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ. وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَتْهُمْ فُرُودُهَا، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَقْبَلُوهَا.﴾

﴿لَا جَرَءَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفَاتَهُمُ النِّعَمُ الْمُقِيمُ، وَحَصَلُوا عَلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر، عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكروه على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

(١١٠، ١١١) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَرَّثُوا ثَمَرَ جَهَنَّمِ وَأَصْبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَي: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي رَبَّى عِبَادَهُ الْمُخْلِصِينَ بِلُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِهِ، وَخَلَّى دِيَارَهُ وَأَمْوَالَهُ، طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ، وَفَنَّى عَلَى دِينِهِ لِيَرْجِعَ إِلَى الْكَفْرِ، فَنَبَتَ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَتَخَلَّصَ مَا مَعَهُ مِنَ الْيَقِينِ. ثُمَّ جَاهَدَ أَعْدَاءَ اللَّهِ، لِيَدْخُلَهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ، بِلِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَصَبَرَ عَلَى هَذِهِ الْعِبَادَاتِ الشَّاقَّةِ، عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ.

حَرَامٌ ﴿١﴾ أَي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافتراء على الله وتقولاً عليه.

﴿لَتَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقُولُونَ﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم، وإن تمتعوا في الدنيا فإنه ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فالله تعالى ما حَرَّمَ علينا إلا الخبيثات، تفضلاً منه وصيانة عن كل مستفذر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي طُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَوْهَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ طَهُورُهُمَا أَوْ الْخَوَاصِ أَوْ مَا اتَّخَذَ عِظَمُ ذَلِكَ حَرَمًا عَلَيْهِمْ﴾ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١١٩﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا حصٌّ منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمداً للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم، وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه^(١) وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته، ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آتِنَاهُ الْإِسْلَامَ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٠﴾ وَتَبَيَّنَتْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةُ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ نَنْبِئَ مَلَأَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٢﴾ يخبر تعالى عما فضل به خليله عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أَي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أَي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً له الدين ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أَي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها. فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿أَجْنَبَهُ رَبُّهُ﴾ واختصه بخلته، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين ﴿وَهَدَنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

العربية، فحصل لها من الأمن التام، ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم، يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(١١٨-١١٤) ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لَعْنٍ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبَ لِنَبْسِكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقُولُونَ ﴿١١٩﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقُولُونَ ﴿١٢١﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٢﴾ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٣﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات، والحبوب، والثمار، وغيرها ﴿حَلَلًا طَيِّبًا﴾ أَي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثراً عن غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أَي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا النعم.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ الأشياء المضرة تزيتها لكم وذلك: كـ ﴿الْمَيْتَةِ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك.

﴿وَالْدَّمَ﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر ﴿وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ﴾ لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمة وشحمه وجميع أجزائه ﴿وَمَا أَهْلُ لَعْنٍ اللَّهُ بِهِ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أَي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبَ لِنَبْسِكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا

في علمه وعمله، فعلم بالحق وآثره على غيره.

﴿وَيَاتِيَنَّهُ فِي الذَّنْبِ حَسَنَةٌ﴾ رزقاً واسعاً، وزوجة حسنة، وذرية صالحين، وأخلاقاً مرضية ﴿وَأَنْتُمْ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله، أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمه.

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي: فرضاً ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب ممن استحق العقاب^(١).

(١٢٥) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ﴾ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه، وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة، الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدء بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين. فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها. وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصيين من العقاب العاجل والآجل. فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك، الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقددها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة

سورة النحل

٢٨١

سورة النحل

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَفِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٧﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٨﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الذَّنْبِ حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٩﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَفِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣١﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٥﴾

ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسبجازه عليها.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية، فهداهم، ثم مَنَّ عليهم فاجتباهم.

(١٢٦-١٢٨) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ○ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ○ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ يقول تعالى - مبيحاً للعدل، ونادياً للفضل والإحسان -: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ من غير زيادة منكم، على ما أجراه معكم.

﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة، وعفوتهم عن جرمهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم، وأحسن

وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين.

ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمسين بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المفاز تلك الليلة، هو وأمته، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه. وقوله: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً، لكثير من أنبيائه وأصفيائه.

(٢-٨) ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْكَتَابِ لِنُقَدِّسَهُ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَمَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَاتَ وَعْدًا مَّقْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَوْكَرَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَقُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عُلُوًّا نَّبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝ كَثِيرًا مَّا يَقْرُنُ الْبَارِي بَيْنَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنُبُوَّةِ مُوسَى ﷺ، وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا وَشَرِيعَتَيْهِمَا، لِأَن كِتَابَيْهِمَا أَفْضَلُ الْكِتَابِ، وَشَرِيعَتَيْهِمَا أَكْمَلُ الشَّرَائِعِ، وَنُبُوَّتَيْهِمَا أَعْلَى النَّبَوَاتِ، وَأَتْبَاعُهُمَا أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي: ولنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك، ليعبدوا الله وحده، وبنبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلًا ومديرًا لهم، في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا، ولا ينفعونهم بشيء.

﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: يا ذرية من مننا عليهم، وحملناهم مع نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فيه التنويه بالثناء

عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَابْتَغُوا عَنَّا إِلَهًا﴾، ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، فقال:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا ﴿وَلَا تَكُ فِي صَبَقٍ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكروهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين.

والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يروونه، فإن لم يكونوا يروونه فإنه يراهم. والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين. تم تفسير سورة النحل والحمد لله.

تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جعلتها أن ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا. وهذا من اعتنائه تعالى به، ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام. لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ. فعلى هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء،

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٢٨٢

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ لَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَاِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عَبْدًا لَنَا أُولَى بِأَبْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَاِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْطَوْا مِنْكُمْ وَلِيَذْخَلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إلى الإفساد
في الأرض ﴿عُدَّا﴾ إلى عقوبتكم. فعادوا لذلك، فسلط الله
عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء
الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال:
﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ يصلونها ويلازمونها، لا
يخرجون منها أبدًا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة، من
العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل. فسنة
الله واحدة، لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة عرف
أن ذلك من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب
الله وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض، ونصرهم على
أعدائهم.

(١٠، ٩) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك،
والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن
يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ^(١) أبقاهم واستخلفهم في
الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم،
وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في
الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في
الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله
عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم
يرجعون فيذكرون.

﴿فَاِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون
فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعثنا
قدريًا، وسلطنا عليكم تسليطًا كونيًا جزائيًا ﴿عَبَادًا لَنَا أُولَى بِأَبْسٍ
شَدِيدٍ﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم،
فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال
دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه
﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء السلاطين، إلا أنهم
اتفقوا على أنهم قوم كفار، إما من أهل العراق، أو الجزيرة،
أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل، لما كثرت فيهم
المعاصي، وتركوا كثيرًا من شريعتهم، وطغوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الذين
سلطوا عليكم، فأجلبتموهم من دياركم ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ﴾ أي: أكثرنا أرفاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم
﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم
وخضوعكم لله.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد إليكم،
حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿وَإِنْ
أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فلا أنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله، من
تسليط الأعداء.

﴿فَاِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة^(٢) التي تفسدون
فيها في الأرض، سلطنا أيضًا عليكم الأعداء.

﴿لِيُسْطَوْا مِنْكُمْ﴾ بانتصارهم عليكم وسيبكم، وليدخلوا
المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد،
مسجد بيت المقدس.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: يخربوا ويدمروا ﴿مَا عَلَوْا﴾ عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾
فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ فيدبل لكم الكرة عليهم. فرحمهم

(١) في النسختين: إذا. (٢) في ب: الأخرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٣

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

عَسَىٰ رِزْقُكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاوًا جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُمْنُونَ بِالْآخِرَةِ أَهْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَبَدَعَ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رِّزْقِهِمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْحِسَابِ ﴿١٢﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَهُ لَحْمُهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٤﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٥﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٨﴾

الخير والشر حاضرًا، صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

(١٥) ﴿مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة. وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله، حتى يبعث إليهم رسولًا، لأنه منزّه عن الظلم.

(١٦، ١٧) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ

(١) في ب: من لطفه.

بِالْآخِرَةِ أَهْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى، من العقائد، والأعمال، والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس، وأقومهم، وأهداهم في جميع أموره.

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والسنن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعدّه الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُمْنُونَ بِالْآخِرَةِ أَهْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

(١١) ﴿وَبَدَعَ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما يبادر بالدعاء في الخير، ولكن الله - بلفظه (١) - يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَصَحَّ لَهُ إِلَهُمُ﴾.

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رِّزْقِهِمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْحِسَابِ﴾ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: جعلناه مظلماً، للسكون فيه، والراحة ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رِّزْقِهِمْ﴾ في معاشكم، وصنائعكم، وتجاراتكم، وأسفاركم.

﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْحِسَابِ﴾ فتنبون عليها ما تشاؤون من مصالحكم. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه، لتمييز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا بِكَ مِنَ الشَّيْءِ﴾.

(١٣، ١٤) ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَهُ لَحْمُهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ فيه ما عمله من

عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفها أمرًا قدرًا، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. وهؤلاء أُمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم، ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فلا يخافوا منه ظلمًا، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

(١٨-٢١) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كَلَّا ثُمِدَّ هَتُولَاءُ وَهَتُولَاءُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ يخبر تعالى أن ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ المتفضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، أن الله يُعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله، ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي: مقبولًا مُثْمَنًا، مدخرًا، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم. ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلًا يمدد الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعًا من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلِهِ وإحسانِهِ.

﴿أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا، بسعة الأرزاق وقتلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا

ولذاتها، إلى الآخرة، بوجه من الوجوه. فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدًا عدّه.

(٢٢) ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: لا تعتقد أن أحدًا من المخلوقين يستحق شيئًا من العبادة، ولا تشرك بالله أحدًا منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان. فالله، وملائكته، ورسله، قد نهوا عن الشرك، وضموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفًا، وأقبحهم نوعًا.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه. فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحدًا إلا بإذن الله. وكما أن من جعل مع الله إلهًا آخر، له الذم والخذلان. فمن وحده، وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في

الجزء الخامس عشر ٥٢٩ — ١٧ - تفسير سورة بني إسرائيل، الآيات: ١٨-٢٢

جميع أحواله.

(٢٣، ٢٤) ﴿وَقَصَّىٰ رَبُّكَ عَلَّا نَعْبُدُوهُ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۚ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَصَّىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء دينًا، وأمر أمرًا شرعيًا ﴿أَنَّ لَا نَعْبُدُوهُ﴾ أحدًا من أهل الأرض والسموات والأحياء والأموات.

﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولي والفعل، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان، ما هو معروف ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه. والمعنى لا تؤذيهما أدنى أذية.

﴿وَلَا تُنْهَرُهُمَا﴾ أي: ترجمهما، وتكلم لهما كلامًا خشنًا ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه، وتأدب، وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما، ذلًا لهما ورحمة، واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤثر عليها العبد.

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتًا جزاء على تربيتهما إياك صغيرًا.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق. وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباها حق التربية.

(٢٥) ﴿رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُ يَمَّا فِي نَفْسِكَ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكتنه

سرايركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾. فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبة، ومحبة ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يغفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

(٢٦-٣٠) ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَفَنُهُ وَالْيَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا بُدْرَ تَبْدِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۚ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آيَةً رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ۚ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَفَنُهُ﴾ من البر والإكرام، الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمة.

﴿وَالْيَسْكِينَ﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائدًا على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقَحُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿تَحْسُورًا﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر يباين ذي القربى، مع القدرة والغنى. فأما مع العدم، أو تعسر النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يُرَدُّوا ردًا جميلًا فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آيَةً رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي:

تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: لطيفًا برفق، ووعد بالجميل، عند سnoch الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

وهذا أيضًا من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسره له [بسبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء، حكمة منه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُعَادُونَ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ فيجزيهم على ما يعلمه صالحًا لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه. (٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِبُوا إِلَيْكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا﴾ وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فهي الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع. وأخبر أن قتلهم كان خطأً كبيراً، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجروء على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصاً هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى دواع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: إنمّا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجروء على الحرمه في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفساد. وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بش السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ مَظْهُورًا﴾ وهذا شامل لكل نفس ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن،

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

٢٨٥

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيَّتَافَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ رَجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٣٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٣٩) إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٤٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِبُوا إِلَيْكُمْ وَتَرَفُفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا (٤١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٤٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٤٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَتِيمِ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٤٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ زُنُوزًا بِالْقِسْطِ إِنَّ الْمُسْتَقِيمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٤٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٤٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٤٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٤٨)

والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه، إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضًا تسلطاً قدرياً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعدم العدوان، والمكافأة.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ مَنصُورًا والإسراف مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل.

وفي هذه الآية، دليل إلى أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص. وأن وليَّ المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَتِيمِ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ وهذا من لطفه ورحمته

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالية، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين، في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله، وملائكته، والناس أجمعين.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بَالِغِينَ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكَ لَنفُورٌ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بَالِغِينَ﴾ أي: اختار لكم الصفوة والقسم (٢) الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إِنَّكَ لَنفُورٌ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه أعظم الجراءة على الله، حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم، واصطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٤١-٤٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ قل لو كان معي إلهة كما يقولون إذا لا بُعُثُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿سَبِّحْهُمْ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عَلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿سُبِّحْ لَهُ الثَّغُورُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غُفُورًا﴾ يخبر تعالى أنه صرّف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكّر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلوكه، وما يضرهم فيدعوه. ولكن أبى أكثر الناس إلا نفورا عن آيات الله، لبغضهم للحق، ومحبتهم ما كانوا

تعالى باليتيم الذي فقد والده، وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن ﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشَدَّهُ﴾ أي: بلوغه، وعقله، ورشدته، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَاسَأْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه. فإن وفيتهم، فلکم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا (١)، فعليكم الاتم العظيم.

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَارْزُقُوا بِالْقِسْطِ الَّتِي كُنْتُمْ تَكُونُونَ﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن، أو مثنى، أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبّت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعَدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

(٣٧-٣٩) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: كبراً وتبهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعاطماً على الخلق.

﴿إِنَّكَ﴾ في فعلك ذلك ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحقرًا عند الخلق، مغبوضاً ممقوتاً، قد اكتسبت أشر الأخلاق، واكتسبت أذلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٦

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢٨﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ
 بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٠﴾
 قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿٣١﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٣٢﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا
 تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٣٣﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
 الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةِ حِجَابًا
 مَّسْتُورًا ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّهُ أَذْنَبَ إِفْسَادًا
 ﴿٣٥﴾ تَحَنَّنَ عَلَيْنَا مِمَّا نَسْتَعِينُ بِهِ إِذْ نَسْتَعِينُكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْبُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٣٦﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾
 وَقَالُوا إِذْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا نَا الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٣٨﴾

والتدبير، وفقر من جهة الاضطراب، إلى أن يكون معبودهم
 ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون،
 ولهذا قال:

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ مِّن
 حَيْوَانٍ نَّاطِقٍ وَغَيْرِ نَاطِقٍ، وَمِنَ الشَّجَرِ وَنَبَاتٍ، وَجَامِدٍ،
 وَحَيٍّ وَمَيِّتٍ﴾ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ بلسان الحال، ولسان المقال
 ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي
 على غير لغتكم، بل يحيط بها عِلَامُ الغيوب.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه
 قولًا تكاد السموات والأرض تنفطر منه وتخر له الجبال،
 ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم
 إلى بابه، ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب
 الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته، لسقطت
 السموات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

(٤٥-٤٨) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(٢) في ب: يدعون.

عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله
 لهم سمعًا، ولا ألقوا لها بالًا.

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو
 أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من
 الحجج العقلية والنقلية شيئًا كثيرًا، بحيث من أصغى إلى
 بعضها، لا تدع في قلبه شكًا ولا ريبًا.

ومن الأدلة على ذلك، هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا،
 فقال: ﴿قُلْ﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿أَوَلَوْ
 كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: على موجب زعمهم واقترائهم
 ﴿إِذَا لَآتَيْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لاتخذوا سبيلاً إلى الله
 بعبادته والإجابة إليه، والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل
 العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه، إلهاً مع الله؟!
 هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟!.

فعلى هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ
 الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّبِعُونَكَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلْوَسِيلَةً إِنَّهُمْ أَقْرَبُ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
 فَيَقُولُ أَأُنْتَرَدُّ بِمَا كُنتُمْ تُعْبَدُونَ أَمْ هُمْ صُلُوكُ السَّبِيلِ﴾ ٥
 سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ.

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا
 يَقُولُونَ إِذَا لَآتَيْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا
 في مغالبة الله تعالى، فيما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر،
 هو الرب الإله. فأما وقد علموا أنهم يقولون أن آلهتهم التي
 يعبدون^(١) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر
 شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله
 تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ
 كُلُّ إِلَهٍ مِّمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ أي: تقدس وتزه وعلت أوصافه
 ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا
 كَبِيرًا﴾ فعلا قدره وعظم، وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن
 يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبيناً، وظلم
 ظلمًا كبيرًا.

لقد تضاءلت لعظمتها المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى
 كبرياته السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن
 فيهن ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ
 بِيَمِينِهِ﴾.

وافترق إليه العالم العلوي والسفلي فقرأ ذاتيًا، لا ينفك عن
 أحد منهم في وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق

إِلَيْكَ رُؤُسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا ۝ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا﴾ أي: أجسادًا بالية ﴿أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرُونَ عليه، جعلوا قدرة الله كذلك.

فسبحان من جعل خلقًا من خلقه، يزعمون أنهم أولو العقول والألباب، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها، وأوضحها براهين وأعلاها، ليرى عباده أنه ما تَمَّ إلا توفيقه وإعانتة، أو الهلاك والضلال.

﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادًا:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ﴾ أي: يعظم ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أي حالة تكونون، وعلى أي وصف تتحولون. وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، فإنه سيعيدكم خلقًا جديدًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾.

﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُؤُسُهُمْ﴾ أي: يهزونها إنكارًا وتعجبًا مما قلت. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرارًا منهم لأصل البعث، بل ذلك سَفَهٌ منهم، وتعجز ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار، على تقريره، والإقرار به، وإثباته، وإلا فكل ما هو آت، فإنه قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور ﴿فَسَتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تنقادون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: هو المحمود تعالى، على ما يفعله، ويجزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التناد.

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى آية أخرى فكتب: فلا يهتدون وعلى ذلك فترها، فأبقيت التفسير كما هو، وصوبت الآية.

بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّثُوا وَلَوْ أَنْ آدْبَرَهُمْ نَفُورًا ۝ تَحْنُ أَكْثَرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ يُخَوِّتُونَ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَثْمَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين زدوه، وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان، والخير والعلم الكثير.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ يستترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه، والانقياد لما يدعو إليه من الخير.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعًا تقوم به عليهم الحجة ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمما عن سماعه ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ﴾ داعيًا لتوحيده، ناهيًا عن الشرك به ﴿وَلَوْ أَنْ آدْبَرَهُمْ نَفُورًا﴾ من شدة بغضهم له، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿تَحْنُ أَكْثَرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة، يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم متمعدون على عدم اتباعه. ومن كان بهذه الحالة، لم يفده الاستماع شيئًا، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ يُخَوِّتُونَ﴾ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ في مناجاتهم ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بناها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ﴾ متعجبًا ﴿كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَثْمَالَ﴾ التي هي أصل الأثمال، وأبعدها عن الصواب ﴿فَضَلُّوا﴾ في ذلك، أو فصارت سببًا لضلالهم، لأنهم بناوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد، أفسد منه.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾^(١) أي: لا يهتدون أي اهتداء، فنصيبيهم الضلال المحض، والظلم الصَّرف.

(٥٢-٤٩) ﴿وَقَالُوا أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَقُولُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٧

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيداً ۝٥٠﴾ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْفُرُ
صُدُّوا ثُمَّ فَيَسْقِوْنَهُمْ مِنْ يُعِيدُهُمْ قُلُوبُ الَّذِينَ فطركم أول مرة
فَيَسْبِغُغُونَ لَكُمْ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَرِيباً ۝٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُ لِأَعْيُنِهِمْ
وَتَقْتُلُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنْ الشَّيْطَانُ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَنِ
عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٣﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ
يُعَذِّبَكُمُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ
بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
وَأَتَيْنَا دَاوُدَ رُبُّورًا ۝٥٥﴾ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾
وَلِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

﴿وَقَتُلُونُ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من سرعة وقوعه، وأن الذي مر
عليكم من النعيم، كأنه ما كان. فهذا الذي يقول عنه
المنكرون: ﴿مَتَى هُوَ؟﴾ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال
لهم: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

(٥٣-٥٥) ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنْ الشَّيْطَانُ يَنزِعُ
بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ
يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَرَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا
دَاوُدَ رُبُّورًا وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن
الأخلاق والأعمال، والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا
والآخرة، فقال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر
بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر
بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف، مع الخلق،
على اختلاف مراتبهم ومنازلهم. وأنه إذا دار الأمر بين أمرين
حسينين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع
بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن
من ملك لسانه، ملك جميع أمره.
وقوله: ﴿إِنْ الشَّيْطَانُ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يسعى بين العباد،
بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي
يدعوهم إليها، وأن يلبثوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي
ينزع بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه،
فإنه يدعوهم ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى
في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم،
وأن يقيموا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان من
قيلها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون
لرشدهم.

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما
هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون
شيئاً الخير في عكسه.

﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمُ﴾ فيوفق من شاء
لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيفضل عنها، فيستحق
العذاب.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ تدبر أمرهم، وتقوم
بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط
مستقيم.

﴿وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من جميع أصناف
الخلايق، فيعطي كلأ منهم ما يستحقه، وتقضيه حكمته،
ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية
والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشركين بوحيه على
بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم، من
الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال
الصالحة، وكثرة الاتباع، ونزول الكتب على بعضهم،
المشتملة على الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية كما أنزل
على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم
كتباً، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ، ما أنزله الله عليه وما
فضله به من النبوة والكتاب.

(٥٧، ٥٦) ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ
الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ
الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
كَانَ مَحْذُورًا.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه

من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإجابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

(٥٩، ٦٠) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا تُمُودُ النَّافَةِ مُبِيرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَاءَ الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يذكر تعالى رحمته، بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها. فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي النافقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار، لم يؤمنوا، فإنه ما منهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية غيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها، التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علما وقدرة، فليس لهم ملجأ يلجأون إليه، ولا ملاذ يلذون به عنه. وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَاءَ الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾ التي ذكرت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم.

والمعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفا، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقا للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضا، من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! ليس ذلك أولى أن

أنادًا يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين:

﴿ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ من مرض، أو فقر، أو شدة ونحو ذلك، فلا يدفعون بالكلية ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضا تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي. ومن العجب، أن السفه عند الاعتقاد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه، هو الرأي السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

ثم أخبر أيضا، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه فقال:

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَنْتَعُونَ إِلَيْكَ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبُ﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويذلون ما يقدر عليهم من الأعمال الصالحة، المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها. فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

(٥٨) ﴿وَلَيْنَ مِنْ قَرْنِهِ إِلَّا تَحَنُّ مُهْلِكُومًا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُومًا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد

يزداد بسببه شرهم؟ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم.

ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، يذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تناول جميع ما يكون.

﴿وَنُفِثَهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَرِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طَعْنًا كَبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملّي بالشر ومحبه، وبغض الخير وعدم الانقياد له.

(٦١-٦٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۚ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا ۚ وَاسْتَفْزَزَ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ يَصُوتُكَ وَأَجَلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۚ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۚ يَنْبَغِي تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى شِدَّةِ عِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ وَحِرْصِهِ عَلَى إِضْلَالِهِمْ، وَأَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، اسْتَكْبَرَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، وَ﴿قَالَ﴾ متكبراً: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: من طين، وبزعمه أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مخاطباً لله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: لاستأصلهم بالإضلال، ولأغويهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾ أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ يَصُوتُكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

﴿وَأَجَلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله.

﴿وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك شامل لكل معصية

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاثِنَانَا مُؤَدُّو النَّافَةِ مُبْصِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٦٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفِثَهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٤﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٥﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا ﴿٦٦﴾ وَاسْتَفْزَزَ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ يَصُوتُكَ وَأَجَلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٧﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ رَّبِّكُمْ الَّذِي يُرْجَى لَكُمْ أَفْلَاكُ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَاتِبُكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٩﴾

تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات، والحقائق الواجبة وعدم تأديب الأولاد، وتربيتهم على الخير، وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الردية.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع. وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

﴿وَعَدَهُمْ﴾ الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً مضمحلًا، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق. وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما

سورة بني إسرائيل

٢٨٩

سورة بني إسرائيل

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٧٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا ﴿٧٨﴾ أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا ﴿٧٩﴾ أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا ﴿٨٠﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى الْعِبَادِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمُ الْفَلَكَ وَالسَّفْنَ وَالْمَرَاكِبَ وَالْأَلْهَامَهُمْ كَيْفَةَ صَنَعَتِهَا وَسَخَّرَ لَهَا الْبَحْرَ الْمِلْطَظْمَ يَحْمِلُهَا عَلَى ظَهْرِهَا لِيَتَنَفَّعَ الْعِبَادُ بِهَا فِي الرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ لِلْأَمْنَةِ وَالتَّجَارَةِ. وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِمْ رَحِيمًا رَوْفًا، يُؤْتِيهِمْ مِنْ كُلِّ مَا تَلَقَّتْ بِهِ إِرَادَتُهُمْ وَمَنَافِعُهُمْ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ، دُونَ مَا سِوَاهُ، أَنَّهُمْ إِذَا مَسَّهُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ، فَخَافُوا مِنَ الْهَلَاكِ، لَتَرَاكُمُ الْأَمْوَاجُ، ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فِي حَالِ الرِّخَاءِ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، فَكَانَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَدْعُونَهُمْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ لَعَلَّهُمْ أَنَّهُمْ ضَعْفَاءُ، عَاجِزُونَ عَنْ كَشْفِ الضَّرْرِ، وَصَرَّخُوا بِدَعْوَةِ فَاطِرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الَّذِي تَسْتَعِثُّ بِهِ فِي شِدَائِهَا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَخْلَصُوا لَهُ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ فِي هَذِهِ الْحَالِ.

فَلَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الضَّرْرَ، وَنَجَاهَهُمْ إِلَى الْبَرِّ، نَسُوا مَا كَانُوا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَشْرَكُوا بِهِ، مِنْ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِخْلَاصِ لِرَبِّهِمْ وَمِلِكِهِمْ. وَهَذَا مِنْ جَهْلِ الْإِنْسَانِ وَكُفْرِهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كُفُورٌ لِلنَّعَمِ، إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ، فَمَنْ عَلَيْهِ بِالْعَقْلِ السَّلِيمِ، وَاهْتَدَى إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. فَإِنَّهُ يَعْلَمُ، أَنَّ الَّذِي يَكْشِفُ الشَّدَائِدَ، وَيُنْجِي مِنَ الْأَهْوَالِ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يَفْرَدَ وَتُخْلَصَ لَهُ سَائِرُ الْأَعْمَالِ فِي الشَّدَةِ وَالرِّخَاءِ، وَالْيَسْرِ وَالْعُسْرِ.

وَأَمَّا مِنْ خَذَلُ، وَوَكَّلَ إِلَى عَقْلِهِ الضَّعِيفِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ وَقْتَ الشَّدَةِ إِلَّا مَصْلَحَتَهُ الْحَاضِرَةَ، وَإِنْجَاءَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ. فَلَمَّا حَصَلَتْ لَهُ النِّجَاةُ، وَزَالَتْ عَنْهُ الْمَشَقَّةُ، ظَنَّ بِجَهْلِهِ، أَنَّهُ قَدْ أَعْجَزَ اللَّهُ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِقَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَوَاقِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَضَلًّا عَنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ.

ولهذا ذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذابًا، من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصِب، وهو العذاب الذي يحصبهم، فيصيحوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر. وإن ظننتم ذلك، فأنتم آمنون^(١) من ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴿٧٩﴾ أي: ريحًا شديدة جدًا تقصف ما أتت عليه.

﴿فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ أي: تبعه ومطالبة، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة. (٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء،

وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ﴾ على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والمراكب البرية ﴿وَو﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ في السفن والمراكب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكَل والمشارب، والملابس، والمناجح. فما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم، ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

(٧٢، ٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِبَيْمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَرْجَوْنَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَخْشَوْنَ فِتْنًا وَلَا يَخْشَوْنَ فِتْنًا فِي هَذِهِ أَعْمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشd، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فيقسمون بهذا قسمين:

﴿فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِبَيْمِينِهِ﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناته، وقلت سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ يَرْجَوْنَ كِتَابَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم.

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ فِتْنًا﴾ مما عملوه من الحسنات. ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَعْمَنَ﴾ عن الحق، فلم يقبله، ولم ينقله، بل اتبع الضلال ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، وهل عملت به أم لا؟.

وأنهم لا يؤخّدون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

(٧٧-٧٣) ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَآ إِلَيْكَ

لِنَفْتَرِي عَلَيْكَ عَرِيفًا وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَا أَن نَّبِّئَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّةِنَا تَحْوِيلًا﴾ يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَآ إِلَيْكَ لِنَفْتَرِي عَلَيْكَ﴾ أي: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجني بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

﴿وَإِذَا﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿لَأَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: حينًا صفيًا، أعز عليهم من أحبائهم، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، المحبة للقريب والبعيد، والصديق والعدو.

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك، وينابذك العداوة، إلا للحق الذي جئت به، لا لذاتك، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا بِكَزِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبِئَاتُ اللَّهُ بِحَدُوثِهِمْ﴾.

﴿و﴾ مع هذا ﴿لَوْلَا أَن نَّبِّئَنَّكَ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

﴿وَإِذَا﴾ لو ركنك إليهم بما يهوون ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لأصيناك بعذاب مضاعف، في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تتركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة، وأبلغ منحة.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجعلوك منها.

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلًا، حتى تحل بهم العقوبة، كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، عاجلها الله بالعقوبة.

ولما مكر به الذين كفروا، وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلًا،

حتى أوقع الله بهم بـ «بدر» وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم، فله الحمد.

وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه، أن يشته على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ ذَيْئًا قَلِيلًا﴾ فكيف بغيره؟!

وفيها تذكير الله لرسوله ﷺ عليه، وعصمته من الشر. فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإعامه عليهم - عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثم، ويتضاعف جرمه، إذا فعل ما يلام عليه، لأن الله ذكّر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾.

وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم، إذا أخرجوا رسولهم.

(٧٨-٨١) ﴿أَفَمِ الْصَّلَاةِ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ○ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ○ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْ مُدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ○ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ○ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ○ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامة، ظاهراً وباطناً في أوقاتها ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر.

﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآناً، لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالأمور.

وفيها أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات. وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعدر، لأن الله

جمع وقتها جميعاً.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: صل به في سائر أوقاته ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أي: لتكون صلاة الليل، زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمد به الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى. وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحبهم الله من هم الموقف وكرهه. فيشفع عند ربه، فيشفعه، ويقيم مقاماً، يغط به الأولون والآخرون. وتكون له المنة على جميع الخلق.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْ مُدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: اجعل مداخلتي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص، وموافقة الأمر. ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتبه وما أدّره.

وهذا أعلى حالة، ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلن، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان، إذا لم يقابله الحق، فمند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك. ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبياناته.

(٨٢) وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مَوْسِيقًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء

والرحمة. وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به. وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة.

فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة والانحراف السيئ، والقصور السيئة^(١). فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل.

(٨٣) ﴿وَإِذَا أَعْمَنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ هذه طبيعة الإنسان، من حيث هو إلا من هداه الله. فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره، ولا يذكره ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً. وأما من هداه الله، فإنه - عند النعم - يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخدولين لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

(٨٥) ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي لا يقصد بها إلا التعتن والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفية كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت. فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم

٢٩٠ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧) أَقْبَرُ الصَّلَاةُ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنُ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنْ آيَاتِ فَتْحِجَدِيدِهِ نَافِلَةٌ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) وَإِذَا أَعْمَنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤) وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لِهَذَا عِلْمًا وَكِيلًا﴾ (٨٦)

بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

(٨٧، ٨٦) ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقادر قدره. فالذي تفضل به عليك، قادر على أن يذهب به، ثم لا تجد راداً يردّه، ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه. فَلْتَعْتَظْ بِهِ، وَتَقَرَّ بِهِ عَيْنِكَ، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، واستهزاء الضالين، فإنهم عرضت عليهم أجل النعم، فردوها لهوانهم على الله، وخذلانه لهم.

(٨٨) ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ هَذَا

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عَمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا وَمَآ لَنَا لِمَعْبُوتٍ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ قُلْ لَوِ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَتَلَبِثْ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿٢١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مُتَبَجِّرًا ﴿٢٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿٢٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿٢٤﴾

خلق الناس. ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير.

﴿و﴾ لكنه قد ﴿جَعَلَ﴾ لذلك ﴿أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامة الحجج والأدلة على البعث ﴿فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ظلمًا منهم وافتراء.

﴿قُلْ لَوِ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ التي لا تنفذ ولا تنبذ ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: خشية أن ينفذ ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

(١٠٤-١٠١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَتَلَبِثْ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قال لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مُتَبَجِّرًا ○ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ○ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا أَي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات، أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى ابن عمران الكليم، إلى فرعون وقومه، وآتيناه ﴿تِسْعَ آيَاتٍ

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علوًا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ليس بيدي شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا. وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

فلو ﴿كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَشْهَرُونَ مَطْمَئِنِينَ﴾ يثبتون على رؤية الملائكة، والتلقي عنهم ﴿لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكًا رَسُولًا﴾ ليمكنهم التلقي عنه.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِيَاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه. فلو نقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين. فإنه خبير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

(٩٧-١٠٠) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عَمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ○ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا وَمَآ لَنَا لِمَعْبُوتٍ خَلْقًا جَدِيدًا ○ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ○ قُلْ لَوِ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال. فمن يهده، فيسره لليسرى ويجنبه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة. ومن يضلله، فيخذله، ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله. وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيًا وإهانة، عميًا وبكمًا، لا يبصرون، ولا ينطقون.

﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي جمعت كل هم، وغم، وعذاب.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: تهيأت للانطفاء ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: سرعناها بهم لا يفتّر عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم وأنكروا تمام قدرته.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا وَمَآ لَنَا لِمَعْبُوتٍ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من

وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
 وَفَرَأَيْنَا فَتَنَةَ الْفِرْعَوْنَ ۖ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلَتْهُ نَزِيرًا ﴿١٠٦﴾
 قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾
 فَيَمَّا يَتُنَزَّلُ آسَاسًا يَدَّأْمِنُ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَتَكَبِّرِينَ
 فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَنَذِيرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

غاية التأثر، ويخضعون له.
 ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبَّنَا﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسبته إليه
 المشركون ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال
 ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا تخلف فيه ولا شك.
 ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾
 القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ وهؤلاء كالذين آمن الله عليهم من مؤمني أهل
 الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره، ممن آمن^(١) في وقت النبي
 ﷺ، وبعد ذلك.
 (١٠٩، ١١٠) ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ﴾
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
 سَبِيلًا ۖ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ
 وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ۚ يَقُولُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ: ﴿ادْعُوا﴾
 اللَّهُ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي: أيهما شئتم. ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾
 الْحُسْنَىٰ﴾ أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهي عن دعائه به،
 بل أي اسم دعوتومه به، حصل به المقصود، والذي ينبغي:
 (١) في ب: أسلم.

يَنْتَبِهُ كل واحدة منها تكفي لمن قضده اتباع الحق: كالحية،
 والعصا، والظوفان والجراد، والقمل والضفادع، والدم،
 والرجز، وقلق البحر. فإن شككت في شيء من ذلك ﴿فَسَتَلَّ﴾
 بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ ﴿مَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ﴾ إِنْ
 لَا تُطِيعُونَ يُنْسَوْنَ مَسْحُورًا.
 ف ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَتَىٰ هَؤُلَاءِ﴾
 الْآيَاتِ ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ منه لعباده، فليس
 قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجًا على قومك،
 واستخفافًا لهم ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّشْبُورًا﴾ أي: ممقوتًا
 ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.
 ﴿فَارَادَ﴾ فرعون ﴿أَنْ يَسْتَفْزِمَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: يجلبهم
 ويخرجهم منها. ﴿فَاعْرِفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ وأورثنا بني إسرائيل
 أرضهم وديارهم.
 ولهذا قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا
 جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعًا، ليجازي كل عامل
 بعمله.
 (١٠٥) ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
 أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم، لأمر العباد، ونهيهم،
 وثوابهم، وعقابهم ﴿وَالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ أي: بالصدق والعدل،
 والحفظ من كل شيطان رجيم.
 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل
 والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل،
 ويلزم من ذلك، بيان ما بشر به وأنذر.
 (١٠٦-١٠٩) ﴿وَفَرَأَيْنَا فَتَنَةَ الْفِرْعَوْنَ ۖ لِقِرَاءِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلَتْهُ﴾
 نَزِيرًا ۖ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۖ﴾ أي:
 وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا فارقًا بين الهدى والضلال، والحق
 والباطل ﴿لِقِرَاءِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على مهل، ليتدبروه،
 ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه.
 ﴿وَنَزَلَتْهُ نَزِيرًا﴾ أي: شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين
 سنة.
 ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَحَسَنَ تَقْوِيمًا﴾. فإذا
 تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه ف:
 ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به، وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا﴾
 تُؤْمِنُوا﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئًا، وإنما ضرر
 ذلك عليكم. فإن الله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم
 النافع: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يتأثرون به

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ فَلَمَّا بَلَغَ نَقْصَ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ۚ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۚ الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية وأجل نعمه على الإطلاق: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمده على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم^(١) مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعت الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، وأتبعه بخاتمة فيها أصول وكمالات من أصول وكمالات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد، أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيناً لكل شيء، وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور وينديها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه والنحو لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلّت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحبيت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاقتصاد على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه، إنه جواد كريم رءوف رحيم. وأتبعته بكمالات وأصول من كمالات التفسير لاستدراك ما لعله يغوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكمالات تبني عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسناً ونعم الوكيل. (٢) في ب: مقيم.

أن يدعى في كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: قراءتك ﴿وَلَا تَخَافَتْ يَهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذوراً. أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سبّوه، وسبّوا من جاء به.

وأما المخافة، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا﴾ أي: توسط فيما بينهما.

﴿وَقُلِ اتَّخَذَ اللَّهُ الْذِي﴾ له الكمال، والثناء، والحمد، والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص. ﴿الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾ بل الملك كلّ الله الواحد القهار. فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: لا يتولى أحداً من خلقه، ليتعزّز به ويعاونه. فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم ﴿اللَّهُ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْدِيلًا﴾ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله لعبادته وحده، لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء، والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعهم عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبدالرحمن بن ناصر السعدي^(١).

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۚ فِيمَا كُنْتُمْ شَكُّوهُ قَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنِيرُ الْفُؤَادَ ۚ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاحَ ۚ إِنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۚ مَّنْكُتِينَ فِيهِ أَبَدًا ۚ

﴿ثُمَّ نَزَلْنَاهُ بِمَنِّ أَنْفَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدرج والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولًا: أنه ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِيَايَاهُمْ﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانيًا، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ثم ذكر ثالثًا مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ، حريصًا على هداية الخلق، ساعيًا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ، يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسًا لَا يَكُونُ آيَاتٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وهنا قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسًا﴾ أي: مهلكها، غمًا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرًا لهداهم. ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا، فإشغالك نفسك غمًا وأسفًا عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة.

فإن الأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ، والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مُضْعَفٌ للنفس، هادم للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يمضي على فعله، الذي كُلِّفَ به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته.

وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْثَى﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾.

(٨، ٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْلُوهُرُ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا﴾ يخبر تعالى، أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مأكّل للذئبة، ومشارب، ومساكن^(١) طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر

المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تركي النفوس، وتطهرها وتميها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عبادته به.

وقوله: ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا، وعقاب الآخرة، وهذا أيضًا من نعمه أن خَوَّفَ عباده، وأنذرهم، ما يضرهم ويهلكهم، كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُمْ فَأَتَقُونَ﴾ فمن رحمته بعباده، أن يقض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبينها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، ويرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب، ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة.

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه، ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنه تامًا.

ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿تَكُونُ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به. وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ من اليهود والنصارى، والمشركين الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه، بالاتخاذ للولد^(١)، الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية، والإلهية، والكذب عليه؟!!

(١) كذا في ب، وفي أ: الولد. (٢) في ب: ملايس.

سورة الكهف

٢٩٤

سورة الكهف

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِخُحِّ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ أَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَئْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارِشِدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئْسَ أَمَدًا ﴿١٢﴾ تَحْنُ نَفْسُ عَلِيٍّ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل؛ والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، لملازمتهم له دهرًا طويلاً.

ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: الشباب، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنه قومهم لهم.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير ﴿وَهِيَئْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارِشِدًا﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه؛ وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم؛ وعدم اتكالهم على أنفسهم، وعلى الخلق.

فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي: أنماهم

بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنه واختبارًا.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلّاها الله لنا كأنها رأيي عين، وحذرنّا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا. فاعتز بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتّع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهولاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يدها، من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومته، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشقّة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لدنياء، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

(٩-١٢) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ○ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَئْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارِشِدًا ○ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ○ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئْسَ أَمَدًا ○ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، والنهي. أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف، وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة. وإنما المراد، أن جنسها كثير جدًا، فالوقوف معها

سورة الكهف

٢٩٥

سورة الكهف

وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأْنَا إِلَى الْكَهْفِ
 يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا
 ﴿١٧﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرْتَوِعْنَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ
 الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
 مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
 يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٨﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً
 وَأَنْتَ لَمَّا كُنْتُمْ فِي الْكَهْفِ أَنْتُمْ رُفُودٌ وَهُمْ رُفُودٌ
 وَهُمْ رُفُودٌ وَنَقَلْتَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
 بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
 فِرَارًا وَلَمَلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٩﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
 لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا
 يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
 أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
 طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
 بِكُمْ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
 أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا ﴿٢١﴾

طول مدتهم، فلهذا ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً. ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه. فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. فلو لا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلف في ذهابه وشرائه، وإيابه، وأن يخفي في

الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم، حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين.

﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راداً لحكمه. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً﴾ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم [كانهم] آياتاً، والحال أنهم نيام.

قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتحة، لثلا تفسد، فلناظر إليهم، يحسبهم آياتاً، وهم رقود.

﴿وَنَقَلْتَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها، أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم، يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير قلب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلا قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً. والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(٢٠، ١٩) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾ يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من نومهم الطويل ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكانهم وقع عندهم اشتباه في

على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية.

وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم و﴿قَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم.

وقال من غلب على أمرهم - وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَتَنَجِّدَنَّاهُمْ﴾ أي: نعيد الله تعالى فيه، وتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن، سلمه الله منها. وأن من حرص على العاقبة عافاه الله، ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره. ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته، العزّ العظيم، من حيث لا يحتسب ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآبِرِينَ﴾.

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ وَلَا تَسْقُفَ فِيهِمْ مِّنْهُمُ أَحَدًا﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم. ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذان القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها.

ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين، ولم يطله، فدل على صحته. وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية، ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلّموا إصابتهم ﴿فَلَا تُمَارَ﴾ أي: تجادل وتحتاج ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ أي: مبنيا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها. إما أن يكون الخصم معاندا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة

ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرون بهم أحدًا. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم؛ وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحققتهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يقتلوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم. وفي هذه الحال، لا يفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان، على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ آيَاتُكَ﴾ وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك. ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر، من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه. وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين، والمتأخرين لقولهم: ﴿وَلَكِنْ تَقْلِحُوا إِذَا أَبَكَا﴾.

(٢١) ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا إِنَّهُمْ عَلِمُوا فِيهِمْ قَالِ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَتَتَجِدَنَّاهُمْ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا﴾ يخبر الله تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا، فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو: أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن نافذ لذلك، فجعل قصتهم، زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة

وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وليس في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ بِالْكَفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ نَارًا أَحَاطَ بِهِنَّ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها المحيط بها. فليس لهم منفذ، ولا طريق، ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد ﴿يَعَاثُوا يَمَاءً كَأَلْهَبٍ﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته ﴿يَشْوَى الْجُودُ﴾ أي: فكيف بالأعماء والبطون، كما قال تعالى: ﴿يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُودُ﴾ وَلَمْ يَفْلَحْ مِنْ حَيْدٍ.

﴿يَسْأَلُ الثَّارِثُ﴾ الذي يراد ليطفىء العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به. فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب، كما نسوه.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات: من الواجبات والمستحبات ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعا في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيههم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليا التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة. وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك. وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم

سورة الكهف

٢٩٧

سورة الكهف

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٣٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِنَّ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٤١﴾ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِّمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٤٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهُمَا وَلَمْ يُنَخِّلْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا عَلَيْهِمَا نَهْرًا ﴿٤٣﴾ وَكَانَ لَهُ شُرَفْقَالٌ لِصَحْبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٤٤﴾

بما يشتهون، وتماثل ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية. فهذه الدار الجليلية ﴿نِعَمَ الثَّوَابِ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها: مما تشتهيه الأنفس، وتلذذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة. وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه، ونعيمه، وقصوره، وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمانى. ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام، متزايد في أوصافه وحسنه. فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده، من الإحسان، بِشَرٍّ مَا عِنْدَنَا مِنَ التَّقْصِيرِ وَالْعِصْيَانِ.

ودلت الآية الكريمة، وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك التحرير ونحوه.

(٣٢-٣٤) ﴿وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِّمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهُمَا وَلَمْ يُنَخِّلْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا عَلَيْهِمَا نَهْرًا ﴿٤٣﴾ وَكَانَ لَهُ شُرَفْقَالٌ لِصَحْبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٤٤﴾ يقول تعالى

بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين. إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأى تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أُعْطِيَ في الدنيا أُعْطِيَ في الآخرة. بل الغالب، أن الله تعالى يَرُوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فإثبات: أن وصفه الظلم في حال دخوله، الذي جرى منه من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

(٣٧-٣٩) ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْطٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۚ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن - ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْطٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يَسِّرُ لك الأسباب، وهياً لك ما هياً، من نعم الدنيا. فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً وتجدد^(١) نعمته، وتزعم أنه لا يعنك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك، هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطفغيانه، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم^(٢) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبره أن نعمة الله عليه، بالإيمان والإسلام ولو مع قلة

لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكرين لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب، ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه، فائدة أو نتيجة. فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك، من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين أي: بستانين حسنين، من أعناب. ﴿وَحَفَافًا يُتَخَلَّى﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار: العنب، والنخل. فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار، وتضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً. فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟.

فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها أي: ثمرها وزرعها ضعفين أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لَمْ تَطْلُرْ مَنَّهُ نَبْأًا﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء. ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وَكَانَ لَهُ﴾ أي: لذلك الرجل ﴿نَمْرٌ﴾ أي: عظيم كما يفيد التذكير أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح واقتخر، ونسي آخرته.

(٣٤-٣٦) ﴿فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۚ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۚ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماكرات المعتادة، مفتخرًا عليه.

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره، من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأى افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمانى التي لا حقائق تحتها.

ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته. ف ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تقطع وتضمحل ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي

(١) في ب: وتجهل. (٢) في ب: والتزام.

سورة الكهف

٢٩٨

سورة الكهف

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ
 أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي
 لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
 أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا
 ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَا تُولَّا إِذْ
 دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا
 أَقَلُّ مِنكُمَا لَوْ لَدَا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن
 جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِصَ صَعِيدًا
 زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يَنْصِصَ مَا وَهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾
 وَأُحِيط بِشَرِّهِ فَاَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
 عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ
 فِتْنَةٌ يَصْرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ
 لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَصْرَبَ لَهُم مَّثَلُ الْخَيَوةِ
 الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على
 شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا،
 وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله
 لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.
 ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: في تلك
 الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة
 الدنيا. والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا
 غيره لذلك، تبين وتوضح، أن الولاية لله الحق، فمن كان
 مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع
 عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه
 ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي خير^(١) ثواب يرجى
 ويؤمل.

ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه
 نعماً دنيوية، فالهتة عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطبقات (شر ثواب) وهي
 في النسختين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمناً تقياً، فهو
 الذي ثوابه خير ثواب.

ماله وولده - أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض
 للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

(٣٩-٤٤) ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنكُمَا لَوْ لَدَا﴾ ○ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن
 يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِصَ صَعِيدًا
 زَلَقًا ○ أَوْ يَنْصِصَ مَا وَهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ○ وَأُحِيط بِشَرِّهِ
 فَاَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي
 لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ○ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَصْرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
 مُنْصَرًّا ○ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت عليّ
 بكثرة مالك وولدك، ورأيتي أقل منك مالاً وولداً - فإن ما
 عند الله خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه أفضل من
 جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على
 جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي:
 عذاباً، بمطر عظيم أو غيره.

﴿فَنُصِصَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: قد اقتلعت
 أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها.

﴿أَوْ يَنْصِصَ مَا وَهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غَوْرًا﴾ أي: غائراً في
 الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي: غائراً لا يستطيع
 الوصول إليه، بالمعاول ولا بغيرها. وإنما دعا على جنته
 المؤمن، غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها،
 لعله ينب، ويراجع رشده، ويصرف في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ أي: أصابه عذاب،
 أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر
 يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعها، فندم كل
 الندامة، واشتد لذلك أسفه ﴿فَاَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَ فِيهَا﴾
 أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت
 وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه، وشره،
 ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَصْرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
 مُنْصَرًّا﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفخر
 به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكُمَا مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعوا
 عنه من هذا العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان
 بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر - أي: يكون له أنصار - على
 قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره: لو اجتمع أهل السماء
 والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدرُوا!!

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة
 التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع

سعى أعماله؛ هنالك بعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات بالتوبة والأعمال الصالحات.

فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدّري أنك قد ميتٌ، ولا بد أن تموتي، فأَي الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تستتبه الأُنفس وتلد الأعين؟، فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسارته.

ولهذا أخبر تعالى، أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات. وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة: من حقوق الله، وحقوق عباده من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات والمماليك والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً، فتوابعها يقي، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجراها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجدُ في تحصيلها المجتهدون.

وتأمل، كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زيتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون.

ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

(٤٧-٤٩) ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَنَرْنَهُمْ فَلَمْ يَقَارُوا أَحَدًا﴾ ○ وَشَرُّوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ حَقَمْتُمَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ○ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَدَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْفِفِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلْنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا ○

يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأحوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كتيلاً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلشى، وتكون هباء منبثاً، وتبرز الأرض، فتصير

مألها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً، فإنه يحرمها طويلاً.

وأن العبد، ينبغي له - إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده - أن يضيف النعمة إلى موليتها ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكرًا لله متسببًا لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .

وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِنْ كَرِهْنَا أَمَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ○ فَكَسَى رَجُلٌ أَنْ يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ .

وفيها: أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ .

وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضّل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم.

وفيها: أن ولاية الله وعدمها، إنما تتضح نتيجتها، إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجورهم ف﴿هَٰذَا لِلَّهِ وَلِيَّةٌ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبة ومآلاً.

(٤٥، ٤٦) ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ○ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَنَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً، ولمن قام بوراثته بعده تبعًا: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإثارة، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر، ينزل على الأرض فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فيبنا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.

كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهما ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله. فذهب عنه سروره، وزالت لذته وجوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو

قاعاً صفصفاً، لا عوج فيه ولا أمتاً. ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً.

بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صفاً، ليستعرضهم، وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر، التي كسبوها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

وقال هنا، مخاطباً للمتكبرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَلُ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعدته فيها قد رأيتموه وذقتموه، فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام^(١)، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا راوها مسطرة عليهم أعمالهم، مُخَصَّى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار. ﴿وَجِئْتُمَا مَاعْمَلُوا حَاضِرًا﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامتنالاً لأمر الله، فامتلأوا ذلك ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وقال: ﴿ءَأَسْمِعُ لِمَنْ خَلَقْتُ طَيْسًا﴾ وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فتبين بهذا، عداوته لله ولإيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان - الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر - عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

٢٩٩ ﴿وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مِمَّا لَا﴾ ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ نُسِرِ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٥٢﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٥٣﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٥﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِي الْمُضِلِّينَ عَصَا ﴿٥٦﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٧﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٨﴾

وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَفْخَرُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

(٥١، ٥٢) ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِي الْمُضِلِّينَ عَصَا﴾ ○ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين] ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء

يَهْلِكُ ﴿٥٣﴾ ولهذا قال:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك، غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا قصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال، والحق والباطل قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا، عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

(٥٦) ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِكُلِّ فِرْقَةٍ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا إِلَيْنَا أُذُنًا مَّوْرًا﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويشرونهم على امتثال ذلك، بالشواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل، مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلتها، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تبين الأشياء.

(٥٧-٥٩) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۚ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۚ وَتِلْكَ الْأَفْرُزَاتُ اهْلَكَكُمْ لَمَّا ظَنُّوْا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ولا

من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصهم ولا يدنهم.

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: ﴿نَادُوا شُرَكَاءِي﴾ بزعمكم أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا، فبالحقيقة، ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء، أي: نادوهم، لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿مَوْبِقًا﴾ أي: مهلكًا، يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كافرين﴾.

(٥٣) ﴿وَرَوَّاعًا الْمُبِرَّ مَوْنُ النَّارِ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَهَا مَصْرِفًا﴾ أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَهَا مَصْرِفًا﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفتدة والقلوب.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صرّف فيه من كل مَثَل، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، فيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له، في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٠

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا
 إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ۚ لَا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
 الْأُولَى أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٧﴾ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ
 إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَمُجِدِّلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ بِالْبَاطِلِ
 يُدْحِضُونَهُ الْخَلْقَ وَاتَّخَذُوا أَيْتِي وَمَا أُنذِرُوا هَزَلًا ﴿٥٨﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَا
 إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٩﴾ وَرَبِّكَ
 الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ
 الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٦٠﴾
 وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ
 مَوْعِدًا ﴿٦١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آْبِرُحَ حَتَّى
 أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
 مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٣﴾

أي: وقتًا مقدراً، لا يتقدمون عنه، ولا يتأخرون.

(٦٠-٨٢) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آْبِرُحَ حَتَّى أَبْلُغَ
 مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۚ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا
 حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۚ فَلَمَّا جَاوَرَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا نَسَا غَدَاةَنَا
 لَقَدْ لَبِيسًا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي
 نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
 الْبَحْرِ عَجَبًا ۚ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ۚ
 فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا
 عِلْمًا ۚ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلِ اتَّبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِنَّا عَلِمْتَ رَشْدًا ۚ قَالَ
 إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۚ وَكَفَّ نَصِيرَ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ۚ قَالَ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۚ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي
 فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا
 فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۚ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
 صَبْرًا﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته
 في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه، أي: خادمه الذي
 (١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أنبه. (٢) في الأصل:
 واخذ.

أكبر جرماً من عبدٍ ذُكرَ بآيات الله وبُيِّنَ له الحق من الباطل،
 والهدى من الضلال، وخُوفٌ ورُعبٌ ورُعبٌ، فأعرض عنها،
 فلم يتذكر بما ذُكرَ به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما
 قدمت يده من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا
 أعظم ظلماً، من المعرض الذي لم تأت آيات الله، ولم يذكر
 بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف^(١) ظلماً من هذا، لكون
 العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك.

ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه
 لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها أن سد عليه
 أبواب الهداية، بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أعطيه محكمة
 تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها فليس في إمكانه الفقه الذي
 يصل إلى القلب.

﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات،
 ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس
 لهدايتهم سبيل.

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لأن الذي
 يرجي أن يجيب الداعي للهدى، من ليس عالماً. وأما هؤلاء،
 الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه،
 وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب
 والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه
 الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، وأن يحال بينهم
 وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر
 عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر
 الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله
 بإحسانه، وأنه لو أخذ^(٢) العباد على ما قدمت أيديهم من
 الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل
 بالعقوبة، بل يمهّل، ولا يمهّل، والذنوب لا بد من وقوع
 آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾ أي: لهم موعد،
 يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه،
 ولا ملجأ، ولا محيد عنه.

وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم
 بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا،
 غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا
 على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم،
 أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا
 ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠١

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنَهُ ءِإِنَّا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّ إِلَى أَثَارِهِمَا فَصَبَا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِإِنَّهُ رَحِمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لِمُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُسْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا أَمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا رَكِيَةً بَغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

بها زاد علمه، وحسن عمله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ ^(١) ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ [أي: من عندنا] ﴿عِلْمًا﴾. وكان قد أعطي من العلم، ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية، والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين الذين فضلهم الله على سائر الخلق، بالعلم، والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى، قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه:

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُسْدًا﴾ [أي: هل أتيتك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع، على بواطن كثير من الأشياء، التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه، من الأمور التي

يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [أي: لا أزال مسافرًا وإن طالت عليّ الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالمين، عنده من العلم، ما ليس عندك].

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُفْبًا﴾ [أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه].

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ [أي: هو وفتاه] ﴿مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُرَّتَهُمَا﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فتمّ ذلك العبد، الذي قصدته، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه في البحر سربًا، وهذا من الآيات قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًا.

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه: ﴿ءِإِنَّا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل، الذي وصلا به إلى مجمع البحرين، لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضًا، فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما، وجدا مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه:

﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ [أي: ألم تعلم حين آوينا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَأِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ لأنه السبب في ذلك] ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [أي: لما انسرب في البحر، ودخل فيه، كان ذلك من العجائب].

قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فقال موسى:

﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ [أي: نطلب] ﴿فَأَرْتَدَّ﴾ [أي: رجعا] ﴿عَلَى أَثَارِهِمَا فَصَبَا﴾ [أي: رجعا يقصان أثرهما، الذي نسيا فيه الحوت، فلما وصلا إليه، وجدا عبدًا من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبدًا صالحًا، لا نبيا، على الصحيح].

آتيناه ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ [أي: أعطاه الله رحمة خاصة،

أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟! فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، فقال له:

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة.

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: سأخبرك بما أنكرت عليّ، وأنبك بأن لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿أَنَا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرافة بهم ﴿فَارْتَدُّ أَنْ أَعِيبَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه، ما فيها عيب، غصبها وأخذها ظلماً، فأردت أن أخرقها، ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا الْفُلُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِيَ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام، قد قدر عليه، أنه لو بلغ، لأرهب أبويه طغياناً وكفراً. أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك، أي: فقتلته، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟ وهو وإن كان فيه إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال:

﴿فَارْتَدَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَحْمَةً خَافَا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: ولذا صالحاً، زكياً، واصلاً لرحمه، فإن الغلام الذي قتل، لو بلغ لعقهما أشد العقوق، بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقمته ﴿فَكَانَ لِفُلْمَيْنِ يُتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي: حالهما تقتضي الرافعة بهما ورحمتهم، لكونهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً، بصلاح والدهما.

﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجاناً.

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاه الله عبده الخضر ﴿وَمَا قِيلَ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: أتيت شيئاً من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

(١) كذا في النسخين، ومراد المؤلف - رحمه الله - النفي، أي: ما أتيت.

ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على

أمرٍ، ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه ومآله؟!

فقال موسى: ﴿سَجِدْتُ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

فحينئذ قال له الخضر: ﴿إِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: لا تبدئي بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاء عن سؤاله، ووعدة أن يوفقه على حقيقة الأمر.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك، سيبينه، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى:

﴿أَخْرَقَهَا لِنَارِكَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر:

﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسياناً فقال: ﴿لَا تُؤْخَذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَهْزِقْ مِنِّ أَمْرِي غَمْرًا﴾ أي: لا تعسر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر، الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا قِيَا عِلْمًا﴾ أي: صغيراً ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً، لم يذنب.

﴿قَالَ أَقَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: نكر مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر، معاتباً ومذكراً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

فقال [له] موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ فَلَا تُصَلِّحْنِي﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا﴾ أي: استضافاهم فلم يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر أي: بناء وأعاده جديداً. فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَنَحَدَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي:

سورة الكهف

٣٠٢

سورة الكهف

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْبَأَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَفَعَلْتُ بِهِ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُرِيدُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ آبَاؤُهُمْ مُؤْمِنِينَ فَفَحْشَيْنَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ لَهُمْ فَرْجًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِعُلَمَاءٍ تِيمَنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَنَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفته: ﴿إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ فحيث تذكر أنه نسيه، في الموضع الذي إليه انتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منه الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً، لذكر ذلك، كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنِ اضْطَعْ بِنَجْوَى الْكَاهِنِ وَخَرُّ عَلَى رُكُوعٍ مُّسَبِّحًا لِلَّهِ الْحَمْدَ دُونَ ذَلِكَ لَمَّا خَسَفَ الْقَمَرُ رَأَى سُلَيْمَانُ دَاوُدَ مُقِيمًا صَالِحًا﴾.

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله [العبادة] (١) نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه اللطيف

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد، والأحكام، والقواعد، شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله.

فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداية بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم - علم الإنسان أهم من ترك ذلك - والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهاراً لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ وكما أخبر النبي ﷺ، أصحابه - حين غزا تبوك - بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: ﴿وَمَا أَتَيْنَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً، لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكياً فظناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: ﴿إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو، وهو جميعاً.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين.

وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة. فالظاهر أنهم باتوا

على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية - التي من أفعال العباد - بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم، أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع: كما إذا كان فهمه قاصراً. أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها. أو لا يدركها ذهنه. أو يسأل سؤالاً، لا يتعلق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها، وما سمحت به أنفسهم. ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر، ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية، في الأموال، والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها، أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها، في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعى أكبر المصلحتين، بتفويت أدهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه. وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما،

(١) في ب: لطريق. (٢) بدلاً من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوبة.

خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ وَمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبير، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعليم ممن دونه فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل، للعلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة. فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله، وأعطاهم من العلم، ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص، كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه. فعلى هذا، لا ينبغي للفقهاء المحدث، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمُنِي وَمَا عَلَّمْتُ﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق^(١) الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَنْ تُعَلِّمَنِي وَمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم^(٢)، فمن لا صبر له، لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر. ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم

ومنها: أن هذه القضايا التي أجازها الخضر هي قدر محض أجازها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً، وهي صلاح دينه: كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه، كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكرهه.

(٨٣-٨٨) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْيَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكِّنَّا لَكَ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَاتَّبِعْ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْغَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغَبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَّكَّرُ إِلَيْنَا إِنَّا كُنَّا نَعَذِّبُ وَإِنَّا أَنْتَجِدُ فِيهِمْ حَسَبًا ۝ قَالَ أَمَا مَنْ ظَنَرْتُمْ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۝ وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَجَمَلَ صِلَةً فَلَهُمْ أَجْرٌ أَهْسَوْا وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسْرَرُ ۝ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَوْ الْمُشْرِكُونَ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْيَيْنِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب. أي: سأتلو عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم.

﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَكَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكه الله تعالى، ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له ﴿وَأَتَيْنَاكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَاتَّبِعْ سَبَبًا﴾ أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له، لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران. وعمل بتلك الأسباب، التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي، والعمل به، حصل المقصود، وإن عدما، أو أحدهما لم يحصل.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهاذا، لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة، أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عُدَدٍ وَعُدَدٍ ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاريبها وأنحائها، فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها، أي: عند

خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد، ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها، داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله، إتلاف بعض مال الغير»، كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال، افتداء للباقي، جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿تَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثَكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله: ﴿يَغْيِرُ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَسِيبَهَا﴾. وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ﴾، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للمصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة، وسبب لبقاء الصلبة، وتأكدتها، كما أن عدم الموافقة، سبب لقطع المرافقة.

مغربها قوماً .

﴿فَلَمَّا يَدَّا الْفَرِيقَيْنِ لَمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْبًا﴾ أي : إما أن تعذبهم ، بقتل ، أو ضرب ، أو أسر ونحوه ، وإما أن تحسن إليهم فخير بين الأمرين ، لأن الظاهر أنهم إما كفار ، أو فساق ، أو فيهم شيء من ذلك ، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق ، لم يُرَخَّصْ له في تعذيبهم ، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ، ما استحق به المدح والثناء ، لتفوق الله له ذلك ، فقال : سأجعلهم قسمين :

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بالكفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ أي : تحصل له العقوبتان ، عقوبة الدنيا ، وعقوبة الآخرة .

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي : فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة .

﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ آسِرًا﴾ أي : وسنحسن إليه ، ونلطف له بالقول ، ونيسر له المعاملة ، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين ، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد ، بما يليق بحاله .

(٨٩-٩٨) ﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ۚ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۖ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ قَالُوا يَدَّبَّا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرَجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ وَأَتَوَيْبُ زَيْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۖ ﴿٩٧﴾

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ قال المفسرون : ذهب متوجهًا من المشرق ، قاصدًا للشمال ، فوصل إلى ما بين السدين ، وهما سدان ، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان ، سدًا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس ، وجد من دون السدين قوماً ، لا يكادون يفقهون قولاً ، لعجمة ألسنتهم ، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم ، وقد أعطى الله ذا القرنين ، من الأسباب العلمية ، ما فقه به ألسنة أولئك القوم ، وفقههم ، وراجعهم ، وراجعوه ، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج ، وهما : أمتان عظيمتان من بني آدم فقالوا :

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك ﴿فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرَجًا﴾ أي : جُعَلًا ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد ، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه ، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك ، وذكروا له السبب الداعي ، وهو : إفسادهم في الأرض . فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ، ولا رغبة في الدنيا ، ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية . بل كان قصده الإصلاح ، فذلك أجاب طلبتهم ، لما فيها من المصلحة ، ولم يأخذ منهم

حيثما توجه وسار .

سورة الكهف

٣٠٣

سورة الكهف

إِنَّمَا كُنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِّأًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلُوبًا يَدَّبَّا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْبًا ﴿٩٠﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٩١﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ آسِرًا ﴿٩٢﴾ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا ﴿٩٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٤﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٥﴾ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا ﴿٩٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٧﴾ قَالُوا يَدَّبَّا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرَجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٨﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٩﴾ وَأَتَوَيْبُ زَيْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿١٠٠﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿١٠١﴾

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ قال المفسرون : ذهب متوجهًا من المشرق ، قاصدًا للشمال ، فوصل إلى ما بين السدين ، وهما سدان ، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان ، سدًا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس ، وجد من دون السدين قوماً ، لا يكادون يفقهون قولاً ، لعجمة ألسنتهم ، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم ، وقد أعطى الله ذا القرنين ، من الأسباب العلمية ، ما فقه به ألسنة أولئك القوم ، وفقههم ، وراجعهم ، وراجعوه ، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج ، وهما : أمتان عظيمتان من بني آدم فقالوا :

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك ﴿فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرَجًا﴾ أي : جُعَلًا ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد ، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه ، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك ، وذكروا له السبب الداعي ، وهو : إفسادهم في الأرض . فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ، ولا رغبة في الدنيا ، ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية . بل كان قصده الإصلاح ، فذلك أجاب طلبتهم ، لما فيها من المصلحة ، ولم يأخذ منهم

حشرهم، وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

(١٠١، ١٠٠) ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَنَّةُ لِلْعَاوِينَ﴾^(١) أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليستعوا بأغلالها وسعيرها، وحميمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ﴾ وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة كما قال تعالى: ﴿وَعَنَى أَنْصَرَهُمْ غِشْوَةً﴾.

﴿وَكَاؤُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يقدرون على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم^(٢) سمع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسلة، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرًا.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اعتدنا جهنم للكافرين تزلًا، وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء، شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسلة.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي وليي الله، معاديا لله أبداً، فإن الأولياء موافقون لله، في محبته، ورضاه، وسخطه، وبغضه، فيكون على هذا المعنى، مشابهاً لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْتَبِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنْ كَرِهْتُمْ فَلَا تَكُونُوا لَهُمْ عِبَادًا﴾.

فمن زعم أنه يتخذ وليي الله ولياً له، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، المناذبون لرسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، وينفعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم. (٢) في النسختين: له.

أجرة، وشكر ربه على تمكنه واقتداره، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: مما تبدلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أَجْعَلِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَمْدًا﴾ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿عَاثُوْا زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك ﴿حَقًّا﴾ إذا سَأَلُوْا بَيْنَ الصَّالِحِينَ أي: الجليلين اللذين بني بينهما السد ﴿قَالَ أَنْفَعُوا﴾ النار أي: أوقدوها إيقاداً عظيماً، واستعملوا لها المنافع، لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يوصله بين زبر الحديد ﴿قَالَ عَاثُوْا فَرَّغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به مَنْ وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوْهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَبَأًا﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه، لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والآخر الجليل، أضاف النعمة إلى موليتها وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليّ.

وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا مَنَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقارهم، واعترفاهم بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ، مع البعد العظيم قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر، والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشراً وبطراً. كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّةً﴾ أي: دكة فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

(٩٩) ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضٍ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج. وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿حَقَّتْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلاق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ نَفْثَهُمْ جَمًّا﴾ و﴿عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَأَوَّلُ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٠٤
 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَادْجِءْ وَعَدْرِي جَعَلَهُ ذُكَاةً وَكَانَ وَعْدِي حَقًّا ﴿١٠٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَاهُمْ مَجْعًا ﴿١٠٩﴾ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١١١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا ﴿١١٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١١٦﴾ قُلْ يَا مُحَمَّد، لِلنَّاسِ - عَلَى وَجْهِ التحذير والإنذار - : هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا على الإطلاق؟ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه، من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله، ومعاداة؟ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به، وبملأئحته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر. ﴿فَحَبِطَتْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ لأن الوزن فائده: مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء، لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَمَعْلٍ مِّنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤَيَّدٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، لكن تعد أعمالهم، وتحصى، ويقرونها بها، ويخزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة ﴿وَزَنًا﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزؤون بها، ويسخرون^(١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية فانعكس أمرهم، وتسوا وانتكسوا في العذاب.

هذا حساب باطل، وظن فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس يدهم من النفع والضر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ﴾ ونحو ذلك من الآيات التي يذكرها: فيها، أن المتخذ من دونه ولياً ينصره ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا﴾ أي: ضيافة وقرى، فبئس النزول نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم. (١٠٦-١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار - : هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا على الإطلاق؟

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه، من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله، ومعاداة؟ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به، وبملأئحته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿فَحَبِطَتْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ لأن الوزن فائده: مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء، لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَمَعْلٍ مِّنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤَيَّدٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، لكن تعد أعمالهم، وتحصى، ويقرونها بها، ويخزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة ﴿وَزَنًا﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزؤون بها، ويسخرون^(١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية فانعكس أمرهم، وتسوا وانتكسوا في العذاب.

ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بيّن أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

(١) في النسختين: ويستخرون.

(١٠٨، ١٠٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا﴾ ٠ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلًا ﴿أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان، والعمل الصالح - لهم جنات الفردوس. يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب، لمن كمل الإيمان، والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون. ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدین، كُلٌّ بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة.

وأما كلام الله، فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأئى سعة وعظمة تصورتها القلوب، فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمقتاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمْ أَفَلَا يَذَّكَّرُونَ ۚ﴾^(١) يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله.

﴿وإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمْ أَفَلَا يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يراني بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وآخره، وقد فاتته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد.

فجنة الفردوس تُزَلُّ وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل، وأكبر، وأعظم، من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمأكَل اللذيذة، والمشارب الشهيّة، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة.

وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم.

فلله تلك الضيافة، ما أجملها وأجملها، وأدومها، وأكملها!! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً، يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتها، تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب، آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت^(١) فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿تَخْلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لَا يَغْوَنَ عَنَّا حَوْلًا﴾ أي: تحولاً ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

(١٠٩) ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: قل لهم مخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: وأشجار الدنيا، من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام ﴿لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٥

سُورَةُ مَرْيَمَ

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ① ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِيئِي وَيَرْثُ مِنِّي آلَ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسَىٰ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنِ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪

تفسير سورة مريم

(وهي مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿كَهَيْعَصَ ١ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِيئِي وَيَرْثُ مِنِّي آلَ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسَىٰ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنِ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١﴾

١- كَهَيْعَصَ ٢- ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٣- إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ٤- قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٥- وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٦- يَرِيئِي وَيَرْثُ مِنِّي آلَ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٧- يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسَىٰ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٨- قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٩- قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنِ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ١٠- قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١١- فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: وهى وضُعت، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن، ضعف غيره.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت، ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبرُّي من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائبًا ولا محرومًا من الإجابة، بل لم تزل بي حفيًا ولدعائي مجيبًا، ولم تزل أطفائك تتوالى عليّ، وإحسانك واصلًا إليّ، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقًا، أن يتم إحسانه لاحقًا.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أي: وإنني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا أنه لم ير فيهم

أحدًا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصح، وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك.

وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة، أي: ليست تلد أصلًا، وأنه قد بلغ من الكبر عتيًا، أي: عمرًا يندر معه وجود الشهوة والولد ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ وهذه الولاية ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل.

ولهذا قال: ﴿يَرِيئِي وَيَرْثُ مِنِّي آلَ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: عبدًا صالحًا ترضاه، وتحبه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولدًا ذكرًا صالحًا يبقى بعد موته، ويكون وليًا من بعده، ويكون نبيا مرضيا عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن

(١) لعل الصواب أنها مكية، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٦

سُورَةُ مَرْيَمَ

يَجِيْ حُذِّ الْكِتٰبِ بِقُوَّةٍ اَنْتَنَّهُ الْحَكْمَ صَبِيًا ﴿١٢﴾
 وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَتْ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ
 يَكُنْ جَنَارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
 وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتٰبِ مَرْيَمَ اِذْ اُنْتَبَذَتْ
 مِنْ اَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
 فَأَرْسَلْنَا اِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ اِنِّي
 اَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ اِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ اِنَّمَا اَنَا رَسُوْلُ
 رَبِّكَ لَا هَبْ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ اَنْىَ يَكُوْنُ لِي
 غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ اَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ
 هُوَ عَلٰى هَيِّئٍ وَلِنَجْعَلَ اٰيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَتْ اَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾
 لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا وَيَحْيٰى، وَكَانَتْ مِنَ الْاٰيَاتِ الْعَجِيْبَةِ، اُنْقَلِ
 مِنْهَا اِلَى مَا هُوَ اَعْجَبُ مِنْهَا، تَدْرِیجًا مِنَ الْاَدْنٰى اِلَى الْاَعْلٰى
 فَقَالَ: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتٰبِ الْكَرِيْمَ﴾ الْكَرِيْمَ ﴿مَرْيَمَ﴾ عَلَيْهَا السَّلَامُ،
 وَهَذَا مِنْ اَعْظَمَ فَضَائِلِهَا، اَنْ تَذَكَرَ فِي الْكِتَابِ الْعَظِيْمِ، الَّذِي
 يَتْلُوهُ الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَارِقِ الْاَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، تَذَكَرَ فِيهِ
 بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَفْضَلِ الثَّنَاءِ، جَزَاءَ لِعَمَلِهَا الْفَاضِلِ، وَسَعِيهَا
 الْكَامِلِ، أَيْ: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ، فِي حَالِهَا الْحَسَنَةِ،
 حِينَ ﴿اُنْتَبَذَتْ﴾ أَيْ: تَبَاعَدَتْ عَنْ أَهْلِهَا ﴿مَكَانًا شَرِيًّا﴾ أَيْ:
 مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ عَنْهُمْ.

فلهذا قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾
 وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه
 الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن
 أهل دار السلام، فصولات الله وسلامه عليه، وعلى والده،
 وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.
 (١٦-٢١) ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتٰبِ مَرْيَمَ اِذْ اُنْتَبَذَتْ مِنْ اَهْلِهَا مَكَانًا
 شَرِيًّا﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا اِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ
 لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿قَالَتْ اِنِّي اَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ اِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ قَالَ
 اِنَّمَا اَنَا رَسُوْلُ رَبِّكَ لَا هَبْ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿قَالَتْ اَنْىَ يَكُوْنُ لِي
 غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ اَكُ بَغِيًّا﴾ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ
 عَلٰى هَيِّئٍ وَلِنَجْعَلَ اٰيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَتْ اَمْرًا مَّقْضِيًّا
 لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة، انقل
 منها إلى ما هو أعجب منها، تدریجًا من الأدنى إلى الأعلى
 فقال: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتٰبِ الْكَرِيْمَ﴾ الْكَرِيْمَ ﴿مَرْيَمَ﴾ عَلَيْهَا السَّلَامُ،
 وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي
 يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه
 بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها
 الكامل، أَيْ: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ، فِي حَالِهَا الْحَسَنَةِ،
 حِينَ ﴿اُنْتَبَذَتْ﴾ أَيْ: تَبَاعَدَتْ عَنْ أَهْلِهَا ﴿مَكَانًا شَرِيًّا﴾ أَيْ:
 مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ عَنْهُمْ.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَيْ: سِتْرًا وَمَانِعًا، وَهَذَا
 التباعدها منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها،
 وتقتن له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى،
 وذلك امتثال لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يٰمَرْيَمُ اِنَّ اِلٰهَكَ
 اَصْطَفٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفٰكِ عَلٰى نِسَاءِ الْعٰلَمِيْنَ﴾ يٰمَرْيَمُ اَفْتِي
 لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا اِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عليه السلام
 ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أَيْ: كَامِلًا مِنَ الرِّجَالِ، فِي صُورَةِ
 جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا
 تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي
 معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن
 أعز الناس عليها، وهم أهلها، خافت أن يكون رجلًا قد
 تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت
 منه فقالت له:

﴿اِنِّي اَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ﴾ أَيْ: اَلْتَجِئُ بِهِ وَأَعْتَصِمُ بِرَحْمَتِهِ،
 أَنْ تَتَالَنِي بِسُوءٍ، ﴿اِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أَيْ: اِنْ كُنْتَ تَخَافُ اِلٰهَكَ،
 وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام
 بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في

تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في
 ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها
 بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما
 يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه.

وهذه العفة - خصوصًا مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع
 - من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ
 اٰتَيْنَا عِمْرٰنَ الْكِتٰبَ اَحْصٰتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيْهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾، ﴿وَالَّتِي
 اَحْصٰتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيْهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا
 اٰيَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾.

فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله، ورسولًا من رسله،
 فلما رأى جبريل منها الروح والخيفة، قال: ﴿اِنَّمَا اَنَا رَسُوْلُ
 رَبِّكَ﴾ أَيْ: اِنَّمَا وَظِيفَتِي وَشَغْلِي تَنْفِذُ رِسَالَةِ رَبِّيْ فَيْكَ ﴿لَا هَبْ
 لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكاته، فإن
 الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال
 الحميدة، فتعجب من وجود الولد من غير أب فقالت: ﴿اَنْىَ
 يَكُوْنُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ اَكُ بَغِيًّا﴾ والولد لا يوجد إلا
 بذلك!!؟

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: سكوتاً ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام، لتستريح من قولهم وكلامهم، وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها.

فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوي، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً. ولهذا قال تعالى:

(٢٧-٣٣) ﴿فَأَنذَرْتُ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَّكَ جَنِينٌ شَيْئًا فَرِيًّا ○ يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ○ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ○ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ○ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ○ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ○ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ○ أَي: فلما تملت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك، لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١) حاشاها من ذلك.

﴿يَتَأَخَذُ هَرُونَ﴾ الظاهر أنه أخ لها حقيقي، فنسبها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾ أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وآتيت بما لم يأتيا به؟ وذلك أن الذرية - في الغالب - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها.

فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لأن ذلك لم تجربه عادة، ولا حصل من أحد في

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي، فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَهَا نِسَابًا﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله.

فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: ولنجعل رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة، وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفع جبريل عليه السلام في جيبها.

(٢٢-٢٦) ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ○ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ قَالَتْ إِلَيْنِي مَثْوً قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا ○ مَنِيًّا ○ فَادَّبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ○ وَهَرَزَتْ إِلَيْكَ يَمِينُ النَّخْلِ سَقَطَ عَلَيْكَ طَبْعًا جَنِيًّا ○ فَكَلَى وَأَشْرَى ○ وَفَرَى عَيْنًا فَإِنَّمَا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَمَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾، فلما قرب ولادها، ألبأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً، فلا تذكر.

وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداهما من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، فـ ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي: نهراً تشرين منه.

﴿وَهَرَزَتْ إِلَيْكَ يَمِينُ النَّخْلِ سَقَطَ عَلَيْكَ طَبْعًا جَنِيًّا﴾ أي: طرباً لذيذاً نافعاً ﴿فَكَلَى﴾ من التمر ﴿وَأَشْرَى﴾ من النهر ﴿وَفَرَى عَيْنًا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكول والمشرب الهنيء.

ذلك السن.

فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، فخطابهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى - في قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ومدعون موافقته.

﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من جماله لنفسه.

ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فانا ممثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها.

ووصاني أيضاً أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدته، لها حق الولادة وتوابعها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي: متكبراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿سَفِيًّا﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذلاً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني.

فلما تم له الكمال، ومحامد الخصال قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُعْثَبُ حَيًّا﴾ أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي - من الشر، والشیطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقاً.

(٣٦-٣٤) ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَعَلَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ○ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكَ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مرية، بل قول الحق، وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً، ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر البقيني عن

سورة مريم

٣٠٧

سورة مريم

فَكُلِّ وَأَشْرَى وَقَرَى عَيْنًا فَإِمَاتَتْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٣٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٣٧﴾ يَتَّخِذَ هُنَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ﴿٣٨﴾ فَأشارت إليه قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٣٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٤٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٤١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا ﴿٤٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٤٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٦﴾ فَأَخْلَفَ الْآخَرَاءُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٨﴾

عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع بطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً.

ف ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً؟! ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزهه وتقدس عن الولد والنقص ﴿إِذَا فَعَلَى أَمْرًا﴾ أي: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكيف يستبعد إيجاد عيسى من غير أب؟!.

ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مريبوب كغيره فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الذي خلقنا، وصورنا، ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

(٣٩، ٤٠) ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ○ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ○ الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه التهريب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد بسعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله واتبع رسله شقى شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجتته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟!

فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة وشملتهم السكره، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها سذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٤١-٥٠) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقًا نَبِيًّا﴾ ○ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِيَنِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ○ يَأْتِيَنِي إِلَى قَدِّ جَانِبِي مِنَ الْعَلِيِّ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ○ يَأْتِيَنِي لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ○ يَأْتِيَنِي إِني أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ○ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْ عَنِ الْهَيْتِ يَنْزِلُ رَيْهَمُ لَنْ تَنْتَهُ لَأَرْحَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ○ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّكَ كَانتَ فِي حَقِيْقَةٍ ○ وَأَعْرَضْنَا عَنْكَ وَمَا تَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيْقًا ○ فَلَمَّا أَعْرَضَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ○ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ○ أَجَلُ الْكِتَابِ وَأَفْضَلُهَا وَأَعْلَاهَا هَذَا الْكِتَابُ الْمُبِينُ، والذكر الحكيم، فإن ذُكِرَ فيه الأخيار، كانت أصدق الأخبار، وأحقها، وإن ذُكِرَ فيه الأمر والنهي، كانت أجل

(١) في ب: لا يسعد.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا، الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريق معتدل، موصل إلى الله، لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق الغي والضلال.

(٣٨، ٣٧) ﴿فَاتَّخَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ○ أَتَمَّعَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ○ لما بين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشْكُ فيها ولا يمتري، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم - اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غال فيه وجاف.

فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة، ومنهم من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنه ولد بئى كاليهود.

وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله، وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر.

﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات، وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأحوال المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أَتَمَّعَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم؟ فيقرون بكفرهم وشركهم، وأقوالهم ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَاتَّخَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، ولم يقل «فويل لهم» ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق فقالت في عيسى: «إنه عبد الله ورسوله» فأمنا

وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ بِهِمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ ثَرَاتُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَابَت إِلَيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَت لَآ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَت إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يُمَسِّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمْ فَلَمَّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَأَنزَلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهْبًا لَهُوَ اسْحَقْ وَيَعْقُوبُ وَلَا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾

من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شيء»، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علمًا، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك، ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة، وتتقاربا.

﴿يَتَابَت لَآ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فمن اتبع خطواته فقد اتخذه وليًا وكان عاصيًا لله بمتزلة الشيطان، وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال:

﴿يَتَابَت إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يُمَسِّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنزلة الذميمة، وترتع في مراتع الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه

الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزء، والوعد والوعيد، كان أصدق الأنبياء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرًا ما يديء ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبة، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية.

فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم، ومحبتهم، والافتداء بهم، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ.

وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه، مهما أمكنه.

وذكر الله مراجعته إياه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ مَهْجَنًا لَهُ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ﴾ ﴿يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، أي: لم تعبد أصنامًا ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها؟ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعبادها نفعًا ولا ضرًا، بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقيح عقلاً وشرعاً.

ودل بتبنيه وإشارته أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يَتَابَت إِلَيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيمًا معتدلاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا

أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراده
عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً
منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه:

﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ وَمَا يَحْذَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَكُلًّا مِنْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فَحَصَلَ لَهُ هَبَةٌ هَؤُلَاءِ
الصالحين^(٣) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه،
واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ أي: لإبراهيم وابنيه ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وهذا يشمل
جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة،
والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر
فيهم الأنبياء والصالحون.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي
وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقاً
بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء
الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً
الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب،
وفاضت به الألسنة فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين،
ولا تزال أذكارهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٥١-٥٣) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا
نَبِيًّا ۝ وَنَذَرْنَاهُ فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ
رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى
ابن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه
الكريم، وأخلاقه الكاملة.

﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله
تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين، وقرئ
بكسرهما، على معنى أنه مخلص لله تعالى في جميع أعماله
وأقواله ونياته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله،
والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه
موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص
منه والاستخلاص من ربه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة،
فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به
من الشرع، دقة وجله، والنبوة تقتضي إحياء الله إليه
وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة
بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي بأجل أنواعه

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: من رتبة إلى رتبة. (٣) في ب:
فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك
إياي وأنت إن أطعني اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن
عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب
الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم
ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال:

﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَكْفُرُ بِهِمْ﴾ فَتَبَجَّحَ بِآلِهَتِهِ [التي
هي] من الحجر والأصنام، ولأم إبراهيم عن رغبته عنها،
وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة
الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله
﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: قتلاً بالحجارة ﴿وَأَهْجُرَنِي ميلاً﴾ أي: لا
تكلمني زمناً طويلاً.

فأجابه الخليل، جواب عباد الرحمن عند خطاب
الجاهلين، ولم يشتمه بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره،
وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ أي: ستسلم من خطايي إياك بالشم
والسب، وبما تكره.

﴿سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّكَ﴾ أي: لا أزال أدعو
الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذي تحصل به
المغفرة.

فـ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّكَ﴾ أي: رحيماً رؤوفاً بحالي، معتنياً
بي، فلم يزل يستغفر الله له، رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له
أنه عدو الله وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ
منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته سلوك
طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة، واللين
والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة^(٢)، والصبر على
ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى
الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل
بالإحسان القول والفعل.

فلما أيس من قومه وأبيه قال: ﴿وَأَعِزَّلَكُمْ وَمَا نَدَعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أنتم وأصنامكم ﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾ وهذا شامل
لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي سَاقِيًّا﴾
أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي،
وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، - فاتبعوا أهواءهم، فلم
تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون - أن
يشغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر
وأهله.

ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من

وَأَفْضَلُهَا، وَهُوَ تَكْلِيمُهُ تَعَالَى وَتَقْرِيبُهُ مَنَاجِيًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَبِهَذَا اخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّهُ كَلَّمَ الرَّحْمَنَ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أَي: الْأَيْمَنِ مِنْ مُوسَى فِي وَقْتِ مَسِيرِهِ، أَوْ الْأَيْمَنِ أَي: الْأَبْرَكِ مِنْ «الْيُمَيْنِ» وَالْبَرَكَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ يَرْكَبَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أَي: رَفَعَ اللَّهُ ذَكَرَهُ فِي الْعَالَمِينَ، وَمَنْزَلَهُ بَيْنَ الْمُقَرَّبِينَ، فَكَانَ عَلِيًّا الذِّكْرَ، عَلِيًّا الْمَنْزِلَةَ.

(٥٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا نُكِّلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ لَمَّا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ الْمَكْرُمِينَ، وَخَوَاصَّ الْمُرْسَلِينَ، وَذَكَرَ فَضَائِلَهُمْ وَمَرَاتِبَهُمْ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أَي: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً لَا تُلْحَقُ، وَمِنْهُ لَا تَسْبِقُ، مِنَ النَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَمَرْنَا أَنْ نَدْعُو أَنْ يُهْدِينَا صِرَاطَ الَّذِينَ [أَنْعَمَ] (٥٩) عَلَيْهِمْ، وَأَنْ مِنْ أَطَاعَ اللَّهَ كَانَ ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الْآيَةِ، وَأَنْ بَعْضَهُمْ ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أَي: مِنْ ذُرِّيَتِهِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ﴾ فَهَذِهِ خَيْرُ بِيُوتِ الْعَالَمِ، أَصْطَفَاهُمْ اللَّهُ، وَاخْتَارَهُمْ، وَاجْتَبَاهُمْ، وَكَانَ حَالُهُمْ عِنْدَ تِلَاوَةِ آيَاتِ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِمْ، الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْإِخْبَارِ بِالْغُيُوبِ وَصِفَاتِ عِلَامِ الْغُيُوبِ، وَالْإِخْبَارِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ.

﴿خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أَي: خَضَعُوا لآيَاتِ اللَّهِ، وَخَشَعُوا لَهَا، وَاثَّرَتْ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، مَا أَوْجَبَ لَهُمُ الْبُكَاءَ وَالْإِنَابَةَ، وَالسُّجُودَ لِرَبِّهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ اللَّهِ خَرُوا عَلَيْهَا صَمًّا وَعُمِيَانًا. وَفِي إِضَافَةِ الْآيَاتِ إِلَى اسْمِهِ ﴿الْجَبَّارِ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ آيَاتِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بَعْدَادِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ حَيْثُ هَدَاهُمْ بِهَا إِلَى الْحَقِّ، وَبَصَرَهُمْ مِنَ الْعَمَى، وَأَتَقَدَّمُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَعَلِمَهُمْ مِنَ الْجَهَالَةِ.

(٥٩-٦٣) ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝ جَنَّتٌ عَدْنٌ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا غَافِلِينَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ مَثْوًى ۝ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ، الْمُخْلِصُونَ (٥٩) الْمُتَبَعُونَ لِمُرَاضِي

﴿وَرَفَعْنَاهُ نَجَاجًا﴾ وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّدَاءِ وَالنَّجَاءِ، أَنَّ النَّدَاءَ هُوَ الصَّوْتُ الرَّفِيعُ، وَالنَّجَاءُ مَا دُونَ ذَلِكَ، وَفِي هَذَا إِبْثَاتُ الْكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَنْوَاعُهُ مِنَ النَّدَاءِ وَالنَّجَاءِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ، مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، وَالْمُعْتَزَلَةِ، وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ.

وقوله: ﴿وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ فَضَائِلِ مُوسَى وَإِحْسَانِهِ، وَنَصَحِهِ لِأَخِيهِ هَارُونَ، أَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُشْرَكَ فِي أَمْرِهِ، وَأَنْ يُجْعَلَ رَسُولًا مِثْلَهُ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ وَهَبَ لَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا. فَنبوة هَارُونَ تَابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فَسَاعَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ. (٥٤، ٥٥) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أَي: وَاذْكُرْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هَذَا النَّبِيَّ الْعَظِيمَ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ الشَّعْبُ الْعَرَبِيُّ، أَفْضَلَ الشُّعُوبِ وَأَجْلَهَا، الَّذِينَ مِنْهُمْ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أَي: لَا يَعْدُ وَعْدًا إِلَّا وَفَى بِهِ، وَهَذَا شَامِلٌ لِلْوَعْدِ الَّذِي يَعْقِدُهُ مَعَ اللَّهِ أَوْ مَعَ الْعِبَادِ وَلِهَذَا لَمَّا وَعَدَ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ عَلَى ذُبْحِ أَبِيهِ [لَهُ] (٦١) وَقَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وَفَى بِذَلِكَ وَمَكَّنَ أَبَاهُ مِنَ الذَّبْحِ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مَصِيبَةٍ تُصِيبُ الْإِنْسَانَ، ثُمَّ وَصَفَهُ بِالرَّسَالَةِ وَالنبوة التي [هي] أَكْبَرُ مِنْ اللَّهِ عَلَى عِبْدِهِ، وَأَهْلُهَا (٦٢) مِنَ الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْخَلْقِ. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أَي: كَانَ مُقِيمًا لِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى أَهْلِهِ فَيَأْمُرُهُمُ بِالصَّلَاةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْإِحْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ، وَبِالزَّكَاةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْإِحْسَانِ إِلَى الْعَبِيدِ، فَكَمَلَ نَفْسَهُ، وَكَمَلَ غَيْرَهُ، وَخُصُوصًا أَخَصَّ النَّاسَ عِنْدَهُ وَهُمْ أَهْلُهُ لِأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِدَعْوَتِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وَذَلِكَ بِسَبَبِ امْتِثَالِهِ لِمُرَاضِي رَبِّهِ وَاجْتِهَادِهِ فِيمَا يَرْضِيهِ، ارْتِضَاءَهُ اللَّهُ وَجَعَلَهُ مِنْ خَوَاصِّ عِبَادِهِ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُقَرَّبِينَ، فَرضي الله عنه، وَرضي [هو] عَنْ رَبِّهِ.

(٥٦، ٥٧) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أَي: أَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ (٦٣) عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ، وَالْوَصْفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ﴿إِدْرِيسَ﴾ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: وجعله. (٣) في ب: في الكتاب. (٤) في الأصل (أنعمت عليهم) ولعل الصواب ما أثبت. (٥) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع في النعت، فلما نص الشيخ - رحمه الله - على ذلك أبقيتها كما هي.

الْباقية

٣٠٩

سورة مريم

وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًا ﴿٥٩﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٩﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٩﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٩﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٥٩﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذْ أَنْتَنَّا عَلَيْهِمُ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٥٨﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٥٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ بَاطِنٌ ﴿٥٨﴾ وَعِشْيَا ﴿٥٨﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٥٨﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٥٨﴾

ربهم، المنيون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدّلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهانون بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله فنشأ من ذلك التضييع لحقوقة، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصولها، وعلى أي وجه اتفقت تناولوها ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها ﴿وَأَمَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة موفرة أجورها، مضاعفًا عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي ﴿جَنَّاتٌ عِدْنٌ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: التي وعدوا الرحمن، أضافها إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وسماها تعالى رحمته فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْصَرَتْ وُجُوهُهُمُ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأيضًا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجبها.

والعباد في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتمزوا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم كقوله: ﴿وَبِعَذَابِ الرَّحْمَنِ﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيدًا لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، وديرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية

الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا لم يشاهدوه ولم يروه، فأمنوا بها، وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيًا مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع، ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه.

فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًا، وأجل شوقًا، ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدوا الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمعاني كلها

الجميلة، أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك، ولا يهملك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه.

ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملة، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سُدِّي، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك، ويعود عليك طائله، وهو عبادته وحده، لا شريك له.

﴿وَاصْطَلِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: اصبر نفسك عليها، وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعباد عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْ بِهِ ۖ ذُرِّجَتْ لَهُمْ زَهْرَةً لَخَيَورِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهَا﴾ إلى أن قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَلِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم الله مسامياً، ومشابهاً، ومماثلاً من المخلوقين، وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده، بالعظمة، والأسماء الحسنى.

(٦٧، ٦٦) ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرُجَ حَيًّا ۖ وَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ المراد بالإنسان هنا كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستهتماً على وجه النفي والعناد والكفر - ﴿إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرُجَ حَيًّا﴾ أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا!!! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد، ومقصده السيء، وعناده لرسول الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن

صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ رَعِيًّا مَّيَّاتًا﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلاماً لاغياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً مكدرًا.

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور، والملائكة، والولدان، والنعيمات المطربة، والألغاز الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أرزاقهم من المأكول والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ليُعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَرَكَةٌ فِي خَلْقِهَا﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبعون عنه جوازاً كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(٦٥، ٦٤) ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ آيَاتِنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا ۖ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَلِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو تأتينا أكثر مما تأتينا، تشوقاً إليه، وتوحشاً لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله.

فأنزل الله تعالى على لسان جبريل ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدئنا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فنحن عبيد مأمورون.

﴿لَمْ يَكُنْ آيَاتِنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين، هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾ أي: لم يكن الله لينسأك ويهملك، كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ بل لم يزل معتنياً بأمورك، مجرباً لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدبيره

الْباقِي

٣١٠

سُورَةُ مَرْيَمَ

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِيتَ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ حَاشِدٌ عَلَى الرَّحْنِ عِثًّا ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٢٢﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٢٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٢٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَآيُوعِدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٢٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاحُ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٢٦﴾

شيئًا مذكورًا، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾.

وفي قوله: ﴿أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ دعوة للنظر بالدليل العقلي، بالطف خطاب، وإن إنكار من أنكر ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

(٦٨-٧٠) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ثم لننزعن من كل شيعَةٍ أَنتَ حَاشِدٌ عَلَى الرَّحْنِ عِثًّا ○ ثم لنحن أعلم بالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ حَاشِدٌ عَلَى الرَّحْنِ عِثًّا﴾ أي: ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر، والعُتُو، أشدهم عتوًا، وأعظمهم ظلمًا، وأكبرهم كفرًا، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب الأغلب إثمًا فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضًا، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَافَيْنَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ○ وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع ولهذا قال:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا﴾ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صليًا بالنار، قد علمناهم وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

(٧١، ٧٢) ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ○ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار، حكمًا حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورد فقليل: ورودها، حضورها للخلاق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعدُ، ينجي الله المتقين، وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، وقيل: الورد هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد

الخيال، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كُلٌّ بحسب تقواه، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتباب المحذور ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم ^(١) الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

(٧٣، ٧٤) ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ○ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ أي: وإذا نتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله، وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان، وشدة الإيقان - قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤا بها وبمن آمن بها واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين فقالوا معارضين للحق:

(١) كذا في ب، وفي أ: له.

منه وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً آخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَرِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، ﴿وَإِذَا ثَلِثْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُمُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية.

فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي: خير عند الله ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه، فإنه ما تم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه، ولا ينجع.

ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات، - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة، ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

(٧٧-٨٠) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ أَلَطَعُ الْعَيْبَ أَمْ أَتَعَدُّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَنصُرُكَ لَمْ مِّنَ الْعَذَابِ مَذًا ۖ وَنُرِيهِمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالا وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين، فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة. قال الله توبيخاً له وتكديماً: ﴿أَلَطَعُ الْعَيْبَ﴾ أي: أحاط علمه بالغيب حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولداً؟.

﴿أَمْ أَتَعَدُّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه متقول، قائل ما لا علم له به، وهذا التقسيم والترديد في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة، فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا

﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلساً: أي: فاستتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديهم مزخرفة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثيلاً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثناً ورثيلاً، ولم يمنعه ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء وهم أقل منهم وأذل، معتمصين من العذاب ﴿أَكْفَرُ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَكَاتٌ فِي الْغَيْبِ؟﴾ وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا، من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

(٧٥) ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ۖ إِذَا رَأَوْا مَاءً يُوْعَدُونَ ۖ إِنَّمَا الْعَذَابُ وَلِئَالِ السَّعَةِ ۖ فَسِعِلْمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها، فإن الله يمدده منها، ويزيده فيها حباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿كَلَّا رَاغُوا أَزْوَاجًا ۖ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿وَنَقَلِبُ أَفْسَدَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿حَقٌّ إِذَا رَأَوْا﴾ أي: القائلون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، ﴿مَا يُوْعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ﴾ بقتل أو غيره ﴿وَلِئَالِ السَّعَةِ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فَسِعِلْمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر.

﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

(٧٦) ﴿وَنُزِذَ اللَّهُ الَّذِينَ أَهْتَدَوْا هُدًى وَالَّذِينَ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان، والعمل الصالح، زاده الله

يخلو:

إما أن يكون قوله صادرًا عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا الله وحده، فلا أحد يعلم شيئًا من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذًا عهدًا عند الله بالإيمان به واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون، فإذا انتفى هذان الأمران علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى:

﴿كَلَّا أَي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهدًا، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال.

﴿وَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نرثه ماله وولده، فيقتل من الدنيا فردًا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار، ولا أعوان ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

(٨٣، ٨٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ فَلَا تَجْعَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزًّا، وترعجهم إلى الكفر إزعاجًا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم، ويتشربها فيسعى فيه سعي المحق في حقه فينصره بجده، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل.

وهذا كله جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطان. وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُم سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَلَا تَجْعَلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: أن لهم أيامًا معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نهملهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز

أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَوْ وُلِدْتُ ۖ ﴿٧٧﴾ أَلَطَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ ﴿٧٩﴾ وَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۖ ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۖ ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ فَلَا تَجْعَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۖ ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۖ ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۖ ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۖ ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۖ ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۖ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۖ ﴿٩٥﴾

مقدر.

(٨٥-٨٧) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۖ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين، المتقين والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفودًا إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظن بالوافد [إليه] (٩١)، ما هو معلوم.

فالمتقون يقدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته، وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على السنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم وردًا، أي:

أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية.

﴿وَكُلُّهُمْ عِندَهُ بِإِمَامَةٍ قَدْرًا﴾ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله، ويوفيه حسابه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

(٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم وداً أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ودٌ تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «إن الله إذا أحب عبداً، نادى جبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض». وإنما جعل الله لهم وداً، لأنهم^(١) ودوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه.

(٩٧، ٩٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئَشِيرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَزِّلُ بِهِ قَوْلًا لَّدَا ۖ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْرًا﴾ يخبر تعالى عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه، والانتفاع به.

﴿لِئَشِيرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة.

﴿وَنُنَزِّلُ بِهِ قَوْلًا لَّدَا﴾ أي: شديدين في باطلهم أقوياء في كفرهم، فتذهرهم، فتقوم عليهم الحجة وتبين لهم المحجة فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾ من قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم، أهلكهم الله فليس لهم من باقية.

﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْرًا﴾ والركز: الصوت الخفي، أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسمارهم عظة للمتعتظين.

تم تفسير سورة مريم، والله الحمد والشكر.

عطاشاً، وهذا أشنع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم، يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال:

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعاة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهداً فأمن به وبرسله، واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وسمى الله الإيمان به، واتباع رسله عهداً، لأنه عهد في كتبه وعلى السنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم

(٨٨-٩٥) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۖ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۖ إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عِندَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۖ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ بِإِمَامَةٍ قَدْرًا﴾ وهذا تقييح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولداً كقول النصارى: «المسيح ابن الله» واليهود: «عزير ابن الله» والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: عظيماً وخيماً.

من عظيم أمره أنه ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي: من هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ منه، أي: تنصدع وتنفطر ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: تنلك الجبال.

﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر، والحال أنه: ﴿مَا يَنْبَغِي﴾ أي: لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضاً من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي.

﴿إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عِندَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ أي: ذليلاً متقاداً، غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع ممالك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمته ملكه!!

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم وأحصى

تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَنْزِيلًا وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝ ﴿طه﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتوح بها كثير من السور، وليست اسمًا للنبي ﷺ.

﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصولًا للسعادة، والفلاح، والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فقلته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه، من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال:

﴿إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التي كانت مستقرًا في عقله حسنًا مجملًا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله ﴿نَذْكُرُهُ﴾.

والتذكرة لشيء كان موجودًا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى ۝ وَيَجْنِبُهَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلُ أَتَارَ الْكُفْرِ﴾.

ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدبر لجميع المخلوقات، أي: فاقبلوا تنزيله، بغاية الإذعان، والمحبة، والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم.

وكثيرًا ما يقرن بين الخلق والأمر كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣١٢
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿١٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمُ
مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿١٨﴾
سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكُرُهُ
لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا
فَقَالَ لَهَا هِلْ أَمْكُونِ إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجْدُعُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿١١﴾
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ عَنْكَ إِنَّا كِ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمِنْهُنَّ يُنَزِّلُ الْأَمْثَرَ بَيْنَهُنَّ ﴿١٣﴾ وذلك أنه الخالق
الآمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق
إلزام، ولا أمر، ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضًا فإن خلقه
للخلق، فيه التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي
الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئًا
عبثًا، فكذا لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل، وحكمة،
وإحسان.

فلما بين أنه الخالق المدبر الأمر الناهي أخبر عن عظمته
وكبريائه، فقال:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها
وأوسعها ﴿أَسْتَوَى﴾ استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته
وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من مَلِكٍ وإنسي
وجني، وحيوان، وجماد، ونبات.

﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي: الأرض، فالجميع ملك لله تعالى،
عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من
الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا

الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله.

﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ أي: النار التي أنسها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها أي: ناداه الله كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَرَفَيْنَاهُ نَجَاتًا﴾.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد وتبها لمناجاته ويهتم لذلك، ويلقي نعليه لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أن الله اختاره لمناجاته كلمته موسى لكفى.

وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار» والله أعلم بذلك.

(١٣) ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَأَسْتَبِيعْ لِمَا يُوحَى﴾ أي: ألق سمعك للذي أوحى إليك فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبداه، وعماد الدعوة الإسلامية.

(١٤) ثم بين الذي يوحى إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله الذي لا شريك له، ولا مثل، ولا كفو، ولا سمي.

﴿فَاعْبُدْنِي﴾ بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب، واللسان، والجوارح.

وقوله: ﴿لَذِكْرِي﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِئَلَّا تُصَلِّتَ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

(١٥) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله

ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وَلِنْ نَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ الكلام الخفي ﴿وَأَخْفَى﴾ من السر الذي في القلب، ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم يخطر، يعلم تعالى أنه يخطر في وقته، وعلى صفته.

المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسرته، فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رحمته، وسعة عظمته، وعلمه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلة، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسننها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسننها أنها أعلماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها، وأعمها، وأجلها، ومن حسننها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

(١٢-٩) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَتَلِيلٍ أَمْكُتُوا إِنِّي نَأْسَتْ نَارًا لَعَلِّي ءَالِيكُمْ مِنْهَا يَقْبَظُونَ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هَذَى ۖ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ بِمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوته، أنه رأى نارا من بعيد، وكان قد ضل الطريق وأصابه البرد ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره.

﴿فَقَالَ لِأَتَلِيلٍ أَمْكُتُوا إِنِّي نَأْسَتْ﴾ أي: أبصرت ﴿نَارًا﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن.

﴿لَعَلِّي ءَالِيكُمْ مِنْهَا يَقْبَظُونَ﴾ تصطلون به ﴿أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هَذَى﴾ أي: من يهديني الطريق، وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثمَّ النور المعنوي، نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية

﴿وَلِصَنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ ولتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى.

ومن حسن تدبيره أن موسى لما وقع في يد عدوه، فقلت أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تخبر به لولا أن الله ثبتها، وربط على قلبها.

ففي هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون ماله إلى أمه فترضعه ويكون عندها مطمئنة ساكنة قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ يَصِحُّوا﴾.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وفلنت نفساً وهو القبطي، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها وجد رجلين يقتتلان، واحد من شعبة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿تَأْتِيَنَّكَ أَلْفَىٰ مِنْ شَيْعُوهُ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هارباً لما سمع أن الملائكة يطلبوه يريدون قتله.

فنجاه الله ﴿مِنَ الْعَمَلِ﴾ من عقوبة الذنب، ومن القتل ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك، أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

﴿فَلَبَّتْ سَنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين فر هارباً من فرعون وملئه، حين أرادوا قتله. فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوتُونَ﴾ أي: جئت مجيئاً قد مضى به القدر، وعلمه الله وأرادته في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام، ولهذا قال:

﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي، لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم.

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبدل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك

بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد، والتكبر، والطغيان^(١)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد ويقتضيه.

بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقييح الباطل وتهجينه، لينفر عنه.

ويحتاج مع ذلك أيضاً، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلاً بحسب حاله، وتماثل ذلك أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور، فأعطيه.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

(٣٧-٤١) ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۖ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَنْ أُنْزِلَ فِيهِ مِنَ الْتَابُوتِ فَأَقْصِبْ فِيهِ مِنَ الْبَرِّ فَلْيَقْصِبْهُ الْيَمُّ وَالسَّاحِلُ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّكَ وَالْقَلْبُ عَلَىٰكَ حَبَّةٌ مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلِصَنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۖ إِذْ تَشَبَّهْتُ أَهْلَكَ فَقَوْلُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۖ وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبَّتْ سَنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوتُونَ ۖ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾

لما ذكر منته على عبده ورسوله موسى بن عمران، في الدين والوحي والرسالة وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه وقت التربية والتنقلات في أطواره فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقدفك في التابوت وقت الرضاع خوفاً من فرعون، لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه وخافت عليه خوفاً شديداً فقدفته في التابوت، ثم قدفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم أن يلقى في الساحل وقبض أن يأخذه أعدى الأعداء لله وللموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه.

ولهذا قال: ﴿وَالْقَلْبُ عَلَىٰكَ حَبَّةٌ مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ فكل من رآه أحبه

(١) كذا في ب، وفي أ: عناد وتكبر وطغيان.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣١٤

الْقُرْآنِ

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَائُونَةٍ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِي فِي النَّارِ تَابُوتَ فَأَقْذِفِيهِ
فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ. وَالْقَيْتُ
عَلَيْكَ حَبِيبَةً مِّنِي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
فَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ. فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ. وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكْنَا فُتُونًا
فَلَمَسْتَ سَيْنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ﴿٤٠﴾
وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِأَيْتِي وَلَا نُبَيِّنَا
فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا
أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾
فَأَنبَأْنَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَلَا نُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ
أَهْلُكِ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مَعْمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أَرَادَهُ
لنفسه، واصطفاه من خلقه؟! ﴿٤٢-٤٦﴾

﴿٤٦-٤٢﴾ ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِأَيْتِي وَلَا نُبَيِّنَا فِي ذِكْرِي
أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ
قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ۖ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي
مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به من
النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون
﴿بِأَيْتِي﴾ أي: الآيات التي مني الدالة على الحق وحسنه،
وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى
فِرْعَوْنَ وملئه.

﴿وَلَا نُبَيِّنَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة
ذكري بل استمرا عليه، والزماء كما وعدتما بذلك ﴿كَي سَمِعَكَ
كَبِيرًا ۖ وَتَذَكَّرَكَ كَبِيرًا﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع
الأمور، يسهلها ويخفف حملها.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: جاوز الحد في كفره
وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي: سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في
اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو
فظة في الأفعال.

﴿لَّعَلَّهُ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه ﴿أَوْ
يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول
الغلظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿نَقُلْ
هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ فإن في هذا الكلام
من لطف القول، وسهولته، وعدم بشاعته، ما لا يخفى على
المتأمل، فإنه أتى بـ«هل» الدالة على العرض والمشاورة التي
لا يشتمل منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس
التي أصلها التطهر عن الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم،
ولم يقل: «أزكيك» بل قال: «تزكي» أنت بنفسك.

ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه، وأنعم عليه بالنعم
الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها، وذكرها
فقال: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين
الذي يأخذ حسنه بالقلوب، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه
الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة
والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿أَوْ أَنْ
يَطْغَىٰ﴾ أي: يتمرد عن الحق ويطغى بملكه، وسلطانه،
وجنده، وأعوانه.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾ أن يقرط عليكما ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ

وَأَرَىٰ﴾ أي: أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكما، وأرى
جميع أحوالكما، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما،
واطمأنت قلوبهما بوعده بهما.

﴿٤٨، ٤٧﴾ ﴿فَأَنبَأْنَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَلَا نُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْلُكِ ۖ
إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: فأنبأه
بهدذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب
الشريف، بني إسرائيل، من قيده وتعبه لهم، ليتحرروا
ويملكوا أمرهم، ويقم فيهم موسى شرع الله ودينه.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ تدل على صدقتنا ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
تُغَابِئُ مُيَسَّرًا ۖ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ إلى آخر ما ذكر
الله عنهما.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْلُكِ﴾ أي: من اتبع الصراط
المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في
الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ أي: خبر من عند الله، لا من عند
أنفسنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بأخبار الله

كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناها، قد تحققت صدقها وبقيتها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدها مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للزدرع وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها ممتعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وَسَلَّكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: أنزل المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأثبت بذلك جميع أصناف النوبات على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان.

ولهذا قال: ﴿كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوبات الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضرًا، كالسموم ونحوه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله، وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المتنفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة

وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم ينفذ فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر، وجادل في ذلك ظلمًا وعنادًا.

(٤٩-٥٥) ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۚ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۚ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصُلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۚ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۚ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۚ مِنهَا خَلَقْتُمْ وَفِيهَا تُعِيدُكُمْ وَمِنهَا تُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۚ أَيْ: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة^(١) المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن^(٢) به من ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، فالذي خلق المخلوقات، وأعطاهما خلقها الحسن الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك.

ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة وحاد عن المقصود، فقال لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾، أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟.

فقال موسى: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصُلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علمًا وخبرًا فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن

(١) في ب: الكاملة. (٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

على حقائقها، ما لا يحصل في غيره.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ رَبِّكَ فَجَعَلَٰ كَيْدَهُ﴾ أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فجعل خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ﴾ ٥٦ لَقَدْ نَبَّأَ السَّحَرَةُ إِنَّ كَاؤُهُمُ الْغَلِيلِينَ ٥٧.

فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظمهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿وَيَلَكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَرَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: لا تتصوروا ما أنتم عليه من الباطل بسحرهم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراءكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله.

وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفاع الخصام والنزاع بين السحرة، لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾، فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم.

والنجوى التي أسروها فسرّها بقوله: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ بُرْدَانِ أَنْ يُخْرَجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالة التي صمم عليها، وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَيْكَ الْغُلِّيَيْنِ﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم الذي أشغلتكم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض، على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا:

﴿فَاتَّخِذُوا كَيْدَهُمْ﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة، متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم.

البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسادهم معرضة ﴿وَكَايْنِ مِن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها ياذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع - أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك، وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليان على الإعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

(٥٦-٦١) ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥ قَالَ أَجِئْنَا بِسَحَابٍ مِّنْ أَرْضٍ يَسْحَرُ بِمَوْسَىٰ ٥ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ٥ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ٥ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ٥ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ رَبِّكَ فَجَعَلَٰ كَيْدَهُ ثُمَّ آتَىٰ ٥ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَرَكُم بِعَذَابٍ ٥ وَقَدْ خَابَ مَن أَفْتَرَىٰ ٥ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العيانة، والأفنية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى.

كذب الخير، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل، ليضل الناس فقال: ﴿أَجِئْنَا بِسَحَابٍ مِّنْ أَرْضٍ يَسْحَرُ بِمَوْسَىٰ ٥ زَعَمَ أَن هَٰذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي أَرَاهُ إِيَّاهَا مَوْسَىٰ، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعضوه، ويسعوا في محاربتة، فلنأتيتك بسحرٍ مثل سحرِك فأهملنا، واجعل لنا ﴿مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً ليتمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو عيدهم، الذي يفرغون فيه ويقطعون شواغلهم.

﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه، يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٥

سُورَةُ طه

قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ إِلَى رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٦﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٧﴾ كُلُوا
 وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولِيَ النَّهْيِ ﴿٥٨﴾ وَمِنْهَا
 خَلَقْنَاكُمْ وَمِفْهَامَ نَعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٦٠﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
 مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَمْوَسَى ﴿٦١﴾ فَلَنَأَيُّتَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ
 فَأَجْعَلَ يَنْتَنَا وَبَيْنَكُمْ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
 سَوِيًّا ﴿٦٢﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى
 ﴿٦٣﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٤﴾ قَالَ لَهُمُ
 مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ
 وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرِي ﴿٦٥﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا
 النَّجْوَى ﴿٦٦﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ
 مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٧﴾ فَأَجْمَعُوا
 كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٨﴾

المكر منه، وظنوه صدقا ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من مدين وحيدا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم، فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر والمثولة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص، وكادوا أشد الكيد، على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبوا هم وموسى، واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال.

ثم توعد فرعون السحرة فقال: ﴿فَلَا تُطِيعُوا أَمْرَكُمْ وَأَرْجِلُكُمْ مِنْ خَلْفِي﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد، بقطع يده اليمنى، ورجله اليسرى.

﴿وَلَا صَبْرَ لَكُمْ فِي جُدُوعِ الْخَلِّ﴾ أي: لأجل أن تشتهروا وتختزوا.

﴿ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفاتر، فهذا يوم له ما بعده من الأيام.

فله درهم ما أصلبهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب، ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا أَنْ تُلْقَىٰ عَصَاكَ﴾ وإِنَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ خيروه، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه، بأي حالة كانت.

فقال لهم موسى: ﴿بَلِ الْآلُفَا﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمُ﴾ البليغ ﴿أَنَّهُ تَشَىٰ﴾ أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك ﴿أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره.

﴿قُلْنَا﴾ له تشيئا وتطمينا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويدلوا لك ويخضعوا. ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِهِ﴾ أي: عصاك ﴿فَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمثمر لهم، ولا ناجح فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق، فألقى موسى عصاه، فتلقت ما صنعوا كله، وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع.

فعلم السحرة علما يقينا، أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْغَالِبِينَ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم.

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين، وحجة على المعاندين فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿هَاسِتُمْ لَمْ يَلَّ قَبْلَ أَنْ نَأْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟.

استغرب ذلك منهم، لأدبهم معه، وذللهم، وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك، ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تما لا هو والسحرة، ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا

سورة طه

٣١٦

سورة طه

قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۖ قَالَ
بَلْ أَلْقَوْتُ إِذَا جِئْتُهُمْ وَعَصَيْتُهُمْ بِخَلْقِ إِلَهِهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ اسْتَسْقَى
﴿٦٦﴾ فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ۖ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ۖ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا
قَالُوا أَمْ تَأْتِي بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ۖ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَمْ أَنْتُمْ قُلْتُمْ أَنَّهُ أَذَنُ
لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكِيدُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَا تُطْعَمُ أَيْدِيكُمْ
وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَبَتْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ
أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۖ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ
الْأَلْبَنَةِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ
الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ۖ ﴿٧٢﴾ إِنَّا أَمْثَرُ رَبَّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُمْ مِنْ بَآئِ رِبِّهِمْ بَخْرِمًا
فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۖ ﴿٧٦﴾

فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والعجزم بوقوعه
أو عدمه يتوقف على الدليل، والله أعلم بذلك وغيره، ولكن
توعده إياهم بذلك مع اقتداره دليل على وقوعه، ولأنه لو لم
يقع لذكره الله، ولاتفاق الناقلين على ذلك.

(٧٦-٧٤) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ بَآئِ رِبِّهِمْ بَخْرِمًا فَإِنْ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَىٰ ۖ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
الْعُلَىٰ ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
تَزَكَّى﴾ يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه مجرمًا - أي: وصفه
الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر على ذلك
حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة
أغلالها، البعيد قعرها، الألم حرها وقرها، التي فيها من
العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب
فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة
يتلذذ بها، وإنما حياته، محشوة بعذاب القلب، والروح،
والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا
يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن

﴿وَلِنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه
أشد عذابًا من الله وأبقى، قلبًا للحقائق، وترهيبًا لمن لا عقل
له.

ولهذا لما عرف السحرة الحق، ورزقهم الله من العقل ما
يدركون به الحقائق، أجابوه بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا
مِنَ الْآلِبَتِ﴾ أي: لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر
والتقريب، على ما أرانا الله من الآيات البينات الدالات على
أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن
ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون
﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به، من القطع، والصلب،
والعذاب.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما توعدنا به غاية ما
يكون في هذه الحياة الدنيا، يتقضي ويزول ولا يضرنا،
بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره، فإنه دائم عظيم.
وهذا كأنه جواب منهم لقوله: ﴿وَلِنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى﴾ وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل
أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا
وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّا أَمْثَرُ رَبَّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أي: كفرنا ومعاصينا، فإن
الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها.

وقولهم: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ الذي عارضنا به
الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم،
وإنما أكرههم فرعون إكراهًا.

والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم كما تقدم في
قوله: ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أثر
معهم، ووقع منهم موقعًا كبيرًا، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام
والموعظة، ثم إن فرعون ألزهمهم ذلك، وأكرههم على المكر
الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم، حيث
قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَّجِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ
بِسِحْرِهِمَا﴾ فجروا على ما سئلهم، وأكرههم عليه.

ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم، من كراهتهم
لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض،
هي التي أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها، ووقفهم للإيمان
والتوبة ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ مما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه
﴿وَأَبْقَى﴾ ثوابًا وإحسانًا، لا ما يقول فرعون: ﴿وَلِنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ
عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ يريد أنه أشد عذابًا وأبقى، وجميع ما أتى من
قصص موسى مع فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة
السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب، ولم يذكر أنه

الْبَحْرِ

٣١٧

الْبَحْرِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا
 فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
 بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ
 وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَغْنَيْتُكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنٰكَ
 جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَزْنَا عَلَىٰكُمْ أَلْمَنَ وَالسَّالَوٰى ﴿٨٠﴾ كُلُوا
 مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
 وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
 وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَك عَنْ
 قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
 رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
 السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ
 يَنْقُومُ أَلْمُ بَعْدَكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَ أَحْسَنَ أَطْفَالٍ عَلَيْكُمْ
 الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ
 مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَا بِكُنَّا حِمْلًا
 أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

الطرق ويسارها، وأيس الله طرقهم التي انفرد عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر، فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه^(٣).

وهذا عاقبة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

(٨٠-٨٢) ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَغْنَيْتُكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنٰكَ جَانِبَ

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل، ويبدو أنها مشطوبة في أ.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة. (٣) كذا في ب، وفي أ:

بهلاكهم.

دعا أجيب ب: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْمُنُونَ﴾ ومن يأت ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متبعاً لكتبه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحِينَ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي: المنازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَذَلِكَ﴾ الثواب، ﴿جَزَاءٌ مِّن تَزَكَّى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر، والفسوق، والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

(٧٧-٧٩) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى﴾ ○ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ○ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا في القرآن.﴾

وبنو إسرائيل لا يقدر أن يظهروا إيمانهم ويعلموه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض، ليعبدوه جهراً، ويقموا أمره.

فأوحى إلى نبيه موسى^(١)، أن سِرْ أو سيروا أول الليل، ليتمادوا^(٢) في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل، هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا مجيب، فحق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المداخن من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل، ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فصار بهم يتبع بني إسرائيل ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ﴾ ○ فَلَمَّا تَرَكُوا الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظاً وحقاً، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعده ربه فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضره، فانفرد اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين

بعشر، فلما تم الميقات بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: ﴿هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب طَلَبَ لقربك، ومسارةً في رضاك، وشوقٌ إليك.

فقال الله له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: بعبادتهم للعجل، ابتليناهم، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا ﴿وَأَضَلُّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ وصاغه فصار ﴿لَهُمْ خُوراً فَقَالُوا﴾ لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى﴾ ففسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبده، ونهاهم هارون فلم ينتهوا.

فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلىء غيظاً وحنقاً وغماً، قال لهم موبخاً ومقبحاً لفعالهم: ﴿يَقُولُ أَلَمْ يَعْزِمْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَاً حَسَناً﴾ وذلك بإنزال التوراة.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي: المدة، فتناولتم غيبي وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أفضال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست آثارها، فلم تقفوا منها على خبر، فانمحت آثارها لبعده العهد بها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول؟ أم أردتم بفعلكم أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع.

﴿فَأَخْلَقْتُمْ مَوَئِدِي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

(٨٧-٨٩) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوَئِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا

مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَتْهَا فَكَذَلِكَ أَلْفَى السَّامِرِيُّ﴾ **○** فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُمْ خُوراً فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى فَنَاسِيَ **○** أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا تَفْعَلاً﴾ أي: قالوا له:

ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا - فيما يذكرون - استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه، وجمعوه حين ذهب موسى، ليراجعوه فيه، إذا رجع.

وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي، فتنة وامتحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة

الطُورِ الْأَيْمَنِ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلَوى **○** كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى **○** وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَكَرِهَ صَليحاً ثُمَّ أَهْتَدَى **○** يُذَكِّرُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْنَةَ الْعَظِيمَةِ عَلَيْهِمْ بِإِهْلَاكِ عَدُوهِمْ، ومواعيده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فستم عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم:

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطلون النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم.

﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عديم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام، يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر، أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

(٨٣-٨٦) ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ **○** قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى **○** قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلُّهُمُ السَّامِرِيُّ **○** فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَسْفاً قَالَ يَقُولُونَ أَلَمْ يَعْزِمْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَاً حَسَناً أَطَطَّاعَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوَئِدِي﴾ كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه، لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتىها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٨

سُورَةُ طه

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا آلِهَةً خَوَّارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
وَالِلَّهِ مُوسَىٰ نَفْسِي ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ
يَقُومُوا إِنَّمَا أَفْتِنُكُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَالْيَعُونِي وَاطِيعُوا
أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِمِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ
أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي
إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ إِنْ
تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي
إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٦﴾ إِنْ
اتَّخَذَهُمُ الْعِجْلُ لَيْسُوا مَعْدُورِينَ فِيهِ، فَإِنَّ هَارُونَ قَدْ نَهَاكَ عَنْهُ،
وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ، وَأَنْ رَبَّهُمُ الرَّحْمَنُ، الَّذِي مِنْهُ النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ
وَالْبَاطِنَةُ، الدَّافِعُ لِلنِّقَمِ، وَأَنَّهُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَيَعْتَزَّلُوا
الْعِجْلَ، فَأَبَوْا وَقَالُوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِمِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ﴾.

عجل، فتحرك العجل، وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن
موسى ذهب يطلب ربه، وهو ههنا، فنسيه، وهذا من
بلادهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار
له خوار، بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسموات.
﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أن العجل لا ﴿يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا
يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا،
فالعادم للكمال والكلام والفعال، لا يستحق أن يعبد وهو
أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرُونَ على بعض
الأمياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

(٩٠-٩٤) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُومُوا إِنَّمَا أَفْتِنُكُمْ بِهِ﴾
وَلَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِمِينَ وَاطِيعُوا أَمْرِي ○ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِمِينَ
حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ○ قَالَ يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ○ أَلَا
تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ○ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي
خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ○ إِنْ
اتَّخَذَهُمُ الْعِجْلُ لَيْسُوا مَعْدُورِينَ فِيهِ، فَإِنَّ هَارُونَ قَدْ نَهَاكَ عَنْهُ،
وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ، وَأَنْ رَبَّهُمُ الرَّحْمَنُ، الَّذِي مِنْهُ النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ
وَالْبَاطِنَةُ، الدَّافِعُ لِلنِّقَمِ، وَأَنَّهُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَيَعْتَزَّلُوا
الْعِجْلَ، فَأَبَوْا وَقَالُوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِمِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ﴾.

فأقبل موسى على أخيه لاثمًا له وقال: ﴿يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ
رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ○ أَلَا تَتَّبِعُنَّ﴾ فنخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟
﴿أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ في قولي: ﴿أخلفني في قولي وأصليح ولا تتبِعْ
سَيِّلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب
والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ تريق له، وإلا فهو
شقيقه ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي.

فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تتبعك لتركت ما أمرتني
بلزومه وخشيت لاثمتك، و ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾
حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم
ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت
فينا الأعداء.

فندم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّحِيمِينَ﴾ ثم أقبل على السامري.

(٩٥-٩٧) ف ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ بِسَمْرِئِ﴾ ○ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا
لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا

وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ○ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ
تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي
ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِمًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ○ أَي: ما
شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟.

فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل عليه
السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق
فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبض قبضة من أثر
حافر فرسه، فنبذتها على العجل ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾
أَنْ أَقْبَضُهَا، ثُمَّ أَنْبِذُهَا، فكَانَ مَا كَانَ.

فقال له موسى: ﴿فَأَذْهَبْ﴾ أَي: تباعد عني واستأخر مني
﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أَي: تعاقب في الحياة
عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد
القرب منك قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على
ذلك، حيث مس ما لم يمس غيره، وأجرى ما لم يُجره أحد.
﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ فتجازى بعملك، من خير وشر.
﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِمًا﴾ أَي: العجل
﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ففعل موسى ذلك، فلو

والهجران.

﴿حَٰكِمِينَ فِيهِ﴾ أي: في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابًا على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أي: بشس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

(١٠٢-١٠٤) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۚ يَخْفَتُونَ يَنْتَهُمُ إِن لِّئِنَّهُمْ إِلَّا عَشْرًا ۚ نَحْنُ أَكْثَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِّئِنَّهُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: إذا نفخ في الصور، وخرج الناس من قبورهم كل على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدًا، والمجرمون يحشرون زُرْقًا ألوانهم من الخوف والقلق، والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير: ﴿إِن لِّئِنَّهُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ والمقصود من هذا الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۚ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ۚ قُلْ إِن لِّئِنَّهُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

(١٠٥-١١٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۚ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ يَوْمَئِذٍ تَبْنَعُ الدَّاعِي لَٰعِجٌ ۚ لَّهُمْ وَخَسَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّجْمَنِ فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا ۚ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ عَلَمًا ۚ وَنَسَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۚ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۚ يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟.

﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعين، وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثًا، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعًا صَفْصَفًا، مستويًا لا ترى فيه أيها الناظر عوجًا، هذا من تمام

كان إلها لا تمتنع ممن يريد به بأذى، ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أَشْرَبَ العجل في قلوب بني إسرائيل.

فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته - بالإحراق والسحق وذريه في اليم، ونُسِفِهِ، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى دافع إلى الباطل.

فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

(٩٨) ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يُحَبَّ، ولا يُزَجَّى ولا يُخَاف، ولا يُدْعَى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد، إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

(٩٩-١٠١) ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۚ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۚ خَلِيلِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ، بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقًا، وما جئت به صدق.

ولهذا قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: عطية نفيسة ومنحة جزيلة من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء، والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء.

وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها، وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها.

وإذا كان القرآن ذكرًا للرسول ولأمره، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم، والانقياد، والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك فهو مستحق للعقوبة ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن وأولاه الكفر

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَّا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١١٢﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١١٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِيزَ رِزْقًا ﴿١١٤﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٦﴾ وَسَأَلُوا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْنَا نَسْفُهَا رِيقًا نَسْفًا ﴿١١٧﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٨﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا أَمْتًا ﴿١١٩﴾ يَوْمِيزَ يَنْبَعُوتُ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٢٠﴾ يَوْمِيزَ لَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِجْوَى لَهُ ﴿١٢١﴾ قَوْلًا ﴿١٢٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴿١٢٣﴾ عِلْمًا ﴿١٢٤﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٢٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٢٧﴾

العباد.

مع قوله ﷺ: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته.

وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غيبي عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه، طرفة عين.

وقوله: ﴿يَوْمِيزَ لَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِجْوَى لَهُ قَوْلًا﴾ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا إذا أذن في الشفاعة^(٢)، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعته من أحد.

وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم

استوائها ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة، فتنبذ الأرض، وتوسع للخلائق ويمدها الله مدًا الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يَوْمِيزَ يَنْبَعُوتُ الدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم، ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة.

وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقًا وصدقًا لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصبح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافنة سرًا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون، والإنصات، انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم أي: تذل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيه ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ يَنْتَهِي يَوْمِيزَ شَأْنٌ يَنْبَغِي﴾ فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه اللسنة، ولا تتصوره الأفكار.

ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة]^(١)، فإن قيل: من أين لكم هذا

الأمّل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟ قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصًا في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ مع قوله: ﴿أَلَمْ تَكُ يَوْمِيزَ أَلْحَقُ لِلرَّحْمَنِ﴾ مع قوله ﷺ: «إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها، خشية أن تطأه، - أي - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: إلا من أذن له في الشفاعة.

لَتَعْلَمَنَّ يَوْمَ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصِتْ لَهُ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ ۝

ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الرحي ومبادرته إليه تدل^(١) على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر، حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه، المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال، وقطع كلام مُلقِي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسؤول، ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي: ولقد وصينا آدم، وأمرناه، وعهدنا إليه بهذا ليقوم به، فالتزمه، وأذن له، وانقاد، وعزم على القيام به ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم. ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال:

(١١٦-١٢٢) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۝ فَقُلْنَا يَتَّخِذْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْعَى ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَذْكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ مُّخْلِذٍ وَمُلْكٍ لَا يَبَلَىٰ ۝ فَأَصْكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن رِّيقِ الْجَنَّةِ وَصَبَّىٰ آدَمُ رِيْقَهُ فَنَوَىٰ ۝ ثُمَّ أَخْبَنَهُ رَبُّهُ فَجَاءَ عَلَيْهِ وَهْدًى ۝ أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْكَ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدواً لله، وظهر من

وشرهم، فهو لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان، والعذاب الأليم في جهنم، وسخط الديان.

والقسم الثاني: من آمن بالإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا﴾ أي: زيادة في سيئاته ﴿وَلَا هَضَمًا﴾ أي: نقصاً من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته ﴿وَإِنَّكَ حَسَنَةٌ يُّصْنَعُهَا وَيُؤْتِي مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(١١٣) ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب، باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه، ولا معناه.

﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: نَوَعْنَاهَا أنواعاً كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثلثات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات، والمقلقات، وتارة بذكر جهنم، وما فيها من أنواع العقاب، وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربياً، وكونه مصرفاً فيه [من] الوعيد، أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عربي أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر.

(١١٤) ﴿فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عبادته، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فَتَعَالَىٰ اللَّهُ﴾ أي: جلّ وارفع، وتقدس عن كل نقص واقة ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم ممالك له، وأحكام الملك القدريّة والشرعية نافذة فيهم ﴿الْحَقُّ﴾ أي: وجوده، وملكه، وكماله حق، فصفت الكمال، لا تكون حقيقة، إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيوماً جليلاً.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقراءه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك، وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ يَوْمَ لِسَانُكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢٠

سورة طه

فَعَلَى اللَّهِ أَمْلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٢٦﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٢٨﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجْكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٢٩﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٣٠﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لِي بَلَى ﴿١٣١﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءٌ لُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٣٣﴾ قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٤﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٣٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٦﴾

نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ واتباع الهدى بتصديق الخير، وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابًا.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه، ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر، والثانية: قوله

حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: لا ﴿يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى﴾ إذا خرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهنيء والراحة التامة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى أي: تصيبك الشمس بحرًا، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكل الشجرة، ويقول: ﴿هَلْ أَذُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة.

﴿وَمُلْكٍ لِي بَلَى﴾ أي: لا يقطع، إن أكلت منها، فأناه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فآثر به آدم، وأكلا من الشجرة فَسَقَطَ في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضح معصيتهما، وبدا لكل منهما سؤا الآخر، بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة، ليسترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فبادرا إلى التوبة والإنابة، وقالوا: ﴿رَبَّنَا ظَنَنَّا أَنْفُسَنَا إِنَّا لَكَا نَافِعُونَ لَنَا وَرَحِمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فاجتبه ربه، واختاره، ويسر له التوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكروه، فتمت النعمة عليه، وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرباط الملازم لهم، ليلا ونهارا ﴿يَنْبَى آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا إِنَّمَا بَرْنَكُمْ هُوَ وَقِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَلْنَا الشَّيَاطِينَ أُولِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١٢٧-١٢٧) ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٣٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٦﴾ وَأَنَّكَ عَائِنَا فَيَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذوا [آدم وبنوه]

الشيطان عدوًا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويُعِدُّوا له عُدته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبًا، ويرسل إليهم رسلًا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية، والثالثة: قوله: ﴿وَلَنَذِقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم، والغموم، والآلام التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقيدها. ﴿وَتَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمًى وَكَيْفًا وَصُمًّا﴾.

قال على وجه الدل، والمراجعة، والتألم، والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بَصِيرًا﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة. ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ بإعراضك عنها ﴿وَكَذَلِكَ يَوْمَ تُنْشَىٰ﴾ أي: تترك في العذاب.

فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه، ونسيته، ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: هذا الجزاء ﴿نَجْزِيهِ﴾ من أشرف بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له ﴿وَلَمْ يُؤْنِزْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه. ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضاعافاً مضاعفة ﴿وَأَقْبَرُ﴾ لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَستَوْنَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم،

تقوم هود، وصالح، ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟

فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَقِمُونَ لا شيء من هذا كله فليس هؤلاء الكفار خيراً من أولئك، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل، وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة، وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون، أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك.

فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم، من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد يتنفع بالآيات، إنما يتنفع بها أولو النهى، أي: العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

(١٢٩، ١٣٠) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قاصير على ما يقولون وسيح محمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أناني الليل فسيح وأطراف النهار لعنك ربك هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين، المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات، سبباً وناشئاً عن الذنوب، ملازمًا لها.

وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحقق عليهم الكلمة.

ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، وأوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْ خَيْرِ الْبَاقِي﴾ أي: لا تمد عينيك معجباً، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة،

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَستَوْنَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢١

سُورَةُ طه

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْدَانَا فَتَسِينُنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ تُنْشَى ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَبَقِي ﴿١٣٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٣٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٣٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٤٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَأْمَعَيْنَا بِهِ أَرْوَجَا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبَاقِي ﴿١٤١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
وَأَصْطِرْ عَلَيْهَا لَأَنْتَ لَكَ رِزْقًا تَحْنُ نَزْرُكُ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى
﴿١٤٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي
الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٤٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا
لَوْ أَنَّا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ
قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي ﴿١٤٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرَضُوا فَمَا فِي
فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٤٥﴾

مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ٠ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا
رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ
وَنَخْزِي ٠ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرَضُوا فَمَا فِي فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ
الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ٠ أي: قال المكذوبون للرسل ﷺ:
هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وَقَالُوا
لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلُوءًا ٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِنْ نَحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْآلَنْهَرُ خِلَالَهَا تَجِيرًا ٠ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ
كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قِيلًا﴾.

وهذا تعنت منهم، وعناد وظلم، فإنهم هم والرسول بشر
عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي
ينزلها، ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن^(١) قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ يقتضي
أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب
وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات
القاهرات، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ

والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة فإن ذلك كله زهرة
الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابًا
بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة -
القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا، وتضمي جميعًا، وتقتل
محبها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما
هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا،
ليعلم من يقف عندها، ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً كما
قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا ٠ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق
الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم، والعيش
السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجًا،
في ذاته وصفاته ﴿وَالْبَقِي﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها،
كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٠ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
وَالْبَقِي﴾.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه،
طموحًا إلى زينة الدنيا، وإقبالًا عليها، أن يذكرها ما أمامها
من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.
(١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطِرْ عَلَيْهَا لَأَنْتَ لَكَ رِزْقًا تَحْنُ
نَزْرُكُ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم
إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا
به، فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة، ويفسدها،
ويكملها.

﴿وَأَصْطِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها،
وأركانها، وأدابها، وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس،
ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائمًا،
فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما
سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها
أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام
به عن إقامة دينه فقال:

﴿تَحْنُ نَزْرُكُ﴾ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا
بأرزاق الخلاق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل
بذكرنا؟ ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما
يجلب السعادة الأبدية، وهو التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾
في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَى﴾ التي هي فعل المأمور وترك
المنهي، فمن قام بها كان له العاقبة، كما قال تعالى:
﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيَّينَ﴾.

(١٣٣-١٣٥) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ

(١) في ب: ولما كان.

تَأْتِيهِمْ ﴿١﴾ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ، وَأَنْهُمْ يَطْلُبُونَ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ.

﴿يَبَيِّنُهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا يتفكرون بها، ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ بالعقوبة، فهذا قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون فصدقوه.

قل يا محمد! مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون: تربصوا به رب المنون ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿وَعَنْ تَرْتِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْخُذَكُمْ﴾.

﴿فَتَرْتَضُوا فَنَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي المستقيم، ﴿وَمَنْ أَهْتَدَى﴾ بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب. وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا اسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَانْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هذا تعجب من حالة

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝

﴿٢﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا اسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝

﴿٣﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَانْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝

﴿٤﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝

﴿٥﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ اقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ۝

﴿٦﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝

﴿٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝

﴿٨﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝

﴿٩﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝

﴿١٠﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝

الناس، وأنهم لا ينجع فيهم تذكير، ولا يراعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا، وللمتعة بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهذا قال:

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ﴾ يذكرهم ما ينفعهم، ويحتنهم عليه، وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إِلَّا اسْتَمَوْهُ﴾ سماعاً تقوم عليهم به الحجة.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات، والعمل بالباطل، والأقوال الرديئة، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه، وتستمتع استماعاً تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم وتستقيم أحوالهم، وتزكو أعمالهم.

وفي معنى قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها.

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجأه الموت، صباحًا أو مساءً، فهذه حالة الناس كلهم إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطأوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ: إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وإنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا:

﴿أَفَأَتُورِكُ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقًا بما شاهدوا^(١) من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علمًا بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أي: الخفي والجلي ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في الضمائر، وأكثته السرائر.

(٦، ٥) ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِيمٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَ كَمَا أَرْسَلْنَا الْآلُونَ ﴿مَا ءَمَنْتَ بِهِمْ مِنْ قَبْلِهِ أَهْلَكْنَاهُمُ يَوْمَئِذٍ﴾ يذكر تعالى انتفاك المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سقوه^(٢)، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿أَضْغَتْ أَحْلِيمٌ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾ واختلقه وتقول من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك،

ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذي أقامهم، وأعدهم؟ وأقضى مضاجعهم، وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء؟ وإنما يقولون هذه الأقوال فيه - حيث لم يؤمنوا به - تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ، وصدقه، وهو كاف شاف.

فمن طلب دليلًا غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة لأنهم إن كان^(٣) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا، فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعًا، فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَ كَمَا أَرْسَلْنَا الْآلُونَ﴾ أي: كناية صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك.

قال الله: ﴿مَا ءَمَنْتَ بِهِمْ مِنْ قَبْلِهِ أَهْلَكْنَاهُمُ﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة، فالأولون ما آمنوا بها، أيؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك؟ وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟

وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبدًا.

(٧-٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَابَهَ أَلْفُ الذِّكْرِ إِنَّ كَثُرَ لَا تَعْلَمُونَ ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلاً كان ملكًا لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق؟ وهلاً كان خالداً؟ فإذا لم يكن كذلك دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن

(١) في ب: بما يشاهدون. (٢) في ب: تقولوه فيه. (٣) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم، وشرفكم في الدنيا والآخرة؟ فلو كان لكم عقل، لسلكتكم هذا السبيل.

فلما لم تسلكوه، وسلكتكم غيره من الطرق، التي فيها ضَعُفُكُمْ وَخِسَتْكُمْ في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح.

وهذه الآية مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول الذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزك به، من المقت والضعف، والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة، إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

(١١-١٥) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ○ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْثُونَ ○ لَا تَرْكُوبُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ ○ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ○ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِلِينَ يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكتنا بعذاب مستأصل ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وبأشرفهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه.

ف قيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُوبُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتكم فيه من اللذات والمشتبهات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، ولذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم، كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا، كحالكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم، وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟.

الرسول قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطراً عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأمهم، فصدهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة، والسعادة لهم، ولاتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته؛ وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يُرَى بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقرؤا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مُخَلَّداً لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِنَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ○ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيشُونَ﴾.

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمُوتُ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُولًا﴾، فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿تَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، يخبروكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر^(١)، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهى عن سؤال المعروف بالجهل، وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية، لا مريم ولا غيرها، لقوله: ﴿إِلَّا رَجَالًا﴾.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لقد أنزلنا إليكم - أيها المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتاباً جليلاً، وقرآنًا مبيناً ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم وفخركم، وارتفاعكم، إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة، فاعتقدتموها، وامثلتم ما فيه من الأوامر، واجتبتكم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم.

ولهذا ﴿قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ
أي: الدعاء بالويل والثبور، والندم، والإقرار على أنفسهم
بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم.

﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيزًا﴾ أي: بمنزلة النبات الذي قد
حصد وأُزيم، قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم
الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على
تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم حل بأولئك.

(١٦، ١٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ٥ لَوْ
أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ اللَّهَ أَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ يخبر تعالى
أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً، ولا لعباً من غير فائدة،
بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق
العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال
كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة
رسله فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما
وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي
المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ اللَّهَ ٥﴾ على الفرض والتقدير المحال
﴿لَا تَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ ولم
نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا
نحب أن نريه إياكم.

فالسماوات والأرض اللذان برأى منكم على الدوام، لا
يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللغو، كل هذا تنزل مع
العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان
الحليم الرحيم، الحكيم في تنزيهه الأشياء منازلها.

(١٨-٢٠) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ٥
وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ٥ وَلَكُمْ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ٥ يَسْجُدُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا
يَفْتُرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل،
وأن كل باطل قيل وجود له، فإن الله ينزل من الحق والعلم
والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ﴾ أي: مضمحل فاني، وهذا عام في جميع المسائل
الدنية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو
رد حق، إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية، ما
يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل
أحد، وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك
تجدها كذلك.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الواصفون الله بما لا يليق به، من
اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من

الأنبياء والمرسلين

٣٢٣

سورة الأنبياء

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ سَنَاءً أَذَاهُمْ مِنْهَا زَكَنُوا ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيزًا ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ
لَا تَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿١٩﴾ يَسْجُدُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلْيَنْصُرْهُمْ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ فَسَدَ تَأْفِيسُ حَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلِ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْكِرُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ
أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَ اللَّهِ فَلْيَنْصُرْهُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِمَّنْ
وَدَّكَ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران،
ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها،
وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس
مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل
عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك،
ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من
هؤلاء آلهة؟ وكيف يجعل الله منها ولد؟.

فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب،
وذلك له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأدعوا
له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون.

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أي: من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة
رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

﴿يَسْجُدُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: مستغرقين في العبادة
والتسبيح في جميع أوقاتهم فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها
ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من

ءَالِهَةً كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَاتَبَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۚ سُبْحَنَ تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۚ

ولهذا قال هنا: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكمال وحدته، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها، وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن كل شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يُسْتَلَوْنَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم، لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيداً، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مثقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّقَالٍ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلتها العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة، كلها برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه، علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بينها أتم تبين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُضَرَفَ العبادة لغيره.

(٢١-٢٥) ﴿أَمْ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ ۚ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلَوْنَ ۚ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّقَالٍ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُمْ يُبَشِّرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرُونَ على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شَوْكًا﴾، ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويده الأمر والنفع والضر.

وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظّه، وتَوَفَّرَ جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد، ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن.

فإذا، يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله:

﴿وَمَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِّنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِّمَّا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّيْهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ

سورة الأنبياء

٣٢٤

سورة الأنبياء

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرْكِ مِنْ قَبْلِكَ خَلْقًا فَإِنْ مَتَّ فُهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٥﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟

(٣٠) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونها رَتْقًا، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيًا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد اغبرت أرجاؤه، وقطط عنه ماؤه، فأطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [ليس ذلك] ^(٢) دليلًا على

(١) في النسختين: بأنه. (٢) زيادة من هامش ب.

قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٦﴾ فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

(٢٦-٢٩) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ○ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ○ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسل، وأنهم زعموا - فبحهم الله - أن الله اتخذ ولدًا فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم.

وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم ^(١) عبيد مربيون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتنال لأوامره.

ف ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون قولًا مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: مهما أمرهم امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فله قد أحاط بهم علمه.

فعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل، إلا ما كان خالصًا لوجهه، متبعًا فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

﴿وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلّون، قد خضعوا لجلاله، وعتت وجوههم لعزه وجماله.

فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئًا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك - ذكر أيضًا أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل

الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها.

ويتنقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

(٣٥، ٣٤) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ○ كل نفس ذائقة الموت وتلوكم بالشر والخير فتنة وإنا نرجعون ﴿لما كان أعداء الرسول يقولون^(١): تربصوا به رب المنون، قال الله تعالى: هذا طريق مسلك ومعبود منهو، فلم نجعل لبشر ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾ في الدنيا، فإذا مت فسيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم.

﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فإن، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالبعد المدى، وعمر سنين.

ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتن عند مواقع الفتن ومن ينجو.

﴿وَإِنَّا نُرْجِعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْبَاسِ﴾.

وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء النضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

(٣٦-٤١) ﴿وَإِذْ رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخْذَوْنَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ○ خلق الإنسان من عجلٍ سأوريكم آياتي فلا تستعجلون ○ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ○ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفرون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ○ بل تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردها ولا هم يظنون ○ ولقد استهزئ برسلي من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ○ وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ، استهزؤوا به، وقالوا: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: أهذا المحقر بزعمهم، الذي يسب آلهم ويذمها، ويقع فيها، أي: فلا

أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية فقال:

(٣١-٣٣) ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ○ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته، ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها.

فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبالاً شامخات، وقُلا باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حزن، لعلهم يهتدون إلى الوصول، إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا لِلْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مَحْفُوظًا﴾ من السقوط ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَ﴾ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع.

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت، والسيارات، وشمسها، وقمرها النيرات، المتولة عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم.

فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدأون ويسكنون، ويتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم.

كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزمًا لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقته في وقت معلوم، إلى أجل محترم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا ويتنفعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل، ويفنيها

(١) في النسخين: يقولون قل تربصوا.

تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

هذا استهزاءهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل الذي من فضائله ومكارمه إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب، وجحدهم لرسله فصاروا بذلك من أحسن الخلق وأرذلهم، ومع هذا فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا [هو] ^(١) - بالكفر والشرك.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ أي: خلق عجبوا، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطأونها، والكافرون يتولون ^(٢) ويستعجلون بالعذاب، تكديبا وعنادا، ويقولون:

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والله تعالى يهمل ولا يهمل ويحلم، ويجعل لهم أجلا مؤقتا إذا ﴿جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قالوا هذا القول اغترارا، ولما يحق عليهم العقاب، وينزل بهم العذاب.

فـ ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حالهم الشنيعة ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيه من كل مكان ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً فَبَتَّهِمُ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ﴾ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم فقال:

سورة الأنبياء

٣٢٥

سورة الأنبياء

وَإِذْ أَرْأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُّوْكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمُ بَغْتَةً فَبَتَّهِمُ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِأَيْتِلَافِ النَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعَنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

(٤٢-٤٤) ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِأَيْتِلَافِ النَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ○ أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ○ بَلْ مَنَعَنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يقول تعالى - ذاكرا عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته شملت البر والفاجر، في ليهم ونهارهم - فقال:

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ﴾ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بِأَيْتِلَافِ﴾ إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذابت حواسكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وقت (١) في الأصل (إياه) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في الكلمة أقرب إلى أن تكون (يقولون)، وفي ب غير واضحة، وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢٦

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْسَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَلْسَاعَةِ مُسْخَفُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِمُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا هِيَ عِندِيكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ آبَاءِكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَحِثْنَا بِالحَقِّ أَمْرًا نَتَّبِعَ مِنَ اللَّعِينِ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتاً، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد محل قابل لذلك، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح، وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان، بمنزلة الأصم، بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه.

﴿فَلَوْ مَسَّهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي: ولو جزء يسير، ولو يسير من عذابه.

﴿لَيَقُولُنَّ يُوَيْسَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور، والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين

انتشاركم وغفلتكم ﴿مَنْ أَلْزَمَ﴾ أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أَمْ هُمْ بِالْهَيْئَةِ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِهَا﴾ أي: إذا أردناهم بسوء هل من ألهمهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم؟! لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم مَنَّا يصحِّون؟ أي: لا

يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانوا من الله فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة.

والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعَمُرُ﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوأ بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقسّت قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو ألفتوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم، وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكاً، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك.

ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنُفِّسُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: بموت أهلها وفنائهم شيئاً فشيئاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا، ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم، أذعنوا، وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

(٤٥، ٤٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولكن مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْسَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس كلهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا رسول، لا أتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي، فإن استجبتم فقد استجبتم لله، وسيبئكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء، والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرًا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مُبَارَكًا﴾ يقتضي كثرة خيراته^(١) ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرًا مباركًا وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحًا، وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى، على من أنكره فقال: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُمَكِّنُوا﴾.

(٥١-٧٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمدًا صلى الله عليه وسلم، وكتابهما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد، ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدًا من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشدًا بحسب حاله، وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفء له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر حاجته لقومه، ونهيمهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة.

فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ التي مثلتموها ونحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيت أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تحتون.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى

العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر، التي توزن بها الحسنات والسيئات.

﴿فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْكُمْ لَمَنْ خَلَى مِنْ خَدَيْ﴾ التي [هي] أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ومن يعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. وقالوا: ﴿يَوَدُّكَ مَالِ هَذَا النَّكَتِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا﴾.

﴿وَكُنْ بِمَا حَسِبْتَ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسبًا، أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها، مثبِتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

(٤٨-٥٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْفُرْقَانَ وَضَيْكَةً وَذَكَرَ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة ﴿مُسْفُوفُونَ﴾ وهذا ذكر مبارك أزلته أفانتم لَمْ تُمَكِّنُوا كثيرًا ما يجمع تعالى، بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يترك العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكرًا، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبيانًا، [وهما التوراة والقرآن]^(٢)، فأخبر أنه أتى موسى أصلًا، وهارون تبعًا ﴿الْفُرْقَانُ﴾ وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضِيَاءٌ﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتهم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل البدع والغواية.

﴿وَذَكَرَ الْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص المتقين بالذكر، لأنهم المستفوعون بذلك، علمًا وعملاً، ثم فسر المتقين فقال:

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أُلزم.

﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُسْفُوفُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا، من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد، وموصوف واحد.

﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذَكَرَ مُبَارَكُ أَرْزَلَهُ﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرًا يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء

(١) زيادة يقتضيهما السياق. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في النسختين خيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ أي: كَسَرًا وَقَطْعًا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا هُمْ﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيئته.

وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «إلى عظيم الفرس» «إلى عظيم الروم» ونحو ذلك، ولم يقل: «إلى العظيم».

وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا هُمْ﴾ ولم يقل: «كبيرًا من أصنامهم». فهذا ينبغي التنبيه^(٢) له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا؛ لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها، أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَىٰ آعِثٍ النَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ شَيْئًا﴾.

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ أي: التكسير ﴿بِآلِهَتِنَا يَكْبِرُهُمْ﴾؟ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَهُم كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: كسرها غضبًا عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون

شبهه، فقالوا: ﴿وَجِدَدًا ءَابَاءَهُ﴾ كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها.

ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل، ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصًا في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم - مفضلًا للجميع: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَءَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟ أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وهم^(١) في الضلال الواضح، البين لكل أحد.

﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهمهم، وتسفيه آبائهم -: ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا كلام لآعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزله منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم ردًا بين به وجه سفههم، وقلة عقولهم فقال: ﴿بَلْ زُكِّرْتُكُمْ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسموات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفعولًا مدبرًا متصرفًا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله، أفليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقًا متصرفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟.

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلماذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: أن الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطل ﴿وَمِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيدها يحصل به إقراهم بذلك فلماذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي:

(١) في الأصل: وإياهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في الأصل (التنبيه) ولعل الصواب ما أثبت.

العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده.

وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَسْتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، وأراد: الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسأله لأي شيء كسره؟ إن كان عندهم منطق فسجييونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ﴿فَقَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم.

ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿تُكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلنًا بشرهم على رؤوس الأشهاد، ومبينًا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة -: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فلا نفع ولا دفع.

﴿أَفِ لَكُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم! وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله! إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، واركنتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ﴿فَقَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: اقتلوه أشنع القتل، بالإحراق، غضباً لآلهتكم، ونصرة لها، فتعسا لهم تعسا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً،

فانتصر الله لخليله لما ألغوه في النار وقال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكرهه.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ حيث عزموا على إحراقه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليفه وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٧

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

فَجَعَلْنَاهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥١﴾
 ﴿٥٢﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾
 قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٤﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ
 عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ
 هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٦﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
 هَذَا فَاسْتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٥٧﴾ فَرَجَعُوا إِلَى
 أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٨﴾ ثُمَّ تُكْسُوا عَلَى
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٥٩﴾ قَالَ
 أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ﴿٦٠﴾ أَفِ لَكُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا يَنْتَرِ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٣﴾
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَبَجَّيْنَاهُ
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ وَوَهَبْنَا
 لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦٦﴾

عليه السلام قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ حين اعتزل قومه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق.

﴿وَمَنْ ذَكَرَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين.

﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: قائمين بحقوقه، وحقوق عبادته، ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون،

وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿وَلَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكَاوُوا لَنَا﴾ أي: لا لغيرنا ﴿عَبِيدِينَ﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَلَوْ طَاءَ آئِنُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحِينَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسَقِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس بالصواب والساد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم ﴿قَوْمَ سَوَاءٍ فَسَقِينَ﴾ كذبوا الداعي، وتوعده بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليبعدوا عن القرية، فسروا ونجوا من فضل الله عليهم ومثته.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرماته الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

(٧٦، ٧٧) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: واذكر

سورة الأنبياء

٣٢٨

سورة الأنبياء

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْ طَاءَ آئِنُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحِينَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسَلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾

عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويبيدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سرّاً وجهاراً، وليلاً ونهاراً.

فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَفِضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فاستجاب الله له، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحداً، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزئين.

(٧٨-٨٢) ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۝ وَسَلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۝ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوِصُ لَكُمْ وَيَعْمَلُ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾

إذابة له على النار.

ويحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر، لأن الله اشترى بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما الميتة بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وَأَلَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك.

﴿وَسُلَيْمَنَ الرَّحْمَنُ أَيُّ سَخَرْنَاهَا عَاصِفَةً أَيُّ: سريعة في مرورها.

﴿تَجَرَّى بِأَمْرِهِ﴾ حيث دُبِّرَتْ امتملت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان، ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُونَكَ لِمَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له في البحر، ويستخرج الدر، واللؤلؤ، وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿تَحْرِيبَ وَتَمْثِيلَ وَحِفَاظَ كَلْبُوبٍ وَقُدُورَ رَأْسِيَّتٍ﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، وبقوا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أي: لا يقدرُونَ على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له، بقوته وعزته وسلطانه.

(٨٤، ٨٣) ﴿وَأَيُّ أَيُّ نَادَى رَبَّهُ أَيُّ مَسْنَى الْقَضَرُ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ○ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ أَيُّ: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثيلاً معظماً له، رافعاً لقرده - حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله وامتنحاناً، فنفخ في جسده، ففترج قروحاً عظيمة ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فتنادى ربه: رب ﴿أَيُّ مَسْنَى الْقَضَرُ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أي: واذكر هذين النبيين الكريمين «داود» و«سليمان» مثيلاً مبعلاً، إذ آتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿إِذْ يَخْصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفست فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلاً، فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرع، ففضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظراً إلى تفریط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة. وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بذرهما وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولي، فإذا عاد إلى حاله، تراداً، ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ﴾ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلاً منهما فقال: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسييحاً، وتمجيذاً، وكان قد أعطاه [الله]، من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحداً من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم، والطيور البهيم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه فلماذا قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: علم الله داود عليه السلام صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده، فالأن الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة.

﴿لِيُخَصِّمَكُمُ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب واشتداد البأس.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ نعمة الله عليكم، حيث أجزاها على يد عبده داود كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ سَرِيلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيَكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتَرِّقُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع، وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون - كما قاله المفسرون - : إن الله لأن له الحديد، حتى كان يعمل كالعجين والطين، من دون

سورة الأنبياء

٣٢٩

سورة الأنبياء

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُّونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ وَكَانَ لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَنُوبُ إِذْ
نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ
وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾
وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ
مِنَ الْعَمَى وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَذَكَرْنَا
إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ
لَهُ زَوْجَةً إِنَّهُمْ كَانُوا مُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَكَ رَعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو يونس،
أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء
الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم
يؤمنوا، فوعدهم ب نزول العذاب بأمد سماء لهم.

[فجاءهم العذاب] ورأوه عياناً، فعجوا إلى الله،
وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب كما قال تعالى:
﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَمَّا ءَامَنُوا
كُشْفًا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.
وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ يُونُسَ ۖ فَتَمَتَّعُوا فَفَعَلْنَا لَهُمْ
حِينَ﴾ وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر
فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن
ربه للذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا
حاجة لنا إلى تعيينها [لقلوله: ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ... وَهُوَ
مُيَمِّمٌ﴾ أي: فاعل ما يلام عليه^(١)، والظاهر أن^(٢) عجلته
ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله

فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه - وأنه بلغ الضر منه
كل مبلغ - وبرحمة ربه الواسعة العامة، فاستجاب الله له،
وقال له:

﴿أَرْكَضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فركض برجله،
فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب،
فأذهب الله ما به من الأذى.

﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله ﴿وَمِثْلَهُمْ
مَعَهُمْ﴾ بأن منحه الله - مع العافية - من الأهل والمال شيئاً
كثيراً.

﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ به، حيث صبر وورضي، فأثابه الله ثواباً
عاجلاً قبل ثواب الآخرة، ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: جعلناه
عبرة للعابدين، الذين يتفنون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من
البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه
الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ
الْعَمِيدُ إِنَّهُ تَرَّابٌ﴾ فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر.

(٨٦، ٨٥) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ
الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي:
واذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر،
وأثنى عليهم أبلغ الثناء: إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا
الكفل، نبين من أنبياء بني إسرائيل ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء
المذكورين ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، والصبر هو حبس النفس
ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر
الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله،
والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر
التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها.

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله
بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي،
ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب بمعرفة
الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان بأن يكون
رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله
وكفها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحتهم أدخلهم الله
برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب
العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى ثَوَّهَ
بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين،
لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

(٨٨، ٨٧) ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمَى وَكَذَلِكَ نُنْجِي

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في الأصل: أنه.

قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين .

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كُلاً على انفراده، أثنى عليهم عمومًا فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها .

﴿وَيَدْعُونَكَ رَجًا وَرَهْبًا﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون .

﴿وَكَانُوا لَنَا خُشِعِينَ﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم ببرهم .

(٩١-٩٤) ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَجَحًا فَفَجَحًا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ○ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ○ وَنَقُطْعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَجُوعٌ ○ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوزٌ ○ أي: واذكر مريم عليها السلام، مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَجَحًا﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها .

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ ○ كُنْتُ نَفِيًّا ○ فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله .

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ حيث حملت به، ووضعت من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون .

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: ﴿وإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: هؤلاء الرسل المذكورون، هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتون، ويهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد .

ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم

بذلك، وظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكمّل من الخلق على وجه لا يستقر، ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، مَنْ يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادی في تلك الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ○ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانِ مِنَ الْمُسِيحِينَ﴾ ○ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ○ ولهذا قال هنا: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: الشدة التي وقع فيها .

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام .

(٨٩، ٩٠) ﴿وَوَكِّرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ○ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَمْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَجًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خُشِعِينَ ○ أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وفضائله التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحته للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ ○ أي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ○ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ○ يَرَبُّنِي وَإِنِّي مِنَ الْمَرْغُوبِينَ ○ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ .

من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به .

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ○ أي: خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازني ثوابه .

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ النبي الكريم الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً .

﴿وَأَمْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ ○ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل، لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٣٠

الْأَنْبِيَاءِ

وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَحَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّ هَذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٨﴾
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ لِرَجْعَتٍ
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْلَ الصَّاحِبِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُزُوبٌ ﴿٩٩﴾ وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَيْ
أَهْلِكُنَّاهُ أَنْهُمْ لَا يُرْجِعُونَ ﴿١٠٠﴾ حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٠١﴾
وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادُونَكَ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّا كُنَّا نَمُرُّكُمْ وَأَنَّا نَعْبُدُكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿١٠٣﴾ لَوْ كَانَ
هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٤﴾
لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعْدُونٌ ﴿١٠٦﴾

شَكِي إِلَيْهِ إِسَادَهُمْ فِي الْأَرْضِ.

وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله، من كل مكان مرتفع، وهو الحذب، ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلمون عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بآتيانه، ووعده حق وصدق، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاختة، من شدة الأفزع والأهوال المزعجة، والقلاقل المقلعة، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور، والندم والحسرة على ما فات ويقولون:

لـ ﴿قَدْ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِّنْ هَذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة،

بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدًا، والني واحدًا، والدين واحدًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم، والواجب عليكم، القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء، ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر، وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أي: إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقًا، وتشتتوا، كُلُّ يَدْعِي أَنْ الْحَقَّ مَعَهُ، والباطل مع الفريق الآخر، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكًا للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتمًا بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ مِنَ الْفِرَقِ الْمَتَفَرِّقَةِ وَغَيْرِهِمْ﴾ ﴿إِنَّا رَجِعُونَ﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءه فيهم، منطوقًا ومفهومًا، فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْلَ الصَّاحِبِ﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسله، وما جاؤوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافًا كثيرة.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُزُوبٌ﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة. أي: ومن لم يعمل من الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم، خاسر في دينه ودنياه.

(٩٥) ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَيْ أَهْلِكُنَّاهُ أَنْهُمْ لَا يُرْجِعُونَ﴾ أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستردكوا ما فرطوا فيه، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب. فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

(٩٧، ٩٦) ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَكَ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هذا تحذير من الله للناس، أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب افتتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما

على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد أمّنهم مما يخافون ﴿وَنَلَقَّاهُمُ الْمَلَكُ﴾ إذا بعثوا من قبورهم، وأتوا على النجائب وفدًا لنشورهم، مهتين لهم قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فليهنئكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم، بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم، بما أمّنكم الله من المخاوف والمكاره.

(١٠٤، ١٠٥) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنك الأرض يرثها عبادي الصالحون يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنشر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائها لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئًا، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ نفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ وهو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلّة، كالتوراة ونحوها ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: كتبناه في الكتب المنزلّة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ﴾ أي: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَكَلِمُوا الصَّالِحِينَ لَنُسْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْنَاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

(١٠٦-١١٢) ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاءِ لَعِيبَةٍ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ○ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ○ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَدْبَنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَبْتُمْ مُدْبِرُونَ ○ وَإِنْ أَدْرَبْتُمْ مُدْبِرُونَ ○ وَإِنْ أَدْرَبْتُمْ مُدْبِرُونَ ○ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ ○ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ

لماتوا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بظلمهم، وعدل الله فيهم، فحيثما يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

(٩٨-١٠٣) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ○ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ○ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ○ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ○ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ○ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الظَّكَرُ وَنَلَقَّاهُمُ الْمَلَكُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ○ أَي: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره حَصَبُ جَهَنَّمَ ○ أَي: وقودها وحطبها ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ وأصنامكم.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلماذا قال:

﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا يتقلون عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ من شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عُبِدَ وهوراض بعبادته.

وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ، وفي تيسيرهم في الدنيا للبسرى والأعمال الصالحة.

﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريبًا منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوها حسيستها، ولا يروا شخصها.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ من المأكَل، والمشارب، والمناجح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الظَّكَرُ﴾ أي: لا يقلقهم إذا فرغ الناس أكبر فرغ، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار، تتغيظ

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٣١

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

لَا يَسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٠٦﴾ يَبِينُ كَفَايَتَهُ التَّامَةَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنَى عَنْهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاغَ لِقَوْمٍ عَصِيدِينَ﴾ أَي: يَتَبَلَّغُونَ بِهِ فِي الْوَصُولِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَإِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، فَيُوصِلُهُمْ إِلَى أَجْلِ الْمَطَالِبِ، وَأَفْضَلِ الرِّغَائِبِ، وَلَيْسَ لِلْعَابِدِينَ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ الْخَلْقِ وَرَاءَهُ غَايَةٌ، لِأَنَّهُ الْكَفِيلُ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ، بِأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَبِالْإِخْبَارِ بِالْغُيُوبِ الصَّادِقَةِ، وَبِالدَّعْوَةِ لِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، وَشَوَاهِدِ الْإِيقَانِ، الْمُبِينِ لِلْمَأْمُورَاتِ كُلِّهَا، وَالْمَنْهِيَّاتِ جَمِيعًا، الْمَعْرُوفِ بِغُيُوبِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ، وَالطَّرِيقِ الَّتِي يَنْبَغِي سُلُوكُهَا فِي دَقِيقِ الدِّينِ وَجَلِيلِهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ طَرُقِ الشَّيْطَانِ، وَبَيَانِ مَدَاخِلِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ. فَمَنْ لَمْ يَغْنَهُ الْقُرْآنُ فَلَا أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَا يَكْفِيهِ فَلَا كَفَاهُ اللَّهُ.

ثُمَّ أَتَى عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي جَاءَ بِالْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، فَهُوَ رَحْمَتُهُ الْمَهْدَاةُ لِعِبَادِهِ، فَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ قَبِلُوا هَذِهِ الرَّحْمَةَ، وَشَكَرُوهَا، وَقَامُوا بِهَا، وَغَيْرِهِمْ [كَفَرُوهَا] ^(١)، وَبَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا، وَأَبَوْا رَحْمَةَ اللَّهِ وَنِعْمَتَهُ.

﴿قُلْ يَا مُحَمَّد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ أَي: مُتَقَادُونَ لِعِبُودِيَّتِهِ مُسْتَسْلِمُونَ لِأُلُوهِيَّتِهِ، فَإِنْ فَعَلُوا فَلْيُحْمَدُوا رَبَّهُمْ عَلَى مَا مَنَّ عَلَيْهِمْ بِهِذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتْ الْمَنَ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْإِقْنَادِ لِعِبُودِيَّةِ رَبِّهِمْ، فَحَذَرَهُمْ حُلُولَ الْمُثَلَّاتِ، وَنَزُولِ الْعُقُوبَةِ.

﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ﴾ أَي: أَعْلَمْتُكُمْ بِالْعُقُوبَةِ ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أَي: عِلْمِي وَعِلْمُكُمْ بِذَلِكَ مُسْتَوٍ، فَلَا تَقُولُوا: - إِذَا نَزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ - ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. بَلِ الْآنَ، اسْتَوَى عِلْمِي وَعِلْمُكُمْ، لَمَّا أَذَنْتُكُمْ وَحَذَرْتُكُمْ، وَأَعْلَمْتُكُمْ بِمَالَ الْكُفْرِ، وَلَمْ أَكْتُمْ عَنْكُمْ شَيْئًا.

﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أَي: مِنَ الْعَذَابِ، لِأَنَّهُ عِلْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ بِيَدِهِ، لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينٍ﴾ أَي: لَعَلَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ الَّذِي اسْتَعْجَلْتُمُوهُ شَرَّ لَكُمْ، وَأَنْ تَتَمَتَّعُوا فِي الدُّنْيَا إِلَى حِينٍ، ثُمَّ يَكُونُ أَعْظَمَ لِعُقُوبَتِكُمْ.

﴿قُلْ رَبِّ أَسْكِرْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: بَيْنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ هَذَا الدَّعَاءَ، وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ

سُورَةُ الْحَجِّ

الْآخِرَةِ، بِمَا عَاقَبَ اللَّهُ بِهِ الْكَافِرِينَ مِنْ وَقْعَةِ «بَدْر» وَغَيْرِهَا.

﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ أَلْسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أَي: نَسْأَلُ رَبَّنَا الرَّحْمَنَ، وَنَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ مِنْ قَوْلِكُمْ؛ سَنُظْهِرُ عَلَيْكُمْ، وَسَيُضْمَحِلُّ دِينَكُمْ، فَنَحْنُ فِي هَذَا لَا نَعْجَبُ بِأَنْفُسِنَا، وَلَا نَتَّكِلُ عَلَىٰ حَوْلِنَا وَقُوَّتِنَا، وَإِنَّمَا نَسْتَعِينُ بِالرَّحْمَنِ، الَّذِي نَاصِيَةُ كُلِّ مَخْلُوقٍ بِيَدِهِ، وَنَرْجُوهُ أَنْ يَتِمَّ مَا اسْتَعْنَاهُ بِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَقَدْ فَعَلَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

(١) فِي الْأَصْلِ (كَفَرُوا) وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أَثْبَتَ.

تفسير سورة الحج

قيل مكة، وقيل: مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم الذي رباهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كثيبًا مهيلاً، ثم كانت هباء منبثًا، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهنالك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتشتت النجوم، ويكون من القلائق والبالابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصًا في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملاها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا. ويومئذ ﴿يَعْرِى الْأَرْضُ مِنَ الْيَبْرِ ۝ وَالْيَمُّ وَالْيَبْرُ ۝ وَصَحْبُهُ وَيَبْرِ ۝ لِكُلِّ أَرَبٍ مِّنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِئُهُ﴾^(١).

وهناك ﴿يَعْبُثُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَكْفُلُ يَلْبِسُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَتَوَلَّىٰ لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه. وتنصب الموازين التي يوزن بها مناقيل الذر، من الخير والشر، وتشر صحائف الأعمال، وما فيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآثَمَ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرِّفِي الْأَرْحَامَ مَا نَفْسَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْفَقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُردُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّنْ مَّكَانٍ يَبِيدٌ سَبَعُوا لَهَا تَعْطَفًا وَكَفِيرًا ۝ وَإِذَا الْآفُقُ وَنَهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَّقْرَبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ويقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وإذا نادوا ربهم، ليخرجهم منها، قال: ﴿أَنْخَسُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيرةً ولا قطميرًا.

هذا، والمتقون في روضات الجنات يجبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتهد أنفسهم خالدون.

فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يُعَدَّ له عُدَّتُهُ، وأن لا يلهيه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره، روح أعماله.

(٤، ٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ

(١) صار في هذه الآيات خطأ وتداخل بين آيات سورة المعارج وآيات سورة عبس، فأثبت آيات سورة عبس.

﴿لَيْسَ لَكُمْ﴾ أصل نشأتكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

﴿وَيُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَأَهُ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ونقر أي: نبقى في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل.

﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾ لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة. وسخرنا لكم الأمهات، وأجرنا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّؤْتُونَ﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزوه فيرد إلى أرذل العمر، أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوة، وضعفت.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله. فقوة الآدمي محفوفة بضعفين: ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها، ولا خضر.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها، ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾ أي: صنف من أصناف النبات ﴿بِهَيْجٍ﴾ أي: يبهج الناظرين، ويسر المتأملين، فهذان الدليلان القاطعان يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَلْقُ﴾ أي: الرب المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة.

﴿وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى﴾ كما ابتداء الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته، وعظيم صنعته، ما أشهدكم.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فلا وجه لاستبعادها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فيجازيكم بأعمالكم حسننها وسيئها.

شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ○ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْتُمْ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ○ أي: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل، وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: قدر على هذا الشيطان المريد ﴿أَنْتُمْ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه ﴿فَأَنْتُمْ يُضِلُّهُ﴾ عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وهذا نائب إبليس حقاً، فإن الله قال عنه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْزَابِ السَّعِيرِ﴾.

فهذا الذي يجادل في الله، قد جمع بين ضلاله بنفسه، وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع، ومقلد لكل شيطان مريد، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا جمهور أهل الكفر والبدع، فإن أكثرهم مقلدة، يجادلون بغير علم.

(٥-٧) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَيْسَ لَكُمْ وَاقِرٌ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَأَهُ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّؤْتُونَ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْجِ ○ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَلْقُ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ○ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ أي: شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الرب، فهاكم دليلين عقليين تشهدونهما، كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتكم فيه، ويزيل عن قلوبكم الرب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتداءه سعيده، فقال فيه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام. ﴿ثُمَّ مِنْ نُفُفٍ﴾ أي: مني، وهذا ابتداء أول التخليق ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دماً أحمر ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ أي: ينتقل الدم مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما يمتزج. وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُخَلَّقَةً﴾ أي: مصور منها خلق الآدمي ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُعَبِّدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

(٩، ٨) ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلى البدع، فأخير أنه ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق.

﴿يَغْيِرْ عَلَيْهِ﴾ صحيح ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوحيا إليه الشيطان ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ وَرَدٌ﴾ أولئك هم الذين يجادلونكم.

ومع هذا ﴿ثَانِي عَظْفِهِ﴾ أي: لآوِي جانبه وعقته، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق. فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق، وما معهم من الحق، ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال.

ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعيًا من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والدم، ما هو حقيق به، وكلٌ بحسب حاله.

﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي: نذيقه حرًاها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

(١٣-١١) ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُعَبِّدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفًا، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكروه شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه. فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن، ما ينصرف به عن دينه.

﴿وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد عن دينه.

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أما في الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأساً لماله، وعوضاً عما يظن إدراكه فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له.

وأما الآخرة، فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: الواضح البين.

﴿يَدْعُوا﴾ هذا الراجع على وجهه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْفَعُهُ﴾ وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال:

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فإن ضرره في العقل والبدن، والدنيا والآخرة، معلوم ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ أي: هذا المعبود ﴿لَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي: القرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع

الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

(١٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين: مقلد، وداع، ذكر أن المسمي بالإيمان أيضًا على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم. والقسم الثاني: المؤمن حقيقة، صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه ^(١) يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار. وسميت الجنة جنة، لاشتغالها على المنازل والقصور والأشجار والنواب التي تُجَنُّ من فيها، ويستتر بها من كثرتها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فما أراد تعالى فعله من غير ممانع ولا معارض، ومن ذلك إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(١٥) ﴿مَنْ كَانَتْ يَدَايِهِ أَنْ لَوْ بَصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ يَسْبَبَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل، فإن النصر من الله ينزل من السماء ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ذلك الظان ﴿يَسْبَبْ﴾ أي: حبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وليرقى إليها ﴿ثُمَّ لَيَقْطَعْ﴾ النصر النازل عليه من السماء ^(٢).

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ﴾ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربه، والحرص على إبطال دينه، ما يغیظه من ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى النفي، [وأنه] لا يقدر على شفاء غيظه، بما يعمله من الأسباب.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه الذي يظن بجعله، أن سعيه سيفيده شيئًا، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي، تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول - إن كان ممكنًا - انت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به، حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدّها، وأغلقها، واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك. فهذا هو الرأي والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه، ولرسوله، وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأيس الكافرين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْطِعٌ مِنْ حَرِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

متم نوره ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم.

(١٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا، جعلنا آيات بينات واضحات دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله، فمن أراد الله هدايته، اهتدى بهذا القرآن، وجعله إمامًا له وقُدوةً، واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئًا، بل يكون حجة عليه.

(١٧-٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ يخبر تعالى عن

(١) في النسختين: أنهم. (٢) في هامش ب (فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع) النصر عن الرسول.

وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُطْلَمُ نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٧﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٨﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ لَيَقْبَسُوا نَفْسَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَيَّأْنَا عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا رِجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣١﴾

هَدَيْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَذَا اللَّهُ .

واعترض تعالى بين هذه الآيات، بذكر سجود المخلوقات له، جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، الذي يشمل الحيوانات كلها، وكثير من الناس، وهم المؤمنون .

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: وجب وكتب، لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفقه الله للإيمان، لأن الله أهانه .

﴿وَمَنْ يَنْ أَلَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته، فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، مستكنة لعزته، عانية لسلطانه، دل على أنه وحده الرب المعبود، والملك المحمود، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً ميئاً .

(٢٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُطْلَمُ نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون برههم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان،

طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم، التي حفظها وكتبها، وشهداها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ كل يدعي أنه المحق .

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين . ﴿فُطِغَتْ لَهُمْ شِبَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي: يجعل لهم ثياب من قطران، وتشتعل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار جداً، يصهر به ما في بطونهم من اللحم والشحم والأعضاء، من شدة حره، وعظيم أمره .

﴿وَلَهُمْ مَقْتَبِعٌ مِنْ حديدٍ﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم .

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فلا يفتُر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: المحرق للقلوب والأبدان .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل .

﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يُسَوَّرُونَ في أيديهم، رجالهم ونساؤهم أساور الذهب .

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها، لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم ﴿هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة، التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله .

﴿وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الصراط المحمود . وذلك، لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد، وحسن المأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح . أو: هددوا إلى صراط الله الحميد، لأن الله كثيراً ما يضيف الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه إلى الله .

وفي ذكر ﴿الْحَمِيدِ﴾ هنا، لبيان أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

المساجد.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجاً وعمَّاراً، رجالاً، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق.

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ناقة ضامر، تقطع المهامه والمفاوز. وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن. ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أناه الناس رجالاً وركباً من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال:

﴿لَيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي: لينالوا بيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكراً لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتوها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي: شديد الفقر.

﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام. ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ التي أوجبها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا.

﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق. المعتقد من تسلط الجبابة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناكس عمومًا لفضله وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسائل إليه.

ولعله - والله أعلم أيضاً - لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لنسك، أم مستقلاً بنفسه.

(٣١، ٣٠) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَمْ يَكُنْ رِبِيًّا وَاتَّخَذَ لَكُمْ الْأَنْفُسَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ حَقَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَشَرَّكَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءَ فَتَخَفَطَنَّهُ الطَّيْرُ أَوْ

والصد أيضاً عن المسجد الحرام الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارئ إليه. بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمة واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بالحاد يظلم، ندقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة، فما ظنكم^(١) أن يفعل الله بهم؟! وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه، وفعلها.

(٢٦-٢٩) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾
﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾
﴿لَيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾
﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ﴾ يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمته بانيه وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنائه، فبناه على تقوى الله، وأسس على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، وبينه على اسم الله.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس. وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأئمة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس

تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم، من تعظيم حرمانه وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْفَا وَالتَّوْبَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت.

وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها، باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: [في] الهدايا ﴿مَنْفَعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، يتنفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ مقدر موقت، وهو ذبحها، إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق أي: الحرم كله «منى» وغيرها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

(٣٥، ٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْكُرًا وَشَرًّا أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّانِدِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكًا، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولنظر أيكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكًا، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال:

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْكُرًا وَشَرًّا﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَتَسْلِمُوا﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده.

﴿وَالصَّانِدِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء، وأنواع الأذى فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقين أجره. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا

تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم من تلکم الأحکام، وما فيها من تعظیم حرمان الله وإجلالها، وتكريمها، لأن تعظيم حرمان الله من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه.

وحرمان الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها. فتعظيمها إجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متناقل، ثم ذكر منته وإحسانه، بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام، من إبل وبقرة وغنم، وشرعها من جملة المناسك التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين. ﴿إِلَّا مَا يَتَكَلَّمُ عَلَيْكُمْ﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَقَدْ نَزَّلَ الْحَزِيزُ﴾ الآية.

ولكن الذي من رحمته بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تزكية لهم، وتطهيراً من الشرك به، وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذُوا الرِّجْسَ﴾ أي: الخبث القدر ﴿مِنَ الْأَوْتَانِ﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس.

والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً.

﴿وَاتَّخِذُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور. فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور، أمرهم أن يكونوا ﴿حُقَّاءَ لِلَّهِ﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فمثلته ﴿فَكُنَّا حَرًّا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَنَقُطِعُ السَّقَطَ الْأَظْفَرُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبلبات، فإما أن تخطفه الطير فنقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

(٣٣، ٣٢) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ لَكَ فِيهَا مَنْفَعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ جِئَهَا إِلَى الْبَيْتِ

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٧﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْمُلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْأَعْتَقِ ﴿٣٨﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْكُفْرُ إِلَهُ وَحْدُ فَلَهُ اسْلُمُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٤٠﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ ۚ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۚ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُ الْقَنُوءَ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ۚ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ۚ هَذَا دَلِيلٌ أَنْ الشَّعَائِرَ عَامٌ فِي جَمِيعِ أَعْلَامِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ. وَتَقْدَمُ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ مِنْ عَظَمِ شَعَائِرِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، وَهَذَا أَخْبَرَ أَنَّ مِنْ جَمَلَةِ شَعَائِرِهِ، الْبُذْنُ، أَيُ: الْإِبِلُ، وَالْبَقَرُ، عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، فَتَعْظُمُ وَتَسْتَسْمُنُ، وَتَسْتَحْسِنُ.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أَيُ: الْمَهْدِي وَغَيْرِهِ، مِنَ الْأَكْلِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالِاتِّفَاعِ، وَالثَّوَابِ، وَالْأَجْرِ. ﴿فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أَيُ: عِنْدَ ذَبْحِهَا قُولُوا: «بِسْمِ اللَّهِ» وَادْبَحُوهَا.

﴿صَوَافٍ﴾ أَيُ: قَائِمَاتٍ، بَأَنَّ تَقَامَ عَلَى قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ، ثُمَّ تَعْقِلُ يَدَهَا الْيَسْرَى، ثُمَّ تَنْحَرُ.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أَيُ: سَقَطَتْ فِي الْأَرْضِ جُنُوبُهَا، حِينَ تَسْلُخُ، ثُمَّ يَسْقُطُ الْجَزَارُ جُنُوبُهَا عَلَى الْأَرْضِ، فَحِينَئِذٍ قَدْ اسْتَعْدَتْ لِأَنْ يُوْكَلَ مِنْهَا.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وَهَذَا خُطَابٌ لِلْمَهْدِيِّ، فَيَجُوزُ لَهُ الْأَكْلُ مِنْ هَيْدِهِ.

﴿وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ﴾ أَيُ: الْفَقِيرُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ تَقْنَعَا وَتَعَفَّأَا، وَالْفَقِيرُ الَّذِي يَسْأَلُ، فَكُلْ مِنْهَا لَهُ حَقٌّ فِيهَا.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أَيُ: الْبَدَنُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللَّهُ عَلَى تَسْخِيرِهَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا تَسْخِيرُهَا لَهَا، لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِهَا طَاقَةٌ، وَلَكِنَّهُ ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا، رَحْمَةً بِكُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ فَاحْمَدُوهُ.

وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ أَيُ: لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا ذَبْحُهَا فَقَطْ. وَلَا يَنَالُ اللَّهُ مِنْ لَحْمِهَا وَلَا دِمَائِهَا شَيْءٌ، لَكُونَهُ الْغَنَى الْحَمِيدُ، وَإِنَّمَا يَنَالُهُ الْإِخْلَاصُ فِيهَا،

وَالِاحْتِسَابُ، وَالنِّيَّةُ الصَّالِحَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَنُوءُ مِنْكُمْ﴾.

فَقِي هَذَا حَثٌّ وَتَرْغِيبٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي النَّحْرِ، وَأَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ وَجْهَ اللَّهِ وَحْدَهُ، لَا فَخْرًا وَلَا رِيَاءً وَلَا سَمْعَةً، وَلَا مَجْرَدَ عَادَةٍ، وَهَكَذَا سَائِرُ الْعِبَادَاتِ، إِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا الْإِخْلَاصُ وَتَقْوَى اللَّهِ، كَانَ [كَالْقَشْرِ] ^(١) الَّذِي لَا لُبَّ فِيهِ، وَالْجَسَدُ، الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أَيُ: تَعْظُمُوهُ وَتَجْلُوهُ ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أَيُ: مُقَابَلَةً لِهَدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَكْمَلَ النَّاءِ وَأَجَلَ الْحَمْدِ، وَأَعْلَى التَّعْظِيمِ.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ عِبَادَةُ اللَّهِ بِأَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ، كَأَنَّهُمْ يَرُونَهُ، فَإِنْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ، فَلْيَعْبُدُوهُ مُعْتَقِدِينَ وَقْتَ عِبَادَتِهِمْ أَطْلَاعَهُ عَلَيْهِمْ، وَرُؤْيَتَهُ إِيَّاهُمْ. وَالْمُحْسِنِينَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ بِجَمِيعِ وَجْهِ الْإِحْسَانِ مِنْ نَفْعٍ مَالٍ، أَوْ عِلْمٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ نَصَحٍ، أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٍ عَنْ مَنكَرٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ (كَالْقَشْرِ) وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أَثْبَتَ.

الله، وذُبح الكفار المؤذنين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ﴿فَهَدَمْتُ صَوْمِعُ وَيَعُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ﴾ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين.

﴿يَذْكُرُ فِيهَا﴾ أي: في هذه المعابد ﴿أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات، وتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم، وقتلوا دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره.

ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وبركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج. بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعًا.

أجيب، بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية، وفرد من أفرادها. فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، ودخل في حكمها، تعتبره عضوًا من أعضاء المملكة، وجزءًا من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بحدودها أو عُددها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها.

فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصًا المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَذَا جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى وَزِيَادَةٌ﴾.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه. ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم - من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل، ومستكثر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي: خائن في أمانته، التي حمله الله إياها، فيخس حقوق الله عليها، ويخونها، ويخون الخلق.

﴿كَفُورٍ﴾ لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان. فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقته، وسيجازيه على كفره وخيائته، ومفهوم الآية، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه.

(٣٩-٤١) ﴿أَوَلَمْ يَلِدْزِينَ يُقْتَلُونَ﴾ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوْمِعُ وَيَعُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، وأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية. فلما هاجروا إلى المدينة وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَلِدْزِينَ يُقْتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستصروه، وليستعينوا به.

ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ﴾ أي: ألجئوا إلى الخروج، بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: إلا أنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنبًا، فهو ذنبهم كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين

أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ لَئِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ غَفِيرٌ ﴿٤٣﴾ وَلَئِنْ صُرْتُكَ أَتَىٰ اللَّهُ مِنَ النَّصْرِ إِنَّ اللَّهَ لَلْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ لَئِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ غَفِيرٌ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ صُرْتُكَ أَتَىٰ اللَّهُ مِنَ النَّصْرِ إِنَّ اللَّهَ لَلْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٤٦﴾

الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به.

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: جميع الأمور ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى. فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة.

(٤٢-٤٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكْذِبُكَ فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ۖ وَقَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۖ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۖ فَكَانَ مِنَ الْقَرْيَةِ أَحْلَكَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِسَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ۖ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ الْأَرْضَ فَتَكُونُ لَكُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ أَعْدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأَتَتْهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق قلم - والله أعلم -.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصرى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثير] ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه، [بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور مبدأ العمل] فنحنده ونسأله أن يتم نعمته. ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَئِنْ صُرْتُكَ أَتَىٰ اللَّهُ مِنَ النَّصْرِ إِنَّ اللَّهَ لَلْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيُّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم فابشروا يا معشر المسلمين! فإنكم وإن ضعف عدوكم، وعدوكم وقوي عدد عدوكم وعدتكم^(٣)، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصْرَفُوا اللَّهَ يَصْرَفْكُمْ وَيَلَيْتَ أَقَامَكُمْ﴾ وقوموا أيها المسلمون! بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

ثم ذكر علامة من نصره، وبها يعرف أن من ادعى أنه ينصر الله، وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب، فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات.

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ التي عليهم خصوصاً وعلى رعييتهم عموماً، آتوها أهلها، الذين هم أهلها.

﴿وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الآدميين.

﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبجه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا

أَصْدُرُ أَي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المراثيات، وأما عمى البصر، فغايته بلغة ومنفعة دنيوية.

(٤٧، ٤٨) ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَمَّا أَخَذَتْهَا إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أَي: يستعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم، وعنادهم وتعجزا لله، وتكذبا لرسله، ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع. وأما عجلته والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزك عجلتهم وتعجزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من طوله، وشدته، وهوله، فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم، لا بد أن يدرکہم.

ويحتمل أن المراد: أن الله حليم، ولو استعجلوا العذاب، فإن يوما عنده كألف سنة مما تعدون. فالمدة، وإن تطاولتموها، واستبطأتم فيها نزول العذاب، فإن الله يمهل المدد الطويلة، ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم.

﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتَ لَهَا﴾ أَي: أمهلتها مدة طويلة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أَي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجبا لمبادرتنا بالعقوبة.

﴿لَمَّا أَخَذَتْهَا إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أَي: مع عذابها في الدنيا، سترجع إلى الله، فيعذبها بذنوبها. فليخذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

(٤٩-٥١) ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِنَّمَّا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ شَبِيحٌ ۝ قَالُوا لَنْ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١) يأمر تعالى عبده ورسوله محمدا ﷺ أن يخاطب الناس جميعا، بأنه رسول الله حقا، مبشرا للمؤمنين بثواب الله، منذرا للكافرين والظالمين من عقابه.

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، فعدلت الآية وصوبتها، وأبقيت التفسير كما هو.

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كُذِّب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَشُعُوبٌ ۝ وَقَوْمٌ لِلْهَيْمِ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ أَي: قوم شعيب.

﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم وشركهم يزدادون.

﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَي: إنكارى عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأظف المثلثات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصبغة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم. ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيرا منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال:

﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أَي: وكم من قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتها لها ظلما منا، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أَي: فديارهم متهدمة، قصورها وجدرانها، قد سقطت عروشها، فأصبحت خرابا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آنسة، ﴿وَبُيُوتُهُمْ مُتَعَطِّلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ أَي: وكم من بئر، قد كان يزدهم عليه الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر. وكم من قصر، تعب عليه أهله، فشيده ورفعوه وحصنوه وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئا، وأصبح خاليا من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثالا لمن فكر ونظر.

ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

بالعذاب.

(٥٩، ٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا رِضْوَانًا وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهدًا في سبيل الله.

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى^(٣): أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقًا واسعًا حسنًا، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيدًا، فكلهم مضمون له الرزق. فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيرًا، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول، قوله: ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا رِضْوَانًا﴾، إما ما يفتحه الله عليهم من البلدان، خصوصًا فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالأمر، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها. ﴿حَلِيمٌ﴾ يعصيه الخلائق، ويباينونه بالعظام، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ذلك بأن من جُنِّي عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم، فإن بُغِيَ عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يُبَغَى عليه، بسبب أنه استوفى حقه. وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحدًا إذا

(١) كذا في ب، وفي أ: شفاعتهم. (٢) في النسخين: وأنه. (٣) في ب: المراد.

الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كتمان النفوس الخيرة والشريرة.

﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم، عند دفع المعارض والشبه.

﴿فَتُخَيِّتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات، فيها بيان أن للرسول ﷺ، أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷻ. ﴿وَالنَّجْوَى﴾ فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكَّةَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَوَآءَ النَّالِئَةِ الْأُخْرَى﴾ ألقى الشيطان في قراءته تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن^(١) لترتجى فصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فانزل الله هذه الآيات: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيعَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ۝ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جثتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً﴾ أي: مفاجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة.

فإذا جاءتهم الساعة، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول، واتخذوا معه سبيلًا. ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم.

﴿أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﷻ تعالى، لا غيره ﴿بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل.

﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله، وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله، وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها.

﴿فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهم من شدته وألمه، وبلوغه للأثمة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله

ظلم، وجُني عليه، فالتصر إليه أقرب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم. فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة.

فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تغفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

(٦٢، ٦١) ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْيَلِّ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ○ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف في تقديره وتدبيره الذي ﴿يُؤَلِّجُ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا. فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيتربط على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى ديب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ﴿سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِنْ أَسَرِّ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِلْتِئَالٍ وَسَارٍ بِإِلْتِهَارٍ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات. ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فان، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه. ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي

سُورَةُ الْحَجِّ

٣٣٩

سُورَةُ الْحَجِّ

الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرَنَّ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخِلْنَّهُمْ فِيْ دَخْلًا يَرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْيَلِّ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون، إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أن العبادات كلها الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه. ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

(٦٤، ٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ○ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ هذا حث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على وحدانيته، وكماله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها، وبيس ما فيها، من شجر ونبات.

فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها

الحميد في غناه.

(٦٦، ٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَكَرُوفٌ رَجِيمٌ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ۝ أَي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابعة، وأياديه الواسعة، و ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لبني آدم، حيواناتها لركوبه، وحمله وأعماله، وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها بقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها، ويتنفع بها.

﴿وَالْفَلَكَ﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ تحملكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه ﴿يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انبَسَجَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عَدْوٍ إِلَيْهِ كَانَ حِطَاءً غَفُورًا ۝﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَكَرُوفٌ رَجِيمٌ﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضرر. ومن رحمته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدره ربه.

(٦٧-٧٠) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْخِرْ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هَذِهِ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَإِنْ جَدَلْتَهُ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنْسَكًا﴾ أي: معبدًا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَّوْكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُمُ﴾ الآية.

(١) في ب: (عبادة الخير، ويدفع عنهم الشر).

بذلك منظر بهيج، إن الذي أحيها بعد موتها وهمودها لمحبي الموتى، بعد أن كانوا رميمًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر^(١)، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات.

﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿أَلَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بملكه وحكمته، وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمشيء.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه. ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يوالههم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة. ومن غناه، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدا، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق، بوجه من الوجوه، فهو يُطْعَمُ ولا يُطْعَمُ، ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودينامهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السموات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمتيته، فأعطاهم فوق أمانيتهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه أن يده سحاء بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه، ما أودعه في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الْحَكِيمُ﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه لكونها حسنى، وفي صفاته لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة. وفي شرعه لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده،

﴿هُم نَارِكُوهُ﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصًا من الأمين أهل الشرك والجهل المبين. فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآمْرِ﴾ أي: لا ينزعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جنتهم به، بقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله». وكقولهم: «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحااجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال.

فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالإقتصار على هذه دليل على أن مقصوده التعتن والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يشنك عن الدعوة شيء، لأنك على ﴿هَذِهِ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم، ويوقفت اعتراضهم. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الظَّاهِرِ﴾ مع أن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هَذِهِ مُسْتَقِيمٌ﴾ إرشادًا لأجوبة المعترضين، على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول.

والهدى ما تحصل به الهداية من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسننها وعدلها وحكمتها بالعقل والفترة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدل عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكمًا بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٧٢﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَخْتَكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلَفُونَ ﴿٧٥﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ نَعْرُفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم قال له: «اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

(٧٢، ٧١) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ○ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ نَعْرُفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد، تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون

الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها .

فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوزة، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادِه وبطلانه، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب الله، إذا نزل بهم وحل . وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قضد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ .

ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تَعَرَّفُوا فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ من بغضها وكررتها ترى وجوههم مُعْبَسَةٌ، وأبشارهم مكفهرة .

﴿يَكَادِرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بشس الحالة، وشرها بشس الشر، ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلماذا قال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَّاهُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسِّرُ الْفَصِيرُ﴾ فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام .

(٧٤، ٧٣) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِثْلُ مَا سَمِعُوا لَعْنُ إِبْرَاهِيمَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا مثل ضربه الله لقيح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، ﴿ضُرِبَ مِثْلُ مَا سَمِعُوا لَعْنُ﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شمل كل ما يُدعى من دون الله ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى .

﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ بل أبلغ من ذلك لو ﴿يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز .

٣٤١
يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِثْلُ مَا سَمِعُوا لَعْنُ إِبْرَاهِيمَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ مَا يَكُنْ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بَيْنَ يَدَيْهِمْ هُوَ سَمْتَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين . فهذا ما قدر ﴿اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن . ومن كمال قوته أنه يمسك السموات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة . ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير، وسوط من عذابه .

(٧٦، ٧٥) ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

ووعظ، وغير ذلك.

﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ﴾ أي: اختاركم - يا معشر المسلمين - من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل. فقبلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام. ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احتراز منه بقوله:

﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها، ولا يؤدها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية، وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و «الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: هذه الملة المذكورة، والأوامر المذبورة، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزموها واستمسكوا بها.

﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في الكتب السابقة، المذكورون ومشهورون.

﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع. أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً.

﴿يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً خياراً. تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها، وجميع لوازمها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقها شكراً لله، على ما أولاكم.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره ﴿فَتَعِمَّ الْمَوْلَى وَبَعَثَ النَّصِيرَ﴾ أي: نعم المولى لمن تولاها، فحصل له مطلوبه ﴿وَبَعَثَ النَّصِيرَ﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة الحج، والحمد لله رب العالمين.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقاً، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق، بما تميزوا به من الفضائل فقال:

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء. فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم^(١) ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإنما المصطفى لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختاره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: هو يرسل الرسل، يدعون الناس إلى الله، فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال فمصيبرها إلى الله، فلا تعدم منه فضلاً وعدلاً.

(٧٨، ٧٧) ﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاتَّقُوا الْحَيَّ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ ۚ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون، وأن ربوبيته وإحسانه على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتتجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبده، فمن وفق لذلك، فله القدر الموعود، من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب. فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر

(١) في ب: واجتباهم.

وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا».

فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كُفَّ أَسْتَهْم، عن اللغو والمحرمات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزينين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجب ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء المملوكات ﴿فَأَيْنَهُمْ غَيْرَ مَلُومٍ﴾ بقرعها، لأن الله تعالى أحلهما.

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَكَرَ﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

وبدل قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أنه يشترط في حل المملوكة، أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها^(٢) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾، فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما.

فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء

(١) في أ: المؤمنين. (٢) في أ: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت.

تفسير سورة المؤمنون^(١)

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ○ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ○ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومٍ ○ فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَكَرَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ○ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ○ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا تنويه من الله، بذكر عبادة المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الانتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فَلْيَرِثِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ، يَعْرِفُ بِذَلِكَ مَا مَعَهُ وَمَا مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْإِيمَانِ زِيَادَةً وَنَقْصًا، كَثْرَةً وَقَلَّةً.

فقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام. المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوسواس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد.

فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتزويهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فأعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى. وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا في الخير - كان مالكا لأمره، كما قال النبي ﷺ، لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٢

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمْثَلِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
يَحْفَظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
لَمَعِينُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ ﴿١٧﴾

○ ثُمَّ جَعَلَ سَلَالَةً مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ○ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ○
فَخَلَقْنَاهُ كُلَّهُ حَسَنًا، وَالْإِنْسَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَخْلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ
أَحْسَنُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي
أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿لَمَعِينُونَ﴾ في
أحد أطواركم وتقلاتكم، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾
فتجازون بأعمالكم، حسننها وسيئها. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنحَسِبُ
الْإِنْسَانُ أَنْ يُكْرِمَهُ مُدًى ○ أَلَوْ بِكَ نَفْثَةٍ مِنْ مَنِيَّ نَعْنَى ○ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَطَلَقَ
نَسْئًا ○ فَعَمِلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ○ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْجَى
لِلْوَقْتِ ○

(١٧-٢٠) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ
غَفِيلِينَ ○ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ
بِهِ لَقَادِرُونَ ○ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتَيْنِ مِنْ نَعِيمٍ وَأَنْتَبِهْ لَكُمْ فِيهَا فَوْكِهُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ○ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ تَنْجُجًا مِنْ طُورٍ سِنَاءَ تَبْنُتٍ وَالَّذِينَ

بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ﴾ أي: يداومون عليها في
أوقاتها وحدودها وأشراتها وأركانها، فمدحهم بالخشوع
بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين،
فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من
دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ ○
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها
وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو
المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على
درجاتهم و(١) مراتبهم، كل بحسب حاله.

﴿هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبعثون عنها جِوَلًا،
لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضلها، وأتمه، من غير مكدر
ولا منغص.

(١٢-١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ○ ثُمَّ
جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ○ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ
مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ
خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ○ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِينُونَ ○
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ذكر الله في هذه الآيات أطوار
الآدمي وتقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر
ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿مِنْ سُلَالَةٍ
مِنْ طِينٍ﴾ أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك
جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخيث وبين ذلك،
والسهل والحزْن، وبين ذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جنس الآدميين ﴿نُطْفَةً﴾ تخرج من بين
الصلب والتراتيب، فتستقر ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ وهو الرحم
محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ التي قد استقرت قَبْلَ ﴿عَلَقَةٍ﴾ أي: دَمًا
أحمر، بعد مضي أربعين يومًا من النطفة. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ﴾
بعد أربعين يومًا ﴿مُضْغَةً﴾ أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما
يمضغ من صغرها. ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ اللينة ﴿عِظًا﴾
صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها. ﴿فَكَسَوْنَا
الْعِظَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام، كما جعلنا
العظام عمادًا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه
جمادًا، إلى أن صار حيوانًا.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: تعالى وتعاظم، وكثر خيره ﴿أَحْسَنُ
الْخَالِقِينَ﴾ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ

سورة المؤمنون

٣٤٣

سورة المؤمنون

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٢١﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُّهٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحُوا بِطُغْيَانِ كُفْرِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٤﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لَحْمُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُوا أَمْرًا وَعَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَصَّ صُورَهُ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ دُونَكُمْ ﴿٢٩﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفَالِكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَيَذَّابُ أَمْرًا وَأَقَارِلَ لِنُثَوِّرَ فَاسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِيبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٠﴾

وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ ﴿٢٣﴾ لما ذكر تعالى خلق الآدمي، ذكر سكنه، وتوفّر النعم عليه من كل وجه، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْكَكُمْ﴾ سقفاً للبلاد، ومصلحة للعباد ﴿سَبِغَ طَرَائِقُ﴾ أي: سبع سموات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا أيضاً محيط بما خلقنا، فلا تغفل مخلوقاً، ولا ننساه، ولا نخلق خلقاً فضيعه، ولا تغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾.

وكثيراً ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يكون رزقاً لكم ولأنعامكم، بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند الضرر من دوامه.

﴿فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرته منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً معداً في خزائن الأرض بحيث لم يذهب نازلاً حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره.

﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله فيذهب نازلاً، لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده، أن يشكروه على نعمته، ويقدرُوا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

خص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَوَكُّهٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من تين وأترج ورمان، وتفاع وغيرها.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها.

خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها التي ذكر بعضها في قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ﴾ أي: فيها الزيت الذي هو دهن يستعمل^(١) استعماله من الاستصباح به، واصطبغ الآكلين، أي: يجعل إداماً للأكليين، وغير ذلك من المنافع.

(٢٢، ٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحُوا بِطُغْيَانِ كُفْرِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ○ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لَحْمُونَ ﴿٢٥﴾ أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام: الإبل، والبقرة، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمتفتحين ﴿شُفِيكُم مَّاءً فِي بَطُونِهَا﴾ من لبن، يخرج من بين فرت ودم خالص سائغ للشاربين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً، تستخفونها يوم ظعنكم، ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفضل المأكَل من لحم وشحم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لَحْمُونَ﴾ أي: جعلها سفناً لكم في البر،

(١) كذا في النسختين، وقد شطبت كلمة (يستعمل) في ب، وكتب فوقها بخط مغاير: يكثر، وهي كذلك في الطبقات المختلفة للتفسير.

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: بإرسال رسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم. وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولا، فإما أن يكونوا على الهدى، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على غيره، فليحمدوا ربهم، ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم، ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سببا لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ﴾ أي: مجنون ﴿فَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا به ﴿حَتَّىٰ جِيءَ﴾ إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبهة التي أوردها^(١)، معارضة لنسبة نبينهم، دالة على شدة كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال، فإنها لا تصلح للمعارضة، بوجه من الوجوه، كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة.

فقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أثبتوا أن له عقلا يكيدهم به، ليعلوهم ويسودهم ويحتاج - مع هذا - أن يحذر منه لئلا يغتر به.

فكيف يلتزم مع قولهم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ﴾ وهل هذا إلا من مشبه ضال، متقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق اتفق له، غير عالم بما يقول؟! وبأي الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارا ﴿قَالَ رَبِّ اصْنَرْ لِي مِثْلَ كَذُوبِي﴾ فاستنصر ربه عليهم غضبا لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْآلِيسِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ ○ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْسِدُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عند استجابتنا له سببا ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه.

﴿أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ﴾ أي: السفينة ﴿وَأَعِينْنَا وَوَحَيْنَا﴾ أي: بأمرنا لك، ومعاونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فَإِذَا جَاءَ امْرَأَتُكَ﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وَقَارَ الْثَلُوجُ﴾ أي: فارت الأرض، وتفجرت عيوننا، حتى محل النار، الذي لم تجر العادة إلا يبعده عن الماء ﴿فَاسْتَلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِزٍّ﴾ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات، ذكرا وأنثى، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات،

تحملون عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلا [كان] أو كثيرا.

فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدر علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

(٢٣-٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى آخر القصة وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَلْبَاقِينَ﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول أرسله لأهل الأرض فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده فقال: ﴿يَتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها، ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى، لأنه الخالق الرازق الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صورت على صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله، فاستمر على ذلك، يدعوهم سرا وجهارا، وليلا ونهارا، ألف سنة إلا خمسين عاما، وهم لا يزدادون إلا عتوا ونفورا.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبوعون - على وجه المعارضة لنبينهم نوح، والتحذير من اتباعه - ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعا، وإلا فما الذي يفضل عليه، وهو من جنسكم؟ وهذه المعارضة، ما زالت موجودة في مكذبي الرسل.

وقد أجاب الله عنها بجواب شاف، على ألسنة رسله كما في قوله: ﴿قَالُوا﴾ أي: لرسولهم ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَمِينُ آبَائِنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ○ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ○ فَأَخْبِرُوا أَنْ هَذَا فَضْلُ اللَّهِ وَمَتْنُهُ، فليس لكم أن تحجروا على الله، وتمنعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ وهذه أيضا معارضة بالمشبهة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء أنزل ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين، لأن الملك لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل ثم يعود اللبس عليهم كما كان.

التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض.
 ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: أدخلهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ كابنه.
 ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تدعني أن أنجيهم،
 فإن القضاء والقدر قد حتم أنهم مغرورون.
 ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾ أي: علوتم عليها،
 واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحمدوا الله
 على النجاة والسلامة ﴿فَقُلْ لَعَنَ اللَّهُ الَّذِينَ تَجُنَّ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
 وهذا تعليم منه له ولمن معه، أن يقولوا هذا شكراً له، وحمداً
 على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.
 ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْ مُنْزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي: وبقيت
 عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم
 منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وَفُيِّقَ الْأَمْرُ
 وَأَسْرَتَ عَلَى الْمُجْرِمِينَ وَقِيلَ بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿قِيلَ
 يَسُوجُ أَقْبِطْ بِسُلْكِ مَنَا وَبَرَكَتِكَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرِ وَمَنْ مَعَكَ﴾
 الآية.
 ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هذه القصة ﴿لَآيَاتٍ﴾ تدل على أن
 الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه
 كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب
 أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض.
 والفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَكَنَهَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ مِنْ تَحْتِهَا فَصَالِحٌ لِمَا تَدْعُو﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات
 ومطالب ﴿وَأِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

(٣١-٤١) ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا مَآخِرِينَ﴾ ○ فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا
 مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ○ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ
 قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ○ وَلَكِنْ
 أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ ○ أَيْدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ
 رُتَابًا وَعِظْكُمْ أَنْكُمْ تُخْرِجُونَ ○ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ○ إِنَّ هِيَ إِلَّا
 حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ○ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ^(١) ○ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا
 كُنتُ فِيهِ ○ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ○ فَلَخَذْنَاهُمْ الصَّبْحَةَ بِالحَقِّ
 فَجَعَلْنَاهُمْ غَسَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ○ لما ذكر نوحاً وقومه،
 وكيف أهلكهم قال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا مَآخِرِينَ﴾ الظاهر

أنهم «ثمود» قوم صالح عليه السلام لأن هذه القصة تشبه
 قصتهم.

﴿فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه
 وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد
 عن اشمئزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أممهم ﴿أَنْ

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة،
 وهي أول دعوة يدعون بها أممهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار
 أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار
 بطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ربكم،
 فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر
 والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم،
 وتكديباً وتحذيراً منه:
 ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ
 مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فما الذي يفضل عليه؟ فهلا كان
 ملكاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب.
 ﴿لَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ﴾ أي: إن تبعتموه
 وجعلتموه لكم رئيساً، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل،

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُو حَقًّا فَدَرَسُوا بِهِ حَقًّا
 حِينَ﴾ وهذا سبق قلم منه - رحمه الله - وسيفسرهما فيما يلي على نحو ما
 أثبت، وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

لِلنَّاسِ، وَلَا يَرُدُّ عَلَىٰ هَذَا إِهْلَاكَ فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْقَصَصِ، فَهِيَ صَرِيحَةٌ جَدًّا، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ قَالَ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس، وهدى ورحمة.

ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ من قَبْلِ كَذَلِكَ نَطَعَ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَعَتِّينَ ٥ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿الْآيَاتِ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ.

فقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاء به ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بيّنة، من قوتها أن تقهر القلوب، وتتسلط عليها لقوتها فتتقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البيّنة على المعاندين وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فَسَخَّرْنَا بِآيَةِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بتلك الآيات البيّنات ﴿فَقَالَ لَهُ﴾ ﴿فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَسْحُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ٥ ك «هامان» وغيره من رؤسائهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي: وصفهم العلو والقهر والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

﴿فَقَالُوا﴾ كبراً وتبهاً، وتحذيراً للضعفاء العقول، وتمويهاً: ﴿أَنُؤْمِنُ بِإِسْرَافِ مِثْلِكَ﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منه الله عليهما بالرسالة.

﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿لَنَا عِيدُونَ﴾ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَحْنُ نَحْكُمُكُمْ مِنْ

عَالٍ فِرْعَوْنُ يَسْؤُمُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِدَعْوَانِئِهِمْ ثُمَّ وَاسْتَعِينُوا يَسَاءَ كَيْفٍ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟ وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟!

ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ بِدَآئِ الْآرَائِ﴾ من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاودة. ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ في الغرق في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ﴾ بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربههم بأسمائه وصفاته.

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي: وامتتنا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من

الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَتُعْصُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ تُبْتَغُونَ الْفَلَاحَ ۚ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۚ﴾ (٥١-٥٢) فالتواجب من كل المتتبعين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمتثلوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبى الظالمون المفترون إلا عصياناً، ولهذا قال:

﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: تقطع المتتبعون إلى اتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُمْ﴾ أي: دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: قطعاً ﴿كُلِّ جَزَاءٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: بما عندهم من العلم والدين.

﴿فَرِحُوا﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون. ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمْرِهِمْ﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم^(١) المحقون ﴿حَتَّىٰ جِئَ﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفذ فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّحُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَنَبَّأُ﴾ أي: أيعتقدون أن زيادتنا إليهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنما نملي لهم، ونمهلهم، ونمددهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾

(٥٧-٦٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ يُنَادُونَ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُشْرِكُونَ ۖ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۖ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ سُخْرٌ ۖ وَلَا تُلَاقِي نَفْسًا إِلَّا وَهُنَّ مُسَبِّحَاتٌ لِلْحَمْدِ بِمَا نَالَتْ وَلَهُنَّ آسَنٌ وَذُرَىٰ خَضِرٌ أَوَّلَٰئِكَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۖ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَمْنِ، الَّذِينَ يزعمون أن عطاء الله إليهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام،

(١) في النسختين: هو.

آيات الله العجبية، حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبيّاً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى.

﴿وَأَوَّيْتَهُمَا إِلَىٰ رَوْحٍ﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستقر وراحة ﴿وَمِيعَةٍ﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهراً وهو المعين ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَمْعَجَ النَّخْلَةِ لَسُقُوطِ عَلَيْهِ رُطْبًا حَيًّا ۖ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَفَرَّي عَيْنًا﴾.

(٥١-٥٦) ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۖ وَإِنَّ هَذِهِ أَتَىٰ مَنَّ وَجْدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۖ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۖ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرِهِمْ حَتَّىٰ جِئَ ۖ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُبَدِّعُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَنَبَّأُ ۖ شَاعِرٌ هُمْ فِي الْفُتُورِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليهم، فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المأكول وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح ولكن تتفاوتت بتفاوت الأزمنة.

ولهذا، الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له ومحبه وخوفه ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين، واليتامى، والخوانسار والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه.

كما جرى له رقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أَتَىٰ مَنَّ وَجْدَةً﴾ أي: جماعةكم - يا معشر الرسل - جماعة ﴿وَجْدَةً﴾ متفقة على دين واحد، وربكم واحد.

﴿فَاتَّقُونِ﴾ بامتنال أوامري، واجتناب زواجري، وقد أمر

وقت إليه.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَظْلُقُ بِالنَّحْوِ﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقًا. ﴿وَهُمْ لَا يَخْلُقُونَ﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

(٦٧-٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ ○ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ○ لَا يَجْتَرُوا يَوْمَ النَّكَرِ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ ○ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْذِرُكُمْ فَلْتُنْصِرُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَتَنْصُرُوا ○ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْتَجِرُونَ ○ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ○ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ○ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفرية، والمعادنة للشرع، ما هو موجب لعقابهم.

﴿و﴾ لكن ﴿لَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ﴾ هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم، ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم، مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِهِمْ﴾ أي: متعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره، فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا مَسَّهُ ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه. ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا يَجْتَرُوا يَوْمَ النَّكَرِ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾، وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم^(١) الغوث من جانبه لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْذِرُكُمْ﴾ لتؤمّنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل كنتم ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَكْبِرُونَ﴾ أي: راجعين الفهقرى إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْتَجِرُونَ﴾ قال المفسرون: معناه:

(١) كذا في ب، وفي أ: عنه.

وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَجَالَتِ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته، زادتهم إيمانًا، ويتفكرون أيضًا في الآيات القرآنية، ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله، وخوفه ورجائه وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضًا في الآيات الأفقية، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى آخر الآيات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا شركًا جليًا، كاتخاذ غير الله معبودًا، يدعو ويرجوه، ولا شركًا خفيًا كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله في أقوالهم وأعمالهم، وسائر أحوالهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدر عليهم، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك.

﴿و﴾ مع هذا ﴿قُلُوبُهُمْ رَاحَةٌ﴾ أي: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾. أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سئحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسواهم، ولما كان المسابق لغيره المسارع، قد يسبق لجدّه وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال:

﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيرات ﴿سَبِقُونَ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون، ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْهًا﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٣﴾
 أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَا تَنكُفُ
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدُنَّا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٥﴾
 بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَفْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
 عَمِلُونَ ﴿٦٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَرَفِّهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُونَ ﴿٦٧﴾
 لَا تَخِرْهُمُ الْيَمُّ إِنَّمَا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٨﴾ فَكَانَتْ عَآيَتِي
 نَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ ﴿٦٩﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
 بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
 آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٢﴾
 أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَآكَرَهُمُ لِلْحَقِّ
 كِرْهُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
 ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٤﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خُرَاجَ رِيكَ خَيْرٌ
 وَهُوَ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾
 وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَفُّنَهُنَّ ﴿٧٧﴾

والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل، والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالامر الثابت الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، وأيضاً فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعته من الإيمان أنه ﴿جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَآكَرَهُمُ لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله وقد علم كراهتهم لهذا الأمر، وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق، لا شكاً ولا تكدياً للرسول، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يكن الحق موافقاً لأهوائهم لأجل أن

مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت، المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى ﴿سَمِرًا﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت ﴿تَهْجُرُونَ﴾ [أي: تقولون الكلام الهُجَر، الذي هو القبيح في] هذا القرآن، فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقال الله عنهم: ﴿أَوَلَيْسَ هَٰذَا الْقُرْآنُ نَجْوً لَّكُمْ وَمَوْعِظَةً لَّكُمْ وَلَا تَكُونُوا سَمِيعِينَ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾.

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيب ينفذهم، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة ﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أفعالها.

﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا، هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَٰذَا وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ أَوَّلُ حِجَّتِكُمْ بَآدِئِي وَمَا وَدَّعْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق. فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمداً ﷺ غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله، ونسأل عنه مَنْ له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه، وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين»، فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، فلهذا قال ما قال،

يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟.

يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم وكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُنَكِّتُ﴾ متجنبون منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره، قال تعالى: ﴿إِن لَّكَ بِسِتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمَ أَنَّهَا بَيِّنَاتٌ أَهْوَاءُهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرَ هُدًى تَرَى اللَّهَ﴾.

(٧٥-٧٧) ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ○ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ○ حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه، إن الله إذا كشف الضر عنهم لجؤا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهون، أي: يجولون في كفرهم، حاثرين مترددين.

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعونه مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يغفون في الأرض بالشرك وغيره.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد.

﴿فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ إليه ويفتقرون، بل مرَّ عليهم ذلك، ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله:

﴿حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليخذلوا قبل نزول عذاب الله الشديد الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أطلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية التي يؤدب الله بها عباده.

قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٧٨-٨٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّرُ وَيُمِيتُ وَلَهُ أَتَخَلَّفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى

أجاب تعالى بقوله: ﴿لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض لفساد التصرف والتدبير، المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل.

﴿بَلْ أَلَبَّيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس.

﴿فَهَرَّ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيهُمُ﴾ ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟.

(٧٢) ﴿أَلَمْ تَتْلُوهُمْ حَرَامًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ أي: أو منعهم من اتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجراً ﴿فَهُمْ بَيْنَ مَقَرٍّ مُمَقِّلُونَ﴾ يتكلفون من اتباعك، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك ﴿فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿يَقُولُوا لَا أَشْكُرُكَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحاً لهم، وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أمتهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

(٧٣، ٧٤) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ○ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُنَّهُمْ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمت كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها واحداً بعد واحد، فذكر من الموانع أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بآبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جنة، كما تقدم الكلام عليها.

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبر القرآن، وتلقى نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقة وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجراً، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود من قرب حنيفية سمحة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إليهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن

بمنته على عباده الداعية^(١) لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتدركوا به المسموعات فتنتفعوا في دينكم ودنياكم.

﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها^(٢) في مصالحكم.

﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع والأبصار والعقول بأن كنتم صمًا عميًا بكما ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟.

أفلا تشكرون الذي منّ عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم قليل شكركم مع توالي النعم عليكم.

﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بئكم في أقطارها، وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعيشكم، ومساكنكم.

﴿وَاللَّهُ يُخْشَرُونَ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها.

﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده.

﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار سرمداً، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً، من إله غير الله، يأتيكم بضياء أفلا تبصرون؟ ﴿وَمَنْ رَحِمَهُ جَعَلَ لَكَ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع والأبصار والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم أن تخلصوا له العبادة، وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

(٨١-٨٣) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ قَالُوا أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكِبًا وَعِظَمًا أَوْ لَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكِبًا وَعِظَمًا أَوْ لَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل، بزعمهم.

سورة المؤمنون

٣٤٧

سورة المؤمنون

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ (٧٦) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْهُمْ فِيهِ مَبْسُوسُونَ﴾ (٧٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣) ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِصُ﴾ (٨٧) ﴿قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩)

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نوجد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا، ولم نره، ولم يأت بعد.

﴿إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأسمارهم التي يتحدث بها وتلهي، وإلا فليس لها حقيقة، وكذبوا - فحبهم الله -، فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث، ومثله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ الآيات ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ﴾ الآيات.

(٨٤-٨٩) ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ○ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِصُ ○ قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ○ أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجًا عليهم بما أثبتوه، وأقروا به من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها - على ما (١) كذا في ب، وفي أ: الداعي. (٢) كذا في ب، وفي أ: لتدركوا به المبصرات، فتنتفعون به.

الوجوه، وتركتهم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدير لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

(٩٠-٩٢) ﴿بَلْ أَنْتَنَهُم بِالْحَقِّ وَلَئِنْهُمْ لَكَذِبُونَ ۝ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ۝ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَاللَّهِدَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم ما يعرضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وَلَئِنْهُمْ لَكَذِبُونَ﴾.

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذَا﴾ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبة.

﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن يتنظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربَّين؟! ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببدع أشكالها، أن المدير لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط.

فقال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا

أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك:

﴿لَنْ أَلْأَرْضَ وَنَ فِيهَا﴾ أي: مَنْ هو الخالق للأرض، ومن عليها من حيوان، ونبات، وجماد، وبحار، وأنهار، وجبال، المالك لذلك، المدير له؟ فإنك إذا سألتهم^(١) عن ذلك، لا يد أن يقولوا: لله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أَفَلَا نَذْكُرُونَ﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندهم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات.

والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجِجِ﴾ وما فيها من الثيرات، والكواكب السيارت، والثوابت ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك، ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله.

قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿أَفَلَا نَنْقُوسُ﴾ عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أَفَلَا نَذْكُرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا نَنْقُوسُ﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى، ثم انتقل إلى إقارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال:

﴿قُلْ مَنْ يَبْدُؤُكُمْ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟ و«الملكوت» صيغة مبالغة، بمعنى الملك ﴿وَهُوَ يُحْيِي﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم.

﴿وَلَا يُحَاكِرُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزماً لهم: ﴿فَأَنِّي تُسْهِرُونَ﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع

من الواجبات والمستحيلات والممكنات.

﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فَتَعْلَى﴾ أي: ارتفع وعظم.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، من لا علم عنده إلا ما علمه الله ^(١).

(٩٣-٩٥) ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِيقِي مَا يُوعَدُونَ ○ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ○ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُنِيبَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِيقِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: أي وقت أرتني عذابهم، وأحضرتني ذلك.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: اعصمني واحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضًا من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره.

قال الله في تقرب عذابهم: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُنِيبَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

(٩٦-٩٨) ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ○ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ○ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ هذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها، فقال: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء.

ومن مصالح ذلك أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل.

وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِّ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ○ وَمَا يُلْقِنَهَا أَي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أُوْءَا حِطَّ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر، والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فأنت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه ^(٢) وظيفة العبد في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٦﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِيقِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُنِيبَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٠١﴾ أَدْفَعْ بِأَلْيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠٢﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٠٣﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٠٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٠٥﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْحٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٦﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَبَسَّاتٌ لَوْ أَنَّهُمْ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٧﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٨﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٩﴾

مقابلة المسيء من البشر.

وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير.

فالوظيفة في مقابله أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله، فقال:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئًا من حولي وقوتي ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ○ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيني بسبب مباشرتهم، وهمزهم ومستمهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه ^(٣) استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

(٩٩، ١٠٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ○

(١) في ب شطب حرف الجر (من) وغيره الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله). (٢) في النسختين: هذا. (٣) في النسختين: هذا.

كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل، ما له وما عليه، وتبين فيه ماثيل الدر من الخير والشر.

﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالناء الجميل.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ كل خسارة غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة.

ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية فقوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال: ﴿تَلَفَّحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوهم.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قد عبست وجوهمهم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه.

فيقال لهم - توبيخاً ولوماً - : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُوا عَلَيَّكُمْ﴾ تدعون بها لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنتظروا ﴿فَكَتَبَرَّ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ ظلماً منكم وعناداً، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبيئات للمحق والمبطل.

فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفية، كما قالوا في الآية الأخرى ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

(١) في النسختين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج، فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتتها منها.

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال إذا رأى ماله، وشاهد قبح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول:

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله ﴿كَلَّا﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿إِنَّمَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نُهي عنه.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة.

وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فليُعدوا له عُدتَه، وليأخذوا له أهْبَتَه.

(١٠١-١١٤) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ○ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ○ تَلَفَّحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ○ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُوا عَلَيَّكُمْ فَكَتَبَرُوا بِهَا تَكْذِبُونَ ○ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ○ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذَابَنَا فَلَنَا ظَلِيلُونَ ○ قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُصْلِحُونَ ○ إِنَّهُمْ كَانُوا فِرْقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ○ فَاتَّخَذْتُمُ سَعِيرًا حَتَّىٰ أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ○ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَدَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ○ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ○ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَازِينَ ○ قُلْ إِنْ لَّبِثْتُ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَتَاكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لا اشتغاله بنفسه، فلا يدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْرُزُ النَّارُ مِنْ أَجْدِهِ ○ وَأَنْهَى ○ وَأَبَى ○ وَصَحْبِهِ وَبَيْنَهُ ○ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (١).

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها،

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أعدارهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه [من] المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لسؤالهم.

﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكابتهم من عذاب الجحيم.

ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ فَرْقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنتته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام ﴿سَخِرَاتٍ﴾ تهزون بهم، وتحقرونهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟! ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الآيات.

﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة، كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون [من] الخير الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة، ورضوان ربهم.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كلامهم هذا مبني على استقصارهم جداً، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلماذا قالوا: ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ أي: الضابطين لعدده.

وأما هم، ففي شغل شاغل^(١)، وعذاب مذهل عن معرفة

عدده، فقال لهم: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سواء عيتم عدده، أم لا ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١١٥، ١١٦) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: سدى وباطلاً، تأكلون وتشربون وتمرحون، وتمتعون بلذات الدنيا، وترتكبم لا نأمركم، ولا [ننهاكم، ولا نثيبكم، ونعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ لا يخطر هذا ببالكم.

﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ أي: تعاطم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى القدح في حكمته.

﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فكونه مَلِكًا للخلق كلهم حقاً في صدقه ووعده ووعيده، مألوهاً معبوداً، لما له من الكمال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً.

(١) كذا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: متاغل.

القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب.

وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين ليشتهر، ويحصل بذلك العزى والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص. والله أعلم.

(٣) ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان لرديلة الزنا، وأنه يندس عرض صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله.

والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والناكح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقترانات والازدواجات.

وقد قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: قراءهم، فحرم الله ذلك لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، والحق الأولاد الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل: أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو الإيمان المطلق.

(٤، ٥) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَتَ جَلْدَةٍ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ○ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿لما عظم تعالى أمر الزاني^(٢) بوجوب جلده وكذا رحمه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من

(١) في ب: كاف في التحريم. (٢) في أ: الزنا، وفي ب الكلمة مشطوبة.

(١١٧، ١١٨) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ○ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿أي: ومن دعا مع الله إلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فكفرهم منهم من الفلاح. ﴿وَقُلْ﴾ داعياً لربك مخلصاً له الدين ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبد من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه. تم تفسير سورة المؤمنين، من فضل الله وإحسانه.

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَظِرُ لِعَمَلِكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ أي: هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها.

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَظِرُ﴾ أي: أحكاماً جليلة، وأوامر وزواجر وحكمًا عظيمة ﴿لِعَمَلِكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رافة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رافة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان

سُورَةُ النُّورِ

٣٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النُّورِ

سُورَةُ النُّورِ أُنزِلَتْ وَأُفْرِضَتْ لَهَا وَأُنزِلَتْ فِيهَا آيَاتٌ يَنْتَظِرُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عِدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ (٨) وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

المفقودة في غيره فقال:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: الحرائر (١) لا المملوكات.
 ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ على رعيهم بذلك «شهادة» إلا أنفسهم» بأن لم يقيموا شهداء، على ما رويهم به «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» سماها شهادة، لأنها نائبة مناب الشهود، بأن يقول: «أشهد بالله، إني لمن الصادقين، فيما رميتها به».
 ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذباً، فإذا تم لعانه سقط عنه حد القذف.

ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها، وهل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل أنه يقام عليها الحد بدليل قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ إلى آخره، فلولا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه، لم

(١) في النسختين: الأحرار، ولعل الصواب ما أثبت.

الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالنزنا فقال:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: النساء الحرائر العفاف، وكذاك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالزَّانِي الرَّمْيُ بالنزنا، بدليل السياق.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما روي به «بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ» أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً.

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ بسوط متوسط يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب، لا الإتلاف، وفي هذا تقرير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير.

﴿وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا﴾ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ على القذف، حتى يتوب كما يأتي.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالنوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذب نفسه ولو تبين وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء. فإذا تاب القاذف وأصلح عمله، بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وأتاب، وإنما يجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فقد ذكر بقوله:

(١٠-٦) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ○ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ○ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ ○ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ○ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته دائرة عنه الحد، لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يندسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً، وخوفاً من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم

يكن لعانها دارئًا له.

ويدرأ عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها.

﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وتزيد في الخامسة، مؤكدة لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه.

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبارة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته، وفظاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

(٢٦-١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، وهو قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرمي بالزنا عمومًا، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فانجست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلففته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانجس الوحي مدة طويلة عن

سورة النور

٣٥١

سورة النور

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا ابْتِهَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين ﴿عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أي: جماعة متسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه، ولكنه اغتر بترويج المنافقين]^(١)، ومنهم المنافق.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبيلاً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قلع بعضهم ببعض، كقدح في

(١) زيادة من هامش ب.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ والامران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيَاتًا﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيه الزجر البالغ عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيد حسابه شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿فَلْتَكُنَّ﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القباح ﴿هَذَا بَيِّنَةٌ﴾ أي: كذب عظيم.

﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ أي: لنظيره من رُفِي المؤمنين بالفجور، فالله يعظمكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا، فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له على ما بين لنا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْظِرُكُمْ بِهٍ﴾.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

﴿وَيَرَى اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ المشتملة على بيان الأحكام والوعظ، والزجر والترغيب والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جلياً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجب للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة.

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه ﴿وَاللَّهُ يَتْلُمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك علمكم، ويبين لكم ما تجهلون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قد أحاط بكم من كل جانب

أنفسهم، فيه أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم واجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالنبيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد أن يقدح في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه، وعدم نصحه.

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة.

﴿وَالَّذِي قَوْلُكَ كِبَرٌ﴾ أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول، لعنه الله ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَفْسُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل.

﴿وَقَالُوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبلي أصفاءك بالأمور الشنيعة.

﴿هَذَا أَفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء وأبينها فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

﴿وَلَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به بأربعة شهداء، أي: عدول مرضيين.

﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَلَوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿فَلَوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، ولم يقل: ﴿فأولئك هم الكاذبون﴾. وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَسَكُنَّ فِي مَا أَفْضَرْتُمْ﴾ أي: خضتم ﴿فِيهِ﴾ من شأن الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إِذْ تَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: تلتفون، ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه، وهو قول باطل.

سورة النور

٣٥٢

سورة النور

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يُؤْصَفُ بِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ الْحَبِيشَتِ لِلْحَبِيشِ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

فزلت هذه الآية، ينهاهم^(١) عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله، إن غفر له فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية - بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح.

وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: العفاف عن الفجور ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن ﴿الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ واللعة، لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعة بأنها متواصلة عليهم في الدارين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا زيادة على اللعة، أبعدهم عن رحمته، وأحل

﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ لَكُمْ هذه الأحكام والمواظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقة ووساوسه، وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمته تعالى أن بيّن الحكم، وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقتضى، والداعي لتركه فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه، فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم، أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح. فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى، هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والفسس مبالغة إلى السوء أمانة به، والنقص مُسْتَوَلٍ على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خُلِّيَ وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالنظر من الذنوب والسيئات، والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء. ولكن فضله ورحمته أوجباً أن يتزكى منكم من تزكى.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها» ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ من يعلم منه أن يزكّي بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ أي: لا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾.

كان من جملة الخاضعين في الإفاك «مسطح بن أثانة» وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال.

بهم شدة نقمته.

وذلك العذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكل جارية تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم.

﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ بِهِمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً.

﴿وَيَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُكُوبَهُمْ﴾ ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعيدته وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا ثم حق إلا في الله، وما من الله.

﴿الْحَقِيقَتِ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثِ﴾ أي: كل خييث من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للخييث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له.

فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته أن الأنبياء خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء.

فالقبح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قبح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة، من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي؟! صديقة النساء، وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها.

ثم صرح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً، ولا لشك وشبهة مجالاً فقال: ﴿أُولَئِكَ مَرَّةً وَمَا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ تستغفر الذنوب ﴿وَرَزَقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم.

(٢٧-٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿إِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبر والاشتمزاز من هذه الحال.

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن، وعدمه. هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة التي لا متاع فيها للإنسان.

﴿وَأَمَّا الْبُيُوتُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَهْلُهَا، وَفِيهَا مَتَاعُ الْإِنْسَانِ الْمُحْتَاجِ لِلدَّخُولِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ يُمْكِنُ مِنْ اسْتِئْذَانِهِ، وَذَلِكَ كِبُيُوتِ الْكِرَاءِ وَغَيْرِهَا، فَقَدْ ذَكَرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم، وفيه حرج، ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ وهذا من احترازاات القرآن العجيبة، فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾

منها ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتمم بالشر سرقه أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذنوا، سمي الاستئذان استئناساً، لأنه به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة.

﴿وَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أودخل؟».

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن.

سُورَةُ النُّورِ

٣٥٣

سُورَةُ النُّورِ

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَأَنْجِعُوا هَؤُلَاءِ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ وَلَا يُدْرِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤١﴾

جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤١﴾ لما أمر المؤمنين بغض الأبصار، وحفظ الفروج، أمر المؤمنات بذلك فقال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكن من جماعها، أو مسها، أو النظر المحرم إليها. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة.

ولما كانت الثياب الظاهرة، لا بد لها منها قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدائها، يدخل فيها جميع البدن، كما ذكرنا، ثم كرر النهي عن إبداء زينتتهن، ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ

لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية.

(٣٠) ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: أريد المؤمنين، وقل لهم الذين معهم إيمان، يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان: ﴿يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبية، وإلى المردان الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام في قبل أو دبر أو ما دون ذلك، وعن التمكن من مسها والنظر إليها ﴿ذَلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ أطهر، وأطيب، وأنقى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي (١) طمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن غرض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظاً، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفروج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعا في بلايا ومحن.

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً، لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ أتى بأداة «من» الدالة على التبعض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة، كنظر الشاهد والعامل والخابط، ونحو ذلك، ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

(٣١) ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ

وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء، وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

(٣٣، ٣٢) ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيَابِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلِيَسْتَوِي الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ كَيْدًا حَتَّىٰ يَغْنِبَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الْكُلْبَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فُكِّبَتْ لَهُمْ مِنْهُم مِّمَّا هَبَرُوا خَيْرًا ۚ وَأُولَٰئِهِمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيْنَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِن أَرَدْتُمْ نَعَصًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ بِأَمْرِ تَعَالَى الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَسْيَادِ بِانْكَاحٍ مِنْ تَحْتٍ وَلَا يَتِيمٌ مِنَ الْأَيَامَىٰ وَهُمْ: مَنْ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ، مِنْ رِجَالٍ، وَنِسَاءٍ ثِيْبٍ، وَأَبْكَارٍ، فَيَجِبُ عَلَى الْقَرِيبِ، وَوَلِيِّ الْيَتِيمِ، أَنْ يَزُوجَ مِنْ يَحْتَاجُ لِلزَّوْجِ، مِمَّنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانُوا مَأْمُورِينَ بِانْكَاحٍ مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ، كَانَ أَمْرُهُم بِالنَّكَاحِ بَأَنْفُسِهِمْ مِنْ بَابٍ أَوَّلَىٰ.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيَابِكُمْ﴾ يحتتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء، وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً، مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصالح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين، الصالحون للتزوج المحتاجون إليه^(١)، من العبيد والإماء.

يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلى الزواج، ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمتزوجين ﴿يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلا يمنعكم ما توهمون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على التزوج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿وَاللَّهُ وَسِيعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي، أو أحدهما، ممن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وَلِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ كَيْدًا حَتَّىٰ يَغْنِبَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي

بُغْوَانِهِمْ ﴿يَشْمَلُ الْأَبَ بِنَفْسِهِ، وَالْجَدَ وَإِنْ عَلَا﴾ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَ بُغْوَانِهِمْ ﴿وَيَدْخُلُ فِيهِ الْأَبْنَاءُ وَأَبْنَاءُ الْبُعُولَةِ مَعَهُمَا نَزَلُوا.

﴿أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنَىٰ إِخْوَانِهِمْ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم ﴿أَوْ بَنَىٰ أَخَوَاتِهِمْ أَوْ نِسَاءَهُمْ﴾ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية، أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكم، ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأثني، أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإن زال الملك أو بعضه، لم يجز النظر.

﴿أَوْ التَّلْبِيعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي: أو الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنين الذي لم يبق له شهوة، لا في فرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره.

﴿أَوْ الطِّفْلِ الذَّكَرِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد، ودل هذا أن المميز تستتر منه المرأة لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿وَلَا يَصْرِنَ يَأْتِطِئُهَا لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِمْ﴾ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حللي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة، ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالصواب المستحسنة وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك - أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة، في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير

(١) في النسختين: الصالحين للتزوج المحتاجين إليه.

ذلك كَلَّا على الناس ضائعًا وإما أن يخاف إذا عُتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر بكتابه، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيكُمْ﴾ أي: إماءكم ﴿عَلَى الْإِغَاءِ﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصنًا فإنها تكون بغيًا، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال:

﴿لِيَتَّقُوا عَرَّ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيرًا منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض، ثم يزول.

فكسبكم النزاهة والنظافة والمرءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة فقال: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فليُتَبَّ إلى الله وليُطْلَع عما صدر منه، مما يغضبه، فإذا فعل ذلك غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا تعظيم وتغعيم لهذه الآيات التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة على كل أمر تحتاجون إليه من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة.

﴿و﴾ أنزلنا إليكم أيضًا ﴿مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم، وجرى عليهم تعتبرونه مثلاً ومعتبراً، لمن فعل مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

(٣٥) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضًا، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يقدرُونَ نِكَاحًا إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم، [وليس لهم] ^(١) من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح». وجعلوا المضاف إليه نائبًا مناب المضاف، فإن في ذلك محذورين:

أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف. والثاني: كون المعنى قاصرًا على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد للمستغف أن الله سيغنيه، ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لثلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَلْكَتَبَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَلَآتُهُمْ بِمَا عِلْمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه. ﴿إِنْ عِلْمْتُمْ فِيهِمْ﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾ أي:

قدرة على التكبس، وصلاحًا في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبدله في فداء نفسه، وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال، ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم فقال: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته، أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعاونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطًا من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابه، وأنه إذا لم يعلم منه خيرًا، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب

وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ۝٣٦

وَلَيْسَ تَعْفِفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِن عِلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَّتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِن رَأَيْتُمْ تَحْصَنًا لِّتَبْغَوْا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٧

وَلَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٣٨

وَاللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٩

فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ ۖ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٤٠

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه، وفهموا، لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علمًا واضحًا.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فَلَتَعْلَمُوا أَن ضَرْبَهُ الْأَمْثَالِ، ضَرْبٌ مِّنْ يَعْلَمُ حَقَاقِ الْأَشْيَاءِ وَتَفَاصِيلِهَا وَأَنَّهَا مُصْلِحَةٌ لِلْعِبَادِ، فَلْيَكُنْ اشْتَغَالُكُمْ بِتَدْبِيرِهَا وَتَعَقُّلِهَا لَا بِالْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهَا وَلَا بِمُعَارَضَتِهَا، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها منوها بها فقال:

(٣٨-٣٦) ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزِيَدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ

(١) في النسختين: آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبتته، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

تَمَسَّسَهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٨

﴿وَاللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه لأحرقَتْ سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر والنور، وبه استنارت الجنة، وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره فتم الظلمة والحصر.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كَمِشْكَوْفٍ﴾ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق، ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفاتها وبهاؤها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: مضيء إضاءة الدر.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار.

﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس، [أول] (١) النهار، وإذا انتفى عنها الأمان، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفاته ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمَسَّهِ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

وجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان أضاء إضاءة عظيمة، لصفاته من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة ونور الإيمان ونور العلم وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكو معه، وينمو.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٥٥

سُورَةُ النُّورِ

رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحَرُّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۖ وَالْأَبْصَرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفًا حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخْرِجُ مِنْ سَحَابٍ مِّمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ ۖ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سُنْبُرُ قَوْعِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾

﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن كقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهمُ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ زيادة كثيرة عن الجزء المقابل لأعمالهم، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عَدٍّ ولا كيل، وهذا كناية عن كثرتة جدًا.

(٤٠، ٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفًا حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ هذان مثلان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عاملها منها فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برهبهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي: بقاع؛ لا شجر فيه ولا نبت.

بِغَيْرِ حِسَابٍ أي: يتعبد لله ﴿فِي ثُبُوتٍ﴾ عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد ﴿إِذْنُ اللَّهِ﴾ أي: أمر ووصى ﴿أَن تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها بناؤها وكنسها وتظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلُّم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات، التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين:

عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها وهذا أشرف القسمين.

ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد وجوبًا عند أكثر العلماء، أو استحبابًا عند آخرين، ثم مدح تعالى عُمَّارَهَا بالعبادة فقال: ﴿يَسْبَحُ لَهُ﴾ إخلاصًا ﴿بِالْقُدُوسِ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصْلَاحِ﴾ آخره ﴿رِجَالٌ﴾ خص هذين الوقتين، لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته.

ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء، وأورادها عند الصباح والمساء، أي: يسبح فيها لله رجال، وأي رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه.

﴿لَا لُئْلِيهِمْ تَحَرُّةٌ﴾ وهذا يشمل كل تكسُّب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا يَبِيعُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك لا محذور فيه، لكنه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديدًا على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوبًا لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا - فقال:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْدَانُ﴾ من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِیُّ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤١﴾ بينه تعالى عباده على عظمتهم، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ﴾ أي: صفات أجنحتها في جو السماء، تسبح ربها ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها^(١) شيء، وسيجازيهم بذلك فيكون على هذا قد جمع بين علمه^(٢) بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غُفُورًا﴾.

فلما بين عبوديتهم وافتقارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بين افتقارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما^(٣)، ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقديري]^(٤)، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار بدليل قوله: ﴿وَلِیُّ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم. (٤٤، ٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ظُلُمَاتٍ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ قَصِيبٍ مِنْ شَأْنِهِ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ۝ بَقِيَ اللَّهُ أَلَيْلٌ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: ألم تشاهد بصرك عظيم قدرة الله، وكيف ﴿يُرْسِلُ﴾، أي: يسوق ﴿سَحَابًا﴾ قطعًا متفرقة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ بين تلك القطع، فيجعله سحابًا متراكمًا، مثل الجبال.

﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾ أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطًا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتندفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برَدًا يُؤَلِّفُ ما يصيبه.

(١) في النسخين منه. (٢) كذا في ب، وفي أ: علمها. (٣) في النسخين: خالقها، ولعل الصواب ما أثبت. (٤) زيادة من هامش ب.

﴿يَسْبِيهِ الظَّمَانُ مَاءً﴾ شديد العطش الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه.

﴿حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فندم ندمًا شديدًا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه.

كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالًا نافعة، فيغره صورتها، ويخبله خيالها، ويحبسها هو أيضًا أعمالًا نافعة لهواه، وهو أيضًا محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا، والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قُوَّتَهُ حِسَابًا﴾ لم يخف عليه من عمله نقيير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلًا ولا كثيرًا.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا يستطيع الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقية، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني لبطان أعمال الكفار ﴿كَظَلَمْتِ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿بَغْسَهُ مَوْجٌ مِنْ قُوَّتِهِ مَوْجٌ مِنْ قُوَّتِهِ سَكَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلّمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًّا، بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكِدْ بِرَبِّهَا﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها، كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلا ما أعطاها مولاها، ومنحها ربها، يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار، كل منهما منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال لطائفة وفرقة: فالأول للمتبعين، والثاني للتابعين، والله أعلم.

(٤٢، ٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝

أي: واضحات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحموده، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كَمُلَ علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿لَيْهَالِك﴾ بعد ذلك ﴿مَنْ هَلَك عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿مَنْ سَبَقَتْ لَهُمْ سَابِقَةُ الْحَسَنِ، وقدم الصدق.

﴿إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإثارة، والعمل به.

عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

(٤٧-٥٠) ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْخُفُوفُ يُأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِسُونَ ۝ أَمْ يَحْسَبُونَ أَن يُحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمِينَ ۝﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون بالإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلَّىٰ عَظِيمًا، بدليل قوله: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فإن المتوَلَّى قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تَوَلَّى عنه، وهذا المتوَلَّى معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجده هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدَّعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصًا العبادات، التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله ونحو ذلك.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إذا صار بينهم، وبين أحد حكومة ودعوا إلى حكم الله ورسوله ﴿إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع.

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْخُفُوفُ يُأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى حكم الشرع

﴿يُضِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقٍ﴾ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾، ليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع ويتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟ ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويُدِيلُ الأيام بين عباد.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية، فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر، وتَدَبَّر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم.

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بینه عبادته على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾. فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة، حين يلحق الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبدًا.

فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحية ونحوها ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالأدميين، وكثير من الطيور ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها.

فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: من المخلوقات، على ما يشاءه من الصفات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَوِّزٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ وَغَيْلٌ صِنَاوٍ وَغَيْرُ صِنَاوٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لَهَا بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْآكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

(٤٦) ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات،

﴿مُذْعِبِينَ﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد على الحقيقة.

قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته، فصار بمنزلة المريض الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل على ما يضره.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ آيَاتٍ﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق.

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوفُونَ﴾ وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول، حتى يقتصر به العمل، ولهذا نفى الإيمان عما تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من لم يتخذ له دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين المدوحين فقال:

(٥٢، ٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقوه فأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج:

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال، فقال:

﴿يُحِبُّ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَالنَّهَارَ إِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٢﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٥٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ آتَيْنَاهُمْ آيَاتٍ يَخْفَوْنَ أَنَّ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرْتَهُمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلُوبَهُمْ لَاقِسًا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما.

﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ أي: يخافه، خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ بترك المحذور، لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله بترك معاصيه.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله، وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز، بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقي، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ

وَنُفِرُوا تَجَافُفَهِمْ وَتُسَيِّرُهُمْ إِلَىٰ جِهَتِهِمْ إِذْ لَا يُعْنِيهِمْ لِئَٰمَرَتُهُمْ لِخَرِجُوا قُلُوبًا لَا

(٥٤، ٥٣) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَعْيُنِهِمْ لَئِنْ أُمِرَتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ لَا تُقِيمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله: ﴿لَئِنْ أُمِرْتُمْ﴾ فيما يستقبل، أو لئن نصصت عليهم حين خرجت ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾، والمعنى الأول أولى.

قال الله - راداً عليهم - : ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا﴾ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أذاركم، فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم التناقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتملاً، وحاله مشتبهاً، فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم فكلما ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر.

وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمرهم وينهاهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الرسالة، وقد أداها، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فإن ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب ﴿وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾ إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يَبْقَى لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم، ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

(٥٥) ﴿وَعَلَى اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هذا من أوعاده^(٢) الصادقة التي شوهت تأويلها ومخيرها، فإنه وَعَدَ من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمَكِّنُ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٧

سُورَةُ النُّورِ

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَيَسْتَغْنَيْنَكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُوكُمُ الْخُلُوفَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هَٰذِهِنَّ طَوُفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، ويغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله، ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاريها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم. (٢) كذا في النسخين، ولعل الصواب: وعوده.

يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ أمر المؤمنين أن يستأنذهم ممالिकهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل نوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بشابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وَبَيْنَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِمَّنَ الظَّهْرِ﴾ أي: للقائلة وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال يكون الممالك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُمَكِّنُونَ من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوادثكم.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ بياناً مقروناً بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ له العلم المحيط بالواجبات، والمستحبات، والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيّنها وبين مآخذها وحسنها.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ وهو إنزال المني يقظة أو مناماً، ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ الآية.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم، ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ﴾ الآية، ولا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهى عن الاغتسال فيه، والاستنجاء، ونحو ذلك.

الله العجبية الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديبلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

ودلت هذه الآية أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿يَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وتَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ.

(٥٧، ٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لا تحسن الذين كفروا معجزات في الأرض وماؤنهم أئار وليس المصير ﴿يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بآركانها وشروطها وآدابها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وَاطِيعُوا الرُّسُولَ﴾ وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿مَنْ يُطِيعِ أَرْسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنَّ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لَا تَحْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزَاتِ فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يغرك ما مُتَعُوا به في الحياة الدنيا، فإن الله وإن أمهلهم فإنه لا يمهلهم ﴿تَمْنِيَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وَمَاؤُنْهُمْ أَئَارَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بشس المال مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

(٥٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ

فهؤلاء، يجوز لهن أن يكشفن وجوههن، لأن المحذور منها وعليها، ولما كان نفى الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات للناس زينة، من تجمل بثياب ظاهرة، وتستر وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها، ليعلم ما تخفي من زينتها، لأن مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتبهى - يفتن فيها، ويوقع الناظر إليها في الحرج.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ والاستعفاف: طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك، من تزوج وترك لما يُخشى منه الفتنة.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات والمقاصد، فليُحذَرَنَّ من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك.

(٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مِفْتَاحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى عن مثبته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يسره غاية التيسير، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ أي: حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت «أنت ومالك لأبيك» والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم».

وليس المراد من قوله: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي يتزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم، من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه، فليس فيه أدنى توهم.

(١) كذا في النسختين، ولعل في الكلام قلباً فأقرب أن يقال: (عجوزاً لا تشتهى ولا تشتهى، أو دمية الخلقة لا تشتهى).

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقبولة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يُمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضاً لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بين الحكم المذكور - علله بقوله: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾.

ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمُ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء لقوله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ مع قول النبي ﷺ، حين سئل عن الهرة «إنها ليست بنجس»، إنها من الطوافين عليكم والطوافات».

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجه معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعانة، والله أعلم.

(٦٠) ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والقواعد من النساء أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن في النكاح، ولا يُطمعُ فيهن، وذلك لكونها عجوزاً لا تشتهى، أو دمية الخلقة، لا تشتهى ولا تشتهى^(١) ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلْيَضَعْنَ بُخُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.

وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي ﴿لَمْ يَنْخُذْ لِدَاكَ وَكَرَّمَ لَكَ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾.

وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك، وغيره مملوك، وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه، فقراء ذاتيًا من جميع الوجوه!!

وكيف يكون له شريك في الملك، ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ شمل العالم العلوي والعالم السفلي، من حيواناته، ونباتاته، وجماداته.

﴿فَقَدَرَهُ نَقِيرًا﴾ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق، لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير محله الذي هو فيه، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ○ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ○ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ○ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

ولما بين كماله وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضيًا لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم، المفرد بالإخلاص وحده، لا شريك له - ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

(٣) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ سِرًّا وَلَا أُنْفُسًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: من أعجب العجائب، وأدل الدليل على سفاهتهم، ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراحتهم على ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة في كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا، لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: بعثًا بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات، من غير مشارك له في ذلك، الذي بيديه النفع والضرر، والعتاء والمنع، الذي يحيي ويميت، ويبعث من في القبور،

وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونه!!! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وشر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ﴾ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُنْثَنُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخبارًا مطابقًا لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم، فلا يعدمون منه فضلًا أو عدلًا.

ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِي شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾.

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ○ الَّذِي لَمْ يَلِكْ أَلَمًا أَلَمًا أَلَمًا وَلَا يَنْخُذُ وَلَا يَنْجُو وَلَا يَنْجُو لَكَ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقِيرًا﴾ هذا بيان لعظمته الكاملة، وتفرد [بالوحدانية]^(١) من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه، أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها، كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الَّذِي لَمْ يَلِكْ أَلَمًا أَلَمًا أَلَمًا وَلَا يَنْخُذُ وَلَا يَنْجُو وَلَا يَنْجُو﴾ أي: له التصرف فيها

(١) زيادة من هامش ب.

ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين، دار الشقاء والخزي والنكال، لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم، لمن اتخذ وحده معبوداً.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة، وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال:

(٤-٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَىٰ ۝ اكَتَبْنَاهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوَكَ رَحِيمًا ۝﴾ أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب، كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك، بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ، وكمال صدقه، وأمانته، وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد عينه على ذلك، فقد جاءوا بهذا القول ظلماً وزوراً.

ومن جملة أقاويلهم فيه، أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿اسْتَطِيرُ الْأُولَىٰ ۝ اكَتَبْنَاهَا﴾ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، استنسخها محمد ﴿فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم، بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن - الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله - بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك، أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه، للخالق الكامل من كل وجه، بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته، وهم أشد الناس علماً بها، أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك.

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة، والجهر والسر، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا لِتَرْبِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَىٰ ۝ اكَتَبْنَاهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوَكَ رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا لَرَجُلٍ مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

○ عَلَىٰ قَلْبِكَ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ.

ووجه إقامة الحجة عليهم، أن الذي أنزله هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحيل دماء من خالفه وأمواله، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم، فلا يمكن أحداً أن ينكر هذا القرآن، إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم، سوى الفلاسفة الدهرية.

وأيضاً، فإن ذكر علمه تعالى العام، ينبههم ويحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا لرأوا فيه من علمه وأحكامه، ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة. ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم، أنه لم يدعهم وظلمهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة، إن هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوَكَ﴾ أي: وصفه المغفرة، لأهل الجرائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة، وهي الرجوع عن

جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدح في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟.

ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَدَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أولياءه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراءة. ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعتاً وظلماً، وتكديباً بالحق، فقالوا ما يملوهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ والمكذب المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ يَبِيدٌ﴾ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم ﴿يَسْعَوْنَ لَهَا تَعْطِيطًا﴾ عليهم ﴿وَرَفِيرًا﴾ تقلق منهم الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها، وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهبها، لزيادة كفرهم وشرهم.

﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ﴾ أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتراحم السكان، وتقربهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحبسوا في أشد حبس ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَدَعَوْا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

معاصيه، والتوبة منها ﴿حَيًّا﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه، إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

(١٤-٧) ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَبْتَئِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ أو يُلْقَى إِلَيْنَا كَثْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أنظر كيف صرُّوا لك الأمثال فضلاً فلا يستطيعون سبيلك ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ يَبِيدٌ يَسْعَوْنَ لَهَا تَعْطِيطًا وَرَفِيرًا﴾ وإذا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَدَعَوْا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ هذا من مقالة المكذبين للرسول التي قدحوا بها في رسالته، وهو أنهم اعترضوا بأنه هلا كان ملكاً أو ملكاً، أو يساعده ملك، فقالوا: ﴿مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ﴾ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة؟ تهكمًا منهم واستهزاء ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر.

﴿وَيَبْتَئِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولاً، مع أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾. ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ﴾ أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْنَا كَثْرًا﴾ أي: مال مجموع من غير تعب ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ حملهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن.

ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرُّوا لَكَ الْأَمْثَالُ﴾ وهي: أنه هلا كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحوراً.

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ قالوا أقوالاً متناقضة، كلها

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٦١

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا لَهُمْ تَغِيظُوا وَفِيهَا ۝ وَإِذَا
 أَلْقَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَا لَكَ ثُبُورًا ۝
 لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ قُلْ
 أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۝ كَانَتْ
 لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
 كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ۝ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
 يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي
 هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ
 يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
 وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ فَقَدْ
 كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
 نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمَ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝
 وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
 الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
 لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝

عَذَابًا كَبِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ
 لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ
 فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝ يخبر تعالى عن حالة
 المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان
 سعيهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا
 يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطبًا للمعبودين على وجه
 التقرع لمن عبدهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا
 السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتك، وزيتم لهم ذلك، أم ذلك
 من تلقاء أنفسهم؟

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا
 أنفسهم من ذلك. ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ أي: لا يليق بنا، ولا
 يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم، ونعبدهم
 وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، مُتَبَرِّين
 من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحدا بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو،
 سبحانه عن ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا كقول
 المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ
 مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ

(١٦، ١٥) ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ
 الْمُتَّقُونَ ۝ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
 كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي: قل لهم - مبينا لسفاهة
 رأيهم، واختيارهم الضار على النافع - ﴿أَذَلِكَ﴾ الذي
 وصفت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ
 الْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى، فالله قد
 وعده إياها.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موثلا يرجعون
 إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائما أبداً.

﴿هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: ما يطلبون، وتتعلق بهم
 أمانيتهم ومشيتهم، من المطاعم، والمشارب اللذيذة،
 والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العليات،
 والجنات، والحدائق المرجحة والفواكه التي تسر ناظرها
 وأكلها، من حسناتها وتنوعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي
 تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها،
 ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير
 طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل
 مصفى، وروائح طيبة، ومسكن مزخرفة، وأصوات شجية،
 تأخذ من حسناتها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بقاء
 الأحباب.

وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم،
 وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من
 سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على ممر
 الأوقات، وتعاقب الآتات ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها
 ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان
 حالهم، ولسان مقالهم، فأئى الدارين المذكورتين خير وأولى
 بالإيثارة؟ وأئى العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار
 السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولي الألباب؟

لقد وضح الحق، واستنار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر
 في تركه الدليل، فخرجوا يا من قضيت على أقوام بالشقاء،
 وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة،
 ونستغيث بك اللهم! من حالة الأشقياء، ونسألك المعافاة
 منها.

(٢٠-١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ
 أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَنَكَ
 مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
 وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا
 نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمَ مِنْكُمْ نَذِقْهُ

سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أَنْصِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبه، فيثيبكم مولاكم^(٣)، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالكم ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(٢٣-٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نُلَاقَا نَزْلًا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِمُمْسِكٍ يَقُولُونَ جَعَلَنَا جِجْرًا نَحْنُ جُورًا ۝ وَقَدْمًا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿نُلَاقَا نَزْلًا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلما، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروا هذه الجرأة، فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وترغموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي كبر أعظم من هذا؟

﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قسوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم، وآيات الله البينات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأى عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرموا غاية الحرمان.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لَا بُشْرَىٰ لِمُمْسِكٍ﴾ أي: لا يبرهنهم الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ آخِزِينَ﴾

(١) في بي: للمعاندين. (٢) كذا في ب، وفي أ: المعاصي. (٣) كذا في ب، وفي أ: مولاكم.

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّهِ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْضَرُ هُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ كُلِّ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله، أو يكونوا أضلهم، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَءَاثَاهُمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبها النفسية ﴿حَتَّىٰ نَسُوا آلَ الْأَرْضِ﴾ اشتغالا في لذات الدنيا، وإكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعَدَمَ المقتضي للهدى، وهو: أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرأوا منهم، قال الله توبيخاً وتقريعاً للعابدين^(١): ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب.

﴿فَمَا سَتِطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء، أو غير ذلك، ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسًا﴾ بترك الحق ظلماً وعناداً ﴿نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة.

وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين^(٢)، والرسول فتناهم بدعوة الخلق، والغني فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا

التي تليها صفًا وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصًا الذي بارز ماله بالاعظام، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق، بالحكم الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل ﴿يَوْمَ نُخَسِّرُ الْمُتَوِينَ إِلَى الرَّحَنِ وَقَدْ أَسْوَقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾.

وقوله: ﴿الْمُلَافُ يَوْمِيذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْحَقُّ لِلرَّحَنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، ملك ولا صورة ملك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له الصدر، أن أضاف الملك في يوم القيامة، لاسمه ﴿الرَّحَنِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، وملاّت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص، وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه، الأسماء الدالة على الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة.

وخلق هذا الآدمي الضعيف، وشرّفه وكرّمه، ليطم عليه نعمته، وليغمد به رحمته.

وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه، ينتظرون ما يحكم فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحقّت عليه كلمة العذاب.

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ﴾ بشركه وكفره، وتكذيبه للرسول ﴿عَلَّ يَدَيْهِ﴾ تأسفًا، وتحسرًا، وحزنًا، وأسفًا ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا بالإيمان به، وتصديقه واتباعه.

﴿يَوَيْلٌ لِّتَنِي لَّوْ أَنَا فَلَئِن لَّا أَنَا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿خَلِيلًا﴾ أي: حبيبًا مصافيًا، عادت أنصح الناس لي، وأبرهم بي، وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدولي، الذي لم تفدني ولايته، إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار ﴿لَقَدْ أَصْلَيْتُ عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال، بخدعه وتسويله.

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ يزين له الباطل،

أَفْسَكُ الْيَوْمِ تُجْرَوْتَ عَذَابُ الْهَوْنِ يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ.

ثم في القبر، حيث يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا ينجيهم، فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعودون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿وَيَقُولُونَ جَعَلْنَا جَنَّةَ جَنَّةً﴾، ﴿يَتَمَتَّعُونَ فِيهَا وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْدُوا مِنْ أَظْهَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْتَدُوا لَا تَفْدُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرًا، وتعابوا فيها ﴿فَجَعَلْنَاهَا هَبْأَةً نُشْأَرًا﴾ أي: باطلا مضمحلًا، قد خسروه، وحرّموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان، وصدروه عن مكذب الله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول المتبع لهم فيه.

(٢٤) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحًا، واثقوا ربهم ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القبلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتغال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقرًا ومقيلًا، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ﴾.

(٢٥-٢٩) ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ وَالْغَمَمُ وَزُلْزِلَتِ السُّجُودُ تَزِيلًا﴾ المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿يَوَيْلٌ لِّتَنِي لَّوْ أَنَا فَلَئِن لَّا أَنَا﴾ لَقَدْ أَصْلَيْتُ عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ وَالْغَمَمُ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتفطر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء، فيقفون صفًا صفًا، إما صفًا واحدًا محيطًا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفًا، ثم السماء

سورة الفرقان

٣٦٢

سورة الفرقان

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٣٢﴾ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ إِذْ أَنْزَلَ فِيهِ الْفُرْقَانَ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٣٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٣٤﴾ وَيَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بَاطْنِمْ نَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٣٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٣٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾ يَتَوَلَّىٰ لَتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَا تَأْخُذُ بِلَايَا ﴿٣٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٤٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٤١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٤٢﴾

كلما نزل عليه شيء من القرآن، ازداد طمأنينة وثباتًا، وخصوصًا عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حدوثه، يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلًا قبل ذلك، ثم تذكره عند حلول سببه.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: مهلناه، ودرجنا فيه تدريجًا، وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن، وبرسوله محمد ﷺ، حيث جعل إنزال كتابه جاريًا على أحوال الرسول ومصلحه الدينية، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق، ويدفعون به رسالتك.

﴿إِلَّا جَنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْرِيرًا﴾ أي: أنزلنا عليك قرآنًا جامعًا للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا، وأحسن تفسيرًا، مبين للمعاني بيانًا كاملاً.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم، من محدث، ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، فكلما حدث موجب،

ويقبح له الحق، ويعده الأمانى، ثم يتخلى عنه، ويتبرأ منه، كما قال لجميع أتباعه، حين قضي الأمر، وفرغ الله من حساب الخلق ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية.

فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان، ولينتدرك الممكن قبل أن لا يمكن، وليؤمل من ولايته فيها سعادته، ويعادي من تنفعه عداوته، وتضره صداقته، والله الموفق.

(٣٠، ٣١) ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا من المجرمين وكفى بربك هاديًا ونصيرًا. ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ مناديا لربه، وشاكيا عليه إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي﴾ الذين أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي: قد عرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه، والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه.

قال الله مسلماً لرسوله، ومخبراً أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه، يعارضونهم ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك، أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق، ويتضح انتصاحاً عظيماً، لأن معارضة الباطل للحق، مما تزيده وضوحاً وبياناً وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ يهديك، فيحصل لك المطلوب، ومصلح دينك ودنياك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه، في أمر الدين والدنيا، فاكثف به، وتوكل عليه.

(٣٢، ٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ولا يأتونك بمثل إلا جنتك بالحق وأحسن تقريراً هذا من جملة مقترحات الكفار، الذي توحيه إليهم أنفسهم فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: كما أنزلت الكتب قبله، وأني محذور من نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لأنه

أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواظ على الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً.

(٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله، وسوء مآلهم وأنهم ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب، ويجرونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الحالة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ممن آمن بالله وصدق رسوله.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

(٣٥-٤٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَحَمَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا ۚ فَقَلْنَا أَدْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَهُمْ نَدْمِيرًا ۚ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۚ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۚ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَبَرُّرًا ۚ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْفَرِّقَةِ الَّتِي آمَطَرْتَ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات آخر، ليحذر المخاطبين، من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين [كانوا] ^(١) قريبا منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم.

وممنهم من يرون آثارهم عياناً، كقوم صالح في الجحجر، وكالفرقة التي أمطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون عليهم مصبيين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شراً منهم، ورسلمهم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء.

﴿أَفْكَارُهُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّائِهِمْ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾. ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ هَارُونَ وَزَيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقَلْنَا أَدْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَبَرُّرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْفَرِّقَةِ الَّتِي آمَطَرْتَ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْخَدُّونَكَ إِلَّا هُرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنَّ صِدْقَنَا عَلَيْهِمْ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

ارتباب.

(٤١-٤٤) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْخَدُّونَكَ إِلَّا هُرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۚ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنَّ صِدْقَنَا عَلَيْهِمْ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۚ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۚ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وإذا رآك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات [الله] ^(١)، المستكبرون في الأرض، استهزؤا بك واحقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلبهم الحقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فهذا

(١) زيادة يقتضيه السياق. (٢) زيادة يقتضيه السياق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦٤

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَأَلْفٍ مِّنْهُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٧﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٩﴾
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا يَنْفِثُ بِدَى رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥٠﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ لَدَّةَ مِيتًا وَنُقِضِيَهُ
مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًا كَثِيرًا ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَكَّرُوا فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٣﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ
وَجَهَنَّهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٧﴾

فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضللال أحق بهذا الوصف، وأن كل حيوان بهيم فهو أهدى منه.

(٤٦، ٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ٥٠ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٧﴾ أي: ألم تشاهد بصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك، وسعة رحمته، أنه مدَّ على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ فلولا وجود الشمس لما عرف الظل، فإن الضد يعرف بضده.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فكلمنا ارتفعت الشمس، تقلص الظل شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية، فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عيانًا، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على كمال قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته، وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود، المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام.

(١) المراد: (وتغريًا بضغفاء العقول). (٢) زيادة يقتضيها السياق، مع العلم أن كلمة هواء كتبت في ب بدلًا عن معبود ثم شطبت.

الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادًا، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل، بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم، وهماهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزانة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خُلُقٍ فاضل، وأن المحتقر له، والشانيء له، قد جمع من السفه والجهل، والضللال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلًا وضلالًا، أن يقدح بهذا الرسول العظيم، والهام الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به، تَصْلِيْهِمْ عَلَى باطلهم، وغرورًا لضغفاء العقول^(١)، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ كَادَ هَذَا الرَّجُلُ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ بأن يجعل الآلهة إلها واحدًا ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لأضلنا، زعموا - فيجهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فلماذا تواصلوا بالصبر عليه، ﴿وَنَاطِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.

وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ والصبر يحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع، فإنه صبر على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون، فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

ولما كان هذا حكمًا منهم، بأنهم المهتدون والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم، توعدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يعلمون علمًا حقيقيًا ﴿مَنْ هُوَ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ و﴿يَوْمَ يَعْصِرُ الزَّلَّالُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ الآيات.

وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده [هواه]^(٢)، فما هويه فعله، فلماذا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ﴾ ألا تعجب من حاله، وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم نفسه بالمنازل الرفيعة؟.

﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منذر، وقد قمت بوظيفتك، وحسابه على الله.

ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ، بأن سلبهم العقول والأسماع، وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام، لأن الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضًا أسلم عاقبة من هؤلاء،

﴿وَجَهَنَّهُمْ﴾ بالقرآن ﴿جَهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تياس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

(٥٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَجِجًا تَحْجُورًا﴾ أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر المالح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا﴾ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فذهب المنفعة المقصودة منهما ﴿وَجِجًا تَحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا.

(٥٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

ويدل على أن عبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة لقوله: (٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: يعبدون أصنامًا وأمواتًا لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أندادًا لمالك النفع والضرر، والعطاء والمنع، مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابن عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد أعداء الله، فالكافر عاونها وظهرها على ربها، وصار عدوًا لربه، مبارزًا له في العداوة والحرب.

هذا وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجهله - مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

(٥٦-٦٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قل ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن ثَمَرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَهًا رَبُّهُ سَيَلًا ﴿وَوَكَّلَ عَلَىٰ آلِهَةٍ لَا يُؤْمَرُ وَسَيِّعٌ يَحْمَدُ﴾ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا نَأْمُرُ وَنَنْهَىٰ نَقُولُ﴾ يخبر تعالى: أنه ما

(٤٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه، أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه، وتهدؤوا بالنوم، وتسبت حركاتكم، أي: تنقطع عند النوم، فلولوا الليل لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام لتعطلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

(٤٨-٥٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَدَئَ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا وَنُشْقِيَهُمْ وَمَا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَلَا نَائِيًا كَثِيرًا ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده، وأدر عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو المطر، فثار بها السحاب وتألف، وصار كسفًا، وألقته، وأدرته بإذن أمرها والمتصرف فيها، ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته، أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوايت، والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام. ﴿وَنُشْقِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَلَا نَائِيًا كَثِيرًا﴾ أي: نسقيهموه، أنتم وأنعامكم، اليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورًا مباركًا، فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره؟.

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه، مع ذلك أبى أكثر الخلق إلا كفورًا، لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

(٥١، ٥٢) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَئَعْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء لبعث في كل قرية نذيرًا، أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم، فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد - يا محمد - أن أرسلك إلى جميعهم، أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، إنسهم وجنهم.

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به.

سورة الفرقان

٣٦٥

سورة الفرقان

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦١﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٦٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٦٣﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٦٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٥﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٧﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ يَسْتَدْعُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٧٠﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٧٢﴾

لكثرة أوصافه، وتعدد كماله، فكل واحد منها دل على صفة كمال.

﴿اسْجُدُوا لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد أمرك إيانا، وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿شُكُورًا﴾ هربًا من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

(٦٢، ٦١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٧﴾ كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمته، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيراته، الدينية والدنيوية، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال:

أرسل رسوله محمدًا ﷺ مسيطرًا على الخلق، ولا جعله ملكًا، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرًا﴾ يشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجرًا، حتى يمنهم ذلك من اتباعك، ويتكلفون من الغرامة.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست أجبركم عليه، وليس أيضًا أجرًا لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم.

ثم أمره أن يتوكل عليه، ويستعين به فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ الْمَطْلُوعَةُ﴾ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴿٦٣﴾ أي: عبده وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك، والمتعلقة بالخلق.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم.

وإنما ذلك كله بيد الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأعلىها، وأوسعها، وأجملها ﴿الرَّحْمَنُ﴾ استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات.

فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهريهم وباطنيهم، وعلوه فوق العرش، ومبايئته إياهم.

﴿فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله.

واستكبر عن عبادته الكافرون، واستكفوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: وحده الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قَالُوا﴾ جحدًا وكفرًا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إليها آخر، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَذْعُوا اللَّهُ أَوْ أَذْعُوا الرَّحْمَنُ أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فأسماؤه تعالى كثيرة،

عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله، وعباده.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: خاطبهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزاة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي: يكثرون من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب ﴿إِنَّكَ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاعتهم احتمال هذا العذاب، ولتذكروا مِنَّه الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفظاعتها، يعظم وقَّعها ويشد الفرح بصرفها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لَمْ يَسْرِفُوا﴾ بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿وَلَمْ يَقْتَرُوا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قَوْمًا﴾ يبذلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء، مقبلين عليه معرضين عما سواه. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهو نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قتل النفس بالنفس، وقتل

﴿نَسَاكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا زَيَّجًا﴾ فيه النور والحرارة، وهو الشمس ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ فيه النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمتها، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيراته.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبدًا، لا يجتمعان، ولا يرتفعان.

﴿لَمَنَ أَرَادَ أَن يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله وزد من الليل أو النهار، فمن فاته وزده من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضًا فإن القلوب تتقلب وتنقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبد همة غير همة التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدده، فلولاً ذلك لذوى غرس الإيمان ويسس. فلله أتم حمد، وأكمله على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

(٧٧-٦٣) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربوبون مدبرون ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وعبودية لالوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي

الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾.

ثم فسرهُ بقوله: ﴿يُضَعَّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ﴾ أي: في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها، إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القتال والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقبل عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزماً جازماً أن لا يعود ﴿وَأَمَنَ﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: تبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعضيتهم طاعة، وتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فَعَدَّهَا عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها ههنا» والله أعلم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده، حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فَلْيَعْلَمْ أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فَلْيُحْلِصْ فيها، وَلْيُخَلِّصْهَا من شوائب الأغراض الفاسدة.

فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه^(١) أجره، بحسب كمالها.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٣٦٦

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَعَّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً أَعْيَبْ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٢٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَهُمْ وَسَلَامًا ﴿٢٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٢٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٢٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلية في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم، وأكرموا عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمرءة، فربوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون

(١) في ب: فيوفيه.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرُبَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيفة الجامعة لكل ما يشتهى، وتلذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ فِيهَا غِيَّةً وَسَلَامًا﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له وعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والنضج لربهم، أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك - وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى -.

والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر، والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم ينتزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم، ورفعة أنفسهم عن كل خسيس، قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها، والتفهم لمعانيها، والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي يتفعون به ويتفع به من يتعلق بهم، ويتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم، ووعظهم، ونصحهم، لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه، لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصدقية.

فلله، ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفة، وأتقى هؤلاء السادة!!

والله، فضل الله عليهم ونعمته، ورحمته التي جلتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

والله، مئة الله على عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هياتهم، وبين لهم همهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، وببذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منَّ عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان،

حضوره، ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿لَمْ يَحِزُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعل من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها.

وتجد عندهم آذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واعتباطاً.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات ﴿وَذُرِّيَّتِنَا فَرَةً غَيْرَ﴾ أي: تفر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تفر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عالمين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، ويتنفع بهم.

﴿وَأَجَعَلْنَا لِلتَّقِيَّينَ إِمَامًا﴾ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والأكمل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم وطمأن لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون.

ومن المعلوم، أن الدعاء ببلوغ شيء، دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال، والصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين - خيراً كثيراً، وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

ولهذا - لما كانت همهم ومطالبهم عالية - كان الجزء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال:

وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بربيته الخاصة، كما تولاهم.

فاللهم، لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير، إن لم تيسر ذلك لنا، فإننا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين، وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا ننق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا، وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم، فارحمنا رحمة تغنيها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك، ولما كان الله تعالى، قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته، واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنه وأيضا غيرهم، فلم لا يدخل في العبودية؟.

فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعابا بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ما عبأ بكم ولا أحبك فقال: ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُ يَكُونُ لِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: عذابا يلزمكم، لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان، فله الحمد والثناء والشكر أبدا.

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩-١) ﴿طَسَّرَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّسَكَ ٣ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبَرٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٦ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَنِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٨ وَإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٦٧

طَسَّرَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّسَكَ ٣ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبَرٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٦ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَنِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٨ وَإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠ قَوْمُ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ١٣ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبْنَا بَنِيانَا إِيَّاكَ مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ١٥ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَا فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئِشْتَفِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِتِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ آتَىٰ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٩

المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزنا شديدا على عدم إيمانهم، حرصا منه على الخير، ونصحا لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّسَكَ﴾ أي: مهلكها وشاقا عليها ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى نزلها ليؤمنوا [بها] فإنه كاف شاف لمن يريد الهداية، ولهذا قال:

﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي: أعتاق المكذبين ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقُهَا الْآيَةِ.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبَرٍ﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بقلوبهم

يصدقوني.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَ ذَنْبٌ﴾ أي: في قتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: لا يتمكنون من قتلك، فإننا سنجعل لكما سلطاناً، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه.

﴿فَأَذْهَبَا بِأَيِّتِنَا﴾ الدالة على صدقكما، وصحة ما جئتما به ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أحفظكما وأكلؤكما.

﴿فَاتَّيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ أي: أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا، وتتقاد لعبادته، وتدع لتوحيد.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فكف عنهم عذابك، وارف عنهم يدك ليعبدوا ربهم، وقيموا أمر دينهم.

فلما جاء فرعون، وقال له ما قال الله لهما، لم يؤمن فرعون ولم يلب، وجعل يعارض موسى ف: ﴿قَالَ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْتَ﴾ أي: ألم تنعم عليك، ونقم بتريتك، منذ كنت وليداً في مهدك، ولم تزل كذلك.

﴿وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عَمَلِكُمْ سِنِينَ﴾ وقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ أَلَيْ فَعَلْتَ وهي قتل موسى للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعة على الذي من عدوه ﴿فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ الآية.

﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

فقال موسى: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي.

﴿فَفَزَّرْتُ بِكُمْ لَمَّا خِفَّكُمْ﴾ حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراض جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولاً، أن جرى منه القتل، فبين له موسى أن قتله على وجه الضلال والخطأ الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْتَ﴾ وعند التحقيق يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى:

﴿وَلَا يَغْنَمُ نَفْسًا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: تدلي علي بهذه المنة لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب

وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال:

﴿فَقَدْ كَذَبُوا﴾ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية، لا تتغير ولا تتبدل ﴿فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب.

قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرِهْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَنْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

(١٠-٦٨) ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى آخر القصة قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونباه وأرسله فقال: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية.

﴿قَوْمٌ فِرْعَوْنُ لَا يَنْفَعُونَ﴾ أي: قل لهم بلين قول ولطف عبارة ألا تتقون الله الذي خلقكم ورزقكم، فتركوا ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربه، ومبيناً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْلُغُنِي لِسَانِي فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَبَرَآءَةً مِنَ الْهَوَىٰ هَؤُلَاءِ بِهَؤُلَاءِ.

﴿فَأَرْسِلْ لِيَ هَارُونَ﴾ فأجاب الله طلبته، ونبا أخاه هارون، كما نبأه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: معاوناً لي على أمري أن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦٨

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا أَوَّانَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتَكَ نِعْمَةً تَنْمُو
عَلَى أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَنْ أَتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَعَى يَدَهُ
فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ
عَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَا أَيُّكَ بِكُلِّ شَحَارِ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ
لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

ومن معه على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي: آية ظاهرة
جلية على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.
﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ○ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ ﴿أي: ذكر الحيات﴾ مُبِينٌ ﴿ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه.

﴿وَنَعَى يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أي: لها نور
عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ﴾ معارضاً للحق ومن جاء به
﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ عَلِيمٍ﴾ ○ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴿مَوْءٌ عليهم
لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة،
لأنه من المتقرر عندهم، أن السحرة يأتون من العجائب بما لا
يقدر عليه الناس، وخَوْفُهُمْ أَنْ قَصَدَهُ بِهَذَا السَّحَرِ التَّوَصُّلَ إِلَى
إخراجهم من وطنهم، ليجلدوا ويجهتدوا في معاداة من يريد
إجلاءهم عن أولادهم وديارهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل
به؟.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخرهما ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾

الفاضل، وعذبتهم، وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله
من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تبت بها
وتدلي بها؟.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا إنكار منه لربه، ظلماً
وعلوّاً، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى، قال:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي خلق العالم
العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية،
ومن جملة ذلك أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق
المخلوقات، وفاطر الأرض والسموات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾
فقال فرعون متجرهماً، ومعجباً لقومه: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما يقول
هذا الرجل، فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ تعجبتم
أم لا، استكبرتم أم أذعنتم؟.

فقال فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إِنْ
رَسُولُكُمْ أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث قال خلاف ما نحن
عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من
زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا
موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير
خالق، والعقل عنده أن يعبد المخلوق الناقص من جميع
الوجوه، والجنون عنده أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي
والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى
عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام،
خفيفي العقول ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ﴾ فقال موسى عليه السلام مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله
لرب العالمين: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من سائر
المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقد أدبت لكم من البيان
والتبيين، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالك
تتجاهلون فيما أخطأكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي
رميتم به موسى من الجنون، أنه دأؤكم فرميتم أركى الخلق
عقلاً، وأكملهم علماً بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين،
حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض
والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأَيُّ شيء تثبتون؟
وإذا جهلتموه، فأَيُّ شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته،
فبأي شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله! إن المجانين الذين
بمنزلة البهائم أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدى منكم.

فلما خفقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن
المعارضة ﴿قَالَ﴾ متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَنْ أَتَّخِذَ إِلَهًا
غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ زعم - قبحه الله - أنه قد طمع في
إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهاً غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو

سورة الشعراء

٣٦٩

سورة الشعراء

لَعَلَّنَا نَبْعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرَانِ كَمَا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُفْرِقِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ لَحَنَنُ
الْغَالِبِينَ ﴿٤٤﴾ فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَالْتَمَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا لِمَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ أَمْسُدْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا فَطَنَ آلَ فِرْعَوْنَ
وَأَزْجَلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَبْرَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا
إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي إِنَّكَ
مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ هَؤُلَاءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمْعٌ خَذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

﴿فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تتبلع وتأخذ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾
فالتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب
وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق ولا يقاومه.
فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة تيقنوا - لعلمهم - أن
هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبئ
بصدق موسى، وصحة ما جاء به. ﴿فَالْتَمَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾
لربهم، ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، وانقمع
الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضع الحق
وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبي فرعون
إلا عتوا وضللاً، وتمادياً في غيه وعناداً، فقال للسحرة:
﴿أَمْسُدْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجب، ويعجب قومه من
جراتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامراته
﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا، وهو الذي جمع
السحرة وملاه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد
علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم
جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهلبهم، ومع ذلك،
فراج عليهم هذا القول الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه،

جامعين للناس، ﴿يَأْتُونَكَ﴾ أولئك الحاشرون ﴿يَكُلُّ﴾
سَحَّارٌ عَلَيْهِمْ أَي: ابعث في جميع مدتك التي هي مقر العلم
ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في
سحره، فإن الساحر يُقابِلُ بسحر من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موه به فرعون
الجاهل الضال المضل، أن ما جاء به موسى سحر، قبضهم
أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينتقد المجلس عن حضرة
الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم
وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر،
فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة،
واجتهد في ذلك وجد.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ قد واعدهم إياه موسى،
وهو يوم الزينة الذي يفرغون فيه من أشغالهم.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُخْتَلِعُونَ﴾ أي: نودي بعموم الناس
بالاجتماع في ذلك اليوم الموعد ﴿لَعَلَّنَا نَبْعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ
الْغَالِبِينَ﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنتظروا غلبة السحرة
لموسى، وأنهم ماهررون في صناعتهم، فتبتهم ونعظهم،
ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق لقالوا: لعلنا نتبع
المحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا
قيام الحجة عليهم.

﴿لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿إِنَّا لَأَجْرَانِ
إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى؟ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب
﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُفْرِقِينَ﴾ عندي، وعدهم الأجر والقربة منه،
ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به
موسى.

فلما اجتمعوا للموعد، هم وموسى، وأهل مصر، وعظهم
موسى وذكرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
فَيَسْجُذَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ فتنازعوا وتخاصموا، ثم
شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضاً.

ف ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ أي: ألقوا كل ما
في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيد بشيء دون شيء، لجزمه
بطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

﴿فَالْقُوا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ﴾ فإذا هي حيات تسعى، وسحروا
بذلك أعين الناس. ﴿وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ لَحَنَنُ الْغَالِبِينَ﴾
فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه، إلا أنه قد
تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة،
ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قسم منهم بعزة
فرعون والمقسم عليه أنهم غاليون.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء، ويتزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويدل من يشاء بمعصيته.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَشْرِقِينَ﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحنق قادرين.

﴿فَلَمَّا تَرَىٰٓهَ الْجَمْعَانِ﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾ شاكين لموسى وحزينين ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، ف ﴿قَالَ﴾ موسى مثبتاً لهم، ومخبراً لهم بوعده ربه الصادق: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون ﴿إِن مَّعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ اثني عشر طريقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾ أي: الجبل ﴿الْعَظِيمِ﴾ فدخله موسى وقومه.

﴿وَرَأَيْنَا تَمَ﴾ في ذلك المكان ﴿الْآخِرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه، قربانهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد. ﴿إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبتلان ما عليه فرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مع هذه الآيات المقتضية للإيمان، لفساد قلوبكم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

(٦٩-١٠٤) ﴿وَأَنذَرْنَاهُمْ يَوْمَ إِسْرَءِيلَ﴾ إذ قال لآيِهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر هذه القصة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أبناء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته قومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف فقال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ قَالُوا﴾ متبعجين بعبادتهم: ﴿تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا ﴿تَنْظُرُهَا عَيْنَا﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقانتا، فقال لهم إبراهيم، مبيناً لعدم استحقاتها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ

فلا يستنكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم توعدهم السحرة فقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتختزوا وتذلوا.

فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته -: ﴿لَا صَبْرَ﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَنَبِّلُونَ﴾ ﴿إِنَّا نَنْطَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا﴾ من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البيّنات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم، ليؤمنن به وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحققت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم الله من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أَن أَسْرِ بِمِائِدِي﴾ أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتماذوا ويتمهلوا في ذهابهم ﴿إِن كَرِهَ الْمُتَنَبِّلُونَ﴾ أي: سيبعثكم فرعون وجنوده.

ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس، ليقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾ ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد الذين أقبوا منا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَوُيُونٍ﴾ أي: بساتين مصر وجنانها الفاخرة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيه، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿وَمَقَارٍ كَبِيرٍ﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين، تمتعوا به دهرًا طويلاً، وقضوا بلذاته وشهواته عمراً مديداً، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والته العظيم.

تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ فَيَسْتَجِيبُونَ دَعَاءَكُمْ، وَيَفْرَجُونَ كَرْبَكُمْ، وَيَزِيلُونَ عَنْكُمْ كُلَّ مَكْرَهٍ ؟ ﴿٧٠﴾

﴿أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّوْنَ﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرهما وقال: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدَهُمْ هَذَا فَفَتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي: هذا أمر مقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجأوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، فجعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم.

فقال لهم إبراهيم: أنتم وأباؤكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أنتم وأباؤكم الأقدمون ﴿فَاتَّبَعْتُمْ عِدْوِيَّ﴾ فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرون.

﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي خلقني فهو يهدين هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ والذي يبيئني ثم يحييني ﴿وَالَّذِي أَطْعَمُنِي أَنْ يَقْبَلَنِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وترك هذه الأصنام التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدر أنتم وأباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد، قال الله تعالى: ﴿وَحَاجُّهُمْ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِّجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: علمًا كثيرًا، أعرف به الأحكام والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وَالْحَقِّقِ بِالصِّلَاحِينَ﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر، فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا، معظمًا مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سلمك على إبراهيم

سورة الشعراء

٣٧٠

سورة الشعراء

فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٧٠﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالظُّورِ الْعَظِيمِ ﴿٧١﴾ وَأَرْزَلْنَاهُمُ الْآخَرِينَ ﴿٧٢﴾ وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَعَهُ أَجْعَيْنِ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنْ رَبُّكَ لَمَوْلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٧٦﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا عِبَادُ أَصْنَامًا فَنُفِّلُ لَهَا عَذَابَكُنَّ ﴿٧٩﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٨٠﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّوْنَ ﴿٨١﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٣﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨٤﴾ فَإِنَّهُمْ عِدْوِيَّ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٧﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٨٨﴾ وَالَّذِي أَطْعَمُنِي أَنْ يَقْبَلَنِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِ بِالصِّلَاحِينَ ﴿٩٠﴾

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي: من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿وَأَنْفِرْ لَائِيَّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِّينَ﴾ وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّي﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عِدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُعْتَذَرُونَ﴾ أي: بالتوبخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة. بل أسعدني في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجوه من العقاب، ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم، معناه الذي سلم من الشرك والشك ومجبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر، اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومجبة

الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبه تابعة لمحبة الله، وهواه، تبعاً لما جاء عن الله .

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الثواب والعقاب فقال: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ أَي: قُرْبَتِ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم، الذين امثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه .

﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ أَي: برزت، واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، لِلْغَاوِينَ﴾ الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجراؤا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاءهم به من الحق ﴿يَقِيلُ لَمْ أَتِ مَا كُنْتُ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ بأنفسهم أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم ﴿فَكَبُكِبُوا فِيهَا أَي: ألقوا في النار﴾ هم أي: ما كانوا يعبدون ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ العابدون لها ﴿وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ من الإنس والجن الذين أرَّهم إلى المعاصي أژا، وتسلب عليهم شركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعائه، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومحبيب لهم، ومقلد لهم على شركهم .

﴿قَالُوا أَي: جنود إبليس الغاؤون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنَاقِلُ صَلَاحٍ مِثِينَ﴾ إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وتدعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حيثئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسووه برب العالمين إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم .

﴿وَمَا أَضَلَّنَا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَالرُّشْدِ، ودعانا إلى طريق الغي والفسق، إِلَّا الْمَجْرُومُونَ﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار .

﴿فَمَا لَنَا حِينَئِذٍ مِنْ شَفِيعِينَ﴾ يشفعون لنا، لينقذونا^(١) من عذابه ﴿وَلَا صَديقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب مصاف، ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا . فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً . ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيئات هيئات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون .

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَايَةً﴾ لكم

سورة الشعراء

٣٧١

سورة الشعراء

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبُكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَديقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْغَرِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبَأَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٩﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١٠﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع نزول الآيات .

(١٠٥-١٢٢) ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبَأَ نَبَأَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة .

يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع فقال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبَأَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم تكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق، كذبوه ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ في النسب ﴿نُوحٌ﴾ وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بالطف خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، فتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا

(١) في النسختين: لينقذنا .

قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٢﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٤﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٣﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٢٩﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣١﴾

الإكرام القولي والفعل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصيح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر لإلا الله.

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا نفوراً، و﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لتقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة، كما يقتل الكلب.

فتبأ لهم، ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم، بشر مقابلة.

لا جرم لما انتهى ظلمهم، واشتد كفرهم، دعا عليهم نبهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيات.

وهنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ○ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ○ أي:

الله تعالى على أن خصهم بهذا الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولا إليهم، أميناً، فلذلك رتبته بالفاء الدالة على السبب. فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتكفلون من المغموم الثقيل ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل. وأما أنتم فميتي، ومتمهي إرادتي منكم، النصح لكم، وسلوككم الصراط المستقيم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريه دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ○ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ الآيات. فقالوا ردًا لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة.

﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك.

ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأردل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكامل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه.

فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فساد، رد دعوته، - عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ﴾ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما عليّ التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحق، فانقادوا له، وكلّ له عمله.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبراً، ليؤمنوا، فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون

أي: أعطاكم ﴿يَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أمركم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام ﴿أَمْذَكُرْ بِاتْمِزْ﴾ من إبل وبقر وغنم ﴿وَبَنِيكَ﴾ أي: وكثرة نسل، كثر أموالكم، وكثر أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم حلول عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني - من شفقتي عليكم وبيري بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمررتم على كفركم وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبئهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: الجميع على حد سواء. وهذا غاية العتو، فإن قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولى الألباب، وجودها وعدمها - عندهم - على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم، واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم ولهذا قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفترقون. وهذه أحوال الدهر، لا أن هذه محن ومنح من الله تعالى، وابتلاء لعباده ﴿وَمَا تَحْنُ يَمْدِينِ﴾ وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبئهم وتهكم به. إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما أدركت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه رادع. ﴿فَأَعْلَسَتْهُمْ﴾، ﴿يَبِيعُ صِرَاصٍ عَلَيْهِ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنِعَ لَيَالٍ وَتَمَيَّزَ آيَاتِهِ خُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابٌ غَلِيٍّ حَاوِيَةٍ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق نبينا هود عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه، من الشرك والجبروت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع وجود الآيات المقضية للإيمان.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقوته قوم هود، على قوتهم وبطشهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بنبه هود، حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

(١٤١-١٥٩) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا صالحاً عليه السلام، الذي جاء بالتحديد الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكديماً للجميع ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ في النسب، برفق ولين: ﴿أَلَا نُنْفِئُ﴾ الله تعالى، وتدعون الشرك والمعاصي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ربكم،

أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿وَنَحْنُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَلَنَجِّنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ﴾ أي: السفينة ﴿الْمُشْحُونِ﴾ من الخلق والحيوانات ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد نوح، ومن معه من المؤمنين ﴿الْبَاقِينَ﴾ أي: جميع قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: نجاة نوح وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لَآيَةً﴾ دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاءوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحاً ومن معه، من أهل الإيمان.

(١٢٣-١٤٠) ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة. أي: كذبت القبيلة المسماة عاداً، رسولهم هوداً، وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودٌ﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿أَلَا نُنْفِئُ﴾ الله، فتركوا الشرك وعبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أرسلني الله إليكم رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقى بطاعتي فيما أمركم به، وأنهاركم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً، حتى تستقلوا ذلك المغرم ﴿إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمه، وأدرك عليهم فضله وكرمه، خصوصاً ما ربى به أوليائه وأنبياؤه.

﴿اتَّبَعُوا بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: مدخل بين الجبال ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

﴿وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: بركا ومجاوي للمياه ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وَإِذَا بَطِشُوا﴾ بالخلق ﴿بَطِشَتْ جَبَارِينُ﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخرُوا واستكبروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبئهم عن ذلك.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واركعوا شرككم وبطركم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم، أمين ناصح ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمْذَكُرُ﴾

أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمةً، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان ﴿أَمِينَ﴾ تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولون: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لا أطلب الثواب إلا منه.

﴿اتَّزَكُّونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينٍ﴾ في جَنَّتِ وَعُيُونٍ ○ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿أي: نصيد كثير. أي: أحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعمة سُدًى، تتعمون وتمتعون، كما تتمتع الأنعام، وتتركون سدى، لا تؤمرون ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعمة على معاصي الله.

﴿وَتَنَحَّيُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَتُوتًا فَرِيقَينَ﴾ أي: بلغت بكم الفراهة والحدق إلى أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصم الصلاب.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ○ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين تجاوزوا الحد ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: الذين وصفهم ودأبهم، الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إليها، إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض.

وكان أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم، موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم. ولعلمهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْأَنْبِيَاءِ شَعْنٌ رَقِيطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئًا، فقالوا للصالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: قد سحرت، فأنت تهذي بما لا معنى له.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فأَيُّ فضيلة فُتِّقْنَا بها، حتى تدعونا إلى اتباعك؟ ﴿فَأَتِ بِثَلَاثَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا، مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه، من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم^(١) من قسوتهم، سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا يقلع من طلبها، لكون طلبه مَبْنِيًّا على التعنت، لا على الاسترشاد.

فقال صالح: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء ترونها وتشاهدونها بأجمعكم ﴿هَٰذَا شَرْبٌ وَكَأَنَّ شَرْبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: تشرب ماء البئر يومًا، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر.

﴿وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءُ﴾ بعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم.

﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ○ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهي صيحة

٣٧٣
﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٧٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٨﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالَاتِنُقُونَ ﴿١٨٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٨٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾ اتَّزَكُّونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينٍ ﴿١٨٤﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٨٥﴾ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٨٦﴾ وَتَنَحَّيُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَتُوتًا فَرِيقَينَ ﴿١٨٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٨٨﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨٩﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٩٠﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٩١﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَتِ بِثَلَاثَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩٢﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٩٣﴾ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٩٥﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٧﴾

نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا، ويطلان قول معارضيههم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(١٦٠-١٧٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة. قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم. وكانوا - مع شركهم - يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح الذكران، المستقذر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم، لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَيْنَ لَرُّ نَتَنِهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المبغضين له، الناهين عنه، المحذرين.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ○ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِيْنِ﴾ أي: الباقين في العذاب، وهي امرأته.

(١) في النسختين: ولكنه.

سورة الشعراء

٣٧٤

سورة الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٨٣﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٨٤﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٥﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٦﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٨٧﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٨٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٩٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٩٧﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْوَاسَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٩٨﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٩٩﴾

لا يلزم تتميم مطلوب من سألها.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّ اعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي أتى بها وأنزلها بكم، وليس عليّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربّي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْرَ الظُّلَّةِ﴾ أظلمتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلمها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا فيستأنفوا العمل، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

(١) كذا في ب، وفي أ: أشجاره.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿١٨٨﴾ أي: حجارة من سجيل ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أهلكتهم عن آخرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

(١٧٦-١٩١) ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أصحاب الأيكة: أي: البساتين الملتفة أشجارها^(١)، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيباً، الذي جاء بما جاء به المرسلون ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، فتركوا ما يسخطه ويغضبه، من الكفر والمعاصي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يترتب على ذلك، أن اتقوا الله وتطيعوا. وكانوا - مع شركهم - يخسسون المكايل والموازين، فلذلك قال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: أتموه وأكملوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها، ببخس المكيال والميزان. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْوَاسَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالميزان العادل الذي لا يميل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فافردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، رادّين لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ فأنت تهذي وتكلم كلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك. وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم. وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

﴿وَإِنْ ظُنَنْتَ لِمَنِ الْكَذِبُ﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطوا على خلافة، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعبياً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد يتقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

﴿فَأَسْفِطْ عَلَيْنَا كَيْفَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ كقول إخوانهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا بِعَذَابِ إِلَهِكُمْ﴾ أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح التي

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْأَعَزُّ﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وفهر كل مخلوق ﴿الْأَرْحَمُ﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته أن نجي أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

(١٩٢-٢٠٣) ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ
 عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ
 الْأَوَّلِينَ ۝ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَكَلِّمَهُ عُلَمَاؤُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ وَلَوْ أَنزَلْنَاهُ
 عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۝ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ۚ كَذَلِكَ
 سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُحْجِرِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ
 الْأَلِيمَ ۝ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ
 مُنْظَرُونَ ﴿لَمَّا ذَكَرَ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَهْمِهِمْ، وَكَيْفَ دَعَوْهُمْ،
 وَ[مَا] ^(١) رَدُّوا عَلَيْهِمْ بِهِ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُمْ، وَصَارَتْ
 لَهُمُ الْعَاقِبَةُ. ذَكَرَ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، وَالنَّبِيُّ الْمَصْطَفَى
 الْعَظِيمُ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ هِدَايَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ
 فَقَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَالَّذِي أَنْزَلَهُ، فَاطِرُ الْأَرْضِ
 وَالسَّمَاوَاتِ، الْمَرْبِّيُّ جَمِيعِ الْعَالَمِ، الْعَلَوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ، وَكَمَا
 أَنَّهُ رَبَّاهُمْ بِهَدَايَتِهِمْ لِمَصَالِحِ دِنْيَاهُمْ وَأَبْدَانِهِمْ، فَإِنَّهُ يَرْبِيهِمْ أَيْضًا
 بِهَدَايَتِهِمْ لِمَصَالِحِ دِينِهِمْ وَأَخْرَاهُمْ. وَمَنْ أَعْظَمَ مَا رَبَّاهُمْ بِهِ،
 إِنزَالُ هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى الْخَيْرِ الْكَثِيرِ،
 وَالْبَرِّ الْغَزِيرِ. وَفِيهِ مِنَ الْهَدَايَةِ لِمَصَالِحِ الدَّارَيْنِ، وَالْأَخْلَاقِ
 الْفَاضِلَةِ، مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ﴾ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَشِدَّةِ الْاهْتِمَامِ فِيهِ، مِنْ كَوْنِهِ نَزَلَ مِنَ اللَّهِ،
 لَا مِنْ غَيْرِهِ، مَقْصُودًا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَهَدَايَتُكُمْ.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، ﴿الْأَمِينُ﴾ الذي قد آمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي.

﴿يَلْسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم،
وبإشر دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح.

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على

الحمد لله رب العالمين

२५०

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٦﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولَى ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَبِأَيِّهِمْ بَعْثَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجَلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفضحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وَإِنَّهُ لَنَآ زَيْرٌ آتٍ﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أَن يَعْلَمُ عَلَمُوا﴾
 بَنِي إِسْرَءِيلَ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم
 الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه،
 يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على
 غيرهم. كما عرف السحرة الذين مهرؤا في علم السحر،
 صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر. فقول الجاهلين بعد
 هذا لا يؤبه به.

﴿وَلَوْ رَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِرِينَ﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندرى ما يدعو

(١) زيادة يقتضيها السياق .

﴿ذَكَرْنِي﴾ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾
فنهلك القرى قبل أن نذرهم، وتأخذهم وهم غافلون عن
النذر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾،
﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
الرَّسُولِ﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة
نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن
والإنس، فقال: ﴿وَمَا تَزَلَّتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ○ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ○ أي:
لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَحْيُونَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ
السَّمْعِ لَمَعُزُولُونَ﴾ قد أبعادوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه،
ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن
يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

(٢١٦-٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾
○ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ○ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ○ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ينهى تعالى
رسوله أصلاً، وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من
جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب
السرمدى، لكونه شركاً ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ والنهي عن الشيء أمرٌ بضده، فالنهي عن الشرك
أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبةً، وخوفاً،
ورجاءً، ودلاً، وإنابةً إليه في جميع الأوقات.

ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال:
﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك،
وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره
بإنذار جميع الناس. كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم
قيل له: «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً^(١)، دالاً
على التأكيد، وزيادة الحق.

فامثل ﷺ، هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش،
فعمم وخصص، وذكرهم وعظمهم، ولم يَبْقِ ﷺ من مقدوره
شيئاً، من نصحهم وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى،
وأعرض من أعرض.

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك،
ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحببك إليهم، وحسن خلقك
والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فِيمَا
رَحِمَ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان أفصح الخلق،
وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة،
وأنصحهم. وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم
والقبول. ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض
الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال:
﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ﴾ أي: أدخلنا التكذيب،
وأظلمناه في قلوب أهل الإجمام، كما يدخل السلك في
الإبرة، فنشربته، وصار وصفاً لها. وذلك بسبب ظلمهم
وجرمهم، فلذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ على
تكذيبهم ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يأتيهم على
حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون
أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم ﴿فَيَقُولُوا﴾ إذ ذاك: ﴿هَلْ نَحْنُ
مُنْظَرُونَ﴾ أي: يطلبون أن يُنْظَرُوا ويمهلوا، والحال أنه قد فات
الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يُفْتَر
ساعة.

(٢٠٧-٢٠٤) ﴿أَفَعَدَّيْنَا لِلْمُصَلِّينَ أَقْرَبَٰٓءَ إِن مَتَّعْنَاهُم
سِنِينَ ○ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ○ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَعَدَّيْنَا﴾ الذي هو العذاب الأليم
العظيم، الذي لا يستهان به، ولا يحتقر ﴿يَسْتَعْلِفُونَ﴾ فما
الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة
يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعْجِزُونَا، ويظنون
أننا لا نقدر على ذلك.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أي: أفرايت إذا لم نستعجل
عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا
﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من اللذات والشهوات،
أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت وبطلت،
واضحلت، وأعقت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند
طول المدة. القصد الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم
له. وأما تعجيله أو تأخير، فلا أهمية تحته، ولا جدوى
عنده.

(٢١٢-٢٠٨) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ○ ذَكَرْنِي وَمَا
كُنَّا ظَالِمِينَ ○ وَمَا تَزَلَّتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ○ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا
يَسْتَحْيُونَ ○ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعُزُولُونَ﴾ يخبر تعالى عن كمال
عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً،
إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيه النذر بالآيات البينات،
ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم
بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

فَأَعْتَفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿٢١٧﴾ فبهذه أخلاقه ٥ أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد.

فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه؟ [وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق. قد حصل من هذه المعاملة من المفساد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محترقاً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداينة، وقد كمل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله. فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِنْ عَصَاكَ﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعضهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبيتهم منه.

وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿وَاصْفُضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

(٢١٧-٢٢٠) ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ٥ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ٥ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك. ثم نهيه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ٥ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راکعاً وساجداً.

خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خضع وذل، وأكملها، وتكميلها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.

سورة الشعراء

٣٧٦

سورة الشعراء

مَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢١٧﴾ وَمَا أَهْلَكَنَا مِنْ قُرْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢١٨﴾ وَذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٩﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٢١﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢٢٢﴾ فَلَا تَنْدَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهَاءَ آخَرَفَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٢٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّئِي مُّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٧﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢٢٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣٠﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٣١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَذِبُونَ ﴿٢٣٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٣٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٣٧﴾

سورة النمل

فاستحضر العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

(٢٢١-٢٢٧) ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ٥ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٥ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَذِبُونَ ٥ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ٥ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان، وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي، الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين.

﴿نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والافك بالباطل، ﴿أَثِيمٍ﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟.

﴿يُلْقُونَ﴾ عليه ﴿السَّمْعَ﴾ الذي يسترقونه من السماء،

الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحًا، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة، وأثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والدُّبُّ عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ينقلبون إلى موقف وحساب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حَقًّا إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ ۝ هَذِهِ نَسِيتُ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا هُمْ أَقْنَمُهُمْ هُمْ يَعْْمَهُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ ۝ وَإِلَيْكَ لَنُلْقِي الْفُرْقَانَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ بينه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق. آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم. آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة، مبلغ الشمس للأبصار. آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية، على طبق ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة. آيات عرفت برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صونًا لها عن من لا

﴿وَكَذَّبْتُمْ كَذِبًا﴾ أي: أكثر ما يلحقون إليه كذب^(١)، فيصدق واحدة، ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه^(٢) صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد ﷺ فحالاه مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين برِّ القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال من المحرم.

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروسًا محفوظًا، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب. فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك؟ وهل يشتبهان إلا على مجنون لا يميز، ولا يفرق بين الأشياء؟

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برَّاه أيضًا من الشعر فقال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ أي: هل أنبئكم أيضًا عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى. فهم في أنفسهم غاوون، وتجذ أتباعهم كل غاو ضال فاسد.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ أودية الشعر﴾ يهيمون فتارة في مدح، وتارة في قبح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

﴿وَأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ مَا لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: هذا وصف الشعراء، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم. فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب. وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبين من كل جبان، هذا وصفهم.

فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله، ولم تخالف أقواله أفعاله؟، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له.

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربه؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الأبدين، ودهر

سورة النمل

٣٧٧

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ أَيْتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغَاتِكُمْ
مِنْهَا خَيْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَ اللَّهُ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُحُ بِهِ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاهُ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى وَعَقْبٌ يَمْسُحُ لَا تَخَفْ
إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ
سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَمْسُحًا
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْرٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفِرْعَوْنُ كَانُوا أَقْوَمًا فَتَسْقِنَ
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾

خير فيه ولا صلاح، ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من
خصمهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت
سراثرهم.

فلهذا قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تهديهم إلى سلوك
الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه،
وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان، فهل يقبل من كل أحد
ادعى أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق،
فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾
فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها،
وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة،
وهو الخشوع الذي روحها ولها، باستحضار قرب الله، وتدبر
ما يقول المصلي ويفعله.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقيها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة
اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب، الداعي إلى
العمل. ويقتنيهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم
من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من
جاء بإثباتها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ حائرين مترددين،
مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق،
فراوا الباطل حقًا، والحق باطلاً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده وأسوأه وأعظمه
﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم
خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي
دعته إلى الرسل.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: وإن هذا
القرآن الذي ينزل عليك، وتلقفه وتتلقيه، ينزل من عند
﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها ﴿عَلِيمٍ﴾
بأسرار الأمور^(١)، وبواطنها كظواهرها. وإذا كان من عند
﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(٢) علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي
هو [أعلم] بمصالحهم منهم؟

(١٤-٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ إلى آخر قصته،
يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن
عمران، ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته، وتكليم الله
إياه. وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من
مدين متوجهًا إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان
في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي:

أبصرت نارا من بعيد ﴿سَائِغَاتِكُمْ مِنْهَا خَيْرٌ﴾ عن الطريق ﴿أَوْ آتِيكُمْ
بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون، وهذا دليل على
أنه نائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: ناداه الله
تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك. ومن بركته أن
جعله الله موضعًا لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ عن أن يظن به نقص أو سوء، بل
هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿يَمْسُحُ بِهِ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: أخبره الله أنه الله
المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى
﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾،
﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل
المخلوقات ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته أن أرسل
عبدَه موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته
ووحيه وتكليمه. ومن عزته أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من

(١) في ب: الأحوال. (٢) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب (حكيم
خير) فصححتها، وأبقيت التفسير كما هو.

انفرادك، وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿وَأَنقَضَ عَصَاهُ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وهو ذكر الحيات، سريع الحركة ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَدَّ بِعَقَبٍ﴾ ذعراً من الحية التي رأى، على مقتضى الطبائع البشرية. فقال الله له: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره. فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والخطوة بتكليمه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم. فلا يأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿وَأَنزَلَ بِذَلِكَ فِي جَبِّكَ نَجْرَ يَصْفَا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ لا يرص ولا نقص، بل بياض يبهير الناظرين شعاعه ﴿فِي تَبَعٍ إِلَيْنِي إِلَافُونَ وَقَوْمَةٍ﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من الجيب، فتخرج بيضاء في جملة تسع آيات، تذهب بها وتدعو فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراهم الآيات ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أَيْتَانَا مُبْصِرَةٌ﴾ مضيئة، تدل على الحق، ويصير بها كما تبصر الأبصار بالشمس ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّثَبِّتٌ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ﴿ثُبُثْ﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب، الآيات المبصرات، والأنوار الساطعات تجعل من أبين الخزعات وأظهر السحرا! هل هذا إلا من أعظم المكابرة، وأوقع السفسطة.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي كفروا بآيات الله، جاحدين لها ﴿وَأَسْقَفَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم، ويقينهم^(١) بصحتها ﴿ظَلَمُوا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم ﴿وَعَلُوا﴾ على الحق وعلى العباد، وعلى الانقياد للرسول ﴿فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم الله وغرّتهم في البحر،

وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده. (١٥-٤٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَرَبِّ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ ﴿إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. يذكر في هذا القرآن، وينوه بتمته على داود وسليمان ابنه، بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخَرْتِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكَفَّ اللَّهُ عَنْهُمَا﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الآية.

﴿وَقَالَ﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحمداً الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء.

وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم [الخمسة]. لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمداً الله على بلوغ هذه المنزلة. وهذا عنوان سعادة العبد، أن يكون شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً.

فلما مدحهما مشتركين، خص سليمان بما خصه به، لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً، وصار له من الماكرات ما لم يكن لأبيه، صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وَرَبِّ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾ أي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فعمله تعلم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله فهمنها سليمان. وقال: شكراً لله، وتبجحاً بإحسانه، وتحدثاً بنعمته: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَطَوِّ الظَّلَمِ﴾ فكان عليه الصلاة [والسلام]، يفقه ما تقول وتتكلم به، كما راجع الهدد وراجع، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أعطانا الله من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤته أحداً من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿وَقَبْ﴾^(٢) لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فسخر الله له الشياطين، يعملون له كل ما شاء من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح، غدوها

(١) في ب: يتقنهم. (٢) في النسختين: قال: (رب هب) وهو خطأ.

شهر، ورواحها شهر.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة، من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور فهم يوزعون، يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك، وأعد له عدته. وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره، لا تقدر على عصيانه، ولا تمرد عنه، قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره^(١).

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فنصحت هذه النملة، وأسمعت النمل، إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعا خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة، من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل، ثم سري الخبر من بعضهن لبعض، حتى بلغ الجميع، وأمرتهن بالحذر، والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن.

وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم، أنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه.

﴿فَنَسَرَ صَاحِبًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾ إعجابا منه بفصاحتها^(٢)، ونصحها، وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم. كما كان الرسول ﷺ جُلُّ ضحكه التبسم، فإن الفقهية تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك.

وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحال: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أَنَّ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية، عليه وعلى والديه ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: ووفقني أن أعمل صالحا ترضاه، لكونه موافقا لأمرك، مخلصا فيه، سالما من المفسدات والمنقصات ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ التي منها الجنة

وَحَمْدُهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنِيقَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْإِسْمَاعِيلُ الذِّي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْتَائِهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْ مَّطِيقِ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأَيَّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَسَرَ صَاحِبًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرِ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ الِهَذَا هَذَا أَمْ كَانَ مِّنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَحِثَّتْكَ مِنْ سَبَابِ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾

﴿فِي﴾ جملة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فإن الرحمة مجعولة للصالحين، على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها.

ثم ذكر نموذجًا آخر من مخاطبته للطير، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتديبره بنفسه للأمور الصغار والكبار. حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر هل هي موجودة كلها، أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها^(٣)، ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه.

أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والملاحظات، أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان

(١) في أ: في بعض في. (٢) في ب: بنصح أمته. (٣) في ب: منه.

كذلك لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى، لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقدته قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد» أو «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات. وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضاً فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء، بحيث يحتاج لهدسة الهدهد. فإن عنده من الشياطين والعفاريت، ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟! وهذه التفاسير التي توجد، وتشتهر بها أقوال، لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع.

والليب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين، الذي خاطب الله به الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني، التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل. فإن وافقته قبلها، لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى، أو لفظاً أو معنى، ردها وجزم بطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقد الهدهد، يدل على كمال حزمه وتديبه الملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهُدُودَ أَتَمَّ كَانَ مِنَ الْكَاثِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه، لقلة فطنتي به، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟

فحينئذ تغيب عليه وتوعده، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل، ﴿أَوْ لَأَذْنَعَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه. وهذا من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب. وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناء لورعه وفطنته.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هبة^(١) جنوده

منه، وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: عندي من العلم، علم ما أحطت به، على علمك الواسع، وعلو درجتك فيه ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ أي: خبر متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُكُمْ﴾ أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يؤتاه الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع ونحو ذلك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: كرسي ملكها، الذي تجلس عليه، عرش هائل. وعظم العروش يدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس ﴿وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْلَاهُمْ﴾ فأروا ما هم عليه هو الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: ﴿أَلَا﴾ أي: هلا ﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم الخفي الخبيء، في أقطار السموات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور. ويخرج خبء الأرض والسماء، بأنزال المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور، وإخراج الأموات من الأرض، ليجازيهم بأعمالهم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْهَوْنَ﴾.

﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تنبغي العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا له، لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات ووسع الأرض والسموات. فهذا الملك عظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يدل له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه.

وقال مثبتاً لكمال عقله ووراثته: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ○ أذهب بكنيتي هكذا ﴿وسأتي نصه﴾ فألقه إليهم ثم قول عنهم ﴿أي: استأخر غير بعيد﴾ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿إليك وما يراجعون به.﴾

فذهب به فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض.

(١) كذا في ب، وفي أ: هيبته.

سورة النمل

٣٧٩

سورة النمل

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٨﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَرْشُ الْعَظِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣١﴾ أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْقِيهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ الْمَلَأُوا إِيَّيَ الْقِيَّ إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٣٣﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٤﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأُتُوْنِ مُسْلِمِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَتْ يَتَايَأُ الْمَلَأُ الْفَتَوَى فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٦﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْوَ شَدِيدُوا الْأَمْرَ إِلَيْكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٩﴾

نَبَأَ آذِلَّةً وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴿٣٩﴾ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، وَأَبْلَغَهُمْ مَا قَالَ سُلَيْمَانُ، وَتَجَهَّزُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانٍ. وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ أَنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ يَتَايَأُونَ بِعَرِشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِ مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ أَيُّ: لِأَجْلِ أَنْ تَنْصَرِفَ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْلُمُوا، فَتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ مُحَرَّمَةً ﴿٣٩﴾ قَالَ عَفْرِتٌ مِنَ الْغِيَّةِ ﴿٣٩﴾ وَالْعَفْرِتُ هُوَ الْقَوِيُّ الشَّيْطَانُ جَدًّا. ﴿٣٩﴾ أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ إِذَا ذَاكَ فِي الشَّامِ، فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَا نَحْوَ مَسِيرَةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، شَهْرَانِ ذَهَابًا، وَشَهْرَانِ إِيَابًا، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْعَفْرِتُ: أَنَا أَلتَزِمُ بِالْمَجِيءِ بِهِ، عَلَى كَيْفِهِ وَثِقَلِهِ وَبُعْدِهِ، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ. وَالْمَعْنَى مِنَ الْمَجَالِسِ الطَّوِيلَةِ، أَنْ تَكُونَ مَعْظَمُ الضَّحَى، نَحْوَ ثَلَاثِ يَوْمٍ، هَذَا نَهَايَةُ الْمَعْنَى، وَقَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ، أَوْ أَكْثَرَ. وَهَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، الَّذِي عِنْدَ أَحَادِ رَعِيَّتِهِ هَذِهِ الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ، وَأَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ «قَالَ الْوَلِيُّ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هُوَ رَجُلٌ عَالِمٌ صَالِحٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ يُقَالُ لَهُ: «أَصْفَ بْنَ بَرْخِيَا» كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ

ثُمَّ بَيَّنَّ مَضْمُونَهُ فَقَالَتْ: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأُتُوْنِ مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ أَيُّ: لَا تَكُونُوا فَوْقِي، بَلْ اخْضَعُوا تَحْتَ سُلْطَانِي، وَانْقَادُوا لِأَوْامِرِي، وَأَقْبِلُوا إِلَيَّ مُسْلِمِينَ.

وَهَذَا فِي غَايَةِ الْوَجَازَةِ مَعَ الْبَيَانِ التَّامِّ، فَإِنَّهُ تَضَمَّنَ نَهْيَهُمْ عَنِ الْعُلُوِّ عَلَيْهِ، وَالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِمْ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، وَالْانْقِيَادَ لِأَمْرِهِ، وَالِدُخُولَ تَحْتَ طَاعَتِهِ، وَمُجِيئَهُمْ إِلَيْهِ، وَدَعْوَتَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ ابْتِدَاءِ الْكُتُبِ بِالْبِسْمَةِ كَامِلَةً، وَتَقْدِيمُ الْاسْمِ فِي أَوَّلِ عُنْوَانِ الْكِتَابِ.

فَمَنْ حَزَمَهَا وَعَقْلَهَا، أَنْ جَمَعْتَ كِبَارَ دَوْلَتِهَا، وَرِجَالَ مَمْلَكَتِهَا وَقَالَتْ: ﴿يَتَايَأُ الْمَلَأُ الْفَتَوَى فِي أَمْرِي﴾ أَيُّ: أَخْبِرُونِي، مَاذَا نَجِيهِ بِهِ؟ وَهَلْ نَدْخُلُ تَحْتَ طَاعَتِهِ، وَنَقْدَادُ؟ أَمْ مَاذَا نَفْعَلُ؟ ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ أَيُّ: مَا كُنْتُ مُسْتَبِدَّةً بِأَمْرِ دُونَ رَأْيِكُمْ وَمَشُورَتِكُمْ.

فَ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْوَ شَدِيدٍ ﴿٣٦﴾ أَيُّ: إِنْ رَدَدْتَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، وَلَمْ تَدْخُلِي فِي طَاعَتِهِ، فَإِنَّا أَقْوِيَاءُ عَلَى الْقِتَالِ، فَكُنْهُمْ مَالُوا إِلَى هَذَا الرَّأْيِ، الَّذِي لَوْ تَمَّ لَكَانَ فِيهِ دِمَارُهُمْ. وَلَكِنْهُمْ أَيْضًا لَمْ يَسْتَقِرُّوا عَلَيْهِ، بَلْ قَالُوا: ﴿الْأَمْرُ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ: الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ، لَعَلَّهُمْ بِعَقْلِهَا، وَحَزَمِهَا، وَنَصَحِهَا لَهُمْ ﴿فَانْظُرِي﴾ نَظَرَ فِكَرٍ وَتَدَبَّرِ ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

فَقَالَتْ لَهُمْ - مَقْنَعَةً لَهُمْ عَنْ رَأْيِهِمْ، وَمِمْنَةً سَوَاءٌ مَغْبَةِ الْقِتَالِ - ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَهْلَهَا آذِلَّةً﴾ أَيُّ: لَأَمْوَالِهَا، وَتَخْرِيبًا لِدِبَارِهَا ﴿وَجَعَلُوا أَهْلَهَا آذِلَّةً﴾ أَيُّ: جَعَلُوا الرُّؤَسَاءَ السَّادَةَ أَشْرَافَ النَّاسِ مِنَ الْأَذْلِينَ، أَيُّ: فَهَذَا رَأْيِي غَيْرُ سَدِيدٍ. وَأَيْضًا فَلَسْتُ بِمُطِيعَةٍ لَهُ قَبْلَ الْاِخْتِبَارِ، وَإِرْسَالِ مَنْ يَكْشِفُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَيَتَدَبَّرُهَا. وَحِينَئِذٍ نَكُونُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِنَا، فَقَالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ مِنْهُ. هَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى رَأْيِهِ وَقَوْلِهِ؟ أَمْ تَخْدَعُهُ الْهَدِيَّةُ، وَتَبْدِلُ فِكْرَتَهُ، وَكَيْفَ أَحْوَالُهُ وَجُودُهُ؟

فَارْسَلَتْ لَهُ هَدِيَّةً، مَعَ رَسَلٍ مِنْ عَقْلَاءِ قَوْمِهَا، وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمٌ﴾ أَيُّ: جَاءَهُ الرِّسَالُ بِالْهَدِيَّةِ ﴿قَالَ﴾ مَنكُورًا عَلَيْهِمْ وَمَتَغَيِّظًا عَلَى عَدَمِ إِجَابَتِهِمْ: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَنَنِي اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا ءَاتَكُمُ﴾ فَلَيْسَتْ تَقَعُ عِنْدِي مَوْقِعًا، وَلَا أَفْرَحُ بِهَا، قَدْ أَغْنَانِي اللَّهُ عَنْهَا، وَأَكْثَرَ عَلَيَّ النِّعَمِ ﴿بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لِحَبْكُمُ لِلدُّنْيَا، وَقِلَّةِ مَا بِأَيْدِيكُمْ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أُعْطَانِي اللَّهُ.

ثُمَّ أَوْصَى الرُّسُولَ مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ، لِمَا رَأَى مِنْ عَقْلِهِ، وَأَنَّهُ سَيَنْقَلُ كَلَامُهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: ﴿أَتَرْجِعُ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: بِهَدِيَّتِكَ ﴿فَلَنَأْتِيَهُمْ بَحْثُورٌ لَا يُفْلِكُ لَهُمْ﴾ أَيُّ: لَا طَاقَةَ لَهُمْ ﴿بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ

الْمَلِكُ

٣٨٠

سُورَةُ النَّمْلِ

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَيْدُونَ مِنِّي مَاءً عَذْبًا إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا
 عَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ مَهْدِيَّتُكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٨﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
 بِجُودٍ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِمَّا آذَلَهُ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ
 يَتَأَيَّمُوا الْمُلُوكُ أَيْنَ يَأْتِيَنِي بَعْرُشُهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٠﴾
 قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْخَلْقِ إِنَّمَا تَأَيَّمُوا لِيَ قَالَ أَتَيْتُكَ بِهَيْبَةٍ مِّن مَّقَامِكِ وَإِنِّي
 عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤١﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتَاكَ بِهِ
 قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا
 مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَيْ
 لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَيْ عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٤٢﴾ قَالَ تَكَرُّوْا لَهَا عَرْشَهَا
 نَنْظُرَ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ
 أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوَيْتُنَا الْعُلَمَاءُ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
 ﴿٤٤﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ
 ﴿٤٥﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن
 سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
 ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

وخطئهم، من أندر ما يكون، فهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهو المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار.

ف ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء، لأن القوارير شفاقة، يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناء على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: مملس ﴿وَمِن قَوَارِيرَ﴾ فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحيث لم وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى ﴿أَنَا آتَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم، [هل هذا المراد، أم أن عنده علماً من الكتاب، يقتدر به على جلب البعيد، وتحصيل الشديدي؟] ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ سليمان ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة.

ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿وَمَن شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَيْ عَنِّي كَرِيمٌ﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها.

ثم قال لمن عنده: ﴿تَكَرُّوْا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيرهه بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿نَنْظُرُ﴾ مختبرين لعقلها ﴿أَتَنْهَدِي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهداً به، قد خلفته في بلدها. و ﴿قِيلَ لَهَا﴾ أهلكنا عَرْشُكَ؟ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من ذكاها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفت. فأتت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين. فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وَأَوَيْتُنَا الْعُلَمَاءُ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: الهداية، والعقل، والعزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: ﴿وَأَوَيْتُنَا الْعِلْمَ عَنْ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَبِزَادَةِ اقْتِدَارِهِ، مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي رَأَيْنَا فِيهَا قُدْرَتَهُ عَلَى إِحْضَارِ الْعَرْشِ مِنَ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ، فَأَذْنَعْنَا لَهُ، وَجِئْنَا مُسْلِمِينَ لَهُ، خَاضِعِينَ لِسُلْطَانِهِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: عن الإسلام وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم

نَقَّبِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ .

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يتوقف^(١) الحزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم. والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها، ليس كذلك. فالحزم كل الحزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفسير، والله أعلم.

(٤٥-٥٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

﴿قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْحَسَنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها، قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم ﴿لَمَلَكُمْ تَرْحُمُونَ﴾ فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

﴿قَالُوا﴾ لنبيهم صالح، مكذبين ومعارضين: ﴿أَطِيعْنَا يَا بَنِي مَعَكَ﴾ زعموا - قبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لمنع بعض مطالبهم الدنيوية. فقال لهم صالح: ﴿طَاعُواكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تفلعون وتتوبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه ﴿نَسَمَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح، والظعن في دينه، ودعوة قومه إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ.

فلم يزلوا بهذه الحال الشيعة، حتى إنهم من عداوتهم ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر ﴿لَنُبَيِّتَنَّكَ وَأَهْلَكَ﴾ أي: نأتيه^(٢) ليلاً، هو وأهله، فلنقتلنهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيكَ﴾ إذا قام علينا، وادّعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك،

سورة النمل

٣٨١

سورة النمل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْحَسَنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَاعُواكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ نَسَمَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّكَ وَأَهْلَكَ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيكَ مَهْلِكُ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَادَرْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفُلْحَشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لِنَاتُونَ الرِّجَالِ شَهْوَةٌ مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ ﴿٥٥﴾

ونفيه ونحلف ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فتواطؤوا على ذلك ﴿وَمَكْرًا مَكْرًا﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى [من] قومهم، خوفاً من أوليائه ﴿وَمَكْرًا مَكْرًا﴾ بنصر نبيينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر. ولهذا قال: ﴿أَنَا دَرَرْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكتناهم، واستأصلنا شافتهم. فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ قد تهدمت جدرانها على سقفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازلها ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيهم في الأرض.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق، ويتدبرون.

(١) في الأصل: يقف. (٢) في ب: لنأتينهم.

الْمُتَكَبِّرِينَ

٣٨٢

سُورَةُ النَّمْلِ

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالَ أَوْخِرْهُمَا إِلَيَّ لَأُوطِئَ مِنْ قُرْبَيْكُمْ أَنَّهُمْ أَنَاسٌ يَطْهَرُونَ﴾ (٥٦) فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَيْبِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۚ اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدُقًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا زُرُوعًا وَأَشْجَارًا هُمْ، وَشَرِبُهُمْ وَشَرَبَ مَوَاشِيَهُمْ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ﴾ أَي: جبالًا ترسيها وتبتهها، لئلا تميد، وتكون أوتادًا لها، لئلا تضطرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ الْبَحْرَ الْمَالِحَ وَالْبَحْرَ الْعَذْبَ ﴿حَاجِرًا﴾ يَمْنَعُ مِنْ اخْتِلَاطِهِمَا، فَتَفُوتِ الْمَنْفَعَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا، بَلْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا مِنَ الْأَرْضِ، جَعَلَ مَجْرَى الْأَنْهَارِ فِي الْأَرْضِ مُبْعَدَةً عَنِ الْبَحَارِ، فَيَحْصُلُ مِنْهَا مَقَاصِدُهَا وَمَصَالِحُهَا ﴿ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ فَعَلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَعْدَلَ بِهِ اللَّهُ وَيُشْرِكَ بِهِ مَعَهُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَيُشْرِكُونَ بِاللَّهِ تَقْلِيدًا لِرُؤَسَائِهِمْ، وَإِلَّا فَلَوْ عَلِمُوا حَقَّ الْعِلْمِ، لَمْ يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

أي: من هو الذي يهديكم، حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تولفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستشتر بذلك العباد قبل نزول المطر ﴿ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ فَعَلَ ذَلِكَ؟ أَمْ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ؟ فَلَمْ أَشْرِكْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَعَبَدْتُمْ سِوَاهُ؟ ﴿تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَعَاظَمَ وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ شُرَكَاهُمْ، وَتَسَوَّيْتُمْ بِهِ غَيْرَهُ.

﴿٦٤﴾ ﴿أَمَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفَعُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، وابتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرفعكم من السماء والأرض بالمطر والنبات؟ ﴿ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ فَعَلَ ذَلِكَ، وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ؟ ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُكُمْ﴾ أَي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَإِلَّا، فَيَقْدِيرُ أَنْكُمْ تَقُولُونَ: إِنْ

تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴿لَوْلَا مَنَّةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لَيَنْزَالُ الْمَطَرُ ۗ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالُ، حَتَّى يَعْبُدَ مَعَهُ وَيُشْرِكَ بِهِ؟
﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ بِهِ غَيْرَهُ، وَيَسُوونَ بِهِ سِوَاهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُ وَحْدَهُ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمُنْزِلُ الرِّزْقِ.

﴿٦١﴾ ﴿أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِرًا ۗ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا الْعِبَادُ وَيَتِمَكَّنُونَ مِنَ السَّكَنِ، وَالْحَرِثِ، وَالْبِنَاءِ، وَالذَّهَابِ، وَالْإِيَابِ ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أَي: جَعَلَ فِي خِلَالِ الْأَرْضِ أَنْهَارًا يَنْتَفِعُ بِهَا الْعِبَادُ فِي زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ، وَشَرِبِهِمْ وَشَرَبَ مَوَاشِيَهُمْ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ﴾ أَي: جبالًا ترسيها وتبتهها، لئلا تميد، وتكون أوتادًا لها، لئلا تضطرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ الْبَحْرَ الْمَالِحَ وَالْبَحْرَ الْعَذْبَ ﴿حَاجِرًا﴾ يَمْنَعُ مِنْ اخْتِلَاطِهِمَا، فَتَفُوتِ الْمَنْفَعَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا، بَلْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا مِنَ الْأَرْضِ، جَعَلَ مَجْرَى الْأَنْهَارِ فِي الْأَرْضِ مُبْعَدَةً عَنِ الْبَحَارِ، فَيَحْصُلُ مِنْهَا مَقَاصِدُهَا وَمَصَالِحُهَا ﴿ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ فَعَلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَعْدَلَ بِهِ اللَّهُ وَيُشْرِكَ بِهِ مَعَهُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَيُشْرِكُونَ بِاللَّهِ تَقْلِيدًا لِرُؤَسَائِهِمْ، وَإِلَّا فَلَوْ عَلِمُوا حَقَّ الْعِلْمِ، لَمْ يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

﴿٦٢﴾ ﴿أَمَنْ يُحْيِي الْمُتْصِرَ إِذَا دَمَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: هل يجب المضطر الذي أفلقته الكروب، وتعرس عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يخلصكم من البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئًا من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: قليل تذكركم وتذبركم للأمور التي إذا تذكروتموها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى. ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما اروعيتم، ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 ٣٨٣
 سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ
 آمَنَ يَدُّوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ. وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٥﴾
 قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَتَانَهُمْ نَبَأٌ بِشَيْءٍ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَاَبَاؤُنَا أَيْتَانَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
 هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى
 أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ رَبُّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنْ
 رَبُّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمِمَّنْ غَابَتْ
 فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قُرْآنٌ
 يَنْصُتُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عسى، ثم الإخبار
 بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه
 الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على
 معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق
 بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخسروا
 دنياهم وأخراهم.

(٦٩) ثم نهيهم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال:
 ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا
 تجدون مجرمًا قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شرُّ عاقبة،
 وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

(٧٠-٧٢) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى
 لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء
 المكذبين، وعدم إيمانهم! فإنك لو علمت ما فيهم من الشر،
 وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق
 صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته
 عليهم ﴿يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك، فذلك مجرد
 دعوى، صدقوها ببرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون، لا
 حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية
 الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات، وأنه
 المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

(٦٥-٦٨) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ
 وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَانَهُمْ نَبَأٌ بِشَيْءٍ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا
 وَآبَاؤُنَا أَيْتَانَا لَمُخْرَجُونَ﴾
 ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ
 هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بعلم غيب
 السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا
 يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا
 يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مُبِينٍ﴾ وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ
 مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها
 ملك مقرب، ولا نبي مرسل. وإذا كان هو المتفرد بعلم ذلك،
 المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي
 العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين
 بالآخرة، منتقلًا من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وَمَا
 يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يدرون ﴿أَيَّانَ يَبْعَثُونَ﴾ أي: متى البعث
 والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا ﴿بَلْ
 أَذْرَكَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: بل ضعف وقُلْ ولم يكن يقينًا،
 ولا علمًا واصلًا إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم،
 ضعفه ووهائه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هُمُ
 فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن
 العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا﴾ أي: من
 الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في
 قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.
 ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَيْتَانَا
 لَمُخْرَجُونَ﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل
 القدرة، بقدرهم الضعيفة.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾ أي: البعث ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي:
 فلم يجتنا، ولا رأينا منه شيئًا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي:
 قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل،
 ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار
 أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم

حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لخفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق فأذعنوا له ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

(٧٩-٨١) ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ○ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَ الْأَدْعَاءُ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ○ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه. وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هدام، فلماذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَ الْأَدْعَاءُ﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله، وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجْعُهُمْ﴾.

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حثمه الله، وفرض وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم وقينتهم بآيات الله. فأظهر الله هذه الدابة، من آيات الله العجيبة، ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، [ولم يأت دليل يدل على كفيته، ولا من أي نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة

ويقول المكذبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدره، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذراً لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب.

(٧٣-٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِيمٌ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ○ وَمَا مِنْ عَلِيمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بینه عباده على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِيمٌ مَا تُكِنُّ﴾ أي: تنطوي عليه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وَمَا مِنْ عَلِيمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلبي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

(٧٦، ٧٧) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ○ وَإِنَّهُ لَكُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر.

ولهذا بيّن أن نفعه ونوره وهدهد مخصص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكُدَىٰ﴾ من الضلالة والغي والشبه و﴿رَحْمَةٌ﴾ تنلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط. فالأمور وإن

على صدق ما أخبر الله به في كتابه، والله أعلم^(١).

(٨٣-٨٥) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾
يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجًا وطائفة ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ وحضروا، قال لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿أَكُذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا﴾ العلم، أي: الواجب عليكم التوقف، حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتهم بأمر لم تحيطوا به علمًا؟ ﴿أَنَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكديًا بالحق، وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آيَلًا لِلْسَّكُونِ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة، والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار. هذا بظلمته، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستعدوا للعمل، وهذا بضائه، لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

(٨٧-٩٠) ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ مَنْ جَاءَ يَأْمُرُ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ يَنْفِرُونَ ۝ وَمَنْ جَاءَ يَنْصِيحًا فَكُنْ مِنْهُمْ وَجْهَهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخوف تعالى عباده، ما أمامهم من يوم القيامة، وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم ببعض، خوفًا مما هو مقدمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن أكرمه الله، وثبته، وحفظه من الفزع ﴿وَكُلُّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرؤوسون في الذل والخضوع لملك الملك.

وَأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأَعْدَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَدَى الْأَعْمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آيَلًا لِلْسَّكُونِ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

ومن هؤلاء أنك ﴿رَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لا تفقد [شيئًا] منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأحوال كل مبلغ، وقد تفتت، ثم تضمحل، وتكون هباء منبثًا، ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ من خفتها، وشدة ذلك الخوف، وذلك ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿مَنْ جَاءَ يَأْمُرُ﴾ اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ هذا أقل التفضيل^(٢).

﴿وَهُمْ يَنْفِرُونَ﴾ أي: من الأمر الذي فرغ الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

(١) ما بين القوسين المرتكبن زيادة من هامش أبخط الشيخ - رحمه الله - وفي ب زيادة أخرى، يبدو أنها بخطه - رحمه الله - هي: (لم يذكر الله ورسوله، كيفية هذه الدابة. وإنما ذكر أثرها والمقصود منها وأنها من آيات الله، تكلم الناس كلامًا خارقًا للعادة، حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجة وبرهانًا للمؤمنين، وحجة على المعاندين). (٢) سبق قلم الشيخ إلى آية الأنعام ﴿لَكُمْ عَشْرَ أَثْقَالٍ﴾ وعليه فسرها.

سورة النمل

٣٨٥

سورة النمل

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعِيدَ رَبُّ هَذِهِ
الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَنْ هَتَدَىٰ فَإِنَّمَا هَتَدَىٰ
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ سَيِّدِكُمُ الْإِلَهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
مِنْ نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ
طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَ هُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرَبُّكَ أَنْتُمْ عَلَىٰ الذِّكْرِ اسْتَضِعُّوْا
فِي الْأَرْضِ وَبَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَبَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه
للمقبلين، وممد مائدة خيراته وميراثه للمتفكرين، والحمد لله
رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعه ومعلمه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك في
٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ.

المجلد السادس من تفسير الكريم الرحمن في تفسير
كلام الصنان، من متن الله على العبد الفقير إلى المعيد
المبدي، عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن
ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له. آمين.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ اسم جنس، يشمل كل سيئة ﴿فَكُبَّتْ
وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾، أي: ألقوا في النار على وجوههم، ويقال
لهم: ﴿هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(٩١-٩٣) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعِيدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي
حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُوا
الْقُرْآنَ فَمَنْ هَتَدَىٰ فَإِنَّمَا هَتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ
الْمُنذِرِينَ ﴿٩١﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيِّدِكُمُ الْإِلَهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعِيدَ رَبُّ هَذِهِ
الْبَلَدَةِ﴾ أي: مكة المكرمة التي حرّمها وأنعم على أهلها،
فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من
العلويات والسفليات، أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته
بالبيت وحده ﴿وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١) أي: أبادر
إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلامًا،
وأعظمها استسلامًا.

﴿و﴾ أمرت أيضًا ﴿أَنْ أَتْلُوا﴾ عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾ لتهتدوا به
وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي عليّ وقد أدبته.
﴿فَمَنْ هَتَدَىٰ فَإِنَّمَا هَتَدَىٰ لِنَفْسِهِ﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته
عائدة إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وليس بيدي من
الهداية شيء.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن
جميع الخلق. خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده،
فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم،
أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه،
وكثرة خيراته عليهم.

﴿سَيِّدِكُمُ الْإِلَهِ فَنَعْرِفُونَهَا﴾ معرفة تدلّكم على الحق
والباطل. فلا بد أن يريكم من آياته ما تستتيرون به في
الظلمات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ
بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من
الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال،
وسيحكم بينكم حكمًا تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة
بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانه وتيسيره.

ونسأله تعالى أن لا تزال ألفاظه ومعونه مستمرة علينا،
وواصله منه إلينا. فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين،
وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور
العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزّل في جميع الأوقات

(١) سبق فلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (وامرأت أن أكون أول
المسلمين) وعلى هذا فسر الآية.

تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَتُكَنَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته.

﴿و﴾ كذلك نريد أن ﴿نُرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰكَذَا وَجُودُهُمَا﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿وَنُتْمَهُمْ﴾ أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك. فكل هذا قد أَرَادَهُ الله، وإذا أراد أمراً، سهّل أسبابه، ونهّج طريقه. وهذا الأمر كذلك، فإنه قَدَّرَ وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود. فأول ذلك، لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ﴾ بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم ﴿فَأَتَيْنَاهُ فِي الْيَمِّ﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مَكَامًا مَّكْرُومًا﴾ فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولاً.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأُم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، أَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، فساقه الله تعالى حتى التقطه آل فرعون فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قَبِضَ الله أن يكون زعيمهم، يتربى تحت أيديهم، وعلى نظرهم وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادهم، ينافذ ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

(٥١-١) ﴿طَسَّرَ﴾ تَلَاكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ تَتْلُو عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِلَى آخر القصة ﴿وَتَلَاكَ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتضخيم ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلّلاً للعباد ووضوحاً.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبدأها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ فإن نبأهما غريب، وخبرهما عجيب.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإليهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون إيماناً وقيناً، وخيراً إلى خيرهم. وأما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانته الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه.

فأول هذه القصة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها، ﴿وَجَعَلَ أَهْلًا لَهَا شُعَبًا﴾ أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

﴿يَسْتَضِعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين الذين له أن يكرمهم ويجلهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أَرَادَهُ فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ إِلَٰهٍ أَسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأهم ﴿وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة

الْقَصَصُ

٣٨٦

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقِطْعَةُ الَّتِي أَفْرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمُّاتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْنَتُ خُذْهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كِي نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ومن لطف الله بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾.

وهذا جلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبًّا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على التريغيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالاته والنصح له، بادروا إلى إيجابتها، فأعلمتهم ودلهم على أهل هذا البيت.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كِي نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث إنه تربي عندها على وجه تكون فيه أمانة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه، ورسالته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئًا فشيئًا، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم^(١)، ونكيدهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

فلما التقطه آل فرعون، حنَّ الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة، المؤمنة «آسية» بنت مزاحم ﴿وَقَالَتْ﴾: هذا الولد ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي: أبقه لنا، ليقرَّ به أعيننا، ونستر به في حياتنا.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُمُ بِهِ﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولدًا لنا، ونكرمه ونجمله.

فقدَّر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبًّا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات [والمقالات] في شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه. وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزنًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: بما في قلبها ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبتناها فصبرت، ولم تبد به ﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبور وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى: ﴿لَأُخْبِرَهُ قُصِّيهِ﴾ أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد، أو يشعروا بمقصودك. فذهبت تقصه] ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهلها.

الْقَصَصُ

٣٨٧

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
 فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةٍ، وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ
 فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ، فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ
 فَقَضَىٰ عَلَيْهِ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
 ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ
 ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
 الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ، قَالَ لَهُ، مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَافِعٌ
 مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ
 يَمُوسَىٰ أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تَرِيدُ إِلَّا
 أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
 وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ لَأَمْلَأُ
 يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلَنَّهُ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
 فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منه الله عليه، أن لا يعين مجرمًا، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير، وترك الشر.

﴿١٤﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿أَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف، لأنه قد علم أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل.

فيبينما هو على تلك الحال ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ على عدوه ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ على قبطي آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ موبخًا له على حاله ﴿إِنَّكَ لَنَافِعٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الغواية، ظاهر الجراءة ﴿فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ موسى ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي: له وللخصام المستصرخ، أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي ﴿قَالَ﴾ له القبطي زاجرًا له عن قتله: ﴿أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض، قتل النفس بغير حق.

وأوا السبب متشوشًا، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة. فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها، وحنوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقته، وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها الذي بان للناس أنه هو الرضاع الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقًا وحقًا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ كملت فيه تلك الأمور ﴿ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلما كثيرا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علما وحكما بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ القبط.

﴿فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغًا يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: أماته من تلك الوكزة، لشدةها وقوة موسى.

فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من تزيينه ووسوسته ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه ف ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ خصوصًا للمخبتين، المبادرين للإنبابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

ف ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة. ﴿فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: معيّنًا ومساعدًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا أعين أحدًا على معصية.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٨٨

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الزَّعَاكُ وَابْنُكِ
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيلَ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ
لَا تَحْزَنْ بَحَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
يَبْنَوتُ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمْلِكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَٰتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ
تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجْجِ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْهِ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الضَّالِّينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياة من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير وال خادم الذي لا يستحي منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياة منه، ف ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنَّ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لا ليمنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ له مسكتًا روعه، جابرًا قلبه: ﴿لَا تَحْزَنْ بَحَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى ابنتيه ﴿يَبْنَوتُ اسْتَجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرًا عندك، يرعى الغنم ويسقيها ﴿إِنَّ ابْنِي يَدْعُوكَ

﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُضْلِينَ﴾ وإلا، فلو أردت الإصلاح لحلت بيني وبينه، من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره. وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين، حتى تراود ملا فرعون، وفرعون على قتله، وتشاوروا على ذلك. وقضى الله ذلك الرجل الناصح، وبأدرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم، فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدْيَنَةِ يَسْقَىٰ﴾ أي: ركضًا على قدميه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر، ف ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتِيُونَكَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ﴾ عن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فامثل نصحه ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله. و ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضبًا من غير قصد منه للقتل، فتوعدهم له ظلم منهم وجراءة.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قاصدًا بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك لفرعون ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق، فهده الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ أي: من دون تلك الأمة ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وبخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة ﴿قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الزَّعَاكُ﴾ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقيناه ﴿وَأَبْنُكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة تقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء. فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى. فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ مستريحًا لذلك الظلال بعد التعب. ﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مستزفًا ربه ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيلَ﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملًا.

وأما المرأتان فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتا بهما بما جرى.

عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه، وأعلى درجة، والله أعلم [إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال، لا يعتمد على أنه شعيب النبي، بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ] ^(١).

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ يحتتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والذلة وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه، ﴿سَارَ بِأَهْلِيهِ﴾ قاصداً مصر ﴿وَأَنَّكَ﴾ أي: أبصر ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُورَةٍ مِّنَ الْأَنَارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

(٣٠) فلما أتاه نودي ﴿يٰمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك أن يأمره بعبادته وتأله، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيبة ﴿كَأَنَّهُ جَانٌّ﴾ ذكّر الحيات العظيم. ﴿وَلَوْ مُدَّيرٌ مُّعَبِّدٌ﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿يٰمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التامين وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿أَقْبِلْ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أمر له بشيئين إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ فحيث اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً، واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم بقيته فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون ^(٢) أجراً له، وأقوى وأصلب.

ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿أَسْأَلُكَ بِكَ﴾ أي: أدخلها ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَصْبَاءٌ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ فسلكها وأخرجها، كما ذكره الله تعالى.

﴿وَأَضْمُوكَ إِلَيْكَ جَانْحَكَ مِنَ الرَّقَبِ﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف ﴿فَذَنُوكَ﴾

(١) زيادة من هامش ب. (٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.

أَسْتَجَرْتُ الْقَوِيَّ الْآمِنُ﴾ أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما، أي القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة. وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً، بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدتهما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى.

﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثَمَنِي﴾ أي: ثمانين سنين ﴿إِنَّكَ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكَ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك، لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة. وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام - مجيباً له فيما طلب منه - : ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعبياً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟.

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعبياً لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعبياً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهم عن الماء، وصد ما شيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقي ما شيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى

سورة القصص

٣٨٩

الجزء العشرون

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ كَذُوقٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسْ يَا إِبْرَاهِيمَ إِنَّا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْرِكُهَا جَاءَ وَلِيٌّ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسْ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٢٣﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَكَرَكَ بُرْهَنَانِ مِنَ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُتِلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٥﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَسُدُّ عَصُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّ اعْلَمْ بَيْنَ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونْ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبين الآيات البينات، وأبستم إلا التماذي في غيكم واللجاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم: ﴿إِنَّكُمْ لَا تَفْلَحُ الْفَالِغُونَ﴾. فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجربًا على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يَتَأَيَّهَا أَلَمْلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون، حيث لم يقل: «ما لكم من إله غيري» بل تورع وقال: «ما علمت لكم من إله غيري». وهذا، لأنه عندهم العالم الفاضل الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

(١) كذا في ب، وفي أ: عنكم كيد عدوهم.

أي: انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت.

ف ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام معتذرًا من ربه، وسائلًا له المعونة على ما حمله، وذاكرًا له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها ﴿رَبِّ إِنِّي قُتِلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وأخي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا أي: معاونًا ومساعدًا ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ فإنه مع تضايف الأخبار يقوى الحق، فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنَسُدُّ عَصُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نعاونك به ونقويك.

ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: تسلطًا وتمكنًا من الدعوة بالحجة والهيئة الإلهية من عدوهما لهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم^(١)، وصارت لكم أبلغ من الجنود، أولي العدو والعدو.

﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

فذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قاله لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿قَالُوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَمَرِّئٌ﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا، وقد علم ﴿مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

سورة القصص

٣٩٠

سورة القصص

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَأْتِ الْوَاقِعَ ۚ فَمُتَرِّفًا وَمَا يَشْعُرُ ۚ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَائِكَةُ لِكُفِّهِمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لي يَهْمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ ۖ إِنَّ إِلَهِ مُوسَى وَلِيَّيَ لَا أَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطَرُّوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعَرُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴿٤٣﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، ويستفاد بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْقَرَنِ﴾ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر ﴿وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ فَنُورًا فَطَوَّلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فاندرس العلم

(١) كذلك في ب، وفي أ: كذلك.

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتل أن ثم لها غيره، أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ«هامان»: ﴿فَأَوْقَدْ لي يَهْمُنْ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له لبنًا من فخار ﴿فَأَجْعَلْ لي صَرْحًا﴾ أي: بناء ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى، فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادّعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويح، ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشؤونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاؤوهم به من الآيات فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَنَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ فلذلك^(١) تجرؤوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطَرُّوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ كانت أشر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعَرُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدى بهم، ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: [وأتبعناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعة يلعنون، ولهم عند الخلق الشقاء القبيح والمقت والدم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستفردة أفعالهم، الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه ومقت أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا

سورة القصص

٣٩١

سورة القصص

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا فِرْعَوْنَ وَنَافِثًا وَلَاحِظًا عَلَيْهِمُ الْعَمْرُومَ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِمْ أَهْلَ مَدْيَنَ تَنَلُّوْا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ مِنْهُمْ مِنْ تَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ ءَايَتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِنْ قَبْلُ فَآتُوا بِكُتُبٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ فَإِنْ لَّمْ تَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾

عليه كتاب من السماء جملة واحدة، أي: فأما ما دام ينزل متفرقا، فإنه ليس من عند الله، وأي دليل في هذا؟ وأي شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقا؟.

بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقا، ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. وأيضا، فإن قياسهم على كتاب موسى قياس قد نقضوه، فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ﴾.

ثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر، ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما طلبا للحق واتباعا لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟.

قال تعالى ملزما لهم بذلك: ﴿فَاتَّوَا بِكُتُبٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ

ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيَهُمْ﴾ أي: مقيما ﴿فَتَ أَهْلَ مَدْيَنَ تَنَلُّوْا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين.

﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى، أثر من آثار إرسالنا إياك، ووحي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويربهم من آياتنا وعجايبنا ما قصصنا عليك، والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن تكون حضرته وشاهدته، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها، فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة، من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علم وثيق أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.

فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك، ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ رَحِمْنَا مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ مِنْهُمْ مِنْ تَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: العرب وقريش، فإن الرسالة [عندهم]، لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمان متطاولة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه، فإذا كنت بهذه المتزلة، كان الواجب عليهم المبادرة إلى الإيمان بك، وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها، ولا يدرك شكرها.

وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلا، ولغيرهم تبعا، كما قال تعالى: ﴿أَكَا لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، ﴿ثَلَّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ ءَايَتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حججهم، وقطع مقالتهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿مِّنْ عِنْدِنَا﴾ وهو القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿قَالُوا﴾ مكذبين له ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أي: أنزل

إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم فلا يعبا الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هتأ أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإيأس من ارتقاها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم ببلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها [ولا دنياها] (٣)، ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأمر موسى، وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدّر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدّر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والههم البالغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تظمن به نفسها، وتقر به عينها وترداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا يتنافى الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأمر موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والثبوت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها أن من أعظم نعم الله على عبده [وأعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا يتفجع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعده الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق. (٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(٣) زيادة من هامش ب.

أَهْدَىٰ مِنْهَا ۖ أَي: من التوراة والقرآن ﴿اتَّبَعَهُ﴾ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ ولا سبيل لهم، ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق.

وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جتتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق (١).

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُبْعِثُكَ أَهْوَاءُكُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَتَّبِعْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصول إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء (٢)، فاتبعه، وترك الهدى.

فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذي صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فقبضوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُبْعِثُكَ أَهْوَاءُكُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا هُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعترضوا بما هو من مصالحهم؟.

فصل

في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستتير المؤمنون، فعلى حسب

لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالمًا بها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكته، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها أن الحياء - خصوصًا من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين، عن معرفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضاعًا.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخير، لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل [يعمل] للإنسان، أن يكون قويًا أمينًا.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّن خلقه لأجير وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل لقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُثَقِّ عَلَيْكَ سَتْرَافِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّلَافِ﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود، من دون إسهاد لقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إمامًا في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًا.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث

أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَنْ يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدَّ قتله القبطي الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق، يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن مَنْ قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شريع فيه، لا يكون ذلك نسيمة - بل قد يكون واجبًا - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحًا له ومحذرًا.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلتقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما أنه تتركب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله، كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على مَنْ يعرف وَمَنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩٢

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
ءَايَنَتْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ
قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ
لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن
تَبِيعَ الْهَدْيِ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُكُنْ لَهُمْ
حَرَمًا ءَامَنَّا بِحَبْلِ اللَّهِ فَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
بَطَرْتَ مَعِيشتَهُمْ فَلَمَّا مَسَكْنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا وَكَانَ غُلَامٌ مِنَ الْأَوْرَثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رِيبُكَ مِنْهُ لَكَ
الْقُرْآنَ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ آخِرٍ لِيُنْزِلَ آيَاتِهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَأَهْلَاهُ أَهْلُ الْمَوْتِ ﴿٥٩﴾

أو متجاهل معاند للحق.

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ
قَبْلِهِ إِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ يُحِزُّونَ لِإِدْقَانِ سَجْدًا﴾ الآيات.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله
به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول
والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه
بالكتاب الأول.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أجرًا
على الإيمان الأول، وأجرًا على الإيمان الثاني، ﴿بِمَا
صَبَرُوا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم ترعزهم^(٢)
عن ذلك شبهة، ولا ثناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة التي من آثار إيمانهم الصحيح،
أنهم ﴿يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: دأبهم وطريقتهم
الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل،
يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلمهم بفضيلة هذا

(١) في ب: الخبرة. (٢) كذا في ب، وفي أ: يزعزعهم من.

آخر بذلك تفصيلًا مطابقًا، وتأصيلًا موافقًا، قصة قصًا،
صدق به المرسلين؛ وأيد به الحق المبين، من غير حضور
شيء من تلك الوقائع؛ ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك
المواضع؛ ولا تلاوة درس فيها شيئًا من هذه الأمور؛ ولا
مجالسة أحد من أهل العلم؛ إن هو إلا رسالة الرحيم
الرحمن؛ ووحى أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قومًا
جاهلين؛ وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه؛ على من مجرد خبره نبىء أنه رسول
الله؛ ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة؛ أنه من عند الله،
كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقته خبر الأولين
والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جيل
عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا
لأعلى الخلق درجة؛ والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه
مبلغ الليل والنهار؛ وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار؛
بالسيف واللسان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة؛ والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه
بقوس واحدة؛ وتكيد له المكائد؛ وتمكر لإطفائه وإخفائه
وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا
نموًا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورًا، وكل وقت من الأوقات
يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور
وبصيرة للمتوسمين، والحمد لله وحده.

(٥٥-٥٢) ﴿الَّذِينَ ءَايَنَتْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ
وَإِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ
أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنّا أعملنا
ولكم أعملكم سلم عليكم لا تبتغي الجاهلين﴾ يذكر تعالى عظمة
القرآن وصدقته وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه،
ويؤمنون به، ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَايَنَتْنَاهُمُ الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِهِ﴾ وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم
يبدلوا هـم به؛ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له وأذعنوا و﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ لموافقة ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر
في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر
والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا
يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل
الصنف^(١)، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم
للحق على شبهة، فضلًا عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه

ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال الله مبيّنًا لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أي: أو لم نجعلهم متمكنين، [ممكّنين] في حرم، يكثره المتتايون، ويقصده الزائرُونَ، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصونه بقليل [ولا كثير].

والحال أن كل ما حولهم من الأماكن، قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فليَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون.

وَلْيَتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم، ليتم لهم الأمن والرغد، وإيَّاهُم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفًا، وبعد عزهم ذلًا، وبعد غناهم فقرًا، ولهذا توعدهم بما فعل بالأُمم قبلمهم، فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: فخرت بها وألتهتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النقمة ﴿فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تَشْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيحاشها من بعدهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ للعباد، نُمِيتهم، ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم^(١) إلينا فنجازيهم بأعمالهم.

ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأُمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي: بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمًا﴾ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها يتعججها، ولا تخفى عليه أخبارها.

﴿رُسُلًا يَلْقَوْنَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بالكفر

(١) كذا في ب، وفي أ: ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم، وهو خطأ ظاهر من الناسخ.

الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ من جاهل خاطبهم به، ﴿قَالُوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الأبواب: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: كُلُّ سَبْجَارَى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللثيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَهْلِينَ﴾ من كل وجه.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْهُتَاتِينَ﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه وتعالى، يهدي مَنْ يَشَاءُ، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم ويرغب فيه، ويبدل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقههم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا لو كان قادرًا عليها، لهدى مَنْ وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

(٥٧-٥٩) ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْهُدَى مَعَكَ نَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ○ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تَشْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ○ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمًا رُسُلًا يَلْقَوْنَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّبِيعُ الْهُدَى مَعَكَ نَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعتك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.

وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا

والمعاصي، مستحقون للعقوبة، والحاصل أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه.

(٦٠، ٦١) ﴿وَمَا أُرِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا مَا تَرَوْنَ وَآتَيْنَا لَهُمْ خَيْرٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ﴾ ٦٠ أَفَن وَعَدْتُهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْقِهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات، والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشوراً بالمنغصات، ممزوجاً بالغصص.

ويزين به زماناً يسيراً، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، مستمر سرمداً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تزنون أي الأمور^(١) أولى بالإثارة، وأي الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لتقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَفَن وَعَدْتُهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْقِهِ﴾ أي: هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعده له بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، فهو لائقه من غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، ليعد قام بمرضاته، وجانب سخطه.

﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بديناه عن آخرته، ولم يرفع بهدى الله رأساً، ولم ينقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثارة.

(٦٢-٦٦) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ

الْقُرْآنُ

٣٩٣

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا مَا تَرَوْنَ وَعَدَّا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْقِهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَاسِبْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحُكْمُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

تَزْعُمُونَ ٠ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ٠ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ٠ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ٠ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ هذا إخبار من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها، وضلالهم. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فأين هم، بذواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟

ومن المعلوم أنه^(٢) يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا منه، فيقرون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

(١) في ب: الأمرين. (٢) في ب: أنهم.

وانفراده باختيار مَنْ يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر [والأزمان]، والأماكن، وأن أحداً^(١) ليس له من الأمر والاختيار شيء.

وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنوه.

وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال:

﴿وَاللّٰهُ يُرَٰثِمُكُمۡ ۖ فَيَجَازِي كُلَّٰمَكُمۡ بِعَمَلِكُمۡ ۚ مِنۡ خَيْرٍۭ وَشَرٍّۭ ۚ﴾ (٧١-٧٣)
 ﴿قُلۡ أَرَأَيْتُمۡ إِنۡ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيۡكُمۡ أَلِيلَۭ سَرَمَدًا ۖ إِلَىٰ يَوۡمِ الْقِيٰمَةِ ۖ مَنۡ إِلَٰهٍۭ غَيْرُ اللّٰهِ غَيَّرَ اللّٰهُ بِآيَاتِكُمۡ بَضِيۡئًا ۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۚ﴾ قُلۡ
 ﴿أَرَأَيْتُمۡ إِنۡ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيۡكُمۡ أَلۡنَهَارَ سَرَمَدًا ۖ إِلَىٰ يَوۡمِ الْقِيٰمَةِ ۖ مَنۡ إِلَٰهٍۭ غَيْرُ اللّٰهِ يَأۡتِيكُمۡ لَيۡلٌۭ تَشۡكُونُ ۖ فِيهِۭ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۚ وَمِنۡ رَّحِمَتِهِۖ جَعَلَ لَكُمۡ لَآلِيلَۭ وَالنَّهَارَ لِتَسۡكُنُوا فِيهِ وَلِتُبَيِّنَآ مِنۡ فَضْلِهِۖ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشۡكُرُونَ﴾ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتنعموا من فضل الله، ويتشروا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهادوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده، فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عَلَيۡكُمۡ أَلِيلَۭ سَرَمَدًا ۖ إِلَىٰ يَوۡمِ الْقِيٰمَةِ ۖ مَنۡ إِلَٰهٍۭ غَيْرُ اللّٰهِ يَأۡتِيكُمۡ بَضِيۡئًا ۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عَلَيۡكُمۡ أَلۡنَهَارَ سَرَمَدًا ۖ إِلَىٰ يَوۡمِ الْقِيٰمَةِ ۖ مَنۡ إِلَٰهٍۭ غَيْرُ اللّٰهِ يَأۡتِيكُمۡ لَيۡلٌۭ تَشۡكُونُ ۖ فِيهِۭ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ وفي النهار: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وزن بين

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴿الرُّؤَسَاءُ وَالْقَادَةُ فِي الْكُفْرِ وَالشَّرِّ، مَقْرِينَ بِغَوَايِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ﴾: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ﴾ التابعون ﴿الَّذِينَ أَتَوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿فَرَأَيْنَا إِلَىٰكَ﴾ من عبادتهم، أي نحن برآء منهم ومن عملهم ﴿مَا كَانُوا إِلَّا نَا بَعْدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين. ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُم﴾ على ما أملت فيهم من النفع، فأمرُوا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى مَنْ عبده.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء ﴿فَلَمَّا يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة ﴿وَرَأَوْا الْمَكَّابَ﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به، منكرين له.

﴿لَمَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل صدقتموهم [واتبعتموهم] أم كذبتموهم وخالفتموهم؟.

﴿فَعَبَّتْ عَلَيْهِمُ أَلۡأَشۡأُ يَوْمَئِذٍۭ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينبغي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم، في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَنۡ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۖ فَقَعِيَ أَنۡ يَكُونَ مِنَ الْمُفۡلِحِينَ﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصديقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل ﴿فَقَعِيَ أَنۡ يَكُونُ﴾ مَنْ جمع هذه الخصال ﴿وَمِنَ الْمُفۡلِحِينَ﴾ الناجحين المطلوب، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

(٦٨-٧٠) ﴿وَرَبَّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۖ سُبۡحَنَ اللّٰهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ وَرَبَّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۚ وَهُوَ اللّٰهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْخَبَرُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ ۚ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات،

حالة وجودها وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف مَنْ جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال، وعمي قلبه عن الشاء على الله، بنعمه، وروية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً، ولا ذكراً.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۚ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۚ﴾ أي: ويوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم^(١) لأنفسهم ف﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْعَوْنَ إِلَّا الْفُتْرَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

فإذا حضروا وإياهم^(٢)، نزع ﴿وَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المكذبة ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخبين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين مَنْ يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم^(٣) على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم من عذاب الله، أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية^(٤)، وليروكم، إن كان لهم قدرة. ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

(٧٦-٨٢) ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى بَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ۖ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل]، وفعل به وُصِّحَ ووُعِظَ، فقال: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فُضِّلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتنَّ الله عليهم بما امتنَّ به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيته من الأموال العظيمة المطغية، ﴿وَعَآيِنْتَهُ مِنَ الْكُذُوبِ﴾ أي:

٣٩٤ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَاسَمْعُونَ ۖ﴾ (٧٦) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَاسَمْعُونَ ۖ﴾ (٧٧) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّتِيلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۖ﴾ (٧٨) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۖ﴾ (٧٩) ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۖ﴾ (٨٠) ﴿إِنْ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى بَعَثْنَا عَلَيْهِمْ وَعَآيِنْتَهُ مِنَ الْكُذُوبِ مَا أَنْ مَفَاتِحَهُ لِنَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ﴾ (٨١) ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَتَّبِعِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ﴾ (٨٢)

كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ﴾ [أولى القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ نَاصِحِينَ لَهُ مُحْذِرِينَ لَهُ عَنِ الطَّغْيَانِ﴾: لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكيين على محبتها.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب. (٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب (فإذا حضروا هم وأولئك). (٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب (وهم) على طريق واحد. (٤) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية.

بآخرك **﴿وَأَحْسِنَ﴾** إلى عباد الله **﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ﴾** عليك بهذه الأموال **﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾** بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن النعم **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾** بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

ف **﴿قَالَ﴾** قارون - راداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه - **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾** أي: إنما أدرت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبيهاً أن عطاءه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: **﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾** فما المانع من إهلاك قارون، مع مُضي عادتنا وسنتنا بإهلاك مَنْ هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟

﴿وَلَا يَسْتَلْ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه، وغره ما أُوتيه من الأموال **﴿فَخَرَجَ﴾** ذات يوم **﴿فِي زِينَتِهِ﴾** أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجهّل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقتها في تلك الحالة العيون، وملأت بزيته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

ف **﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: **﴿يَنبَغِي لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُذُورُنْ﴾** من الدنيا ومتاعها وزهرتها **﴿إِنَّمَا لَدُوْهُ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾**.

وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى، فإنه قد أُعطي منها ما به غاية النعم ^(١) بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها، ومنتهى مطلبها، لَمِنْ أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية، والمطالب الغالية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء،

الْبَاقِي

٣٩٥

الْبَاقِي

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْتَلْ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ^(٧٨) فخرج على قومه في زينته **﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلْبَسْت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُذُورُنْ إِنَّمَا لَدُوْهُ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾** ^(٧٩) وقال الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَلَيْسَ لَكُمْ ثَوَابٌ مِنَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ^(٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ^(٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاثُرُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ^(٨٢) تِلْكَ الْأَادَارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ^(٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٨٤)

ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر ^(٧٢) أولئك إلى ظاهرها: **﴿وَلَيْسَ لَكُمْ﴾** متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثنين لحالهم، منكربين لمقالمهم **﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾** العاجل من لذة العبادة ومحبة، والإجابة إليه، والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين **﴿خَيْرٌ﴾** من هذا الذي تمنيت ورغبتم فيه، فهذا حقيقة الأمر، ولكن ما كل مَنْ يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلْقَى ذلك ويوفق له **﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾** الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية. فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزيت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب **﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾** جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثائه، ومتاعه.

(١) كذا في ب، وفي أ: التنعيم. (٢) كذا في ب، وفي أ: نظروا.

فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترون بها ما لا تقبل منه، أو يطلها، فهذا لم يجرى بالحسنة.

والحسنة، اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى، وحق^(٢) عباده ﴿فَلَمْ خَيْرْ مِنْهَا﴾ [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَمْ عَشْرَ أَمْثَالِهَا﴾]^(٣).

هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقترون بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه، ومحله، ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه، نَهَى تحريم، ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

(٨٥-٨٨) ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهَدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۚ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۚ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَّبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرِيعِينَ ۚ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك، والقدر بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل، ولهذا قال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهَدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: لم تكن متحرراً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا

(١) في ب: حظ. (٢) في ب: وحقوق العباد. (٣) زيادة من هامش ب.

﴿فَمَا كَانَ لَكَ مِنْ فِتْنَةٍ﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يَضُرُّوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيَكَاكَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيّق الرزق على مَنْ يَشَاءُ، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأنا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول. ﴿وَيَكَاكَ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَافِيَةُ لِلْمُنَافِقِينَ﴾ لما ذكر تعالى قارون وما أوتيته من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿تَوَابٌ لِّلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي.

فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض، والافساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَالْعَافِيَةُ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب، وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(١).

(٨٤) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتمام عدله، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ شرط

الكتاب الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيّن لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرتهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُتِرْتَ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فافرضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وإذا كان كل شيء هالكًا مضمحلًا سواه، فعبادة الهالك الباطل باطلة، ببطان غايتها، وفساد نهايتها ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَالْيَدُ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجِفُونَ﴾ فإذا كان ما سوى الله باطلًا هالكًا، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم، يجازيهم بأعمالهم، تعيّن على من له عقل أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويحذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب، ولا مقلع عن خطئه وذنبه.

تم تفسير سورة القصص - والله الحمد والثناء والمجد دائماً أبداً - .

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿الْعَمَّ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٩٦

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩٦﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٩٧﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُتِرْتَ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٩٨﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٩٩﴾

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ يخبر تعالى عن تمام [حكيمته] وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال: «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يقولوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فَمَنْ كَانَ عِنْدَ وَرُودِ الشَّهَاتِ يَثْبِتَ إِيمَانَهُ وَلَا يَتَزَلْزَلُ، ويدفعها^(١) بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به

(١) كذا في ب، وفي أ: ويدفعه.

ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دلّ على صدق إيمانه وصحته.

ومَنْ كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكًا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدّفه عن الواجبات، دلّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات، لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر، يخرج خبيثها وطيبها.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنائيات، أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم، فإنه حكم جائر، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

(٦، ٥) ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ يَوْمَهُ السَّيِّئُ الْمَعْلُومُ ۝ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقاءه، وسر نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملًا الوصول إليه، ولكن ما كل مَنْ يدّعي يُعطى بدعواه، ولا كل مَنْ تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمَنْ كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومَنْ كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومَنْ لا يصلح.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به ليتنفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاف عليهم.

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتناقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهيه عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذا معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

(٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم،

لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل بالمباحات أيضًا، وغيرها.

(٨) ﴿وَرَوَّيْنَا لِلْإِنسَانِ بُرْهَانَهُ حَسَنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه حسنًا، أي: ببرهما، والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعلمه.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتها، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: مَنْ آمن بالله وعمل صالحًا، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباد الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

(١٠، ١١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن مَنْ ادّعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقًا لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعبير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل ﴿جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُ﴾ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صائد عما هو سببه.

﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغِي اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۚ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَعْلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْغَالِبِينَ﴾.

﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ حيث خبركم بهذا الفريق الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه

الزَّالِمِينَ

٣٩٧

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكَمْ فَلَئِنَّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ ﴿١٢﴾ مِن خَطِيئَتِهِمْ
شَيْءٌ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٥﴾

وسعة حكمته ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾
أي: فلذلك قدَّرَ مَحَنًا وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم
بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجردة، لأنهم قد يحتجون على
الله، أنهم لو ابتلوا لثبُّوا.

(١٣، ١٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِن خَطِيئَتِهِمْ مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ
لَكَذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم
للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من
الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا فَأَتَوْكُمَا دِينَكُمْ أَوْ بَعْضَهُ، وَاتَّبَعُونَا
فِي دِينِنَا، فَإِنَّا نَضْمُنْ لَكُمْ الْأَمْرَ﴾ وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ. وهذا
الأمْر ليس بأيديهم، فلماذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِن خَطِيئَتِهِمْ
مِن شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير، فهذا التحمل، ولو رضي به
صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن
العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه ﴿أَلَّا نُرْ
وَرِّدَهُ وَرَزَّ أَعْرَافَهُ﴾.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِن خَطِيئَتِهِمْ مِن شَيْءٍ﴾ قد
يتوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم
ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه،
دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسبيين فيه، قال
[مخبراً عن هذا الوهم: (١)] ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقال
ذنوبهم التي عملوها ﴿وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب التي
بسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع، [لكل من
التابع] والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع؛
[لأنه] تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها
التابع له أجراها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب،
﴿وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الشر وتزيينه،
[وقولهم: (٢)] ﴿وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾.

(١٤، ١٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝ فَأَنجَيْنَاهُ
وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى عن
حكمه وحكمته، في عقوبة (٣) الأمم المكذبة، وأن الله أرسل
عبدَه ورسوله نُوحًا عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم
إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام
﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ نبيّاً داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ وهو لا
يَنِي بدعوتهم، ولا يفتّر في نصحهم، يدعوهم ليلاً ونهاراً
وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا، ولم يهتدوا، بل استمروا على

كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة
والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ
عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ أي: الماء
الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿وَهُمْ
ظَالِمُونَ﴾ مستحقون للعذاب.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن
آمن به، ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾ أي: السفينة، أو قصة نوح ﴿آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعتبرون بها، على أن من كَذَّبَ الرسل، آخر أمره
الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن
كل ضيق مخرجاً.

وجعل الله أيضاً السفينة، أي: جنسها آية للعالمين،
يعتبرون بها رحمة ربهم، الذي قيض لهم أسبابها، ويسر لهم
أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمل متاعهم، من محل إلى
محل، ومن قُطْرٍ إلى قُطْرٍ.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله. (٣) في ب: عقوبات.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٩٩

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفْتَلَوْهُ أَوْحَرِّقُوهُ
فَأَنجَحَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَأَيَّدْنَاهُ بِآجُرِهِ فِي الدُّنْيَا إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣١﴾
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ
مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾
أَيُّكُمْ لَأَتُونَ السَّبِيلَ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٣﴾
قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٤﴾

بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرفعوا ولم يذكروا ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٣﴾.

فأيس منهم نبههم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فقالوا له: ﴿لَنَجِئَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَنرَأَاهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطًا، فساء مجيئهم، وضاق بهم ذرعًا، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة.

ولكن لعل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام، من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلهم] وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليحري بسببه عذابًا عامًا. ومما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم لبسوا قومه، والله أعلم بالحال.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: بعدما هاجر إلى الشام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد ﷺ، وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلاح الصالحون ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِآجُرِهِ فِي الدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قوت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإجابة إليه.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

(٢٨-٣٥) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّكُمْ لَأَتُونَ السَّبِيلَ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٤﴾ إلى آخر القصة. تقدم أن لوطًا عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وإن كان عامًا، فلا يناقض كون لوط نبيًا رسولًا. وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطًا اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم. فأرسل الله لوطًا إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا

الضيوف، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَّ كَانَتْ مِنْ الْغَيْرِينَ﴾ ○ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا أَي: عذابًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فأمروه أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَرًا من الأسمار، وعبرة من العبر.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: تركنا من ديار قوم لوط آثارًا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم [يفتتفون بها]. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا لِلْقَوْمِ عَلَيْهِمْ مُّصِيحِينَ﴾ ○ وَإِلَيْهِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ○

(٣٦، ٣٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَصْحَابِهَا قَالُوا يَتَّبِعُونَ أَمْرًا نَكَّ اللَّهُ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ○ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ أَي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شُعَيْبًا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس المكاييل والموازين والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾.

(٣٨-٤٠) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْتَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ○ وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمْدًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآلِيبَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ○ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَّفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ لَ اللَّهِ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ○ أَي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة فكذبوهم، وجادلوهم.

﴿وَزَيْتَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم يتقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله، فأذلّوهم، وعلى الحق فردّوه، فلم يقدرّوا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة]. ﴿وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً﴾ ○ الله، ولا فائتين، بل سلموا واستسلموا.

سورة العنكبوت

٤٠٠

سورة العنكبوت

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوْطًا قَالُوا لَوَاحِشٌ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَسْجِنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا نَكَّ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُ بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَّ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَّبِعُونَ أَمْرًا نَكَّ اللَّهُ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٤٢﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْتَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٤٣﴾

﴿فَكَلَّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ على قدره، وبعقوبة مناسبة له ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: عذابًا يحصصهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَلَينَةً أَيَّامٍ خُسوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَجْعَالٌ تَلْحَىٰ خَاوِيَةٌ﴾. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَّفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ منعوها حقها، التي هي بصدها، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم يتفنعونها.

(٤١-٤٣) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ أُولَئِكَ كَمَثَلِ الْفَعَسِ كَانُوا يَتَّبِعُونَ وَزَيْتَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ لَبِثَ الْفَعَسُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ

سورة العنكبوت

٤٠١

سورة العنكبوت

وَقَرُّوْا وَفِرْعَوْنُ وَهَمْلُكُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ
(٢٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ (٣٠) مِثْلَ الَّذِي
أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ
أَتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ (٣١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٢) وَالَّذِي
الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
(٣٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٣٤) أَتُلُّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٣٥)

شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ○ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿ هذا مثل ضرب به الله لمن عبد معه
غيره، يقصد به التعزز والتقوى والنفع، وأن الأمر بخلاف
مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتًا يقيها من
الحر والبرد والآفات ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أضعفها وأوهاها
﴿ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها
من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفًا. كذلك
هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع
الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم،
ويستصرونهم، ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى
وهنهم، فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا
عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها،
فخذلهم فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من
معونتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من
اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرأوا منهم، ولتولوا الرب القادر
الرحيم، الذي إذا تولاه عبده، وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه
ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله
وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ارتقى من هذا إلى ما
هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء
سموها، وظنون اعتقدها، وعند التحقيق يتبين للعاقل
بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب
والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئًا موجودًا، ولا إلها
له حقيقة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ إِلَآ أَنْمَاءٌ يَتَّبِعُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الذي له القوة جميعًا، التي قهر
بها جميع المخلوقات ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء
مواضعها، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي: لأجلهم
ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم،
ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح
المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس.

﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ مَا يَقُولُهَا ﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على
ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أي: أهل

العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.
وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها
وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل
العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.
والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن،
إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل
الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لا اعتناء الله
بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في
معرفتها.

وأما من لم يعقلها مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس
من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم
معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب الله
الأمثال في أصول الدين ونحوها.

(٤٤) ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على
علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر
والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار

أكمل الجزاء وأوفاه.

(٤٦) ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق.

إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم، [على وجه] يحصل به^(٢) القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً.

وأيضاً فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية، التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بيّنتها، ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دلّ عليه الكتاب الفلاني دون الكتاب الفلاني، وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب؛ لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

(١) في ب: العباد. (٢) في أ: بها.

والبراري والفقار، والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي لم يخلقها عبثاً، ولا سدى، ولا لغير فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده، معبودهم ومحبوبهم وإلههم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

(٤٥) ﴿أَنزِلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنفَعُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته، اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه.

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهي ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنفَعُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس.

والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها.

وتم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق^(١) لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك

وأيضاً فإن كل طريق تثبت به ^(١) نبوة أي نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدم بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره فثبوت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون مستسلمون لأمره، ومن آمن به، واتخذته إلهاً، وآمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتباع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

(٤٨، ٤٧) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَسْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ۝ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِسِمِينِكَ إِذَا لَا تَرْتَابَ الْمُطْلُونَ﴾ أي: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، هذا ﴿الْكِتَابَ﴾ الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فَالَّذِينَ ءَانَسْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فغرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأنهم يتقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقيح، والصدق والكذب.

﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الموجودين ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ إيماناً على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبته ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا فكل من له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل من له عقل، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه، وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البينات القاطعة التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو﴾ أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِسِمِينِكَ إِذَا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لَا تَرْتَابَ الْمُطْلُونَ﴾ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها.

فأما وقد نزل على قلبك كتاباً جليلاً تحدث به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة،

﴿وَلَا يَجْحَدُ لَكُمْ أَوْلَ الْأَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا الْيَتَىٰ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُ وَاللَّهُمَّ وَجِدْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَسْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِسِمِينِكَ إِذَا لَا تَرْتَابَ الْمُطْلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

لعلهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على مثاله، ولهذا قال:

(٤٩) ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، أي: ﴿بَلْ﴾ هذا القرآن ﴿آيَاتٌ يَنْتَنُ﴾ لا خفيات ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الأبواب منهم، والأكمل منهم.

فإذا كان آيات بينات، في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

(٥٠-٥٢) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِقَوْمٍ

بحيث لا تصلح الأمور إلّا به^(٤).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٥)، فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذبًا أحلّ بي ما به تعتبرون وإن كان إنما يؤيدني وينصرني ويسر لي الأمور، فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلًا، فإنه ﴿يَسْأَلُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ومن جملة معلوماته حالي وحالك، ومقالي لكم^(٦)، فلو كنت متقولاً عليه، مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي - لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطْنَا يَمِينَهُ الْيَمِينِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

(٥٣-٥٥) ﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَٰذَا الْعَذَابِ وَلَآ يَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ سَتَجْلِبُونَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَوْمَ يَنْسُفُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُووُنَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - : ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ مَضْرُوبٌ لِّنَزُولِهِ، وَلَمْ يَأْتِ بَعْدَ ﴿لِجَاءِ هَٰذَا الْعَذَابِ﴾ بسبب تعجزهم لنا، وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم. ولكن - مع ذلك - فلا يستبطئون^(٧) نزوله، فإنه

يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عيناها، كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْخَرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءَا﴾ الآيات. فتعين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيرًا مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي^(٨) أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمور شيء، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ إِنْ شَاءَ أَنْزَلَهَا أَوْ مَنَعَهَا ۖ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان المقصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلمًا وجورًا، وتكبرًا على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلّا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فآمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات، فأني فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ في علمهم بصدقك، وصدق ما جئت به ﴿أَنَا أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد، وهو أُمي، من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه بإياه^(٩) آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قلّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يشن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي.

فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟ ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين^(١٠)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة مع مطابقتها للواقع، ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل: «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، [ثم مسaire إرشاداته، وهدايته، وأحكامه لكل حال وكل زمان،

(١) كذا في ب، وفي أ: وينفي. (٢) في ب: وتحديدهم إياه. (٣) في ب: السالفين. (٤) زيادة من هامش ب. (٥) في ب: فإنه رحمة له وخير. (٦) كذا في ب، وفي أ: ومقالك. (٧) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يقولون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار الله واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة^(١) الشدة عند ركوب البحر، وتلاطم أمواجه، وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أئنداهم، ويخلصون الدعاء الله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى^(٢) مَنْ أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة. فهلا أخلصوا الله الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقًا، مستحقين ثوابه، مندفعًا عنهم عقابه.

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همٌ إلا بطونهم وفروجهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حين يتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف، وأليم العقوبة.

ثم امتنَّ عليهم بحرمة الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف.

﴿أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة، ﴿وَيَنْعَمَ اللَّهُ﴾ هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ على يد رسوله محمد ﷺ.

ولكن هذا الظالم العنيد، أمامه جهنم ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم الذين لا يخرجون منه.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته

المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية فأنت لو سألتهم مَنْ خلق السماوات والأرض، وَمَنْ نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وَمَنْ بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وحده، وَلَا غَرْفُوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى مَنْ أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئًا، وسَجَّلَ عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلًا وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بيّن الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذر الموفقون.

وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم، ورزقهم، وبسط الرزق على مَنْ يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

(٦٤-٦٩) ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الْبَلَاءَ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْإِلَهَ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَيَسْتَمَعُوا فَوَافٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا وَنَحْنُظُّ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنَبْنَعُ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ يَأْلَحُّ لَمَّا جَاءَهُ الْبَلَاءُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الرينة واللذات، والشهوات الخالية للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلّة الباطلة، ثم تزول سريعًا، وتنقضي جميعًا، ولم يحصل منها محبوبا، إلا على الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة فإنها دار ﴿الْحَيَوةِ﴾ أي: الحياة الكاملة التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين

(١) في ب: حال. (٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم. (٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

﴿لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك، لأنهم محسنون.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون، والنصر والهداية، ذل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به آعانه الله، ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه -

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٧) ﴿الْعَلَمُ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَ يُدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَهَرَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون - لاشتراكهم والفرس في الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.

فظهر الفرس على الروم، فغلبوهم غالباً لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم^(١) أن الروم ستغلب الفرس.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ تسع، أو ثمان، ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي أَفْئِكَ دَعَا اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فُسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِمَّةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَلَمُ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَ يُدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَهَرَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ

لروم، ثم غلبة الروم للفرس، كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقرن بها القضاء والقدر.

﴿وَيَوْمَ يُدْفَعُ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونها ﴿يُدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم، ما لا يدخل في الحساب.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

(١) كذا في ب، وفي أ: بوعدة.

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

٤٠٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ. وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِمَّ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّ لَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السَّوَاءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْعِدُ الْفُجُورَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء أجل الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية^(١)، والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية، والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبعد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رأهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٢)، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(٣) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فعفروا^(٤) أن الأمر لله، والحكم له في عبادته، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا^(٥) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته، لوهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه، لأثمرت الرُّقِيَّ

العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد، لم تثمر إلا هبوط الأخلاق، وأسباب الفناء والتدمير^(٦).

(٨-١٠) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ○ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِمَّ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّ لَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ○ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السَّوَاءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(٧) بها، أن الذي أوجدتهم من العدم سيعيدهم بعد

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية. (٢) كذا في ب، وفي أ: يتردون. (٣) هكذا في النسخين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو). (٤) في ب عدلت إلى: لعرفوا. (٥) في ب عدلت إلى: ولخافوا. (٦) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها، وقد نقلته من الطبعة السلفية. (٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.

يأسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا لإجرام، وهي الذنوب، من كفر، وشرك، ومعاصي.

فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، أسوا وأبلسوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم.

ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شَفَعُونَ﴾ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ. تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: ﴿بَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، والتعنوا وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افترت أعمالهم في الدنيا.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمنوا بقلوبهم، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتبهات، ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي: يسرون، وينعمون بالمآكل اللذيذة، والأشربة، والحدود الحسان، والخدم، والولدان، والأصوات المطربات، والسماع المشجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين!!

(١٧-١٩) ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۖ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۖ يُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ الْغَيْبِ وَيُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ ۖ وَتُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقرن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله [لأوقات المفروضات هي] أفضل من غيرها.

[فالتسبيح والتحميد فيها، والعبادة فيها، أفضل من

ذلك، وأن الذي نقلهم أطوارًا من نقطة إلى علقه، إلى مضغة، إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدًى مهملين، لا يتهون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [أي: ليلوكم أيكم أحسن عملاً، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تقضي به الدنيا، وتجيء به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة قد دلت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم، وخالفوا أمرهم، ممن هم أشد من هؤلاء قوة، وأكثر آثارًا في الأرض، من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع، وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم، حين كذبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق، وصحة ما جاءوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك، لم يجدوا إلا أممًا بائدة، وخلقًا مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة، وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاء معجل، نموذج للجزاء الأخروي، ومبتدأ له.

وكل هذه الأمم المهلكة، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم، وتسببوا في هلاكها.

﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ أُتُوا السُّوءَ﴾ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعيًا لهم لأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فهذا عقوبة لسوءهم وذنوبهم.

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب، يكون سببًا لأعظم العقوبات، وأعزل المثالث.

(١١-١٦) ﴿اللَّهُ يَذَّكَّرُ فَهُوَ يُعِيدُهُ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ۖ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شَفَعُونَ ۖ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ۖ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِرُ بَنَفَرُوتُ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِي الْأَخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ﴾ أي: يقوم الناس لرب العالمين، ويردون القيامة عيانًا، يومئذ ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي:

غيرها^(١) بل العبادة، وإن لم تشتمل على قول: «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل، أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق، ما يستحقه من الإخلاص والإناابة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بعكس المذكور ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. فينزل عليها المطر، وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات.

فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

(٢٠، ٢١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية، وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجميل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة]^(٢) وبثكم في أقطار الأرض [وأرجائها، ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل، وبثكم في أقطار الأرض]^(٣) هو الرب المعبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن.

﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ﴾ يُعْمَلُونَ أَفْكَارَهُمْ، ويتدبرون آيات الله، ويتفكرون من شيء إلى شيء.

(٢٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّكَمِ﴾

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢١﴾ فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٢٣﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّكَمِ وَالْوَنُوكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾

وَالْوَنُوكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ والعالمون: هم أهل العلم الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات، والآيات في ذلك كثيرة، فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيها، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته، لما فيها من الإتيان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحده؛ لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة.

فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿وَخَلَقَ السِّنِّكَمِ وَالْوَنُوكُمْ﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة بخط المؤلف من هامش أ. (٣) زيادة من ب.

متشابهين من كل وجه، إلا وتجدد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته. [ومن] ^(١) عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لثلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

(٢٣) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك.

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به ^(٢) ويستجموا ^(٣) وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدنيوية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

(٢٤) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِلُكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: ومن آياته أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكهم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق، الذي يخاف ويطمع فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتقانه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لهم عقول تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

(٢٥-٢٧) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ولَمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتا بأمره، فلم تنزلزا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدترته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

﴿وَلَمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت ^(٤) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو كل صفة كمال.

والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة النامة الكاملة، في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم، فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالاتصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتتزه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فجزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات وحكمته أتقن بها ما صنعه، وأحسن فيها ما شرعه.

(٢٨، ٢٩) ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى لقبح الشرك وتهجينه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟.

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم

(١) زيادة يقتضيه السياق. (٢) زيادة من أ. (٣) الكلمة غير واضحة في النسخين وكأنها (ويجما)، وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا. (٤) في النسختين: كان.

شريكا لكم فيما رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتهم ورزقتموهم، وهم أيضا ممالك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا الله شريكا من خلقه، وتجعلونه بمنزلة، وعديلا له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة ممالككم لكم؟

هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه^(١)] من اتخذ شريكا مع الله، وأن ما اتخذه باطل مضمحل، ليس مساويا لله، ولا له من العبادة شيء.

﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لِقَوْمٍ يَقُولُونَ﴾ الحقائق ويعرفون، وأما مَنْ لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، وبينت له البيّنات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لُبَّ يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن مَنْ اتخذ من دون الله شريكا بعده ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه، وظهر برهانه؟ [لقد^(٢)] أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلهذا قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها، ما تعلق به هواها، أمرا يجزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادم إليه.

﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله؛ لأنه ليس أحد معارضا لله، أو منازعا له في ملكه.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ ينصرونهم حين تحقق عليهم كلمة العذاب، وتقطع بهم الوصل والأسباب.

(٣٠-٣٢) ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَأَقْوُهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ﴾ أي:

انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى^(٣) إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة، كالمعجة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

سُورَةُ الرُّومِ

٤٠٧

سُورَةُ الرُّومِ

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَهُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ فَنَيْنُونَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَمْلُوكَاتٍ أَمْثَلُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٥٩﴾ فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَأَقْوُهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦٢﴾

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال:

﴿حَنِيفًا﴾ أي: مقبلا على الله في ذلك، معرضا عما سواه. وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسننها، واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

وَمَنْ خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمرنا به ﴿الَّذِينَ الْقَرِيمُ﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن مَنْ أقام وجهه للدين حنيفا فإنه سالك

سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟.

ولما أمر تعالى بالإلانة إليه - وكان الأمور بها، هي الإلانة الاختيارية التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإلانة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

(٣٣-٣٥) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مَنَّ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُرُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ ۝﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ مرض، أو خوف من هلاك ونحوه ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مَنَّ رَحْمَةً﴾ شفاهم من مرضهم، وأمنهم من خوفهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ ينقصون تلك الإلانة التي صدرت منهم، ويشركون به من لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل هذا كفر بما آتاهم الله، ومن به عليهم، حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلاً قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ظاهرة ﴿فَهُوَ﴾ أي: ذلك السلطان، ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ﴾ ويقول لهم: اثبتوا على شرككم، واستمروا على شككم، فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتمكم الرسل إليه باطل.

فهل ذلك السلطان موجود عندهم، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية، والكتب السماوية، والرسل الكرام، وسادات الأنام، قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟.

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا دَلَّتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَنْقُطُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس، في حالي الرخاء والشدة، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة، من صحة، وغنى، ونصر ونحو ذلك، فرحوا

الصراف المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإلانة إنباء القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك حمل^(١) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات، وترك المنهيات.

وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإلانة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فهذا إعانتها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذا حثها على الإلانة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضاداً للإلانة التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا رَبَّهُمْ﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وَكَاذِبًا شَيْعًا﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومناذرة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فَرِحُوا﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشبههم وتفرقهم فرقاً، كل فريق يتعصب لما معهم من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلغى، ويبني التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟.

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟.

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في

بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله.

﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: حال تسوؤهم، وذلك ﴿يَمَّا قَلَمَتْ أَيْدِيَهُمْ﴾ من المعاصي، ﴿إِذَا هُمْ يَقْطِرُونَ﴾ يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض، ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته وضيقه من تقديره، ضائع ليس له محل، فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله الرزق لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله، في جميع مطالب الرزق.

(٣٩، ٣٨) ﴿فَاتَّبَعَ ذَا الْقَرْفَى حَقَّهُ وَالْمُسْكِينُ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَا ءَاتَيْتَهُ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتَهُ مِنْ ذَكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع، أو حض عليه، من النفقة الواجبة، والصدقة، والهدية، والبر، والسلام، والإكرام، والعفو عن زلته، والمسامحة عن هفوته، وكذلك [أت] المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة، ما تزيل به حاجته، وتدفع به ضرورته، من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة، لأنه لا مال معه، ولا كسب قد دبر نفسه به [في] سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرفة، أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: خير غزير، وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدي، الذي وافق محله المقروء به الإخلاص.

فإن لم يرد به وجه الله، لم يكن خيراً لِمُعْطِي، وإن كان خيراً ونفعاً لِمُعْطَى كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ مفهومها، أن هذه المثبتات خير لنفعها المتعدي، ولكن مَنْ يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بثواب الله، الناجون من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠٨

سُورَةُ الرُّومِ

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِحُوا مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَسْكُرُ بِمَا كَانَ تَوْابِعُهُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْطِرُونَ ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾ فَاتَّبَعَ ذَا الْقَرْفَى حَقَّهُ وَالْمُسْكِينُ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا ءَاتَيْتَهُ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتَهُ مِنْ ذَكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٤٥﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شِئْتُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٦﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٧﴾

عقابه.

ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه [من النفقات]، ذكر العمل الذي يقصد به مقصد دنيوي فقال:

﴿وَمَا ءَاتَيْتَهُ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي: ما أعطيتكم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو، أي: يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله، لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص، ومثل ذلك العمل، الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند الله.

﴿وَمَا ءَاتَيْتَهُ مِنْ ذَكْوَةٍ﴾ أي: مال يظهركم من الأخلاق الرذيلة، ويظهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المِعْطَى ﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: المضاعف لهم الأجر الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربها الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً.

ودلّ قوله: ﴿وَمَا ءَاتَيْتَهُ مِنْ ذَكْوَةٍ﴾ أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق، أو مع دين عليه لم يقضه، ويقدم عليه

القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يربأ العاملون أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزاء العمال ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ بَصَدْعُونَ﴾ أي: يتفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُرُوا أعمالهم.

﴿مَنْ كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة ﴿فَلَا تُفْسِدْهُمْ﴾ لا لغيرهم، ﴿يَهْدُونَ﴾ أي: يهثون، ولأنفسهم يعمرن آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنزلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

(٤٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ مَبَشِّرَاتٍ وَيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلْكَ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ يثارتها للسحاب، ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

﴿وَلِيَجْزِيَ الْفُلْكَ﴾ في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ القدري ﴿وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور، فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ جَاءُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي:

(١) في ب: وباله. (٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: يستأنفوا.

الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة، يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

(٤٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْثُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء الذين يدعوهم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء، فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس وتنزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وباله^(١) عليهم.

(٤١) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها.

هذه المذكورة ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فجعل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، ولا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم، يُحْذَى بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

(٤٣-٤٥) ﴿فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَ يُبَدِّلُ بَصَدْعُونَ ○ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِهِمْ يَهْدُونَ ○ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ○ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسمع ببدنك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبأد زمانك وحياتك وشبابك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ وهو يوم

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

٤٠٩

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤١﴾ فَأَقْرَجَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيمِ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ ﴿٤٢﴾ مَنْ
 كَفَرَ فَلَيْتَهُ كُفْرَهُ. وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٣﴾
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ
 مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُومُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي
 السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزَلَ الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا
 أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءَةٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ۝ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ
 كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام نعمته، أنه
 ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسُ سَحَابًا﴾ من الأرض ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾
 أي: يمدده ويوسعه ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: على أي حالة أرادها
 من ذلك ثم ﴿يَجْعَلُهُ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كِسْفًا﴾
 أي: سحابًا ثخينًا، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الأمم السابقين ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾
 حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم
 يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق،
 وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاءهم بالبينات
 والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم ﴿فَأَنْتَقَمْنَا
 مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل.
 ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أوجبنا ذلك على
 أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدها بهم، فلا
 بد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، إن بقيتم على تكذيبكم،
 حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

(٤٨-٥٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي
 السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزَلَ الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا
 أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءَةٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ۝ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ
 كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام نعمته، أنه
 ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسُ سَحَابًا﴾ من الأرض ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾
 أي: يمدده ويوسعه ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: على أي حالة أرادها
 من ذلك ثم ﴿يَجْعَلُهُ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كِسْفًا﴾
 أي: سحابًا ثخينًا، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فَنَزَلَ الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: السحاب، نطقًا
 صغائرًا متفرقة، لا تنزل جميعًا، فتفسد ما أنت عليه.
 ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بذلك المطر ﴿مِنْ يَسَاءَةٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
 يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضًا بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم،
 وضرورتهم إليه، فلهذا قال:

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ﴾ أي:
 آيسين قانطين، لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك
 الحال، صار له موقع عظيم [عندهم]^(١)، وفرح واستبشار.
 ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
 فاهتزت وربت، وأثبتت من كل زوج كريم.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْيٍ الْمَوْتِ﴾
 وهو على كل شيء قدير. فقدرته تعالى لا يتعاضى عليها شيء، وإن
 تعاضى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحارت فيه
 عقولهم.

(٥١-٥٣) ﴿وَإِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ
 يَكْفُرُونَ ۝ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا
 مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

يَتَذَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع
 هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله
 تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى
 زروعهم، ريحًا مضرّة متلفّة أو منقصة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد
 تداعى إلى التلف ﴿ظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ فينسوا النعم
 الماضية، ويبدلون إلى الكفر.

وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر ﴿فَأَنْتَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ
 وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ وبالأولى ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن الموانع
 قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع
 المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون
 الإبصار بسبب عماهم فليس منهم^(٢) قابلية له.

﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهؤلاء الذين
 ينفع فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المنقادون
 لأوامرنا، المسلمون لنا؛ لأن معهم الداعي القوي لقبول

(١) زيادة من ب. (٢) في ب: فيهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٠

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٤﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْصَ الدَّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينٍ ﴿٥٥﴾ وَمَا أَنتَ بِهَدَّ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعُوا إِلَّا مِنْ يَوْمٍ يُبَايِنُنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٧﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَةِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ اقْتِدَارِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، ابْتَدَأَ خَلْقَ الْآدَمِيِّينَ مِنْ ضَعْفٍ، وَهُوَ الْأَطْوَارُ الْأَوَّلُ مِنْ خَلْقِهِ، مِنْ نَظْفَةٍ إِلَى عِلْقَةٍ، إِلَى مَضْغَةٍ إِلَى أَنْ صَارَ حَيَوَانًا فِي الْأَرْحَامِ، إِلَى أَنْ وُلِدَ، وَهُوَ فِي سِنِ الطُّفُولِيَّةِ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ، وَعَدَمِ الْقُوَّةِ وَالْقَدَرَةِ. ثُمَّ مَا زَالَ اللَّهُ يَزِيدُ فِي قُوَّتِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى بَلَغَ سِنَ الشَّبَابِ، وَاسْتَوَتْ قُوَّتُهُ، وَكَمَلَتْ قَوَاهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْ هَذَا الطَّوَرِ، وَرَجَعَ إِلَى الضَّعْفِ وَالشَّيْبَةِ وَالْهَرَمِ.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب حِكْمَتِهِ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَرَى الْعَبْدَ ضَعْفَهُ، وَأَنْ قُوَّتَهُ مَحْفُوفَةٌ بِضَعْفَيْنِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا النِّقْصُ، وَلَوْلَا تَقْوِيَةُ اللَّهِ لَهُ لَمَا وَصَلَ إِلَى قُوَّةٍ وَقَدَرَةٍ، وَلَوْ اسْتَمَرَّتْ قُوَّتُهُ فِي الزِّيَادَةِ، لَطَغَى وَبَغَى وَعَتَا.

وَلِيَعْلَمَ الْعِبَادُ كَمَالَ قُدْرَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مُسْتَمِرَّةً، يَخْلُقُ بِهَا الْأَشْيَاءَ، وَيَدْبِرُ بِهَا الْأُمُورَ وَلَا يَلْحَقُهَا إِعْيَاءٌ، وَلَا ضَعْفٌ، وَلَا نَقْصٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

النصائح والمواعظ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدر عليهم من أوامر الله ونواهيه.

﴿٥٤﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٥﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَةِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ اقْتِدَارِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، ابْتَدَأَ خَلْقَ الْآدَمِيِّينَ مِنْ ضَعْفٍ، وَهُوَ الْأَطْوَارُ الْأَوَّلُ مِنْ خَلْقِهِ، مِنْ نَظْفَةٍ إِلَى عِلْقَةٍ، إِلَى مَضْغَةٍ إِلَى أَنْ صَارَ حَيَوَانًا فِي الْأَرْحَامِ، إِلَى أَنْ وُلِدَ، وَهُوَ فِي سِنِ الطُّفُولِيَّةِ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ، وَعَدَمِ الْقُوَّةِ وَالْقَدَرَةِ. ثُمَّ مَا زَالَ اللَّهُ يَزِيدُ فِي قُوَّتِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى بَلَغَ سِنَ الشَّبَابِ، وَاسْتَوَتْ قُوَّتُهُ، وَكَمَلَتْ قَوَاهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْ هَذَا الطَّوَرِ، وَرَجَعَ إِلَى الضَّعْفِ وَالشَّيْبَةِ وَالْهَرَمِ.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب حِكْمَتِهِ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَرَى الْعَبْدَ ضَعْفَهُ، وَأَنْ قُوَّتَهُ مَحْفُوفَةٌ بِضَعْفَيْنِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا النِّقْصُ، وَلَوْلَا تَقْوِيَةُ اللَّهِ لَهُ لَمَا وَصَلَ إِلَى قُوَّةٍ وَقَدَرَةٍ، وَلَوْ اسْتَمَرَّتْ قُوَّتُهُ فِي الزِّيَادَةِ، لَطَغَى وَبَغَى وَعَتَا.

وَلِيَعْلَمَ الْعِبَادُ كَمَالَ قُدْرَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مُسْتَمِرَّةً، يَخْلُقُ بِهَا الْأَشْيَاءَ، وَيَدْبِرُ بِهَا الْأُمُورَ وَلَا يَلْحَقُهَا إِعْيَاءٌ، وَلَا ضَعْفٌ، وَلَا نَقْصٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

﴿٥٥-٥٧﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْرُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ○ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٦﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسُرْعَةِ مَجِيئِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ ﴿مَا لِيُثْرُوا﴾ فِي الدُّنْيَا إِلَّا ﴿سَاعَةً﴾. وَذَلِكَ اعْتِدَارُ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ يَنْفَعُهُمُ الْعُذْرُ، وَاسْتِقْصَارُ لَمَدَةِ الدُّنْيَا.

ولما كان قولهم كذبًا لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو البعث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي: مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِمَا، وَصَارُوا وَصَفًا لَهُمْ، الْعِلْمُ بِالْحَقِّ، وَالْإِيمَانُ الْمُسْتَلَزِمُ إِثَارِ الْحَقِّ، وَإِذَا كَانُوا عَالِمِينَ بِالْحَقِّ، مُؤَثِّرِينَ لَهُ، لَزِمَ أَنْ يَكُونَ

قولهم مطابقًا للواقع، مناسبًا لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: عمرتم غمرًا يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أنكروتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتًا تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يردون ولا يعودون لما نهوا عنه، لم يُمْكِنُوا، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يزال عتبهم، والعتاب عنهم.

تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَكْتُبَ الْحَكِيمَ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَكْتُبَ الْحَكِيمَ﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها. ومن إحكامها أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار^(٥) السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، [ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح، يناقض ما دلت عليه]^(٦).

ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة، أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر [حكيمته]^(٧) فائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزمًا لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى

(٦٠-٥٨) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَٰكِن جِنَّهُمْ يُبَايِعُوا لَئِن كَفَرُوا إِن أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ فَاصْبِرْ إِن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ فِي كُلِّ مَثَلٍ﴾ تتضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتقطع به الحجة، وهذا عام في الأمثال التي يضر بها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون، وجلاء حقيقته، [حتى]^(١) كأنه وقع.

ومنه في هذا الموضع، ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن جِنَّهُمْ يُبَايِعُوا﴾ أي: أي آية تدل على صحة ما جئت به ﴿لَئِن كَفَرُوا إِن أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل.

وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطَّع الله على قلوبهم، وجعلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يدخلها خير، ولا تترك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقًا.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضاً، فلا يصدك ذلك.

﴿إِن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: قد ضعف إيمانهم وقلَّ يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقلَّ صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء، فإياك أن لم تجعلهم^(٢) منك على بال، وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدهم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة^(٣). وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن، رزين العقل، يسهل عليه الصبر. وكل ضعيف اليقين، ضعيف [العقل]^(٤) خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.

(١) زيادة من ب. (٢) كذا في ب وفي أ: تجعل. (٣) كذا في ب وفي أ: والمراقبة. (٤) زيادة من ب. (٥) في أ: الأحكام، والتصويب من ب. (٦) زيادة من ب. (٧) زيادة من ب.

سُورَةُ الْقَمَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْتَرِ لِهَوَى الْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فُتِّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ٨
خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبِثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَانزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١٠ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١١

أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس يشتري لهو الحديث عن هدي الحديث ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بعدما ضل بفعله أضل غيره، لأن الإضلال ناشئ عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث صده عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً، ويسخر بها وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه، من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزأوا

عن كل خلق لثيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا مَنْ وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هُدًى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: الصلاة المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

ف ﴿أُولَئِكَ﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿عَلَى هُدًى﴾ أي: عظيم، كما يفيد التذكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي لم يزل يريهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين أدرکوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

(٩-٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْتَرِ لِهَوَى الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فُتِّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ٧ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩﴾

أي ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ هو محروم مخذول ﴿يُشْتَرِ﴾ أي: يختار ويرغب ورغبة من يبذل الثمن في الشيء ﴿لِهَوَى﴾ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن

شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.
﴿فَأَرْوِفُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: الذين جعلتموهم
له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم
خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك
فأرونيه، ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة.
ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئاً من الخلق لها،
لأن جميع المذكورات قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم
شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به
أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل
وضلال، ولهذا قال: ﴿بَلِ الْغَافِلُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: جلي
واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا
حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك
لكل الأمور.

(١٢-١٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ
يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ
قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنِىْ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن امتنانه على عبده
الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم [بالحق]^(٢) على وجهه
وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار
والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً، وأما
الحكمة فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسر
الحكمة بالعلم النافع، والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما
أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر
الشاكرين يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد
وبال ذلك عليه، والله غني [عنه]^(٣) حميد فيما يقدره ويقضيه
على من خالف أمره، فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميداً
في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته،
وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى
الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً أو عبداً صالحاً؟
والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما
يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة
وقواعدها الكبار فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ﴾.

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب

[بآيات الله]^(١)، وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا
تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا﴾ أي: ليؤمن بها وينقاد لها ﴿وَلَوْ مُّسْتَكْبِرًا﴾ أي:
أدبر إدبار مستكبر عنها، راداً لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت
فيه، بل أدبر عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بل ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾
أي: صمماً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.
﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته
السوء والظلمة والغربة ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا
يقادر قدره، ولا يدري بعظيم أمره. وهذه بشارة أهل الشر،
فلا نِعْمَتِ البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر
بالإسلام، والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ بشارة لهم بما
قدموه، وقرئ لهم بما أسلفوه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي، في جنات النعيم، نعيم القلب والروح
والبدن ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ لا يمكن أن يخلف، ولا يغير، ولا
يتبدل ﴿وَهُوَ أَلَمُّرِيبُ الْحَكِيمِ﴾ كامل العزة، كامل الحكمة،
من عزته وحكمته وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما
اقتضاه علمه فيهم، وحكمته.

(١٠، ١١) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْيَرُ عَمَدَ رَوْنَهَا وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ
رَوْنَهَا أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرْوِفُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ
مِنْ دُونِهِ. بَلِ الْغَافِلُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يتلو تعالى على عباده آثاراً
من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعماً من آثار
رحمته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ السبع على عظمها،
وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها الهائل ﴿يَغْيَرُ عَمَدَ رَوْنَهَا﴾ أي:
ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت
واستمسكت بقدرة الله تعالى.

﴿وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوْنَهَا﴾ أي: جبلاً عظيمة، ركزها في
أرجائها وأنحائها، لثلاً ﴿تَبِيدَ بِكُمْ﴾ فلولا الجبال
الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنها.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة
من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم،
ولمصلحتهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه
لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً،
﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ المنظر، نافع مبارك، فترعت
فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هَذَا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد،
وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ وحده لا

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يُعْطِيهِ ۖ يَبْنِي لَكَ شُرَكَاءَ الشِّرْكَ لَظْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ۖ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ ۖ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَنُوبٍ ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِي إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ بِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ مِنْ ذَلِكَ ۖ مِّنْ عَزْمٍ ۖ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ۖ وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۖ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

ولم يقل: «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعقهما»؛ بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما، وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى﴾ وهم المؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، المستسلمون لربهم، المنيون إليه.

واتباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ الطائع والعاصي والمنيب وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

﴿يَبْنِي إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي

والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنِ الشِّرْكَ لَظْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيمًا، أنه لا أظف وأبشع ممن سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم يُنعم بمِثْقَالِ ذَرَّةٍ [من النعم^(١)]، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم، وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!!

وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب؟] (٢) جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بِوَلَدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، [واكرامهما] (٣)، وإجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فیسألك: هل قمت بها، فثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟.

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فَصَلَّهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد، مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

محل برهما وامثال أوامرهما، ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك، وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى، فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها، ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباد، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

(٢٠، ٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلًا ۚ كَذَٰلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ الْفُتُورَ إِذْ يَخْرُجُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ يَمْتَنِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ نِعَمَهُ، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم، وقلوبكم ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: غمركم نعمة الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تخفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿و﴾ لكن مع توالي هذه النعم ﴿مِنَ النَّاسِ مَن﴾ لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير

السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلاع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله، والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قَلَّ أَوْ كَثُرَ.

﴿يَبْتَغِي أَقْرَبَ الصَّلَاةِ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.

ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿وَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصِرَّ خَذَلَكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تملأ وتعبس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضماً.

﴿وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بطراً، فخراً بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كُلَّ فُجَّارٍ﴾^(١) في نفسه وهيته وتعاضله ﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿وَأَقْبِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مشي البطر والتكبر، ولا مشي التماوت.

﴿وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أفظعها وأبشعها ﴿لَصَوْتُ الْمَيِّتِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها.

فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبيّن له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احتزر بأن

(١) كذا في ب، وزاد في أ قوله تعالى: فخور.

ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.
﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ لأنك أدبت ما عليك من الدعوة والبلاغ، فإذا لم يهتد، فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه، لأنه لو كان فيه خير لهداه الله.

ولا تحزن أيضًا، على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة، ونابدوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب.

فإن ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور الله، وأذى رسله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ التي ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر، وكان شهادة!!!

﴿تُنَبِّئُهُمْ فَلْيَا﴾ في الدنيا، ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم، ﴿ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ﴾ أي: [نلجنهم]^(٣) ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: انتهى في عظمه وكبره وقضاوته وألمه وشدته.

(٢٥-٢٨) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْنِ وَجِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لعلمو أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك ولبادروا بقولهم: الله الذي خلقهما وحده.

﴿قُلْ﴾ لهم ملزماً لهم، ومحتجاً عليهم بما أقروا به، على ما أنكروا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي بين النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد. ولكن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه، على وجه الحيرة والشك، لا على وجه البصيرة.

ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجاً من سعة أوصافه، ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له.

فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض - وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي - أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدريّة، وأحكامه الأمرية،

بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [غير مُبَيِّنٍ للحق، فلا معقول، ولا منقول، ولا اقتداء بالمهتدين]^(١). وإنما جداله في الله، مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين.

ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على أيدي رسله، فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿قَالُوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْنَا آباءَنَا﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد، كائنًا مَنْ كَانَ.

قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة. فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيمهم على طريقته، أم ذلك يرههم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال مَنْ اتبعهم.

وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم، محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر بهم، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه، الذين تمكن منهم، وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير، بقبول دعوته.

(٢٢-٢٤) ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ تَنْبِئُهُمْ فَلْيَا ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يخضع له ويتقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول ﷺ، أو ومن يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، أو ومن يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم. والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة [اختلاف]^(٢)

مورد اللفظتين، وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين، على وجه تقبل به وتكمل، فمن فعل ذلك فقد أسلم و ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: بالعروة التي مَنْ تمسك بها، توثق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير.

وَمَنْ لم يسلم وجهه لله أو لم يحسن، لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك بالعروة الوثقى لم يكن ثُمَّ إِلَّا الهلاك والبوار ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: رجوعها وموئلتها ومنتهأها فيحكم في عبادته، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم،

وأحكامه الجزائية.

فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطَاعُونِ﴾. وأن أعمال النبين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم. ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتبهر له العقول، وتبهر فيه الأفئدة، وتسبح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ كُتِبَ بِهَا﴾ والآخر يمدد من بعده، ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَدَادًا يَسْتَمِدُّ بِهَا﴾ لتكسرت تلك الأقلام ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ ﴿كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ تعالى.

وهذا ليس بمبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستير به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأنهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي على أنه لا نفاد له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْتَمِسُهَا﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ وَمَا فِيهَا آيَاتٌ بَاطِنَةٌ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٦﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٧﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهَا إِنَّا نَحْمِلُ حَرِّهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٨﴾ نَمُنِعُهُمْ فَلَئِمَ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٩﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٣١﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ مِدَادٌ مِّنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كُفَيْسٌ وَاحِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٣٣﴾

فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاها للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة،

(١) في ب: مدت.

وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْهٍ وَاحِدَةً﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

(٢٩، ٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّقُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّقُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير وهذا فيه أيضاً، انفراد بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما، ليقم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويتفنون.

و ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

و ﴿ذَلِكَ﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعدته حق، وعبادته هي الحق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلو لا إيجاد الله له لما وجد، ولو لا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته باطل وأبطل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

(٣١، ٣٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ

٤١٤ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّقُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّقُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣١) ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير ﴿٣٢﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٤) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كَمَا وَاسْتَوْفُوا مَا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ الْوَلَدِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غُدًّا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٦)

سُورَةُ السَّجْدَةِ

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ○ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ○ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك، بأمره القدري، [ولطفه وإحسانه ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ فيها الانتفاع والاعتبار] (١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فهم المتفنون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظلل (٢) فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [لله] (٣) والعبادة: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

(١) زيادة من ب. (٢) في ب: كالظلل. (٣) زيادة من ب.

نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال:
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: يعلم متى مرساها، كما
قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي
لَا يُحِيطُ بِهَا لَوْفًا إِلَّا هُوَ ثَبَّتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾
الآية.

﴿وَيَزِلُّكَ الْعَنَقَ﴾ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت
نزوله.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما
هو، هل هو ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل
بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيفضي الله ما يشاء.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها
ودنياها.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالى هو المختص
بعلم ذلك جميعه.

ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء
فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ محيط بالظواهر والبواطن،
والخفايا والخبائيا والسرائر، ومن حكمته التامة، أن أخفى
علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا
يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه، والحمد لله.

تفسير سورة السجدة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ
أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَشِدْدِ قَوْلًا مَّا أَتَنَّهُمْ مِنْ
تَذِيرٍ وَنَفْثِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب
الكريم، أنه تنزيل نزل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته.

ومن أعظم ما رباهم به، هذا الكتاب الذي فيه كل ما
يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك
ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في
ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر
الجرأة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ بأعظم
الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق، وكل
واحد من هذه من الأمور العظائم.

وفرقه كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا
يَجْعَلُ يَتَائِبِنَا إِلَّا كُلَّ خَسَارٍ﴾^(١) أي: غدار، ومن غدره أنه
عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من
الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك ﴿كَفُورٌ﴾ بنعم الله، فهل
يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم
الله؟.

(٣٣) ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ انْقِعَارُ رَبِّكُمْ وَلَاحِقًا يَوْمًا لَا يَجْرَى وَالِدٌ عَنْ
وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا
تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يأمر تعالى
الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجره،
ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد
لا يهمه إلا نفسه ف﴿لَا يَجْرَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ
وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم
على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد
ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم
بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعددهم عليها الثواب، ويحذرهم
من العقاب، ويزعجهم بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا
رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير
المصدق، فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها
وزخارفها، وما فيها من الفتن والمحن.

﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما
زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن الله
على عبادته حقًا، وقد وعدهم موعدًا يجازيهم فيه بأعمالهم،
وهل وفوا حقه، أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب
عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتنة،
والشيطان الموسوس المَسْوُول، فهي تعالى عبادته أن تغرهم
الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ
الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

(٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَزِلُّ الْعَنَقَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ
تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه
بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يطلع الله عباد
على كثير من الأمور الغيبية، وهذه [الأمور]^(٢) الخمسة، من
الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها

(١) كذا في ب، وزاد في أ قوله تعالى: ﴿كَفُورٌ﴾. (٢) زيادة من ب.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٤١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ۝ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝
 ٢ ۝ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
 مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝
 ٣ ۝ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
 ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا
 تَتَذَكَّرُونَ ۝ ٤ ۝ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
 إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝
 ٥ ۝ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝
 ٦ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ۝
 ٧ ۝ ثُمَّ جَعَلَ
 نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝
 ٨ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ
 مِنْ رُّوحِهِ ۝ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۝ قَلِيلًا
 مَّا تَشْكُرُونَ ۝
 ٩ ۝ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِذَا نَأْتِي
 خَلْقَ جَدِيدٍ ۝ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝
 ١٠ ۝ قُلْ يَنفَعُكُمْ
 مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝
 ١١ ۝

في لحظة.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. فبسطة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته، وأوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقاً يليق به ويوافقه، فهذا عام. ثم خص آدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ﴾ بأن أرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح،

(١) في ب: بخبر غير مطابق للواقع.

قال الله - راداً على مَنْ قال: افتراه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ أي: هم في حال ضرورة وفاقه لإرسال الرسول وإنزال الكتاب، لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون. فأنزلنا الكتاب عليك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلالهم، فيعرفون الحق فيؤثروا. وهذه الأشياء التي ذكرها الله، كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنه ﴿الْحَقُّ﴾ والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بوجه من الوجوه، فليس فيه ما يوجب الريبة، لا بخبر لا يطابق للواقع^(١)، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

(٤-٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥ ٥ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٥ ٥ ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ٥ ٥ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ٥ ٥ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ٥ ٥ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم في أموركم فينفعكم ﴿وَلَا شَفِيعَ﴾ يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فيسعد بها ويشتقي، ويثني ويفقر، ويعز ويزل، ويكرم، ويهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويُنزل الأرزاق. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: الأمر ينزل من عنده ويعرج إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يعرج إليه ويصله

فيعود بإذن الله حيواناً، بعد إذ كان جماداً.

﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الذي خلقكم وصوركم.

(١٠، ١١) ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بليلاً وتمزقنا، وتفرقنا في المواضع التي لا نعلم.

﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لمبعوثون بعثاً جديداً. بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرهم.

وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد، وكفر بقاء ربهم ووجد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ فكلامهم عليم^(١) مصدره وغايته، وإلا، فلو كان قصدهم بيان الحق، لَبَيَّنْ لَهُمْ من الأدلة القاطعة على ذلك، ما يجعله مشاهداً للبصيرة، بمنزلة الشمس للبصر.

ويكفيهم أنهم معهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، ينزل الله عليها المطر، فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

(١٢-١٤) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُنْجَرُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فذوقوا بما سيبث لقاء يومكم هذا إِنَّا سَيِّئُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم [بين يديه]^(٢) فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُنْجَرُونَ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة.

﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأيناه عياناً، فصار عين يقين. ﴿فَاتَّجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: صار عندنا الآن يقين بما [كنا]^(٣) نكذب به، أي: لرأيت أمراً فظيماً، وحالاً مزعجة، وأقواماً خاسرين، وسؤلاً غير مجاب، لأنه قد مضى

وقت الإمهال.

وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشتيتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: وجب، وثبت ثبوتاً لا تغير فيه.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فَذُوقُوا بِمَا سَيَبِثُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا. وهذا النسيان نسيان ترك، أي: بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه.

﴿إِنَّا سَيِّئُكُمْ﴾ أي: تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسيتم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

(١٥-١٧) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ نَسْجَا جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ [أي:]^(٤) إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان.

وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بآيات ربهم فتلّت عليهم آيات القرآن، وأتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودّعوا إلى التذكر، سمعوها قبلوها، وانقادوا، و ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها خضوع ذكر الله، وفرح بمعرفته.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد

(١) كذا في ب، وفي أ: ظلم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب. (٤) زيادة من ب.

تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانسراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتزج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعا في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعا في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المتفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحقة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي، أي: فلا يعلم أحد ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْءَانٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٨-٢٠) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ○ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٨﴾
العقول على ما تقرر فيها من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد عسر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي يضر وجودها بالإيمان.

﴿كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله،

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٤١٦

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وَلَوْ تَرَى إِذَ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٢٠﴾ فَذُوقُوا بَأْسَ يَسْتُرْ لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِشَآئِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٢٥﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٧﴾

أفيستوي هذان الشخصان؟

﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من فروض ونوافل ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نُزُلًا﴾ لهم أي: ضيافة وقرى ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا بتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مقرهم ومحل

خلودهم النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُقتر عنهم العقاب ساعة.

﴿كَلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُفُّوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

(٢١) ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُمْ بِرَجُوعَتِهِ﴾ أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْقُلُوبُ لَمُوتٍ فِي عَزِّ النَّفْسِ وَالْمَلَكِ يَكْفُؤُا بِأَسْطُورٍ أَيْدِيَهُمْ أَحْرَجُوا أَنفُسَهُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائلها ظاهرة، فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلمهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ أي: لا أحد أظلم وأزبد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والالتقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النقمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾.

(٢٣-٢٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ

سُورَةُ السَّجْدَةِ ٤١٧
وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُمْ بِرَجُوعَتِهِ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعَاتٍ أَكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ مَتَى تَنْظُرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الْاِنْشِرَاقِ

لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ○ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ○ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل.

فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والريبة محل.

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه^(١)، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة،

(١) في النسختين: وفروعهم ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة^(١) يجزم بها بالهلاك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿أَنَّا سَوَّيْنَا لِلْإِنسَانِ الْأَرْضَ الْأَنْحَرُ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ أي: نباتاً مختلف الأنواع ﴿وَتَأْكُلُ مِنْهُ أَرْبَابُهُمْ﴾ وهو نبات البهايم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ وهو طعام الآدميين.

﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

(٢٨-٣٠) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إمهالكم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل، واستعجال العذاب ﴿وَانْتَظِرْ﴾ الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ بك رب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومنه، فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم. والصواب - والله أعلم - حذف (لم).

وذلك لكماله وعلوه ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ لَدَيْنَا لَعَلَّ حَكِيمٌ.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول، أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماعها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين ثأل الإمامة في الدين.

وتم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمدًا، والله تعالى ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

(٢٦، ٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا لِلْإِنسَانِ الْأَرْضَ الْأَنْحَرُ فَخَرَجَ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني: أو لم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدم إلى الصواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الذين سلكوا مسلكهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فُعل بهم كما فُعل بأشباعه من قبل.

وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله فيعونها فيفتفعون بها، فلو كان

وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع وشرور ترفع. وهناك ترى العبد الضعيف الذي فوض أمره لسيده، قد قام بأمر لا يقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله [عليه]^(١) ما كان يصعب على فحول الرجال وبالله المستعان.

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَأَتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ أَي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالته، وأد إلى عباده وحيه، وابذل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿و﴾ لكن ﴿اتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وازج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خبير، يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضررًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه، وأرأف به من كل أحد، خصوصًا خواص عبده الذين لم يزل يريهم ببره، ويُدِّرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أمره إليه ووعد.

فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل،

(٤، ٥) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْكُمْ أَهْبَاقًا ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ يَعْتَابُ تَعَالَىٰ [عباده]^(٢) عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا، فإن ذلك القول منكم كذب وزور، يترتب عليه منكرات من الشرع. وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء، والإخبار بوقوع وجود ما لم يجعله الله تعالى.

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها، وشدة الحاجة إلى بيانها فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْكُمْ﴾ بأن يقول أحدهم لزوجته: «أنت علي كظهر أمي أو كأمي» فما جعلهن الله ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أمك من ولدتك، وصارت أعظم النساء^(٣) عليك حرمة وتحريمًا، وزوجتك أحل النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟

هذا أمر لا يجوز، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُمْ أَهْبَاقٌ ۖ إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والأدعياء الولد الذي كان الرجل يدعيه، وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام.

فأراد الله تعالى أن يظله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله، ولا يتصف به عباد الله.

يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم، أو يدعون إليكم، أبناءكم، فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم. وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم، فلا جعل الله

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) كذا في ب وفي أ: الناس.

هذا كهذا.

﴿ذَلِكُمْ﴾ القول الذي تقولون في الدعى: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: اليقين والصدق، فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه، فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة، والطرق الصادقة.

وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته، فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر.

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى، المتضمنة للقول الباطل فقال: ﴿ادْعُوهُمْ﴾ أي: الأديعاء ﴿لأَبَائِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل وأقوم وأهدى.

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ الحقيقين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاتة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها.

وأما دعاؤهم لأبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة [الدين]^(١) والموالاتة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم، لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ بأن سبق على لسان أحدكم، دعوته إلى من تبناه، فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً، [فدعوتوه إليه]^(٢) وهو في الباطن غير أبيه، فليس^(٣) عليكم في ذلك حرج، إذا كان خطأ.

﴿وَلَكِنْ﴾ يؤاخذكم بما ﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالى.

(٦) ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة

سورة الأحزاب

٤١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَّيَبُهَا النَّبِيُّ أَقْبَىٰ لِلَّهِ وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَىٰ تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

والسلام، بذل لهم من النصح والشفقة والرفقة، ما كان به أرحم الخلق وأرفهم، فرسول الله أعظم الخلق منه عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسببه.

فلذلك وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول ﷺ، أن يقدم مراد الرسول ﷺ، وأن لا يعارض قول الرسول ﷺ بقول أحد، كائناً من كان، وأن يقدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا على يديه.

وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يربي الوالد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة الذي كان قبل

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) في أ وقعت هنا زيادة حرف (في) ولا محل له.

سُورَةُ الْاِحْزَابِ

٤١٩

الْمِيقَاتُ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿٨﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ مَاعِدُنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ
مِنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَرْبٌ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا أَفْتِنَةً
لَّآتَوْهَا وَمَا تَلَنَتْ حُوشًا إِلَّا لَيْسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ أَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

(٩-١١) ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا﴾ ○ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ
وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ○ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زُلْزَالًا شَدِيدًا﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته
عليهم، ويحثهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة
والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا
وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابه، وذلك في وقعة
الخنديق. وما لأتاهم [طواف] (٣) اليهود الذين حوالى المدينة،
فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.

وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصرها المدينة،
واشدت الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من
كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة،
والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة،
والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

(١) في ب: كما سيصح بذلك. (٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب.

يُدْعَى «زيد بن محمد» حتى أنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ
رِّجَالِكُمْ﴾ فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول،
فلا مزية لأحد عن أحد. وإن انقطع عن أحدهم انتساب
الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا
يأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا
يحللن لأحد من بعده، كما الله صرح (١) بذلك: ﴿وَلَا أَنْ
تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [أي: ٢] في حكمه، فيرث بعضهم
بعضًا، ويبر بعضهم بعضًا، فهم أولى من الحلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرون بهذه الأسباب، دون
ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب،
لطفًا منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة
لحصل من الفساد والشر والتحليل لحرمان الأقارب من
الميراث شيء كثير.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين
مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في
ذلك. وهذه الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع
الولايات، كولاية النكاح والمال وغير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولِيَّائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي ليس لهم حق
مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعًا
وتعطوهم معروفًا منكم، ﴿كَانَ﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿فِي
الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من
نفوذه.

(٨، ٧) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ○ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ
عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من
النبيين عمومًا، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة
المذكورون - خصوصًا، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل
المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا
سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم
وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل
وفوا فيه وصدقوا؟ فيشيهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم
العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهَ عَلَيْهِمْ﴾.

- ﴿ثُمَّ سَلَّ هَؤُلَاءُ﴾ أَيْ: الْفِتْنَةُ ﴿أَي: الْإِنْقِلَابَ عَنْ دِينِهِمْ، وَالرَّجُوعَ إِلَى دِينِ الْمُسْتَوِلِينَ الْمُتَغْلِبِينَ﴾ ﴿لَا تَوْهَا﴾ أَيْ: لَا عَظُمَا مِبَادِرِينَ.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا تَصَلُّبٌ عَلَى الدِّينِ، بَلْ بِمَجْرَدِ مَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ لِلْأَعْدَاءِ، يُعْطُونَهُمْ مَا طَلَبُوا، وَيُؤَافِقُونَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، هَذِهِ حَالُهُمْ.

(١٥) وَالْحَالُ أَنَّهُمْ قَدْ ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ، فَيَجِدُهُمْ قَدْ نَقَضُوهُ، فَمَا ظَنَّهُمْ إِذَا بِرَبِّهِمْ؟

(١٦) ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ لَا تَمَاتُوا عَلَى فِرَارِهِمْ، وَمَخْبِرًا أَنَّهُمْ لَا يَفِيدُهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ﴾ فَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَيْتِكُمْ، لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ.

وَالْأَسْبَابُ تَنْفَعُ، إِذَا لَمْ يَعَاضِضْهَا الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، فَإِذَا جَاءَ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، تَلَاشَى كُلُّ سَبَبٍ، وَبَطَلَتْ^(٤) كُلُّ وَسِيلَةٍ ظَنُّهَا الْإِنْسَانُ تَنْجِيهِ.

﴿وَإِذَا﴾ حِينَ فَرَرْتُمْ لَتَسْلُمُوا مِنَ الْمَوْتِ وَالْقَتْلِ، وَلَتَنْعَمُوا فِي الدُّنْيَا فَلِنُكْمٍ ﴿لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مَتَاعًا لَا يَسُوءُ فِرَارَكُمْ وَتَرْكُكُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَتَفْوَيْتُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمُ التَّمَتُّعِ الْأَبَدِيِّ، فِي النِّعَمِ السَّرْمَدِيِّ.

(١٧) ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ الْأَسْبَابَ كُلَّهَا لَا تَغْنِي عَنْ الْعَبْدِ شَيْئًا، إِذَا أَرَادَهُ اللَّهُ بَسْوَءًا، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ أَيْ: يَمْنَعُكُمْ ﴿مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أَيْ: شَرًّا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَعْطِي الْمَانِعَ، الضَّارُّ النَّافِعَ، الَّذِي لَا يَأْتِي بِالْخَيْرِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَدْفَعُ السُّوءَ إِلَّا هُوَ.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يَتَوَلَّاهُمْ، فَيَجْلِبُ لَهُمُ النِّفْعُ^(٥) ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ أَيْ: يَنْصُرُهُمْ، فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَضَارَّ. فَلَيَمْتَنِيْلُوا طَاعَةَ الْمُنْفَرِدِ بِأُمُورِ كُلِّهَا، الَّذِي نَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ، وَمَضَى قَدْرُهُ، وَلَمْ يَنْفَعْ مَعَ تَرْكِ وَلايَتِهِ وَنَصْرَتِهِ وَلِيٌّ وَلَا نَاصِرٌ.

(١٨) ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُخْذِلِينَ الْمُعْوِقِينَ، وَتَهَدَّدَهُمْ فَقَالَ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ مِنْكُمْ﴾ عَنِ الْخُرُوجِ، لِمَنْ [لَمْ]^(٦) يَخْرُجُوا ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الَّذِينَ خَرَجُوا ﴿هَلُمَّ إِنِّي أَنَا﴾ أَيْ: ارْجِعُوا، كَمَا تَقْدَمُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿يَتَّأَهَّلُ يَرْبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

وَهُمْ مَعَ تَعْوِيقِهِمْ وَتَخْذِيلِهِمْ ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ الْقِتَالَ وَالْجِهَادَ بِأَنْفُسِهِمْ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ حَرَصًا عَلَى

الْحَسَاكِرِ وَتَطَوُّنَ يَاللَّهُ الظُّنُونَا﴾ أَيْ: الظُّنُونِ السَّيِّئَةِ، أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَلَا يَتِمُّ كَلِمَتُهُ.

﴿هَؤُلَاءِ أَتَيْنِي الْمَوْتُ﴾ بِهَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ بِالْخَوْفِ وَالْقَلَقِ وَالْجُوعِ، لِيَتَبَيَّنَ إِيْمَانُهُمْ وَيَزِيدَ إِيْقَانُهُمْ، فَظَهَرَ - وَاللَّهُ الْحَمْدُ - مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَشِدَّةِ يَقِينِهِمْ، مَا فَاقُوا فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

وَعِنْدَمَا اشْتَدَّ الْكَرْبُ، وَتَفَاقَمَتِ الشَّدَائِدُ، صَارَ إِيْمَانُهُمْ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وَهَنَالِكَ تَبَيَّنَ نِفَاقُ الْمُنَافِقِينَ، وَظَهَرَ مَا كَانُوا يُمْضَمُونَ، قَالَ تَعَالَى:

(١٢) ﴿رَأَى يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وَهَذِهِ عَادَةُ الْمُنَافِقِ عِنْدَ الشَّدَةِ وَالْمَحَنَةِ، لَا يَثْبِتُ إِيْمَانَهُ، وَيَنْظُرُ بِعَقْلِهِ الْقَاصِرِ إِلَى الْحَالَةِ الْقَاصِرَةِ^(١)، وَيَصْدُقُ ظَنُّهُ.

(١٣) ﴿رَأَى قَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، بَعْدَمَا جَزَعُوا وَقُلَّ صَبْرُهُمْ، صَارُوا أَيْضًا مِنَ الْمَخْذِلِينَ، فَلَا صَبَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا تَرَكَوا النَّاسَ مِنْ شَرِّهِمْ، فَقَالَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ: ﴿يَتَّأَهَّلُ يَرْبُ﴾ يَرِيدُونَ «يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ». فَتَادُوهُمْ بِاسْمِ الْوَطَنِ الْمُنْبِيِّ [عَنِ التَّسْمِيَةِ]^(٢) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الدِّينَ وَالْأَخُوَّةَ الْإِيْمَانِيَّةَ، لَيْسَ لَهُ فِي قُلُوبِهِمْ قَدْرٌ، وَأَنَّ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَجْرَدُ الْخَوَرِ الطَّبِيعِيِّ.

﴿يَتَّأَهَّلُ يَرْبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أَيْ: فِي مَوْضِعِكُمُ الَّذِي خَرَجْتُمْ إِلَيْهِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَكَانُوا عَسْكَرُوا دُونَ الْخَنْدَقِ وَخَارِجَ الْمَدِينَةِ ﴿فَارْجِعُوا﴾ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهَذِهِ الطَّائِفَةُ تَخْذَلُ عَنِ الْجِهَادِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَا قُوَّةَ لَهُمْ بِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ، وَيَأْمُرُونَهُمْ بِتَرْكِ الْقِتَالِ، فَهَذِهِ الطَّائِفَةُ أَشْرَ الطَّوَائِفِ وَأَضْرَهَا.

وَطَائِفَةٌ أُخْرَى دُونَهُمْ، أَصَابَهُمُ الْجَبْنُ وَالْجَزَعُ، وَأَحْبَبُوا أَنْ يَنْخَزِلُوا عَنِ الصُّفُوفِ، فَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْأَعْذَارِ الْبَاطِلَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَسَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ فَرِيقٌ الَّذِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أَيْ: عَلَيْهَا الْخَطَرُ، وَنَخَافُ عَلَيْهَا أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْهَا الْأَعْدَاءُ، وَنَحْنُ غَائِبٌ عَنْهَا، فَأَذُنْ لَنَا نَرْجِعْ إِلَيْهَا فَنَحْرُسْهَا، وَهُمْ كَذِبَةٌ فِي ذَلِكَ.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ﴾ أَيْ: مَا قَصْدُهُمْ ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ وَلَكِنْ جَعَلُوا هَذَا الْكَلَامَ وَسِيلَةً وَعِذْرًا [لَهُمْ]^(٣). فَهَؤُلَاءِ قُلُوبُ إِيْمَانِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُ ثُبُوتٌ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْمُحَنِّ.

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ مِنْ أَقْفَارِهَا﴾ أَيْ: لَوْ دَخَلَ الْكُفَّارُ إِلَيْهَا مِنْ نَوَاحِيهَا، وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا - لَا كَانَ ذَلِكَ

(١) فِي ب: الْحَاضِرَةُ. (٢) زِيَادَةٌ مِنْ ب. (٣) زِيَادَةٌ مِنْ ب. (٤) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: بَطُل. (٥) فِي ب: الْمَنَافِعُ. (٦) زِيَادَةٌ مِنْ ب.

سُورَةُ الْحَزْبِ

٤٢٠

الْحَزْبِ

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٩﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيَأْتِيَنَّكُمْ لَئِيَّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٠﴾ فَعَلِمَ اللَّهُ الْمُعْصِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْ يَكُونُ الْبَأْسُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢١﴾ أَشَحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشَحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَا يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٢﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوَأَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٣﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٥﴾

دلَّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأُسوة نوعان: أُسوة حسنة، وأُسوة سيئة.

فالأُسوة الحسنة في الرسول ﷺ فإن المتأسِّي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم.

وأما الأُسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأُسوة السيئة، كقول الكفار^(٢) حين دعتهم الرسل للتأسي [بهم]^(٣): ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مَنَاسِكٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾.

وهذه الأُسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه^(٤) من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ.

(٢٢) لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ

(١) في ب: يغالي. (٢) في ب: المشركين. (٣) زيادة من ب. (٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

التخلف، لعدم الداعي لذلك، من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجهن من النفاق وعدم الإيمان.

(١٩) ﴿أَشَحَّةٌ عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ نظر المغشي عليه ﴿فَرَأَى الْمَوْتَ﴾ من شدة الجبن الذي خلغ قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفًا من إجبارهم على ما يكرهون من القتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة ﴿سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ﴾ أي: خاطبوكم، وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعوى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام ﴿أَشَحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحًا بما أمر به، شحيحًا بما له أن ينفقه في وجهه، شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحًا بجاهه، شحيحًا بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَوْ يُؤْمِنُوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

(٢٠) ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ﴿يَوَدُّوا لَوَأَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، ودَّ هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم ويسألون عن أنبائكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبَّأ لهم وبعدًا، فليسوا ممن يبالي^(١) بحضورهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

(٢١) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيحاء بنفسه الكريمة، وبأشرف موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟! فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أُسوته في الأحكام، إلّا ما

غرثهم جموعهم، وأعجبوا بتحزيبهم، وفرحوا بعدادهم وعُدَدِهِمْ.

فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة، وهي (٣) ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوّضت خيامهم، وكفأت قدورهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين.

﴿وَكُفِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا غَيْرَ يُرَاكَ﴾ لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم، إن لم يُعْنِهِم الله بقوته وعزته.

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود ﴿مِّنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: أنزلهم من حصونهم، نزولاً مظفّوراً بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا ﴿فَرِيقًا تَقَتَّلُوا﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وَأُخْرَىٰ رُبَّ قَرْيَةٍ﴾ من عداهم من النساء والصبيان.

(٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ أي: غنمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا﴾ أي: أرضاً كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطنها، فمكنكم الله وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر. وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب، هم بنو قريظة من اليهود، في قرية خارج المدينة غير بعيد. وكان النبي ﷺ [حين^(٤)] هاجر إلى المدينة، ووادعهم وهادتهم، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئاً.

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم، وقلة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك، [تدجيل^(٥)] بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وما لأوا المشركين على قتاله.

فلما خذل الله المشركين، تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم، أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم.

الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَوَرِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ ءَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَسَلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

(٢٣) ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأديار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأتموه وأكملوه فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارب في قضاء ما عليه، ووفاء نجه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساعٍ في ذلك مجد.

﴿وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ كما بدل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهو لاء هم الرجال على الحقيقة، ومن^(١) عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

(٢٤) ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَجْنُجْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ الآية.

أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُتَفَيِّقِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفرو بما عاهدوا الله عليه.

﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفوراً للذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثرها من العصيان، إذا أتوا بالمتاب ﴿رَحِيمًا﴾ بهم حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَلَاؤْ خَيْرًا﴾ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حقيقين عليه، مغتاظين قادرين [عليه^(٢)] جازمين، بأن لهم الدائرة، قد

(١) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من ب. (٣) في أ: وهو، ولعل الصواب ما أثبت. (٤) زيادة من ب. (٥) زيادة من ب.

سورة الأحزاب

٤٢١

سورة الأحزاب

مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجَاحَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِظَمِهِمْ لِمَنْ لَوَا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَّا رَوْحُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبُّنَهَا فَفَعَالٌ لَّيْلٌ أُمَيَّةٌ وَأُسْرَحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعِّفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سِيرًا ﴿٣٠﴾

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله.

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهن، وبيان علو همهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يَكُنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه^(٢) كاملات مكملات، طيبات مطيبات ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه.

(١) في: أ: يخيرهن. (٢) في: أ: نساء.

فأتم الله لرسوله والمؤمنين المنه، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان مَنْ انخذل من أعدائهم، وقتل مَنْ قتلوا، وأسر مَنْ أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرًا.

(٢٩، ٢٨) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَّا رَوْحُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبُّنَهَا فَفَعَالٌ لَّيْلٌ أُمَيَّةٌ وَأُسْرَحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة، طلبن منه أمرًا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفتقات، وفي مرادهن متعتات، فشق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه ألقى منهن شهرًا.

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن، فأمر رسوله أن يخيرهن^(١) فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَّا رَوْحُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها، وتغضبن لفقدائها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال.

﴿فَفَعَالٌ لَّيْلٌ أُمَيَّةٌ وَأُسْرَحُكُنَّ﴾ شيئًا مما عندي من الدنيا ﴿وَأُسْرَحُكُنَّ﴾ أي: أفارقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من دون مغاضبة ولا مشامة، بل بسعة صدر، وانشرح بال قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

﴿وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لَكُنَّ الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبين منه ما يشق عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئًا مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾.

ومنها: تنزيهه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله، والدار الآخرة، عنها وعن مقارنتها.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

(٣١، ٣٠) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعِّفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ مِنْكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزرهن وإثمنهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿وَمَن يَفْعَلْ مِنْكَ﴾ أي: تطيع ﴿اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ قليلاً أو كثيراً. ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وهي الجنة، فقتن الله ورسوله، وعملن صالحاً، فعلم بذلك أجرهن.

(٣٤-٣٢) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِن آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

يقول تعالى: ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فإنكن بذلك تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكلمن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها.

فلهذا أرشدن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فقلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه، لأن قلبه غير صحيح، [فإن القلب الصحيح] (١) ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تُبَيِّله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فإدنى سبب يوجد، يدعو إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه. فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح. ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم

﴿وَمَن يَفْعَلْ مِنْكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِن آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهم مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بلين خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: «فلا تلين بالقول» وذلك لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده. والخاضع هو الذي يطمع فيه بخلاف من تكلم كلاماً ليناً، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ﴾ وقال لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَيَّ فَرْعُونَ إِنَّهُ طَافٌ ۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّاهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ۝

ودلَّ قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه

(١) زيادة من ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وأمر به.

﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد، لتزوجها ﷺ ﴿وَتَخْفَى النَّاسُ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ (٣) وأن لا تباليهم شيئاً.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أي: طابت نفسه، ورجب عنها، وفارقها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة وهي: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل يتنسب إليك.

ولما كان قوله: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ عامًا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لو لا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن الْمُعْتَقَ في نعمة الْمُعْتَقِ.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِيِّ، كما صرح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القول، خصوصًا إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغير زوجته ومملوكته ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يَأْثُمُ عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فُرْقَةٍ بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحى إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه. وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في

يَكُونُ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق ممن اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما.

فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحثًا به والزمًا به ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي: يَبِينًا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً، السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِيَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سبيلًا.

وكان زيد بن حارثة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ﴾ فقليل له: «زيد بن حارثة».

وكانت تحته زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول ﷺ، لو طلقها زيد لتزوجها. فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعق (١) حين جاءك مشاورًا في فراقها: فقلت له: ناصحًا ومخيرًا بمصلحته (٢) مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها ﴿وَإِنِّي اللَّهُ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك

(١) في هامش ب: والإرشاد والتعليم. (٢) في هامش ب: مقدمًا لها على رغبتك. (٣) في هامش ب: فإن خشيت جالية لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢٣

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا وَخَنَّاهُ لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسِيحُوا بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ أي: لم يكن الرسول ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﴿أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أيها الأمة. فقطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عامًا في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحتز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور فقال: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من بره [ونصحه] ﴿٣﴾ كأنه أب لهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

(٤١-٤٤) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ وسِيحُوا

أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير^(١)، ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمسكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفُرقة.

ومنها: [أنه يتعين]^(٢) أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، وهي في عصمته، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.

(٣٨، ٣٩) ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا هذا دفع لظعن من ظعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنه ظعن بما لا مطعن فيه، فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثم وذنب ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: لا بد من وقوعه.

ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعاداتهم، وأنهم

﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾ إلا الله.

فإذا كان هذا سُنَّةَ في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محظور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه.

﴿وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسبًا عباده، مراقبًا أعمالهم. وعلم

من هذا، أن النكاح من سنن المرسلين.

(٤٠) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ

(١) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت - والله أعلم.

(٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب.

سُورَةُ الْحَزْبِ

٤٢٤

الْحَزْبِ

بُكَرُهُ وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكُتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ يَخَيِّتُهُمْ يَوْمَ يَقُونَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُنْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَةٍ تَعْنُدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

أحدها: كونه ﴿شَهِيدًا﴾ أي: شاهدًا على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر، وما يشر به وينذر بالأعمال الموجبة لذلك. فالمبشر، هم المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمنذر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم. وفي الآخرة بالعقاب الويل والعذاب الطويل.

بُكَرُهُ وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكُتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ يَخَيِّتُهُمْ يَوْمَ يَقُونَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُنْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَةٍ تَعْنُدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

﴿وَسَيُخَوِّ بُكَرُهُ وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره، لفضلهما وشرفهما، وسهولة العمل فیهما.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكُتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل. فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِن ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّعْيَاتِ وَمَن تَقِ السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدري ولا يعرف كنهه إلا مَنْ أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿يَخَيِّتُهُمْ يَوْمَ يَقُونَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

(٤٨-٤٥) ﴿يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

سبيل الله .

ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، [بل لا تطعمهم ﴿وَدَعَ أَذْنَهُمْ﴾] ^(٣) فإن ذلك، جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله .
﴿وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها، ويسهلها على عبده .

(٤٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعْدُوهُنَّ فَتَمُوتُنَّ وَسِرْجُوهُنَّ سِرْجًا جَمِيلًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها ^(٤) أزواجهن عليهن . وأمرهم بتمتعهن ^(٥) بهذه الحالة، بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقًا جميلًا من غير مخاصمة، ولا مشاتمة، ولا مطالبة، ولا غير ذلك .

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فجعل الطلاق بعد النكاح . فدل على أنه قبل ذلك لا محل له . وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة، وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أصح قولي العلماء .

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلمهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين . وعلى جوازه قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة لها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول .

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مُجْمَع عليه؟ -أو- وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطاء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح . فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة .

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع، على الموسع قدره،

(١) في ب: يشوقهم . (٢) كذا في ب، وفي أ: جهاتها . (٣) زيادة من ب . (٤) كذا في النسخين، ولعل الصواب: تعتدها . (٥) كذا في ب، وفي أ: بتمتعهن .

وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك .

الرابع: كونه ﴿ذَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم ^(١) لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها . وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام . وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره .

الخامس: كونه ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها ^(٢) . حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالًا إلى الصراط المستقيم .

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة .

وقوله: ﴿وَيَسِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة .

وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدارة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام التهيب، العقوبات المترتبة على ما يرهب منه، ليكون عونًا على الكف عما حرم الله .

ولما كان ثم طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله، من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهرًا وباطنًا، نهى الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تُلَاحِظْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: في كل أمر يصد عن

الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿وَأَحْلَلْنَا لَكَ أَمْرًا مُمِيزًا إِنْ هَبَّتْ نَفْسُكَ لِلنَّبِيِّ بِمَجْدِ هَبَّتْهَا نَفْسُهَا﴾ [إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا] أي: هذا تحت الإرادة والرغبة ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إباحة الموهبة^(٤). وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ آتَىٰ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [أي: ^(٥) وأبחנו لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك] ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

(٥١) ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَأٍ مِثْلِهِ وَتُؤَيَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ وَمِنْ أُنْثَىٰ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضِينَ يَمَّا أَبْنَيْتَهُنَّ كُفُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته، على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك، فهو تبرع منه. ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَأٍ مِثْلِهِ﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤوبها إليك، ولا تبئت عندها]^(٦) ﴿وَتُؤَيَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ﴾ أي: تضمها وتبئت عندها.

﴿وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَتَعَيْنُ هَذَا الْأَمْرُ﴾ [مِنْ أُنْثَىٰ] أي: تؤوبها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله.

لوقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات، له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء. أي: إن شاء قبل من

وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول، تنصّف المهر، وكفى عن المتعة. وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلاً، يحمد فيه كل منهما الآخر. ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة. [وعلى أن المفارقة بالوفاة تعتد مطلقاً، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَقْتُهُنَّ﴾ الآية]^(١). وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

(٥٠) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ آتَىٰ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَّكَ وَعَنْتِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلْنِكَ أَلَّتْ هَاجِرَنَ مَعَكَ وَأَذْرًا مُمِيزَةً إِنْ هَبَّتْ نَفْسُكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يقول تعالى مبتثلاً على رسوله بإحلاله له ما أحل، مما يشترك هو والمؤمنون، وما ينفرد به ويختص: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ آتَىٰ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطيتهن مهورهن، من الزوجات. وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين، [فإن المؤمنين]^(٢) كذلك، يباح لهم ما^(٣) آتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿وَمَعَ ذَلِكَ أَحْلَلْنَا لَكَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: الإماء التي ملكك ﴿مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وَنَبَاتٍ عَمَّكَ وَنَبَاتٍ عَنْتِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلْنِكَ﴾ شمل العم والعمة، والخال والخاله، القريين والبعيدين، وهذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب، غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، فروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿أَلَّتْ هَاجِرَنَ مَعَكَ﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية. وأما غيره عليه

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: الموهبة. (٥) زيادة يقتضيها السياق. (٦) زيادة من ب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢٥

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

﴿ تَرْجِي مِنْ نَشَأِهِمْ مَنْ تَهْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ وَمِنْ بَلْعَيْتَ مِنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَنِ هُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١ ﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢ ﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ٥٣ ﴾ إِنَّ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٥٤ ﴾

رسول الله ﷺ، في دخول بيوته فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضا لا تكونوا ﴿نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ أي: منتظرين، ومتأنين لا انتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه.

والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ﴾ أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصا أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم.

(١) زيادة من هامش ب وفي بعض الكلمات عدم وضوح، وتم تصويبها من الطبعة السلفية.

وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم^(١). ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعا منك ﴿أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَنِ هُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾ لعلهم أنك لم تترك واجبا، ولم تفرط في حق لازم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاخمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

(٥٢) ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكورا لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمهن، وقصر رسوله عليهن فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ زوجاتك الموجودات ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلهما.

فحصل بهذا، أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

﴿وَلَوْ أَعْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: حسن غيرهن، فلا يحلن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: السراي، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي: مراقبا للأمر وعالما بما إليه تؤول، وقائما بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

(٥٣، ٥٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ٥٣ ﴾ إِنَّ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين، بالتأدب مع

﴿و﴾ لَكِنَّ ﴿اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي﴾ مِنْ الْحَقِّ ﴿﴾ .

فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه، ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه، فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتج إليه، كأن يُسألن متاعاً، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يُسألن ﴿مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ أَظْهَرُ لِقَوْلِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾ لأنه أبعد عن الريبة. وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأظهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي بَيَّنَّ الله كثيرًا من تفصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته، ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء. ﴿أَنْ تُؤْذِرُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ هذا من جملة ما يؤذي، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته [بعده]^(١)، مخل بهذا المقام.

وأيضاً، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده، لأحد من أمته ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ وقد امثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنب ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبُدُّوا سِجِّئَ أَيْ: تظهروه﴾ ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

(٥٥) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْنَآءَ أَخُوهُمْ وَلَا إِسْنَآءَهُمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾^(١) وَأَتَيْنَ اللَّهُ إِلَهًا اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أنهم لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً لكل أحد^(٢) احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم.

ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال، لأنهن إذا لم يحتجبن عَمَّنْ هن عماتهن ولا (٣) خالاتهن، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتن عليهن، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى، المصروفة بذكر العم والخال مقدمة، على ما يفهم من هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار. ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه.

ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره، لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي فقال: ﴿وَأَقْبَنَ اللَّهُ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٥٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ﴾ عليه أي: يشي الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، لمحبة تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ اقتداء بالله
وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً
لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادةً في
حساناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم.

وأفضل هيثات الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - ما
عَلَّمَ به أصحابه «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما
صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وبارك على محمد
وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»
وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات،
وأوجه كثير من العلماء في الصلاة.

(٥٨، ٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُدْعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ يُدْعُونَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبَ اللَّهُ فَعَدَّ احْتَمَلُوا هَيْهَاتَ وَهَاتَ مَيْدَانًا﴾ لما أمر
تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، والصلاة والسلام عليه، نهى عن

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب.

العذاب، واستحققنا - كالمطيعين - جزيل الثواب. ولكن أمنية فات وقتها، فلم تقدمهم إلا حسرةً وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا﴾ وقلدناهم على ضلالهم ﴿وَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يَوَلَّيْكَ يَبْنَؤُا نَحْنُ﴾ ﴿أَخَذْنَا فَلَا نَشَاءُ خَلِيلًا﴾ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشفوا ممن أضلهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِمْ لَعْنَا كَثِيرًا﴾ فيقول الله: لكل ضعيف، فكلكم اشركتم في الكفر والمعاصي، فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

(٦٩) ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي أظهر الله لهم براءته. والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين؛ فلم يجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تتشبهوا بهم في ذلك.

والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى (٧)، لَمَّا رَأَوْا شِدَّةَ حَيَاتِهِ وَتَسْتَرَهُ عَنْهُمْ: «إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر» أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاعتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فأراه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

(٧٠، ٧١) ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو

وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أَخْذُوا وَقِيلُوا تُفْسِدُوا أَي: مبعدين، أين (١) وُجِدُوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر (٢) لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يُحبسوا، أو يعاقبوا.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أن من تَمَادَى في العصيان، وتجرأ على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَلَى النَّاسِ مِلًّا﴾ أي: تغييراً، بل سُنَّةَ اللَّهِ تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها (٣).

(٦٣-٦٨) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿يَوْمَ تُقْلَبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا أَعْطَانَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِمْ لَعْنَا كَثِيرًا﴾ أي يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكذيباً لوقوعها، وتعجيزاً للذي أخبر بها ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيري بها علم. ومع هذا، فلا (٤) تستبطئوها.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ومجرد مجيء الساعة، قرباً وبعداً، ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة، والخسار والربح، والشقا (٥) والسعادة، هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ [أي: (١) الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله، وبما جاءوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً موقدة، تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يُفَقَّر عنهم ساعة. و﴿لَا يَجِدُونَ﴾ لهم ﴿وِلِيًّا﴾ فيعطيهما ما طلبوه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم العذاب.

بل قد تخلى عنهم الولي والنصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُقْلَبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

﴿يَقُولُونَ يَلَيِّنَا أَعْطَانَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فسلمنا من هذا

(١) في ب: حيث. (٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يقر. (٣) كذا في النسخين، ولعله - والله أعلم - المقتضية لمسبباتها. (٤) كذا في ب، وفي أ: قد. (٥) في ب: والشقاوة. (٦) زيادة من ب. (٧) في ب: عن موسى.

القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تُعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً]، بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

(٧٣، ٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^١ لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة، التي اتّمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحميم، وأنتك إن قمت بها وأدّيتها على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها، [ولم تؤدّها]، فعليك العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصياناً لربهن، ولا زهداً في ثوابه.

وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام: منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون: تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون: قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من

سورة الأحزاب

٤٢٧

سورة الأحزاب

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّعْمِ لَعَنَّا كِبَرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَّ مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لبقائه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.

تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١، ٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُوتْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا
يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝
الْحَمْدُ: الثناء بالصفات الحميدة، والأفعال الحسنة، فله
تعالى الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها، لكونها صفات
كمال، وأفعاله يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي
يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته
فيه.

وحمد نفسه هنا، على أن ﴿لَمْ يَمُوتْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحمده ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن
في الآخرة، يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا.
فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس
والخلق كلهم ما حكم به، وكمال عدله وقسطه، وحكمته فيه،
حمده كلهم على ذلك. حتى أهل العقاب ما دخلوا النار،
إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم،
وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب، فذلك شيء قد
تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي.
فإنهم في الجنة، يرون من توالي نِعَمِ الله، وإدراك خيره، وكثرة
بركاته، وسعة عطاياه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية،
ولا إرادة، إلا وقد أعطي فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من
الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم، ولم يخطر بقلوبهم.

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة
تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله
ومحبته، والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل
نعيم، وألذ عليهم من كل لذة.

ولهذا إذا رآوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم،
أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة
كالنفس، متواصلاً في جميع الأوقات.

هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة، في الجنة
كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما
يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه.

سُورَةُ السَّجْدَةِ ٢٨
سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ
فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ
قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَوَّلَتِيكَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَبَرَىٰ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ
الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه
﴿الْخَبِيرُ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها.

ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من
مطر، ويزر، وحيوان ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات،
وأصناف الحيوانات ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأملاك
والأرزاق والأقنار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح
وغير ذلك.

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر
مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي: الذي
الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارهما تنزل على عباده كل
وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

(٣-٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَوَّلَتِيكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ
رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ لما بين تعالى، عظمتها بما وصف به نفسه، وكان

فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

﴿وَيُرُونَ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ﴾ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَزَمُوا بِصَدَقِ مَا أُخْبِرَ بِهِ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ:

من جهة علمهم، بصدق من أخبر به.

ومن جهة موافقته للأمر الواقعة، والكتب السابقة.

ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عياناً.

ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق، وفي أنفسهم.

ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تركي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهي، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

(٩-٧) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرِفْتُمْ كُلَّ مَرْجٍ إِنَّكُمْ لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ○ أَفَرَأَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِفْظٌ يَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ○ أَفَرَأَيْتُمْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ○ أَي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد وذكر وجه الاستبعاد. أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرِفْتُمْ كُلَّ مَرْجٍ إِنَّكُمْ لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: «إنكم مبعوثون» بعد ما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟! هذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس، طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمتها، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات، وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بالله وبرسله، وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي: ما هي، إلا هذه الحياة الدنيا، نموت ونحيا. فأمر الله رسوله، أن يرد قولهم ويطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام فقال: ﴿عَلَيْهِ الْعَيْبُ﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيب عن علمه ﴿وَمِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ. فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم^(١) ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، صَدَقُوا اللَّهَ، وَصَدَقُوا رُسُلَهُ تَصْدِيقًا جَازِمًا وَتَكْوِيلًا أَصْلَحَ لِحَيَاتِهِمْ تَصْدِيقًا لِإِيمَانِهِمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لِدُنُوبِهِمْ، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب﴾ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ﴾ أي: سعوا فيها كفراً بها، وتعجيراً لمن جاء بها، وتعجيراً لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم لأبدانهم، وقلوبهم.

(٦) ﴿وَيُرَى الَّذِينَ أَوَّلُوا أَلْعَلَّ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق أي: الحق منحصراً فيه، وما خالفه وناقضه

فتجرأ عليه وقال ما قال، ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟﴾ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون.

وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم، في صد الناس عنه؛ فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم - يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعالم أن يلتفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ. ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتهم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن «ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب. وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فأروا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى.

ثم نبههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فأروا من قدرة الله فيهما، ما يهر العقول، ومن عظمتها ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيهما من المخلوقات، أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذاك خبر غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إِنْ شَأْ خَفِيفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فتعاقبكم أشد العقوبة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: خلق السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات ﴿لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ﴾.

فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات، نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة.

(١٠، ١١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ

الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَىٰ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٤٢٩
أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٤٣٠
أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن شَأْ خَفِيفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ٤٣١
لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ ٤٣٢
وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ٤٣٣
أَن أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَرِّ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٣٤
وَلَسَيَمِيزُ الرِّيحُ عُذُوهَا شَهْرًا وَوَحْشًا شَهْرًا وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجَنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ذُقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ٤٣٥
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِّن مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقَدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَل دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ٤٣٦
فَلَمَّا أَفْضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خِرَ تَيْتَ الْجَنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ٤٣٧

وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ٥ أَن أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَرِّ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٦ أي: ولقد منّا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والتَّعَمُّدَ الدِّينِيَّةَ والدُّنْيَوِيَّةَ. ومن نَعَمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال؛ والحيوانات من الطيور، أن تُؤَوَّبَ معه، وتُرْجَعَ التَّسْبِيحَ بحمد ربها مجاورة له.

وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات، تتجاوب بتسبيح ربها، وتمجيد، وتكبيره، وتحميد، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء، أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رَجَعَ التَّسْبِيحَ والتَّهْلِيلَ والتَّحْمِيدَ بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل مَنْ سمعه من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعًا له.

ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، لعمل الدروع السباغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حلقًا، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحًا، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

(١٢-١٤) ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَواحُهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِبِ مِّنْ يَّعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَذَّكَّرُ بِهِ مِنْ بِرِّهِمْ عَنْ أَمْرِنَا نُدُفِعُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَنْشِيلٍ وَجَنَّانٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان، عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جدًا، في مدة يسيرة، ففسر في اليوم مسيرة شهرين.

﴿غُدُوهاً شَهْرٌ﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿وَرَواحُهاً شَهْرٌ﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب، في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضًا الشياطين والجن، لا يقدر أن يستعصوا عن أمره، ﴿وَمِنَ الْجِبِ مِّنْ يَّعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَذَّكَّرُ بِهِ مِنْ بِرِّهِمْ عَنْ أَمْرِنَا نُدُفِعُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وأعمالهم^(١)، كل ما شاء سليمان عملوه ﴿وَمِنَ مَّحْرِبٍ﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة.

﴿وَتَنْشِيلٍ﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتيان صنعتهم، وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان ﴿وَجَنَّانٍ كَلْجَوَابٍ﴾ أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ﴿وَوَقُدُورٍ﴾ يعملون له قدورًا راسيات لا تزول عن أماكنها من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله، لأن المِنَّة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم ﴿شُكْرًا﴾ لله على ما

أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النقم.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقارًا إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصونها عن صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام، كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات. فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وائتأ على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حيًا، وهابوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى بادت وسقطت فسقط سليمان - عليه السلام - وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلوا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه.

(١٥-٢١) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِّنْ رَّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمَا جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ ۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا فَرْى ظَهْرَهُ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِسَ ظَنُّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ۝ سَبَأٌ قَبِيلَةٌ مَّعْرُوفَةٌ فِي أَدْنَى الْيَمَنِ، وَمَسْكَنُهُمْ بَلَدٌ يُقَالُ لَهَا «مَأْرَبٌ».

ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ

(١) كذا في ب، وفي أ: وأعماله.

لَسِيْلٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ۖ أَي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿ءَايَةٌ﴾ .

والآية هنا: ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النعم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتبه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًا محكمًا، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتبه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساطينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغَلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه، التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقاتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ .

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم، إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها [قرى صنعاء، قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها] الشام - هبأ لهم من الأسباب، ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة يحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: [سيرا] مقدراً يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿لِيَالِيٍّ وَآيَآمَاءٍ آمِينَ﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن آمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن المُنعم، وعن عبادته، ويطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً.

﴿وَوَلَّكُمُوهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم، فأبادهما عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جنتاتهم، وخرَّب بساطينهم.

فتبدلت تلك الجنتان ذات الحقائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثَلٍ﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقفاً ﴿خَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ

سورة سبأ

٤٣٠

سورة سبأ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِنْ رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثَلٍ خَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَآيَآمَاءٍ آمِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِسُ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ فَلْيَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكَ وَمَالَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

قَلِيلٍ ۖ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ﴾ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا مَنْ كفر بالله ويطر النعمة.

فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسماراً للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ» فكل أحد يتحدث بما جرى لهم.

ولكن لا يتنفع بالعبارة فيهم إلا مَنْ قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صَبَّارٌ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى يُقَرُّ بها ويعترف، ويشتي على مَنْ أولاهها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة، جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن مَنْ فعل مثلهم، فُعل به كما فعل بهم. وأن شكر الله تعالى حافظ

أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعوانًا للمالك، ووزراء له، فدعائهم يكون نافعا، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: الله تعالى الواحد القهار ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿مِنْ ظَهْرٍ﴾ أي: معاون وزير، يساعده على الملك والتدبير.

فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْزَكَ لَهُمْ﴾. فهذه أنواع العلاقات، التي يتعلق بها المشركون بأناداهم وأوثانهم من البشر والشجر وغيرهم، قطعها الله وبَيَّن بطلانها تبينًا حاسمًا لمواد الشرك، قاطعًا لأصوله.

لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان مَنْ يدعوهُ [غير الله]، لا مالكا للنفع والضرر، ولا شريكا للمالك، ولا عونًا وظهيرًا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء وهذه العبادة، ضلالًا في العقل، باطلة في الشرع.

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فبيَّن الله بطلانه، وعدمه، وبَيَّن في آيات أخر ضرره على عابديه^(١)، وأنه يوم القيامة، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ومأواهم النار ﴿وَإِذَا خُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول، بزعمه^(٢) أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر، والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة مَنْ ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدوله وهو الشيطان. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور.

ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك

(١) في ب: ضررها على عابديه. (٢) في النسختين: بزعمهم، ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

للنعمة، دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدق عليهم إبليس ظنه، حيث قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُفَوِّنَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. وهذا ظن من إبليس، لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأتيه خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين، إلا مَنْ استثنى.

فهؤلاء وأمثالهم، ممن صدق عليه إبليس ظنه، ودعاهم وأغواهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيضًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

ويحتمل أن قصة سبأ، انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل مَنْ اتبعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ أي: لإبليس ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلط، وقهر، وقسر على ما يريد منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم.

﴿لِيَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف مَنْ كان إيمانه صحيحًا، يثبت عند الامتحان والاختبار، وإلقاء شبه الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزول بأقل داع يدعوهُ إلى ضده، فالله تعالى جعله امتحانًا، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهما إياها كاملة موفرة.

(٢٣، ٢٢) ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْفُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۝ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْزَكَ لَهُمْ حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزمًا لهم بعجزها، ومبينًا لهم بطلان عبادتها: ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعتموهم شركاء لله، إن كان دعائكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه.

فإنهم ليس لهم أدنى ملك ف ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْفُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمت ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿مِنْ شِرْكٍ﴾

باطل، وأن ما قال الله، وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته. ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو، وتدفع له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركون، وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفرع فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرقوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمتهم وجلاله - أن الملائكة الكرام، والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه، فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

(٢٧-٢٤) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَابَّأَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هَذِي أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَرَأَيْي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم لا بد أن يقرؤا أنه الله.

ولئن لم يقرؤا ف ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول. فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، وينبت لكم النبات، ويفجر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها، لنفعمكم ورزقكم، فلم تعبدوا معه من لا

يرزقكم شيئاً، ولا يفيدكم نفعاً؟.

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هَذِي أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم على الهدى، مستعلية عليه، أو في ضلال مبين، منغرة فيه، وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق، واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه، وبطلان ما عليه خصمه.

أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة، عندنا وعندكم، ما به يعلم علماً يقيناً لا شك فيه، من المحق منا، ومن المبطل، ومن المهتدي ومن الضال؟ حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه.

فإنك^(١) إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق، لسائر المخلوقات المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم، وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم، خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال وكل جلال وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور، لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها، ولا لمن عبدها، نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلانون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله.

فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده. تبين^(٢) لك أي الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: كل منا ومنكم، له عمله، أنتم لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق وسلوك طريق الإنصاف.

ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق،

(١) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط. (٢) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣١

سُورَةُ سَبَأٍ

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْتَعِشُّ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَوَرَّتْ عَنَّا الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكَبرُوا أَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾

لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجباً لرد دعوته.

فكما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا ظلم منهم، فأى ملازمة بين صدقه، وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو جاء قومًا يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو يتنهر الفرصة منهم ويعد لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم، فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟.

هذا، والمخير يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي

فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويجنب الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصمين أعدل العادلين.

ولهذا قال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُعَبُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ﴾ الآية ﴿وَمَا يَسْمِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين ألحقتهم بزعكم الباطل بالله ﴿شُرَكَاءَ﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو.

﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء فكل ما سواه، فهو مقهور مسخر مدبر.

﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي اتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده، وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به، واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى^(١) بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه، مشتمل على الحكمة؟!.

(٢٨-٣٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا يبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم

(١) كذا في ب، وفي أ: يكفي، ولعل الصواب ما أثبت.

لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره، بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!

﴿قُلْ﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه - : ﴿لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِزُّونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْقُدُونَ﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

(٣١-٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَكْنَا إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِجْعٌ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَيْنَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب، لا بد من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنك لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع ويرجع بعضهم إلى بعض القول.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ولكنكم خلّتم بيننا وبين الإيمان، وزيتتم لنا الكفر [ان] فبقيناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك، أن يكون العذاب على الرؤساء، دونهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم ﴿بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَيْنَ﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مهوورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبّرتموه من المكر في الليل والنهار، إذ تحسّنون لنا الكفر، وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقذحون في الحق، وتهجنونه، وترعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا، وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وفتنتونا.

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَيْنَ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا أَنْتُمْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ بِأَلْيَ تَقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، [وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سرّاً في أنفسهم، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم.

وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهراً. ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَوْ أَتَخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الآيات ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يغلون كما يغل المسجون، الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ الآيات.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقالة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

(٣٤-٣٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا

كَانُوا يَعْبُدُونَ ○ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ○ قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ○ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه، من الملائكة ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ الله ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدهم: ﴿أَهْلُولَاءِ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ﴾ فترأوا من عبادتهم.

و ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ أي: تنزيها لك وتقديسا، أن يكون لك شريك أو ند ﴿أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ﴾ فنحن مفقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟! ولكن هؤلاء المشركون ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين يأمرهم^(١) بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك.

وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العادة الطاعة، كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ بِالْحَقِّ إِذْ أَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُمْ لَكُفْرٌ عَظِيمٌ ○ وَإِنْ عَصَوْهُ يَخْلُقْ لَكُمْ آلِهَةً مِمَّا يَخْتَارُ﴾.

﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقون للجن، منقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد. فلما تبرأوا منهم، قال تعالى [مخاطبا] لهم: ﴿قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والمعاصي - بعدما ندخلهم النار - ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فالיום عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب، من عدم الهرب من أسبائها.

(٤٣-٤٥) ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَىٰ عِلِّيِّهِمْ إِنَّا بِمَا يَصْنَعُونَ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوا عَنْكَ كَانُ يَعْبُدُوا آبَاءَهُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمَقَرَّةٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ شَيْئٌ ○ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ○ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين، عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءت لهم، وميثم وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما

يَمَّا أُرْسِلَتْ بِهِ، كَفَرُوا ○ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ○ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَ رَبِّي إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَغْفِي عَنْهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ○ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ○ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ○ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسلهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخروا بها.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ أي: أولا، لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن يسطر الرزق وتضييقه ليس دليلا على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليست الأموال والأولاد بالتقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله.

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعت جدا، ساكنين فيها، مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتريات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها. وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا، ولرسلنا، والتكذيب، ف﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

ثم أعاد تعالى أنه ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ المستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾ فلا تنوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿فَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أكرمكم بها.

(٤٠-٤٢) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُولَاءِ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ﴾

يَنْبَغِي، وَيَكْذِبُونَ مَنْ جَاءَهُمْ بِهَا وَيَقُولُونَ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكَ عَنْمَا كَأَن بَعْدَ آبَائِكُمْ﴾ أَي: هَذَا قَصْدُهُ، حِينَ يَأْمُرُكُمْ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، لِتَرْكُوا عَوَائِدَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ تَعْظُمُونَ وَتَمْشُونَ خَلْفَهُمْ، فَارْجِعُوا الْحَقَّ بِقَوْلِ الضَّالِّينَ، وَلَمْ يَورِدُوا^(١) بَرَهَانًا وَلَا شَبْهَةً.

فأي شبهة إذا أمرت الرسل بعض الفضالين باتباع الحق، فادّعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟

وهذه السفاهة، ورد الحق بأقوال الضالين، إذا تأملت كل حق رد، فإذا هذا مآله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة، والصابئين، والملحدين في دين الله المارقين، فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به
الرسول، طعنوا بعد هذا بالحق ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِّمُقَرَّرَاتِ﴾
أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَيِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾
 أي: سحر ظاهر بين لكل أحد، تكذيباً بالحق، وترويحاً على
 السفهاء.

ولمَّا بَيَّنَّ ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً عن أن تكون حجة، ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ حتى تكون عمدة لهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ قُلُوكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله، ما يدفعون به ما جئتهم به، فليس عندهم علم، ولا إثارة من علم.

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين [قبلهم] فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا تُلْقُواْ أَيُّ مَا بَلَغَ هَؤُلَاءِ الْمُخَاطَبُونَ مَاءَ آيِنَهُمْ﴾ ﴿فَكَذَّبُواْ﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رُسُلِيْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم، وعقوبتي إياهم.

قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالخسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء، فاحذروا يا هؤلاء المكذوبون، أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم.

(٤٦-٥٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْيَافٍ تُبَدِّلُونَ ٥٠ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ثُمَّ نَفَّكَرُوا بِبَصَائِحِهِمْ مِنْ حَقِّهِ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٥١﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جِيعَانُهُمْ يَقُولُ الْمَلَكُ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسَانِمْ دُونَهُمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آيَاتُكَ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُثُنِي ﴿٤٣﴾ وَمَاءَ آيِنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِىً وَفِرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٧﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْعُتُوبِ ﴿٤٩﴾

عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْفِئُ بِالْحَقِّ عِلْمَ
الْغُيُوبِ ۝ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ۝ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَا ضَلَلْتُ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ ۝ أَيُّ ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ، لهؤلاء المكذِّبين
المعاندين، المتصدِّين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء
به: ﴿إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بَوَاحِدَةً﴾ أَي: ببخلة واحدة، أشير عليكم
بها وأنصح لكم في سلوكها. وهي طريق نصف، لست
أدعوكم بها إلى اتباع قلبي، ولا إلى ترك قولكم من دون
موجب لذلك، وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خُفٍّ﴾ أَي: تهضوا
بهيمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله،
مجتمعين، ومتباحين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل
واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفردى، استعملتم فركم وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم: هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر

(۱) کذا فی ب، وفي أ: ولم یردوا.

يُذِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ۖ أَي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدىء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلal، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبيّن لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلal، ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعدٍ إلى غيره.

﴿وَإِنْ أَهْدَيْتُ فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي وَحَوْلِي وَقُوتِي، وَإِنَّمَا هِدَايَتِي بِمَا يُؤْتِي إِلَى رَحْمَةٍ﴾ فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري، إن ربي ﴿يَسْمِعُ﴾ للأقوال والأصوات كلها ﴿قَرِيبٌ﴾ ممن دعاه وسأله وعبد.

(٥٤-٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا ءَأَمَّا إِلَهُكُمْ أَنَّيَ لَهُمُ النَّاسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرسول، ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب، فليس لهم عنه مهرب ولا فوت ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: ليس بعيداً عن محل العذاب، بل يؤخذون ثم يقذفون في النار.

﴿وَقَالُوا﴾ في تلك الحال: ﴿ءَأَمَّا﴾ بالله وصدقنا ما به كذبنا ﴿وَلَكِنْ﴾ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ النَّاسُ﴾ أي: تناول الإيمان ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان، لكان إيمانهم مقبولاً.

ولكنهم ﴿كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ﴾ أي: يرمون ﴿بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ بقذفهم الباطل، ليدحضوا به الحق، ولكن لا سبيل إلى ذلك، كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلى إصابة الغرض، فكذلك الباطل، من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه، فإذا برز الحق وقاوم الباطل قمعه.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الشهوات واللذات،

لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟.

فلو قبلوا هذه الموعظة، واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئاته^(١) ليست كهيئات المجانين، في خفتهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجمل الحركات، وهو أكمل الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً، وقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب^(٢) عن مساوئ الأخلاق ورذائلها. إذا تكلم، رमقته العيون هيبه وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعريبتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم!!!

فكل من تدبر أحواله؛ ومقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده، أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وَمَنْ مانع للنفوس آخر، من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته، فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: محيط علمه بما أدعو إليه، فلو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن ﴿يَقْدِفُ يَأْتِي﴾ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؛ لأنه بين من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب، من الوسوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك، ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، وبيّن لها لهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه ﴿وَمَا

والأولاد، والأموال، والخدم والجنود، وقد انفردوا بأعمالهم، وجاءوا فرادى كما خلّفوا، وتركوا ما خولوا وراء ظهورهم.

﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ من الأمم السابقين، حين جاءهم الهلاك، حيل بينهم وبين ما يشتهون، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ﴾ أي: محدث الريبة وقلق القلب، فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعبثوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ - والله الحمد والمجّة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل، وبه الثقة.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١، ٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مثنًى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يمدح الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة، على خلقه السماوات والأرض، وما اشتملتا عليه من المخلوقات، لأن ذلك دليل على كمال قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته، وبديع حكمته، وإحاطة علمه.

ولما ذكر الخلق، ذكر بعده ما يتضمن الأمر، وهو: أنه ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا﴾ في تدبير أوامره القدريّة، ووسائط بينه وبين خلقه، في تبليغ أوامره الدينيّة.

وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا، ولم يستثن منهم أحدًا، دليل على كمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله، ما جعلهم الله موكلين فيه، ذكر قوتهم على ذلك، وسرعة سيرهم، بأن جعلهم ﴿أُولَى أَجْنَحٍ﴾ تطير بها، فتسرع تنفيذ ما أمرت به ﴿مثنًى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ﴾ أي: منهم من له جناحان، وثلاثة، وأربعة، بحسب ما اقتضته حكمته، ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض، في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة النعمات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى تأتي على ما

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿٤١﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٤٢﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ أَقْبَرَتْ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤٣﴾ وَقَالُوا أَمْ نَأْتِيهِه وَأَنْتَ لَهُمُ التَّنَاسُتُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٥﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ﴿٤٦﴾

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مثنًى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦ يَتَنَبَّأُ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ ٧

يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

ثم ذكر انفراده تعالى بالتدبير والعطاء والمنع فقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ﴾ من رحمته عنهم ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فهذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

(٣، ٤) ﴿يَتَنَبَّأُ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ ٥ وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ رُجْعَ الْأُمُورِ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقيادًا، فإن ذكر نعمته تعالى، داع لشكره، ثم نبههم على أصول النعم، وهي: الخلق والرزق فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

ولما كان من المعلوم، أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله،

﴿كَذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم مطراً، كما

والمعنى: أن طول العمر وقصره، بسبب وبغير سبب، كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿فِي كِتَابٍ﴾ حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحيأها سيحيي الموتى، وتقلل الآدمي في تلك الأطوار.

فالذي أوجده ونقله، طبقاً بعد طبق، وحالاً بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها، وجليلها، الذي في القلوب، والأجنّة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب، فالذي كان هذا [نعته]^(١) يسيراً عليه، فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم، ومعادهم.

(١٢-١٤) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْسُونَهَا وَرَىٰ أَلْفَاكٍ فِيهِ مَوَازٍ لِّتَنْغَرُوا مِنْ فُضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن فِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هذا إخبار عن قدرته، وحكمته، ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهن، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً، سائغاً شربها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض، بروائح ما يموت في البحر، من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلِّ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في البحر، أن سخره الله (١) هنا جاءت كلمة (نعته) في الهامش، ولم يتضح لي محلها بدقة، والأقرب أنه هنا.

ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم فتحي الأجساد والأرواح من القبور ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

(١٠) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْوَءُ﴾ أي: يا مَنْ يريد العزة، اطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسييح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه، بين الملا الأعلى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي تُرفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفع بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة.

﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْوَءُ﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

(١١) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، ونقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: لم يزل ينقلكم طوراً بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكراً يتزوج أنثى، ويراد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وكذلك أطوار الآدمي كلها، بعلمه وقضائه.

﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: عمر الذي كان معمرًا عمراً طويلاً ﴿إِلَّا﴾ بعلمه تعالى، أو وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه، لولا ما سلّكه من أسباب قصر العمر، كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وَلَسْتَ بِمَعْلُومٍ﴾. **فَضْلُهُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**.

ومن ذلك أيضًا إيلاجه تعالى الليل بالنهار، والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم، وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم.

وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، الضياء والنور والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفف^(١)، وغير ذلك مما هو من الضروريات، التي لو فقدت للحق الناس الضرر.

وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: كل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتشرت النجوم.

فلما بين تعالى ما بين من هذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه، قال: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها، هو الرب المألوه المعبود، الذي له الملك كله.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يملكون شيئًا، لا قليلًا ولا كثيرًا؛ حتى ولا القطمير الذي هو أحق الأشياء، وهذا من تنقيص النفي وعمومه، فكيف يدعون، وهم غير مالكين لشيء، من ملك السماوات والأرض؟.

ومع هذا ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا﴾ لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿وَلَوْ سِئُوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون شيئًا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ أي: يتبرأون منكم؛ ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ﴾.

﴿وَلَا يَنْفَعُكَ مِنْهُ خَيْرٌ﴾ أي: لا أحد ينفعك؛ أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به؛ كأنه رأيي عين، فلا تشك فيه ولا تتمر، فتضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود،

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَتَبْنِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سِئُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يَنْفَعُكَ مِنْهُ خَيْرٌ ﴿١٤﴾ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

الذي لا يستحق شيئًا من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطله متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئًا.

(١٥-١٨) ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٦﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [بها] لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات، والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة. فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والنعم، شيء.

(١) كذا في ب، وفي أ: وتخفيف ما يخفف.

فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والده وأقاربه.

﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ بِهِم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتفنون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها، وأركانها وواجباتها، وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن زكى نفسه بالتزكى من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر، من الحقد والحسد، وغيرهما من مساوئ الأخلاق، فإن تركيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء.

﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلاق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

(١٩-٢٤) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ○ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ○ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ○ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ○ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ○ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ○ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى ○ فاقد البصر ○ وَالْبَصِيرُ ○ وَلَا الظُّلُمَاتُ ○ وَلَا النُّورُ ○ وَلَا الظِّلُّ ○ وَلَا الْحَرُورُ ○ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ ○ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾. فكما أنه من المتقرر عندكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإيثار.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكرب والشدائد، فلولا دفعه عنهم، وتفرجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد. فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربة وأجناس التدبير.

فقراء إليه في تألههم له وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم، وأحوالهم.

فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا. فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا.

ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفه عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتر إلى شيء مما يفتر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت جلال.

ومن غناه تعالى، أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها غاليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه، [الغنى في حمده].

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع الله منكم، ويكون في هذا، تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك، ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، ولا معجز له. ويدل على المعنى الأخير ما ذكره بعده في قوله: ﴿وَلَا نُزِرْ وَأَنزَرَهُ وَنَزَّ أَهْرَاقُ﴾ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد، ﴿وَأَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها، ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فإنه لا يحمل عن قريب،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٧

سُورَةُ فَاطِرٍ

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَافُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّن تَبُورَ ﴿٣٠﴾ لِيُؤْفِقَهُمُ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣١﴾

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفة، والنباتات المتنوعة، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض، تجدها جبلا مشتبكة، بل جبلا واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمرة، وفيها غرابيب سود أي: شديدة السواد جداً.

ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدره الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً ما هو معلوم.

وذلك أيضاً دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث من

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ○ أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، واندراس من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك، بعقاب الله العاجل والآجل، ولست بيدع من الرسل.

فما ﴿مِّنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

(٢٦، ٢٥) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ○ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ○ أي وإن يكذبك أنها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أول رسول كُذِّبَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: الماضي في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فصيحكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

(٢٨، ٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ○ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته ويدفع حكمته.

في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة، لا تحدث له التذكر، وإنما ينتفع بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكل مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات، ﴿عَفُوٌّ﴾ لذنوب التائبين.

(٢٩، ٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبْشُرَ ۖ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتبعتها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عمَّ الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في جميع الأوقات.

﴿يَرْجُونَ﴾ [بذلك] ﴿تَجَرَّةً لَّنْ تَبْشُرَ﴾ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون^(١) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: أجور أعمالهم على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ زيادة عن أجورهم ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

(٣١-٣٥) ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۖ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۖ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

حَرِيرٌ ۖ وَقَالُوا لَلْمَعْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۖ الَّذِي أَتَانَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تتبرموا منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسل، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحداً أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فيعطي كل أمة، وكل شخص، ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً وأزكاهم أنفساً، اصطفاها الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي [التي] هي دون الكفر، ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثّر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاها الله تعالى، لوراثته هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم. فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب. لأن المراد بوراثته الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٨

سُورَةُ فَاطِرٍ

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٤١﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

بحيث لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

(٣٧، ٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٤٢﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسالهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشدّة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآثات واللحظات.

وقوله: ﴿يَاذُنِ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لثلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثة هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد.

والعدن «الإقامة» فجنات عدن أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الحلي الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيُحَلَّوْنَ فِيهَا لُؤْلُؤًا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

﴿وَيُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وكملت لذتهم ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم.

فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا؛ فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي أَهْلَنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها.

وذلك الإحلال ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولوا فضله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة،

خلقه، والحرمان.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ يَدَيِّ مَتَّ بَلْ إِنْ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يقول تعالى مُعْجِزًا لآلهة المشركين، ومبينًا نقصها، وبطلان شرهم من جميع الوجوه ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني عن شركائكم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، ف ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحراً، أم خلقوا جبالات، أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جمادات؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء، هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

فإذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم، ودعوتهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً متنف، فلهذا قال: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان ﴿فَهُمْ﴾ في شرهم ﴿عَلَىٰ يَدَيِّ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟.

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ. ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والتقلي، قد دلّا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذو العقول والذكاء والفطنة؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِنْ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمانتي متأها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر، والشرك الباطل المضمحل.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها.

فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَاءً﴾ أي: دهرًا وعمراً ﴿يَذْكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ أي: يتمكن فيه مَنْ أراد التذكر من العمل، متعانك في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا^(١) لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتبينوا إلينا وترجعوا إلينا.

فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تدف فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتم الرجعة.

هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿تَذَوُّوْا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور، من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كل ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

(٣٩) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته، ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون؛ فَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثم وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له، وبغضه إياه، وأي عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟.

﴿وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهلهم وأعمالهم ومنالهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والخزي عند الله وعند

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٩

سُورَةُ فَاطِرٍ

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا ثَقِيلًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أَمْرَاتِنَهُمْ كُنُوزٌ لَهُمْ عَلَى بَنَاتٍ مَتَّ بَلْ إِنْ يَدْعُوا لِلظَّالِمِينَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ إِلَّا آغْرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنْ اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿إِنْ اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما. ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفذ والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه، وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهن، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

(٤٢، ٤٣) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أي: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالإيمان الغليظة: ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا تَفُورًا﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد. وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ الذي مقصوده، مقصود سيئ، وماله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، فكمرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات، وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيعهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأَوَّلِينَ، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل مَنْ سار في الظلم والعناد، والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فَلْيَتَرَقَّبْ هَؤُلَاءِ، ما فعل بأولئك.

(٤٤، ٤٥) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ وَلَوْ يَوَاضَعُ اللَّهُ بِصِيرًا ﴿٤٥﴾ يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان، للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشد قوة، وعمرؤا الأرض^(١) أكثر مما عمرها هؤلاء، فلما جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوتهم، ولم تنغ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيتته.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

ثم ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب

(١) كذا في ب، وفي أ: وعمروها.

الجرائم والذنوب فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة.

﴿وَلَكِنْ يَمْهَلُهُمْ تَعَالَى وَلَا يَهْمِلُهُمْ﴾ و ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَهُ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر.
تم تفسير سورة فاطر، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة يس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٢) ﴿يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِيهِمْ مَقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢﴾ هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه: وضع الأمر والنهي في الموضع ^(١) اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلهاما اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

ومن حكمة هذا القرآن، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وإنك من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل، وأيضاً فجت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية.

وأيضاً فمن تأمل أحوال ^(٢) المرسلين، وأوصافهم، وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم، عرف أنك من خيار المرسلين، بما فيك من الصفات الكاملة، والأخلاق الفاضلة.

ولا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه، [وهو] رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤٤٠
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُمْسِكُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ٤٥
سُورَةُ الْيُسُفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِيهِمْ مَقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢

وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم، لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ معتدل موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة، المصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة المزيكة للنفس المطهرة للقلب، المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول ﷺ، ووصف دينه الذي جاء به، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام، على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه، من رسالة رسوله ما نبهنا عليه، وأشرنا

(١) في ب: في المحل. (٢) كذا في ب، وفي أ: أصول.

إشارة لطيفة لسلوك طريقه.

وهذا الصراط المستقيم ﴿تَزِيلُ الْعَزِيزُ الْحَجَرِ﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته.

ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز، الرحيم.

فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال:

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَذَرُ أَبَاؤُهُمْ فُهِمٌ غَفِلُونَ﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمة، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فتنعمة الله به على العرب خصوصاً، وعلى غيرهم عموماً.

ولكن هؤلاء الذين بُعِثَتْ فيهم لإنذارهم، بعدما أنذرتهم انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عُرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْقَبِهِمْ أَغْلًا﴾ وهي جمع «غل»، و «الغل» ما يغل به العنق، فهو للعتق بمنزلة القيد للرجل.

وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١) عظيمة، قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت رؤوسهم إلى فوق ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافعوا رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً؟!.

والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾ أي: إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [أي: من قصده اتباع الحق وما ذكر به

﴿وَحَتَّى الرَّحْمَنِ بِالْعِيبِ﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَفْوٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرِ كَرِيمٍ﴾ لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ﴾ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم.

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد، وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيهِ عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة، أو صدقة أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر، ولهذا «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَعْلَعُهَا وَزَرْهَا وَوزر مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله، بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

(١٣-٣٠) ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ لَمْ مَثَلًا مِّنَ الْقُرَىٰ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ إلى آخر القصة. أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله، وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك، وما أشبهه من باب التكلف، والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به، أن طريق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤١

الْقُرْآنِ

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
 إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ
 الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
 إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
 قَالُوا إِنَّا نَطَّيِّرُكُمْ بِكَيْدِنَا لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَتَطَّيَّرُكُمْ
 مَعَآذُ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
 يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْفِقُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ
 أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا فَطَرَنِي وَالْيَهُ تَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾
 يُرِيدُنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُنْقُدُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ إِيَّايَ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا
 رَيْبُكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي
 يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تركو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل، أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة، إلا تشويش الذهن، واعتياد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ من الله تعالى يأمرهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿١٥﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿١٦﴾ أي: قويناهما بـثالث، فصاروا ثلاثة رسل، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم ﴿١٧﴾ فَقَالُوا ﴿١٨﴾ لِهِمْ: ﴿١٩﴾ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٢٠﴾ فأجابوهم بالجواب، الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل.

﴿٢١﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿٢٢﴾ أي: فما الذي فضلكم علينا، وخصكم من دوننا؟ قالت الرسل لأمرهم: ﴿٢٣﴾ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿٢٤﴾

﴿٢٥﴾ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴿٢٦﴾ أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿٢٧﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٢٨﴾ فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿٢٩﴾ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٣٠﴾ فلو كنا كاذبين، لأظهر الله ^(١) خزينا، ولبادرنا بالعقوبة.

﴿٣١﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٢﴾ أي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح، ومن سرعة العذاب، فليس إلينا، وإنما وظيفتنا - التي هي البلاغ المبين - قمنا بها، وبينناها لكم، فإن اهتديتم فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتكم فليس لنا من الأمر شيء.

فقال أصحاب القرية لرسولهم: ﴿٣٣﴾ إِنَّا نَطَّيِّرُكُمْ بِكَيْدِنَا ﴿٣٤﴾ أي: لم نر على قدمكم علينا، واتصالك بنا، إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة يُنعم الله بها على العباد وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة: قد قدم بحالة شر، زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموها بها!! ولكن الخذلان وعدم التوفيق، يصنع بصاحبه أعظم مما ^(٢) يصنع به عدوه.

ثم توعدهم فقالوا: ﴿٣٥﴾ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَرْجَمُكُمْ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَرْجَمُكُمْ أَشْنَعُ الْقَتْلَاتِ ﴿٣٦﴾ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَرْجَمُكُمْ أَشْنَعُ الْقَتْلَاتِ ﴿٣٧﴾

فقلت لهم رسولهم: ﴿٣٨﴾ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ﴿٣٩﴾ وهو ما معهم من الشرك والشر، المقضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع

المحسوب والنعمة، ﴿٤٠﴾ إِنْ دُكِّرْتُمْ ﴿٤١﴾ أي: بسبب أننا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم، ﴿٤٢﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٤٣﴾ متجاوزون للحد، متجرهون في قولكم، فلم يزدكم [دعاؤهم] إلا نفوراً واستكباراً.

﴿٤٤﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴿٤٥﴾ حرصاً على نصيح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم فقال [لهم]: ﴿٤٦﴾ يَنْفِقُونَ أَنْفِقُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٧﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة.

ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿٤٨﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا ﴿٤٩﴾ أي: اتبعوا من نصيحتكم نصيحاً يعود عليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم، ولا أجراً على نصحه لكم، وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.

بقي [أن يقال: فلهذا يدعو ولا يأخذ أجرة، ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿٥٠﴾ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٥١﴾ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا

(١) كذا في ب، وفي أ: لظهر خزينا. (٢) كذا في ب، وفي أ: ما.

الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!

(٣١، ٣٢) ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وإن كل لما جيع لدينا محضرون يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى، وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها.

وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويعثنهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل، الذي لا يظلم مثقال ذرة ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٣٣-٣٦) ﴿وَأَيُّهَا هُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِنْ تَحْيِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿وَأَيُّهَا هُمُ﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ أنزل الله عليها المطر، فأحيها (٢) بعد موتها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّتٍ﴾ أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾.

جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل، والأعناب ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ قوتاً وفاكهة، وأدماً ولذة ﴿وَو﴾ الحال أن تلك الثمار ﴿مِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ وليس لهم فيه صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم [لطبخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار، غير محتاجة لطبخ ولا شيء، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ من ساق لهم هذه النعم،

بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.

فكان قومه لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لاثمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده فقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وما المانع لي من عبادة مَنْ هو المستحق للعبادة؛ لأنه الذي فطرني، وخلقني ورزقني، وإليه مال جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم، فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن يُعبد، ويشئ عليه ويمجد، دون مَنْ لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا عطاءً ولا منعاً، ولا حياةً، ولا موتاً، ولا نشوراً ولهذا قال:

﴿أَتُخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لََّا تَغْنَى عَنْ شَفَعَتِهِمْ﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا تغني شفاعتهم عني شيئاً، ولا هم ينقذون من الضر الذي أَرادَه الله بي.

﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي: إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لَنُفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فجمع في هذا الكلام، بين نصحهم، والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء والإخبار بتعين^(١) عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهراً، مع خوفه الشديد من قتلهم فقال:

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ فقتله قومه، لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به.

ف ﴿قِيلَ﴾ له في الحال ﴿أَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ﴾ فقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحده، وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَكَلِّتُ قَوًى يُعَلِّمُونَ﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رِيبِي﴾ أي: بأي شيء غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرّات: أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وَمَا أَتَيْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فنزل جنداً من السماء لإتلافهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله ﴿فَإِذَا هُمْ كَارِهُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك

(١) كذا في ب، وفي أ: بتعين. (٢) كذا في ب، وفي أ: فأصابها.

واسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم.

أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأنبث فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها لذيذ الثمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى، إنه على كل شيء قدير.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف كلها ﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده ﴿وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات، التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد.

ف سبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمي، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله، ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريد.

(٣٧-٤٠) ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ أُتِيلَ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرته منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اتيل سابق النهار وكل في فلك يسبحون. أي: ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ﴾ على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿أُتِيلَ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نزيل الضياء العظيم، الذي طبق الأرض، فنبذله بالظلمة، ونحلها محله ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأفطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [أي: دائماً تجرى لمستقر لها] قدره الله لها، لا تتعدها، ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة، بأكمل تدبير، وأحسن نظام ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة ﴿حَتَّى﴾ يصغر جداً فيعود ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: عرجون النخلة، الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً فشيئاً، حتى يتم [نوره] ويتسق ضياؤه.

﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر، والليل والنهار، قدره [الله] تقديراً لا يتعدها، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٣٩﴾ يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَعَايَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٤٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا يَأْكُلُونَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٤٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَعَايَةُ لَهُمْ أُتِيلَ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اتِيلَ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴿٥٠﴾

أي: في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل ﴿وَلَا أُتِيلَ سَابِقَ النَّهَارِ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه ﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر، وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمته أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة، والعلم في هذا الموضع.

(٤١-٥٠) ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ النَّشُورِ﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِمَا مَا يَرْكَبُونَ. وَإِنْ نَشَأْ نَعْرِفَهُمْ فَلَا صَرْخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ نَفْسِهِمْ إِنَّكُمْ لَأُنْتَهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَطْلَعُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْلَعَهُمْ إِنَّ شَرَّ آتٍ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصَةَ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ. أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعم، الصارف للنعم، الذي من جملة نعيمه ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال كثير من

الْمُشْحُونِ

٤٤٣

الْمُشْحُونِ

وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِقَهُمْ فَلَا صِرَاحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اطَّعِمُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا إِنَّا بَيْنَنَا وَمَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدٍ نَاهَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْ مَحْضُرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تَنْظِلُمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَنْجُزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها من الغرق، ولهذا [ينهم على نعمته عليهم، حيث أنجاهم مع قدرته على ذلك فقال: ﴿وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِقَهُمْ فَلَا صِرَاحَ لَهُمْ﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم، فيعانونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ مما هم فيه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ حيث لم نغرقهم، لطفًا بهم وتمنيًا لهم إلى حين، لعلهم يرجعون أو يستدركون ما فرط منهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأسًا، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، وفي إضافة الآيات إلى ربهم دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بيانًا.

المفسرين: المراد بذلك: آبائهم ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي: للموجودين من بعدهم ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي: من مثل ذلك الفلك، أي: جنسه ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية، وهذا الموضوع من أشكال المواضع علي في التفسير.

فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإلهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده.

وتم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية [بني] آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرًا للمعنى، تأباه فصاحة القرآن.

فإن أريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الإبل التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح.

إلا أنه يبقى أيضًا، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وآية لهم أننا حملناهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضوع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلاله كتاب الله، وبيانه التام من كل وجه، للأمر الحاضرة والماضية، والمستقبل، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى، ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم، بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن.

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم [صنعة] الفلك [البحرية]، والشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، [والمراكب البرية] مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوء ركبًا وأمتعة.

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿أَتَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿وَحَسَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ البعثة من القبور ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا يُحْضَرُونَ﴾ الأولون والآخرين، والإنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٥٥-٥٨) ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ۝ هُمْ فِيهَا فَكَّهُتُ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ [لما ذكر تعالى] أن كل أحد لا يجازى إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ أي: في شغل مفكه للنفس، مُلِدِّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه المتمنون.

ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات، كما قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ من الحور العين، اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان، وحسن الأخلاق ﴿فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: على السرر المزينة، باللباس المزخرف الحسن، ﴿مُتَكِئُونَ﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة، والطمأنينة، واللذة.

﴿هُمْ فِيهَا فَكَّهُتُ﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين، ورومان، وغيرها ﴿وَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

ولهم أيضاً ﴿سَلَامٌ﴾ حاصل لهم ﴿مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة، وسلامه عليهم، وأكد بقوله: ﴿قَوْلًا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

فلولا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح، والبهجة، والسرور، لحصل ذلك، فترجو

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم، في دينهم ودنياهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معارضين للحق، محتجين بالمشيئة: ﴿أَنْفِقُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة ليست حجة لعاصي أبداً، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر، واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم وقهراً.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك، فإنه [عن] قريب ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي: تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة.

وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا قليلة ولا كثيرة ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٥١-٥٤) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝ قَالُوا يَا بُولُتَانُ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا يُحْضَرُونَ ۝ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النفخة الأولى: هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور. فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأجداث والقبور، ينسلون إلى ربهم أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر.

وفي تلك الحال يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون: ﴿يَا بُولُتَانُ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أي: من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور.

فيجابون، فيقال [لهم]: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين.

ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

(٥٩-٦٧) ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ۝ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَإِنْ أَعْبُدْتُمْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ أَصَلَّوْا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿امْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم]: ﴿بَيْنِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأندرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أَنْ أَعْبُدْتُمْ﴾ بامثال أوامري وترك زواجري ﴿هَذَا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله، ترجع إلى هذين الأمرين.

أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف ﴿أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ أي: خلقًا كثيرًا، ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولبًا، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك.

فإذ أطعتم الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم بلقاءه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عيانًا، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿أَصَلَّوْا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ادخلوها على وجه تَصْلَاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله.

٤٤٤
﴿إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةَ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتُكْهَنُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ۝ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ۝ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَإِنْ أَعْبُدْتُمْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ أَصَلَّوْا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ۝ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفظيع، في دار الشقاء: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ بأن نجعلهم خرسًا، فلا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما عملوه، من الكفر والتكذيب ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة ﴿فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمست أبصارهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ إلى الأمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار، والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما تَمَّ إِلَّا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إِلَّا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إِلَّا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار.

وأشعارها وأصوافها أثناءً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يمتنعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لم يجدوا محضرون ﴿هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي^(١) اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها.

فإنها في غاية العجز ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرهم﴾ ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة، [والقدرة]^(٢)، فإذا استطاع يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فنقضي الاستطاعة ينفي الأمرين كليهما.

﴿وَهُمْ لَمْ يَجِدْوا محضرون﴾ أي: محضرون هم، وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلَهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ وما يغفلون؟ أي: فلا يحزنك، يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدرحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ وما يغفلون؟ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرنا شيئاً.

(٧٧-٨٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ وَصَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَلَيْسَ خَلْقُهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي خَلْقِي وَيُحْيِي رَمِيمٌ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فَسَبِّحْنَا الَّذِي يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الآيات الكريمات، فيها [ذكر] شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمراً

فإن شاء طمس أعينهم، وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

(٦٨) ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ من بني آدم ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ، حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن الآدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

(٦٩، ٧٠) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من جنس المحال أن يكون شاعراً؛ لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي يتعلّق بها الضالون على رسوله.

فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الأبواب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم اشتمال وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح. ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مبين لما يطلب بيانه، ولهذا حذف المعمول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلتة التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: حي القلب واعي، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية ﴿وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدُون بها.

(٧١-٧٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْهَا يَشْكُرُونَ﴾ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلّلها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم، وحمل أثقالهم، ومحاميلهم، وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفاء، ومن أوبارها

(١) كذا في ب وفي أ: الذي. (٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشترطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقيّة كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.

يفيده اليقين التام بوقوعه، وهو: ابتداء خلقه ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثَبِّنٌ﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق، من باب أولى.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق.

فسر هذا المثل [بقوله]: ﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان ﴿مَنْ يُعْطِيَ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت.

هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقته، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضرب هذا المثل.

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا بمجرد تصويره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة، إذا تصوره المتصور ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

هذا أيضاً دليل ثان من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات، وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم.

ثم ذكر دليلاً ثالثاً ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ فإذا أخرج [النار] اليابسة، من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادهما وشدة تخالفهما، فأخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

ثم ذكر دليلاً رابعاً فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على سعتهما وعظهما ﴿يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمَا﴾ أي: [أن] يعيدهم [بأعيانهم].

﴿بِكُلِّ﴾ قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها - كلها أثر من آثار خلقه وقدرته،

أَوَّلَ تَرَوُا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَكُونُ وَهُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٣﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٤﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٥﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْأُنسُ أَنْتَا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِيَ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٧﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٧٩﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمَا بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨١﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

فإعادته للأموات، فرد من أفراد [آثار] خلقه، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ نكرة في سياق الشرط، فنعلم كل شيء ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: في الحال من غير تمناع.

﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا دليل سادس، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له، وعبيد مسخرون ومدبرون، يتصرف فيهم بأقداره الحكيمية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية.

فإعادته إياهم بعد موتهم، لينفذ فيهم حكم الجزاء، من تمام ملكه، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من غير امتراء ولا شك، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك، فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس، فله [تعالى] الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

تفسير سورة الصافات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالصَّافَّاتُ صَفًّا ۝ فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا زَيْنَا أَلَمَّا يَزِينُ الْكَوَكِبِ ۝ وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَن حَفِظَ لِلْخَلْقَةِ فَلَنَجْجُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝ فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا ۝ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ ۝ هَذَا قِسْمٌ مِّنْهُ تَعَالَى بِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ، فِي حَالِ عِبَادَتِهَا وَتَدْبِيرِهَا مَا تَدْبِرُهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، عَلَى أَلُوْهِتِهِ تَعَالَى وَرَبُّوِيَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالصَّافَّاتُ صَفًّا﴾ أَي: صَفُوفًا فِي خِدْمَةِ رَبِّهِنَّ، وَهِنَّ الْمَلَائِكَةُ.

﴿فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا﴾ وَهِنَّ الْمَلَائِكَةُ، يَزْجُرْنَ السَّحَابَ وَغَيْرَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ وَهِنَّ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَتْلُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى. فَلَمَّا كَانُوا مُتَأَلِّهِينَ لِرَبِّهِنَّ، وَمَتَعَبِدِينَ فِي خِدْمَتِهِ، وَلَا يَعْصُونَهُ طَرَفَةَ عَيْنٍ، أَقْسَمَ بِهِمْ عَلَى أَلُوْهِتِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَأَخْلَصُوا لَهُ الْحُبَّ وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ، وَسَائِرَ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أَي: هُوَ الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالرَّازِقُ لَهَا، الْمُدَبِّرُ لَهَا، فَكَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رَبُّوِيَّتِهِ إِيَّاهَا، فَكَذَلِكَ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَلُوْهِتِهِ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرُرُ تَعَالَى تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَقْرَبَهُ أَيْضًا الْمُشْرِكُونَ فِي الْعِبَادَةِ، فَلْيَزِمِهِمْ بِمَا^(١) أَقْرَبُوا بِهِ عَلَى مَا أَنْكَرُوهُ.

وَحُصِّنَ اللَّهُ الْمَشَارِقُ بِالذِّكْرِ، لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْمَغَارِبِ، أَوْ لِأَنَّهَا مَشَارِقُ النُّجُومِ الَّتِي سَيَذْكُرُهَا، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا زَيْنَا أَلَمَّا يَزِينُ الْكَوَكِبِ ۝ وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْكَوَاكِبِ هَاتَيْنِ الْفَائِدَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: كَوْنُهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، إِذْ لَوْلَاهَا لَكَانَتِ السَّمَاءُ جُرْمًا مَظْلَمًا لَا ضَوْءَ فِيهَا، وَلَكِنْ زِينَتُهَا بِهَا لَتَسْتَنِيرَ أَرْجَاؤُهَا، وَتَحْسَنَ صُورَتُهَا، وَيَهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَيَحْصُلُ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ مَا يَحْصُلُ.

وَالثَّانِيَةُ: حِرَاسَةُ السَّمَاءِ عَنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ، يَصِلُ بِتَمَرْدِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤٤٦
سُورَةُ الصَّافَّاتِ

وَالصَّافَّاتُ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنَا أَلَمَّا يَزِينُ الْكَوَكِبِ ﴿٦﴾ وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَن حَفِظَ لِلْخَلْقَةِ فَلَنَجْجُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا أُوْءِيءَ أَيْةٌ يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَءَا مَنَا وَكُنَّا رُبَابًا وَعِظْمًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَا بَنَاءَنَا وَالْأَلْوَنَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ بَلَيْنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفُّوهُمْ أَيْمَهُمْ مُّسْتَوْلُونَ ﴿٢٤﴾

إِلَى اسْتِمَاعِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَهِنَّ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا اسْتَمَعَتْ قَدَفَتِهَا بِالشَّهْبِ الثَّوَابِقِ ﴿١٠﴾ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٩﴾ طَرْدًا لَهُمْ، وَإِبْعَادًا عَنْ اسْتِمَاعِ مَا يَقُولُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أَي: دَائِمٌ، مَعَدُّ لَهُمْ، لِتَمَرْدِهِمْ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ.

وَلَوْلَا أَنَّهُ [تَعَالَى] اسْتَشْنَى، لَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا أَصْلًا، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿إِلَّا مَن حَفِظَ لِلْخَلْقَةِ﴾ أَي: إِلَّا مَن تَلَقَّفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْمَرْدَةِ، الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ عَلَى وَجْهِ الْخَفِيَّةِ وَالسَّرْقَةِ ﴿فَلَنَجْجُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ تَارَةً يَدْرِكُهُ قَبْلَ أَنْ يَوْصِلَهَا إِلَى أَوَّلِيَّائِهِ، فَيَقْطَعُ خَبَرَ السَّمَاءِ وَتَارَةً يَخْبِرُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَ الشَّهَابَ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ، يَرُوجُونَهَا بِسَبَبِ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

وَلَمَّا بَيَّنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ قَالَ: ﴿فَاسْتَفْنِهِمْ﴾ أَي: أَسْأَلُ مُنْكَرِي خَلْقِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أَي: إِجَادَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، أَشَدُّ خَلْقًا وَأَشَقُّ؟ ﴿أَمْ مَن خَلَقْنَا﴾ مِّنْ

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: مَا.

[هذه] المخلوقات؟ فلا بد أن يقرأوا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فليزهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

(١٢-٢١) ﴿بِكَلِّ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ○ وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ○ وَإِنَّا رَأَوْا آيَاتِهِ يَسْتَسْخَرُونَ ○ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ○ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا زُرَّاءَ ○ وَعَظَمْنَا إِنَّا لَتَبُوءُونَ ○ أَوْ ءَاءَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ○ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ○ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ○ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ ○ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ○﴾ ﴿بِكَلِّ عَجِبْتَ﴾ يأيها الرسول، أو أيها الإنسان، من تكذيب مَنْ كَذَّبَ بالبعث، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة، والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة، محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم ﴿إِنَّا ذُكِّرُوا﴾ ما يعرفون في فطرتهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك، فإن كان جهلاً فهو من أدلِّ الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعناداً، فهو أعجب وأغرب.

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال، والباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون.

ومن العجب أيضاً، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق في رتبة أحسن الأشياء وأحقها.

ومن العجب أيضاً، قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات، على قدرة آدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا زُرَّاءَ ○ وَعَظَمْنَا إِنَّا لَتَبُوءُونَ ○ أَوْ ءَاءَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على تربيهم^(١) فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ ○ سَتُبْعُونَ، أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ ○ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ○ ذَلِيلُونَ ○ صَاغِرُونَ، لَا تَمْتَنِعُونَ، وَلَا تَسْتَعْصِمُونَ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿وَإِذَا هُمْ ○ مَبْعُوثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ○ يَنْظُرُونَ﴾ كما ابتدئ خلقهم بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلا، وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ﴾ فقد أقرأوا بما كانوا في الدنيا به يستهزون.

فيقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين

ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

(٢٢-٢٦) ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ○ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيمِ ○ وَفَقَّهَرْنَا لَهُمْ مَسْئَلُونَ ○ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ○ بَلْ هُمْ آلِيَوْمٍ مُسْتَسْلِمُونَ ○ أَي: إذا أحضروا يوم القيامة،

وعاينوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى

النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

أنفسهم بالكفر والشرك، والمعاصي ﴿وَأَرْوَجَهُمْ﴾ الذين من

جنس عملهم، كل يُضْم إلى مَنْ يجانسه في العمل.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ○ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التي

زعموها، فاجمعوهم جميعاً ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيمِ﴾ أي:

سوقوهم سوقاً عنيقاً إلى جهنم ﴿و﴾ بعدما يتعين أمرهم إلى

النار، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار، يقال: ﴿فَقَّهَرْنَا لَهُمْ﴾

قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿لَهُمْ مَسْئَلُونَ﴾ عما كانوا يفترونه

في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضحتهم.

فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ أي: ما الذي جرى عليكم

اليوم؟ وما الذي طرركم حتى لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا

يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن

ألهتكم ستدفع عنكم العذاب، وتغيثكم، وتشفع لكم عند الله،

فكأنهم لا يجيبون على هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل

والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا

وأبلسوا، فلم ينطقوا. ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ آلِيَوْمٍ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

(٢٧-٣٩) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ○ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ

تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ○ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ○ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ

سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ○ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ○ فَأَنذَرْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا عَاوِينَ ○ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ○ إِنَّا كَذَلِكَ

فَعَلْنَا بِالْمُجْرِمِينَ ○ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

يَسْتَكْبِرُونَ ○ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ يَجْتَوِي ○ بَلْ جَاءَ الْخَلْقَ

وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ○ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ○ وَمَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ لما جمعوا هم وأزواجهم وألهتهم، وهدوا إلى

صراط الجحيم ووقفوا، فسلطوا فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم يولم بعضهم بعضًا على إضلالهم وضلالهم، فقال الأتباع للمتبعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: بال قوة والغلبة، فضللونا، ولولا أنتم لكانا مؤمنين.

﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿بَلْ لَأَنْتُمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما زلتُم مشركين، كما نحن مشركون.

فأي شيء فضلكم علينا؟ وأي شيء يوجب لومنا؟ ﴿و﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: قهر لكم على اختيار الكفر ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ﴾ متجاوزين للحد^(١).

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ نحن وإياكم ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب.

﴿ف﴾ لذلك ﴿أَعْوَيْتُكُمْ إِنَّا كُنَّا غَايُونَ﴾ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبت لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْجَائِرِينَ﴾.

ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها ﴿إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ التي لم نزل نعبد، نحن وآباؤنا ﴿ل﴾ قول ﴿شَاعِرٍ يُفْتَنُ﴾ يعنون: محمدًا ﷺ، فلم يفهمهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعرًا مجنونًا، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أقتل خلق الله، وأعظمهم رأيًا.

ولهذا قال تعالى ناقضًا لقولهم: ﴿بَلْ جَاءَ مُحَمَّدٌ ﴿بِالْحَقِّ﴾﴾ أي: مجيئه حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [أي: ومجيئه صدق المرسلين] فلو لا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به وليصرنه، وأخذوا ذلك على أُممهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قاذحًا في صدقهم.

وَصَدَّقَ أَيْضًا الْمُرْسَلِينَ، بَأَن جَاءَ بِمَا جَاءُوا بِهِ، ودعا إلى

سُورَةُ الصَّافَاتِ

٤٤٧

سُورَةُ الصَّافَاتِ

مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٤٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٤٨﴾ قَالُوا بَلْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٥٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٥١﴾ فَأَعْوَيْتُكُمْ إِنَّا كُنَّا غَايُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٥٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٥٨﴾ وَمَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٦١﴾ فَوَكَرَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٦٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٦٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَائِسِينَ مِنْ مَعِينٍ ﴿٦٥﴾ بَيْضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿٦٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٦٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٦٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٧١﴾

ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ قولًا صادرًا منهم، يحتمل أن يكون صدقًا أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ أي: المولم المومع ﴿وَمَا تَحْزَنُونَ﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلم تظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟.

ولما كان هذا الخطاب لفظه عامًا، والمراد به: المشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

(٤٩-٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ○ فَوَكَرَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ○ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ○ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ○ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَائِسِينَ مِنْ مَعِينٍ ○ بَيْضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ○ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ○ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ○ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ○ يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب

(١) كذا في ب، وفي أ: للحق.

إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضًا يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح.

[كل] هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضًا، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباعض، ولا تشاحن وذلك لانتهاء أسبابه.

﴿عَيْنٌ﴾ أي: حسان الأعين جميلاتها، ملاح الحدق ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ أي: الحور ﴿بِضٍّ مَّكْنُونٍ﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

(٥٠-٦١) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لِيَنَّ الْمَصْدِقِينَ﴾ أَلَمْ نَكُنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿قَالَ هَلْ أُشْرُكُ بِمُطْلَبُونَ﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأُزَيِّنَ﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَعِينٍ﴾ إِلَّا مَوْنَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفُورُ الْعَظِيمُ﴾ لِشَيْءٍ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى نَعِيمَهُمْ، وَتَمَامَ سُرُورِهِمْ، بِالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْأَزْوَاجِ الْحَسَنَةِ، وَالْمَجَالِسِ الْحَسَنَةِ، ذَكَرَ تَذَاكُرَهُمْ فِيهَا بَيْنَهُمْ، وَمُطَارَحَتَهُمْ لِلْأَحَادِيثِ عَنِ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ، وَأَنَّهُمْ مَا زَالُوا فِي الْمَحَادَثَةِ وَالْتِسَاوُلِ، حَتَّى أَقْضَى ذَلِكَ بِهِمْ، إِلَى أَنْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ فِي الدُّنْيَا يَنْكَرُ الْبُعْثَ، وَيُلَوِّمُنِي عَلَى تَصْدِيقِي بِهِ وَ﴿يَقُولُ﴾ لِي ﴿أَهْلَكَ لِيَنَّ الْمَصْدِقِينَ﴾ أَلَمْ نَكُنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجازون بأعمالنا؟.

أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا، فصرنا ترابًا وعظامًا، أننا نُبْعَثُ وَنُعَادُ، ثُمَّ نَحْاسِبُ وَنُجَازَى بِأَعْمَالِنَا!!؟

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمنًا صادقًا، وهو ما زال مكذبًا منكرًا للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب.

﴿هَلْ أُشْرُكُ بِمُطْلَبُونَ﴾ لَنَنْظُرَ إِلَيْهِ فَنَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا بِمَا نَحْنُ فِيهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ رَأْيِي عَيْنٌ؟.

الأيام، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه.

فسره بقوله: ﴿فَوَكَاةٌ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تنفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ لا مهانون محقرتون، بل معظمون مجلون موقرون.

قد أكرم بعضهم بعضًا، وأكرمهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهشونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

﴿فِي جَنَّاتٍ الْغَيْرِ﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعتها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل مخلٍّ بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغصات.

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضًا، أنهم على ﴿سُرُرٍ﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة، المزخرفة المجملية، فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمانية والفرح ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم، وتآدب بعضهم مع بعض فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم، بالأشربة اللذيذة، بالكأسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختموم بالمسك، وهي كأسات الخمر.

وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بَيْضَاءٌ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده.

وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداد ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم، وعموم النعيم وتفاصيله داخلية في قوله: ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الْأَطْرَافِ عَيْنٌ﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف.

والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم ببعض، وموافقة بعضهم بعضاً، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له، للاطلاع على قرينه ﴿طَلَعَ﴾ فرأى قرينه ﴿فِي سَرَّاءٍ لَّجِيمٍ﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

ف ﴿قَالَ﴾ له لائِمًا على حاله، وشاكِرًا لله على نعمته أن
نجاه من كيدِهِ ﴿تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَأُزَيِّنَ﴾ أي: تهلكني بسبب ما
أدخلت عليَّ من الشُّبُه بزعمك.

﴿وَلَا يَمَنَّ رَبِّي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ في العذاب معك ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَيِّتَيْنِ ۝ إِلَّا مَوَلَّتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [أي: يقوله المؤمن، مبتهجا بنعمة الله، على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها، والسلامة من العذاب، استفهام بمعنى الإثبات والتقرير]. أي يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى، ولا بعث بعدها ولا عذاب؟^(١).

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحداث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوق العاملين، وحثهم على العمل فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْفَوْزُ الْعَلِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتغنموا بمعرفته واستروا برويته، وطربوا لكلامه؟

﴿لِيُثِلَ هَذَا فَيَعْمَلَ الْعَمَلُونَ﴾ فهو أحق ما انفقت فيه نفاس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطاياها إلى دار البوار!!

(٦٢-٧٤) ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّؤْمِ ۚ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۚ إِنَّمَا شَجَرَةُ زُؤْمٍ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ ۚ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُهُوسُ الشَّيْطَانِ ۚ فَانْتَبِهْ لَأَكُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۚ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَا بِنَ حِيمٍ ۚ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ ۚ إِنَّهُمْ الْقَوَالُ

الْحِجَةُ الْمَالِيَّةُ وَالْعُمْرَةُ

ΣΣΛ

سُورَةُ الصَّافَاتِ

يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ إِذْ دَامِنَّا وَكَفَرُوا بِأَوْعَظْمَاءِ نَا
 لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُطْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعُ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ
 الْحَجِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
 لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَلَّدَنَا
 الْأُولَىٰ وَمَا تَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا أَهْوَاؤُ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾
 لِيَسْلُ هَذَا أَفْلِعَمَلِ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ
 الزَّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَهَا شَجَرَةٌ
 تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
 ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا لَئُونٌ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
 عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ ﴿٦٨﴾
 إِنَّهُمْ أَفْقَاءُ آبَاءِ هُرْصَالِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
 وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
 مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾
 إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ
 الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَبَجَيْنَتُهُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

عَابَهُمْ فَزَيَّلَهُمْ ۖ وَكَانَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْغَنَاءُ ۚ وَلَقَدْ زَيَّلْنَا بِهَيْمَنَتِنَا أَعْيُنَ الْمُؤَذَّنِينَ ۖ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ عَذَابُهُمْ شَدِيدًا ۖ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ۖ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۖ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُهُ الْمُؤَذَّنِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٠﴾ (أَذَلِكَ خَيْرٌ) أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأَيُّ الطعامين أولى؟ الذي وصف في الجنة ﴿أَمْ﴾ طعام أهل النار؟ وهو ﴿شَجَرَةُ الزَّاقِمِ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ﴿أي: عذاباً ونكالاً﴾ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبِينِ﴾ أي: وسطه فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به؟ وبما ذكر من صفة ثمرتها.

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها، ورأيت إبقاء لعدم شطبه في أ. (٢) كذا في ب، وفي أ: معدن.

العظيم، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسللين، فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سُنَّتُهُ تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم.

ودلّ قوله: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح به خواص خلقه.

(٨٣-١١٣) ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخر القصة. أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام، ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿إِذْ جَاءَ رَبُّكَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشبه، والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به، وإذا كان قلب العبد سليماً، سلم من كل شر، وحصل له كل خير.

ومن سلامته، أنه سليم من غش الخلق وحسدكم، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى^(٣) الإنكار، والزام لهم بالحجة.

﴿أَفَيْكَا إِلَهُهُ دُونُ اللَّهِ تُبْدُونَ﴾ أي: تعبدون [من دونه] آلهة كذباً، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم.

وما الذي ظنتم برب العالمين، من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.

فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهاز الفرصة في حين غفلة منهم، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فَنَظَرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ. في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَمِعْتُ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْدُُهُمْ هَذَا﴾ وقوله عن زوجته: «إنها أحتي».

والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم له الكيد بالهتهم ﴿ف﴾ لهذا ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ فلما وجد الفرصة ﴿فَرَّغَ إِلَى اللَّهِ إِلَهُهُمْ﴾ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة ﴿فَقَالَ﴾ متهمكاً بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَعْقِلُونَ؟ أي: فكيف يليق أن تُعبد، وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلّم؟ فهذه جماد لا

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) كذا في ب، وفي أ: ليس. (٣) في ب: على وجه.

ولهذا قال: ﴿فَأَيُّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَكَالُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ﴾ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم.

ثم ذكر شرابهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لَشَرَابًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارّاً قد انتهى [حره]^(١) كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: مآلهم ومقرهم [ومأواهم] ﴿لِلْأَلَمِ حَمِيمٍ﴾ ليدوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم، ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

وكانه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي: وجدوا ﴿عِبَادَةً هُمْ صَالِينَ﴾ فهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا عِبَادَةً عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَلَ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ وقليل منهم آمن واهتدى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ يندرونهم عن غيهم وضلالهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْذِرِينَ﴾ كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم.

ولما كان المنذرون ليسوا^(٢) كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين لله، استثناء الله من الهلاك فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

ثم ذكر أنموذجاً من عواقب الأمم المكذبين فقال:

(٧٥-٨٢) ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمِ الْمُجِيبُونَ﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرّاً قَالِقِينَ وَرَكَّبْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سُلُوكًا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزددهم دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآية، وقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه فقال: ﴿فَلْيَعْمِ الْمُجِيبُونَ﴾ لدعاء الداعين، وسماع تبليهم وتضرعهم.

أجابه إجابة، طابق ما سأل، نجاه وأهله من الكرب

تأكل ولا تكلم.

﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرًَا بِالْيَمِينِ﴾ أي: جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاذاً، إلا كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ أي: يسرعون ويهرعون، أي يريدون أن يوقفوا به، بعدما بحثوا وقالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ يقول: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ﴾ فوبخوه ولا موه، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾ ○ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ○ ﴿ثُمَّ لَكُمْ سَؤَالٌ هَلْ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ الآية.

و ﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿أَعْبُدُونِ مَا نَحْنُ﴾ أي: تحتونه بأيديكم وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم الذين صنعتموهم، وتركون الإخلاص لله؟ الذي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ○ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا﴾ أي: عاليًا مرتفعًا، وأوقدوا فيها النار ﴿فَالْقَوُهِ فِي الْجَحِيمِ﴾ جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم.

﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم بردًا وسلامًا.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿سَيِّدِينَ﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَعْتَزُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولذا يكون ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم ير فيهم خيرًا، دعا الله أن يهب له غلامًا صالحًا ينفع الله به في حياته، وبعد مماته.

فاستجاب الله له وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة، [ياسحاق، ولأن الله تعالى قال في بشره ياسحاق: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا﴾] ﴿يَا إِسْحَاقُ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ فدل على أن إسحاق غير الذبيح.

ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عن جنى.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ الْغُلَامَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب، أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت

سورة الصافات

٤٤٩

سورة الصافات

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هَرَبًا بَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُلَّ آلِهَةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرُ نَظَرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَىٰ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْظُرُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صَرًَا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوا فِيهَا الْفُلُوقَ ﴿٩٧﴾ فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ فَأَنْظَرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكُونُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾

مشقته، وأقبلت منفعة، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ﴾ أي: قد رأيت في النوم والرويا، أن الله يأمرني بذبحك، ورويا^(١) الأنبياء وحي ﴿فَأَنْظَرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه.

﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: ﴿يَكُونُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده. ﴿وَتَلَّمَا لِلْجَبِينِ﴾ أي: تلَّ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

(١) كذا في ب، وفي أ: وراي.

وَنَدَيْتُهُ ﴿١٠٦﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ الْمَزْعُجَةِ، وَالْأَمْرِ الْمَدْهَشِ ﴿١٠٧﴾ أَنْ يَبْرَاهِيمُ ﴿١٠٨﴾ قَدْ صَدَّقْتُ ﴿١٠٩﴾ أَي: قَدْ فَعَلْتُ مَا أَمَرْتُ بِهِ، فَإِنْكَ وَطَّئْتَ نَفْسَكَ عَلَى ذَلِكَ، وَفَعَلْتَ كُلَّ سَبَبٍ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِمْرَارُ السَّكِينِ عَلَى حَلْقِهِ ﴿١١٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ فِي عِبَادَتِنَا، الْمُقَدِّمِينَ رِضَانًا عَلَى شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ. ﴿١١٢﴾ هَذَا الَّذِي امْتَحَنَّا بِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿١١٣﴾ لَمْؤُا أَلْبَلَّتُوا أَلْبَيْنَ ﴿١١٤﴾ أَي: الْوَاضِحَ، الَّذِي تَبَيَّنَ بِهِ صَفَاءُ إِبْرَاهِيمَ، وَكَمَالُ مَحَبَّتِهِ لِرَبِّهِ وَخَلَّتِهِ، فَإِنْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَهَبَهُ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ، أَحَبَّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَالْخَلَّةُ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ، وَهُوَ مُنْصَبٌ لَا يَقْبَلُ الْمَشَارَكَةَ، وَيَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ أَجْزَاءِ الْقَلْبِ مُتَعَلِّقَةً بِالْمَحْبُوبِ. فَلَمَّا تَعَلَّقَتْ شُعْبَةٌ مِنْ شَعْبِ قَلْبِهِ، بَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، أَرَادَ تَعَالَى أَنْ يَصْنِفِي وَدَّهِ وَيَخْتَبِرَ خَلَّتَهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَذْبَحَ مَنْ زَا حَمَّ حُبِّهِ رَبَّهُ. فَلَمَّا قَدَّمَ حَبَّ اللَّهِ، وَآثَرَهُ عَلَى هَوَاهُ، وَعَزَمَ عَلَى ذَبْحِهِ، وَزَالَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْمَزَاحِمِ، بَقِيَ الذَّبْحُ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿١١٥﴾ هَذَا لَمْؤُا أَلْبَلَّتُوا أَلْبَيْنَ ﴿١١٦﴾ وَفَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ أَي: صَارَ بَدْلُهُ ذَبْحٌ مِنَ الْغَنَمِ عَظِيمٍ، ذَبْحَهُ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ عَظِيمًا مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ كَانَ فِدَاءً لِإِسْمَاعِيلَ، وَمِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ مِنْ جَمَلَةِ الْعِبَادَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَمِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ كَانَ قَرَابَاتًا وَسُنَّةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٠﴾ أَي: وَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ثَنَاءً صَادِقًا فِي الْآخِرِينَ، كَمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ، فَكُلَّ وَقْتٍ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ [فِيهِ] مَحْبُوبٌ مُعْظَمٌ مُثْنَى عَلَيْهِ. ﴿١٢١﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٢﴾ أَي: تَحِيَّتَهُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾. ﴿١٢٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمُعَامَلَةِ خَلْقِهِ أَنْ نَفْرَجَ عَنْهُمْ الشَّدَائِدَ، وَنَجْعَلَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَالثَنَاءَ الْحَسَنَ. ﴿١٢٥﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، الَّذِينَ بَلَغَ بِهِمُ الْإِيمَانُ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿١٢٧﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾ هَذِهِ الْبَشِيرَةُ الثَّانِيَةُ بِإِسْحَاقَ، الَّذِي مِنْ وَرَائِهِ يَعْقُوبُ، فَبَشَّرَ بِوُجُودِهِ وَبِقَاتِهِ، وَوُجُودَ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَوْنَهُ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَهِيَ بَشَارَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ. ﴿١٢٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴿١٣٠﴾ أَي: أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمَا الْبَرَكَةَ، الَّتِي هِيَ النَّمُو وَالزِّيَادَةُ فِي عِلْمِهِمَا وَعَمَلِهِمَا وَذُرِّيَّتِهِمَا، فَنَشَرَ اللَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا ثَلَاثَ أُمَمٍ عَظِيمَةٍ.

﴿١٣١﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٢﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٣﴾ أَي: وَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ثَنَاءً صَادِقًا فِي الْآخِرِينَ، كَمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ، فَكُلَّ وَقْتٍ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ [فِيهِ] مَحْبُوبٌ مُعْظَمٌ مُثْنَى عَلَيْهِ. ﴿١٣٤﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٥﴾ أَي: تَحِيَّتَهُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾. ﴿١٣٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمُعَامَلَةِ خَلْقِهِ أَنْ نَفْرَجَ عَنْهُمْ الشَّدَائِدَ، وَنَجْعَلَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَالثَنَاءَ الْحَسَنَ. ﴿١٣٨﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، الَّذِينَ بَلَغَ بِهِمُ الْإِيمَانُ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿١٤٠﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤١﴾ هَذِهِ الْبَشِيرَةُ الثَّانِيَةُ بِإِسْحَاقَ، الَّذِي مِنْ وَرَائِهِ يَعْقُوبُ، فَبَشَّرَ بِوُجُودِهِ وَبِقَاتِهِ، وَوُجُودَ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَوْنَهُ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَهِيَ بَشَارَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ. ﴿١٤٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴿١٤٣﴾ أَي: أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمَا الْبَرَكَةَ، الَّتِي هِيَ النَّمُو وَالزِّيَادَةُ فِي عِلْمِهِمَا وَعَمَلِهِمَا وَذُرِّيَّتِهِمَا، فَنَشَرَ اللَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا ثَلَاثَ أُمَمٍ عَظِيمَةٍ.

﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ○ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ○
أي: أبقي عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب
أولى وأحرى في الأولين ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ إِنَّمَا مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ○

(١٢٣-١٣٢) ﴿وَإِلَّا إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ○ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا
تَتَّقُونَ ○ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ○ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ
آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ○ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ○ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلِصِينَ ○ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ○ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ○ إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ○ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ○ يمدح تعالى عبده
ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة
والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده،
ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل» وتركهم عبادة
الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن
تربيتهم، وأدّر عليهم النعم الظاهرة والباطنة.

وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم
لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا
يتكلم!!! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغبي؟!!
﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه فلم يقادوا له، قال الله متوعداً
لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة في العذاب، ولم
يذكر لهم عقوبة دنيوية.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله، ومن
عليهم اتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما
لهم من الله جزيل الثواب.

﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ثناء حسناً.
﴿سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.
﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ○ فأثنى
الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم
أجمعين.

(١٣٨-١٣٣) ﴿وَإِلَّا لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ○ إِذْ جَاءَتْهُ وَأَهْلُهُ
أَجْمَعِينَ ○ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ ○ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ○ وَإِذْكَ لَنُحُورُونَ
عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ○ وَيَأْتِلُّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ○ وهذا ثناء منه تعالى على
عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه،
ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة.

فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً
فنجوا.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ﴾ أي: الباقيين المعذبين، وهي زوجة
لوط لم تكن على دينه.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ بأن قلبنا عليهم ديارهم ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا

سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَّنْشُورٍ﴾ حتى همدوا
وخمدوا.
﴿وَإِذْكَ لَنُحُورُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على ديار قوم لوط ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ○
وَيَأْتِلُّ ○ أي: في هذه الأوقات، يكثر ترددكم إليها ومروركم
بها، فلم تقبل الشك والمرية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الآيات والجبر،
وتنزعرون عما يوجب الهلاك؟.
(١٣٩-١٤٨) ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة.
وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يوسف بن متى، كما
أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى
الله.
وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها،
بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: من ربه
مغاضباً له ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت،
ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم
فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه
الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه
الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه.

ضيزى وقول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أردأ القسامين وأخسهما له وهو البنات التي لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك، قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلقهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم.

فدلّ على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ﴾ أي: كذبهم الواضح ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ولّد الله وإلّهم لكذبون.

﴿أَصْطَفَى﴾ أي: اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ما لكر كيف تمكّن ﴿هذا الحكم الجائر﴾ أفلا نذكر ﴿وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكّرت، لم تقولوا هذا القول.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أي: حجة ظاهرة على قولكم، من كتاب، أو رسول.

وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن من يقول قولاً، لا يقيم عليه حجة شرعية، فإنه كاذب متعمد، أو قائل على الله، بلا علم.

(١٥٨-١٦٠) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبَاً وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ أَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ سبحانه الله عما يصفون ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نبأ، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سرورات الجن. والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله، [ليجازهم] عبداً أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا^(١) كذلك.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ الملك العظيم، الكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجه كفرهم وشركهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

(١٦١-١٦٣) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً إلّا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي. والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

فلما أبق لجأ ﴿إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فافترعوا على أن من قرع وغلب، ألقى في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما [افترعوا] أصابت القرعة يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين، فألقى في البحر ﴿فَالْقَعَةُ أُلْحِقَتْ الْوُحُوشَ﴾ وقت التقامه ﴿يَلْمِ﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

﴿تَبَدَّلَتْ بِالْعَرَاءِ﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقِينٍ﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

ثم لطف به لطفاً آخر، وامتّن عليه منّة عظيمة، وهو أنه أرسله ﴿إِلَى بَابَةِ الْقَبْرِ﴾ من الناس ﴿أَوْ يَرْيَدُونَ﴾ عنها. والمعنى أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فَنَسْتَأْذِنُ﴾ فصاروا من موازينه، لأنه الداعي لهم ﴿فَنَعْتَمِيزُ﴾ إلى حين. بأن صرف الله عنهم العذاب، بعدما انعقدت أسبابه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كُفِّنَّا عَنْهُمْ وَعَذَابَ الْخَرَزِيِّ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَتَمَتَّنَا إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ﴾.

(١٤٩-١٥٧) ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ لَرَيْكَ أَتَيْنَا وَلَهُمُ الْبُشْرَى﴾ أم خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ لَيَقُولُنَّ﴾ ولّد الله وإلّهم لكذبون ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ما لكر كيف تمكّن ﴿أَفَلَا نَذْكُرُونَ﴾ أم لكر سلطانٌ مُبِينٌ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول تعالى لنبينه ﷻ: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ﴾ أي: أسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله ﴿لَرَيْكَ أَتَيْنَا وَلَهُمُ الْبُشْرَى﴾ أي: هذه قسمة

سُورَةُ الصَّافَّاتِ ٤٥٢

مَالِكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٩﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ الْإِعْبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِمَّا إِلَّا لَهُ مُقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْكَاسِيَةِ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَمُصْذَرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَأَفْعَادِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٧٤﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٧٥﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٧٦﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٧٧﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٧٩﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٨٠﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٨١﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ قَبْلَ الْغَيْبِ ﴿١٨٢﴾

سُورَةُ الصَّافَّاتِ ٤٥٢

(١٦٤-١٦٦) ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿هذا [فيه] بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله لا يعصونه طرفه عين، فما منهم من أحد إلا له مقام وتدبير قد أمره الله به، لا يتعده ولا يتجاوز، وليس لهم من الأمر شيء.﴾
 ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ في طاعة الله وخدمته ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الله عما لا يليق به، فكيف - مع هذا - يصلحون أن يكونوا شركاء لله؟! تعالى الله.

(١٦٧-١٨٢) ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْكَاسِيَةِ﴾ إِنَّهُمْ لَمُصْذَرُونَ ﴿وَلَنْ جُنْدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أَفَعِدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يظهرهم التمني، ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين، لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كَذِبَةٌ في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضًا أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصرًا عزيزًا، يتمكنون فيه من إقامة دينهم. وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ﴾ أي: نزل عليهم وقرىبًا منهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ لأنه صباح الشر، والعقوبة، والاستصال. ثم كرر الأمر بالتوَلَّى عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة، كثيرًا من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ [أي: الذي عز، فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به.

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الألف واللام للاستغراق، فجميع

أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدرك عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى. فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم. ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب، في الدنيا والآخرة].^(١)

تم تفسير سورة الصفات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣ هـ على يد جامعهم وكتابه: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليمًا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين.

تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ٢ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثْ مَنَاصٍ ٣ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ٤ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا بِأَصِيرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ هَذَا الشَّيْءُ يَرَادُ ٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ٧ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ ٨ أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩ أَمْ لَهُمْ ثُنُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْقُذُوا فِي الْأَسْبَابِ ١٠ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ١١ هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِحَالِ الْقُرْآنِ، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به فقال: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذَّكَّرُ للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكَّر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم [أن] ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقَّيه بالإيمان والتصديق، والإتيال على استخراج ما يتذكر به منه. فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم ﴿عِزِّ وَشِقَاقٍ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدر بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿لَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فَلْيَحْذَرُوا هَؤُلَاءِ أَنْ يَدْعُوا عَلَى عِزَّتِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ٢ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثْ مَنَاصٍ ٣ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ٤ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا بِأَصِيرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ هَذَا الشَّيْءُ يَرَادُ ٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ٧ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ ٨ أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩ أَمْ لَهُمْ ثُنُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْقُذُوا فِي الْأَسْبَابِ ١٠ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ١١ هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِحَالِ الْقُرْآنِ، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به فقال: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذَّكَّرُ للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكَّر لهم في أصول دينهم وفروعه.

عليهم، وتامم الانقياد له.

ولكنهم عكسوا القضية، فنعجوا تعجب إنكار، وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

وذنبه - عندهم - أنه ﴿جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده.

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿إِنْ آمَنُوا بِأَصِيرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها صاد ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يَرَادُ﴾ أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له؛ وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمداً ما دعاهم إلى ما دعاهم،

إِلَّا لِيَرَأْسَ فَيْكُم، وَيَكُونُ مَعَظَمًا عِنْدَكُمْ، مَتَّبِعًا.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿فِي آيَةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آبائنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آبائكم، فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه وكذب افتراه.

وهذه أيضًا شبهة من جنس شبهتهم الأولى، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه آبائهم الضالون، فأين في هذا، ما يدل على بطلانه؟

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: ما الذي فضله علينا، حتى ينزل الذكر عليه من دوننا، ويخصه الله به؟

وهذه أيضًا شبهة، أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف يَمُنُّ الله عليهم برسالته، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله، ولهذا، لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم، لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخير تعالى من أين صدرت، وأنهم ﴿فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي﴾ ليس عندهم علم ولا بينة، فلما وقعوا في الشك، وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الالتفات منهم، ومن المعلوم، أن مَنْ هو بهذه الصفة، يتكلم عن شك وعناد؛ إن قوله غير مقبول، ولا قادح أدنى قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب فقال: ﴿كُلُّ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ﴾ أي: قالوا هذه الأقوال، وتجرأوا عليها، حيث كانوا ممتعين في الدنيا، لم يصيبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه لم يتجرأوا.

﴿أَنزَلْنَا عَذَابَ خِزْيٍ رَّحِمَهُ رَبُّكَ الْعَزِيزِ الْوَقَّابِ﴾ فيعطون منها مَنْ شاءوا، ويمنعون منها مَنْ شاءوا، حيث قالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم، حتى يتحجروا على الله.

﴿أَنزَلْنَا لَهُمْ مَلَكًا مِّنَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون ﴿فَلْيَرْفَعُوا فِي الْآسَانِبِ﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله.

فكيف يتكلمون، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟! أم قصدهم التحزب والتجند، والتعاون على نصر الباطل، وخذلان الحق؟ وهو الواقع.

فإن هذا المقصود لا يتم لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم ولهذا قال: ﴿جُنُدُ مَا هَئِلَتْ مَهْزُومٌ مِّنَ الْآخَرَابِ﴾.

(١٢-١٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ○ وَنُوحٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْعَبَ لَتَيْكُهُ أُولَئِكَ الْآخَرَابِ ○ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ○ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيَّحَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ يحذرهم تعالى أن يفعل بهم، ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم، وتحزبوا على الباطل ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾ أي: الجنود العظيمة والقوة الهائلة.

﴿وَنُوحٌ﴾ قوم صالح، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْعَبَ لَتَيْكُهُ﴾ أي: الأشجار واليساتين الملتفة وهم قوم شعيب، ﴿أُولَئِكَ الْآخَرَابِ﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعدوهم وعدوهم على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئًا.

﴿إِنْ كُلُّ﴾ من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿عِقَابِ﴾ الله. وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك.

فليتظنوا ﴿صَيَّحَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ أي: من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

(١٦، ١٧) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ○ أَصِيرَ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: قال هؤلاء المكذبون، من جهلهم، ومعاذتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قسطننا، وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولجئوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد، إن كنت صادقاً فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.

فقال لرسوله: ﴿أَصِيرَ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل، فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرورك في شيء، وإنما يضررون أنفسهم.

(١٧-٢٠) ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ○ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ لِيُصْبِحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ○ وَالطَّلَاسُ حَشْرَةٌ كُلُّ لَمَّا أَوَّابٌ ○ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

ومن أعظم العابدين نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ^(١) أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة

(١) كذا في ب، وفي الأصل: ذو الأيدي.

سورة ص

٤٥٤

سورة ص

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٢٧﴾
 إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْأَشْرَاقِ ﴿٢٨﴾ وَالطَّيْرَ
 مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٢٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
 وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٣٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا
 إِلَى الْحَرَابِ ﴿٣١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
 خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
 وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً
 وَلِي نِجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٣٣﴾ قَالَ
 لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
 مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
 ﴿٣٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَآبٍ
 ﴿٣٥﴾ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
 بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سَأَوْا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضاها عدم البغي، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره، ﴿لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نِجْمَةً﴾ أي: زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله ﴿وَلِي نِجْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قطع فيها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: دعها لي، وخلصها في كفالتي ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ﴾ أي: غلبني في القول، فلم يزل يبي حتى أدركها أو كاد.

فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: ﴿لَمْ حَكَمْ دَاوُدَ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْخَصْمِ الْآخَرَ؟﴾ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَى نَعَاجِهِ﴾ وهذه عادة الخُلَطَاءِ والقراء الكثير منهم.

فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾

التضرع والدعاء، رجَّاع إليه عندما يقع منه بعض الخل، بالإقلاع والتوبة النصوح.

ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سَخَّرَ الله الجبال معه، تَسْبِحُ معه بحمد ربها ﴿بِالْعُشِيِّ وَالْأَشْرَاقِ﴾ أول النهار وآخره.

﴿و﴾ سخر ﴿الطَّيْرَ مُحْشُورَةً﴾ معه مجموعة، ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطيور لله تعالى ﴿وَأَوَّابٌ﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَجِئُكَ أَوَّيُّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ فهذه مِنَّةُ الله عليه بالعبادة.

ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب، وكثرة العدد والعدد التي بها قُوَى الله ملكه.

ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال: ﴿وَأَثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة والعلم العظيم ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ أي: الخصومات بين الناس.

(٢١-٢٦) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا إِلَى الْحَرَابِ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ○ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً وَلِي نِجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ○ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ○ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَآبٍ ○ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سَأَوْا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقبض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إِذْ سُورُوا﴾ على داود ﴿إِلَى الْحَرَابِ﴾ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب.

فذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة فزع منهم وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خَصَمَانِ﴾ فلا تخف ﴿بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ بالظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

والمقصود من هذا، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك فسيقصان^(١) عليه نبأهما بالحق، فلم يشتمز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

بحكمتنا وحكمنا.

﴿كَتَبَ أَرْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

﴿لِيَذْكُرُوا عَآئِيَتِهِ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أولوا العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

(٣٠-٤٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَتِ الْجِيَادُ ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ رُودُهُا عَلَى فَطْفِقٍ مَسْنًا يَالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبَغِّي لِي أَحَدٌ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿فَصَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِغْمًا حَيْثُ أَصَابَ﴾ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَمَوَاسٍ ﴿وَأَخْرَيْنَا مُرْقِيَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ لما أثنى تعالى على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ أي: أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه.

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كل شيء.

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافيات أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائع، وجمال معجب، وخصوصًا للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تُعرض عليه، حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره.

فقال - ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره -: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾، ﴿وَعَلَىٰ دَاوُدَ﴾ حين حكم بينهما ﴿أَنَّمَا قَتَلْتُهُ﴾ أي: اخترناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتبين ﴿فَاسْتَعْفَرَ رَبَّهُ﴾ لما صدر منه ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿فَقَفَرْنَا لَمْ ذَلِكْ﴾ الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ﴾ أي: منزلة عالية، وقرية منا ﴿وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿يَذَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ فتميل مع أحد، لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿يُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خصوصاً المتعمدين منهم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَسُّوهُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

(٢٧-٢٩) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿كَتَبَ أَرْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّيَذْكُرُوا عَآئِيَتِهِ﴾ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ هذا غير لائق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٥

سُورَةُ ص

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَرْزُلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَبْرُوَاءِ إِيَّتِهِ وَلَسْتَ ذَكَرَ أُولَٰئِ
الْأَلْبَبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدَانِ هَٰؤُلَاءِ
﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْخِيَادِ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي
أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهُمَا عَلَىٰ فُطُوقٍ مَّسْحُوبٍ أَلَسَوْقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِلَّا أَنْتَ لَوْ هَابَ ﴿٣٥﴾
فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رَحْمَةٍ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطِينَ
كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَأَوَّاهٍ خَرِينٍ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ
مَكَابٍ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ
فَنُصِبْ وَعَدَابٌ ﴿٤١﴾ أَرَكُضْ بِرَحْلِكَ هَٰذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْسَدَةٌ﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حُسن
الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور
البهم، يجاوبنه إذا رَجَعَ صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي
والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نِعَمِ الله على عبده، أن يرزقه العلم
النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتنَّ الله به
على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله بأنبيائه وأصفياه، عندما يقع منهم
بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم
المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى
لدواد وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون
من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا
يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة
من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلفظه.

الْخَيْرِ» وضمن «أحببت» معنى «أثرت» أي: أثرت حب الخير،
الذي هو المال عمومًا، وفي هذا الموضع المراد: الخيل
﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

﴿رُدُّوهُمَا عَلَىٰ فُطُوقٍ مَّسْحُوبٍ﴾ ففطوقها ﴿فَطَفِقَ﴾ فيها ﴿مَسَحًا﴾ بِالشُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ أي جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه
وانفصاله عنه، بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ
كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ أي: شيطانًا قضى الله وقدر أن يجلس على
كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان ﴿ثُمَّ
أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِلَّا أَنْتَ
أَلَوْعَابُ﴾ فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده
ملكًا لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له،
ينون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر
والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاذ وأوثقه.

وقلنا له: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا﴾ ففَرَّ به عَيْنًا ﴿فَأَمْنٌ﴾ على مَنْ شئت
﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ مَنْ شئت ﴿وَبَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا حرج عليك في
ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه.
ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في
الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ
مَكَابٍ﴾ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع
الكرامات لله.

فصل

فيما تبين لنا من القوائد والحكم في قصة داود

وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار مَنْ
قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة
صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله
الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا - في هذا
الموضع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه،
وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود، فيتسلى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة
القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها
وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي
له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة
بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف
أنبياء الله وخوائص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمر الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن من الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولدًا صالحًا، فإن كان عالمًا، كان نورًا على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿يَعْمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبده، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم ينهي عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشؤوم مذموم، فليُتَارَفَ وَلْيُقْبَلْ على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ، عَوَّضَهُ خَيْرًا مِنْهُ».

فلسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديمًا لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

(٤١-٤٤) ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْ مَسْنَى الشَّيْطَانِ يُصَبِّ وَعَذَابٍ ۝ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَثَلْنَا مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ۝ وَخَذْ يَدَكَ ضَعْفًا فَأَمْرِبُ بِهِ وَلَا تَحْتَسِبُ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ أَي: ﴿وَاذْكُرْ﴾

ومنها: أن داود عليه السلام، [كان] في أغلب أحواله لازمًا محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه، لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتًا يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود، في حالة غير معتادة، ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أَنْتَ ظَلَمْتَنِي» أو «يَا ظَالِمٌ» ونحو ذلك أو «بَاغَ عَلَيَّ» لقولهما: ﴿حَصَصَانِ بَعَى بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه لا يغضب ولا يشتم، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشتم، ولم يغضب ولم يشته ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفورات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما، متقص لدرجتهم عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزير على الكريم الغفار.

﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه ﴿الْآخِرِينَ﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم. (٤٩، ٤٨) ﴿وَأَذَكَّرَ﴾ استعيل ﴿وَالسَّعِ﴾ وذا الكفلى وكل من الْآخِرِينَ هَذَا ذِكْرٌ أَي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال، والأخلاق والصفات الحميدة، والخصال السديدة.

﴿هَذَا﴾ أَي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم ﴿وَذَكَرَ﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال:

(٤٩-٥٤) ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكْرٍ﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُفْنَعَةٍ لَهُمْ ﴿الْأُولَى﴾ مُتَّقِينَ فِيهَا يَدْخُلُونَ فِيهَا يَفْكُهُمْ كَثِيرٌ وَثَرَابٌ وَعِندَهُمْ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ أَرْبَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرْفَعًا مَّا لَهُ مِنْ نَعَارٍ أَي: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم، بامثال الأوامر، واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لَحُسْنَ مَكْرٍ﴾ أَي: لمأبأ حسناً، ومرجعاً مستحسناً.

ثم فسره وفصله، فقال: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ أَي: جنات إقامة، لا يبغى صاحبها بدلاً منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين.

﴿مُفْنَعَةٍ لَهُمُ الْأُولَى﴾ أَي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان التام، وأنه ليس في جنات عدن ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿مُتَّقِينَ فِيهَا﴾ على الأرائك المزينات، والمجالس المزخرفات ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا﴾ أَي: يأمرن خدامهم أن يأتوا ﴿يَفْكُهُمْ كَثِيرٌ وَثَرَابٌ﴾ من كل ما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والطمانية، وتمام اللذة.

﴿وَعِندَهُمْ﴾ من أزواجهم، الحور العين ﴿قَصِيرَتُ﴾ طرفهن

في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عِدْنَا أَيُّوبَ﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه.

﴿فَنَادَى رَبَّهُ﴾ داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً فقال: رَبِّ ﴿أَنِّي مَسَّيْتُ الشَّيْطَانُ يَضْبِ وَعَآبٍ﴾ أَي: بأمر مشق متعب معذب، وكان سبط على جسده فنفخ فيه حتى تفرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

فقيل له: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أَي: اضرب الأرض بها، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿وَبَنَاهُمْ مَعَهُ﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالا عظيماً ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ بعدنا أيوب، حيث صبر فائتبه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وأجلاً.

﴿وَذَكَرَ لِأُولَى الْأَنْبِيَاءِ﴾ أَي: ولتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، ففعلوا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يشبه ثواباً عاجلاً وأجلاً، ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

﴿وَعُذِّبَ يَدَاكَ ضَعْفًا﴾ أَي: حزمة شماريخ ﴿فَأَضْرِبْ يَدَكَ﴾ نَحْنُ.

قال المفسرون: وكان في مرضه وضربه قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفناه أن يضربها بضغت فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فببر في يمينه.

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ أَي: أيوب ﴿صَابِرًا﴾ أَي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى ﴿وَعَمَّ الْعَبْدُ﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أَي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة، والتأله.

(٤٥-٤٧) ﴿وَأَذَكَّرَ عِندَنَا ابْنَهُمُ وَاسْتَحَقَّ وَيَعْقُوبُ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَذَكَّرَ عِندَنَا﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً.

﴿يُزَكِّيهِ﴾ الخليل ﴿و﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابن ابنه ﴿يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي﴾ أَي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ أَي: البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة وهي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٦

سُورَةُ ص

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّهُ وَجَدَنَّهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا الدَّارَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَادْكُرْ إسماعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرُ وَإِنَّ الْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْسِكَ لَهُمْ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَنَكِهِمْ كَثِيرٍ قَوَّارٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطُّرْفِ أَنْرَابٍ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تَدْعُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا الرِّزْقُ مَالُهُ مِن نِّقَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَكَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِلُ الْمُهَاذُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٧﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا يَكُونُ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ لَنَا فَيَنْسِلُ الْقَرَارُ ﴿٥٨﴾ قَالُوا هَذَا قَرْوَةٌ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٥٩﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٠﴾ أَخَذْتَهُمْ سِحْرًا أَمْ رَأَيْتَ عَنْهُمْ الْأَبْصَرَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٢﴾ هَذَا الْجَزَاءُ لِلْمُتَّقِينَ مَا وَصَفْنَاهُ ﴿٦٣﴾ وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ ﴿٦٤﴾ أَي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَكَابٍ﴾ أَي: لشر مرجع ومنقلب.

واضلالكم وتسبيكم ﴿فَيَنْسِلُ الْقَرَارُ﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم، ف ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا قَرْوَةً عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أَي: كنا نزعهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون تفقدتهم أهل النار - قُبِحَهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿أَخَذْتَهُمْ سِحْرًا أَمْ رَأَيْتَ عَنْهُمْ الْأَبْصَرَ﴾ أَي: عدم رؤيتنا لهم دائرين أمرين:

إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَأَغْوَيْنَا لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فَأَخَذْتَهُمْ سِحْرًا حَتَّى أَتَوْكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاعت أبصارنا عن رؤيتهم معنا

على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلًا، ولا عنه عوضًا ﴿أَنْرَابٍ﴾ أَي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه والده.

﴿هَذَا مَا تَدْعُونَ﴾ أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿إِنَّ هَذَا الرِّزْقُ﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿مَا لَمْ يَنْ نَفَادٍ﴾ أَي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآتات.

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعضه.

(٦٤-٥٥) ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَكَابٍ﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِلُ الْمُهَاذُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٧﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا يَكُونُ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ لَنَا فَيَنْسِلُ الْقَرَارُ ﴿٥٨﴾ قَالُوا هَذَا قَرْوَةٌ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٥٩﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٠﴾ أَخَذْتَهُمْ سِحْرًا أَمْ رَأَيْتَ عَنْهُمْ الْأَبْصَرَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٢﴾ هَذَا الْجَزَاءُ لِلْمُتَّقِينَ مَا وَصَفْنَاهُ ﴿٦٣﴾ وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ ﴿٦٤﴾ أَي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَكَابٍ﴾ أَي: لشر مرجع ومنقلب.

ثم فصله فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمع فيها كل عذاب واشتد حرها، وانتهى قرها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أَي: يعذبون فيها عذابًا يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل.

﴿فَيَنْسِلُ الْمُهَاذُ﴾ المعد لهم مسكنًا ومستقرًا ﴿هَذَا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والخزي، والفضيحة، والنكال ﴿فَيَدْعُوهُ جَحِيمٌ﴾ ماء حار قد اشتد حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم ﴿وَعَسَاقٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قبح وصيد، مَرُّ المذاق، كربة الرائحة.

﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ﴾ أَي: من نوعه ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أَي: عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتد بعضهم بعضًا، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرْجَا يَوْمَ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أَي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا يَكُونُ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ لَنَا﴾ العذاب ﴿لَنَا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٧

سُورَةُ ص

وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رَجُلًا كَنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٦﴾ اتَّخَذْنَاهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٧﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٩﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٧٠﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٧١﴾ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٢﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٣﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ آلِئَامًا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٤﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ يَبْنَؤُا مَعَكُمْ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٨٠﴾ قَالَ فَارْجِعْ مِنْهَا فإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٨١﴾ وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٥﴾ قَالَ فَبِعَرِكَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٦﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٧﴾ لَا غَوْ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٩﴾

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا أَي: خالقهما ومربيهما ومدبرها^(١) بجميع أنواع التدبير ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة ﴿الْغَفُورُ﴾ لجميع الذنوب، صغيرها، وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها.

فهذا الذي يجب ويستحق أن يعبد دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قُلْ﴾ لهم مخوفاً ومحذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ما أنبأكم به من البعث والنشور والعزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله.

ولكن ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب.

فإن شككتهم في قولي وامتريتهم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فإخباري بها على

(١) كذا في النسختين.

في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم وصارت صبعة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لَحَقٌّ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

(٦٥-٨٨) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ
 أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٧﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ آلِئَامًا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٨﴾ إِنْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٦٩﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٠﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ يَبْنَؤُا مَعَكُمْ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٣﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٤﴾ قَالَ فَارْجِعْ مِنْهَا فإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٧٥﴾ وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٦﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧٨﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَبِعَرِكَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ لَا غَوْ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهاران، متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده.

وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ

فلما علم أنه مُنْظَرٌ، بادى ربه من خبثه بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾. يحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيده.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يفضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، استعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم، هذا وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربه وعداوته، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تجيب دعائنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ آلِيعَادَ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ بَيْنَكَ مِنْ أَجْمَعِينَ﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: .

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعائي إياكم ﴿وَمَنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أدعي أمراً ليس لي وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليّ.

﴿إِنَّ هُوَ﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿وَلَا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعالمين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغيين، فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا﴾ - ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا﴾ - ﴿رَحْمَةً مِنْ عَبْدِنَا وَذَكَرْكَ﴾ - ﴿هَذَا ذِكْرُكَ﴾.

اللهم علما منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك.

﴿وَلَعَلَّنَا نَبَأٌ﴾ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه.

وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقي، وأدُلُّ دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ إِلَّا بِمَا عَلَّمَنِي﴾ أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياي، وإيحاؤه إليّ، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.

ثم ذكر اختصام الملائكة الأعلى فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه الإخبار ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ أي: مادته من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: سويت جسمه وتم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ﴾ فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربه وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنح الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود.

فسجدوا ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد ﴿اسْتَكَبَرَ﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم الله تعالى.

﴿فَقَالَ﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ أي: شرفته وكرمه واختصصته بهذه الخصيصة التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه ﴿اسْتَكَبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة، وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس القوم الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء والمحل الكريم ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مبعد مدهور.

﴿وَأَنَّكَ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردتي وإبعادي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ○ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

ورجائه، وللإجابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشَقِّقٌ للنفوس غاية الشقاء.

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص نهى عن الشرك به، وأخبر بدم من أشرك به فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، [معتدريين] ^(١) عن أنفسهم وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: لترفع حوائجنا لله وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهو لا قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص وتجروا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم بالملوك، وزعموا - يعقولهم الفاسدة، ورأيهم السقيم - أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم عقلاً ونقلاً وفطرة، فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج مَنْ يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج مَنْ يعطفهم عليه [ويسترحمه لهم] ^(٢) ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقصون حوائج مَنْ توسطوا لهم مراعاة لهم، ومداواة لخواطبرهم، وهم أيضاً فقراء، قد يمتنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج مَنْ يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم.

وهو الغني الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلًّا ^(١) في: أي: متعذرين. (٢) كذا في النسختين، ولعل الصواب (ويسترحمهم له).

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ آلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۚ﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة مَنْ تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه، لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دال على مرتبته. ولكنه - مع هذا - زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة.

فكل ما دلَّ عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلاً من الحق، مشتملاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلَّت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة، والشرائع الباطنة: الإسلام، والإيمان، والإحسان - بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

﴿آلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله الفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه

منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخطط، وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراتهم عليه، ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال - حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَفَّارًا﴾ أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتبه المواعظ والآيات ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدوها ويكفر بها ويكذب.

فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن؟.

(٤) ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعم ذلك من زعمه من سفهاء الخلق ﴿لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لاصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون.

﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: الواحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شبه له في شيء من ذلك ولا مماثل، فلو كان له ولد لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته؛ لأنه بعضه وجزء منه، القهَّار لجميع العالم، العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهَّار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشراكة له من كل وجه.

(٥-٧) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَآوَّلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٨

سُورَةُ الزَّمَرِ

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزَّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾

يَخْلُقَكُمْ فِي بَطْنٍ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تَصْرِفُونَ ۝ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويبيهم ويعاقبهم.

﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل كلاهما على الآخر ويحل محلله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بتسخير منظم وسير مقنن ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ متأثراً عن تسخيره تعالى ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة، ليستقروا في دار القرار الجنة أو النار.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴿عِبَادَةُ رَبِّهِمْ، لَهُمْ ﴿حَسَنَةٌ﴾ وَرِزْقٌ وَاسِعٌ، وَنَفْسٌ مَطْمَئِنَّةٌ، وَقَلْبٌ مَنْشَرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ إِذَا مُنَعْتَمَ مِنْ عِبَادَتِهِ فِي أَرْضٍ، فَهَاجَرُوا إِلَىٰ غَيْرِهَا، تَعْبُدُونَ فِيهَا رَبَّكُمْ وَتَتِمَكَّنُونَ مِنْ إِقَامَةِ دِينِكُمْ.

ولما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كَانَ لِبَعْضِ النُّفُوسِ مَجَالٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَهُوَ أَنَّ النَّصَّ عَامٌ، أَنَّهُ كُلُّ مَنْ أَحْسَنَ، فَلَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، فَمَا بَالُ مَنْ آمَنَ فِي أَرْضٍ يَضْطَهُدُ فِيهَا وَيَمْتَنُّ، لَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ؛ دَفَعَ هَذَا الظَّنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ وَهِيَ بَشَارَةٌ نَصَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ». تَشِيرُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ، وَتُرْمِي إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى، أَخِيرَ أَنْ أَرْضَهُ وَاسِعَةٌ. فَهَمَّا مُنْعَمٌ مِنْ عِبَادَتِهِ فِي مَوْضِعٍ فَهَاجَرُوا إِلَىٰ غَيْرِهَا. وَهَذَا عَامٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَلَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مُهَاجِرٍ مُلْجَأٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُلْجَأُ إِلَيْهِ، وَمَوْضِعٌ يَتِمَكَّنُ مِنْ إِقَامَةِ دِينِهِ فِيهِ.

﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وَهَذَا عَامٌ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ:

الصَّبْرُ عَلَى أَفْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلِّمَةِ فَلَا يَتَسَخَّطُهَا وَالصَّبْرُ عَنْ مَعَاصِيهِ فَلَا يَرْتَكِبُهَا، وَالصَّبْرُ عَلَى طَاعَتِهِ حَتَّى يُوَدِّعَهَا، فَوَعْدَ اللَّهِ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَيُّ: بِغَيْرِ حَدٍّ وَلَا عَدٍّ وَلَا مَقْدَارٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِفَضِيلَةِ الصَّبْرِ وَمَحَلِّهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مُعِينٌ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ.

(١١-١٦) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ○ وَأُمِرْتُ لِأَنِّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ○ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ○ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ○ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي لَكثيرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ○ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلٌّ مِنَ الشَّارِ وَمِنْ تَحِيْمِهِمْ ظُلٌّ ذَلِكَ يَحُوفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ قَائِمُونَ ○ أَيُّ: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لِلنَّاسِ: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ فِي قَوْلِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنِّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لِأَنِّي الدَّاعِي الْهَادِي لِلخَلْقِ إِلَى رَبِّهِمْ، فَيَقْضِي أَنِّي أَوَّلُ مَنْ ائْتَمَرَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا بَدَأَ مِنْ إِيْقَاعِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ، فَلَا بَدَأَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

الَّذِي دَعَا اللَّهَ لِأَجَلِهِ، وَمَرَّكَهُ مَا أَصَابَهُ ضَرْ، وَاسْتَمَرَ عَلَى شِرْكِهِ.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أَيُّ: لِيُضِلَّ بِنَفْسِهِ وَيُضِلَّ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّ الْإِضْلَالَ فِرْعَ عَنْ الضَّلَالِ، فَأَتَى بِالْمَلْزُومِ لِيُذِلَّ عَلَى الْإِضْلَامِ.

﴿قُلْ﴾ لِهَذَا الْعَاتِي، الَّذِي بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فَلَا يَغْنِيكَ مَا تَمَتَّعَ بِهِ إِذَا كَانَ الْمَالُ النَّارَ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ○ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ○ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ﴾.

(٩) ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلِيلٌ مَا أَتَى الْبِلَّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ هَذِهِ مُقَابَلَةٌ بَيْنَ الْعَامِلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَغَيْرِهِ، وَبَيْنَ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ، وَأَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَقَرَّرُ فِي الْعُقُولِ تَبَيَّنَانِهَا، وَعِلْمٌ قَائِمًا تَفَاوُتَهَا، فَلَيْسَ الْمَعْرُضُ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، الْمَتَّبِعُ لِهَوَاهُ كَمَنْ هُوَ قَائِمٌ، أَيُّ: مُطِيعٌ لِلَّهِ بِأَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ وَهِيَ الصَّلَاةُ، وَأَفْضَلُ الْأَوْقَاتِ، وَهُوَ أَوْقَاتُ اللَّيْلِ، فَوْصِفَهُ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَأَفْضَلِهِ، ثُمَّ وَصَفَهُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَذَكَرَ أَنَّ مُتَعَلِّقَ الْخَوْفِ عَذَابَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَأَنَّ مُتَعَلِّقَ الرَّجَاءِ رَحْمَةَ اللَّهِ، فَوْصِفَهُ بِالْعَمَلِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ رَبَّهُمْ وَيَعْلَمُونَ دِينَهُ الشَّرْعِيَّ، وَدِينَهُ الْجَزَائِيَّ، وَمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْحِكْمِ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؟ لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ، كَمَا لَا يَسْتَوِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ، وَالْمَاءُ وَالنَّارُ.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إِذَا ذُكِّرُوا ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ: أَهْلُ الْعُقُولِ الزَّكِيَّةِ الذَّكِيَّةِ، فَهَمُ الَّذِينَ يُؤَثِّرُونَ الْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى، فَيُؤَثِّرُونَ الْعِلْمَ عَلَى الْجَهْلِ، وَطَاعَةَ اللَّهِ عَلَى مَخَالَفَتِهِ؛ لِأَنَّ لَهُمْ عَقُولًا تَرشُدُهُمْ لِلنَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ، بِخِلَافِ مَنْ لَا لُبَّ لَهُ وَلَا عَقْلَ، فَإِنَّهُ يَتَخَذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ.

(١٠) ﴿قُلْ يَكْفِيكَ الدِّينَ أَمَلًا أَنْتُمْ رَكِبْتُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيُّ: قُلْ مُنَادِيًا لِأَشْرَفِ الْخَلْقِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، أَمْرًا لَهُمْ بِأَفْضَلِ الْأُمُورِ، وَهِيَ التَّقْوَى، ذَاكَرًا لَهُمْ السَّبَبَ الْمَوْجِبَ لِلتَّقْوَى، وَهُوَ رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ لَهُمْ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ الْمُقْتَضِي ذَلِكَ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّقُوهُ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُ مُوجِبٌ لِلتَّقْوَى. كَمَا يَقُولُ: أَيُّهَا الْكَرِيمُ تَصَدَّقْ، وَأَيُّهَا الشَّجَاعُ قَاتِلْ.

وَذَكَرَ لَهُمُ الثَّوَابَ الْمُنْشَطَ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ
 قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ
 قُلْ لِنَاسٍ خِيسَرٍ ۖ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا
 ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۚ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ
 وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ۖ يَعْبُدُونَ فَاتَّقُونَ ۚ
 وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الظَّلْمَ ۖ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَا بِلِلَّهِ إِلَهُهُمْ الْبَشَرِ ۚ
 فَتَسْتَعِزُّوا بِالَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَهْلُ الْأَلْبَابِ ۚ
 أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَلَمْ يَأْتِهِ تَنْقِذٌ مِنَ النَّارِ ۚ
 لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ عَرَفُوا مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مُبِينَةٌ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۚ
 أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
 يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهْدِيهِمْ قُرْنَهُ مُمْسِكًا ثُمَّ
 يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ

يرون في خلالها أنه يريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم
 البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة،
 وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه
 وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشرى أمره الله ببشارتهم، وذكر
 الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَيَسِّرْ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ
 يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون
 جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثارة مما ينبغي اجتنابه،
 فلهذا - من حزمهم وعقلهم - أنهم يتبعون أحسنه. وأحسنه
 على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله كما قال في هذه السورة:
 ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّدًا﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء
 الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل:
 هل من طريق إلى معرفة أحسنه، حتى تنصف بصفات أولي
 الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذرهم من العمالة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في ما أمرني به من
 الإخلاص والإسلام ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يخلد فيه مَنْ أشرك،
 ويعاقب فيه مَنْ عصى.

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي ۖ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ كما
 قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكُفَّارُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا
 أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
 مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

﴿قُلْ لِنَاسٍ خِيسَرٍ﴾ حقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾
 حيث حرمواها الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب
 ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم
 الحزن، وعظم الخسران ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الذي
 ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر لا ربح بعده، بل ولا
 سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
 ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ
 ظُلَلٌ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط
 يسوق الله به عباده إلى رحمته ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ فَاتَّقُونَ﴾
 أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده
 إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسيحان مَنْ رحم
 عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم
 على سلوكها، ورغبهم بكل مرغبت تشتاق له النفوس، وتطمئن
 له القلوب. وحذرهم من العمل لغيره^(١) غاية التحذير، وذكر
 لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

(١٨، ١٧) ﴿وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الظَّلْمَ ۖ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَا بِلِلَّهِ إِلَهُهُمْ
 الْبَشَرِ ۚ فَتَسْتَعِزُّوا بِالَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ
 الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَهْلُ الْأَلْبَابِ﴾ لما ذكر حال
 المجرمين ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا
 الظَّلْمَ ۖ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ والمراد بالظلمات في هذا الموضع عبادة
 غير الله، فاجتنبوا في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من
 الحكيم العليم؛ لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في
 عبادتها.

﴿وَأَنَا بِلِلَّهِ إِلَهُهُمْ﴾ عبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت
 دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن
 الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات.

﴿لَهُمُ الْبَشَرِ﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلّا
 مَنْ أكرمهم بها وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء
 الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي

وحيث يسر لهم هذا الماء وخزونه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم.

ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبيد آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

(٢٢) ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ قَوْلٌ لِّلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أفستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها منشراحاً قير العين على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا تلين لكتابه، ولا تذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره!!

(٢٣) ﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ كِتَابًا مُّشْتَبِهًا مَّا بَىٰ نَفْسِهِ مَنَّهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْتَوُونَ رَّبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِرَّ مَن يُشَآءُ وَمَن يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾

يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ على الإطلاق. فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن. وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني؛ لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهها في الحسن والاتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاه - حتى في معانيه الغامضة - ما يهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِن مَّاءٍ مَّائِكَتُمْ هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ﴾ فالمراد بها، التي تشبه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿مِن مَّاءٍ مَّائِكَتُمْ هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ﴾ فجعل التشابه لبعضه.

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه .

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا﴾ الآية.

﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ لَأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول الزاكية. ومن لبهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إثارة على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال حسننها وقيبحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته، فلم يؤثر الأحسن كان ناقص العقل.

(١٩، ٢٠) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَآتَتْ تَفْقُذُ مَن فِي النَّارِ ۚ لَكِنَّ الَّذِينَ أَفْعَوْا رَحْمَةً مِّن رَّبِّهِمْ هُمْ فِيهَا عُرْفٌ مُّبِينَةٌ تَجَرَّيْنَاهَا نَحْوَهَا وَتَجَرَّيْنَاهَا نَحْوَهَا لَا يَخْلُفُ اللَّهُ أَلِيمَعَادَ﴾ أي: أضمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تفقذ من في النار لا محالة. لكن الغنى كل الغنى والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم، ما لا يقادر قدره.

﴿هُمْ عُرْفٌ﴾ أي: منازل عالية مزخرفة من حسننها وبهائها وصفائها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿مِن فَوْقَهَا عُرْفٌ﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿مُبِينَةٌ﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿تَجَرَّيْنَاهَا نَحْوَهَا أَلِيمَعَادَ﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ أَلِيمَعَادَ﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفيهم أجورهم.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ من بر وذرة وشعير وأرز، وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا﴾ متكسراً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده،

وهنا جعله كله متشابهًا، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضًا كما ذكرنا.

﴿مَثَانِي﴾ أي: تنثني فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتنثني فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزيكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت واثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائمًا إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعًا، ولم تحصل النتيجة منه.

ولهذا سلك في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعى لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه. فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلماذا قال تعالى: ﴿تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدًى لِلَّذِينَ هَدَىٰ بِهِ﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ من عباده ويحتمل أن المراد بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هُدًى لِلَّذِينَ هَدَىٰ بِهِ﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِضَلَالِهِ لَا طَرِيقَ يَوْصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا تَوْفِيقُهُ وَالتَّوْفِيقُ لِلْإِقْبَالِ عَلَىٰ كِتَابِهِ﴾ فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

(٢٤-٢٦) ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

٤٦١

سُورَةُ الزَّمَرِ

أَفَمَنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ

لِلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدًى لِلَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ

يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهَهُ سَوْءَ

الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَانُ اللَّهِ الْخَزَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ

الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي

هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَرُونَ ﴿٢٧﴾ قَرَأْنَاهُ نَاعَرِبِيًّا

غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ

﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُمُونَ ﴿٣١﴾

لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ○ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ○ فَأَذَانُ اللَّهِ الْخَزَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه؛ فهو يتقي فيه سوء العذاب، لأنه قد غلّت يداه ورجلاه ○ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ○ أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخًا وتقريعًا: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء ﴿فَانْتَبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جاءهم في غفلة، أول نهار، أو هم قائلون.

﴿فَأَذَانُ اللَّهِ﴾ بذلك العذاب ﴿الْخَزَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

(٢٧-٣١) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

إِذْ جَاءَهُ **الَّذِينَ** فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى **لِلْكَافِرِينَ** ○ **وَالَّذِي** جَاءَ **بِالصِّدْقِ** **بِهِ** **أُولَئِكَ** **هُمُ** **الْمُنْقُوتُونَ** ○ **لَهُمْ** **مَا** **يَشَاءُونَ** **عِنْدَ** **رَبِّهِمْ** **ذَلِكَ** **جَزَاءُ** **الْمُحْسِنِينَ** ○ **لِيُكَفِّرَ** **اللَّهُ** **عَنْهُمْ** **أَسْوَأَ** **الَّذِي** **عَمِلُوا** **وَيَجْزِيَهُمْ** **أَجْرَهُم** **بِأَحْسَنِ** **الَّذِي** **كَانُوا** **يَعْمَلُونَ** **يَقُولُ** **تَعَالَى** **مُحَذِّرًا** **وَمُخْبِرًا** **أَنَّهُ** **لَا** **أَظْلَمَ** **وَأَشَدَّ** **ظُلْمًا** **وَمَنْ** **كَذَبَ** **عَلَى** **اللَّهِ** ○ **إِذَا** **بَنَسَبَتْهُ** **إِلَى** **مَا** **لَا** **يَلِيقُ** **بِجَلَالِهِ** **أَوْ** **بِادْعَاءِ** **النُّبُوَّةِ** **أَوْ** **بِإِخْبَارِ** **بِأَنَّ** **اللَّهَ** **تَعَالَى** **قَالَ** **كَذَا** **أَوْ** **أَخْبَرَ** **بِكَذَا** **أَوْ** **حَكَّمَ** **بِكَذَا** **وَهُوَ** **كَاذِبٌ** **فَهَذَا** **دَاخِلٌ** **فِي** **قَوْلِهِ** **تَعَالَى** **﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمَلُونَ﴾** **إِنْ** **كَانَ** **جَاهِلًا** **وَلَا** **فَهُوَ** **أَشْنَعُ** **وَأَشْنَعُ**.

[**وَكَذَّبَ** **بِالصِّدْقِ** **إِذْ جَاءَهُ** **﴿١﴾** **أَي** **مَا** **أَظْلَمَ** **مِمَّنْ** **جَاءَهُ** **الْحَقُّ** **الْمُؤَيَّدُ** **بِالْبَيِّنَاتِ** **فَكَذَّبَهُ** **فَتَكْذِيبُهُ** **ظُلْمٌ** **عَظِيمٌ** **مِنْهُ** **لَأَنَّهُ** **رَدَّ** **الْحَقَّ** **بَعْدَمَا** **تَبَيَّنَ** **لَهُ** **فَإِنْ** **كَانَ** **جَامِعًا** **بَيْنَ** **الْكُذْبِ** **عَلَى** **اللَّهِ** **وَالْتَكْذِيبِ** **بِالْحَقِّ** **كَانَ** **ظُلْمًا** **عَلَى** **ظُلْمٍ**.

﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى لِّلْكَافِرِينَ﴾ **يَحْصِلُ** **بِهَا** **الِاشْتِفَاءُ** **مِنْهُمْ** **وَأَخَذَ** **حَقَّ** **اللَّهِ** **مِنْ** **كُلِّ** **ظَالِمٍ** **وَكَافِرٍ** **﴿إِنَّكَ** **الشِّرْكَاءَ** **لَظُلْمٍ** **عَظِيمٍ﴾**.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنانيته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه. فقال: **﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾** في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ **أَي** **بِالصِّدْقِ** **لأنه** **قد** **يجيء** **الإنسان** **بِالصِّدْقِ** **وَلَكِنْ** **قَدْ** **لَا** **يُصَدِّقُ** **بِهِ** **بِسَبَبِ** **اسْتِكْبَارِهِ** **أَوْ** **احْتِقَارِهِ** **لِمَنْ** **قَالَ** **وَأَتَى** **بِهِ** **فَلَا** **بَدَّ** **فِي** **الْمَدْحِ** **مِنَ** **الصِّدْقِ** **وَالْتَصْدِيقِ** **فَصَدَّقَهُ** **يَدُلُّ** **عَلَى** **عِلْمِهِ** **وَعَدْلِهِ** **وَتَصْدِيقُهُ** **يَدُلُّ** **عَلَى** **تَوَاضُعِهِ** **وَعَدَمِ** **اسْتِكْبَارِهِ**.

﴿أُولَئِكَ﴾ **أَي** **الَّذِينَ** **وَفَّقُوا** **لِلْجَمْعِ** **بَيْنَ** **الْأَمْرَيْنِ** **﴿هُمُ** **الْمُنْقُوتُونَ﴾** **فَإِنْ** **جَمَعَ** **خِصَالَ** **التَّقْوَى** **تَرْجِعُ** **إِلَى** **الصِّدْقِ** **بِالْحَقِّ** **وَالْتَصْدِيقِ** **بِهِ**.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ **مِنَ** **الثَّوَابِ** **مِمَّا** **لَا** **عَيْنَ** **رَأَتْ** **وَلَا** **أُذُنَ** **سَمِعَتْ** **وَلَا** **خَطَرَ** **عَلَى** **قَلْبِ** **بَشَرٍ** **فَكُلُّ** **مَا** **تَعَلَّقَتْ** **بِهِ** **إِرَادَتُهُمْ** **وَمَشِيتَتُهُمْ** **مِنَ** **أَصْنَافِ** **اللَّذَاتِ** **وَالْمَشْتَهَاتِ** **فَإِنَّهُ** **حَاصِلٌ** **لَهُمْ** **مَعْدُومٌ**.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ **الَّذِينَ** **يَعْبُدُونَ** **اللَّهَ** **كَأَنَّهُمْ** **يُرُونَهُ** **فَإِنْ** **لَمْ** **يَكُونُوا** **يُرُونَهُ** **فَإِنَّهُ** **يَرَاهُمْ** **﴿الْمُحْسِنِينَ﴾** **إِلَى** **عِبَادَةِ** **اللَّهِ**.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ﴾

(١) في النسختين: أو كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ.

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ○ **فَرَأَيْنَا** **عَرِيبًا** **غَيْرَ** **ذِي** **عِوَجٍ** **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ○ **ضَرَبَ** **اللَّهُ** **مَثَلًا** **رَّجُلًا** **فِيهِ** **شُرَكَاءُ** **مُتَشَاكِسُونَ** **وَرَجُلًا** **سَلَمًا** **رَّجُلٌ** **هَلْ** **يَسْتَوِيَانِ** **مَثَلًا** **لِلْحَمْدِ** **لِلَّهِ** **بَلْ** **أَكْثَرُهُمْ** **لَا** **يَعْلَمُونَ** ○ **إِنَّكَ** **مَيِّتٌ** **وَأِنَّهُمْ** **مَيِّتُونَ** ○ **ثُمَّ** **إِنَّكُمْ** **يَوْمَ** **الْقِيَمَةِ** **عِنْدَ** **رَبِّكُمْ** **تَخْصِمُونَ﴾** **يُخْبِرُ** **تَعَالَى** **أَنَّهُ** **ضَرَبَ** **فِي** **الْقُرْآنِ** **مِنَ** **جَمِيعِ** **الْأَمْثَالِ** **أَمْثَالَ** **أَهْلِ** **الْخَيْرِ** **وَأَمْثَالَ** **أَهْلِ** **الشَّرِّ** **وَأَمْثَالَ** **التَّوْحِيدِ** **وَالشِّرْكِ** **وَكُلُّ** **مِثْلِ** **يَقْرَبُ** **حَقَائِقَ** **الْأَشْيَاءِ** **وَالْحِكْمَةِ** **فِي** **ذَلِكَ** **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** **عِنْدَمَا** **نُوضِحَ** **لَهُمْ** **الْحَقَّ** **فَيَعْلَمُونَ** **وَيَعْمَلُونَ**.

﴿فَرَأَيْنَا عَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ **أَي** **جَعَلْنَاهُ** **قَرَأْنَا** **عَرِيبًا** **وَاضِحَ** **الْأَلْفَافِ** **سَهْلَ** **الْمَعَانِي** **خُصُوصًا** **عَلَى** **العَرَبِ** **﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾** **أَي** **لَيْسَ** **فِيهِ** **خِلَلٌ** **وَلَا** **نَقْصٌ** **بُوجْهِ** **مِنَ** **الْوُجُوهِ** **لَا** **فِي** **أَلْفَافِهِ** **وَلَا** **فِي** **مَعَانِيهِ** **وَهَذَا** **يَسْتَلْزِمُ** **كَمَالَ** **اعْتِدَالِهِ** **وِاسْتِقَامَتِهِ** **كَمَا** **قَالَ** **تَعَالَى** **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عِوَجًا ○ قِيمًا﴾**.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ **اللَّهُ** **تَعَالَى** **حَيْثُ** **سَهَّلْنَا** **عَلَيْهِمْ** **طُرُقَ** **التَّقْوَى** **الْعِلْمِيَّةِ** **وَالْعَمَلِيَّةِ** **بِهَذَا** **الْقُرْآنِ** **العَرَبِيِّ** **المُسْتَقِيمِ** **الَّذِي** **ضَرَبَ** **اللَّهُ** **فِيهِ** **مِنْ** **كُلِّ** **مِثْلٍ**.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾** **أَي** **عَبْدًا** **﴿فِيهِ** **شُرَكَاءُ** **مُتَشَاكِسُونَ﴾** **فَهُمْ** **كثِيرُونَ** **وَلَيْسُوا** **مُتَّفِقِينَ** **عَلَى** **أَمْرٍ** **مِنَ** **الْأُمُورِ** **وَحَالَةً** **مِنَ** **الْحَالَاتِ** **حَتَّى** **تُمْكِنَ** **رَاحَتُهُ** **بَلْ** **هُمُ** **مُتَشَاكِسُونَ** **مُتَنَازِعُونَ** **فِيهِ** **كُلٌّ** **لَهُ** **مَطْلَبٌ** **يُرِيدُ** **تَفْظِيذَهُ** **وَيُرِيدُ** **الْآخَرَ** **غَيْرَهُ** **فَمَا** **تُظَنُّ** **حَالُ** **هَذَا** **الرَّجُلِ** **مَعَ** **هَؤُلَاءِ** **الشُّرَكَاءِ** **الْمُتَشَاكِسِينَ؟**

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا رَّجُلٌ﴾ **أَي** **خَالِصًا** **لَهُ** **قَدْ** **عُرفَ** **مَقْصُودُ** **سَيِّدِهِ** **وَحَصِلَتْ** **لَهُ** **الرَّاحَةُ** **التَّامَةُ** **﴿هَلْ** **يَسْتَوِيَانِ﴾** **أَي** **هَٰذَا** **الرَّجُلَانِ** **﴿مَثَلًا﴾** **؟** **لَا** **يَسْتَوِيَانِ**.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعوا هذا، ثم يدعوا هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ **عَلَى** **تَبْيِينِ** **الْحَقِّ** **مِنَ** **الْبَاطِلِ** **وِإِرْشَادِ** **الْجِهَالِ** **﴿بَلْ** **أَكْثَرُهُمْ** **لَا** **يَعْلَمُونَ﴾**.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَأِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ **أَي** **كُلُّكُمْ** **لَا** **بَدَّ** **أَنْ** **يَمُوتَ** **﴿وَمَا** **جَعَلْنَا** **لِشَيْءٍ** **مِّنْ** **قِيلَاقٍ** **الْخُلْدِ** **أَفَايِنَ** **مَيِّتَ** **فَهُمْ** **الْمُتَلَدِّونَ﴾**.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾ **فِيمَا** **تَنَازَعْتُمْ** **فِيهِ** **فَيُفْصَلُ** **بَيْنَكُمْ** **بِحُكْمِهِ** **العَادِلِ** **وَيُجَازِي** **كُلًّا** **مَا** **عَمِلَهُ** **﴿أَخْصَنَهُ** **اللَّهُ** **وَسُوءَ﴾**.

(٣٥-٣٢) **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ**

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات، وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب. والأسوأ: المعاصي كلها، والأحسن: الطاعات كلها. فهذا التفصيل يبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بحسناتهم كلها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّدُونِ﴾ وإن نَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا.

(٣٧، ٣٦) ﴿الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ ﴿الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أليس من كرمه وجوده وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته، وامتنل أمره واجتنب نهيهِ، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

(٣٨) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لم يشبوا لألهتهم من خلقها شيئاً ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الذي خلقها وحده ﴿قُلْ﴾ لهم مقررًا عجز آلهتهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: ضرر كان.

﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع، على أنه وحده المعبود،

وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق، والنفع والضرر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرهم وكيدهم: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسي، سيكفيني كل ما أهتمي وما لا أهتم به.

(٣٩، ٤٠) ﴿قُلْ يَتَقَوَّرُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يأتيه عذابٌ يُخْرِجُهُ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَتَقَوَّرُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً، ولا له من الأمر شيء ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن العاقبة ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْرِجُهُ﴾ في الدنيا ﴿وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ﴾ في الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾ لا يحول عنه ولا يزول. وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

(٤١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۖ﴾
يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواهي، الذي هو مادة الهداية، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بنوره وتابع أوامره إن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ لا يضر الله شيئاً ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

(٤٢) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْطِنُونَ﴾ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالى وحكمته، أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وهذه الموتة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها ﴿فِيمِمْسِكَ﴾ من هاتين النفسين: النفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وهي نفس من كان مات، أو قضى أن يموت في منامه ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها، في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء ويمسك أرواح الأموات.

(٤٣، ٤٤) ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۚ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۚ لَكُمْ مَلِكُ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۚ لَكُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُنَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَبَدَّلَهُمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ينكر تعالى، على من اتخذ من دونه شفعاء، يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم ﴿قُلْ﴾ لهم - مبيتاً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أُولَٰئِكَ كَانُوا﴾ أي: من اتخذتم من الشفعاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جمادات: من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم، وأعظمهم ظلماً؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه. فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنيين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميع ما فيها من الذوات والأفعال والصفات فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل: ومن أشرك به، بالعذاب الويل.

بين عبادهم وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقه دال على علمه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

(٤٨، ٤٧) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ○ وبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَذَكَرَ مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه. وأنهم - على الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعًا، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئًا ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ○ إِنْ مَنْ أَقَى اللَّهِ يَفْلَحُ سَلِيمٌ. ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

(٤٩-٥٢) ﴿فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ ضُرًّا دَعَا نَحْنُ إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ مَنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ○ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ○ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ○ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضرر، من مرض أو شدة أو كرب ﴿دَعَانَا﴾ ملجأ في تفرج ما نزل به ﴿نَحْنُ إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ مَنَّا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بربه كافرًا، ولمعروفه منكرا، و ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: علم من الله: أنني له أهل وأني مستحق له، لأنني كريم عليه. أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يبتلي الله به عباده لينظر مَنْ يشكره ممن يكفره ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشبهه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سببًا للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قولهم ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين لا يقرون بنعمة

(٤٥، ٤٦) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ○ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يذكر تعالى حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ توحيدًا له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشتمزون ويفترون، ويكرهون ذلك أشد الكراهة.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ بذلك، فرحًا بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقًا لأهوائهم، وهذه الحال أشرف الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء، فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تنفعهم آلهتهم، التي كانوا يدعون من دون الله شيئًا؟

ولهذا قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومدبرهما ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي نشاهده.

﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنی في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسوا فيك مَنْ لا يسوى شيئًا، وتنقصوك غاية النقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشتمزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنی.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيَّيْنَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ خَصَصَانِ أَخَصَّصُوا فِي رِيحِهِمُ الْقَالِينَ كَفَرُوا فُطِعَتْ لَهُمْ قِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ○ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ○ وَلَمْ يَمْلِكِ مِنْ حَمِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ ظُلْمًا أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْرُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَشْرِكِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقد رتبته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٤٦٤

بِذَلِكَ الْآيَاتِ

وَبَدَّلَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥٨﴾ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَعْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَأَنِيعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦٦﴾

رَبِّهِمْ، وَلَا يَرُونَ لَهُ حَقًّا، فَلَمْ يَزَلْ دَاهِبُهُمْ حَتَّى أَهْلَكُوا وَلَمْ يَغْنِ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٨﴾ حِينَ جَاءَهُم الْعَذَابُ.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه: أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق، أي: يضيقه على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم؛ لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

(٥٣-٥٩) ﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنِيعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦٦﴾ أَو تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾ بَلْ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ يخبر تعالى عباده المفسرين بسعة كرمه ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرّفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ من الشرك، والقتل،

والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان، ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يدها من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواصل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب، إن لم يأت بها العبد فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد فلهم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم.

ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ بقلوبكم، بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً

الْزُّمَرُ

٤٦٥

سُورَةُ الزُّمَرِ

أَوْ تَقُولُ لَوَأَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
 أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوَأَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونُ
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَذُّبِي فَكَذَّبَتْ بِهَا
 وَأَسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
 تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 بِمِقَارِ تِهَمَةٍ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ
 خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
 هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوَنِي بِعِبَادَةِ
 الْغَيْبِ لَوْ أَنَّ لِيَ إِلَٰهًا وَمَا أَتَىٰكَ الْغَيْبُ لَإِنَّكَ لَمِنَ
 الْآشِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ
 أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبُنَّ عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ
 فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
 وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
 مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم،
 ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، وعن
 عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى والله! إن فيها لعقوبة وخزيًا
 وسخطًا، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم
 بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك
 والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء
 النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله
 وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين ذكر حالة المتقين، فقال:
 ﴿وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِقَارِ تِهَمَةٍ﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن
 معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند
 كل هول وشدة ﴿لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ﴾ أي: العذاب الذي
 يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفي عنهم مباشرة العذاب وخوفه،
 وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام.
 فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ مجيبًا لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا
 تُنصَرُونَ﴾ فكانه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها
 وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن
 رَبِّكُمْ﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله،
 وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير
 لهم، وترك ما يضاد ذلك. ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة
 والزكاة والصيام، والحج والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو
 ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا،
 فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها، هو المنيب
 المسلم.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنَّهُ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكل
 هذا حث على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أَنْ﴾ لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم
 يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة و ﴿تَقُولُ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا
 فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في جانب حقه ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾ في
 الدنيا ﴿لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأيته عيانًا.

﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ و«لو»
 في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقيا
 له فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا
 شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء
 والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل
 كل حجة باطلة.

﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده ﴿لَوْ أَنَّ لِي
 كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا لكنت ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال
 تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا
 حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لورود، بيان بعد البيان الأول.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَذُّبِي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على
 الحق ﴿فَكَذَّبَتْ بِهَا وَأَسْتَكْبَرَتْ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنْتُ مِنَ
 الْكَافِرِينَ﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا
 نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(٦١، ٦٠) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمُ
 مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ○ وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 بِمِقَارِ تِهَمَةٍ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يخبر تعالى عن
 خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة
 كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلغ
 واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود
 الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعرضوا عنها بالعذاب الأليم.

(٦٤-٦٦) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تُأْمُرُونِي أَعِدُّوا لَهُمْ إِنَّهَا كَمَنْهُولٌ ۖ وَلَقَدْ آوَيْنَا إِلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۚ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَهْؤُلاءِ الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ دَعَوْكَ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تُأْمُرُونِي أَعِدُّوا لَهُمْ إِنَّهَا كَمَنْهُولٌ﴾ أَي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون مَنْ كان ناقصاً من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك.

وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آوَيْنَا إِلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من جميع الأنبياء. ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل.

ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينك وآخرتك فبالشرك تحبط الأعمال ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله، على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يُشكر ويُثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى. بل نِعَم الدين، هي النعم على الحقيقة. وفي تدبر أنها من الله تعالى، والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب، التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم. وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُتُكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك من إشراكهم به مَنْ هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا

النعيم، ويقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

(٦٢، ٦٣) ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكماله، الموجب لخسران مَنْ كفر به فقال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كل مَنْ قال بقدم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسماوات، وكالفائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول، ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها، أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى، لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها، بوقت من الأوقات.

والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة، أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله. ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك، فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالى منزّه عن كل نقص في صفة من صفاته، فإخباره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحها، علماً وتديباً، ﴿فَمَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية، فلم يقدره حق قدره فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ﴾ الدالة على الحق اليقين، والصرط المستقيم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعرضوا عن ذلك كل

منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسوا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي - من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة - أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السموات - على سعتها وعظمتها - مطويات يمينه. فلا عظمه حق عظمته، من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سَبِّحْهُنَّ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزهه وتعظمه عن شركهم به.

(٦٨-٧٠) ﴿وُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَوُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم وربهم فقال: ﴿وُفِّخَ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام؛ أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين. ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق، ونفخة الفرع.

﴿ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: قد قاموا من قبورهم، لبعثهم وحسابهم قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ماذا يفعل الله بهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك. فإن الله أخبر أن الشمس تكور، والقمر يخسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة، يَقْوُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ

سُورَةُ الزَّحَر

٤٦٦

سُورَةُ الزَّحَر

وُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَوُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا نَسِيتُمْ مَقَرًا أَن تَقُولُوا سَلَامٌ ۖ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ أَمْرَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝

هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ آمِدًا﴾ ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. ﴿وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم. ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ من الملائكة، والأعضاء، والأرض. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم؛ لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

(٧١-٧٥) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ

جَهَنَّمَ ﴿ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها ﴾ ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون ﴿ فَيَسَّ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي: بشس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ أَتَقَوَّا رَحْمَتَهُمْ ﴾ بتوحيده، والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله ﴿ حَقَّقَ إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية، والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ لهم ﴿ أَبْوَابُهَا ﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ تهتة لهم وترحيباً: ﴿ سَلِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: سلام من كل أفة وشر حال، عليكم ﴿ طِبَّتُمْ ﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته ﴿ فَذُ ﴾ بسبب طيبكم ﴿ ادْخُلُوهَا خَلِيدِينَ ﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وفي الجنة ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها، من غير انتظار ولا إمهال وليكون فتحها في وجوههم وعلى وصولهم أعظم لحرها وأشد لعذابها، وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا مَنْ أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا مَنْ استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿ وَقَالُوا ﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله إن آمنا وصلحنا، فوقى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مَنَّا ﴿ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ ﴾ أي: أرض الجنة ﴿ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي: نزل منها أي مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً

عَلَيْكُمْ ءَايَتِ رَبِّكُمْ وَيُذِذُوكُمْ لِفَآءِ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ○ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَيَسَّ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ○ وَسَيَقَ الَّذِينَ أَتَقَوَّا رَحْمَتَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَقَّقَ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمَ عَلَيْكُمْ طِبَّتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَلِيدِينَ ○ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ○ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُفَّى بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ لما ذكر تعالى حكمه بين عباده - الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتديبه، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة - فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ أي: سوقاً عنيفاً، يُضربون بالسياط الموجهة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ أي: يدفعون إليها دفعاً، وذلك لامتناعهم من دخولها ويساقون إليها ﴿ زُمَرًا ﴾ أي: فرقاً متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، ويرأ بعضهم من بعض ﴿ حَقَّقَ إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿ فُتِحَتْ ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿ أَبْوَابُهَا ﴾ لقدومهم وقرى لزولهم.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدى، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال، التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِ رَبِّكُمْ ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿ وَسُذِرُوا لِفَآءِ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحد من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿ قَالُوا ﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿ بَلَى ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبياناته، وبيئوا لنا غاية التبيين وحذرونا من هذا اليوم ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل مَنْ كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿ قِيلَ ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ

بَاقِيًا مُسْتَمَرًّا.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلًا، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وَرَى الْمَلَكَةُ حَافِينَ﴾ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغفرين بجماله ﴿يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسوا.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم، وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر - بحمد الله وعونه -.

تفسير سورة المؤمن

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿حَمِّمٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ○ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ لَدُنْهُ الْحَمْدُ ○ يخبر تعالى عن كتابه العظيم بأنه صادر ومزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله.

﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ من التائبين. ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على مَنْ تجرأ على الذنوب ولم يتب منها ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: الفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجباً لأن يكون وحده المألوه، الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ لَدُنْهُ الْحَمْدُ﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني، فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله

وَرَى الْمَلَكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ○ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّمٌ ○ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ○ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ○ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ لَدُنْهُ الْحَمْدُ ○ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ ○ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ○ فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ○ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ○ وَالْأَحْزَابُ ○ مِنْ بَعْدِهِمْ ○ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ○ وَجَدَلُوا ○ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ○ فَأَخَذَهُمْ فَكَيْفَ ○ كَانِ عِقَابٌ ○ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ○ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ○ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ○ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ○ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ○ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ○ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ ○ رَحْمَةً ○ وَعِلْمًا ○ فَاغْفِرْ ○ لِلَّذِينَ تَابُوا ○ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ○ وَقِهِمْ ○ عَذَابَ الْجَحِيمِ ○ ﴿٧٦﴾

وصفاته وأفعاله؛ وهذه أسماء وأوصاف وأفعال.

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعيمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

وإما إخبار عن نعيمه الشديدة، وعمّا يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فساده، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَهٌ لَدُنْهُ الْحَمْدُ﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

الْعَظِيمُ» يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قبض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسماوات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم.

واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة، عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثِينَ﴾.

﴿وَمَنْ حَوْلَ﴾ من الملائكة المقربين في المنزل والفضيلة ﴿سَيَحْمِلُونَ حِمْلَهُ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله وبحمده» فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غاية مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه.

﴿فَاعْتَرِ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَأَتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك ﴿وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَجْهِمٌ﴾ أي: قهقري العذاب نفسه، وفيهم أسباب العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَذِلَّهِمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على السنة رسلك

(٤-٦) ﴿مَا يُجَدِّلُ فِيَّ ءَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْيَدِ﴾ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلُوهُ بِهِ الْغَىَّ فَآخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿مَا يُجَدِّلُ﴾ في آياته ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق، ليدحض به الباطل.

ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْيَدِ﴾ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه مَنْ لا علم ولا عقل له.

ثم هدد مَنْ جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل مَنْ قبله من الأمم من ﴿قَوْمٌ نُوْحٌ﴾ وعاد ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه، وعلى الباطل ليصروه.

﴿و﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: يقتلوه، وهذا أبلغ ما يكون للرسول، الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا يقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟

ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَآخَذْنَاهُمْ﴾ أي: بسب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة، أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم، فإذا هم خامدون.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كما حققت على أولئك، حققت عليهم كلمة الضلال، التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

(٧-٩) ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ. والذي يوجب له الجزم، بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى، والمتوقف عليه. الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحًا، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له. وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة - ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين - فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا تزال تنقلب فيه في كل الآتات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنك الكريم الروهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به، سببًا لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله، كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ فحيث يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

(١٠-١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُسَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۚ قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَادِنَا وَأَحِبِّينَا أَتُنَادِنَا قَاعَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۚ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلِنْ يَشْرِكْ بِهِ تُوْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها: من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَنْ آبَايَهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿وَذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فبِعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم به إلى كل خير ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها. فلا نسألك يا ربنا أمرًا تقتضي حكمتك خلافة، بل من حكمتك - التي أخبرت بها على ألسنة رسلك، واقتضاها فضلك - المغفرة للمؤمنين. ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الأعمال السيئة وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها ﴿وَمَنْ تَوَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾ لأن رحمتكم لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة ﴿هُوَ أَلْفَوْزُ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يجب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه؛ فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها، واقتضاءها، لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علمًا، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُذلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها، واجتهدوا اجتهاد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون الذين يحبه الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفضله من دعائهم بعد قوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

٤٦٨

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفَهُمُ السَّعَاتُ وَمَنْ تَقِ السَّعَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا دُونَ لَمَقَّتِ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفَنُؤْتِنَا أَتْنَيْنِ وَأُحْيِيَّتَنَا أَتُتْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُونِنَا فَأَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

نَقِيهِ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يُرى عباده من آياته النفسية والأفاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق.

وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يَبْقِ الحق مشتبهاً، ولا الصواب ملتبساً، بل نَوْعُ الدلالات ووضوح الآيات، ليهلك مَنْ هلك عن بيئته، ويحيى مَنْ حي عن بيئته، وكلُّما كانت المسائل أجَلَّ وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر.

فانظر إلى التوحيد، لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ولما ذكر أنه يُرى عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال:

ويقال لهم: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين دعيتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتهم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم.

فهذا ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: فلم يزل هذا المقت، مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حَالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حلٌ عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

فتمنوا الرجوع، و﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتْنَيْنِ﴾ يريدون الموتة الأولى، وما بين النفتختين على ما قيل. أو العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم ﴿وَأُحْيِيَّتَنَا أَتْنَيْنِ﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرى ﴿فَاعْرَفْنَا بِدُنُونِنَا فَأَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، ف قيل لهم:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا دُعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرْتُمْ﴾ به واشمازت لذلك قلوبكم ونفرتهم غاية النفور. ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا المقيلاً والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح، في الدنيا والآخرة. تؤثرن سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْفِتْنِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر. ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.

﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله، المتزّهة عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل.

(١٧-١٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ○ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ○ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ○ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ○ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ

وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿إِنذِرْ﴾ مَنْ ألقى الله إليه الوحي ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له، بالأسباب المنجية مما يكون فيه، وسماه «يوم التلاق» لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمت فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: مَنْ هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للاولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟

الملك ﴿لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها، بوجه من الوجوه ﴿الْقَهَّارِ﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحج القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: لا تستبطوا ذلك اليوم، فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

(١٨-٢٠) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا سَمِيعٍ يُطَاعُ ○ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ○ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ يقول تعالى لنبه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها، وقلقلها، وزلازلها، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكره إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم ﴿كَظِيمٍ﴾ لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ﴾ أي: قريب ولا صاحب ﴿وَلَا

﴿وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطراً، به ترتزون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه.

فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بِالْآيَاتِ حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

ولما كانت الآيات ثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

والإخلاص معناه: تخلص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: العلي الأعلى الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه وتعال ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه.

ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي فقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الرسل، الذين فضلهم الله، واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده، والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم،

سَفَعُ بَطَاحٌ ﴿٢١﴾ لَأَن الشُّعَاءَ لَا يَشْفَعُونَ فِي الظَّالِمِ نَفْسَهُ بِالشَّرْكِ، وَلَوْ قُدِّرَتْ شَفَاعَتُهُمْ، فَاللهُ تَعَالَى لَا يَرْضَى شَفَاعَتَهُمْ، فَلَا يَقْبَلُهَا.

﴿يَعْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسيه ومقارنه، وهو نظر المسارقة ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة، من باب أولى وأحرى.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أوليائه وأحبابه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾^(١) بما كان وما يكون، وما نبصر، وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترهيب والترغيب.

(٢٢، ٢١) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بقلوبهم وأبصارهم، سير نظر واعتبار وتفكر في الآثار ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة.

وقد ﴿كَانُوا﴾ أشد قوة من هؤلاء في العدد والعدد وكبر الأجسام ﴿وَوَ﴾ أشد آثاراً في الأرض من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعه بها ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بعقوبته ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ حين أصروا واستمروا عليها ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

﴿يَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ لِّلْيَوْمِ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾ وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّاءٍ لِّلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿٢٣﴾ يَعْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٣٠﴾

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول، وهو فرعون وجنوده فقال:

(٢٣-٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى آخر القصة.

أي ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيقته ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتدفع لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿مُوسَى﴾ ووزيره ﴿هَارُونَ﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم

(١) في النسختين (العليين) وهو خطأ فالوارد في الآية (البصير).

رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبلاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَفَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لأن بيئته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلأ أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرت، هل يحل قتله - إذا ظهرتم عليه بالحجة - أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي. ثم قال لهم مقالة عقلية تنفع كل عاقل، بأي حالة قدرت فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعت من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم. ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد، بترك الحق والإقبال على الباطل ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم.

أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم.

بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا أَتَقْتُلُوا آيَاتَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقبوا، وبقوا في رقهم، وتحت عبوديتهم، فما كيدهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

(١) وتدير هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم. وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين، فلهذا لم يقل «وما كيدهم» إلا في ضلال» بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

و ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿دَرُوفِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رِبِّي﴾ أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه. ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، هذا من التمويه والترويج، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ - حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره - مستعيناً بربه: ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: امتنعت بربوبيته، التي دبر بها جميع الأمور ﴿وَمِنْ كُلِّ مَكْرٍ لَا يَوْمُنَّ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: يحمله تكبره، وعدم إيمانه بيوم الحساب، على الشر والفساد.

يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه، من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملاه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب، ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴿٦٦﴾
 وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
 لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
 اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
 فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
 يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٦٨﴾ يَقَوْمُ
 لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ
 بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا
 أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومُ إِلَهِي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٧٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْسٍ مِثْلَ
 وَعَادٍ وَنَمُودٍ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٧١﴾
 وَيَنْقُومُ إِلَهِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٧٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ
 مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٧٣﴾

يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾
 فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهيول، وتوجه لهم أن
 أقاموا على شركهم بذلك.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار
 ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها
 عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تَبْلُ التَّرَائِدِ﴾ فَا
 لَمْ يَنْقُومُوا وَلَا نَاصِرٌ.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى،
 فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لحبته، فلا سبيل
 إلى هدايته.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ ابن يعقوب عليهما السلام ﴿مِنْ
 قَبْلِ﴾ إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم
 بعبادة ربكم وحده لا شريك له ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ
 بِهِ﴾ في حياته ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم و
 ﴿فَلَمَّا كُنَ يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: هذا ظنكم
 الباطل، وحسابكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا
 يترك خلقه سدى - لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله -

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم
 عن الاغترار بالملك الظاهر فقال: ﴿يَقَوْمُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾
 أي: في الدنيا ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ على رعيبتكم، تنفذون
 فيهم ما شئتم من التدبير.

فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ
 بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾؟ وهذا من حسن دعوته،
 حيث جعل الأمر مشتركًا، بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾
 وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم، كما ينصح
 نفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا له في ذلك، ومغررًا لقومه أن
 يتبعوا موسى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
 الرَّشَادِ﴾ وصدق في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ ولكن ما
 الذي رأى؟ رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته،
 ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنًا
 له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا
 قلب للحق فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله،
 لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه
 اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ مكررًا دعوة قومه، غير آيس من
 هدايتهم - كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون
 يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من
 دعوته عن تكرار الدعوة - فقال لهم: ﴿يَقَوْمُ إِلَهِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على
 أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم.

ثم بينهم فقال: ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْسٍ مِثْلَ وَعَادٍ وَنَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ﴾ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم
 بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
 لِلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات
 الآخروية، فقال: ﴿يَا قَوْمُ إِلَهِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي: يوم
 القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ جِئْنَاكُمْ وَعَدْنَا
 رَبَّنَا حَقًّا﴾ إلى آخر الآيات. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ
 أَفْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى
 الْكَافِرِينَ﴾.

وحين ينادي أهل النار مالكا ﴿يَقِضْ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول:
 ﴿إِنَّكُمْ تَكُونُونَ﴾. وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ
 عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧١

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَأَزَلْتُمْ فِي سَبِيلِكُمْ جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكِبٍ جِبَارٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَكْفُرُ أَتَنِى لِى صَرَحًا لَعَلِّى أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ ﴿٢٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يَقُولُ أَتَتَّبِعُونَ أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ يَقُولُوا إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٠﴾

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار ووبار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَقُولُ أَتَتَّبِعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿يَقُولُوا إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَّعَ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتكم له ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه، لأن جزاء السيئة سوء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفٍ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد،

وظن أن الله لا يرسل رسولاً ظن ضلالاً، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوًا، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب - لا ينفك عنهما - لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ وَنَذْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ﴾.

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت - من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويطلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم، لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلاً.

﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فالله أشد بغضاً لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمتنون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكِبٍ جِبَارٍ﴾ متكبر في نفسه على الحق يرده وعلى الخلق باحتقارهم. جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً لموسى، ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَكْفُرُ أَتَنِى لِى صَرَحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلى أطلع ﴿إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ في دعواه أن لنا رباً، وأنه فوق السموات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه وناظر مناظرة المحققين، وهو من أعظم المفسدين.

﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له

بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم .

﴿وَقَفَّوْا مَا لِيَ أَدْعُوَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام .

ثم فسر ذلك فقال : ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها .

﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء ﴿الْفَكْرُ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجراؤون على مساحطه ثم إذا تابوا وأنبأوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية .

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي : حقا يقينا ﴿أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي : لا يستحق من الدعوة إليه والحب على اللجأ إليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً .

﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى فسيجازي كل عامل بعمله . ﴿وَأَنْتَ الْمُتْرَفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم، بالتجرو^(١) على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم .

فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم : ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة وسترون مغبة عدم قبولها، حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب .

﴿وَأَفُوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي : ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحه ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون : يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تصرفون إلا بإرادته ومشيتته، فإن سلطكم عليّ، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيتته صدر ذلك .

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي : وقى الله القوي الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له : من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾

وَنَقُومَ مَا لِيَ أَدْعُوَكُمْ إِلَى النَّارِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤٧﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَكْرِ ﴿٤٨﴾ لَاجِرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ الْمُتْرَفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٩﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٠﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٥١﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَانَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٥٣﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَانَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٥٥﴾

أغرقهم الله تعالى، في صبيحة واحدة عن آخرهم .

وفي البرزخ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسول الله، المعاندين لأمره .

(٤٧-٥٠) ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَانَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَانَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال : ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين .

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ أي : التابع للقيادة ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

٤٧٣

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥١﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٥﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْرِضُونَ سُلْطَانًا لَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٧﴾ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾

على الحق ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ نَعًا﴾ أنتم أغويتونا، وأضللتمونا، وزيتتم لنا الشرك والشر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ مبينين لعجزهم، ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِبْرَءٌ﴾ الله قد حكم بينكم ﴿وَجَعَلَ لِكُلِّ قَسْطِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فلا يزداد في ذلك، ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لَخَزَنَةٌ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ لعله تحصل بعض الراحة.

﴿قَالُوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعائهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي تبيّن بها الحق والصراف المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين ﴿قَالُوا﴾ أي الخزنة، لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئاً أم لا؟

قال تعالى: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محيط لجميع الأعمال، صاذا لإجابة الدعاء.

﴿٥٢، ٥١﴾ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله، وحاربوه، قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر. وفي الآخرة بالحكم لهم ولاتباعهم بالثواب، وللمن حاربهم بشدة العقاب.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ حين يعتذرون ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازلها. ﴿٥٣-٥٥﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾

﴿هُدَىٰ وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار، ذكر أنه أعطى موسى ﴿الْهُدَىٰ﴾ أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به المهتدون ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جعلناه متوارثاً بينهم، من قرن إلى آخر، وهو التوراة.

وذلك الكتاب مشتمل على الهدى الذي هو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها. وعلى التذكرة للخير، بالترغيب فيه. وعن الشر، بالترهيب عنه. وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليس مشكوكاً فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدى الصرف، الذي يصبر عليه الصابرون، ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ من الأسباب التي تحت على الصبر على طاعة الله، وعن ما يكره الله.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبلاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصاً ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما لأن في ذلك عوناً على جميع الأمور.

الأبرار والفقار، وكانت لكم همة عليّة، لأنتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق. ونظقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد الموثقة والآيات الأفقية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق والإذعان.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَٰخِرِينَ﴾ هذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم. وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَٰخِرِينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم.

(٦١-٦٥) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكُمُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۝ كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَٰأَيُّهَا اللَّهُ يَجْعَلُونَ ۝ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَسَرَّاهَا وَأَلْسَمَهُ يَسَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تدبر هذه الآيات الكريمات الدالة على سعة رحمة الله تعالى، وجزيل فضله، وجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته، وانفراده فيها وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها، ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمور شيء، ولا من القدرة شيء. فينتج من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد [غيره] (٦٢) من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً. وينتج من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبه وخوفه ورجائه. وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق

(٥٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ لِنَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْقِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُم مِّنَ الْمَكِيدِينَ﴾ يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل، بغير بينة من أمره ولا حجة، أن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم. ولكن هذا لا يتم لهم، وليسوا ببالغية، فهذا نص صريح، وبشارة بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل.

﴿فَاَسْتَعِذْ﴾ أي: اعتمصم والجأ بالله ﴿لَمْ يَذْكُرْ مَا يَسْتَعِذْ، إِرَادَةً لِلْعُمُومِ. أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلافها ﴿الْبَصِيرُ﴾ بجميع المراتيات، بأي محل وموضع وزمان كانت.

(٥٧-٥٩) ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَىٰ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى بما تقرر في العقول، أن خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - أعظم وأكبر من خلق الناس - فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون. فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة، بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث. وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَىٰ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على معاصيه، ساعياً في مساخطه.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ أي: تذكركم قليل (٦١)، وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين

(١) في النسختين (قليلًا). (٢) زيادة بقضيهما السياق.

الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده. وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخرية. وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده. وهما أشرف اللذات على الإطلاق. وهما اللذان إن فاتا فأت كل خير، وحضر كل شر.

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاطمه سؤال، ولا يخفيه نوال.

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ أي: لأجلكم، جعل الله الليل مظلمًا. ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ من حركاتكم التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويُلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه. ويسكن أيضًا كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿وَجَعَلَ تَعَالَى﴾ ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية. هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصلح حيواناته.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التذكير ﴿عَلَّ النَّاسَ﴾. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية. لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تقرير لربوبيته.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: ﴿فَاقْبَلُ تَوْفِيقِي﴾ أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل؟!

﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُبَايِعُونَ اللَّهَ بِحَبْثٍ﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَكَذَا يَرَبُّكُمْ مِّنْ أَمْرٍ ثُمَّ أَصْرَفُوا

٤٧٤
﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّارَبِّ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦١﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٣﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُبَايِعُونَ اللَّهَ بِحَبْثٍ ﴿٦٤﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

صَرَخَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة، مهياة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفا للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنفعون به من الأنوار والعلامات التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضوًا عضوًا، هل تجد عضوًا من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضًا إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل

وَمَشْرَبٌ، وَمَنْكَحٌ وَمَلْبَسٌ، وَمَنْظَرٌ وَمَسْمَعٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي يَسُرُّهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ، وَيَسِرُّ لَهُمْ أَسْبَابُهَا، وَمَنْعُهُمْ مِنَ الْخَبَائِثِ الَّتِي تَضَادُّهَا، وَتَضُرُّ أَبْدَانَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ. ﴿ذَلِكُمْ﴾ الَّذِي دَبَّرَ الْأُمُورَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ ﴿اللَّهُ رِئْكَكُمْ﴾.

﴿فَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: تَعَاظَمَ، وَكَثَّرَ خَيْرِهِ وَإِحْسَانَهُ، الْمَرْبِيَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمِهِ. ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الَّذِي لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ التَّامَةُ، الْمُسْتَلْزِمَةُ لِمَا تَسْتَلْزِمُهُ مِنْ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ، الَّتِي لَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ إِلَّا بِهَا، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْكَلَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنِعْوَتِ جَلَالِهِ.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ، إِلَّا وَجْهَهُ الْكَرِيمَ ﴿فَادْعُوهُ﴾ وَهَذَا شَامِلٌ لِدَعَاءِ الْعِبَادَةِ وَدَعَاءِ الْمَسْأَلَةِ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أَي: اقْصِدُوا بِكُلِّ عِبَادَةٍ وَدَعَاءٍ وَعَمَلٍ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ حَقَّقَهُ﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: جَمِيعِ الْمُحَامِدِ وَالْمَدَائِحِ وَالنِّسَاءِ، بِالْقَوْلِ كَنَطَقَ الْخَلْقُ بِذِكْرِهِ. وَالْفِعْلُ، كِعِبَادَتِهِمْ لَهُ، كُلُّ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِكَمَالِهِ فِي أَوْصَافِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَتَمَامِ نِعْمِهِ.

(٦٦-٦٨) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْكِتَابُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكِنُوا شَيْوَحًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مَسْنًى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فُتِحَ أَمْرٌ فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْأَمْرَ بِالْإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَذَكَرَ الْأَدْلَةَ عَلَى ذَلِكَ وَالْبَيِّنَاتِ، صَرَحَ بِالنُّهْيِ عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ فَقَالَ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، وَكُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْكِتَابُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق. كما أن النهي عن عبادة ما سِوَاهُ أعظم مَنَهْيٍ عَنْهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ. ثُمَّ قَرَّرَ هَذَا التَّوْحِيدَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ لَكُمْ، وَالْمُطَوِّرُ لَخَلْقَتِكُمْ.

فكما خلقكم وحده، فاعبدوه وحده، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وَذَلِكَ بِخَلْقِهِ لِأَصْلَاحِكُمْ وَأَيُّكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ﴾ وَهَذَا ابْتِدَاءُ خَلْقِ سَائِرِ النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مَا دَامَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَتَبَهُ بِالْإِبْتِدَاءِ عَلَى بَقِيَةِ الْأَطْوَارِ، مِنَ الْعِلْقَةِ، فَالْمُضْغَةِ، فَالْعِظَامِ، فَفَنَخِ الرُّوحِ. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ثُمَّ هَكَذَا تَنْتَقِلُونَ فِي الْخَلْقَةِ الْإِلَهِيَّةِ حَتَّى تَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ مِنْ قُوَّةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، وَجَمِيعِ قَوَاهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ﴿ثُمَّ لِيَتَّكِنُوا شَيْوَحًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ بُلُوغُ الْأَشَدِّ ﴿وَلِيَبْلُغُوا﴾ بِهَذِهِ الْأَطْوَارِ الْمُقَدَّرَةِ إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ تَنْتَهِي عَنْده أَعْمَارُكُمْ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا ينبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَي: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، فَلَا تَمُوتُ نَفْسٌ بِسَبَبٍ أَوْ بِغَيْرِ سَبَبٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ﴿فَإِذَا فُتِحَ أَمْرٌ﴾ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا ﴿فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لَا رَدَّ فِي ذَلِكَ، وَلَا مَثْنُوَّةٌ، وَلَا تَمْنَعُ.

(٦٩-٧٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّ ءَايَتِ اللَّهِ أَنَّى يَصْرِفُهُمْ﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَغْتَفَاهُمْ وَالسَّكِلُ يُسْحَبُونَ﴾ فِي الْحَيَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أَذْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَنُفِثَ مِنْهُمْ الْمُنَافِقِينَ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّ ءَايَتِ اللَّهِ﴾ الْوَاضِحَةُ الْبَيِّنَةُ مُتَعَجِّبًا مِنْ حَالِهِمُ الشَّنِيعَةِ. ﴿أَنَّى يَصْرِفُهُمْ﴾ أَي: كَيْفَ يَنْعَدِلُونَ عَنْهَا؟ وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَذْهَبُونَ بَعْدَ الْبَيَانِ التَّامِ؟ هَلْ يَجِدُونَ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ تَعَارِضُ آيَاتِ اللَّهِ؟ لَا وَاللَّهِ. أَمْ يَجِدُونَ شِبْهًا تَوَافِقَ أَهْوَاءِهِمْ، وَيَصُولُونَ بِهَا لِأَجْلِ بَاطِلِهِمْ؟

فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أُرْسِلَ اللَّهُ بِهِ رُسُلُهُ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ وَأَصْدَقُهُمْ، وَأَعْظَمُهُمْ عَقُولًا. فَهَؤُلَاءِ لَا جَزَاءَ لَهُمْ سِوَى النَّارِ الْحَامِيَةِ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِهَا فَقَالَ: ﴿فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَغْتَفَاهُمْ، الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهَا حَرَكَةً.

﴿وَالسَّكِلُ﴾ الَّتِي يَقْرَنُونَ بِهَا، هُمْ وَشَيَاطِينُهُمْ يُسْحَبُونَ فِي الْحَيَمِيمِ أَي: الْمَاءِ الَّذِي اشْتَدَّ غَلِيَانُهُ وَحَرُّهُ ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يُوْقَدُ عَلَيْهِمُ اللَّهَبُ الْعَظِيمُ فَيَصْلُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٥

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِيءِ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يَصُرُونَ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ إِذَا الْأَغْصَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٨١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٨٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٨٥﴾ أَذْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا فَمَا فُتِسَ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨٦﴾ فَأَصْرَارٌ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَمَا نَزَلْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُوفِّيكَ فَاِئْتِنَا يَرْجِعُونَ ﴿٨٧﴾

عقوبتهم ﴿فَاِئْتِنَا يَرْجِعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَفِيفًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ثم سلامه وصبره، بذكر إخوانه المرسلين فقال:

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ كثيرين إلى قومهم، يدعوهم ويصبرون على أذاهم ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ خبرهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وكل الرسل مدبرون، ليس بيدهم شيء من الأمر.

وما كان لأحد منهم ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وأمره.

فاقتراح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به ﴿فَاِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح ﴿فُضِيَ﴾ بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك

بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿لَهُمْ آيَاتٌ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هل نفوسكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم.

ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون بطلان يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْعَوْنَ إِلَّا الْفَلَسَ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار: ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل، وتمرحون على عباد الله بغيا وعدوانا وظلما وعصيانا، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَدْ ذَلِكُمْ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿أَذْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿خَلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبدا ﴿فُتِسَ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مشوى يخزون فيه، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويتدردون بين حرها وزمهريرها.

(٧٧) ﴿فَأَصْرَارٌ وَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَمَا نَزَلْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُوفِّيكَ فَاِئْتِنَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ﴿فَأَصْرَارٌ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك، وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر دينه، ويُعلي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضا، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَمَا نَزَلْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ في الدنيا فذاك ﴿أَوْ تُوفِّيكَ﴾ قبل

المكذبين، ولهذا قال: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت القضاء المذكور ﴿الْمُطْبُطُونَ﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاءوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة.

فليحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسروا أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

(٧٩-٨١) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَنَهَا تَأْكُلُوهَا ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۚ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الانعام:

منها: منافع الركوب عليها والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع.

﴿وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الرواحل البرية، والفلك البحرية، يحملكم الله الذي سخرها، وهيا لها ما هيا من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده، آياته النفسية وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعددها عليهم، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه.

﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عندكم، أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع.

بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهاد في طاعته والتبتل في خدمته والانقطاع إليه.

(٨٢-٨٥) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۚ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۚ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَتَ اللَّهُ آلِيَّ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ يبحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة

بِالْبَيِّنَاتِ

٤٧٦

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَتَ اللَّهُ آلِيَّ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

واهمال ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيفة، والزروع الكثيرة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا اقتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل.

ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة، أدلة لفظية لا تفيد

شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل.
وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله، والمعارضة لها
والمناقضة، فالله المستعان.

﴿وَمَكَرَ يَهُودُ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من
العذاب.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم
الإقرار ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾
من الأصنام والأوثان وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم
أو عمل.

﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: في تلك
الحال، وهذه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ وعادته ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾
أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان
إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب.

وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان
مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو
الإيمان الاختياري الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل
وجود قرائن العذاب.

﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت الإهلاك وإذاقة البأس
﴿الْكَافِرُونَ﴾ دينهم وديارهم وأخراهم. ولا يكفي مجرد
الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في
العذاب الشديد، والخلود فيه دائماً أبداً.

ثم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونته، لا بحولنا
وقوتنا، فله الشكر والثناء.

تفسير سورة السجدة^(١)

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كُنْتُ قُضِلْتُ
ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا فُلُونَا فِي أَكْثَرٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي إِذْ آدَانَا وَقُرْ
وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۝ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ يخبر تعالى
عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صادر
﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من



أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من
العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخير الكثير، ما
هو من أجل نِعَمِهِ على العباد، وهو الطريق للسعادة في
الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿قُضِلْتُ ۝ ءَايَتُهُ﴾
أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان
التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾
أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فُضِلْتُ آياته وجُعل عربياً
﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه، كما يتبين
لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغنى من الرشاد.
وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا
البيان إلا عَمًى فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً بالثواب العاجل والآجل،
ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر

(١) كذا في الأصل، والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت) أو حم
السجدة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة ﴿هُمْ أَجْرٌ﴾ أي: عظيم ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتريات.

(٩-١٢) ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ تَحْتِهَا وَبَرَكَّ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَأْتِيَ إِلَى الْمَاءِ فَهِيَ دُنَّانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَيْنَمَا طَوَّعَا أَوْ كَرِهَا قَالَتْ أَنِينَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاءون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار.

فكمل خلقها، ودحيها، وإخراج أقواتها، وتوابع ذلك ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَأْتِيَ﴾ عن ذلك، فلا يبنك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص. ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿أَسْتَوَى﴾ أي: قصد ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿السَّمَاءِ وَهِيَ دُنَّانٌ﴾ قد ثار على وجه الماء ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: ﴿وَالْأَرْضِ أَيْنَمَا طَوَّعَا أَوْ كَرِهَا﴾ أي: انقاداً لأمرى، طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه ﴿قَالَتْ أَنِينَا طَائِعِينَ﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة.

ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النازعات، لما ذكر خلق السماوات قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق

الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتَلَقَّى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَرِ﴾ أي: أغطية مغشاة ﴿وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءَ إِذْ أَنَا وَقَرْ﴾ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ﴾ فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿قُلْ﴾ لهم، يا أيها النبي: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: هذه صفتي ووظيفتي، أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم، وميزني وخصني بالوحي الذي أوحاه إليّ وأمرني باتباعه، ودعوتكم إليه.

﴿فَأَسْتَوِيْمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك.

وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمرهم بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ودنسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه، مما يضرهم في الآخرة.

فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَرَبَّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّا لَبِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةٌ أُولَئِكَ يَرَوْنَ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هَوَاشِدَ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْصَاتٍ لِيَذِيبَهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ مِنَ الْعَذَابِ لَمَّا كَانُوا يُكْسِبُونَ
﴿١٨﴾ وَنَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاشِدٌ
عَلَيْهِمْ سَمِعُوهُمْ وَأَبْصَرُوهُمْ وَجَلُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

(١٦، ١٥) ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةٌ أُولَئِكَ يَرَوْنَ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هَوَاشِدَ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ○ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْصَاتٍ لِيَذِيبَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد وثمود، ﴿فَأَمَّا عَادُ﴾ فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله - مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبته قوتهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةٌ﴾ قال تعالى ردًا عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هَوَاشِدَ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلولاً خلقه إياهم، لم يوجدوا.

فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا عظيمة، من قوتها

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب (وحفظًا). (٢) في النسختين (بالأم).

الأرض وصورتها متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ○ وَالْجِبَالُ أَوَّاهٌ مِمَّا خُمِرَ عَنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ كَمَا فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ، ولهذا قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ○ أَخْرَجَ مِنْهَا ﴿إِلَى آخِرِهِ وَلَمْ يَقُلْ: «وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ خَلَقَهَا».

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ﴾ هي النجوم يستنار بها ويهتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً. وجمالاً^(١) لها باطناً، يجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات، والغائب والشاهد.

فترك المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره، من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنداداً يسوونهم به، وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم، أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية. فلهذا خوفهم بقوله:

(١٣، ١٤) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ○ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذوبون، بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ أي: عذاباً يستأصلكم ويحتاجكم، ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحتهم العذاب، وحلَّ عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم. حيث ﴿جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: يأمرهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك.

فردوا رسالتهم وكذبوهم و﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين، [من الأمم]^(٢) وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه. فليُتَدَحَّوْا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو

«حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا» أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ» عموم بعد خصوص [يَا كَاوُوا يَعْمَلُونَ] أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا.

وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

فإذا شهدت عليهم عاتبوا «وَقَالُوا لِمُؤَدِّهِمْ» هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» ونحن ندافع عنكم؟ «قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة، حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

«وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضًا صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق «وَلَا تَرْجِعُونَ» في الآخرة، فيجزيك بما عملتم.

ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

«وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ» أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ» بإقدامكم على المعاصي «أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ» فلذلك صدر منكم ما صدر.

وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال: «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ» الظن السيئ، حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله «أَرَدْنَاهُ» أي: أهلككم «فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» لأنفسهم، وأهليهم، وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفر عنهم ساعة.

«فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» فلا جلد عليها، ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسعين ضعفاً، وعظم غليان حميمها، وزاد تن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خزانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم. وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: «أَنْتُمْ فِيهَا وَلَا تَكْمُلُونَ».

«وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا» أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب،

وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم «سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَّةٍ أَيْامٍ ضُوءًا» فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانْتُمْ أََعْبَارُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ، «نَحْسَاتٍ» فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقال هنا: «لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» الذي اختزوا به وافضحوا بين الخليقة «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» أي: لا يمتنعون من عذاب الله، ولا يمتنعون أنفسهم.

(١٨، ١٧) «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَيْعَةُ الْعَذَابِ أَقْوَمًا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ «وَأَمَّا ثَمُودُ» وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يومًا، ويشربون من الماء يومًا، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله.

ولهذا قال هنا: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ» أي: هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة، وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنشاهم، وكانت آية مبصرة، فلها خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشهرهم - استحبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلمًا من الله لهم «وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ» أي: نجى الله صالحاً عليه السلام، ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

(١٩-٢٤) «يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ» حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ «وَقَالُوا لِمُؤَدِّهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ» وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْنَاهُ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَصِينَ» يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالتهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون «إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ» [أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيقاً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٩

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ يَشْهَدْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَوَاقُهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٨﴾ وَفِيضْنَاهُمْ قُرْآنًا فَرِيقًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾ أَي: وقبضنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرْآنًا﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: ترجعهم إلى المعاصي، وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فاللذات زخرفوها بأعينهم، ودعوههم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلخوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله والآخرة بقدوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسروا فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

ويرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل، ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمرها ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم، مع أن استعابهم كذب منهم ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(٢٥) ﴿وَفِيضْنَاهُمْ قُرْآنًا فَرِيقًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: وقبضنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرْآنًا﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: ترجعهم إلى المعاصي، وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فاللذات زخرفوها بأعينهم، ودعوههم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلخوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله والآخرة بقدوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسروا فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

(٢٦-٢٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُؤُا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْعَوَّا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۖ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً يَمْ كَانُوا يَكْبِتُونَ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتوابعهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُؤُا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، ف ﴿الْعَوَّا فِيهِ﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكثوا - مع قدرتكم - أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه. هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فلعتم ذلك ﴿تَعْلَمُونَ﴾ [وهذه] ^(١) شهادة من

الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلون، فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشر ^(٢)، ﴿وَلَا يَطْلُبُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أوليائه بالكفر والتكذيب، والمجادلة والمجادلة ﴿النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَاءً يَمْ كَانُوا يَكْبِتُونَ﴾ فإنها آيات

(١) في النسختين (وهذا). (٢) في ب: (الشرك).

واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدتها والكفر بها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الأتباع منهم، بدليل ما بعده، على وجه الحق على مَنْ أضلهم: ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْا مِنْ آجُرٍ وَإِنْسٍ﴾ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجنِّ وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم ﴿تَجْعَلُهُمَا ثَمَرًا أَفْدَامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: الأذلين المهانين كما أضلونا وفتنونا، وصاروا سبياً لنزولنا. ففي هذا بيان حق بعضهم على بعض، وتبري بعضهم من بعض.

(٣٠-٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَخْفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۚ عَنْ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ ۖ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۚ نَزَّلْنَا مِنْ عَقُوبِ رَحْمٍ﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تنشطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: اعترفوا ونطقوا، ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم علماً وعملاً، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على ما يستقبل من أمركم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿وَأَنشُرُوا لِلْإِنسَانِ الَّذِي كَفَرَهُ بِعُكُودِهِ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً.

ويقولون لهم أيضًا - مبتئين لهم ومبشرين -: ﴿تَحَنَّنْ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأحوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهثثونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا سَبَقْتُمْ فَعَمَّ عَلَى النَّارِ﴾ .

ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا آي: فِي الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ قد أعد وهيماء ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿نُزُلًا مِّنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نُزْلٌ وضيافة ﴿مِّنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ غفر لكم السيئات ﴿رَحِيمٍ﴾

٤٨٠
 إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
 الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢١﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُم فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ
 وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٢﴾ تَزَلَّجْنَ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٢٣﴾
 وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
 إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٤﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
 ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا
 إِلَّا دُوحٌ عَظِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ عَايَنَتْهُ
 اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
 وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
 إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ
 رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٩﴾

حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم. فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المقرر أي: لا أحد أحسن قولًا. أي: كلامًا وطريقةً وحالًا ﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقييده بكل طريق يوجب تركه، خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالنهي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الدعوة إلى الله، تحببه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلالة.

ومن الدعوة إلى الله الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى

عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم والعواض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلِّ صَلِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح الذي يرضي ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم، وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الورثة الثامة من الرسل، كما أن من أشر الناس قولاً، مَنْ كان من دعاة الضالين^(١) السالكين لسلبه.

وبين هاتين المرتبتين المتباعدتين، التي ارتفعت إحداهما إلى أعلى عِلين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَفْلٍ عَنَّا يَتَّبِعُونَ﴾.

(٣٤، ٣٥) ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۚ وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى مَنْ أساء إليك فقال: ﴿ادْفَعْ بِاللَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً مَنْ له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك، فطُيِّب له الكلام، وابدل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وَمَا يُلْقِنَهَا﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم

العفو عنه، فكيف بالإحسان؟!

فإذا صَبَرَ الإنسان نفسه، وامْتَثَلَ أمر ربه، وعَرَفَ جَزِيل الثَّوَابِ، وعَلِمَ أَنَّ مَقَابِلَتَهُ لِلْمَسِيءِ بِجِنْسِ عَمَلِهِ، لَا يَفِيدُهُ شَيْئًا، وَلَا يَزِيدُ الْعِدَاوَةَ إِلَّا شِدَّةً وَأَنَّ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ لَيْسَ بِوَاضِعٍ قَدَرِهِ، بَلْ مِنْ تَوَاضَعٍ لِلَّهِ رَفْعُهُ، هَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَفَعَلَ ذَلِكَ مِثْلَ ذَلِكَ مُسْتَحْلِلًا لَهُ.

﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص
الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي
من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

(٣٦-٣٩) ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَفْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَمِنَ آيَاتِهِ الْبَلَدُ وَاللَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۝ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجَى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَفْعٌ﴾ أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه، وتزيينه للشر، وتكسيه له من الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: أسأله مفتقرًا إليه، أن يعيذك ويعصمك منه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطراك إلى عصمته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿مِنْ عَائِدَتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿الْأَيْلُ وَالنَّهَارُ﴾: هذا بمففعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمففعة ظلمه، وسكون الخلق فيه.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، أي: اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس

(١) كذا في النسختين، ولعل الصواب (من دعا الضلال).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨١

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
 اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها الْمَجْيَاءُ الْمَوْقُوتُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُفْلِحُ
 فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيهِمْ آيَاتُ الْيَوْمِ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
 وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤٣﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
 خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٤﴾ مَا يَقُولُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
 لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٥﴾
 وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَتَعْجَبُ
 وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
 وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٧﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
 فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٨﴾

والأخوية، المُغلي لقدر مَنْ اتبعه ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم ﴿وَوُكِّلَ الْحَالُ إِنَّهُ لَكِنْتُ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: منيع من كل مَنْ أراد به تحريف أو سوء، ولهذا قال:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل مَنْ أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منازل. ﴿حَمِيدٌ﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

﴿٤٣﴾ ﴿مَا يَقُولُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ﴿مَا يَقُولُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ

منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتَّابِعُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينفادوا لها، فإنهم لن يضرروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً﴾ أي: لا نبات فيها ﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ ثم أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها﴾ بعد موتها وهمودها، ﴿لَمَجْيَاءِ الْمَوْقُوتِ﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿٤٢-٤٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُفْلِحُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيهِمْ آيَاتُ الْيَوْمِ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ ○ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب، بأي وجه كان، إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب مَنْ جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معاني لها ما أرادها الله منها.

فتوعد تعالى مَنْ ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازه به على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَنُفْلِحُ فِي النَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيهِمْ آيَاتُ الْيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشd الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْآقُوبُ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية

في مكان بعيد، لا يسمع داعيًا ولا يجيب منادياً. والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا ينتفعون بهداه، ولا يصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

(٤٦، ٤٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخُتِلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه؛ فمنهم مَنْ آمَنَ به واهتدى وانتفع، ومنهم مَنْ كَذَبَهُ ولم ينتفع به. وإن الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجلٍ مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الرب الذي يقلقهم، فلذلك كذبه وجحدوه. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة.

وفي هذا حُتٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وزرة وزر أخرى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فيحتمل أحداً فوق سيئاته.

(٤٨، ٤٧) ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعَدْنَاكَ مَا مِثْلًا مِنْ شَهِيدٍ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها تفصيلاً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. فكيف سوى المشركون به تعالى مَنْ لا علم عنده، ولا سمع ولا بصر؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً

قَبْلَكَ أَي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلى الإخلاص لله، وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرُون عليه، وقولهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾.

واقتراحهم على رسلهم الآيات التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم. وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر مَنْ قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصِلَتْ آيَاتُهُ ۖ عَاجِئٌ وَعَرِيفٌ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۚ يَخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ فَضْلِهِ وَكُرْمِهِ ۚ حَيْثُ أَنْزَلَ كِتَابَهُ عَرَبِيًّا ۚ عَلَى الرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ ۚ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۚ وَهَذَا مِمَّا يُوجِبُ لَهُمْ زِيَادَةَ الْإِعْتِنَاءِ بِهِ ۚ وَالتَّلْقِي لَه وَالتَّسْلِيم ۚ وَأَنَّهُ لَوْ جَعَلَهُ قُرْآنًا عَجَبًا بِلُغَةٍ غَيْرِ الْعَرَبِ ۚ لَاعْتَرَضَ الْمَكْذِبُونَ وَقَالُوا: ﴿لَوْلَا نُفِصِلَتْ آيَاتُهُ﴾ أَي: هَلَّا بَيَّنَّتْ آيَاتُهُ ۚ وَوَضَحَتْ وَفَسَّرَتْ. ﴿عَاجِئٌ وَعَرِيفٌ﴾ أَي: كَيْفَ يَكُونُ مُحَمَّدٌ عَرَبِيًّا ۚ وَالْكِتَابُ عَجَمِيٌّ؟ هَذَا لَا يَكُونُ.

نفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أَي: يهديهم لطريق الرشd والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أَي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أَي: لا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً، فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عماهم، وغياً إلى غيهم. ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادى وهو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٢

سُورَةُ السَّجْدَةِ

﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ أَلْمَسَاعَةُ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُى قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَعْمِلُونَ الْإِنْسَانَ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّىَ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنَبْتِئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سُرِّيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطنى، ويقول: ﴿هَذَا لِي﴾ أي: أناني، لأنني له أهل وأنا مستحق له ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وهذا إنكار منه للبعث، وكفرٌ للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له.

﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّىَ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأنى سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل [لي] في الآخرة.

وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم، فلهذا توعده الله بقوله: ﴿فَلَنَبْتِئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد جداً.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره ﴿وَنَسَا﴾ أي: ترفع ﴿بِجَانِبِهِ﴾ عجباً وتكبراً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير جداً، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومنَّ عليه.

(٥٢-٥٤) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ

وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُى﴾ الذي زعمتم أنهم شركائي، فعبدموهم وجادلتم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين ببطان إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿ءَاذْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منّا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال:

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ من دون الله، أي: ذهبت عقائدهم وأعمالهم التي أنفوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً ﴿وَضَلُّوا﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَّجْصٍ﴾ أي: متقذ ينجدهم، ولا مغيث، ولا ملجأ.

فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، بيتهها الله لعباده، ليحذروا الشرك به.

(٤٩-٥١) لَا يَسْتَعْمِلُونَ الْإِنْسَانَ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ○ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّىَ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنَبْتِئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ○ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لَا يَسْتَعْمِلُونَ الْإِنْسَانَ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا. ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها. فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلاء ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: يئس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجاً وإمهالاً.

وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم يأسوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي: الإنسان الذي لا يأس من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۖ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَنْفَطِرُنَ مِنْ قُوَّةِهِ
 وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَتَتْ عَلَيْهِمْ يَوْكِلُ
 ۖ وَكَذَٰلِكَ أُوحِيَٰ إِلَيْكَ فَارْءَا عَرَبًا لِّنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَنَذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ
 مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۖ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝
 أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝

الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَنْفَطِرُنَ مِنْ قُوَّةِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَتَتْ عَلَيْهِمْ يَوْكِلُ ۖ وَكَذَٰلِكَ أُوحِيَٰ إِلَيْكَ فَارْءَا عَرَبًا لِّنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنَذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۖ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَىٰ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ إِلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، كَمَا أَوْحَىٰ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، ففیه بیان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، وأن طریقه طریقه مَنْ قَبْلَهُ، وأحواله تناسب أحوال مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وما جاء به يشابه ما جاءوا به، لأنَّ الجميع حق وصدق، وهو تنزیل مَنْ اتصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأنَّ جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي.

وأنَّهُ «الْعَلِيُّ» بذاته، وقدره، وقهره «الْعَظِيمُ» الذي من

يَدِهِ مَنْ أَضَلَّ مَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ سَأَرِبَهُمْ ۖ أَيْتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۖ أَي ۖ «قُلْ» لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ الْمَسَارِعِينَ إِلَى الْكُفْرَانِ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ» هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا ارْتِيَابٍ ۖ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضَلَّ مَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۖ أَي ۖ معاندة لله ولرسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

فإن قلتم، أو شككتكم بصحته وحقيقته، فسيقم الله لكم ويريك من آياته في الأفاق، كآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق.

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثالات في المكذبين، ونصر المؤمنين «حَتَّى يَبَيَّنَ لَهُمْ» من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك «أَنَّهُ الْحَقُّ» وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان مَنْ شاء، والخاذل لمن يشاء.

«أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» أَي ۖ أولم يكفهم على أن القرآن حق، وَمَنْ جَاءَ بِهِ صَادِقٌ، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصرًا متضمنًا لشهادته القولية، عند مَنْ شك فيها. «أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ» أَي ۖ في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. «إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ» علمًا وقدرة وعزة.

تم تفسير سورة السجدة - بمنه تعالى -

تفسير سورة الشورى

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩-١) ۝ حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۖ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ

إياهم، فقد غلطوا أقبح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عمومًا بتدبيره ونفوذ القدر فيهم. ويتولى عباده المؤمنين خصوصًا، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وترتيبهم بلفظه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو المتصرف بالآحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

(١٠-١٢) ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَبَاسٌ كَثِيرًا ۚ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلّا ما اختلفنا فيه. فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ. ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع، ودفع المضار، وثاقاً به تعالى في الإسعاف بذلك، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أتوجه بقلبي وببدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيرًا ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويقوته الكمال بفوتهما، أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّكَ تَعْبُدُ وَيَا أَيُّكَ تَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

﴿فَإِطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها، وتتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل.

﴿وَمِنَ الْآيَاتِ أَنْزِلْنَا﴾ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرًا وأنثى، لتبقى وتتمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل: أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبتكم

عظمتها ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَقَطَّرْنَ مِنْ فَوْهَيْنِ﴾ على عظمها
وكونها جمادًا ﴿وَاللَّيْلُ كَالْكَوْكَبِ﴾ الكرام المقربون خاضعون
لعظمتها، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته ﴿يَسْخَوْنَ لِحَمْدِ
رَبِّهِمْ﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال
﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق
بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾
الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة
المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عمومًا، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - أجمعين - خصوصًا، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى.

وَأَنْ مِنْ أَكْبَرِ الظُّلْمِ وَأَفْحَشِ الْقَوْلِ، اتَّخَذَ أُنْدَادَ اللَّهِ مِنْ
دُونِهِ، لَيْسَ بِيَدِهِمْ نَفْعٌ وَلَا ضَرَرٌ، بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مُفْتَقِرُونَ
إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، وَلِهَذَا عَقِبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يَتَوَلَّوْنَهُمْ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، كَمَا
يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيَطِيعُونَهُ، فَإِنَّمَا اتَّخَذُوا الْبَاطِلَ، وَلَيْسُوا بِأَوْلِيَاءَ
عَلَى الْحَقِيقَةِ ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ،
فِيَجْزِيهِمْ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِكَيْلٍ﴾ فَتَسْأَلُ عَنْ
أَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مُبْلَغٌ أَدَيْتَ وَظَيْفَتَكَ.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق ﴿وَيُنذِرَ﴾ الناس ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ الذي يجتمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْحَنَاءِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿و﴾ مع هذا فلو شاء الله لجعل الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴿﴾ على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته مَنْ شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، ف ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿وَلَا يُصِيرُ﴾ يدفع عنهم المكروه. والذين ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَاءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم

ويكثركم ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة^(١) كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثلها شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿الْبَصِيرُ﴾ يرى ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها، دليل لمذاهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ملك السماوات والأرض، ويده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة. فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء.

والله تعالى هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، فهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَكُلُ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ فيعلم أحوال عباد، فيعطي كل ما يليق بحكمته، وتقتضيه مشيئته.

(١٣) ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباد، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها؛ دين الإسلام، الذي شرعه الله للخيار المختارين من الصفوة وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه. فالدين

الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم، موافقاً لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحي الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً وتكونون شيعاً، يعادي بعضكم بعضاً، مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والمُجَمَّع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقولهم: ﴿أَجْعَلِ آلَهُ آلَهُ وَأَلْهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ غَائِبٌ﴾.

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتنبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه. فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ أَتَّبِعْ وَضَوَّكُنَا سُبُلَ السَّلَاطِ﴾. وفي هذه الآية، أن الله ﴿يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ مع قوله ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

(١٤، ١٥) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ

سُورَةُ الشُّورَى

٤٨٤

سُورَةُ الشُّورَى

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لِيَافِئَ كَيْدَهُ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٤﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾
﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٦﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٧﴾
فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَاكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ۝ فَلِذَلِكَ فَادَعُ
وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ
أَعْمَلْنَاكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ لما
أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق،
أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن
أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب
للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيا
 وعدوانا منهم، فإنهم تباعدوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم
المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف. فاحذروا أيها
المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: بتأخير العذاب
القاضي ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولكن حكمته وحلمه،
اقتضى تأخير ذلك عنهم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾
أي: الذين ورثوهم، وصاروا خلفاء لهم، ممن ينتسب إلى
العلم منهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في
الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغيا وعنادا، فإن خلفهم
اختلفوا شكًا وارتيابًا، والجميع مشتركون في الاختلاف
المذموم.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم،
الذي أنزل الله به كتبه، وأرسل رسله، فادع إليه أمتك،
وحضهم عليه، وجاهد عليه مَنْ لم يقبله ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ بنفسك
﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا
إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه
الاستمرار على ذلك. فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة،
وبتكميل غيره، بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأُمته، إذا لم يرد
تخصيص له.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من
الكفرة والمنافقين، إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك
الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم
من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل:
«ولا تتبع دينهم» لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو
دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم،
واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل

العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر
الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب، أنهم عليه، جزء
من الإسلام. وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا
مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون
غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه،
والرسول الذي يتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا
القرآن، وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا، إلا بالإيمان
بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل التي أخبر بها وصدق بها،
وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم
يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الحكم فيما
اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب،
من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال
المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من
الحق، ويرد ما معهم من الباطل ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو
رب الجميع، لستم بأحق به منا ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَاكُمْ﴾ من

سُورَةُ الشُّورَى

٤٨٥

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِيشٌ
 دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
 لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
 أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
 اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
 ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ
 كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
 نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
 مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ
 وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ
 لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت
 أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه.

يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين
 راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه. وأما
 من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تفقد
 بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا
 من فرسان هذا الميدان، فوافقه وخلافه سيان.

ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة، المنكرين
 لها، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: ليس بمعلوم
 بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت، متوقع وقوعها،
 مخوف وجبتها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عناداً وتكديماً،
 وتعجيراً لربهم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون،
 لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال،
 وخوفهم، لمعرفةهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم
 ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية
 فيه، ولا شك يعتريه ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي:

خير وشر ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: بعدما تبين الحقائق،
 واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق
 للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو
 بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على
 الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف
 والله يقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
 وإنما المراد ما ذكرنا.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ النِّصِيرُ﴾ يوم القيامة، فيجزى كلُّ
 بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

(١٦) ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِيشٌ
 دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهذا تقرير
 لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فأخبر هنا أن ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ
 فِي اللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا
 اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾ أي: من بعد ما استجاب الله أولو الأبواب
 والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين
 الساطعة، فهو لاء المجادلون للحق، من بعد ما تبين ﴿جَحِيشٌ
 دَاحِضَةٌ﴾ أي: باطلة مدفوعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنها مشتملة على
 رد الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل.

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله
 وبيانه وتكذيبها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو أثر غضب الله
 عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

(١٧، ١٨) ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
 لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي
 السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة،
 بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل
 جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل
 بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات
 بينات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية
 والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح
 والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية
 والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل،
 والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى
 ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به
 صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين
 - عن الكتاب والميزان - مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل،

تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها ﴿تُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ﴾ إلى آخر الآيات.

(٢١-٢٣) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِيَ بَيْنَهُمُ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في رزقات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَتْلُوهُ إِلَّا نُوْفَةً فِي الْقُرْآنِ وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يولونهم ويشتركون هم وإياهم^(١) في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد، ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم^(٢) على الكفر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لفضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم. وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين ﴿وَمَا كَسَبُوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا (١) كذا في الأصل، ولعل الصواب (هم وأولئك). (٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب (المشركين مع آبائهم).

بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق.

وأني بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله؟ وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم فطنة وفهماً.

(١٩، ٢٠) ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى، معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام، أن يشتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التي بها تقوى عزائمهم، وتنبعث همهم، ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها، مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصيته صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أجراها وثوابها، فأمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال

وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: في التقرب إلى الله.

وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجرًا بالكلية، إلا أن يكون شيئًا يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْضُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيذِ الْحَمِيدِ﴾ وقولهم: «ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك».

﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿زِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأن يشرح الله صدره، ويسر أمره، ويكون سببًا للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت، عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، ويشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّفُ لِقَاءَ يُكَلِّمُنِي إِنْهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الضُّمُورِ﴾ يعني أم يقول المكذوبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبًا: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح؟.

بل تجرأوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكّنك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكّنك الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر الممين، والاستيلاء على مَنْ خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ، فلا يعي شيئًا ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر. ولهذا من حكمته ورحمته، وشئته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿وَيُخَوِّفُ لِقَاءَ يُكَلِّمُنِي﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل،

يقع، أخبر أنه ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ العقاب الذي خافوه، لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعًا فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم بالله ويكتبه ورسله، وما جاءوا به وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿فِي رِزْقَاتٍ الْخَيْرَاتِ﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب.

رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنًا وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقًا إلى لذاتها وودادًا ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ فيها أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قُلْ لَا أَتْلُوَكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾ فليست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أجرًا واحدًا هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القرابة، أي: لأجل القرابة، ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقدير محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحبتها

وَعَدَهُ الصَّادِقُ، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الأبواب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه صال عليه الحق ببراهينه وبيناته، فظهر من نوره وهده ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكتته ولم تبده.

(٢٨-٢٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۝ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَغْشَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ۝ هَذَا بَيَانٌ لِّكَمَالِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسِعَتْ جَوْدُهُ وَتَمَامُ لَطْفِهِ، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم، ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريما، كأنه ما عمل سوءا قط، ويحبه ويوفقه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه، والتوبة من التقصير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين:

مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه ويتقادون له، ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقا ونشاطا على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر، زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، ف﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلما.

﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض، ولو عاقبته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خير بصير».

﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَغْشَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغث البلاد والعباد، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وانقطع عنهم مدة، ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجذب أعمالا، فيتزل الله الغيث ﴿وَيَنْشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين

لها البحر العجاج، وحفظها من النظام الأمواج، وجعلها تحملك وتحمّل أمتعتكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ التي جعلها الله سبباً لمشيها ﴿فَيُظِلَّنْ﴾ أي: الجوار ﴿رَوَاكِدَ﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار، بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مُعْرِضٌ أو معاند، لا ينتفع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ليبتلوها بباطلهم ﴿مَا لَهُمْ مِنْ حِجَابٍ﴾ أي: لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

(٣٦-٣٩) ﴿فَمَا أُوْنِيْتُمْ مِنْ نَفْسٍ فَتَنَّا لَبَسُوا لَدُنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَيْبٍ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَاطِلًا كَثِيرًا أَفَلَا خَفَوْا وَلَقَدْ وَفَّوْا إِذَا كُنُوا عَنِ اللَّهِ مُعْتَدِلِينَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ هذا ترهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فَمَا أُوْنِيْتُمْ مِنْ نَفْسٍ﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية ﴿فَتَنَّا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ لذة منغصة منقطعة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَيْبٍ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَاطِلًا كَثِيرًا أَفَلَا خَفَوْا وَلَقَدْ وَفَّوْا إِذَا كُنُوا عَنِ اللَّهِ مُعْتَدِلِينَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾

وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون، ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

(٢٩) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإلتقان والإحكام دال على حكمته، وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

(٣٠، ٣١) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۝ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يخبر تعالى أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم، وأموالهم وأولادهم، وفيما يحبون، ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿وَلَوْ يَوَازِجُدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ﴾ وليس إلهاماً منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

(٣٢-٣٥) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْخَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوقِنُ أَنَّ مَا كَسَبُوا يَبْعَثُ عَنْ كَثِيرٍ ۝ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِجَابٍ﴾ أي: ومن أدلة رحمته، وعنايته بعباده ﴿الْخَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ من السفن، والمراكب النارية والشرعية التي من عظمها ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر

والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه.

﴿وَإِذَا مَا عَصِیُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: قد تخلقوا بكمكار الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة، حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: انقادوا لطاعته، ولَبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ من النفقات الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

﴿وَأَمْرُهُمُ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم، وتوافقهم وتواددهم وتحاببهم، وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي: وصل إليهم من أعدائهم هُم يَنْصَرُونَ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه

سُورَةُ الشُّورَى

٤٨٧

سُورَةُ الشُّورَى

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٤٢﴾ إِنَّ يَسَّاسِكِنَّ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤٣﴾ أَوْ يُوبِقُهُنَّ يَمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٤٥﴾ فَأَمَّا أُولَئِكَ مِنْ نَفْسٍ وَفُتِنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرًا مِّنَ إِثْمٍ وَالفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٥١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٥٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُ يَصْطَلِحْ أَثْمًا وَلَمْ يَلْمِ يَظْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٥٥﴾

الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها، وانتهاء ضدها.

(٤٠-٤٣) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجراً عظيماً وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في - هذه الحال - لا يكون مأموراً به،

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَغْفُ عَنْهُمْ، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ وَقُولَهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنِ صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَعَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزِيزِ الْأَنْوَارِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الانصاف به، واستعان الله على ذلك. ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

(٤٤-٤٦) ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وَرَبِّي الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ○ وَرَبُّهُمْ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرَاتِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ○ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا

لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يتولى أمره ويهديه.

﴿وَرَبِّي الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ مرأى ومنظراً فظيماً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم و ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كُتِبَ لنعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وَرَبُّهُمْ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهِمُ﴾ أي: على النار ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للدل الذي في قلوبهم، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هيبتها وخوفها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إِنَّ الْخَسِرَاتِ﴾ على الحقيقة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهلهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أي: في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه ملبسون.

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهو لاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع، ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

(٤٧، ٤٨) ﴿أَسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ○ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرَّهَا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَمَا قَدَسَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك، وعدم التسويف من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت. وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه؛ فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخلقة من خلفهم، ونودوا ﴿يَتَمَشَّرُ الْحَنُّ وَالْإِنْسَانُ إِنْ أَسْطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. وليس للعبد في ذلك

اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عما جتهد به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فإذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة، من صحة بدن ووزق رغد، وجاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهِ﴾ أي: فرح فرحًا مقصورًا عليها، لا يتعدها، ويلزم من ذلك طمأننته بها، وإعراضه عن المنعم.

﴿وَإِنْ نُسِئْتُمْ سِئَةً﴾ أي: مرض، أو فقر، أو نحوهما ﴿يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ إِلَاسَنَ كُفُورًا﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السئية.

(٤٩، ٥٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ أَوْ بُرُوحَهُمْ ذَكَرًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومته، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق مَنْ يهب له إناثًا، ومنهم مَنْ يهب له ذكورًا، ومنهم مَنْ يزوجه، أي: يجمع له ذكورًا وإناثًا، ومنهم مَنْ يجعله عقيمًا لا يولد له.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته.

(٥١-٥٣) ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مِنْ نُشَاءٍ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صراط الله الذي لَمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَىٰ اللَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورَ﴾ لما قال المكذوبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا يَا أَيُّهُ﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَتٍ مِنَ الدَّرِثِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرَينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَآهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُنصِرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحِثَّ بِهَا وَنَبَصَّهْمُ سِئَتَهُ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ إِلَاسَنَ كُفُورًا ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بُرُوحَهُمْ ذَكَرًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾

العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه:

إما أن يكلمه الله وحيا بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهًا.

﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهًا، لكن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلم الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي ف﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى علي الذات علي الأوصاف، عظيمها، علي الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحًا، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير

سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتنبه وترغبهم فيه، وتنههم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسر الصراط المستقيم فقال:

﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كلًّا بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

تم تفسير سورة الشورى - والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٍ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه، وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ في الملاء الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لَعَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ أي: لعلِّي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه، من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان. ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٦﴾

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٣﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٤﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمِثْلَ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٩﴾

كانوا مسرفين ظالمين فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي: أفعرض عنكم، وترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن أمتتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

(٦-٨) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمِثْلَ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملاً، فكم ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جحدًا لما جاء به، وتكبراً على الحق.

﴿فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ﴾ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾ أي: قوة، وأفعالاً وآثاراً في الأرض، ﴿وَمِثْلَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيننا لكم منها ما فيه عبرة ومزجر عن التكذيب والإنكار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٠

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا
كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا
لَمُقْتَلُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لِلْإِنْسَانِ
لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ
بِالْبَيْنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِّنْ يَنْشَوُافِ
الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا أَلَمَتِ كَيْفَةِ
الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ
شَهَدَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ
مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَلَيْسَتْ
كُتُبًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره،
من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد،
ويصلى له ويسجد.

(١٥-٢٥) ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لِلْإِنْسَانِ لَكَفُورٌ
مُّبِينٌ﴾ أَوْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَيْنِينَ ○ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَاطِمٌ ○
أَوْ مِّنْ يَنْشَوُافِ الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ○ وَجَعَلُوا
أَلَمَتِ كَيْفَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ
شَهَدَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ○ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ
مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ○ أَمْ أَلَيْسَتْ كُتُبًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
مُسْتَمْسِكُونَ ○ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ
مُّهْتَدُونَ ○ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَكُهَا
إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ○ قُلْ أُولَئِكَ
يُخْفُونَ ○ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ○ يخبر
تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً،
وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا

(٩-١٤) ﴿وَلَيْن سَأَلْنَاهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ○ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ○ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ○ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ○ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ
لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ○ وَإِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا لَمُقْتَلُونَ ○ يخبر تعالى
عن المشركين، أنك لو ﴿سَأَلْنَاهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ﴾ الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع
المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها وأوائها
وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد
والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به مَن لا يخلق ولا
يرزق، ولا يُميت ولا يُحيي!.

ثم ذكر أيضاً، من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره،
بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً للعباد،
يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل منافذ بين سلاسل
الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار
﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون،
ولعلمكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ لا يزيد ولا ينقص،
ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه
نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد،
وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾
أي: أحييناها بعد موتها ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: فكما أحيأ
الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون
في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف جميعها، مما
تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار،
وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ
أَي: السفن البحرية، الشراعية والنارية ما تركبون﴾ و﴿وَمِنَ
الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ○ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وهذا شامل لظهور
الفلك ولظهور الأنعام، أي: ليستقروا عليها، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها،
والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي
سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: لولا تسخيرنا لنا ما
سخر من الفلك والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه،
ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلّلها ويسر أسبَابَهَا.

ثم قال: ﴿أَمْ أَلِيتُمْ كُتُبًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾
يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟.

ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمدًا نذيرًا إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره. أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأوامر، فلا ثم إلا الباطل.

نعم، لهم شبهة من أوهى الشبهة، وهي تقليد آبائهم الضالين الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أي: على دين وملة ﴿وإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: متعموها، وملأها الذين أطغتهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا على الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ أي: فهو لا يسوا بدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرته ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُهُمْ بِآيَاتٍ مِّمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة ﴿فَأَنظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

(٢٦-٣٢) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۖ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۖ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَيًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۖ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۖ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ۖ أَفَمَن يَقْسِمُونَ بِرَحْمَتِ رَبِّكَ إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَسْفَارَهُمْ ۚ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّ الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرَاءَ لِّبَعْضٍ ۚ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم، ويتقربون إليهم: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: مبغض له، مجتنب معاد

ولدا، ولم يكن له كفواً أحد. وإن ذلك باطل من عدة أوجه:
منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهن بالبنين، ويفضلهم بها؟ فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿إِذَا بُرِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون الله ما يكرهون؟.

ومنها: أن الأئني ناقصة في وصفها، وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي: يجمل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟ ﴿وَهُوَ فِي الْخُصَاةِ﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام ﴿عَبْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبون لله تعالى؟.

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً فنجروا على الملائكة، العباد المقربين، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثة، فسيحان من أظهر تناقض من كذب عليه، وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟ ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً وشرعاً، فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدرة، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه، ويتخطبون خبط عشواء.

لأهله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل بالحق، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي فـ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة ما سواه.

﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه - كإسحاق ويعقوب - لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْجِعْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والبطون.

فقال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يترى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه، ولا مرية ولا اشتباه ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبفسد دعوته ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أحبب الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

﴿وَقَالُوا﴾ مقترحين على الله بقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: معظّم عندهم، مبيّج من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله ردّاً لاقتراحهم: ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: أهم الخزان لرحمة الله، ويبدعهم تديبرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟.

﴿حَتَّى قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿وَالْحَالُ أَنْ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩١

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهُدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّى نَسْمُنَّ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآءً وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُصِيبَهُمْ سُقُوطًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٦﴾

ويضيقة على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينها ودنيوها، بيد الله وحده، هذا إقناع لهم من جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم وردّ للحق.

وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلامهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً، وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم

مثقال ذرة من كماله؟!

قَرِيبٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَاءَلَانِ ۝ وَلَكِنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ يخبر تعالى عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ أي: يعرض ويصد ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبداً، وقِيضَ له الرحمن شيطاناً مريداً يقارنه ويصاحبه، ويعدّه ويمينه، ويؤزّه إلى المعاصي أژاً.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟.

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم [من] ^(١) الاهتداء.

فزهّدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغي، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرّي من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَاءَلَانِ ۝

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُونَ عَلَىٰ بُرْهَانِهِمْ﴾.

يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ۝ يَوَدُّ الَّذِينَ لَبِئْتَنِي لَوْ أَتَوْا بِبُرْهَانٍ كَرِيمٍ ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرنائكم وأخلائكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضاً روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم

ومن جرّمه ومنتهى حمقه، أن جعل إلهه الذي يعبدّه ويدعوّه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كلّ على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلّا من فعل السفهاء والمجانين؟.

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِيَسْخَرُوا مِنْهُمْ﴾ بعضاً سخرّاً أي: ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال والجرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطل كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

(٣٣-٣٥) ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سُمْفًا مِّنْ فَضَةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِيُوقِعَهُمْ أُولَآئِكَ سُمْفًا مِّنْ فَضَةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَكْهَنُونَ ۝ وَلَئِن لَّمْ يَكُن لِّلْغَيْبِ مُنَاقِبَةٌ لَّخَفِيضٌ لِلْغَيْبِ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لو سّخ الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل: ﴿لِيُوقِعَهُمْ سُمْفًا مِّنْ فَضَةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: درجاً من فضة. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى سطوحهم.

﴿وَلِيُوقِعَهُمْ أُولَآئِكَ سُمْفًا مِّنْ فَضَةٍ وَمَعَارِجَ﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زُخْرَفًا﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون.

ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي، بسبب حب الدنيا.

ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدرّة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين!!

(٣٦-٣٩) ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ

(١) في الأصل (على) ولعل الصواب ما أثبت.

بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

(٤٥-٤٠) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ فَإِنَّمَا نَذَرْكَ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ ۚ أَوْ تُرْسِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۚ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۚ وَتَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ۚ يَقُولُ بَلْ يُقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّي أَعْلَمُ الْغُيُوبَ ۚ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۚ﴾

﴿فَأَمَّا نَذَرْكَ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ ۚ أَوْ تُرْسِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۚ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۚ وَتَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ۚ﴾

﴿إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحدًا من الرسل.

فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحدًا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله، مع أن كل الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ وكل رسول بعثه الله، يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. فدل هذا، أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

(٤٦-٥٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إلى آخر القصة^(١). لما قال تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ بين تعالى حال موسى ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال:

(١) وفي ب ذكر الآيات إلى آخرها.

فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضال ضالًا مبيّنًا لا يهتدي، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الزيادة من الردى.

فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا نَذَرْكَ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ﴾ أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أننا منتقمون.

﴿أَوْ تُرْسِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَأَمَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيرها، فهذه حاله وحال هؤلاء المكذبين.

وأما أنت ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ فعلاً واتصافاً، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه في نفسك وفي غيرك ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء، إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بائناً على أصل أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام والظلم والجور.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: فخر لكم، ومنقبة جلية، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه الخير الدنيوي والآخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة؟

﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فدعاهم إلى الإقرار بربههم، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْتَكِبُونَ﴾ أي: ردوها وأنكروها، واستهزأوا بها، ظلمًا وعلوًا. فلم يكن لقصور بالآيات وعدم وضوح فيها، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل والضفادع، والدم، آيات مفصلات، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإسلام، ويدعون له، ليزول شركهم وشركهم.

﴿وَقَالُوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَأْتِيهِ السَّحَابُ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحًا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به مَنْ يزعمون أنهم علماءهم، وهم السحرة فقالوا: ﴿يَأْتِيهِ السَّحَابُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بما خصلك الله به، وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنا العذاب ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف الله عنا ذلك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ النَّيِّ مُفْضِلِينَ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ○ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَيْنَ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ○ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ﴾ مستعليًا بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَقُومُوا إِلَيَّ مَلِكُ مِصْرَ﴾ أي: أأست المالك لذلك، المتصرف فيه، ﴿وَهَٰذِهِ آتَاهُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك الطويل العريض؟.

وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني - قبحه الله - بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحقر، فأيتنا خير؟ ﴿وَمَعَ هَٰذَا فَلَا يَكَادُ بُيُوتُ﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه

ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقیلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: فهلاً كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزينا مجملًا بالحلي والأساور؟ ﴿أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

فأي دليل يدل على أن فرعون محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟ وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى، لقله أنبأه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له؟ ولكنه لقي ملاً لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتَقِينَ﴾ فبسبب فسقهم قبيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ

لَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ النَّيِّ مُفْضِلِينَ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ○ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَيْنَ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ○ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ﴾ مستعليًا بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَقُومُوا إِلَيَّ مَلِكُ مِصْرَ﴾ أي: أأست المالك لذلك، المتصرف فيه، ﴿وَهَٰذِهِ آتَاهُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك الطويل العريض؟.

وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني - قبحه الله - بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحقر، فأيتنا خير؟ ﴿وَمَعَ هَٰذَا فَلَا يَكَادُ بُيُوتُ﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه

تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عِدَّةُ أَنْعَمًا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أن «ما» اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصنامًا وأوثانًا، ولا يعبدون المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمُ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ﴾ فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: لجعلنا بدلکم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطبقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلًا من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَّمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو، وإن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة.

﴿فَلَا تَمَرُّكَ بِهَا﴾ أي: لا تشكرك في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر، ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ بامثال ما أمرتهم، واجتناب ما نهيتكم ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله عز وجل.

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان لكم عدوٌّ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات.

﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ﴿وَلَا يُؤَيِّنُكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس.

فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه

فَأَفَرَّقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ○ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

(٦٥-٥٧) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

يَصْذَرُونَ ○ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ○ إِنَّ هُوَ إِلَّا عِدَّةُ أَنْعَمًا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي

إِسْرَءِيلَ ○ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ○ وَإِنَّكُمْ لَعَلَّمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَرُّكَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ○ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ○ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ

قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ○ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ○ فَاتَّخَذَ الْأَكْثَرُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن عَذَابٍ يَوْمَ

الْآخِرِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد ﴿إِذَا قَوْمُكَ

يَصْذَرُونَ﴾ أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم، وأفلجوا.

﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ﴾ يعني: عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل

أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾.

ووجه حجتهم الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة

الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولاً أن حجتك باطلة لم تتناقض.

ولم قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ وهذا لفظ بزعمهم، يعم الأصنام

وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها.

هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة [الذي]^(١) فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي - والله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من

الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأى شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟.

وليس تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقربًا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال

(١) في النسختين: (الذي)، ولعل الصواب (التي).

السلام، ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به.

﴿فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأمنوا بي وصدقوني وأطيعون. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: «إنه ابن الله»، أو ثالث ثلاثة» والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿اِخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ كل قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين، وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

(٦٦-٧٣) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ○ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ○ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ○ يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ الْيَوْمَ وَلَا أَتَمَّ حَزْرُونَ ○ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ○ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ○ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ○ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ○ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلَدُونَ ○ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ○ يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعون ○ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ○ أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزا بمن جاء بها.

وإن ○ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ ○ أي: يوم القيامة، المتخالين على الكفر والتكذيب ومعصية الله ○ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ○ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة، ○ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ○ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله.

ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ فَلَا تَمُوتُ﴾ ○ ﴿يَا وَاسِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ○ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ○ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَآئِينَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ○ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ○ ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ ○ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ○ ○ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ○ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ○ يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ الْيَوْمَ وَلَا أَتَمَّ حَزْرُونَ ○ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ○ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ○ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ○ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ○ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلَدُونَ ○ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ○ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ○

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق بها، وبما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها.

﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الله متقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الانصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم.

﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تتمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبّر الألسن عن وصفه.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: تدور عليهم خدماتهم، من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب، وشرابهم بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وَفِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾

تتبعوه، فلو تبعتموه، ولزتم وسعدتم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾. فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

(٧٩، ٨٠) ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِئُونَ﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ: أَمْ أَبْرَمَ الْمَكِيدُونَ بِالْحَقِّ الْمَعَانِدُونَ لَهُ ﴿أَمْرًا﴾ أَي: كادوا كيدًا، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فَإِنَّا مُبْرِئُونَ﴾ أَي: محكمون أمرًا ومدبرون تدبيرًا يعلو تدبيرهم، ويتقضه ويطله، وهو ما يقضه الله من الأسباب والأدلة، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أَي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أَي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أَي: إِنَّا نعلم سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

(٨١-٨٣) ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ شَبَّحَ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿فَذَرَهُمْ يَبْغُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ أَي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولدًا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقيادًا للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المتكرين لذلك، وأشدّهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه. فهذا احتجاج عظيم، عند مَنْ عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقاً إليه، وتكميلاً له، وكل شر فهم أول الناس تركاً له، وإنكاراً له، وبعداً منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله أفضل الرسل أول مَنْ عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة أم مقدماً على تفسير الآية السابقة ﴿وَتِلْكَ الْحَسَّةُ الَّتِي أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم موفقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدْعُونَ﴾. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا خَلِيدُونَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وَتِلْكَ الْحَسَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿الَّتِي أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

[لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ] كما في الآية الأخرى ﴿فِيمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَّجَاجٍ﴾، ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أَي: مما تتخبرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون^(١).

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم فقال: (٧٤-٧٨) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ وَتَادُوا بِمَكِّكَ لِيُقَضَّ عَلَيْنَا رِيبُكَ قَالَ إِنَّكُمْ تُكْذِبُونَ ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ﴾ أَي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خَالِدُونَ﴾ فيه، لا يخرجون منه أبداً.

و ﴿لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة بإزالته، ولا بتهوين عذابه، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أَي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿وَتَادُوا﴾ وهم في النار، لعلمهم يحصل لهم استراحة، ﴿بِمَكِّكَ لِيُقَضَّ عَلَيْنَا رِيبُكَ﴾ أَي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غمٍّ شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد، ف ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم -: ﴿إِنَّكُمْ تُكْذِبُونَ﴾ أَي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمًا إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن

﴿٤٩٥﴾ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ** ﴿٤٩٦﴾ **لَا يَتْرَعْنَهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوْنَ** ﴿٤٩٧﴾ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ** ﴿٤٩٨﴾ **وَنَادُوا بِمَلِكِهِمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمُ تَارِيكَ قَالِ إِنَّكُمْ مَعَكُوثٌ** ﴿٤٩٩﴾ **حَتَّى تَكُونُوا بِالْحَقِّ** وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٥٠٠﴾ **أَمْ تَرْمَوْنَ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ** ﴿٥٠١﴾ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ** ﴿٥٠٢﴾ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ** ﴿٥٠٣﴾ **سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴿٥٠٤﴾ **فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ** ﴿٥٠٥﴾ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** ﴿٥٠٦﴾ **وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٥٠٧﴾ **وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴿٥٠٨﴾ **وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّا هُنَا قَوْمٌ لَا يَوْمُونَ** ﴿٥٠٩﴾ **فَاصْصَعْ عَنْهُمْ وَفَلَّ سَلْمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** يخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض، فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون لجلاله، ويفتقرون لكماله، ﴿سُبْحَنَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ﴾ ﴿٥١٠﴾ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**، فهو تعالى المألوه المعبود الذي يألهه الخلاق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألوهيته ومحبه فيهما، وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله.

حقاً، لكنك أول مثبت له. فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها عقلاً ونقلاً.

﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والظهير، والعوين، والولد، وغير ذلك، مما نسبة إليه المشركون.

﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلومهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق، وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف، ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

(٨٤-٨٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ **وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** **وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** **وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّا هُنَا قَوْمٌ لَا يَوْمُونَ** **فَاصْصَعْ عَنْهُمْ وَفَلَّ سَلْمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** يخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض، فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون لجلاله، ويفتقرون لكماله، ﴿سُبْحَنَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ﴾ ﴿٥١٠﴾ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**، فهو تعالى المألوه المعبود الذي يألهه الخلاق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألوهيته ومحبه فيهما، وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها، ولا أكبر.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه، ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى انفراد بعلم كثير من الغيوب التي لم يطلع عليها أحد من الخلق لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾

قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو.

ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل.

ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ أي: كل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقايقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعتنا الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي:

ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فَأَن يَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟ فأقراهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وَقِيلَ لِرَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكيًا لربه تكذيب قومه، متحزنًا على ذلك، متحسرًا على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة.

ولكنه تعالى حلیم يمهّل العباد، ويستأنّي بهم، لعلمهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا ييدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: خطابًا بمقتضى جهلهم ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعمو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل، فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم الذي فضّل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: غبّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف .

تفسير سورة الدخان

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٦) ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۝ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۝ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ۝ يَلْعَبُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ ۝

سُورَةُ الدُّخَانِ

٤٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۝ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۝ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ۝ يَلْعَبُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ ۝ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنِ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ أَنْ أَدَّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝

هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنِ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ۝ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَكَةٍ﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قومًا عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هده، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الأخروي، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا﴾ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به.

وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر، أحد (١) الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول، الذي

(١) في النسختين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).

المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعدهم الكفار والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم. ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رِسَالَةٌ إِلَىٰ مُنِيرٍ﴾. وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون - على هذا - قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم، وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعا ربه، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إخبار بأن الله سيعرفه عنكم، وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشرط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان.

والقول هو الأول.

وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْنِي النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ○ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رِسَالَةٌ إِلَىٰ مُنِيرٍ ○ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّتَحْنُونَ ○ أن هذا كله يكون يوم القيامة.

وأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ○ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك، بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم.

كتب الله به مقادير الخلائق وأجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم.

ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد، وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كراماً كاتبين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة.

وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتناؤه تعالى بخلقه ﴿أَمَرَ مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسول ومنزليين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقذاره، ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه.

﴿إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومنَّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رَبِّ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزئكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ﴾ أي: رب الأولين والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿فِي سَكَنٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: منغمسون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ○ يَعْنِي النَّاسَ﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَإِنِّي عَدْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٨﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿١٩﴾ فِدَعَا
رَبِّيَ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ
مُتَّبِعُونَ ﴿٢١﴾ وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٢﴾ كَمْ
تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٢٣﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَنَعْمَةً
كَانُوا فِيهَا فَكَاهِكِينَ ﴿٢٥﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٦﴾
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ
جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ يَلَدُ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمُهِينَ ﴿٢٨﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكٌ وَأُمِّيَةٌ
﴿٣١﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا
نَحْنُ بِمُنْذَرِينَ ﴿٣٣﴾ فَأَنْزَلْنَاهَا آيَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَهْمُ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ
﴿٣٥﴾ وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيُْونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِكِينَ﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ، وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: لما أتلّفهم الله وأهلكهم، لم تبك عليهم السماء والأرض، أي: لم يُحزن عليهم، ولم يُوسس على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي: مهلين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال.

ثم امتنّ تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ يَلَدُ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمُهِينَ﴾.

(١) في نسخة ب ذكر الآيات كاملة.

(١٧-٣٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر القصة (١) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إليّ عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عسيري، وأفضل العالمين في زمانهم.

وأنتم قد ظلمتموهم، واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بالاستكبار عن عبادته، والعلو على عباد الله، ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، والأدلة القاهرة، فكذبوه وهموا بقتله، فلجأ بالله من شرهم، فقال: ﴿وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي: تقتلونني شر القتل، بالرجم بالحجارة.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا علي ولا لي، فاكفوني شركم.

فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله، محاربين لنبيه موسى عليه السلام، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل، ﴿فِدَعَا رَبِّيَ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي: قد أجزموا جرماً، يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه.

﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: بحاله، وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق، كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه.

فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهوًا، أي: بحاله، لیسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾.

سُورَةُ الدُّخَانِ

٤٩٨

سُورَةُ الدُّخَانِ

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنَى مَوْلَى
عَنْ مَوْلَى شَيْءٍ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ
الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ آمِينَ ﴿٥٠﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥١﴾
كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٢﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَكَهَّةٍ آمَنِينَ ﴿٥٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَضَلَا
مَنْ رَزَقَهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٥﴾ فَاِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَرْقَبَ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٧﴾

سُورَةُ الْحَاشِيَةِ

السموات والأرض.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين
الأولين والآخرين، وبين كل مختلفين ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ أي:
الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم أعمالهم،
ويكون الجزاء عليها، ولا ينفع مولى عن مولى شيئاً لا قريب
عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي:
يمنعون من عذاب الله عز وجل، لأن أحداً من الخلق لا يملك
من الأمر شيئاً.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿﴾ فإنه هو الذي
يتنفع ويرتفع برحمة الله تعالى، التي تسبب إليها، وسعى لها
سعيها في الدنيا.

ثم قال تعالى:

(٤٣-٥٠) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ
﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ
الْحَمِيمِ﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿ذُقْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿﴾

﴿إِسْتَرْكَبَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ الذي كانوا فيه ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ إذ
يذبح أبناءهم، ويستحي نساءهم.

﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا عَلَيْهِ﴾ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحق ﴿وَمِنْ
الْمُتَرَفِّينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله، المتجرئين على محارمه.
﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم واتقيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾
منا بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي:
عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد
ﷺ، فضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت
للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

﴿وَأَلَيْنَاهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿مِنْ الْأَنْبِيَاءِ﴾ الباهرة،
والمعجزات الظاهرة، ﴿مَا فِيهِ بَلَكَاٌ مُبِينٌ﴾ أي: إحسان
كثير، ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم، على صحة ما جاءهم
به نبيهم موسى عليه السلام.

(٣٤-٣٧) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا
نَحْنُ بِنُشْرِينَ ﴿فَأَنذَرْنَا يَأْأَانًا﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ
تُجِبُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ
هَؤُلَاءِ﴾ المكذبين يقولون مستبدين للبعث والنشور: ﴿إِنَّ هِيَ
إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِنُشْرِينَ﴾ أي: ما هي إلا الحياة
الدنيا، فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار.

ثم قالوا - متجرئين على ربهم، معجزين له -: ﴿فَأَنذَرْنَا
يَأْأَانًا﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في
مكان سحيق، فأبى ملازمة بين صدق الرسول ﷺ، وأنه
متوقف على الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق
ما جاءهم به، وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه.

قال تعالى: ﴿أَهْمُ خَيْرٌ﴾ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمْ قَوْمٌ
تُجِبُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فإنهم ليسوا خيراً
منهم، وقد اشتركوا في الإجماع، فليتوقعوا من الهلاك ما
أصاب إخوانهم المجرمين.

(٣٨-٤٢) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ مَا
خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ
مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَوْمَ لَا يَغْنَى مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْءٍ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿يخبر
تعالى عن كمال قدرته، وتمام حكمته، وأنه ما خلق
السموات والأرض لعباً ولا لهواً، أو سدى من غير فائدة،
وأنه ما خلقهما إلا بالحق، أي: نفس خلقهما بالحق،
وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا
شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويشيهم ويعاقبهم.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق

وآمنين من مضرتة، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية.

ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ○ فضلاً من ربك ○ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ﴾ أي: القرآن ﴿يَسْلَانِكَ﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فتيسر به لفظه، وتيسر معناه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركوه.

﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَبِئُونَ﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة. تم تفسير سورة الدخان - والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الجاثية

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿حَمِّمَ﴾ ○ نَزَّلَ الْكَلْبَ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ○ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ○ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ○ وَأَخْلَفَ بِآلِیِّ النَّهَارِ وَمَا أَرْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَصَرِيفَ الرِّيحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ○ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ○ وَيَلْ لَيْلُ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ○ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُنْقَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَ هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ○ مَن رَّوَّاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ○ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَحٍ أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ ○ من الله ○ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من

لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه، ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، و﴿إِنَّ﴾ طعامهم ﴿شَجَرَتِ الْأَرْزُوقِ﴾ شر الأشجار وأقطعها، وأن طعامها ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالصديد المتن، خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة، يغلي في بطونهم ﴿كَغَلَى الْحَمِيرِ﴾ ويقال للمعذب: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَكِيمُ﴾ أي بزعمك أنك عزيز، ستمتنع من عذاب الله، وأنك كريم على الله لا يصيبك بعذاب، فالיום تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب العظيم ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

(٥٩-٥١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ○ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ○ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ○ كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ○ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِينَ ○ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ○ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ○ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ○ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَبِئُونَ﴾ هذا جزاء المتقين لله، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بتركهم المعاصي، وفعلهم الطاعات، فلما انتفى السخط عنهم والعذاب، ثبت لهم الرضا من الله، والثواب العظيم، في ظلال ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه وعيون سارحة تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم.

فأضاف الجنات إلى النعيم، لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه.

ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق، أي: غليظ الحرير ورقيقه، مما تشتهي أنفسهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة، والطمأنينة، والمحبة، والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة.

﴿كَذَلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وَرَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: نساء جميلات من جمالهن وحسنهن أنه يحار الطرف في حسنهن، وينهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن ﴿عِينٍ﴾ أي: ضحام الأعين حسانها.

﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِكُلِّ فُكْهَةٍ﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا.

فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿ءَامِينَ﴾ من انقطاع ذلك،

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

٤٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَةٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَخَلَقْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ
مِنْ رِّزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَةٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا حَبِيبُ حَدِيثٌ بَعْدَ
أَلْفٍ وَآلِفَةٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَلَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتُ
اللَّهِ تَنْثِيلًا عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبِعَذَابِ الْإِلَهِ
﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا
وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا
هُدًى وَلِذِينَ كَفَرُوا يُنذِرُ لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنْفِخَ مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وَلِيُنْفِخَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ يخبر تعالى
بفضله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب
والسفن بأمره وتيسيره ﴿لِيُنْفِخَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأنواع التجارات
والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا
شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلًا .
﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من
فضله وإحسانه . وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض،
ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب،
والثوابت، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف
الأشجار والثمار، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو
معدٌّ لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته .
فهذا يوجب عليهم أن يذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته،
وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .
وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دالٌّ على نفوذ
مشيئة الله، وكمال قدرته . وما فيها من الإحكام والإنقان،

النعم الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة . ثم أيد ذلك بما
ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات
والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من
المنافع، وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد
والعباد .

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة واضحات، على صدق هذا
القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام،
ودالات أيضًا على ما الله تعالى من الكمال، وعلى البعث
والنشور .

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه،
إلى قسمين :

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتتبعون فيرتفعون،
وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا
تامًا، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول،
وازدادت به معارفهم وألباهم وعلومهم .

وقسم يسمع آيات الله سماعًا تقوم به الحجة عليهم، ثم
يعرض عنها ويستكبر - كأنه ما سمعها، لأنها لم ترك قلبه،
ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه .

وأنه إذا علم من آيات الله شيئًا اتخذها هزواً، فتوعده الله
تعالى بالويل فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذاب في مقاله،
أثيم في فعاله .

وأخبر أن له عذاباً أليماً، وأن ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفي في
عقوبتهم البليغة، ﴿وَأَنَّهُ﴾ ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ من
الأموال ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يستنصرون بهم
فخذلوهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا .

فلما بين آياته القرآنية والعينية، وأن الناس فيها على
قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية،
أنه هدى، فقال: ﴿هَذَا هُدًى﴾ وهذا وصف عام لجميع
القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة،
وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه،
وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو
إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان
الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي،
فالمهتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ رِيحًا﴾ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر
بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ رَّجَزٍ
أَلِيمٍ﴾

(١٣، ١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

٥٠٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلْيَبْئُثْهُمُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ تَرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَسِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنَوْنَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الْفَالِغِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيم على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.
﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿يَسِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رآوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز

(١) في هذه الجملة غير واضحة، وفيها شطب، وتصويه من ب.

وبديع الصنعة، وحسن الخلقة، دالٌّ على كمال حكمته وعلمه. وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه. وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعال لما يريد. وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره.

وكل ذلك دال على أنه وحده، المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمجبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

(١٤، ١٥) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلْيَبْئُثْهُمُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ تَرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ يَأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً.

وهم - إن استمروا على تكذيبهم - فلا يحل بكم^(١) ما حلَّ بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلْيَبْئُثْهُمُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ تَرْجَعُونَ﴾.

(١٦، ١٧) ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۖ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَسِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة والإنجيل، و ﴿الْحُكْمَ﴾ بين الناس، و ﴿النُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكول والمشروب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه الأمة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، ويميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة، وغيرها من النعوت، قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة، شريعة

المحق من المبطل، والذي حمّله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

(١٩، ١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ أَظْلَمَ لِبَعْضِهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَكَوْنِ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا يصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَاللَّهُ وَكَوْنِ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

(٢٠) ﴿هَٰذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يحصل به البصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أم حسب المسيئون، المكثرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزلوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَاءً﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب، في العاجل والأجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

(٢٢) ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليبعد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟.

(٢٣-٢٦) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَنَّ عَلَىٰ سَبْعٍ ۚ وَلَقَدْ عَلِمَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ عِشْرَةً مِّنْ يَّهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّمَا لَا يَظُنُّونَ ۚ وَإِذَا ثُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنْتَوِي مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۚ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُعْطِيكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ إِلَٰهَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ فما هويه سلكه، سواء كان يرضي الله، أو يسخطه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها.

﴿وَخَنَّ عَلَىٰ سَبْعٍ﴾ فلا يسمع ما ينفعه ﴿وَلَقَدْ عَلِمَ﴾ فلا يعي الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ عِشْرَةً﴾ تمنعه من نظر الحق ﴿لَمَنْ يَّهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: منكروا البعث ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إن هي إلا عادات، وجُزْئ على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس، ومن مات فليس يرجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِنَّمَا لَا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل دلهم على ذلك، ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستباعات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا ثُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنْتَوِي مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا جراءة منهم على الله، حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم، وأنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُعْطِيكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ إِلَٰهَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم،

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، وردّ قول من جاء به، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم ﴿وَحَافٍ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه، وبمن جاء به.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِكُمْ﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿مَا كُنْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإن الجزء من جنس العمل ﴿وَمَا وَكُمُ النَّارُ﴾ أي: هي مقرم ومصيركم. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي حصل لكم من العذاب بسبب أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وَعَزَّزْتُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملت لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُنْقَبُونَ﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فَلِلَّهِ الْمُلْكُ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّاتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، ومحبه تعالى وإكرامه، والكبرياء فيها عظمتة وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين: محبة الله، والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الفاهر لكل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية - والله الحمد والمنة والفضل.

تفسير سورة الأحقاف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿حَمْدٌ﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

٥٠٢

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِكُمْ مَا كُنْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَّزْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَّاتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِئُونَ كِتَابَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَتُرْوُونَ مِنْ عِلْمِنَ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الانتهاء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمِثْلَهُنَّ يَبْنِئُ الْأَرْضَ يَنْزِلُ الْأَمْزَارَ بَيْنَهُنَّ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿يَرْزُقُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سيتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار، سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .

فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وآراء كاسدة، وعقول فاسدة.

يدلُّك على فسادها استقراء أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أنفوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَاقَةِ﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به مثقال ذرة، ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ .

(٧-١٠) ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أم يقولون أفترته قل إن أفترته فلا تمكوت لي من الله شيئاً هو أعلم بما نفيسون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُرُّ إِن أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قل أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِن عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَمَأَمِّن وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وإذا تلى على المكذبين ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحققها، لم تفدهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر لا شك فيه، ولهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض.

وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك، وفاق بضوته ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الألفية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزنية - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهرجة؟ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افترته﴾ أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله. ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ﴾ فالله عليّ قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟ .

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين - وأقام الدليل، وأثار السبيل، أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوقاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ .

وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

(٤-٦) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُنْكِرُونَ مِمَّنْ عَلِمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَاقَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ﴾ وإذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم - مبيناً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ .

هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل أنبتوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟ .

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي، فقال: ﴿أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك، ﴿أَوْ أَتُنْكِرُونَ مِمَّنْ عَلِمَ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك.

من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوحَ﴾ وكل رسول قال لقومه:

سورة الأحقاف

٥٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١﴾ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ سَائِرَتُنَا يَنْتَصِفُ أَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سَحَرٌ مِّمَّنْ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُرُّنَ أَنْ أُنْعِمَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشَرِّىَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

بمنزلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتربه، الذي قد وافق الكتب السماوية، خصوصًا أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله ﴿إِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره ﴿لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الويل.

ويشير المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي ييسر بها.

فهل ﴿تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن أرادني الله بضر، أو أرادني برحمة ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً.

ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويشيكم جزيل الأجر.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلا شيء تنكر رسالتي؟

﴿وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُرُّ﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم عليّ وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبت دعوتي، فهو حظكم ونصيبيكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك عليّ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموقفون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به واهتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

(١٢، ١١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشَرِّىَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: قال الكفار بالحق معاندين له، ورادين لدعوته: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، ولهذا من البهجة في مكان.

فأني دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أركى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟

ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعْرَوْنَ به أنفسهم

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ بأن يكون جامعًا لما يصلحه، سالمًا مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشب عليه.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾.

﴿إِنِّي تبتُّ إِلَيْكَ﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضًا غيرها.

﴿وَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ في جملة ﴿أَحْسَبَ الْجَنَّةَ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وَعَدَ الصِّدِّيقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

(١٧-١٩) ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أُتِيَ لَكُمْ أَتَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا يَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَيَوْمَهُمُ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ إذ دعواه^(٢) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعوه إلى ما فيه سعادته الأبدية، وفلاحه السرمدى، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أَفِي لَكُمْ﴾ أي: تبأ لكم ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أَتَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور، وجهول، ومعاند.

﴿وَهُمَا﴾ أي: والداه ﴿يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ﴾ عليه ويقولان له: ﴿وَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إِنَّكَ وَعَدَ

(١) في الأصل (منها الستتان) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في النسخين: دعياه.

(١٣، ١٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته وداموا على ذلك ﴿وَاسْتَقَمُوا﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبعون عنها حولًا، ولا يريدون بها بدلًا. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، المقضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

(١٥، ١٦) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تبتُّ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده، وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكرات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت [من الثلاثين شهرًا]^(١) بقي ستة أشهر، مدة للحمل.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته ونسئته، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصًا نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

اللَّهُ حَقٌّ ثُمَّ يَقِيمَانِ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدْلَةِ مَا أَمَكْنَهُمَا .
 وولدتهما لا يزداد إلا عتوا ونفورا، واستكبارا عن الحق،
 وقدحاً فيه، «فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ» أي: إلا منقول
 من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى
 رسوله.

وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا
 تعلم من أحد، فمن أين يتعلم؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل
 هذا القرآن، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟.

«أُولَئِكَ الَّذِينَ» بهذه الحالة الذميمة «حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» أي:
 حقت عليهم كلمة العذاب «فِي» جملة «أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
 مِنَ الْغَيِّ وَالْإِنْسِ» على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في
 غمارهم، وسيغرقون في تيارهم.

«إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ» والخسران: فوات رأس مال
 الإنسان، وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى
 وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من
 النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم.

«وَلِكُلٍّ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَأَهْلِ الشَّرِّ دَرَجَتٌ وَمَا عَمِلُوا»
 أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنزلهم في
 الدار الآخرة، على قدر أعمالهم، ولهذا قال: «وَلِيُؤْفِقَهُمْ
 أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ» بأن لا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من
 حسناتهم.

(٢٠) «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ
 الدُّنْيَا وَأَسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ
 بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ» يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم
 على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: «أَدْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي
 حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا» حيث اطمأنتم إلى الدنيا، واغترتم بلذاتها،
 ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم،
 وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة، فهي حظكم من آخرتكم.

«فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» أي: العذاب الشديد، الذي
 يهينكم ويفضحكم، بما كنتم تقولون على الله غير الحق أي:
 تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه،
 وأنتم كذبة في ذلك، «وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ» أي: تتكبرون عن
 طاعته.

فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على
 الله بنسبته إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه،
 فعوقبوا أشد العقوبة.

(٢١-٢٦) «وَأَذْكُرُ لَكُمْ مَا عَادَ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُمُ بِالْأَحْقَافِ» إلى آخر
 القصة^(١). أي: «وَأَذْكُرُ» بالثناء الجميل «أَمَّا عَادُ» وهو هود

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
 كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
 أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي
 ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
 الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِي قَالَ
 لَوْلَدِيهِ أُنِيبْ إِلَيَّ أَتَعِدُ إِنِّي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ
 قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلْعَنُ آدَمُ بْنُ إِبْنٍ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَقُولُ
 مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
 خَسِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ
 لَا يُظَاهَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ
 فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
 بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله
 تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه.

«إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُمُ» وهم عاد «بِالْأَحْقَافِ»، أي: في منازلهم
 المعروفة بالأحقاف، وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن.
 «وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» فلم يكن بدعاً
 منهم، ولا مخالفاً لهم، قائلًا لهم: «أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد،
 ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوفهم - إن لم يطيعوه -
 العذاب الشديد، فلم تدف فيهم تلك الدعوة «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ
 عَنْ آلِهَتِنَا» أي: ليس لك من القصد، ولا معك من الحق، إلا
 أنك حسدتنا على آلِهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها.

«فَأَنبَأَ بِمَا عَٰدُوا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّٰدِقِينَ» ولهذا غاية الجهل
 والعناد.

«قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ» فهو الذي بيده أزيمة الأمور

(١) في ب، ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: «وَمَعَاقِبِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَعْجِلُونَ».

ومقابلدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء.

﴿وَأُيْلِعُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أي: ليس عليّ إلا البلاغ المبين،
﴿وَلَكِنِّي أَنْتَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من
هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهي
الريح التي دمرتهم وأهلكتهم.

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ
أُودِيَّتِهِمْ﴾ أي: معترضًا كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي
تسيل، فسقي نوابيتهم، ويشربون من آبارها وغدرانها.
﴿قَالُوا﴾ مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطِرٌ﴾ أي: هذا السحاب
سيمطرنا.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي: هذا الذي جنيت
به على أنفسكم، حيث قلتم: ﴿فَإِنَّا يَمَّا تَمِدُّنَا إِذَا كُنَّا مِنَ
الْصَّدِيقِينَ﴾.

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ تمر عليه من شدتها
ونحسها. فسلطها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَكُنُيَّةٍ أَيَّامٍ خُسُوفًا
فَرَزَقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغَيْنِ كَانَتْهُنَّ أَعْجَادٌ تَحُلُّ حَارِيْرَ﴾ [يَأْتِرُ رَبَّهَا]
أي: بإذنه ومشيته].

﴿فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم
وانفسهم.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم.

هذا مع أن الله تعالى قد أدرّ عليهم النعم العظيمة، فلم
يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ
مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: مكانهم في الأرض، يتناولون طياتها،
ويتمتعون بشهواتها، وعمرانهم عمرًا يتذكر فيه من تذكر،
ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عادًا كما مكناكم يا
هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص
بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئًا، بل غيركم أعظم
منكم تمكينًا، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا
جنودهم من الله شيئًا.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي: لا قصور في
أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال: إنهم تركوا
الحق جهلًا منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في
عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَعُهُمْ وَلَا ابْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا
قليل ولا كثير.

وذلك بسبب أنهم ﴿يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على
توحيده وإفراده بالعبادة.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب

سورة الأحقاف

٥٥

سورة الأحقاف

﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّكِفَ عَنْ الْهَيْئَةِ فَأَنَّا
يَمَّا تَعْدُنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلْعُمُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أُودِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرٌ
بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٠﴾ تَدِيرُ كُلَّ
شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَعُهُمْ
وَلَا ابْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٣٣﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٣٤﴾

الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم
منه.

(٢٨، ٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٣٢﴾ يحذر تعالى
مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم
حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود
ونحوهم، وأن الله تعالى صرّف لهم الآيات، أي: نوعها من
كل وجه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

فلما لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم
آلتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا:
﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، أي:
يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم.

﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ من الكذب، الذي
يمنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن
أعمالهم ستنتفعهم، فضلت وبطلت.

(٢٩-٣٢) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ۖ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۚ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع للدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام، دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرّفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: وصّى بعضهم بعضًا بذلك.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ﴾ نصّحًا منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبيّنوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه، ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم، ليشيكم، ويزيل عنكم كل شر ومكره، ولهذا قالوا: ﴿يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وإذا أجارهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر؟!

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَّيَحْلِقْنَهُ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَن يُخْلِقَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ

سورة الأحقاف

٥٠٦

سورة الأحقاف

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ۖ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۚ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۚ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَّيَحْلِقْنَهُ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَن يُخْلِقَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَّغَ إِلَيْهِمْ هَٰذَا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۚ

سورة محمد

منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظمهما وسعتهما، وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يغني بخلقهن، فكيف تعجزه إعادتك بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير؟!

(٣٤، ٣٥) ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَّغَ إِلَيْهِمْ هَٰذَا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم

مشمات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه.

فهؤلاء ﴿أَصْلَ﴾ الله ﴿أَعَنَلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأشقامها بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة. ﴿كَفَر﴾ الله ﴿عَنَّهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ صغارها وكبارها، وإذا كثرت سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: أصلح دينهم ودنياهم، وأصلح جميع أحوالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتركته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم.

فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي، الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

(٤-٦) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْتَتَوْهُمْ فَشَدُّوا الرِّقَابَ فَإِذَا مَتَّ بَعْدَ وَإِذَا فِئَةٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الرَّبُّ أَرْزَاقَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَّرْتُمْ بِهِمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ○ سَيَجْزِيهِمْ وَصْلُكَ بِأَلَهُمْ ○ وَيُجَاهِلُهُمُ لَبَنَةٌ عَرَفَهَا قَوْمٌ﴾ يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم -: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، حتى تتخونهم،

العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رما المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمহারبة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأتمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ فَمَنْ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحمقهم، فلا يَسْتَعْجِلُكَ بجهلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هوأت قريب.

﴿و كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَرَبِّكَ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الويل.

﴿بَلَعٌ﴾ أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.

أوهذا القرآن العظيم الذي بيَّن لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة. ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.

﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ○ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ○ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ هذه الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى
إِذَا اخْتَشَمُوا مِنْهُمُ فَثَبَّطُوا الْوَتَاكُ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ
أُوزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ
وَيُضِلُّهُمْ بِالْهَمِّ ﴿٥﴾ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ نَصْرُكُمْ وَيَتَيْتَ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَسَاءَلُهُمْ أَصْلُ أَعْمَالِهِمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأَحْطَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

(٧-٩) ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ نَصْرُكُمْ وَيَتَيْتَ أَقْدَامَكُمْ ○ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُهُمْ أَصْلُ أَعْمَالِهِمْ ○ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم.

فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاة، ويسر له أسباب النصر من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيّدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا

وتكسروا شوكتهم، وتبطلوا شرهم، فإذا فعلتم ذلك ورأيتم الأسر أولى وأصلح ﴿تَثَبُّدُوا الْوَتَاكُ﴾ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شدّ منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم، ومن شرهم.

فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المَنَ عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.

ولهذا الأمر مستمر ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا كان قتال وحرب.

فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومدولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم.

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً منيئاً على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحبطها ويطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا والآخرة.

﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة ﴿وَيُضِلُّهُمْ بِالْهَمِّ﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكدي فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جعلتها القتل في سبيله، ووقفهم للقيام بما أمرهم به ورغَّبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

والأبنية والآلات.

﴿أَهْلَكْتَهُمْ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ، فلم نجد^(١) لهم ناصراً، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً.

فكيف حال هؤلاء الضعفاء، أهل قريتك، إذ أخرجوك عن وطنك وكذبوك، وعادوك وأنت أفضل المرسلين، وخير الأولين والآخرين؟!

أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأيي، بكل كافر وجاحد؟.

[١٤] ﴿أَفَنَ كَانَ عَلَىٰ نَبِيٍّ مِّنْ زِينَةٍ لِّمَن سَوَّاهُ عَلَيْهِمْ وَأَنْبَعُوا أَهْلَهُمْ﴾ أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه، علماً وعملاً، قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأصله، واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك، يرى أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغي؟!^(٢)

(١٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّيِّنٍ غَيْرٍ مُّضَغٍّ وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمِيمٍ لَّسَّيِّنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ مُّصْقًى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة.

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحاً، وألذها شرباً.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّيِّنٍ غَيْرٍ مُّضَغٍّ﴾ بحموضة ولا غيرها ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمِيمٍ لَّسَّيِّنٍ﴾ أي: يلتذ به شارب له لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ مُّصْقًى﴾ من شمعته وسائر أوساخه. ﴿وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورماني، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.

ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المروء، [فهؤلاء] خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها ﴿وَسُقُوا﴾ فيها ﴿مَاءً حَمِيماً﴾، أي: حاراً جداً، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

(١) في ب: فلا تجد لهم ناصراً. (٢) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف - رحمه الله - . (٣) في الأصل (فأي هؤلاء) ولعل الصواب ما أثبت.

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه ﴿فَأَخَاطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

(١٠، ١١) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۚ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْتِي الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْتَ لَهُمْ﴾ أي: أفلا يسير هؤلاء المكذوبون بالرسول ﷺ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب. فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخذوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم. وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْتِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْتَ لَهُمْ﴾ يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَاكْوَناً كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المثمرة لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيدة.

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم، ذكر أنهم وُكِّلُوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروء، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها ولا فضل، بل جُلُّ همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مَثْوًى لهم، أي: منزلاً معداً، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها.

(١٣) ﴿وَكَايَنَ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين، هي أشد قوة من قريتك، في الأموال والأولاد والأعوان،

الجزء وأوفاه.

(٢٠-٢٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا أَنزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتُمُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ فَظَنُّوا أَنَّهُ مَتَّعٌ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ ۝ فَعَلَّ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْعَامَكُمْ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۝ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فَإِذَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ أي: ملزم العمل بها ﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعف الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتُمُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ فَظَنُّوا أَنَّهُ مَتَّعٌ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من كراهتهم لذلك وشدة عليهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

ثم نذبه تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، ويفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتتم ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلق نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته وبوظيفة المستقبل. أما الحال فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تفر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره. فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به، ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته.

(١) في ب: وتودع نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل، ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعذّلها إلى: وطن نفسه.

بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمشقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو ويطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه. السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا، ورأيا وصوابا، وعلمًا - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا الله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نموًا وكمالًا.

هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿و﴾ استغفر أيضًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم. وإذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعائبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم

ثم كلما جاء وقت استقباله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حريٌّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتنال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي، وقطعية الأرحام.

﴿أَوَلَيْكُمُ الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَقُتِلُوا أَرْحَامُهُمْ﴾ أي: بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله.

﴿فَاصْغُرْ وَأَعْيْ أَبْصَرَهُمْ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه. فلهم أذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيّنات.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّره من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفندتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر. ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويل.

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

(٢٥-٢٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَلْهُدَى الشَّيْطَانِ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ○ فكيف إذا توفّتهم الملائكة بضربوت وجوههم وأدبرتهم ○ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فَأَحْطَ أََعْمَلَهُمْ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران. ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهّدوا فيه ورفضوه، و

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٩

سُورَةُ الْقَاتِلَةِ

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ○ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ○ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ○ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ○ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَلْهُدَى الشَّيْطَانِ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ○ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ○ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ○ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ○ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ○

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ بالمقامع الشديدة!

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه سبب ﴿أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقرّبهم إليه، ولا يدينهم منه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه؛ فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

(٢٩-٣١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ○ وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَسَّتْهُمُ فَلَغَرَفَتْهُمْ بِسِمِهِمْ وَلِعَرَفَتْهُمْ فِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٠

سُورَةُ الْقَاتِلَاتِ

لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ۝ وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ۖ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ۖ مِنْ شُبْهَةِ أَوْ شَهْوَةٍ بِحَيْثُ تَخْرُجَ الْقَلْبُ عَنْ حَالِ
صِحَّتِهِ وَاعْتَدَالِهِ ۖ
أَنْ اللَّهَ لَا يَخْرِجُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْعَدَاوَةِ
لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ؟ هَذَا ظَنُّ لَا يَلِيقُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدَّ أَنْ
يُمَيِّزَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَذَلِكَ بِالِابْتِلَاءِ بِالْمَحْنِ الَّتِي مِنْ
ثَبَّتَ عَلَيْهَا، وَدَامَ إِيْمَانُهُ فِيهَا فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةً.
وَمِنْ رَدَّتْهُ عَلَى عَقْبِيهِ فَلَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا، وَحِينَ أَتَاهُ
الْامْتِحَانُ، جَزَعَ وَضَعَفَ إِيْمَانُهُ، وَخَرَجَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ
الضَّغْنِ، وَتَبَيَّنَ نِفَاقُهُ، هَذَا مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، مَعَ أَنَّهُ
تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ قَلْبَهُمْ لَيَجْعَلَنَّ اللَّهُ فِي
بُعْدَانِهِمْ الَّتِي هِيَ كَالْوَسْمِ فِي وَجْهِهِمْ.
﴿وَلَتَعْلَمَنَّ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أَي: لَا يَدَّ أَنْ يَظْهَرَ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ، وَتَبَيَّنَ بَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، فَإِنَّ الْأَلْسْنَ مَغَارِفَ
الْقُلُوبِ، يَظْهَرُ مِنْهَا مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَلَكُمْ ۖ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا.
ثُمَّ ذَكَرَ أَكْثَرَ امْتِحَانٍ يَمْتَحِنُ بِهِ عِبَادَهُ، وَهُوَ الْجِهَادُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أَي: نَخْتَبِرُ إِيْمَانَكُمْ وَصَبْرَكُمْ
﴿حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فَمَنْ امْتَثَلَ أَمْرَ
اللَّهِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَصْرِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فَهُوَ الْمُؤْمِنُ
حَقًّا، وَمَنْ تَكَاسَلَ عَنْ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي إِيْمَانِهِ.
(٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُدُّوا عَنْهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ﴾ هَذَا
وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ جَمَعَ أَنْوَاعَ الشَّرِّ كُلِّهَا مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَصَدِّ
الْخَلْقِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي نَصَبَهُ مُوَصِّلًا إِلَيْهِ.
﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أَي: عَانَدُوهُ
وَخَالَفُوهُ عَنْ عَمْدٍ وَعِنَادٍ، لَا عَنْ جَهْلِ وَغْيٍ وَضَلَالٍ، فَإِنَّهُمْ
﴿لَنْ يَصُدُّوا عَنْهُ شَيْئًا﴾ فَلَا يَنْقُصُ بِهِ مَلِكُهُ.
﴿وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ﴾ أَي: مَسَاعِيَهُمُ الَّتِي بَذَلُوهَا فِي نَصْرِ
الْبَاطِلِ، بَأَنْ لَا تُثْمَرَ لَهُمْ إِلَّا الْخَبِيَّةُ وَالْخُسْرَانُ، وَأَعْمَالُهُمُ الَّتِي
يَرْجُونَ بِهَا الثَّوَابَ، لَا تُقْبَلُ لِعَدَمِ وُجُودِ شَرْطِهَا.
(٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
أَعْمَلَكُمْ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِ بِهِ تَتِمُّ أُمُورُهُمْ، وَتَحْصُلُ
سَعَادَتُهُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ فِي
أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَالطَّاعَةُ هِيَ امْتِثَالُ الْأَمْرِ، وَاجْتِنَابُ
النَّهْيِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ بِالْإِخْلَاصِ وَتِمَامِ الْمَتَابَعَةِ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ يَشْمَلُ النَّهْيَ عَنْ إِبْطَالِهَا بَعْدَ

عملها بما يفسدها، مِنْ مَنْ يَبْهَى وَإِعْجَابٍ، وَفَخْرٍ وَسَمْعَةٍ، وَمِنْ
عَمَلٍ بِالْمَعَاصِي الَّتِي تَضْمَحِلُ مَعَهَا الْأَعْمَالُ، وَيَحْبِطُ أَجْرُهَا،
وَيَشْمَلُ النَّهْيَ عَنْ إِسْوَادِهَا حَالٍ وَقَوْعِهَا بِقَطْعِهَا، أَوْ الْإِتْيَانِ
بِمُفْسَدٍ مِنْ مُفْسَدَاتِهَا.

فَمُبْطَلَاتُ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِهَا كُلِّهَا دَاخِلَةٌ فِي
هَذَا، وَمَنْهِيٌّ عَنْهَا، وَيَسْتَدِلُّ الْفَقْهَاءُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تَحْرِيمِ قَطْعِ
الْفَرَضِ، وَكَرَاهَةِ قَطْعِ النَّفْلِ، مِنْ غَيْرِ مُوجِبٍ لَذَلِكَ.

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ نَهَى عَنْ إِبْطَالِ الْأَعْمَالِ، فَهُوَ أَمْرٌ
بِإِصْلَاحِهَا، وَإِكْمَالِهَا وَإِتْمَاعِهَا، وَالْإِتْيَانِ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي
تَصْلَحُ بِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا.

(٣٤، ٣٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ
كَافِرًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۖ فَلَا تَهْتَوُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ
وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَلَكُمْ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ وَالَّتِي فِي الْبَقَرَةِ قَوْلُهُ:
﴿وَمَنْ يَرْكُزْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَبَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ مُقِيدَتَانِ لِكُلِّ نَصٍّ مُطْلَقٍ، فِيهِ
إِحْبَاطُ الْعَمَلِ بِالْكَفْرِ، فَإِنَّهُ مُقِيدٌ بِالْمَوْتِ عَلَيْهِ. فَقَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟ فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

(٣٦-٣٨) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْزِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ۚ إِنَّ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيَخْرُجُ أَصْغَنَكُم ۚ هَٰذَا نَسُوءُ هَٰؤُلَاءِ لَنُذَعِبَنَ لَنُفْسِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ هذا ترهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب. فلا يزال العبد لاهياً في ماله وأولاده وزينته، ولذاته من النساء والمآكل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعباً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه ويحضره أجله.

فإذا هذه الأمور قد وُلَّت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وحرمانه وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها.

وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ بأن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه.

وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً، ليشيهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْزِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعتكم من أخذ أموالكم وبقاتكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم ولهذا قال: ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيَخْرُجُ أَصْغَنَكُم﴾ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها أنكم ﴿تُدْعَوْنَ لِتُفْسِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ أي: فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

﴿وَصَدَّوْا﴾ الخلق ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بترهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وترزينه.

﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مغبين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه. فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاء للإسلام، وإغصاباً للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم طلباً للراحة ﴿وَالْحَالُ أَنْكُمْ﴾ ﴿أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ﴾ أي: ينقصكم ﴿أَعْمَلُكُمْ﴾.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدها من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وعُدداً وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَذْرِ تَيْلَأٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَوْبَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الْفَتْحُ﴾ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم.

﴿وَإِنْ تَرَوْهُا﴾ عن الإيمان بالله، وامثال ما يأمركم به ﴿يَسْتَدِيلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْتًا لَّكُمْ﴾ في التولي. بل يطيعون الله ورسوله ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

ثم تفسير سورة القتال والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَكَ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمرًا في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك.

وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً ووصفه بأنه فتح مبين، أي: ظاهر جلي. وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك^(١) الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة.

وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته

﴿...﴾، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعزاز دينك ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

﴿وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: قوياً لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلكهم ونقصهم مع توفر قوى المسلمين ونموهم ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين فقال:

(٤-٦) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا بَإِيمَانِهِمْ﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿لِيُخْذِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ بَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ طَلَبَ السَّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

يخبر تعالى عن ميثقه على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة التي تشوش القلوب وترزعج الألباب وتضعف النفوس.

فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه ويتم إيقانه.

فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس. فلما صبروا عليها ووطئوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعها في ملكه وتحت تدبيره وقهره. فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونيبه، ولكنه تعالى عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

﴿لِيُخْذِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ بَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات.

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيَعَذِّبُ
الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ
بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ أَي:

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويربهم ما يسوؤهم حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يُعْلِي كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا.

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله. ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

(٧) ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ جُنْدًا لَمْ يَأْتِ بِالسَّيِّئَةِ﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي: قويًا غالبًا قاهرًا لكل شيء. ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

(٨، ٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شَهِيدًا﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهدًا على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من أطاعك، وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والآخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل.

ومن تمام البشارة والنذارة بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة والحق من الباطل.

ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما يتفعمكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تعظموه وتجلوه وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة العظيمة برفاقكم.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا لله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول

النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما والمختص بالرسول وهو التعزيز والتوقير، والمختص بالله وهو التسبيح له والتفديس بصلاة أو غيرها.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها.

فأخبر تعالى: أن الذين بايعوك حقيقة الأمر أنهم ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا الزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع

إليه، وعقوبته واصله له.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ﴾ أي: أتى به كاملاً موفراً.

﴿فَسَبِّحْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه

إياه.

(١١-١٣) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلَوْنَا فَنَسْتَفْرِغْ لَنَا يَقُولُونَ بِٱلْسِّنَةِ مَآ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَعِيرًا ۝ وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَنَآءَ ٱلْعَدَنَآ لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسوله في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهلهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد.

وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِٱلْسِّنَةِ مَآ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار. فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم، لأنهم قد تابوا وأنبأوا، ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

فظنوا ﴿أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: إنهم سيقولون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم ويطمنون إليه، حتى استحکم، وسبب ذلك أمران: أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوْمًا بُرًّا﴾ أي: هلكى، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير، لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم وبقيتهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب ﴿فَنَآءَ ٱلْعَدَنَآ لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة، والأحكام الجزائيّة، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعيّة، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ﴾ وهو من قام بما أمره الله به ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ﴾ ممن تهاون بأمر الله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة.

فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

٥١٢

سُورَةُ ٱلْفَتْحِ

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ فَمَنْ يَعْصِيهِ أَعْظَمُ بِمَا ۝ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلَوْنَا فَنَسْتَفْرِغْ لَنَا يَقُولُونَ بِٱلْسِّنَةِ مَآ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَعِيرًا ۝ وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَنَآءَ ٱلْعَدَنَآ لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَآئِمَ لِنَأْخُذْهُوَآذًا وَنَآتِيْعَكُمْ بُرْدُونَ أَنْ يْسُدُّوْا كَلِمَ ٱللَّهِ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَآلَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝

الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره الممدار آتاء الليل والنهار.

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَآئِمَ لِنَأْخُذْهُوَآذًا وَنَآتِيْعَكُمْ بُرْدُونَ أَنْ يْسُدُّوْا كَلِمَ ٱللَّهِ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَآلَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم، قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَنْ يَسُدُّوْا كَلِمَ ٱللَّهِ﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعاً وقدرًا.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَآلَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إنكم محرومون منها بما جنيتكم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ معجيين لهذا الكلام الذي منعوا به عن الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَا﴾ على الغنائم، هذا مبتهى علمهم في هذا الموضوع. ولو فهموا رشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب

عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(١٦، ١٧) ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمًا أُولَىٰ بِأَمْرِ شَيْدٍ نَّقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ طَبِعُوا بِتُوكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة قال تعالى ممتحنًا لهم: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمًا أُولَىٰ بِأَمْرِ شَيْدٍ﴾ أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة.

وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم. ﴿نَقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ أي: إما هذا وإما هذا. وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم، ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه.

فلما أئخنهم المسلمون وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا وإما أن يبذلوا الجزية ﴿فَإِنْ طَبِعُوا﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.

ثم ذكر الأعداء التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في امتثال أمرهما، واجتنب نهيهما ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

(١٨-٢١) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمًا أُولَىٰ بِأَمْرِ شَيْدٍ نَقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ طَبِعُوا بِتُوكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْذِرْتُمْ لَا يَجِدُوكَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ سَنَّتُهُ اللَّهُ تَبْدِيلًا ۝

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ يخبر تعالى بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعات التي يبضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة.

وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها: «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها: «بيعة أهل الشجرة» - أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجيء لقتال أحد، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظماً له. فبعت رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك.

فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون. فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين، وأن لا يفروا حتى يموتوا.

مخدولون مغلوبون. وهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

(٢٥، ٢٤) ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَقْبِيكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَّةٌ يَبْتَغِي عَلِيمٌ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ شَيْءٍ لَوْ نَزَّلْنَاهُ لَعَذَابْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول تعالى ممثلاً على عباده بالعاقبة من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة.

فوجدوا المسلمين متبهيين فأسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوهم رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة.

وهم الذين أيضاً صدوا ﴿الْهَدْيَ مَعَكُوفًا﴾ أي: محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلمًا وعدوانًا، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم.

ولكن ثم مانع وهو وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى. فلولاً هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أَنْ تَطَافُوهُمْ﴾ أي: خشية أن تطأوهم ﴿فَيَقْبِيَكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَّةٌ يَبْتَغِي عَلِيمٌ﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكروه.

وفائدة أخرى، وهو أنه ليدخل في رحمته من يشاء فيمنع عنهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدي بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَابْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَبِيَّةَ حَبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ

فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ شكرًا لهم على ما في قلوبهم زادهم هدى.

وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبيتهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَنْتَبَهُمْ فِتْنًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية.

فاختصوا بخيبر وغنائمها جزاء لهم، وشكرًا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

﴿وَمَغَانِرَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا﴾ وكان الله عزيزًا حكيمًا ﴿أَي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين. ولكنه حكيم، يتبلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِرَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمين إلى يوم القيامة.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: غنيمة خيبر، أي: فلا تحسبوها وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم سيبعها.

﴿و﴾ احمدا الله، إذ ﴿كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ﴾ القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عَنْكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم.

﴿وَلَيَكُنْ﴾ هذه الغنيمة ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعدته الحق وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿مِرْطًا مُسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل.

﴿وَأُخْرَى﴾ أي: وعدكم أيضًا غنيمة أخرى ﴿لَوْ تَقَدَّرُوا عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب.

﴿فَدَاحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها، و تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٣، ٢٢) ﴿وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَنَ ثُمَّ لَا يَجِدُوتَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَنَ ثُمَّ لَا يَجِدُوتَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرهم.

﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٤

سُورَةُ الْفَتْحِ

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ مِنْ
 بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمْ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ
 مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ وَلَوْلَا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ
 لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ
 لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ لَأَنزَلْنَا اللَّهُ سَكِينَةً
 عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى
 وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾
 لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا
 تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا
 هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
 وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ
 الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا
 أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة، ويطوفون بالبيت،
 فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول
 لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول
 الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال:
 «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه
 وتطوفون به». قال الله هنا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا
 بِالْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك
 تأخر تأويلها.

كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا
 يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ
 الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»
 وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك
 السنة، لئلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش».

وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في
 قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يحملهم
 الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا
 لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمت الله ولو
 كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين ولا لوم اللاتمين.
 ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحقوقها،
 ألزمهم القيام بها فالتزموها وقاموا بها.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿و﴾ كانوا «أهلها» الذين
 استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا
 قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

(٢٨، ٢٧) ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ
 الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا
 تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾
 هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
 وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ
 الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا
 أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة، ويطوفون بالبيت،
 فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول
 لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول
 الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال:
 «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه
 وتطوفون به». قال الله هنا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا
 بِالْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك
 تأخر تأويلها.

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
 وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت
 الحرام، وأدائكم للنسك وتكميله بالحلل والتقصير وعدم
 الخوف.

﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ
 ذَلِكَ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿فَتَحًّا قَرِيبًا﴾. ولما كانت هذه
 الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت
 عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتا، وهكذا سائر

أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾
 الذي هو العلم النافع الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق
 الخير والشر.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل
 والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُرَكَّبٌ للقلوب، مطهر للنفس، مُرَبِّ
 للأخلاق، مُغْلٍ للأقدار.

﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ بما بعثه الله به ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بالحجة

والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان.

(٢٩) ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

تَرَبُّهُمْ رُكَّاعًا سَجِدًا يَتَّبِعُونَ قَضَايَا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ

مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوَرَةِ وَمِثْلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَ أَخْرَجَ

سُفْطَهُمْ فَازْدَرَوْهُ فَاسْتَقَالَتْ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّطَ بِهِمْ

الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

عَظِيمًا﴾ يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين

والأنصار، أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال.

ابن القيم في «الهدى النبوي» فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها قال - رحمه الله تعالى -:

فصل في قصة الحديدية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري وقادة وموسى بن عقبة ومحمد ابن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديدية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان.

قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس: أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديدية، وكان معه ألف وخمسمائة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربعمائة. وفيهما، عن عبد الله ابن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاثمائة.

قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله، وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديدية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربعمائة بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أمثل، وهو قول البراء بن عازب، ومقول ابن يسار، وسلمة ابن الأكوع في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة، وغلط غلطاً بيئاً من قال: كانوا سبعمائة.

وعذره^(١) أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربعمائة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة.

وأَنَّهُمْ «أَشَدُّ عَلَى الْكُفَّارِ» أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة.

فلذلك ذل أعدائهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون. «رَحْمَةً بَيْنَهُمْ» أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد يجب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق.

وأما معاملتهم مع الخالق فإنك «تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا» أي: وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها: الركوع والسجود. «يَتْلُونَ» بتلك العبادة «فَضَلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه. «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم حتى استنارت.

لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت [بالجلال] ظواهرهم.

«ذَلِكَ» المذكور «مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم «كَزَّرَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ فَازَرَهُ» أي: أخرج فراخه فوازرتة فراخه في الشباب والاستواء. «فَاسْتَغْلَظَ» ذلك الزرع أي: قوي وغلظ «فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ» جمع ساق.

«يُعِجُّ الزَّرْعُ» من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله. كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق، واحتياج الناس إليهم، ففوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه.

وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق، ووازره وعاونته على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه، فازره فاستغلظ.

ولهذا قال: «لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ» حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال ومعامع القتال.

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»، فالصحابة رضي الله عنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها، وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديدية بطولها كما ساقها الإمام شمس الدين

(١) في ب: وعذرهم.

فصل

فلما كانوا بذى الحليفة قلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عينا له بين يديه من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريبا من عسفان، أتاه عينه فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه أتروا أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فتصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عناق قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا».

فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغيرة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش.

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهموها» ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضا، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله! ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها. وفزعت قريش لتزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أؤذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجلا بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويشهرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم

أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره وأردفه أبان، حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت، وطاف به. فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح.

فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله، من الطواف بالبيت، فقال: بئسما ظنتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها، حتى يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعنتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظنا.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجد بن قيس وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاءوا أمادهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا، حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره» قال بديل:

سأبلغهم ما تقول .

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .

فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت .

فقام مكرز بن حفص، وقال: دعوني آته، فقالوا: آته . فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر» .

فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل ابن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب .

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» .

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: فوالله لو تعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد ابن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتُموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل فكتب .

فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا .

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين، وقد جاء مسلماً؟ .

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه أن تردّه، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي»، فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه .

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُرِد إلى المشركين، وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً .

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعتة يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعتة، قال: سمعتة يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: آته .

فأتاه فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ: نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي محمد، رأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً وأرى أوباشاً من الناس، خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك .

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة ابن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر . فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخرج يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي عُذْر، أولست أسعى في غدرتك؟ .

وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم . فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء» .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه .

وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحَدِّثُونَ إليه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله، لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحَدِّثُونَ إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشيد فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: آته .

يومئذ، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله أأنت نبي الله؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرت أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات.

فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة، حتى تحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَعِصَمُ الْكَوَافِرُ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان ابن أمية، ثم رجع إلى المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟! فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

ولهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان ابن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله الذي

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ ٥١٥

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا لِبَتْغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِغَيْظِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَنْقُو اللَّهَ إِنِ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

بنعمته تتم الصالحات^(١).
المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام
المنان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته:
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَنْقُو اللَّهَ إِنِ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب^(٤)، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن.

فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها، ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

(٥، ٤) إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في أناس من الأعراب الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد، [أي: اخرج إلينا].

فدمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب. فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأدب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

(٦) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ فَاغْلِبْ فَتَقَبَّلُوا أَنْ نَقُيْبُوا قَوْمًا يَمْكِنُ فَتَصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَتَذَمِين﴾ وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بغير أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين.

فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب، ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقولون روايات كثير [من] الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

(١) في ب: من كان. (٢) في ب: والجائزات. (٣) في ب: عن ضده. (٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

هذا متضمن للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له واحترامه، وإكرامه.

فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، و[أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرؤا حتى يأمر.

فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي.

وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائناً ما كان^(١).

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللاحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات^(٢).

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام.

ولا يكون الرسول كأحدكم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى.

الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَتَنَلُوا إِلَيْهَا تَبَعِي حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴿٧﴾

أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله من فعل الخير وترك الشر الذي من أعظمه الاقتال.

[وقوله: ﴿إِن قَاءَتْ فَآتَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيث على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقراءة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التي توجب العدول عن العدل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم. وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «أمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: لا تحاسدوا ولا تاجشوا ولا تباغضوا ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»^(٤).

وقال ﷺ^(٥): «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك ﷺ بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التألف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لفرق القلوب وتباغضها [وتدابرها] فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنائهم.

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار. (٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له. (٣) في ب: ويقتل. (٤) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تاجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه) متفق عليه. (٥) في ب: وفيها عن النبي ﷺ

(٨، ٧) ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَعِمَ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ۝ فَضَلَّ مَنَ اللَّهُ وَيَعْمَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ أي: ليكن لديكم معلومًا أن رسول الله ﷺ بين أظهركم وهو الرسول الكريم البار الراشد الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة، ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعتككم ولكن الرسول يرشدكم.

والله تعالى يحب إليكم الإيمان ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإجابة إليه. ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب^(١)، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فسادة وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له^(٢).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم.

وضداهم الغاؤون الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما ﴿رَآغُوا أَرَأَىٰ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: ﴿فَضَلَّ مَنَ اللَّهُ وَيَعْمَهُ﴾ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه لا بحولهم وقوتهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

(١٠، ٩) ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَتَنَلُوا إِلَيْهَا تَبَعِي حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن قَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغى بعضهم على بعض، ويقاتل^(٣) بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به

المأمور بخلاف ذلك منه .

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: لا تنفثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها، واتركوا^(١) المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله^(٢) التي إذا فشتت ظهر منها ما لا ينبغي .

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكر أخاك بما يكره ولو كان فيه» .

ثم ذكر مثلاً منفرداً عن الغيبة فقال: ﴿يَتَجَسَّسُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبه أكل لحمة ميتاً المكروه للنفوس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمة، وخصوصاً إذا كان ميتاً فاقدر الروح، فكذلك [فلتكرهوا] غيبته وأكل لحمة حيّاً .

﴿وَأَلْفَوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر .

(١٣) ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرقه وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالقوى .

فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً . ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلّاً بما يستحق .

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك .

(١٤-١٨) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

٥١٧

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَجَبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ۝ يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ ۝ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ ۝ يَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَقَالَةِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَخُولاً مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ، وَلَا قِيَامَ بِمَا يَجِبُ وَيَقْضِيهِ الْإِيمَانُ، أَنَّهُمْ ادْعُوا مَعَ هَذَا وَقَالُوا: آمَنَّا أَي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهراً وباطناً كاملاً .

على ذلك .

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وإنما أمتم خوفاً أو رجاءاً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم .

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَيُّ الْمُكَذِبِينَ لِلرَّسُولِ عَلَى أَن جَاءَهُمْ مُذِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: يندرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه. فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم^(١).

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب وهم في هذا الاستغراب بين امرين:

إما صادقون في [استغرابهم] وتعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم، وضعف عقولهم بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟.

وإما أن يكونوا متعجبين على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم فقال: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكَأَنَّ رَبَّكَ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقاوسا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاوسا الجاهل الذي لا علم له بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه وسعته - التي لا يحيط بها إلا هو - على قدرته على إحياء الموتى.

(٥) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ﴾ أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ﴾ أي: مختلط مشتب، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.

وكذلك جعلوا القرآن عسین، كل قال فيه ما اقتضاه رأيہ الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة^(٢) ولا قرار، [فترى أموره متناقضة مؤتلفة].

كما أن من اتبع الحق وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

(٦-١١) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ○ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ○ بَصِيرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ ○ وَزَيَّنَّا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَالْتَبَسْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْمُصِيدِ ○ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نُضِيدٌ ○ رِّزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته^(٣) الأفقية كي يعتبروا ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة.

فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً ولا فروجاً ولا خللاً ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿وَ﴾ إلى ﴿الْأَرْضِ﴾ كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ وسعناها حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار^(٤)، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال لتستقر من التزلزل والتموج.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها وتعجب مبصرها، وتقر عين راقمها، لأكل بني آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم.

وخص من تلك المنافع بالذكر الجينات المشتملة على الفواكه اللذيذة من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أي: الطوال التي يطول^(٥) نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواسيهم.

وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض والتي تحتها من ﴿حَبِّ الْمُصِيدِ﴾ أي: من الزرع المحصود، من بُرٍّ وشعير، وذرة وأرز ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿بَصِيرَةً﴾ يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا،

(١) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم. (٢) في ب: وجه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: آيات الله. (٤) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٥) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

٥١٨

سُورَةُ الْقَمَرِ

سُورَةُ الْقَمَرِ

سُورَةُ الْقَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ الْقَوْمُ إِنَّ الْمَجِيدَ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ
فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَمْ دَامَتُنَا وَكَثُرْنَا بِذَلِكَ
رَجْعٌ مُبْعِدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ
حَفِظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ
(٥) أَفَأَنْتُمْ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا
وَمَا لَكُمْ مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) بَصِيرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُتَيْبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّ
وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالْخَلَّ بِاسْقَنْتِ لَهَا طَعْعٌ نَضِيدٌ (١٠)
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ
لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ
(١٤) أَفَعَيَّنَّا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

أصابتهم.

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول (٤) -
على الخلق الآخر وهو النشأة الآخرة.

فكما (٥) أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد
موتهم وصيرورتهم إلى [الرفات والرمم، فقال: ﴿أَفَعَيَّنَا﴾
أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾؟ ليس الأمر
كذلك، فلم نعجز ونعني عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك.
إنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه،
والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة
أهون من الابتداء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

(١٦-١٨) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْنَ بِهِ فَسَمَّوْهُنَّ
أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ○ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ رِيعَدٌ ○

(١) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلق. (٢) زيادة من هامش ب. (٣)
كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق
يقال له تبع. (٤) في ب: النشأة الأولى. (٥) كذا في ب، وفي أ: وأنه
كما أنه.

ويتذكر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل
أحد بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَيْبٍ﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب
والخوف والرجاء وإجابة داعيه.

وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن
قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة
دليل على كمال قدرة الله تعالى.

وما فيها من الحسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع
الخلق (١) دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء
عليم.

وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله
التي وسعت كل شيء وجوده الذي عم كل حي.

وما فيها من عظم الخلقه وبديع النظام، دليل على أن الله
تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة
ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة
والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله
الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً
مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية خوَّفهم
أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب،
فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين فقال:

(١٢-١٥) ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ○ وَعَادُ
وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ○ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدُ ○ أَفَعَيَّنَّا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي:

كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام، وأنبياءهم
العظام كـ «نوح» كذبه قومه، [و «ثمود» كذبوا «صالحاً»] (٢)،
وعاد كذبوا «هوداً»، وإخوان لوط كذبوا «لوطاً»، وأصحاب
الأيكة كذبوا «شعيباً»، وقوم تبع - «وتبع» كل ملك ملك اليمن
في الزمان السابق قبل الإسلام (٣) - وقوم تبع كذبوا الرسول
الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول،
وأي تبع من التبابعة، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند
العرب لكونهم من العرب العرباء الذين لا تخفى ماجرياتهم
على العرب، خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق
عليهم وعيد الله وعقوبته.

ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا رسلهم
أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٥١٩

سُورَةُ ق

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسَهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتْلِفَيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَتَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِي ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَرْفَعَتِ الْجَنَّةُ الْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق ﴿١٦﴾ جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره ﴿١٧﴾.

وأنه ﴿١٨﴾ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٨﴾ الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق ﴿١٩﴾ المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه ﴿٢٠﴾ في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿٢١﴾ إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتْلِفَيَانِ ﴿٢١﴾ أي: يتلفيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿٢٢﴾ عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٢﴾ يكتب الحسنات ﴿٢٣﴾ الْآخَرِ ﴿٢٣﴾ عَنِ الشِّمَالِ ﴿٢٣﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿٢٤﴾ مُبِيدٌ ﴿٢٤﴾ بذلك متهبء لعمله الذي أعد له، ملازم له ﴿٢٥﴾.

﴿٢٦﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ ﴿٢٦﴾ خير أو شر ﴿٢٧﴾ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿٢٧﴾ أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿٢٨﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٢٨﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٢٨﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾.

(١٩-٢٢) ﴿٢٢﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٢﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٢﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ أي: ﴿٢٢﴾ وَجَاءَتْ ﴿٢٢﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿٢٢﴾ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴿٢٢﴾ الذي لا مرد له ولا مناص ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٢﴾ أي: تتأخر وتتكص ﴿٢٦﴾ عنه.

﴿٢٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٧﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿٢٨﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ ﴿٢٨﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه ﴿٢٩﴾ وَشَهِيدٌ ﴿٢٩﴾ يشهد عليها بأعمالها خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال.

ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿٣٠﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴿٣٠﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً ولو ما وتعتيلاً، أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن ﴿٣١﴾ كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴿٣١﴾ الذي غطى قلبك، فكشرك نومك، واستمر ﴿٣٢﴾ إِعْرَاضُكَ ﴿٣٢﴾ بِصَرِّكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٣٢﴾ ينظر ما يزعمه ويروعه من أنواع العذاب والتكال.

أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه في الدنيا في غفلة ﴿٣٨﴾ عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

(٢٣-٢٩) ﴿٢٣﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَتَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ مَتَاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٣﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٣﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿٢٣﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴿٢٣﴾ أي: قرين هذا المكذب المعرض من الملائكة الذين وكلهم الله على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿٢٣﴾ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه،

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق. (٢) في ب: وتوسوس به نفسه. (٣) في ب: العظيم. (٤) في ب: إليه. (٥) في ب: لذلك. (٦) كذا في ب، وفي أ: تحيد. (٧) كذا في ب، وفي أ: ودام. (٨) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

من حفظه وحفظ عمله، فيجازى بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثّر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

﴿مَنَعَ لِلْخَيْرِ﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده^(١)، الذي أعظمه الإيمان بالله، [وملائكته]^(٢)، وكتبه ورسله مناع لنفع ماله وبدنه.

﴿مُعْتَدٍ﴾ على عباد الله، وعلى حدوده^(٣) ﴿ثَرِيبٍ﴾ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان! ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

﴿قَالَ رَبُّهُ﴾ الشيطان، متبرئاً منه حاملاً عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَحِينَ﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان.

ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية^(٤).

قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: لا فائدة في اختصاصكم^(٥) عندي ﴿وَوُجُوهَ الْحَالِ أَنِي﴾ قَدْ قَدَرْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ أي: جاءكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حججتكم، وقدمتم عليّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿مَا يَدْرَأُ الْقَوْمَ لَدَيَّ﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قبلاً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزداد^(٦) في سيناتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

(٣٥-٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ○ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْغَنَى عِزَّ بَعِيدٍ ○ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ○ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ إِلَهَ الْغَنَى وَجَاءَ يَقْبَلْ ثَنِيْبٌ ○ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ○ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ يقول تعالى مخوفاً لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها.

﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضباً لربها وغيطاً على الكافرين. وقد وعدها الله ملاها، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه، فيزوي بعضها على بعض، وتقول: قط قط، قد اكتفيت وامتألت.

﴿وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم والعبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، الممثلين لأوامر ربهم، المتقادين له.

ويقال لهم على وجه التهنية: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهيها الأنفس وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل أواب أي: رجّاع إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه ورجائه.

﴿حَفِيفٍ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتثاله على وجه الإخلاص، والإكمال له على أكمل^(٧) الوجوه حفيظ لحدوده.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية.

وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة، ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختياريّاً حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله، وهذا هو الظاهر^(٨).

﴿وَجَاءَ يَقْبَلْ ثَنِيْبٌ﴾ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه.

ويقال للهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات.

(١) في ب: قِيلَ. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في أ زيادة هنا هي (أنهم أي: كثير الإنتم)، ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد شطبت الزيادة من ب. (٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم). (٥) كذا في ب، وفي أ: خصامكم. (٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد. (٧) في ب: أتم. (٨) من قوله: ويحتمل، إلى: هذا هو الظاهر، ليس في ب.

﴿لَمْ مَّا يَأْتُوكُمْ فِيهَا﴾ أي: كل ما تعلق به مشيتهم فهو حاصل فيها.

ولهم فوق ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾ أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتمتع بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: في ذلك لذكرى لمن كان لهم قلب أو ألقى السمع وهو شهيد يقول تعالى - مخوفاً للمشركين المكذبين للرسول - : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: أمما كثيرة ﴿هُمْ أَشَدُّ﴾ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾ أي: قوة وأثارا في الأرض.

ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار وزرعوا وعمرها ودمروا.

فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد.

ف ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم، ولا منفذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قلب عظيم حي، ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكروا بها وانتفع فارتفع^(١).

وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعاً يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة، وشفاء وهدي.

وأما المعرض الذي لم يلق^(٢) سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئاً، لأنه لا يقبل عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

(٣٨-٤٠) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي: فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبر الشجور وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيتته النافذة التي أوجد بها أعظم المخلوقات ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب ولا إعياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢٠

سُورَةُ ق

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَغِ بِيَوْمِ يُبَادُ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرَّاءُ ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وَقرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا نَعِدُّنَهُمْ لَصَاقًا ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

فالذي أوجدها - على كبرها وعظمتها - قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات، فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّ للنفوس مؤنس لها مُهَوِّ للصبير.

(٤٥-٤١) ﴿وَاسْتَغِ بِيَوْمِ يُبَادُ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ أي: واستمع بقلبك نداء المنادي وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الخلق^(٣).

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء.

(١) كذا في ب، وفي أ: وارتفع. (٢) في ب: لم يصغ. (٣) في ب: من الأرض.

﴿ذُرُّوا﴾ بلينها ولطفها وقوتها وإزعاجها .
و ﴿الْحَامِلَاتِ وُجُوهًا﴾: السحاب تحمل الماء الكثير الذي
ينفع الله به البلاد والعباد .

و ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾: النجوم التي تجري على وجه اليسر
والسهولة فتزين بها السماوات ويهتدى بها في ظلمات البر
والبحر وينتفع بالاعتبار بها .

و ﴿الْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره
بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا
وأمر الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حُدَّ ورسم، ولا
ينقص منه .

(٧-٩) ﴿وَالسَّيِّدَاتِ الْحَبْكُ﴾ ○ ﴿إِنِّي قَوْلِي تَخْلِفِي﴾ ○ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ﴾ أي: والسماوات ذات الطرائق الحسنة التي تشبه حبك
الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم .

﴿إِنكُمْ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ! ﴿لَنِي قَوْلِي تَخْلِفِي﴾
منكم من يقول: ساحر، ومنكم من يقول: كاهن، ومنكم من
يقول: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على
حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل .

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن
الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه،
واختلاف قولهم دليل على فسادهم وبطلانهم، كما أن الحق الذي
جاء به محمد ﷺ متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا
اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَتْ
مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

(١٠-١٤) ﴿قِيلَ الْفَرَّصُونَ﴾ ○ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ وَسَاهُونَ﴾ ○
يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الْآزِمِ ○ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ○ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا
الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْتَلُونَ يقول تعالى: ﴿قِيلَ الْفَرَّصُونَ﴾ أي: قاتل
الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته وخاضوا بالباطل
ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ وَسَاهُونَ﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل
والضلال ﴿سَاهُونَ﴾

﴿يَسْتَلُونَ﴾ على وجه الشك والتكذيب أيان يعيشون؟ أي:
متى يعيشون، مستبعبدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء
مآلهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطوا
عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ﴾
أي: العذاب والنار الذي هو أثر ما افستوا به، من الابتلاء
الذي صيرهم إلى الكفر والضلال .

﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل
شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ○ يَوْمَ
تَنْفَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ أي: عن الأموات^(١) .

﴿سِرَاعًا﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف
القيامة .

﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هين^(٢) على الله، يسير لا
تعب فيه ولا كلفة .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك مما يحزنك من الأذى .
وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك،
وتيسيرنا لأمرنا، ونصرنا لك على أعدائك فليفرح قلبك
ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرف من نفسك .
فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسي بأولي العزم من
رسل الله .

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ
وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ولهذا قال: ﴿تَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾
والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر من محبة الخير
وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير
من يخاف وعيد الله .

وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره
إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ .

آخر تفسير سورة ق والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

تفسير سورة الذاريات

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿وَالَّذِينَ ذُرُّوا﴾ ○ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وُجُوهًا﴾ ○ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ○
﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ ○ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ هذا قسم من
الله الصادق في قيله بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله
فيها من المصالح والمنافع، ما جعل على أن وعده صدق،
وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال
لواقع لا محالة، ما له من دافع .

فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة
والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل
له العاملون .

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذرو في هبوبها

﴿هَذَا﴾ العذاب الذي وصلتكم إليه، [هو] ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال والسخط والوبال.

(١٥-١٩) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ ۖ عَابِدِينَ مَا أَنَّهُمْ رُبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ ۖ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ وَلَا لَاسَخَارٍ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۖ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ يقول تعالى - في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم التي أوصلتهم ^(١) إلى ذلك الجزاء - : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دناءتهم.

﴿فِي جَنَّتِ﴾ مشتملات على جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الأذان، ولم يخطر على قلوب العباد ^(٢).

﴿وَعُيُونٍ﴾ سارحة تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيراً.

﴿عَابِدِينَ مَا أَنَّهُمْ رُبُّهُمْ﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا ييغون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد.

ويحتمل أن لهذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب وانسراح الصدر، منقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل الوجوه.

ولما نهى عنه بالانترجار عنه الله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حقها أن تتلقى بالشكر [لله] عليها والالتقاد.

والمعنى الأول الصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُخْسِنِينَ﴾.

وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله يبذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان ^(٣) وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك الإحسان بالقول، والكلام اللين والإحسان إلى المماليك، والبهائم المملوكة وغير

سورة الذاريات

٥٢١

سورة الذاريات

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْلِطٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْكَرَ قُلُوبُ الْغَرَضُونَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ عَابِدِينَ مَا أَنَّهُمْ رُبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا لَاسَخَارٍ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِجَافٌ وَمَا تَوْعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ بْنِ أَبِي هَرَمَةَ الْمَكْرُمِ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلَهُ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِعِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أُمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجْزٌ عَفِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

المملوكة ^(٤).

ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق صلاة الليل الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا﴾ أي: المحسنون ﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل قليلاً.

وأما أكثر الليل فإنهم قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع.

﴿وَلَا لَاسَخَارٍ﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الله تعالى. فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَالسَّائِرِينَ يَلِاسَخَارٍ﴾.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ واجب ومستحب ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا

(١) في ب: وصلوا بها. (٢) في ب: قلب بشر. (٣) في ب: من وجوه البر. (٤) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.

يطلبون منهم^(١).

﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَابِقٍ ۚ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ۚ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَكْلَ ۚ فـ ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۚ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ حِينَ رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ۚ﴾

﴿قَالُوا لَا تَحْغَفْ ۚ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا جَاءُوا لَهُ ۚ وَنَشَرُوهُ بِغُلْمٍ عَظِيمٍ ۚ﴾ وهو إسحاق عليه السلام.

فلما سمعت المرأة البشارة (أَقْبَلَتْ) فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرَفٍ ۚ﴾ أي: صبيحة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ۚ وَهَذَا مِنْ جِنْسٍ مَا يَجْرِي مِنَ النِّسَاءِ عِنْدَ السَّرُورِ [ونحوه] مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْمُخَالَفَةِ لِلطَّبِيعَةِ وَالْعَادَةِ ۚ﴾

﴿وَقَالَتْ مَجْزُورٌ عَقِيمٌ ۚ﴾ أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً فَمَنْ مَانَعَانِ، كل منهما مانع من الولد.

وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْعًا إِنَّ هَذَا لَنَقْوٌ عَجِيبٌ ۚ﴾

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ۚ﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْقَلِيلُ ۚ﴾ أي: الذي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

﴿قَالَ ۚ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۚ﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر^(٢) أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة.

﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ تَحْمِيرٍ ۚ وَهُمْ قَوْمٌ لُوطٌ، قَدْ أَجْرَمُوا، أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُمْ وَأَتَوُا الْفَاحِشَةَ الشَّنْعَاءَ الَّتِي مَا سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ۚ﴾

﴿لَتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ۚ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُشْرِفِينَ ۚ﴾ أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه^(٣)، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد.

فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ اقْشِرْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَايِمٌ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُودٌ ۚ﴾

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَمَا وَدَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۚ وَهُمْ بَيْتٌ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَهْلَكِينَ ۚ﴾

(١) في ب: والذين لا يسألونهم. (٢) في ب: أن الله واحد أحد. (٣) في ب: فكَذَلِكَ يَبْنِي أَنْ لَا يَتَرَكِبُ الشُّكَّ فِي الْبَيْتِ وَالْجَزَاءِ. (٤) كذا في ب، وفي أ: علم. (٥) في ب: على كل حجر اسم صاحبه.

(٢٠-٢٣) ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۚ قُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتَّبِعُ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ۚ﴾ يقول تعالى - داعياً عباده إلى التفكير والاعتبار - : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ وذلك شامل لنفس

الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانها على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد^(٢) الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ۚ﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار الرزق الديني والدنيوي.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ ۚ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهاً، ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء [لنا]، وهو النطق، فقال: ﴿قُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتَّبِعُ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ۚ﴾

فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت^(٣).

(٢٤-٣٧) ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ عِنْدَ رَبِّهِمُ الْمُنْكَرِينَ ۚ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۚ فَرَأَى إِلَيْهِمْ فِجَالَةً بِعِجْلٍ سَابِقٍ ۚ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۚ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَحْغَفْ وَنَشَرُوهُ بِغُلْمٍ عَظِيمٍ ۚ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ۚ وَقَالَتْ مَجْزُورٌ عَقِيمٌ ۚ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْقَلِيلُ ۚ [قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۚ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ تَحْمِيرٍ ۚ لَتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ۚ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُشْرِفِينَ ۚ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَمَا وَدَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۚ وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ] ۚ﴾ يقول تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ ۚ﴾ أي: أما جِئَافَكَ ﴿حَدِيثٌ عِنْدَ رَبِّهِمُ الْمُنْكَرِينَ ۚ﴾ ونباههم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ ۚ﴾ مجيباً لهم: ﴿سَلَامٌ ۚ﴾ أي: عليكم ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۚ﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم.

في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا أو اتوا إلي» لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

فينبغي للمقتدى به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أو: ﴿أَلَا تَتَفَضَّلُونَ عَلَيْنَا وَتَشْرَفُونَا وَتَحْسِنُونَ إِلَيْنَا﴾ ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان^(٨) لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها، وصرت غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

(٣٨-٤٠) وقوله تعالى: ﴿وَفِي مِصْرَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رُسُلَنَا بِيْنِي ۖ فَكَذَّبَهُمْ وَأَعَازَىٰ لَهُمْ ۖ فَقُلْنَا لَنُكَذِّبَنَّكَ فِي آلِكَ وَهُوَ مُلِيمٌ ۖ أَي: ﴿وَفِي مِصْرَ﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون ومليكه بالآيات البيّنات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى^(٩) بذلك السلطان المبين فتولى فرعون ﴿رِيكِيهِ﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح فقالوا: ﴿سَجِرْ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعبة^(١٠)، ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يواخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هَذَا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ سَبِيلًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ غُلَامٍ ۖ﴾.

وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّكَ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبِّي السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الآية.

﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ فِي آيَمِهِ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مذنب طاغ،

﴿وَرَزَّكَ فِيهَا ۖ آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدوقون.

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة

من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم^(١)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم خليل عليه الصلاة والسلام حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم خليل الذي أمر الله هذا النبي^(٢) وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام^(٣)، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿وَمِمَّنْ مَّنُكَّرُونَ﴾ ولم يقل: «أنكرتكم»، [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله، [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر^(٤)، إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا عنده^(٥)، وفي بيته معدًا، لا يحتاج إلى أن يأتي به^(٦) من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن وكبير^(٧) من ضيَّ الضيفان.

ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله

(١) في ب: ليعتبروا بهم. (٢) في ب: أمر الله محمدًا وأمته. (٣) في ب: في ابتداء السلام. (٤) كذا في ب، وفي أ: الخاص. (٥) في ب: لديه. (٦) كذا في ب، وفي أ: أن يستلقه. (٧) في ب: وسيد. (٨) في ب: من أحد. (٩) كذا في ب: مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون. (١٠) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحرًا وشعبة.

عاب على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

(٤١، ٤٢) ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ أي: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة ^(١) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبينهم هودًا عليه السلام.

﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ أي: كالرَّمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم ويطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه.

(٤٣-٤٥) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ ۖ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَظُنُّونَ ۖ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ أي: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ [آية عظيمة]، حين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتوا ونفورا.

فقيل: ﴿لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ ۖ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَظُنُّونَ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ لأنفسهم.

(٤٦) ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذبوا نوحًا عليه السلام، وفسقوا عن أمر الله.

فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين ديارًا، وهذه عادة الله وستته فيمن عصاه.

(٤٧-٥١) ﴿وَالنَّامُوتَ بَيْنَهُمَا بَايَظُورًا وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۖ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَسْهُودُونَ ۖ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۖ فَيَقْرَأُ إِلَى اللَّهِ إِلَهِي لَكُمْ مَتَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۖ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۖ إِلَهًا إِلَهًا ۖ وَالنَّامُوتَ بَيْنَهُمَا ۖ أَي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفا للأرض وما عليها.

﴿بَايَظُورًا﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائنا وأنحائنا.

وإننا لموسعون [أيضا] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي

سورة الذاريات

٥٢٢

سورة الذاريات

﴿قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُجْرَمِينَ﴾ ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكِيهٖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ ۖ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَظُنُّونَ﴾ ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿وَالنَّامُوتَ بَيْنَهُمَا بَايَظُورًا وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَسْهُودُونَ﴾ ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِلَهِي لَكُمْ مَتَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۖ إِلَهًا إِلَهًا ۖ لَكُمْ مَتَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

وسعت رحمته جميع البريات.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشا للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم.

ولما كان الفراش قد يكون صالحا للارتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاده على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فَنِعَمَ الْمَسْهُودُونَ﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكمته و] رحمته وإحسانه.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [أي: صنفين] ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم] ^(١) في تقدير ذلك، وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

(١) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام. (٢) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ يقول تعالى آمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول^(١)، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكرهه الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع فإنه من التذكير، وتامم التذكير، أن يذكر ما في المأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو^(٢) معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، ويتبهاو ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتنع منهم الموعظة موقعها كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ○ سِيَذَّرُكَ مِنْ يَحْشَى ○ وَنَجِّنِيهَا ○ أَلَّا تَشَى﴾.

وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

(٥٦-٥٨) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ○ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ○ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَمَّيْنُ﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه.

وذلك يتضمن^(٤) معرفته تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله.

فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد^(١) والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاهرة، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن [والسرور] والسعادة والفرور.

فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة. (٥٢، ٥٣)

﴿أَوْ يَحْشَوْا ○ أَوْ تَأْوَسُوا﴾ بل هم قوم طاعون^(٢) يقول الله - مسلماً لرسوله ﷺ - عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة، ما هو منزّه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟.

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟.

وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزِّلُ عَلَيْنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

(٥٤، ٥٥) ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ○ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ

(١) في ب: غاية المراد. (٢) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله. (٣) كذا في ب، وفي أ: ما. (٤) في ب: وذلك متوقف.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أي: كثير الرزق الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن ونفذ مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم. ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم^(١) الرياح، وابتلعهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه الفقار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

(٥٩، ٦٠) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا^(٢) محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذُنُوبًا﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة. فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا متقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

تفسير سورة والطور

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٦) ﴿وَالْطُّورِ﴾ وَكُنْتَ مَسْطُورٍ ﴿فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونَ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْنَاهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿٥٣﴾ فَوَيْلٌ لَهُمْ فَمَا أَتَتْ بِلَهُمْ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْطُّورِ ﴿١﴾ وَكُنْتَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾

سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنَشَأَ لَا بُعْدَ عَنْ أَصْلُهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة المشتملة على الحكم الجليلة على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور، الذي هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام.

وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عد ولا ثمن.

﴿وَكُنْتَ مَسْطُورٍ﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم الذي هو أفضل كتاب^(٣)، أنزله الله محتويًا على نبأ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿فِي رَقٍّ﴾ أي: ورق ﴿مَنُشُورٍ﴾ أي: مكتوب.

(١) في ب: عصفت بهم. (٢) في ب: بتكذيبهم. (٣) في ب: الكتب.

﴿قَوْلٍ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلموهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعًا﴾ أي: يوم يدفعون إليها دفعًا، ويساقون إليها سوقًا عنيقًا، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخًا ولوَمَا:

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصِيرُونَ﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرع: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر لم تقم عليكم الحجة؟.

والجواب انتفاء الأمرين.

أما كونه سحرًا، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف^(٢) للسحر من جميع الوجوه.

وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعوتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجليلة.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصِيرُونَ﴾] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصرط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق، وأن حجة الله قامت عليهم^(٣). ﴿أَسْأَلُوهَا﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم^(٤)، وتطلع على أفئدتكم.

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به: (٢) في ب: المنافي. (٣) بعد قوله: والصرط المستقيم، جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص ما في ب: (أي: أفيتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا). (٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير. ﴿وَأَلْبَيْتَ أَلْعَمُورَ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعبدون فيه لربهم ثم] لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ﴾ وحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنا، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿وَالسَّيْفُ أَلْمَرْجُ﴾ أي: السماء التي جعلها الله سقفا للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنارها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿وَالْبَحْرُ أَلَسَّجُورُ﴾ أي: المملوء ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض من أنواع الحيوان.

وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد الذي يوقد [نارًا] يوم القيامة، فيصير نارًا تظلي، ممتلئًا - على عظمته وسعته - من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿مَّا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب.

ثم ذكر وصف ذلك اليوم الذي يقع فيه^(١) العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟!

﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست^(١) من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

ولنما فعل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال:] ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(١٧-٢٠) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ ○ فَكَهَيَّأَ يَمَاءً أَنَّهُمْ رُبُّهُمْ ○ وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ○ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ○ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ○ لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين ليجمع بين الترهيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لربهم الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتهفة، والأنهار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة.

﴿وَنَعِيمٍ﴾ [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿فَكَهَيَّأَ يَمَاءً أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: معجيين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين.

ووقاهم عذاب الجحيم فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه وبأباه.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: مما تشتهي أنفسكم من [أصناف] المأكول والمشرب اللذيذة.

﴿هَنِيئًا﴾ أي: متهئين بتلك المأكول والمشرب^(٢) على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نلتُم ما نلتُم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض^(٣).

فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال من المأكول والمشرب [اللذيذة] والمجالس الحسنة الأنيفة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن^(٤).

فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائها، ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش^(٥) شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها التي صفا بياضها وسوادها.

(٢١-٢٨) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلَقْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا لَنَنْهَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ○ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهَيَّاءَ لَعَنُوا فِيهَا كَأْسًا لَا تَغُورُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ ○ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُجْجَانٌ ○ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ○ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتْفِقِينَ ○ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السُّمُورِ ○ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ○ فَذَكَرْنَا أَنْتَ نَبْعَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا يَحْنُونَ ○ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ○ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَاصِينَ ○

(١) كذا في ب، وفي أ: وليس. (٢) في ب: متهئين بذلك على وجه. (٣) في ب: وملاطفة بعضهم بعضاً. (٤) في ب: إلا بهن. (٥) في ب: تطير.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، ولهذا شامل لدعاء العباد، ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات^(١)، وندعوه في سائر الأوقات.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فمن برّه بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

(٢٩-٤٣) ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾
 ○ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلَمْ نَقُلْ لَهُمْ قُلْ رَبِّصُوا فَلِيَ مَعَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ يَصِينُ ○ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَلْعَنُوهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ○ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ○ فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ ثَوْبِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ○ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ○ أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ○ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ قُلْ هُمْ أَلَيْسَ بِظُلُمٍ ○ أَمْ هُمْ سَائِلُ سَائِلِينَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِثُّهُمْ بِشَاطِنِ مَيْمَنٍ ○ أَمْ لَهُ أَلْسِنَةٌ وَلَكِنْ أَلْسِنُونَ ○ أَمْ تَتْلُوهُمْ أَمْ عَنْهُمْ مَغْرَمٌ يُثْقَلُونَ ○ أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ○ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ○ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَذَكَرَ النَّاسَ، مسلمهم وكافرهم، لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذبين، وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به فقال: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: منته ولطفه ﴿بِكَاهِنٍ﴾ أي: له ربي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب التي يضم إليها مائة كذبة.

﴿وَلَا تَجْنُونَ﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم.

وتارة ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾.

﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلَمْ نَقُلْ﴾ أي: نتنظر به الموت^(٢)، فسيطل أمره، [ونستريح منه].

﴿قُلْ﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فَلِيَ مَعَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ يَصِينُ﴾ تربيص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَلْعَنُوهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: أهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبس العقول والأحلام التي أثرت ما أثرت،

(١) في ب: وقضاء أشغالهم. (٢) في ب: العبادات. (٣) كذا في ب، وفي أ: تربيص به الموت، وتنظره فيه.

[بهم] ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان، أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لآبائهم وزيادة في ثوابهم.

ومع ذلك لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً. ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتبه بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع، وورقنا العميم ﴿بِفِكَهَةٍ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الرائدة على ما به يتقوتون. ﴿وَلَحَرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها.

﴿يَتَنَزَّلُونَ فِيهَا كَأَسَا﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس.

﴿لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْيِيمٌ﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأييم وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبته لهم].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُمَرٌ مِنْ آَلِهَةٍ لَهُمْ﴾ أي: خدم شباب ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة، وقضاء ما يحتاجون إليه^(١) وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قَالُوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحيرة والسرور.

﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِنا مُتَشَفِّينَ﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

وصدر منها ما صدر^(١).

فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنوناً، وأصدق الصدق^(٢)، وأحق الحق، كذباً وباطلاً، لَهَيَّ العقول التي ينزه المجانين عنها.

أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد^(٣) يقف عليه، فلا يستغرب من الطاعي المتجاوز الحد، كل قول وفعل صدر منه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ قَوْلَهُ﴾ أي: تقول محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟.

﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أنه نقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا على معارضته وإلتيان بمثله، فحينئذ أنتم بين أمرين.

إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون، لما علمتم من الباطل.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمور لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم^(٤).

فإذا بطل [هذان] الأمران، وبأن استحالتهما، تعين [القسم الثالث] أن الله الذي خلقهم.

وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جداً.

ولكن المكذبين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَرُّونَ﴾ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاءون، ويمنعون

من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

﴿أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصْطَرُّونَ﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء.

﴿أَمْ هُمْ سَاءُ يَسْتَعْتُونَ فَيْدَ﴾ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعْتِمُ﴾ المدعي لذلك ﴿بِشَاطِنِ ثُؤِينٍ﴾ وأتى له ذلك؟.

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحدًا]^(٥) إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به من توحيد الله، ووعد ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأئى المخبرين أحق بقبول خبره؟.

خصوصاً والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره^(٦) عين اليقين، وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ كما زعمتم ﴿وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ فتجمعون بين المحذورين؟.

جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ يا أيها الرسول! ﴿أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة.

﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحرص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمرك وادعوتك، وتعطي المؤلفدة قلوبهم، ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

(١) في ب: التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها. (٢) في ب: وجعلت أصدق الصدق. (٣) كذا في ب، وفي أ: لا حد له. (٤) في ب: أن يوجد أحد نفسه. (٥) زيادة من هاشم ب. (٦) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون.

ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحدًا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والثقيلة على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها، وأسلمها من الاعتراض.

وقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بقدهم فك وفيما جئتهم به ﴿كَيْدًا﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يَبْقِ الكفار من مقدورهم من المكر شيئًا، إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم^(١)، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أَمْ هُمُ إِلَهُ عَزَّ اللَّهُ﴾ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره غير الله تعالى؟.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة.

وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة.

وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد، ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد الفرد الصمد الكبير الحميد المجيد.

(٤٤-٤٦) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ فَرَّزَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ○ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿يقول تعالى في [ذكر]: بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق]، وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي: هذا سحب متراكم على العادة.

أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها. وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال:

سورة البقرة ٥٢٥
﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ (٢٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٢٤) ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ (٢٦) ﴿أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رِزْقِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ هُمْ سَامِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِيمُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ﴾ (٢٨) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ (٢٩) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٣٠) ﴿أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (٣١) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٣٢) ﴿أَمْ هُمُ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (٣٤) ﴿فَرَّزَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٣٥) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٣٨) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٣٩)

﴿فَرَّزَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم [فيه] من العذاب والنكال ما لا يقادر قدره ولا يوصف أمره.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمانًا قليلًا، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا يتنصرون من عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

(٤٧-٤٩) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ لما ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذابًا دون عذاب يوم القيامة^(٢)، وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

(١) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم. (٢) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذابًا قبل عذاب.....

سورة النجم

٥٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْمَوْتَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَزِيدُوهُ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ هَاجَتِ الْمَآوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنَ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ
الْثَالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذْ أَوَّسَّهُ
ضُرْبَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ أَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَسَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَلَكُمْ مِنْ مَالِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنَى
شَفَعْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى.

ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل [عليه السلام] أفضل الملائكة [الكرام] وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة.

قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

ولما بين تعالى الحجاج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه، والاستقامة عليه، ووعده الله بالكفاية بقوله: ﴿وَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا وحفظ واعتناء بأمرك.

وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورُ﴾ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور - والحمد لله -.

تفسير سورة النجم

[وهي مكة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٨) ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ○ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ○ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى ○ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ○ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ○ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ○ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ○ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ○ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ○ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ○ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ○ أَفَتَزِيدُوهُ عَلَىٰ مَا بَرَى ○ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ○ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ○ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ○ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ○ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ○ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ○ يقسم تعالى بالنجم عند هَوَيْهِ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

والمقسم عليه تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغنى في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً حسن القصد، ناصحاً للأمة^(١) بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد^(٢).

وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ النَّارِ﴾ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه^(٥) الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة.

﴿إِذْ يَغْشَى السَّيِّدَةَ مَا يَغْشَى﴾ أي: يغشاها من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ أي: ما زاغ بصره ولا يسره عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَى﴾ أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه.

وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور:

إما أن لا يقوم العبد بما أمر به أو يقوم به على وجه التفریط أو على وجه الإفراط أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها متفية عنه ﷺ.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ من الجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

(١٩-٢٥) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۚ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفُتَىٰ ۚ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۚ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۚ لَمَّا زَكَّيْنا مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال.

فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «إله» المستحق للعبادة و«العزى» من «العزيز» و«مناة» من «المنان»

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على. (٢) في ب: مباشرة. (٣) في ب: علم المخلوقات. (٤) كذا في ب، وفي أ: علومها. (٥) كذا في ب، وفي أ: إليها.

وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

﴿ثُمَّ مَرَوْا بِأَيٍّ: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن. ﴿فَأَسْتَوَىٰ﴾ جبريل عليه السلام ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من^(١) الأرض، فهو من الأرواح العلوية التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من النبي ﷺ لا يصلح الوحي إليه.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿فَكَانَ﴾ في قربه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: قدر قوسين، والقوس معروف ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة^(٢) للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَّا عَبْدِي﴾ محمد ﷺ ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة.

وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأنبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا.

ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ وهي شجرة عظيمة جداً فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره.

أو لانتهاه علم الخلق^(٣) إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض فهي المنتهى في علوها^(٤) أو لغير ذلك، والله أعلم.

﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له.

ومن المعلوم المقرر أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة.

فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

(٢٧-٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ الْمَلَائِكَةَ سِيقَةَ

الْأَنْثَى ○ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ○ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ○ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ يعني أن المشركين بالله المكذبين لرسله الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرأوا على ما

تجرأوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة، ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً.

والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة، لأنه

الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى الله، قائمون بخدمته: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

والمشركون^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو^(٢) الظن الذي لا يُغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم،

أمر الله رسوله بالإعراض عن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم والنبأ الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته.

ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصّلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها.

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايته. وأما المؤمنون بالآخرة المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهتمهم وإرادتهم للدار الآخرة وعلومهم أفضل

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: إلا. (٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

إلحاداً في أسماء الله وتجرباً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني. فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿أَلَكُمْ الذِّكْرُ وَلَكِ الْأُنْثَى﴾ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ صَبْرِي﴾ أي: ظالمة جائرة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أُنْثَى سَيَتْلُوهُمَا أَنْتُمْ وَإِبْرَاهِيمُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه.

وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد والجهل الكاسد وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي: الذي يرشدكم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد.

فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان.

وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدى، فالبقاء على هذه الحال من أسفه السفه وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأمانى ويغترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى، وهو كاذب في ذلك فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ○ فَلِلَّ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

(٢٦) ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِى﴾ يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المقربين وكرام الملائكة.

﴿لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا تغيد من دعاها وتعلق بها ورجاها.

سورة النجم

٥٢٧

سورة النجم

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ ظَنَّ لَا يُعْنِي مِنَ
الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٣٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٤٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ۚ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْتَهُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ اتَّقَى ۚ يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ الْمَلِكِ الْمُتَفَرِّدِ بِمُلْكِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ جَمِيعٍ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَلِكُ اللَّهِ،
يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ تَصَرَّفَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ فِي عِبِيدِهِ وَمَمَالِكِهِ، يَنْفِذُ
فِيهِمْ قُدْرَهُ، وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ شَرْعُهُ، وَيَأْمُرُهُمْ وَنَهَاهُمْ،
وَيَجْزِيهِمْ عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَنَهَاهُمْ [عنه] فَيُثِبُ الْمَطِيحَ
وَيُعَاقِبُ الْعَاصِيَ.

العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ممن لا يستحق ذلك، فيكله إلى نفسه ويخذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

(٣٢، ٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ۚ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْتَهُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به، ونهاهم [عنه] فيثب المطيع ويعاقب العاصي.

ليجزى الذين أساءوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة البليغة^(١).

﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله بأنواع المنافع ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.

وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة^(٢).

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار كالزنا وشرب الخمر وأكل الربا والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة.

﴿إِلَّا اللَّغَمَ﴾ وهي الذنوب الصغار التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد المرة بعد المرة على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

[وقوله]: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْتَهُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٣) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها وعدم الموانع القوية.

والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشأكم^(٤) الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم.

وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفتنة بعد

(١) في ب: اللفظة. (٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل. (٤) في ب: حين أخرجكم.

وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم، وأوردوها شر الموارد.

وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ من يرى أن القرب لا يفيد^(٥) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا: لأن الله قال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا يتفجع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور، والهم [والحزن] وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك. ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا. ﴿وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ فسر الزوجين^(٦) بقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيما فهو المنفرد بخلقها.

﴿مِنْ تَطَفُّعٍ إِذَا تَنَنَّى﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها وكبيرها من نقطة ضعيفة^(٧) من ماء مهين، ثم نماها وكملها حتى بلغت ما بلغت، ثم صار آدمي منها، إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

ولهذا استدل بالبداة على الإعادة فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَاءَ

الفلته، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين^(٨)، أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح^(٩). ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [فإن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس فلا يغنون عنكم من الله شيئاً].

(٦٢-٣٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدْعُو ۖ وَاعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْثَىٰ ۚ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ۚ أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّؤَيَّنٍ ۖ وَابْتَهِمَ ۖ الَّذِي وَفَّىٰ ۖ أَلَّا نَزِرَ وَزَرَةً ۖ وَزَرَّ أَخْرَىٰ ۖ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۖ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۖ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۖ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۖ وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۖ وَأَنْتَ هُوَ الْخَاشِعُ ۖ وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ۖ مِنْ تَطَفُّعٍ إِذَا تَنَنَّى ۖ وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَاءَ الْآخِرَىٰ ۖ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ، يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل ييخل ويكدى ويمنع.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة^(٣)، بل طبعه التوَلَّى عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجرى على الجمع بين الإساءة والتزكية^(٤) كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك، فلاخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْ﴾ هذا المدعي ﴿بِمَا فِي صُحُفٍ مُّؤَيَّنٍ ۖ وَابْتَهِمَ ۖ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿أَلَّا نَزِرَ وَزَرَةً ۖ وَزَرَّ أَخْرَىٰ ۖ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيء، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ في الآخرة فيميز حسنه من سيئه. ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيء الخالص بالسوء، والمشوب بحسبه جزاءً تقرّ بعده وإحسانه الخليفة كلها،

(١) في ب: وأجود الأجودين. (٢) كذا في ب، وفي أ: تظهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح. (٣) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً. (٤) في ب: متجرى عليه جامع بين المحذورين للإساءة والتزكية. (٥) في ب: لا يجوز. (٦) في ب: فسرهما. (٧) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟

فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين؟

﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعده المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أَفَنُورَ هَذَا الْقَدِيدِ تَعْبُونَ؟﴾ أي: أؤمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟

هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن^(٦) العظيم الذي لو أنزل على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً وتسديداً وثباتاً وإيماناً و يقيناً، والذي^(٧) ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَكُونُونَ﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاء لوعده ووعيدهِ، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة.

﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم، وأديانكم.

فلو عبدتم الله وطلبتهم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأثم منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله^(٨)، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله^(٩) والخضوع له والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(١٠)، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عمومًا، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه

الآخرى، فيعبد العباد من الأحداث، ويجمعهم ليوم الميقات ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَقْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات، وأنواع المكاسب من الحرف وغيرها ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى^(١١)، ولهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له.

﴿وَأَنْتُمْ هُمْ رَبُّ الْغَيْرِ﴾ وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون، مربوب مدير مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله^(١٢).

﴿وَأَنْتُمْ أَهْلُكُمْ عَادًا الْأَوَّلَىٰ﴾ وهم قوم هود عليه السلام حين كذبوا هوداً فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

﴿وَتَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم^(١٣) الناقة آية، ففقروها وكذبوه فأهلكهم الله تعالى.

﴿فَمَا أَتَيْنَ﴾ منهم أحداً بل أهلكهم الله عن آخرهم^(١٤). ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ بَيْنَ يَدَيْ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم.

﴿وَالْمُؤَفِّكَةَ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أَقْوَىٰ﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ولهذا قال: ﴿فَعَسَىٰ مَا عَشَىٰ﴾ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

﴿فَبَإِي آيَةٍ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: فبأي نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلَىٰ﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلا شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلى] أخلاق الرسل الكرام؟ أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر^(١٥)؟ ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟

(١) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه. (٢) في ب: فكيف تتخذ مع الله آية. (٣) في ب: لهم. (٤) في ب: بل أبادهم عن آخرهم. (٥) في ب: ليس يدعو إلى كل خير، وينهى عن كل شر. (٦) في ب: القرآن. (٧) في ب: بل الذي. (٨) في ب: يدل على فضله. (٩) في ب: فإن روحها الخشوع لله. (١٠) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها (العبد) لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

تفسير سورة اقتربت

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حَكِيمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنْذُرَ ۚ يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع ذلك فهؤلاء المكذبون لم يزلوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريههم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر. فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] وصدق، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى فانشق فلقطين، فلقة على جبل أبي قبيس وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى^(١) الكاثنة في العالم العلوي التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل.

فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيرًا، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم وقالوا: سحرنا محمد.

ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم^(٢) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحرهم لا^(٣) يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلهم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ﴾ سحرنا محمد، وسحر غيرنا.

وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكارًا منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل^(٤) والرد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: وإن يروها بل قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ وليس قصدهم اتباع الحق والهدى،

سُورَةُ الْقَمَرِ

٥٢٨

سُورَةُ الْقَمَرِ

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۚ (١٥) مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۚ (١٦) وَأَنَّهُ عَلَيَّهِ النَّشْأَةُ الْآخَرَى ۚ (١٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ۚ (١٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعَرَى ۚ (١٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ۚ (٢٠) وَنَمُودًا الْآخِرَى ۚ (٢١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَى ۚ (٢٢) وَالْمُؤَنَفَكَ أَهْوَى ۚ (٢٣) فَغَشَّيْنَاهَا مَاعِشَى ۚ (٢٤) فَيَا أَيُّهَا رَبِّكَ نَسْمَارَى ۚ (٢٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ۚ (٢٦) أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ۚ (٢٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۚ (٢٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۚ (٢٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۚ (٣٠) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ۚ (٣١) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَاعْبُدْهُ ۚ (٣٢)

سُورَةُ الْقَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ ۚ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ (٤) حَكِيمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنْذُرَ ۚ (٥) فَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ۚ (٦)

وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ يَعْبُوتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا قطعًا واتبعوا محمدًا ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه^(٥) من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومتناه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى - مبيّنًا أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى -: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: زاجر

(١) في ب: العظيمة. (٢) في ب: من ورد. (٣) في ب: لم. (٤) في ب: بالتكذيب. (٥) كذا في النسختين، والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿حِكْمَةً﴾ منه تعالى ﴿بَلِغَةَ﴾ أي: لتقوم حجته على المخالفين^(١)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل.

﴿فَمَا تَعْنِي الْنَذْرُ﴾ بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

(٦-٨) ﴿قَتَلَهُمْ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْفِرُ﴾ خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ يَجْرَحُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿مُطْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: ﴿قَتَلَهُمْ عَنْهُمْ﴾] وانتظر بهم يوماً عظيماً وهو لا جسيماً.

وذلك حين ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ تُكْفِرُ﴾ أي: إلى أمر فطيع تنكره الخليفة، فلم تر منظراً أقطع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

﴿خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ﴾ أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم. ﴿يَجْرَحُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَانَهُمْ﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: مبعوث في الأرض متكاثر جداً.

﴿مُطْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي^(٢)، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَرِيسٌ﴾ [مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين^(٣)].

(٩-١٧) ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدَجَرُوا قَدَعًا رَبَّنَا أَنَّى مَعْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَّقَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿لَمَّا ذَكَرْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالُ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ، وَأَنَّ الْآيَاتِ لَا تَنْفَعُ فِيهِمْ، وَلَا تَجْدِي عَلَيْهِمْ شَيْئاً، أَنْذَرَهُمْ وَخَوَّفَهُمْ بِعَقُوبَاتِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذِبَةِ لِلرَّسْلِ، وَكَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَأَحْلَى بِهِمْ عِقَابَهُ.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لَا نَذَرُ﴾ إِلَهَ الْهَمَّتْ وَلَا نَذَرُ وَدَا وَلَا

خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ يَجْرَحُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُطْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿٨﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدَجَرُوا قَدَعًا رَبَّنَا أَنَّى مَعْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٩﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَّقَ ﴿١٠﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿١١﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٣﴾ كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ كَذَبَتْ قَدَعًا فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٧﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَانَهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿١٨﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٠﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ ﴿٢١﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَبْعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٢﴾ أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ﴿٢٣﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ ﴿٢٤﴾ الْأَشْرُ ﴿٢٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا النَّاقَةَ فَنَنَءَهُ لَهُمْ فَارْتَبْتَهُمْ وَأَصْطَرِ ﴿٢٦﴾

سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا.

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يزددهم ذلك إلا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَحْتُونُ﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين.

وكذبوا في ذلك، وقلبو الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرشد وما هم عليه جهل وضلال مبين.

[وقوله: ﴿وَازْدَجَرُوا﴾] أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى.

فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه حتى أوصلوا إليه من أذنتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم.

(١) في ب: العالمين. (٢) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.

(٣) زيادة من هامش ب.

﴿فَكَفَّ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يَبْقَى لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً وأصدق معنى وأبين تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة.

ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعِين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم قَبِيح [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

(١٨-٢٢) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٌ ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۚ تَرِيحُ النَّاسِ كَانْتِهَامٍ أَعْمَارُ نَحْلٍ مُتَفَعِّرٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٌ ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ «وعاد» هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة جداً.

﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿تَرِيحُ النَّاسِ كَانْتِهَامٍ أَعْمَارُ نَحْلٍ مُتَفَعِّرٍ﴾ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته (٥) الريح فسقط على الأرض، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره.

﴿فَكَفَّ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

(٢٣-٣٢) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۚ فَقَالُوا ابْنُوا لَنَا بُعْدًا وَجِدًا تَنْبَعُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا صَلَاتِي وَشُعْرِي ۚ أَلَمْ نَلْقَ الْذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَفِيرٌ ۚ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَفِيرِ ۚ إِنَّا مُرْسِلُونَ الْتَّافِقَ فَنُفِثَ لَهُمْ فَاتَّزَمَهُمْ

فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال: ﴿أَنِّي مُلَوِّبٌ﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم.

﴿فَأَنصِرْ﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيات.

فأجاب الله سؤاله وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي: كثير جداً متتابع.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وفجرت الأرض كلها حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء لأنه موضع النار.

﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك، ﴿فَدَفَّرَ﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُشِرَ﴾ أي: ونجينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدرسر أي: المسامير [التي] قد سمرت [بها] الألواحا وشد بها أسرها (١).

﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حملة من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ [منه] لها عن الغرق، [ونظراً] وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل.

﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راد، ولا صدّه عنه (٢) صاد، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: ﴿قِيلَ يَنْبُحُ أَيْطُ يَسْلَمِ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ وَمَنْ مَعَهُ﴾ الآية.

ويحتمل أن المراد: إنا أهلكنا قوم نوح وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده (٣) نوح عليه السلام، ثم أبقي الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته وبديع صنعتة.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟ أي: فهل متذكر (٤) للآيات، مُلْقٍ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟.

(١) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها. (٢) في ب: ولا صدّه عن ذلك صاد. (٣) في ب: لرسوله. (٤) في ب: فهل من متذكر. (٥) في ب: اقتلعه.

وَيَنْتَهُمَ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةً بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرْبٍ تُخَضَّرُ ○ فَادَا صَاحِبُهُمْ
فَعَاطَى فَعَقَرُ ○ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرُ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً
فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ ○ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ○ أَي:
الحجر، نبينهم صالِحًا عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله
وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.
فَكَذَّبُوهُ وَاسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا - كِبْرًا وَتَبَاهًا - : ﴿أَبَشْرًا وَمَنَا
وَاحِدًا نَبْعُهُ﴾ ○ أَي: كيف تتبع بشرًا لا ملكًا، منا لا من غيرنا،
ممن هو أكبر عند الناس منا.
ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إِنَّا إِذَا﴾ ○ أَي: إن اتبعناه وهو
بهذه الحال ﴿أَلْقَى صَلَائِلَ وَتَشْرِيقٍ﴾ ○ أَي: إننا لصالون أشقياء.
وهذا الكلام من ضلالهم وشقاقهم، فإنهم أنفوا أن يتبعوا
رسولًا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر
والحجر والصور.
﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ○ أَي: كيف يخصه الله من بيننا
وينزل عليه الذكر؟ فأى مزية خصه من بيننا؟
وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به.
ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله
عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ
تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.
فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها
صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوجبه.

يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم.
﴿كُلَّ شَرْبٍ تُخَضَّرُ﴾ ○ أَي: يحضره من كان قسمته، ويحظر
على من ليس بقسمه له.
﴿فَادَا صَاحِبُهُمُ﴾ ○ الذي باشر عقربا الذي هو أشقى القبيلة
﴿فَعَاطَى﴾ ○ أَي: انقاد لما أمروه به من عقربا ﴿فَعَقَرُ﴾.
﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرُ﴾ ○ كان أشد عذاب، أرسل الله
عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالِحًا
ومن آمن معه، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.
(٤٠-٣٣) ○ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا
آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ○ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ○
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ○ وَلَقَدْ رَوْدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا
أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرُ ○ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ○
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرُ ○ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ○ أَي:
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ ○ لوطًا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله
وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما

﴿وَيَنْتَهُمَ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةً بَيْنَهُمْ﴾ ○ أَي: أخبرهم أن الماء أي:
موردتهم الذي يستعذبونه قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب

سبقهم بها أحد من العالمين.

فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاءوهم^(١) مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم.

فأمر الله جبريل عليه السلام فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَحِّحَهُمْ بِكُرَّةٍ عَذَابٍ مُّسْتَقَرٍّ﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين.

ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

(٤١-٥٥) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۚ أَكْفَأُكَ حِزْبٍ مِّنْ أَوْلِيَائِكَ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الْأَرْضِ ۚ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ ۚ سَيَرُّهُمْ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۚ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ۚ إِنَّ الْعَاجِرِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۚ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۚ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۚ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۚ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مَّدَكَّرٍ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْبِ ۚ وَكُلَّ صَعِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٍّ ۚ إِنَّ لِلْفَاقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۚ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ۚ أَي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النُّذُرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة^(٢)، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في البيم هو وجنوده^(٤).

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس] والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكْفَأُكَ حِزْبٍ مِّنْ أَوْلِيَائِكَ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا، أفضل الرسل خير من أولئك المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرًّا منهم، فليسوا بخير منهم.

﴿أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهدًا وميثاقًا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟.

وهذا غير واقع بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس

من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ﴾. قال تعالى مبيّناً لضعفهم وأنها مهزومون: ﴿سَيَرُّهُمْ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من^(٥) صناديدهم وكبرائهم، ما ذلوا به^(٦)، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

ومع ذلك فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط. ﴿وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ﴾ أي: أعظم وأشق وأكبر من كل ما يتوهم أو يدور بالبال^(٧).

﴿إِنَّ الْعَاجِرِينَ﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره من المعاصي ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلّال عن العلم، وضلال عن العمل الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهاها.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها^(٨).

وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهاذا قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتهم ﴿فَهَلْ مِن مَّدَكَّرٍ﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم ولا فرق

(١) في ب: جاءوا. (٢) في ب: بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات. (٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم. (٤) فأغرقه وجنوده في اليم. (٥) في ب: وقتل. (٦) في ب: فأذلوا. (٧) في ب: في الخيال. (٨) في ب: خلقه.

بين الفريقين.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدريّة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ أي: مسطر مكتوب.

ولهذا حقيقة القضاء والقدر أن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لله بفعل أوامره وترك نواهيه الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: في جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار البانعة والأنهار الجارية والقصور الرفيعة والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحدائق الحسان والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنتته، جعلنا الله منهم، ولا حرمانا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة اقتربت، والله الحمد والشكر.

تفسير سورة الرحمن

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٣) ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَكْهٌ وَالتَّلْخُلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ۝ وَالرِّيحَانُ ۝ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ۝ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ الْجَلِيلَةُ افْتَتَحَهَا بِاسْمِهِ «الرَّحْمَنُ» الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله.

ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية [والأخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾].

وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالصَّبْرِ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ۝

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنُ ۝ ١ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ ٢ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ ٣ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ ٤ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ٥ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ ٦ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ ٧ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ ٨ ۝ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ ٩ ۝ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ ١٠ ۝ فِيهَا فَكْهٌ وَالتَّلْخُلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ ١١ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ۝ ١٢ ۝ وَالرِّيحَانُ ۝ ١٣ ۝ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ۝ ١٤ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝ ١٥ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ۝ ١٦ ۝ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ۝ ١٧ ۝

فذكر أنه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيًا بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ في أحسن تقويم كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد اتقن البديع تعالى ^(١) خلقه أي إقنان، وميزه على سائر الحيوانات بأن ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر رحمة بالعباد وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي: نجوم السماء وأشجار

(١) في ب: قد اتقن الباري تعالى البديع خلقه.

والمشام الفاخرة التي تسر الأرواح وتشرح لها النفوس.

ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الإنس والجن، قرهم تعالى بنعمه فقال: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟.

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ إلا قالوا^(٢): ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي^(٣) للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يقر بها ويشكر ويحمد الله عليها.

(١٤-١٦) ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ۝ فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾.

وهذا من نعمه تعالى على عباده حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار^(٤).

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين^(٥) ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان.

وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع بخلاف عنصر الجان وهو النار التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك^(٦)، وكان ذلك منه منة [تعالى] على عباده^(٧) قال: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾.

(١٧، ١٨) ﴿رَبُّ الْمَرْفِقِينَ رَبُّ الْمَرْفِقِينَ ۝ فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كان فيه] فهي تحت^(٨) تديره وربوبيته، وثأهما هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً ومغربها كذلك^(٩).

(١٩-٢١) ﴿مَرَجَ الْخَرَيْنِ بَلَقَيْنِ ۝ يَتَّبِعُهُمَا بَرْحٌ لَاَ يَبْغِيَانِ ۝ فَيَأْتِيْءُ

(١) في ب: وتخضع. (٢) في ب: فكلما مر بقوله: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ قالوا. (٣) في ب: فهكذا ينبغي. (٤) في ب: وهو الطين المشوي. (٥) في ب: لعنه الله. (٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين. (٧) في ب: عليهم. (٨) في ب: فالجميع تحت. (٩) في ب: وثأهما هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً، والله أعلم.

الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخضع^(١١) وتقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ سقفاً للمخلوقات الأرضية.

ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَنْظُرُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

﴿وَأَقِمْوْا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان.

﴿وَالْأَرْضَ وَصَّعَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها ﴿لِلْأَنْبَاءِ﴾ أي: للخلق لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفراداً يبنون بها، ويحراثون ويغرسون ويحفرون ويسلكون سبلها فجاءا ويتفعون بمعادنها، وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية فقال: ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد من العنب والتين والرمان والتفاح وغير ذلك.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الوعاء الذي ينقلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيدة من أحسن الفواكه.

﴿وَالْمَلْبُذُ ذُو الْقَصَفِ﴾ أي: ذو الساق الذي يداس فينتفع بنبته للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة [والأرز] والدخن وغير ذلك.

﴿وَالرِّيحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأزراق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتنَّ على عباده بالقوت والرزق عمومًا وخصوصًا.

ويحتمل أن المراد بالريحان الريحان المعروف، وأن الله امتنَّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة،

ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

(٢٤، ٢٥) ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري التي تمخر البحر وتسقه بإذن الله التي ينشئها الآدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة فلذلك قال:

﴿فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٦-٢٨) ﴿كُلُّ مَنَ عَلَيْهِ فَاَن ۝ وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبعد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود والداعي لأن يكرم أوليائه، وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويجلونه، [ويعظمونه] ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه ﴿فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٩، ٣٠) ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالمهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وهو تعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغني فقيراً ويجبر كسيراً ويعطي قوماً ويمنع آخرين ويميت ويحيي ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين.

فسبحان الكريم الوهاب الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كل الآتات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به ويكرمه.

رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٢٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٣٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٣٢﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ كُلُّ مَنَ عَلَيْهِ فَاَن ﴿٣٦﴾ وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ سَفَرُ لَكُمْ إِلَيْهِ الْفَلَاحُ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ يَمْعَسَرُ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۖ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٤٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مَن نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٤٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٤٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾

وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى بمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يعجزها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفانهم الله تعالى^(١)، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريه من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحدهونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرغ حيثئذ لتنفيذ هذه الأحكام التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

(٣٢، ٣١) ﴿سَفَرُ لَكُمْ إِلَيْهِ الْفَلَاحُ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: سافر لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

(٣٣) ﴿يَمْعَسَرُ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ

(١) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

(٤٣-٤٥) ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٥ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ٥ فَإِنَّ آَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٤﴾ أَي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم^(٣).

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أَي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أَي: ماء حار جدًا قد انتهى حره، وزمهير قد اشد برده وقره ﴿فَإِنَّ آَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين فقال:

(٤٦-٦٥) ﴿وَلَمَنَ عَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ٥ فَإِنَّ آَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلى آخر السورة أَي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وبنائهما وما فيهما إحدى الجنتين، جزاء على ترك المنهيات والأخرى على فعل الطاعات.

ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [أَي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة، نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر]^(٤)، أن^(٥) فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة التي فيها الثمار البانعة الكثيرة اللذيذة، أو ذوات أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه، جمع فن أَي: صف.

وفي تلك الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون.

﴿فِيهَا مِن كُلِّ ثَمَرٍ نَّكَهَةٍ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ أَي: صنفان، كل صف له لذة ولون، ليس للنوع الآخر.

﴿تُكْوَىٰ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها [أَي: جلوس تمكن واستقرار [وراحة] كجلوس من الملوك على الأسرة.

وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائناتها التي تلي الأرض منها من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم^(٦)!

﴿وَجَنَّتَيْنِ تَجْرِيَانِ﴾ الجنى هو الثمر المستوي أَي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْظُرُوا لَا تُفْخَذُونَ إِلَّا إِنْ يَشَاءُ رَبُّ هَٰؤُلَاءِ إِذَا جُمِعَهُمْ أَلَهُ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يَمْعَنُ رَبُّكَ إِنْ امْتَعْتَمْ أَنْ تُفْخَذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: تجدون منفذاً مسلطاً، تخرجون به عن ملك الله وسلطانه.

﴿فَافْزَحُوا لَا تُفْخَذُونَ إِلَّا إِنْ يَشَاءُ رَبُّ هَٰؤُلَاءِ﴾ لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؟.

ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك والرؤساء والمرءوسون والأغنياء والفقراء.

(٣٦، ٣٥) ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم فقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصَرُونَ﴾ ٥ فَإِنَّ آَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ أَي: يرسل عليكم لهب صافٍ من النار ﴿وَنَحَّاسٌ﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم يامعشر الجن والإنس، ويعيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب، وأشرف المواهب، امتن عليهم^(٧) فقال: ﴿فَإِنَّ آَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٧) ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ سَمَاءً﴾ [أَي: يوم القيامة من شدة الأهوال وكثرة البلبال وترادف الأوجال، فانخفضت شمسها وقمرها وانتشرت نجومها.

﴿فَكَانَتْ﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿رَدَدَهُ كَالَّذِينَ﴾ أَي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه.

(٣٨، ٣٩) ﴿فَإِنَّ آَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٥ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ أَي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم.

وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

(٤١) وقال هنا: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَتَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أَي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ، وتقدير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

(١) في ب: في ذلك اليوم. (٢) في ب: ذكر مته بذلك. (٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم. (٤) زيادة من هامش ب. (٥) كذا في ب، وفي أ: أي. (٦) في ب: التي يباشرون.

ومجرد تقديم الأولين على الآخرين يدل على فضلهما .
فهذه الأوجه يعرف فضل الأولين على الآخرين ، وأنهما
معدتان للمقربين من الأنبياء والصديقين وخواص عباد الله
الصالحين ، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين .
وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وفيهن ما تشتهي الأنفس
وتلذ الأعين ، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة
وحسن المأوى حتى إن كلًّا^(١) منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً
منه ، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه] .

(٧٨) ولما ذكر سعة فضله وإحسانه قال : ﴿ نَزَّلْنَا سُبْحَانَكَ عَلَى الْمَجَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي : تعظم وكثر خيره ، الذي له الجلال الباهر
والمجد الكامل والإكرام لأوليائه .
تم تفسير سورة الرحمن ، والله الحمد والشكر والثناء
الحسن .

تفسير سورة الواقعة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٢) ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۚ أَلْمَسَتُهُمْ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّنِيقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمَقَرُّونَ ۚ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۚ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۚ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۚ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۚ ﴾

ودلت عليها حكمته تعالى .
﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ أي : خافضة لأناس في أسفل سافلين ،
رافعة لأناس في أعلى عليين ، أو خفضت بصوتها فأسمعت
القريب ، ورفعت فأسمعت البعيد .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ أي : حركت واضطربت .
﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ أي : فتت ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۚ ﴾
فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم ﴿ فَأَعَا صَفَصَفًا ۚ ﴾
لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ .

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي : انقسمتم
ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة .

ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة فقال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٥٣٤
﴿ فِيهَا فَكَّهَةٌ وَنُحْلٌ وَنَمَّانٌ ۚ ﴾ ﴿ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ۚ ﴾ ﴿ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ۚ ﴾ ﴿ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ۚ ﴾ ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَاةِ ۚ ﴾ ﴿ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ۚ ﴾ ﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جُنَّ ۚ ﴾ ﴿ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ۚ ﴾ ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۚ ﴾ ﴿ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ۚ ﴾ ﴿ نَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۚ ﴾

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ ﴾ ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۚ أَلْمَسَتُهُمْ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّنِيقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمَقَرُّونَ ۚ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۚ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۚ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۚ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۚ ﴾

أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ تعظيم لشأنهم وتفخيم لأحوالهم .

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴾ أي : الشمال ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴾ تهويل
لحالهم .

﴿ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّنِيقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمَقَرُّونَ ﴾ أي : السابقون في
الدنيا إلى الخيرات ، هم السابقون في الآخرة لدخول
الجنات .

أولئك الذين لهذا وصفهم ، المقربون عند الله في جنات
النعيم ، في أعلى عليين ، في المنازل العاليات التي لا منزلة
فوقها .

(١٣) وهؤلاء المذكورون ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : جماعة
كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم .

(١٤) ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه
الأمة في الجملة على متأخريها ، لكون المقربين من الأولين
أكثر من المتأخرين .

(١٥) والمقربون هم خواص الخلق ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾

أي: مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من [الحلي] الزينة التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

(١٦) ﴿تُكَيِّبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على تلك السرر جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار.

﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم.

(١٧، ١٨) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان في غاية الحسن والبهاء.

﴿كَانَتْهُمْ لَوْزُؤٌ مَكُونٌ﴾ أي: مستور لا يناله ما غيره.

مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شرابهم ﴿يَاكُوبُ﴾ وهي التي لا عرى لها ﴿وَابَارِقُ﴾ الأواني التي لها عرى.

﴿وَكَايْنٌ مِّن مَّيْنٍ﴾ أي: من خمر لذيق المشرب لا آفة فيها.

(١٩) ﴿لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تصدعهم ردوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها.

﴿وَلَا﴾ هم عنها ﴿يُزْفُونَ﴾ أي: لا تتزف عقولهم ولا تذهب أحلامهم منها كما يكون لخمير الدنيا.

والحاصل أن جميع^(١) ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّيْنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصًّى﴾.

وذكر هنا خمر الجنة ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

(٢٠) ﴿وَفَكَهْلُهُمْ مِّمَّا يَتَخَوَّاتُ﴾ أي: مهما تخيروا وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه.

(٢١) ﴿وَلَمْ يَطْمِئْ طَعْمُهُمْ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشوياً أو طبيعاً أو غير ذلك.

(٢٢-٢٤) ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْأَكْثَرِ﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عيناها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها^(٢)، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسناتها وجمالها.

﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكُونِ﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كاملات الأوصاف جميلات النعوت.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ يَا كُوبُ وَابَارِقُ وَكَاسٍ مِّن مَّيْنٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهْلُهُمْ مِّمَّا يَتَخَوَّاتُ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يَطْمِئْ طَعْمُهُمْ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمْ فِيهَا الْآفَاتُ الْمَكُونَةُ ﴿٢٥﴾ إِلَّا قَلِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهْلُهُمْ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّاتُنَّ أَجْزَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْيَاتٌ أَرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَلْعَبُوهٗنَّ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلِ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر^(٣) ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جَزَاءُ لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمْ فِيهَا الْآفَاتُ﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم، كلاماً يلغى، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه.

(٢٦) ﴿إِلَّا قَلِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب.

وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام وأسره للنفوس^(٤)، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

(٢٧) ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين^(٥) فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي: شأنهم عظيم وحالهم جسيم.

(١) في ب: كل. (٢) كذا في ب، وفي أ: ضخام الأعين. (٣) في ب: القلب. (٤) في ب: للقلوب. (٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

(٤٨-٤١) ﴿وَأَحْصَى الشِّمَالُ مَا أَحْصَى الشِّمَالُ﴾ في سُوْرٍ وَحْمِيْرٍ
وَوَظَلِي مِّنْ يَّحْيُوْرٍ ۚ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيْمٌ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَوْنَةً
وَكَانُوا يَصْرُوْنَ عَلَى الْخَيْثِ الْعَظِيْمِ ۝ وَكَانُوا يَقُولُوْنَ أَيَّدَا مَتَنَا وَكُنَّا تُرَاكِبًا
وَعِظْمًا أَيْدَا لَمَبْعُوْثُوْنَ ۝ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُوْنَ ۝ المراد بأصحاب
الشمال [هم] أصحاب النار، والأعمال المشثومة.

فذكر [الله] لهم من العقاب ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم
﴿فِي سُوْرٍ﴾ أي: ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم
وتقلقهم أشد القلق.

﴿وَحْمِيْرٍ﴾ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم.

﴿وَوَظَلِي مِّنْ يَّحْيُوْرٍ﴾ أي: لهب نار يختلط بدخان.

﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيْمٌ﴾ أي: لا برد فيه ولا كرم.

والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشر الذي لا
خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده.

ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء فقال:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَوْنَةً﴾ أي: قد ألهمهم دنياهم وعملوا
لها وتنعموا وتمتعوا بها، فآلهاهم الأمل عن إحسان العمل،
فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه.

﴿وَكَانُوا يَصْرُوْنَ عَلَى الْخَيْثِ الْعَظِيْمِ﴾ أي: وكانوا يفعلون الذنوب
الكبار ولا يتوبون منها ولا يتدومون عليها، بل يصرون على ما
يسخط مولاهم، فقدّموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

وكانوا ينكرون البعث فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أَيَّدَا مَتَنَا
وَكُنَّا تُرَاكِبًا وَعِظْمًا أَيْدَا لَمَبْعُوْثُوْنَ ۝ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُوْنَ﴾ أي: كيف
نبعث بعد موتنا وقد بلىنا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من
المحال] ﴿أَيْدَا لَمَبْعُوْثُوْنَ ۝ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُوْنَ﴾ قال تعالى جواباً
لهم ورداً عليهم^(٢):

(٥٠، ٤٩) ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْبُوْثُوْنَ إِلَيَّ يَوْمَ يُؤْمَرُ
مَعْلُوْمٌ﴾ أي: قل: إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع
سيجمعهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده،
حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم
التي عملوها في دار التكليف.

(٥١-٥٣) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ فَالْآلُونَ﴾ عن طريق الهدى،
التابعون لطريق الردى.

﴿الْمُكْدِبُونَ﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد
والوعيد، ﴿لَاكُونَ مِّنْ شَجَرٍ مِّنْ رُّوْمٍ﴾ وهو أقبح الأشجار
وأخسها وأنتنها ريحاً وأشبعها منظرًا ﴿فَالْآلُونَ مَتَّهَا الْبُطُونَ﴾.

والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة -

(٢٨) ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُوْرٍ﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك
والأغصان [الرديئة] المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر
الطيب.

وللسدر من الخواص، الظل الظليل وراحة الجسم فيه.

(٢٩) ﴿وَوَطَّحَ مَضْوَْرٍ﴾ والطح معروف، وهو شجر [كبار]
يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي.

(٣١) ﴿وَوَاوٍ مَّسْكُوْبٍ﴾ أي: كثير من العيون والأنهار
السارحة والمياه المتدفقة.

(٣٢، ٣٣) ﴿وَفُتَّكِهِوْ كَبِيْرٍ ۝ لَا مَقْطُوْعَةٍ وَلَا مَمْنُوْعَةٍ﴾ أي:
ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات، وتكون
ممتعة [أي: متعسرة] على مبتغيها بل هي على الدوام
موجودة، وجناها قريب يتناولها العبد على أي حال يكون.

(٣٤) ﴿وَوُضِيَ مَرْوُوعَةٍ﴾ أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً
عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا
يعلمه إلا الله.

(٣٥) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً﴾ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة
نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا نشأة كاملة لا تقبل الفناء.
(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَزْوَاجًا﴾ صغارهن وكبارهن.

(٣٧) وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا،
وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع
الأحوال، كما أن كونهن ﴿عُثْرًا تَرَاكِبًا﴾ ملازم لهن في كل حال.
والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بعلمها بحسن لفظها
وحسن هيئتها ودلالها وجمالها [ومحبتها]، فهي التي إن
تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي،
خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنفحات
المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلمها
فرحاً وسروراً، وإن برزت^(١) من محل إلى آخر، امتلاً ذلك
الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً.

ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب: اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة،
التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فנסاؤهم عرب
أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات مرضيات، لا يَحْزَنُ ولا
يُحْزَنُ، بل هن أفراح النفوس، وقرة العيون، وجلاء
الأبصار.

(٣٨) ﴿لَاَصْحَابِ الْيَمِيْنِ﴾ أي: معدات لهم مهيات.

(٣٩، ٤٠) ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِيْنَ ۝ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِيْنَ﴾ أي: هذا
القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين، وعدد كثير
من الآخرين.

الجوع المفرط الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

وأما شرايبهم فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي: العطاش التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

(٥٦) ﴿هَذَا الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ﴾ ﴿زُلْفَى﴾ أي: ضيافتهم ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها على ضيافة الله لأوليائه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَغَيَّرُ عَنْهَا جَوْلًا ۖ﴾.

(٥٧) ثم ذكر الدليل العقلي على البعث فقال: ﴿وَنَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير، ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

(٥٨-٦٢) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۚ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۚ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۚ عَلَيْنَا نَذِيرٌ لِّأُولِي الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفرايتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثى، وهدي كلا منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب للتناسل.

ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال^(١) بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم قادر على إعادتكم.

(٦٣-٦٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۚ أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاقُونَ ۚ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَتَنَ كِهُونًا ۚ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ۚ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وهذا امتتان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضرورتهم وحاجاتهم ومصالحهم التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقررهم بمنته فقال:

سورة الواقعة ٥٣٦

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْأَصْلَ لَوْنُ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥٦﴾ لَا كُفُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ ﴿٥٧﴾ فَأُولَئِكَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٨﴾ فَشَرِبُوا مِنْ لَحِيمٍ ﴿٥٩﴾ فَشَرِبُوا مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٠﴾ هَذَا أَنْتُمْ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٦١﴾ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٦٤﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٥﴾ عَلَيْنَا أَنْ نَبْدِلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاقُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَتَنَ كِهُونًا ﴿٧٠﴾ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ﴿٧١﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٧٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ يَسْمُ الْمَاءِ الَّذِي شَرِبْتُمْ ﴿٧٣﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَسْفًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ أَفَرَأَيْتُمْ يَسْمُ النَّارِ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٦﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٧﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَةً لِلْمُقَوِّينَ ﴿٧٨﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ الْجُحُومِ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّهُ لَفَسْمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٨١﴾

﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاقُونَ﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتوه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثماراً نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر.

ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإيقاظه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين فقال:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حُطَبًا﴾ أي: فناناً متحطماً لا نفع فيه ولا رزق. ﴿فَطَلَّتْ﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطاماً بعد أن تعبت فيه، وأنفقت النفقات الكثيرة. ﴿تَنَكَّهُونَ﴾ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم،

(١) في ب: بالاستدلال.

فلا يُعصى.

(٧٥-٨٧) ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ○ وَإِنَّهُ لَقَسَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ○ إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ ○ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ○ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ○ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ○ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ ○ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ○ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمَخْلُوقُ ○ وَأَنْتُمْ جِنْدٌ تَنْظُرُونَ ○ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ○ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَزِيزِينَ ○ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ○ أَقْسَمُ تَعَالَى بِالنَّجْمِ وَمَوَاقِعِهَا أَي: مساقطها في مغاربيها، وما يحدث الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده.

ثم عظم هذا المقسم به فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

وإنما كان القسم عظيمًا، لأن في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاربيها آيات وعبرًا لا يمكن حصرها. وأما المقسم عليه فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه ولا شك يعتريه.

وأنه كريم أي: كثير الخير غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله^(٢)، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين لا قدرة لهم^(٣) على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب.

وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية - بتنبئها^(٤) - على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبرٌ بمعنى النهي، أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة، هو تنزيل رب العالمين الذي يربي

(١) في ب: وتعظيمه. (٢) في ب: لوحه ورسالته. (٣) كذا في ب، وفي أ: لها (٤) في ب: تنبيهاً.

ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم فتقولون:

﴿إِنَّا لَمُعْرَبُونَ﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا. ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب دهيتم فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مُعْرَبُونَ﴾.

فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أباه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

(٦٨-٧٠) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ○ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ○ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة.

ومن نعمته أن جعله عذبًا فرائًا تسبغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا مكروهاً للنفوس لا يتفنع به.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم. (٧١-٧٤)

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ○ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ○ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ○ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، ففرهمم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم أطفأها وأخمدوها. ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطًا يسوق به عباده إلى دار النعيم.

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي: [المتفيعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافرين بذلك أعظم من غيره، ولعل السبب في ذلك؛ لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار جعلها الله متاعًا للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار.

فلما بين من نعمه ما يوجب الشاء عليه من عباده وشكره وعبادته أمر بتسبيحه وتحميد^(١) فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات.

واحمده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع

عباده بنعمه الدينية والدنيوية.

ومن أجل تربية ربي بها عباده، إنزاله هذا القرآن الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً.

ومما يجب عليهم أن يقوموا به^(١) ويعملونه، ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أَفَهَذَا الْحَدِيثَ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أي: أفهَذَا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تختفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟.

هَذَا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه. وأما القرآن الكريم فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ولا يختفي، بل يصدع به ويعلن.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ أي: تجعلون مقابلة مئة الله عليكم بالرزق الكذب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها.

فها لا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن الكذب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ○ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ○ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ○ وَلَكِنْ لَا بُشَيْرُكُمْ﴾ أي: فها إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة.

والحال أنا نحن أقرب إليه منكم بعلمنا وملائكتنا ولكن لا تبصرون.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: فها إذا كنتم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وأنتم تقولون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها.

فحيثما إما أن تقولوا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

(٩٦-٨٨) ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ○ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنْتٌ نَعِيمٌ ○ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ○ فَسَلَّمَ لِلَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ○ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْفُصَّالِينَ ○ فَزُلْ مِنْ جَمِيمٍ ○ وَنَصْلَةٍ جَحِيمٍ ○ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ○ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين الضالين في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت فقال: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَيِّتِ ○ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين أدوا

سورة الواقعة

٥٣٧

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَهَذَا الْحَدِيثَ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ○ وَلَكِنْ لَا بُشَيْرُكُمْ ○ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنْتٌ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَالْمَكْذِبِينَ الْفُصَّالِينَ ﴿٩٢﴾ فَزُلْ مِنْ جَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٍ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سورة الحشر

سُبْحَانَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ اللَّهُمَّ الْمَلِكُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ ○ يُحْيِي وَيُمِيتُ ○ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ○ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ○ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات^(٢) وفضول المباحات.

لهم ﴿رُوحٌ﴾ أي: راحة وطمأنينة وسرور وبهجة ونعيم القلب والروح.

﴿وَرِيحَانٌ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية من أنواع المأكول والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام^(٣).

﴿وَحَنْتٌ نَعِيمٌ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تُخَافُوا وَلَا تُحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن يقوموا به. (٢) في ب: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله المقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات. (٣) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه.

تفسير سورة الحديد

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَمْ يَلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِشَيْءٍ وَوُضِعَ الْكَوْكَبُ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ وَالظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءًا عَالِمٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَمْ يَلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ رُجُوعُ الْأُمُورِ ۝ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، [والجوامد] تسبح بحمد ربها، وتترزه عما لا يليق بجلاله.

وأنها قانتة لربها منقادة لعزته قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

ثم أخبر عن عموم ملكه فقال: ﴿لَمْ يَلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِشَيْءٍ وَوُضِعَ الْكَوْكَبُ﴾.

أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء.

﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وَهُوَ يَكِلُ شَيْءًا عَالِمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله فوق جميع خلقه.

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أُولَ الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝ نَزَّلًا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ.

وقد أول قوله^(١) تبارك وتعالى: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أن هذه البشارة المذكورة هي البشري في الحياة الدنيا.

[وقوله]: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم يقال لأحدهم: ﴿سَلِّمْ لَكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبلبات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين الذين سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى.

﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ جَحِيمٍ ۝ وَنَصَلْنَا جَحِيمٍ﴾ أي: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم.

وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ ﴿يَقْنُاثُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِقَسِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي ذكره الله تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرا وشرا وتفاصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية.

بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه.

وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الأبواب كأنهم ذائقون له، مشاهدون له^(٢) فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتترزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

(١) في ب: فسر. (٢) في ب: مشاهدون لحقيقته.

﴿يَعْلَمُ مَا بَلِغُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حَبِّ وحيوان ومطر وغير ذلك.
 ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك.
 ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق.
 ﴿وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.

وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال من بر وفجور، فمجازيكم عليها وحافظها عليكم.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبادًا يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية الجارية على الحكمة الربانية.

﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل على النهار فيغشيهم الليل بظلامه فيسكنون ويهدأون.

ثم يدخل النهار على الليل فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون فيتحرك العباد ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم.

ولا يزال الله يكور الليل على النهار والنهار على الليل ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر حتى تقوم بذلك الفصول وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك.

فتبارك الله رب العالمين وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يكون في صدور العالمين.

فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهذابته^(١).

(٧-١١) ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِغُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧﴾ الَّذِي يَقْرِضُ اللَّهُ فَرَضًا حَسَنًا فَيُضَعِّفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾

الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ○ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ○ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا فَيُضَعِّفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ○ يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَبِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ وَاسْتَخْلَفَهُمْ عَلَيْهَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ.

ثم لما أمرهم بذلك، رَغَّبَهُمْ وَحَثَّهُمْ عَلَيْهِ بِذِكْرِ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ فَقَالَ: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أعظمه [وَأَجَلُهُ] رِضَا رَبِّهِمْ، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم الذي أعدّه الله للمؤمنين والمجاهدين.

ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ

أعظم درجة وأجرًا وثوابًا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح.

ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقلح في المفضل، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِيءَ﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم] رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فيجازي كُلاً منكم على ما يعلمه من عمله.

ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهيز له فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضًا، والمال ماله والعبد عبده، ووعده بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة وهو الكريم الوهاب.

وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزء الحسن، ولذلك قال: (١٢-١٥) ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِيَلْزِمُنِي اللَّهُ آمَنَّا بِمَا آتَيْنَاكَ مِنْ نُورِهِمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بِهِمُ يَسِيرًا لَمْ يَأْبَ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ ○ يُتَادَوْنَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَرْتَضُونَ وَارْتَضَوْا عَنْكُمْ الْأَمَانُ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْقُرْآنُ ○ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِشْرِ الْمَصِيرِ﴾ يقول تعالى - مبيّنًا لفضل الإيمان واغنياب أهله به يوم القيامة - : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويشرون عند ذلك بأعظم بشارة فيقال: ﴿بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أَخَذَ مِنْفَعَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمدًا ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم.

فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان، إن كنتم مؤمنين.

ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات.

فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكَ عَلَى عَذِيبِهِ عَائِنتَ يَنْتَصِرُ﴾ أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به^(١)، وأنه حق اليقين.

﴿لِيُخْرِجَكُمُ﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة.

﴿وَمِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وهذا من رحمته بكم ورأفته حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا.

(و) الحال أنه ليس لكم شيء بل ﴿لِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجميع الأموال ستنقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود المُلْكُ إلى ماله تبارك وتعالى.

فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم وانتهزوا الفرصة.

ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ أُولَئِكَ أَكْثَرُ عَظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديدية حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام واختلاط المسلمين بالكافرين والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجا واعتز الإسلام عزًا عظيمًا.

وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها كالمدينة وتوابعها.

وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل

سُورَةُ الْحَدِيدِ

٥٣٩

الْحَدِيدُ

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
بَشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ
آمَنُوا انظُرُوا نَفْسَكُمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورَةٍ بِأَبْ بَاطِنَةٍ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظَهَرَهُ مِنْ قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴿١٧﴾ يَتَادَوْهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنَّا فَنَنسُو
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَضْتُمْ وَأَرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٨﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا مِنْكُمْ الْتَأْرَهُيْ مَوْلَانَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾
أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا
اللَّهِ قَرَضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٢٢﴾

فَلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم،
حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب] ونجوا من كل شر
ومرهوب.

فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به^(١)، وهم قد
طفئ نورهم، وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين:
﴿انظُرُوا نَفْسَكُمْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي
به لننجو من العذاب.

ف ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: إن كان
ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من
المحالات.

﴿ضُرِبَ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورَةٍ﴾ أي: حائط
منيع وحصن حصين.

﴿لَمْ يَأْنِ بِالْبَاطِنِ فِيهِ الرِّحْمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين ﴿وَوَظَهَرَهُ
مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين.

فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحمًا:
﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نقول: «لا إله إلا الله»، ونصلي
ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟.

﴿قَالُوا بَلَى﴾ كتم معنا في الدنيا، وعلمتم [في الظاهر] مثل
عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين من غير إيمان ولا نية
[صادقة] صالحة.

بل ﴿نَسْنَأْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَضَّعْتُمْ وَأَرْتَبَّعْتُمْ﴾ أي: شككتكم في خبر الله
الذي لا يقبل شكًا.

﴿وَعَرَّيْكُمْ الْأُمَانِيَّ﴾ الباطلة، حيث^(٢) تمنيتم أن تنالوا منال
المؤمنين وأنتم غير موقنين.

﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: حتى جاءكم الموت، وأنتم بتلك
الحال الذميمة.

﴿وَعَرَّيْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان الذي زين لكم الكفر
والريب، فاطمأنتم به ووثقتم بوعده وصدقتم خبره.

﴿فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو افتديتهم
بمثل الأرض ذهبًا ومثله معه لما تقبل منكم.

﴿مَا مِنْكُمْ الْتَأْرَهُيْ﴾ أي: مستقركم ﴿مِنْ مَوْلَانَكُمْ﴾ التي تتولاكم
وتضمكم إليها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار.

[قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ
هَكَوِيَةٌ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ۖ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

(١٦، ١٧) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ
الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۖ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لما ذكر حال

المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة،
كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة
لعظمتها، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك] فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.
أي: ألم يجيء^(٣) الوقت الذي تلين به قلوبهم^(٤)، وتخضع
لذكر الله الذي هو القرآن، وتقاد لأوامره وزواجره، وما نزل
من الحق الذي جاء به محمد ﷺ؟

وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله
تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون
المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا
أنفسهم على ذلك.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾
أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب
لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه ولا ثبتوا،
بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل

(١) في ب: يمشون بنورهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: التي. (٣) في
ب: ألم يأت. (٤) في ب: الذي به تلين قلوبكم.

إيمانهم وزال إيمانهم.

﴿فَسَقَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك^(١) سبب لقسوة القلب وجمود العين.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها، قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر، قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله. وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله و[لم] ينفذ لشرائع الله.

(١٨، ١٩) ﴿إِنَّ الْمُصْذِفِينَ وَالْمُصْلِفَةَ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ﴾ ﴿إِنَّ الْمُصْذِفِينَ وَالْمُصْلِفَةَ﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية والنفقات المرضية.

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخرًا^(٢) لهم عند ربهم ﴿يَضَعُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة مما لا تعلمه النفوس.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والإيمان عند أهل السنة هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله:] ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين^(٣) كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله».

وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم وقربهم إلى الله تعالى. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق: المتصدقين، والصديقين والشهداء، وأصحاب الجحيم. فالمتصدقون: الذين كان جُلُّ عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم

خصوصًا بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون: هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق.

والشهداء: هم الذين قاتلوا في سبيل الله [لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا.

وأصحاب الجحيم: هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله. وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

(٢٠، ٢١) ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ۝ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب والغفلة عن ذكر الله^(٤)، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا.

بخلاف أهل اليقظة وعَمَالِ الْآخِرَةِ، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومعجته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله:] ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: تَزِينٌ في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه [وغير ذلك]. ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورهما، والذي له الشهرة في أحوالهما.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: كُلُّ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْكَاثِرُ لغيره في المال والولد، ولهذا مصداقه، وقوعه من مُحِبِّي الدُّنْيَا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرًا ولم يجعلها مستقرًا، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٥)، وإذا رأى من يكثره وينافسه بالأموال

(١) في ب: فإنه. (٢) في ب: ذخرا. (٣) في ب: ما بين كل درجتين. (٤) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم. (٥) في ب: إلى ذلك.

والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار الذين قصرُوا همهم ونظروهم إلى الدنيا^(١)، جاءها من أمر الله [ما أثلّفها] فهاجت ويست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رُؤْي لها مرأى أنيق.

كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبها^(٢) من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، ولم يتزود منها سوى الكفن، فنبأ لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين.

إما العذاب الشديد في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأحوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله يحل من أحله^(٣) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويتنفع به، ويستدفع به الحاجات لا يغيره به، ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرمهم بالله الغرور.

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال:

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والإيمان بالله ورسله^(٤)، يدخل فيه أصول الدين وفروعها ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هذا الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدَةُ

٥٤٠

سُورَةُ الْحَدِيدِ

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٢﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ لَّيِّنٌ وَمُتَكَبِّرُونَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٣﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٤﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٥﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۚ إِنَّكُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٧﴾

الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم^(٥) من أعظم منته على عباده وفضله.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أننى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده^(٦).

(٢٢-٢٤) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها.

وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير.

(١) في ب: همهم ونظروهم. (٢) في ب: فأذهبها. (٣) في ب: من أحله عليه. (٤) كذا في ب، وفي أ: ورسوله. (٥) في ب: وأن ثواب الله بالاجر الجزيل والثواب الجميل. (٦) في ب: أحد من خلقه.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال.

والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنائيات والقصاص والحدود [والموارث وغير ذلك].

وذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قياماً بدين الله وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها.

وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة والأحوال.

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك.

﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيبتين من ينصره، وينصر رسله في حال الغيب التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يعجزه شيء ولا يفوته هارب. ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتلي أوليائه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن تعالى في هذا^(١) الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُمْ مَثَلٌ لِّكثيرٍ مِّنْهُمْ فَمِثْلُ شَقِيقَتِنَا عَلَى أَشَدِّهِمْ يُرْسِلْنَا وَفَقِيقَتِنَا يَعْنِي ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَهَاجَتِ أَبْدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقته.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب

وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، وينبوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا بأسوا ويحزنوا على ما فاتهم مما طمحت له أنفسهم، وتشوفوا إليه لعلمهم أن يكون ذلك مكتوباً في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومَنّه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا هَوَّلْنَاهُ نَجْمًا كَانِ إِيمَانًا أَوْ تُنْفِثُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ وَالنَّاسِ بِالْبُخْلِ﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين اللذين كل منهما كاف في الشر، البخل وهو منع الحقوق الواجبة ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحُثُّهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إغراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويشى ويعظم.

(٢٥-٢٧) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُمْ مَثَلٌ لِّكثيرٍ مِّنْهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَاقِبَتِهِم بِرُسُلِنَا وَفَقِيقَتِنَا يَعْنِي ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَهَاجَتِ أَبْدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

بدعوتهم، متقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء^(١) كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصاري الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَآتِيَنَّكُم مِّنْهُمْ فَتُبْسِيبَ وَرَهْبَانًا وَآثَرَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ الآيات.

ولهذا كان النصاري ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم.

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنها من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ آجُرُهُمْ﴾ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى، كُلُّ أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

(٢٩، ٢٨) ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَتٍ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَيْلًا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وهذا الخطاب يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كِفَايَتٍ مِنْ رَّحْمَتِهِ﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون الأمر عامّاً يدخل فيه أهل الكتاب

سورة الحديد

٥٤١

سورة الحديد

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَتٍ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٨﴾ لَيْلًا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٥٩﴾

وغيرهم وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كِفَايَتٍ مِنْ رَّحْمَتِهِ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى.

أجر على الإيمان وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى.

﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا يستكثر^(٢) هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

[وقوله:] ﴿لَيْلًا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً،

(١) في ب: طاعة رسله. (٢) في ب: فلا يستغرب كثرة.

واتقى الله وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(١) بأنهم لا يقدرّون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾. ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة.

فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغمًا على أنوف أهل الكتاب.

وليعلموا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتیه من فضله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الذي لا يقادر قدره].

تم تفسير سورة الحديد، والله الحمد والمنة، والحمد لله.

تفسير سورة قد سمع الله

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾

هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكت زوجته [إلى الله وجادلته]^(٢) إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً. فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: تخاطبكما فيما بينكما. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفتن الحاجات.

﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

٥٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝

الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها^(٣) على وجه العموم فقال:

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ المظاهرة من الزوجة أن يقول الرجل لزوجته: «أنت عليّ حرام» وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهاراً» فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم^(٤) أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟

ولهذا عظم الله أمره وقبحه فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: قولاً شنيعاً ﴿وَزُورًا﴾ أي: كذباً. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، اللاتي ولدنهم؟

(١) في ب: لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره. (٤) في ب: يعلمون.

﴿مِنْ نِّسَابِهِمْ﴾.

فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظاهراً بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط. ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار كما لا يصح طلاقها، سواء نَجَزَ ذلك أو علَّقه. ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿مَا هُمْ بِأَهْنَأَ﴾. ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميتها^(٥) باسم محارمه كقوله: «يا أمي» «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين لا بمجرد الظاهر. ومنها: أنه يجزىء في كفارة الرقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى لإطلاق الآية في ذلك. ومنها: أنه يجب إخراجها إن^(٦) كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يُمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُرُوا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَرْلًا أَلَيْسَ يَنْتَدِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ محادة الله ورسوله: مخالفتها ومصصتهما خصوصاً في الأمور الفظيعة كمحادة الله ورسوله بالكفر ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كَثُرُوا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها فهو من

(١) كذا في ب، وفي أ: أن. (٢) في ب: آية القتال. (٣) في ب: الضارة. (٤) في ب: ويزداد به الإيمان. (٥) في ب: ويدعوها. (٦) في ب: إذا.

فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقليل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها^(١) تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة كما قيدت في آية أخرى^(٢)، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة^(٣) بالعمل.

﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَنَّأَ﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر بركة.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿ثَوَعُظَتْ بِهِ﴾ أي: بين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظهر، إذا ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة، كف نفسه عنه.

﴿وَاللَّهُ يَمَا تَمْلُؤُونَ خَيْرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقة يعتقها، بأن لم يجدها أو [لم] يجد ثمنها عليه ﴿صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَنَّأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾.

إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مُدَّ بَرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزى في الفطرة كما هو قول طائفة أخرى.

ذلك الحكم الذي بيناه لكم ووضحناه لكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وذلك بالترام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به.

فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان [بل هي المقصودة] ومما يزيد به الإيمان^(٤) ويكمل وينمو.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده، واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام، لكل من ابتلي بمثل هذه القضية. ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال:

المهتدين الفائزين.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: يهينهم ويذلهم.

كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم.

(٦، ٧) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوِّدَ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيدٌ﴾ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَمِيةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق ﴿جَمِيعًا﴾ فيقومون من أجدانهم سريعًا فيجازيهم بأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته.

هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بالظواهر^(١) والسرائر، والخبايا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَمِيةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسرره فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالى:

(٨، ٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ﴾ يتأبها الذين ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّيُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّيُوا بِالْيَمِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ النجوى: هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق الله وعباده^(٢)، والتقوى، وهي [هنا] اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم.

فالمؤمن يمثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجيًا ومتحدثًا إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه.

والفاجر يتهاون بأمر الله ويتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي:

يسيئون الأدب معك في تحيته لك.

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يسرون في أنفسهم^(٣) ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا

سُورَةُ الْاٰنْجٰلِ

٥٤٣

سُورَةُ الْاٰنْجٰلِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَمِيةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأَبَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّيُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّيُوا بِالْيَمِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا لِأَيِّدِنَ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَبَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِ الْمَجَالِسِ فَانْفُسُوا فَيَسْجُ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا وَيَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

نَقُولُ.

ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور.

قال تعالى في بيان أنه يهمل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم] تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ﴾.

وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرا^(٤)، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب الذين إذا سلموا على النبي ﷺ قالوا: «السلام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت.

(١٠) ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا لِأَيِّدِنَ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول

(١) في ب: على الظواهر. (٢) في ب: بحق الله وحق عباده. (٣) في ب: يسرون فيها. (٤) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيرا.

تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة وطلب السوء من الشيطان الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿يَعَزَّزُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده.

﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية، والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك^(١) عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليعتمدوا^(٢) عليه، ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه وتولى أمر دينه ودنياه^(٣).

(١١) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا تأديب^(٤) من الله لعباده المؤمنين إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين للتفسيح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلًا لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للجالس^(٥) شيئًا، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿فانْشُرُوا﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة.

فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به من العلم والإيمان.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بأدابه والعمل بمقتضاه.

(١٢، ١٣) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تُجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُ فَإِذْ لَوْ تَقَعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاقْضُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة أمام المناجاة رسول الله محمد ﷺ تأديبًا لهم، وتعليمًا وتعظيمًا للرسول ﷺ، فإن هذا

التعظيم خير للمؤمنين وأطهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ، والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته، صار هذا ميزانًا لمن كان حريصًا على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة.

ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة.

وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ؛ لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصودًا لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له.

وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها فقال: ﴿فَإِذْ لَوْ تَقَعَلُوا﴾ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هينًا على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عفا لكم عن ذلك.

﴿فَاقْضُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها.

﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقيها. وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله، وحقوق عباده [ولهذا قال بعده]: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتثال أوامره واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به والوقوف عند حدود الله^(٦).

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي

(١) كذا في ب، وفي أ: فإن ضررهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا. (٣) في ب: وكفاه أمر دينه ودنياه. (٤) في ب: هذا أدب. (٥) في ب: للفاسح. (٦) في ب: حدود الشرع.

وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.
 (١٤-١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۝ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا اسْتَحْذَوْا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنَاسَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ وَأُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ لأن باطنهم مع الكفار ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنًا؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، ولهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون^(١) أنهم ليسوا مؤمنين.

فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابًا شديدًا، لا يقادر قدره ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله^(٢) ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: ترسًا ووقاية يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه، أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي الذي لا يُفْتَر عنهم ساعة ولا هم يُنظَرُونَ.

﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلا تدفع^(٣) عنهم شيئًا من العذاب، ولا تحصل لهم قسطًا من الثواب.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها.

و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعًا، حلفوا

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدْ مَوَّابِينَ بَدَىٰ نَجْوَاهُمْ ۝ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرُكُمْ وَأَطَهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ١٢ ۝ أَشَقَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ بَدَىٰ نَجْوَاهُمْ صَدَقْتُ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۝ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِّمَا تَعْمَلُونَ ۝ ١٣ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ١٤ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۝ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ١٥ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ ١٦ ۝ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۝ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ١٧ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا ۝ ١٨ ۝ اتَّخَذُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنَاسَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ وَأُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ ١٩ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝ ٢٠ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكُ أَنَا وَرَسُولِي ۝ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٢١

الله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئًا فشيئًا، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك.

ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة.

وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهلهم.

(٢١، ٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكُ أَنَا وَرَسُولِي ۝ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا وعد ووعد، وعيد لمن حادَّ الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه

(١) في ب: والحال. (٢) كذا في ب، وفي أ: يَسْخَطُهُ. (٣) في ب: أي: لا تدفع.

مخدول مذلول، لا عاقبة له حميدة ولا راية له منصوره.
ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون،
فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة
في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير، فإنه من
الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

(٢٢) ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ
مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
يقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون
العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على
مقتضى الإيمان^(١) ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان
وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب
الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وجدت ثمرته
والمقصود منه.

وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان
أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه
والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعوته ومدده
الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات
النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهيhe الأنفس وتلذ
الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل
عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، ويرضون عن ربهم بما
يعطيه من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات وجزيل الهبات
ورفع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية
ولا فوقه^(٢) نهاية.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع
ذلك مؤادٌ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره،
فإن هذا إيمان رَغمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من
برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا ولا يصدق
صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله
رب العالمين وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا.

سُورَةُ الْحَشْرِ

٥٤٥

سُورَةُ الْحَشْرِ

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ
لِلْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَجُونَ بِيُوعِهِمْ بَأْيَدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَرِبُوا يَتَآوَلِي الْأَبْصَارُ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
الْجَلَاءَ لَعَذَبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

تفسير سورة الحشر

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ
فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَجُونَ بِيُوعِهِمْ
بَأْيَدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَرِبُوا يَتَآوَلِي الْأَبْصَارُ﴾ إلى آخر القصة.
هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من
اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ.

فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة
من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن

(١) في ب: إيمانه. (٢) في ب: ولا وراءه. (٣) في ب: لمن نبذ.

السموات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبدته وتخضع لجلاله^(١)، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء ولا يستعصي عليه مستعص^(٢).

الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خير، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا.

فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خير، ثم عمر رضي الله عنه [أخرج بقيتهم منها].

﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها.

﴿وَلَطَّوْاْ أَنفَهُمْ فَمَا نَزَعْنَهُمْ خُصُوفَهُمْ مِنَّ اللَّهِ﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا يُنَالُونَ بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تُجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فَأَنذَرْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: من الأمر والباب الذي لم^(٣) يخطر ببالهم أن يؤتوا منه.

وهو أنه تعالى ﴿فَذَفَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف الشديد الذي هو جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عَدَدٌ ولا عُدَّة ولا قوة ولا شدة.

فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤).

فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يُخْرِثُونَ يُؤْتِمُّ بِأَيْدِيهِمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل.

(١) في ب: لعظمته. (٢) في ب: (عسير). (٣) كذا في ب، وفي أ: لا. (٤) في ب: كان وبالأعلى. (٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه فصار.

سائر طوائف اليهود الذين هم حيرانه في المدينة.

فلما كان بعد [وقعة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك فخلا بعضهم ببعض، وسؤل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فأتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرخي فيصعد فيلقبها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخَيَّرَنَّ بما همتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به.

فنهض مسرعاً فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك. فأخبرهم بما همتم يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي [ابن سلول]: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصرم قريظة وحلفائكم من غطفان». وطمع رئيسهم حُي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة. واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفائهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خير وفيهم حُي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

لهذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير. فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في

اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴿١﴾ أي: من أهل هذه القرية وهم بنو النضير. إنكم يا معشر المسلمين ﴿مَا أَرْجَفْتُمْ﴾ أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم ﴿عَلَيْهِ مِنْ حَبْلِ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأنتكم صَفُّوا عَنَّا. ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه ^(٤) ممتنع، ولا يتعزز من دونه قَوِيٌّ، وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال، كهذا المال الذي قَرُّوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فيئاً لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه.

وحكمه العام كما ذكره الله في قوله: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ عموماً، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده لمن يتولى من بعده أمته ^(٥).

﴿لِللَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال في ^(٦) قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا أَمَّا غَنِمَتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُمُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام:

خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين [العامه]. وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب حيث كانوا يُسَوَّى [فيه] بين ذكورهم وإناثهم.

وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم ^(٧)، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخمسة لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ. وخمسة للمساكين.

وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء المتقطع بهم في غير أوطانهم.

فنفقوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيمهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم وصاروا من أكبر عون عليها. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكُونُوا لِلْهَارِبِينَ مِنَ الْكُفَّارِ الْكَافَّةُ﴾ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة، فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم الذين لم تنفعهم عزتهم، ولا منعهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ ^(١) لا بخصوص السبب.

فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظر بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد ^(٢) العقل وتنور البصيرة ويزداد الإيمان ويحصل الفهم الحقيقي.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصيبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم.

فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا وتكالها.

ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى.

فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعداوهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وستته فيمن شاقه ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك ^(٣) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه، إن أبقوه إنه بإذنه تعالى وأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ حيث سلطكم على قطع نخيلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالاً لهم، وخزياً في الدنيا، وذلاً يعرف به عجزهم التام الذي ما قدروا على استنقاذ نخيلهم الذي هو مادة قوتهم، واللية: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاهما، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا. ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم فقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى. (٢) في ب: يكمل العقل. (٣) كذا في ب، وفي أ: به. (٤) في ب: عليه. (٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته. (٦) في ب: وهي. (٧) كذا في ب، وفي أ: حين تعاقدت على هجرهم قريش وعداوتهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفبي في هؤلاء المعينين لـ ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ أي: مداولة واختصاصًا ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فإنه لو لم يقدره لتداولته الأغنياء الأقبياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله.

كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله.

ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم وبإضاعتها الشقاء الأبدى والعذاب السرمدي فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من ترك التقوى وأثر اتباع الهوى.

(٩، ٨) ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفبي لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان، والأحباب والخلان والأموال رغبة في الله ونصرة لدين الله ومحبة لرسول الله.

فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدق به بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصارٍ وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعًا ومحبة واختيارًا، وآووا رسول الله ﷺ ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر.

فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً وينمو قليلاً قليلاً حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ولهذا لمحبتهم الله ورسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من

الْحَقُّ الْمُبِينُ ٥٤٦
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاوُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَامْتُمْ عَلَى أَصُولِهَا فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٨﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

نصر دينه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة.

ولهذا لا يكون إلا من خلق زكي ومحبة لله تعالى، مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله

وأولاده وبناتوا جياغاً.

والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح.

ومن رَزَقَ الإيثار فقد وُفِيَ شَحُّ نفسه ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ قَاوَلِيكَ هُمْ الْمُقْلِحُونَ﴾ ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُفِيَ العبد شَحُّ نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً متقاداً منشراحاً بها صدره وسمحت نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس تدعو إليه وتطلع إليه.

وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز.

بخلاف من لم يوقِ شَحُّ نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته.

فهذان ^(١) الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتقين ^(٢).

وحسب مَنْ بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ويأتهم بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال:

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المهاجرين والأنصار ﴿يَقُولُونَ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.

ولهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، ولهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين ^(٣) التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نَفْيَ الغل عن القلب الشامل لقليل الغل وكثيره ^(٤) الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاتة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ دليل على المشاركة في الإيمان ^(٥)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة الذين لا يصدق لهذا الوصف التام إلا عليهم.

ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحدق عن قلوبهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٧

سُورَةُ الْحَشْرِ

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَضِلَّ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْلِبُونَ كُمَّ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرَّبُوا ذُفُوًا وَإِلَآءَ أَمْرِهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم أخيه ما يجب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً حياً وميتاً.

ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض.

ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين دالّين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام، وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(١١-١٣) ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمّعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء. (٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

(٣) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين. (٤) في ب: لقليله وكثيره. (٥) في

ب: المشاركة فيه.

عقول، لآثروا الفاضل على المفضل، ولما رضوا لأنفسهم بأبخص الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية، مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا.

(١٥) وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة ﴿كَشَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ أَيُّومَ مِنَ النَّاسِ وَإِنْ جَارَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَيْتِ الْفِتْنَانَ تَكَسَّ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب حتى أتوا «بَدْرًا» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم وأسروا من أسروا منهم وفر من فر. وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم. هذا في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة عذاب النار.

(١٦) ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كَشَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه.

فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

(١٧) ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته.

وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلي عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته

(١) في ب: بالوعد. (٢) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل. (٣) في ب: حملهم على ذلك. (٤) في ب: على قتالكم.

وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا تطيع في عدم نصرتكم أحدًا يعذلنا أو يخوننا.

﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم.

ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال فقال: ﴿لَنْ أَغْرِبُوا﴾ من ديارهم جلاء ونفيًا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لمحبتهم للأوطان وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم^(١).

﴿وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ بل يستولي عليهم الجبن ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم.

﴿وَلَنْ نَنْصُرَهُمْ﴾ على الفرض والتقدير^(٢) ﴿لَيُؤْتِرُنَّ الْآذِنَبَرَّ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ أي: ليحصل منهم الإذبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك^(٣)، أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه، ومحبة مقدمة على غيرها، وغيرها تبعًا لها.

(١٤) ﴿لَا يَفْقَهُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِي قَرَىٰ مُخَصَّصَةٍ أَوْ مِنْ وَرَثَةٍ جُذِرٍ﴾ أي: لا يثبتون لقتالكم^(٤) ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتمادًا [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، ولهذا من أعظم الذم.

﴿بِأَسْهُمٍ يَنْهَضُهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراهم مجتمعين ومظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي: متباغضة متفرقة متشتتة. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا عقل عندهم ولا لب، فإنهم لو كانت لهم

عاص على بصيرة لا عذر له.

(٢١-١٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاتُوا اللَّهَ وَلِتُنْظَرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَءَاتُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضَرُّهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُوجِبُهُ الْإِيمَانُ وَيَقْضِيهِ مِنْ لَزُومِ تَقْوَاهُ، سِرًّا وَعِلَانِيَةً فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَأَنْ يَرَاعُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَوَامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ وَحُدُودِهِ، وَيَنْظُرُوا مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَمَاذَا حَصَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَضُرُّهُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم، وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم.

وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد.

ولهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإتقانه.

ويقاس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل.

بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنًا لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه. فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لبعده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله ونسي حقوقه فشقي في الدنيا، واستحق

سُورَةُ الْحَشْرِ

٥٤٨

سُورَةُ الْحَشْرِ

فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاتُوا اللَّهَ وَلِتُنْظَرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَءَاتُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضَرُّهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ الْمُبَحِّثَةِ

العذاب في الآخرة.

فالأولون هم الفائزون والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبًا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأته خاشعًا متصدعًا من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق.

وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف^(٢) لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: وأقلها تكلفًا.

ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

(٢٢-٢٤) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام.

وكل إله سواه ^(١) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون.

﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجّد؛ لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدق لرسله وأنبياؤه بما جاءوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وخضع له كل شيء.

﴿الْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق الذي يجبر الكسير ويغني الفقير. ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المنتزه عن جميع العيوب والظلم والجور. ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده. ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ لجميع المخلوقات ﴿الْبَارِئُ﴾ للمبروءات ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به لم يشاركه فيه مشارك.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً التي لا

تفسير سورة الممتحنة

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّيْكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرَضًاوً تُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالشُّوَءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۝ إِنْ قُلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاسْتَغْفِرْ لَكُمْ وَمَا أَمَلِكُمْ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَابْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَنَزَلَ إِلَيْهِمُ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ

سُورَةُ الْمُحْتَمَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٥٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ
وَأَبْنَاءِ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ
يَشْقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ
يَاْسُوءُ وَوَدُّوا أَنْ تُكْفِرُوا ۝ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا وَلَدُكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءُ وَأُمْنَكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بَكُمْ وَبِدِينِنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۝ إِلَّا
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا سَعْفَرَن لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۝
رَبَّنَا عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة وهو الله تعالى .

فلما أعرضوا عن هذا الأمر الذي هو أوجب الواجبات ،
وقمت به ، عادوكم وأخرجوكم - من أجله - من دياركم .
فأي دين وأي مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا والى الكفار
الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟ ولا يمنعه من ذلك
خوف أو مانع قوي .

﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ وَأَبْنَاءِ مَرْضَاتِي﴾ أي : إن كان
خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ،
وابتغاء مرضاة الله (٣) فاعملوا بمقتضى هذا من موالات أولياء
الله ومعادات أعدائه ، فإن هذا هو الجهاد في سبيله (٤) ، وهو من
أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ، ويتبعون به رضاه .
﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي :
كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها ، مع علمكم أن الله
عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي على المؤمنين

دِينَكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
ذكر كثير من المفسرين [رحمهم الله] أن سبب نزول هذه
الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة حين غزا النبي
ﷺ غزوة الفتح .

فكتب حاطب إلى قريش (١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ
إليهم ، ليتخذ بذلك يداً عندهم [لا شكاً] وإنفاذاً ، وأرسله مع
امرأة .

فأخبر النبي ﷺ بشأنه ، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها
وأخذ منها الكتاب .

وعاتب حاطباً فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ .

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالات الكفار من
المشركين وغيرهم ، وإلقاء المودة إليهم ، وأن ذلك مناف
للإيمان ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ،
ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو ،
الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً ، ويتنزه الفرصة في
إيصال الضرر إلى عدوه ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولاية من قام بالإيمان ، ومعادة
من عاداه ، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين .

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾
أي : تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها ، فإن المودة
إذا حصلت تبعثها النصرة والموالات ، فخرج العبد من
الإيمان ، وصار من جملة أهل الكفران وانفصل عن أهل
الإيمان .

وهذا المتخذ للكافر ولياً ، عادم المروءة أيضاً ، فإنه كيف
يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر ، ويخالف ربه
ووليّه الذي يريد به الخير ، ويأمره به ويحثه عليه؟ ومما يدعو
المؤمن أيضاً إلى معادة الكفار ، أنهم قد كفروا بما جاء
المؤمنين من الحق ، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة ،
فإنهم قد كفروا بأصل دينكم ، وزعموا أنكم ضلال على غير
هدى .

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، ومن
رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة
قوله ، بل مجرد العلم بالحق (٢) يدل على بطلان قول من رده
وفساده .

ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها
المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم .

ولا ذنب لكم في ذلك عندهم إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم
الذي يتعين على الخلق كله القيام بعبوديته ، لأنه رباهم

(١) في ب : إلى المشركين من أهل مكة . (٢) كذا في ب ، وفي أ : مجرد
رد الحق . (٣) في ب : وابتغاء رضاه . (٤) في ب : هذا من أعظم
الجهاد في سبيله .

فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك.

فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿وَالِيكَ أُنَبِّئُ﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(١).

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعوننا مما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق، وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً. ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترطنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. ﴿الْمُكْرِمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فبعزتكم^(٢) وحكمتك انصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كَانَ يَتَّبِعُ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً مضطراً إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه].

(١) في ب: ما يزلنا إليك. (٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشكر.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ﴾ أي: موالاة الكافرين بعدما حذرهم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهيجاً للمؤمنين على عداوتهم ﴿إِنْ يَبْقَوْكُمْ﴾ أي: يجدوكم، وتسبح لهم الفرصة في أذاكم.

﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ظاهرين ﴿وَيَبْطِشُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب ونحو ذلك.

﴿وَالْيَتِيمَ الْيَلُوتَ﴾ أي: بالقول الذي يسوء من شتم وغيره. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتجاجهم وقتلهم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فلذلك حذرهم من موالاة الكافرين الذين تضرهم موالاتهم.

قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة صالحة وائتمام بنفعكم.

﴿فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكَ وَبِكَا﴾ أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أي: البغض بالقلوب وزوال مودتها والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دتم مستمرين على كفركم ﴿حَتَّى تُمَيِّتُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي: فإذا أمتم بالله وحده زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية.

فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به الله وحده.

﴿إِلَّا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع فقال إبراهيم: ﴿لَأَسْتَفِيزَنَّ لَكَ وَ﴾ الحال أنني لا ﴿أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لكنني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً.

﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة^(١) الإيمانية ترجع.

فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان. ف ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان.

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب، وتقليبها من حال إلى حال.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يتعاطفه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره ﴿قُلْ يَكِيدُ الَّذِينَ أَتَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه.

فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم فقال: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَقَسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم.

فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا مفسدة^(٢) كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وَأِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ﴾.

[وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: لأجل دينكم عداوة لذين الله ولعنهم قام به.

﴿وَأَخْرَجُكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وظهوراً﴾ أي: عاونوا غيرهم على إخراجكم.

نهاكم الله ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالمودة والنصر بالقول والفعل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٠

سُورَةُ الْمُنَافِقَةِ

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَن بَتَلَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٢﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِّنْ دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَقَسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٣﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّنْ دِينِكُمْ وظهوراً وعلى إخراجكم أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهْجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ إِنَّ عَلِمْتُمْ مِنْهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ
مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَسْتُمْ مِنْهُنَّ أُجُورَهُنَّ
وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمُ أَنْفَقُوا
ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الدِّينَ ذَهَبَتْ
أَرْوَاحُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي.

فإن كان تولياً تاماً، صار^(٣) ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دون ذلك.

(١٠، ١١) ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهْجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ إِنَّ عَلِمْتُمْ مِنْهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَسْتُمْ مِنْهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمُ أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الدِّينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لما كان صلح

(١) في ب: والمودة. (٢) في ب: ولا تبعة. (٣) في ب: كان ذلك.

فمن ذهب زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه،
لزم أن يعطيه المسلمون من الغنمة بدل ما أنفق^(٥).

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الْذِي أَشَدَّ بِهِ مُمْسِكًا﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْتَغِينَ عَلَيْكَ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهِنَّ يَفْتَرِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْيِصَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَلْيَعِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعه النساء» اللاتي [كن] يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

وأما الرجال فيفتاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به.

فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط ببايعن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير^(٦)، وأدخلهن في جملة المؤمنات بأن ﴿لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ بأن^(٧) يفرذن الله [وحده] بالعبادة.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء.
﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كما كان ذلك موجودًا كثيرًا في البغايا وذوات الأخدان.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِهِنَّ يَفْتَرِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن^(٨) أو سواء تعلق ذلك بغيرهم.

﴿وَلَا يَعْيِصَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن [لك] في النهي عن النجاسة وشق الثياب وخمش الوجوه والدعاء بدعاء^(٩) الجاهلية.

﴿فَلْيَعِهِنَّ﴾ إذا التزمين بجميع ما ذكر.

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ عن تقصيرهن وتطبيبات لخواطرن.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين.

﴿رَحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه البرايا.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ

الحديبية صالح النبي ﷺ المشركين على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلمًا، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظًا عامًا [مطلقًا] يدخل في عمومه النساء والرجال.

فأما الرجال فإن الله لم يَنْهَ رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشروط وتتميمًا للصلح الذي هو من أكبر المصالح.

وأما النساء فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف تعين ردهن وفاء بالشروط من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعهن إلى الكفار.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضًا الوفاء بالشروط بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضًا عنهن.

ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة.

وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن ينسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُنِكَوْا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها^(١)، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى.

﴿وَسَتَلَوْا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم^(٢) إلى الكفار.

وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر.

وقوله: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم^(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة^(٤).

وقوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فَعَاثِبُكُمْ قَاتِلُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ يَتْلُ مَا أَنْفَقُوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن إلى المسلمين.

(١) كذا في ب، وفي أ: بعضها. (٢) في ب: زوجاتهم. (٣) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه. (٤) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته. (٥) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنمة بدل ما أنفق. (٦) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن. (٧) في ب: بل. (٨) في ب: مع أزواجهن. (٩) في ب: بدعوى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥١

سُورَةُ الصَّفِّ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَعْيُنِكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرُكَنَّ
 بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَشْرُفْنَ وَلَا يَرَيْنَ وَلَا يَقْنُنَ وَلَا يَفْتُلْنَ وَلَا يَأْتِينَ
 بِمُهْتَنٍ يَفْرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْيِصْنَكَ
 فِي مَعْرُوفٍ فَلْيَأْخُذْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (٢)

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)
 كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ
 اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
 بُنِينَ مَرصُوضٍ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ
 تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٦)
 كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٧) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
 بُنِينَ مَرصُوضٍ (٨) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٩)
 تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
 زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠)

يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ أَي: يَا أَيُّهَا
 المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم ومتبعين لرضاء ومجانين
 لسلطته.

﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وإنما غضب عليهم
 لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار.

﴿قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة،
 فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على
 شرهم وكفرهم^(١)، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ حين أفضوا
 إلى الدار الآخرة، وقفوا على حقيقة الأمر^(٢)، وعلموا علم
 اليقين أنهم لا نصيب لهم منها.

ويحتمل أن المعنى: قد يسألو من الآخرة أي: قد أنكروها
 وكفروا بها.

فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله
 وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يش الكفار
 المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله
 تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الصف

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ﴾ ○ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ○ كَبُرَ
 مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿ وهذا بيان لعظمته تعالى
 وقهره، وذل جميع الخلق^(٣) له تبارك وتعالى، وأن جميع من
 في السماوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه
 حوائجهم.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه
 ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لم
 تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه
 وتهنون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه وأنتم متلوثون به
 متصفون به.

فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت
 عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟.

ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة،
 وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى:
 ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾.

(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
 بُنِينَ مَرصُوضٍ﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله
 وتعليم لهم كيف يصنعون، وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في
 الجهاد صفًا متراصًا متساويًا من غير خلل يقع^(٤) في
 الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب، به تحصل
 المساواة بين المجاهدين والتعااض وإرهاب العدو وتنشيط
 بعضهم بعضًا.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال صف أصحابه،
 ورتبهم في مواقعهم بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على
 (١) في ب: وشركهم. (٢) في ب: وشاهدوا. (٣) في ب: الأشياء
 له. (٤) في ب: يحصل.

ولو كنت مدعيًا للنبوّة لجتّ بغير ما جاءت به المرسلون، ومصداقًا لما بين يديّ من التوراة أيضًا، أنها أخبرت بي وبشرت، فجتت وبعثت مصداقًا لها ﴿وَمَبَشِّرًا رَسُولًا يُأْتِي مِنْ بَعْدِي أَنَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فيعسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٤)، يصدق بالنبي السابق، ويشر بالنبي اللاحق بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشدّ مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقًا].

﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذّبين له: ﴿هَذَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وهذا من أعجب العجائب.

الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أبيّن من شمس النهار، يجعل ساحرًا بيّنًا سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلومًا من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يَدْعِي إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ ويبين له ببراهينه وبياناته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين لا تردهم عنه موعظة ولا يزجرهم بيان ولا برهان.

خصوصًا هؤلاء الظلمة القائمين بمقاولة الحق ليردوه ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يرذون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأفطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب - كراهمهم - كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [أي:]. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ موبخًا لهم على صنيعهم ومقرعًا لهم على أذيتهم وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لِمَ تُوَدُّونَنِي﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

والرسول من حقه الإكرام والإعظام والانتقاد^(١) بأوامره والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيف عن الصراط المستقيم الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصددهم ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يلبق بهم الخير ولا يصلحون إلا للشر.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفًا لهم، لا^(٢) لهم قصد في الهدى.

وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال^(٣) والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلًا منه بهم] كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَكْبَادَهُمْ فَأَصْغَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

(٦-٩) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَنَّهُ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن عناد بني إسرائيل المتقدمين الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر [وأيدني بالبراهين الظاهرة] ومما يدل على صدقي، كوني ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرايع السماوية.

(١) في ب: والقيام. (٢) في ب: ليس. (٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال. (٤) في ب: كسائر الأنبياء. (٥) في ب: أبلغ. (٦) كذا في ب، وفي أ: التي. (٧) في ب: وإظهار. (٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي لهذا قدرها؟ فقال: ﴿تُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله^(٣)، فلهذا قال: ﴿وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته.

وتنفقون ما تسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك ولو^(٤) كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها فإنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع وسعة الصدر وانسراحه.

وفي الآخرة الفوز^(٥) بثواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال:

﴿يَقَرُّ لَكُمْ دُؤُوبُكُمْ﴾ وهذا شامل للصغائر والكبائر فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر. ﴿وَيَدْخُلُكُمْ جَنَّتُ بَحْرٍ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات.

﴿وَسَسَكُنْكُمْ طَائِفَةٌ فِي جَنَّتِ عَلَيْنَا﴾ أي: جمعت كل طيب من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة.

حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي.

وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنة وتقر أعينهم به.

ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح،

(١) في ب: ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس. (٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنزاهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد. (٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله. (٤) في ب: وإن كان. (٥) في ب: والخير الأخروي بالفوز.

وصاروا بمنزلة من ينفخ عين الشمس بفيه^(١) ليطفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الدين الذي يدان به ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح وراحة الأبدان.

وترك نواحيه سلامة من الشر والفساد^(٢) فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكيراً ازداد به فرحاً وتبصراً.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان.

فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المتسبون إليه فإنهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهرها على أهل الأديان.

وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم.

ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

(١٠-١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرِ تُجْرِكُمْ مِّنْ عِنَابِ إِلَهِمِ تَوْفُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ يَقَرُّ لَكُمْ دُؤُوبُكُمْ وَيَدْخُلُكُمْ جَنَّتُ بَحْرٍ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَسَكُنْكُمْ طَائِفَةٌ فِي جَنَّتِ عَلَيْنَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ وَأَخْرَى يُحْيِيهَا نَصْرُ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَرٌّ الْمُؤْمِنِينَ ○ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَصْأَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ أَصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة وأجل مطلوب وأعلى مرغوب يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٢

سُورَةُ الصَّفِّ

وَذَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَى تَحَرُّقٍ نَجِيحٍ مِمَّنْ عَذَابِ آلِمْ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجْهَدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ
طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ
مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى
والحواريين.

﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد
المؤمنون الكافرين.

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قويناهم، ونصرناهم
عليهم. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم وقاهرين [لهم].

فأتمم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم
الله كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوكم.

تمت والله الحمد (٨).

فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما
أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده (١).

وتبارك الجليل الجميل الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها
من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة التي من جملتها أن الله لو أرى
الخلايق الجنة حين خلقها (٢) ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما
تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة
المشوب نعيمها بآلها وسرورها (٣) بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها لا
يخرجون منها أبداً، ولا ييغون عنها حولاً، ذلك الثواب
الجزيل والأجر الجميل، الفوز العظيم الذي لا فوز مثله،
فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَى
يُحِبُّونَهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي ﴿نَصْرٌ
مِّنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام ويحصل به الرزق
الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين.

وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد [إذا قام غيرهم
بالجهاد] (٤) فلم يؤسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل
قال: ﴿وَيُنْصِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل
على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في
سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة ما بين
كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعداها الله للمجاهدين
في سبيله» (٥).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [أي:]
بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على
إقامته (٦) تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده ونابذه، بالأبدان
والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق،
بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تَعَلَّمْ كتاب الله وستة رسوله، والحث
على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر].

ثم هيح الله المؤمنين بالافتداء بمن قبلهم من الصالحين
بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي:
قال لهم عارضاً ومنهضاً (٧) من يعاونني، ويقوم معي في
نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟.

فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى
عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من
الحواريين.

(١) في ب: أحد من خلقه. (٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة. (٣)
في ب: وفرحها. (٤) زيادة من هاشم ب. (٥) في ب: جاء بدلاً من
هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً
وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة) فغضب لها أبو سعيد الخدري - راوي
الحديث - فقال: أعدها علي يا رسول الله، فأعدها عليه ثم قال: (وأخرى
يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء
والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد
في سبيل الله) رواه مسلم. (٦) في ب: على تنفيذه. (٧) في ب: قال
لهم منها. (٨) في ب: تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الجمعة

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي: يسبح لله، وينقاد لأمره، ويتألهه، ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه وتحت تدبيره.

﴿الْقُدُّوسِ﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿الْعَزِيزِ﴾ القاهر للأشياء كلها ﴿الْحَكِيمِ﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة، مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(٢-٤) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالِ مُبِينِينَ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة، من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب.

فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة، أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قوتهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء.

فبعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصدقه.

وأُنزل عليه كتابه ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين.

﴿وَزَكِّيهِمْ﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: علم القرآن^(١) وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين وآخرين.

فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمّاً. اهتموا بأنفسهم، وهدوا غيرهم فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين^(٢)، فلله عليهم، ببعثه هذا الرسول

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

٥٥٣

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالِ مُبِينِينَ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَايَأُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعِمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلَمَوْا الَّذِي يَقُولُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُمْ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿أكمل نعمة، وأجل منحة.

وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم، أي: فيمن باشر^(٣) دعوة الرسول.

ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل فكلا المعنيين صحيح.

فإن الذين بعث الله فيهم رسوله، وشاهدوه، وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل، ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدى، بل ابتعث فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية.

(١) في ب: علم الكتاب. (٢) في ب: وقادة المتقين. (٣) كذا في ب، وفي أ: باشروا.

أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيَّدِيهِمْ ﴿٥﴾ من الذنوب والمعاصي، التي يستوحشون من الموت من أجلها.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء.

هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون منه [غاية الفرار] فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة، إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

(٩-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، والمبادرة إليها من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العُدو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة وامضوا إليها.

فإن ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتقويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من أكد الفروض.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من أثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، ولهذا الأمر بترك البيع، مؤقت مدة الصلاة.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة، مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: في حال قيامكم وقعودكم، وعلى جنوبيكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، أي: خرجوا من المسجد، حرصًا على ذلك اللهو، و[تلك] التجارة، وتركوا

(١) في ب: ويعملوا بها. (٢) في ب: علماء أهل الكتاب. (٣) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.

(٥-٨) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيَّدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ أَلْهَىٰ بِفِرْثُونٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكُمْ بِكُمْ ثُمَّ تَرْدُونَ إِلَى الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ لما ذكر الله منته على هذه الأمة الذين ابتعث فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد.

وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون، والأخبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بها فيها^(١) وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بها حملوا به أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟.

فهذا مثل علماء اليهود^(٢) الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبطارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه، من التوراة إلا الخيبة والخسران، وإقامة الحججة عليه؟. فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا.

ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم، أنكم على الحق، وأولياء الله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلًا على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم^(٣) إن لم يتمنوه.

ولما لم يقع منهم، مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَمَنَّوْهُ﴾

الخير ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ تخطب الناس، وذلك [في] يوم الجمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها، وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب.

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير، وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ مِنَ الْجَزَاءِ﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق.

فإن الله خير الرازقين فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب .

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة، فريضتان^(١) يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه.

فدل ذلك على أن كل أمر، ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين^(٢) يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها : أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله ، وقت دواعي النفس لحضور الله [والتجارات] والشهوات أن يذكرها بما عند الله من الخيرات ، وما لمؤثر رضاه على هواه .

تم تفسير سورة الجمعة، والله الحمد والثناء. (٣)

تفسير سورة المنافقين^(٤)

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

سورة المنافقين ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا لَنْ نَبْهَدَكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَنْهَدُ الَّذِينَ الْمُتَنَفِقِينَ لِكُذُوبِهِمْ ﴿١﴾
 اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا فُطِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
 فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُ أَجْسَامُهُمْ
 وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِبُونَ كُلَّ
 صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخْذِرْهُمْ فَلَنهَمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا
 ﴿٤﴾

أَمَانُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَعَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ○ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ
عُجِيزًا أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمْ خُشْبٌ مُسَدَّدٌ ○
يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحَابَةٍ عَلَيْهِمْ هُوَ الْعُدُوُّ فَأَحْذَرْتُمْ فَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَقُولُوا ○
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأْ رُؤِسُهُمْ وَإِنْتَهُمْ
بِضْؤُنَ وَهُمْ مُنْكَرِبُونَ ○ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾ لما
قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز
صار أناس من أهلها، من الأوس والخزرج،
ظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، لبقى جاههم، وتحقن
مأواهم، وتسلم أموالهم.

فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾ على وجه الكذب: ﴿شَهِدْ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب

(١) في ب: فريضة. (٢) كذا في ب، وفي أ: الخطبة. (٣) في ب: بمن
 لله وعونه، والحمد لله رب العالمين. (٤) كذا في النسختين. (٥) في
 ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله.
 ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾
 في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.
 ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، أي: ترساً يتربسون بها، من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم.
 ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك، وأوهموا صدقهم.
 ﴿ذَلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿ب﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ﴾ لا يثبتون على الإيمان، بل ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبداً.
 ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَحَّجُوا بِجَسَامِهِمْ﴾ من روائها، ونصارتها.
 ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾، أي: من حسن منطقهم، تستلذ لاستماعه.
 فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة، والهدي الصالح شيء، ولهذا قال:
 ﴿كَاذِبٌ كُذِّبَ مُسْتَدَّةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم، وضعف قلوبهم والريب الذي في قلوبهم ^(١)، يخافون أن يطلع عليهم.
 فهولاء ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز، أهون من العدو، الذي لا يشعر به، وهو مخادع مكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين.
 ﴿فَاخَذَهُمْ فِتْنَتُهُمُ اللَّهُ أَفَّ يَوْفِكُونُ﴾، أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبين أدلته، واتضح معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم، إلا الخسار والشقاء.
 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع.

﴿لَوْأَ رَأَوْهُمْ﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول.
 ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق، بغضاً له ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه بغياً وعناداً.

فهذه حالهم، عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، ولهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَوْا وَهُمْ وَسَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَوْا وَهُمْ وَسَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 وَأَيُّهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَرَّائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
 يَقُولُونَ لَنْ رَجَعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ النَّجْمِ

فإنه سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم؛ وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

(٨٠٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَرَّائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه، واتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ فإنهم - بزعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله.

عَظِيمٌ ﴿١﴾.

وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات^(٥)، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة كبذل المال في جميع المصالح.

وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء^(٦) مما رزقهم الله الذي يسره لهم^(٧) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمقتال ذرة من الخير، ولهذا قال:

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِكَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ يَقُولُ﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لأتدارك ما فرطت فيه.

﴿فَأَصْدَقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب.

﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

ولهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَن يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتوم لها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين، والله الحمد.

تفسير سورة التغابن

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿سُبْحَنَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَسَفَكُمْ ۖ كَافِرٌ وَبَيْنَكُمْ مَوْتٌ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصُورُهُمْ أَحْسَنُ صُورَةٍ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ هذه الآيات

(١) في ب: بالحقائق. (٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم. (٣) في ب: سَمْنٌ كَلْبٌ. (٤) في ب: ومن اتبعه. (٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة. (٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء. (٧) في ب: مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه.

ولهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون، الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور^(١).

ولهذا قال الله ردًا لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فيؤتي الرزق من يشاء، ويمتنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء.

﴿وَلَكِنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم. ﴿يَقُولُونَ لَن رَجَعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام، كدر الخواطر، ظهر حيثئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم^(٢).

وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: (عَدَّ^(٣) كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ).

وقال: ﴿لَن رَجَعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين، الأعزون، وأن رسول الله ومن معه^(٤) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق.

فلهذا قال [تعالى]: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم الأعرء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار، [هم] الأذلاء.

﴿وَلَكِنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [ذلك]، فلذلك زعموا أنهم الأعرء، اغترارًا بما هم عليه من الباطل.

ثم قال تعالى:

(٩-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۖ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ وَلَن يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الريح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَمَلْ ذَلِكَ﴾، أي: يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ

يَتَذَكَّرُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِرُ
يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين
والآخرين، ويفقه موقفًا هائلًا عظيمًا، وبينهم بما عملوا.
فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام
إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات،
المشتملة على جميع اللذات والشهوات.

ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل لهم والغم،
والحزن والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم،
وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعْيِ﴾.
أي: يظهر فيه التغابن، والتفاوت بين الخلائق، ويغيب
المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،
وأنهم هم الخاسرون، فكانه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح
والشقاء والنعيم والعذاب؟.

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [أي:]
إيمانًا تامًا، شاملًا لجميع ما أمر الله بالإيمان به.
﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله
وحقوق عباده.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فيها ما
تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه
القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾.
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفروا [بها] من غير
مستند شرعي ولا عقلي.

بل جاءتهم الأدلة والبيّنات، فكذبوا بها وعاندوا، ما دلت
عليه.
﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِرُ﴾ لأنها
جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

(١١-١٣) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ
بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ لِسَانَهُ لِلْحَقِّ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَوْرَ الصُّلُوفِ﴾
فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ○ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ
مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهذا عام لجميع المصائب، في النفس،
والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم.

فجميع ما أصاب العباد، فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك
علم الله [تعالى] وجري به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته
حكيمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه

(١) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا. (٢) في ب: الإيمان به، وبرسوله،
ويكتابه. (٣) في ب: لأن النور. (٤) في ب: النواهي.

فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها ﴿فَكْفُرُوا﴾ بالله
﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله.
﴿وَأَسْتَفْتَى اللَّهَ﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم
شيئًا.

﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ أي: هو الغني، الذي له الغنى التام
المطلق من جميع الوجوه. الحميد في أقواله وأفعاله
وأوصافه.

(٧) ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنِيَ عَنْكَ الْإِسْلَامُ وَلَنْ يُغْنِيَ عَنْكَ الْإِسْلَامُ عَنْهُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين،
وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم، ولا هدى ولا
كتاب منير.

فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم
بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق.
﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيرًا بل متعذرًا،
بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت^(١) على إحياء
ميت [واحد] ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى فإنه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون.
قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بَنُطُورُونَ﴾.
(٨) ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رَاسِلِينَ وَسُوْلُوهُ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم]
موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء،
وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه^(٢).

وسماه الله نورًا، فإن النور^(٣) ضد الظلمة، وما في الكتاب
الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى
بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل
البهيم.

وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم، ضررها أكثر
من نفعها، وشرها أكثر من خيرها.

بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل.
والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين
الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال
الأوامر، واجتناب المناهي^(٤).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، الصالحة
والسيئة.

(٩، ١٠) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْخَلْقَ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعْيِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل.

﴿وَكَلَّ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: فليعتمدوا^(٨) عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به.

فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك^(٩) إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويتق به في كفايته الأمر، الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل^(١٠).

(١٥، ١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذا وصفه^(١١)، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد.

فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة، الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي^(١٢)، ورغبتهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية.

ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال:

﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأن الجزء من جنس العمل. فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون، وينفعهم، نال محبة الله، ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

(١) في ب: ممن. (٢) كذا في ب، وفي أ: عندها. (٣) في ب: من الأجر العظيم. (٤) في ب: وهو. (٥) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله. (٦) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين. (٧) في ب: بلاغاً بيناً واضحاً فتقوم. (٨) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا. (٩) كذا في ب، وفي أ: لذلك. (١٠) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً. (١١) في ب: هذه صفته. (١٢) في ب: التي فيها محذور شرعي.

في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟.

فإن قام بها فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة.

فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن^(١) لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها^(٢) والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب^(٣) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخلد، ويكله الله إلى نفسه.

وإذا وُكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر.

هذا ما يتعلق بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، في مقام المصائب الخاص.

وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن، أي: الإيمان بالمأمور به، من^(٤) الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه، بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد، أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله^(٥)، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار أن المؤمنين يثبتهم الله^(٦) في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، وبقينه عند ورود كل فتنة، فقال:

﴿ثَبَّتِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ﴾، أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار السعادة، وعنوان الفلاح.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ [أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْأَثِيمُ﴾، أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح، وتقوم به^(٧) عليكم الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء.

(١٦-١٨) ﴿فَأَنقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تَقْرُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر.

وقوله: ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك، وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في جميع أموركم.

﴿وَأَنفِقُوا﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله في مخالفة ذلك.

ولكن ثم آفة تمنع كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم أدرکوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه.

فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قيلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشحة لشرع الله، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها والبصيرة، بأنه مرضي لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إِن تَقْرُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يُضْعِفْهُ لَكُمْ﴾، النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بسبب الإنفاق

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِيرِ ﴿١٦﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ فَأَنقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ إِن تَقْرُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ حليم لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر.

ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء^(٢) بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، ولا يمانع الذي قهر كل الأشياء.

(١) في ب: وقيد. (٢) في ب: وأنواع التكاليف.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.
تم تفسير سورة التغابن [ولله الحمد].

تفسير سورة الطلاق

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يَفْحَشُ قُبْنَةً وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ أَنْتُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى - مخاطباً لنبية ﷺ وللمؤمنين -:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، أي: أردتم طلاقهن التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق، من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها، وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة.

بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بذلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك. وكذلك لو طلقها في طهر وطى فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتيين، ولا [ي]تضح بأي عدة تعد؟.

وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر، إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً. فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، [وحقها في النفقة ونحوها].

فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها.

ولهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج]^(١) وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات.

ف﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة، بل يلزم من

سُورَةُ الطَّلَاقِ

٥٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يَفْحَشُ قُبْنَةً وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ أَنْتُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

بيوتهن^(٢) الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، أي: لا يجوز لهن الخروج منها.

أما النهي عن إخراجها، فلأن^(٣) المسكن يجب على الزوج للزوجة^(٤)، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها فلما في خروجها، من إضاعة حق الزوج، وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت، والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾، أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخطورها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها^(٥)، ولهذا في المعتدة الرجعية.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: بل تلزم بيتها. (٣) كذا في ب، وفي أ: فإن. (٤) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه. (٥) في ب: عليها.

تعالى بتقواه وأن^(٣) من اتقاه في الطلاق وغيره فإن الله يجعل له فرجاً ومخرجاً.

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلاقاً واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ^(٤) فيه، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة، يتمكن فيها من مراجعة النكاح^(٥)، إذا ندم على الطلاق.

والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يشيئه في الدنيا والآخرة. ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة.

وكما أن من اتقى الله، جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والأصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها، والخروج من تبعتها.

واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة، لا يمكنه استدراكها^(٦)، والخروج منها.

وقوله: ﴿وَيَرْفَعُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه، ولا يشعر به.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي، [العزيز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء.

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له، فلهاذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ أَمْرَهُ﴾، أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره. ولكنه ﴿يَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾، أي: وقتاً ومقداراً لا يتعداه، ولا يقصر عنه.

(٥، ٤) ﴿وَالَّذِي يَسْنُ مِنَ الْمَجِصِ مَنْ يَسْأَلُكَ إِنْ أَرْبَبْتَ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأَوَّلَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به، يكون لعدة النساء، ذكر تعالى

وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [أي: التي حدها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها، والوقوف معها.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها.

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة.

﴿لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة.

فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها، لانقضاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التريص، يعلم براءة رحمها من زواجها.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾، أي: إذا قارب انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفرار.

﴿فَأَنْكِهَنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: على وجه المعاشرة [الحسنة] والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: فارقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

﴿وَأَشْهِدَا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما، ما يلزمه بيانه.

﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهداء ﴿الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، أي: اثنا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص.

واقصدوا بإقامتها، وجه الله وحده^(١)، ولا تراعوا بها قريباً لقربته، ولا صاحباً لمحبهته.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يُعْظَى بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك^(٢) أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة، ما تمكن منها.

بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله، لعدم الموجب لذلك. ولما كان الطلاق قد يقع في الضيق والكرب والغم، أمر

(١) في ب: وجه الله تعالى. (٢) في ب: فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه. (٣) في ب: ووعد من. (٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه. (٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح. (٦) في ب: لا يتمكن من استدراكها.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

٥٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نَفْضَاؤُهُنَّ لِلْضَيْقِ
 عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَلْيَفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
 فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتِمُّوا بَيْتَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ
 تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ٦ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ
 وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا
 إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ٧ وَكَاتِبٍ مِنْ قَرْبَةٍ
 عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا أَوْعَدْنَهَا
 عَذَابًا لَكِرًا ٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا ٩
 أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا
 قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ١٠ رَسُولًا يُلَوِّعُ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
 لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِرِزْقِهِ ١١ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
 سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ١٢

﴿وَاتِمُّوا بَيْتَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه (٤) من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى.

ومما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصًا إذا ولد لهما (٥) ولد، في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير (٦).

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة (٧)، وينصح على ذلك. ﴿وَأَنْ تَعَاَسَرْتُمْ﴾ بأن لم تتفقوا (٨) على إرضاعها لولدها.

(١) في ب: أو البالغات. (٢) في ب: إساكنهن. (٣) في ب: إلى وضع الحمل. (٤) في ب: فيها. (٥) في ب: بينهما. (٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقرؤا بالبغض، فيتأثر من ذلك شيء كثير. (٧) في ب: والمنازعة. (٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.

العدة، فقال: ﴿وَأَلَّتِي بَيِّنَ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يُرَج رجوعه فإن عدتها ﴿ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ جعل لكل شهر، مقابلة حيضة. ﴿وَأَلَّتِي لَمْ يَحْضْ﴾، أي: الصغار اللاتي لم يأتهن الحيض بعد، والبالغات (١)، اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر.

وأما اللاتي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَضَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

[وقوله: ﴿وَأُولَاتٍ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾، أي: عدتهن ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها.

﴿وَمَنْ بَقِيَ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، أي: من اتقى الله تعالى، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير.

﴿ذَلِكَ﴾ [أي: الحكم الذي بينه الله لكم ﴿أَمَرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ لتمشوا عليه، وتأتوا] وتقوموا به، وتعظموه.

﴿وَمَنْ بَقِيَ اللَّهُ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾، أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

(٧، ٦) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نَفْضَاؤُهُنَّ لِلْضَيْقِ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَلْيَفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتِمُّوا بَيْتَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ٦ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن وقدر الإسكان (٢) بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وُجْدِ الزوج وعسره.

﴿وَلَا نَفْضَاؤُهُنَّ لِلْضَيْقِ عَلَيْهِنَّ﴾، أي: لا تضاروهن، عند سكنانهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت، قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن.

وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكنانهن، على وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف.

﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿أُولَاتٍ حَمْلٍ فَلْيَفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائنا، ولها ولحملها، إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن (٣)، فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن، أو لا.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل.

أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة.

فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به].

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا﴾ [أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [ثم] أخبر [تعالى] أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهما، وأنزل الأمر وهو: الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية، التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء.

فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة، وأسمائه الحسنى، وعبدوه، وأحبوه، وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته.

فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

[ثم تفسيرها والحمد لله].

تفسير سورة التحريم

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا بَيَّنَّاتُ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتَيْنَاكَ هَذَا قَالَ تَبَايَأُ الْعَالَمُ الْخَبِيرُ ۚ إِنَّ نَسْوَاءَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُنَّ وَإِنْ تَغْلِبْهَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) في ب: فترضع له أخرى. (٢) في ب: لا خروج له منه. (٣) في ب: يتمكن. (٤) في ب: تغن عنهم.

فلترضع^(١) ﴿لَهُ أُخْرَىٰ﴾ غيرها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

ولهذا حيث كان الولد يقبل نُدِّي غير أمه، فإن لم يقبل إلا نُدِّي أمه، تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجره المثل، إن لم يتفقا على مسمى.

ولهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه^(٢)، عَيَّنَّ تعالى على وليه النفقة.

فلما ولد، وكان يمكن^(٣) أن يتقوت من أمه، ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه، كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته.

ثم قدر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لِيُتَفَقَّ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ﴾، أي: لينفق الغني من غناه، فلا يتفق نفقة الفقراء.

﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾، أي: ضيق عليه ﴿فَلْيُتَفَقَّ مِمَّا ءَاتَتْهُ﴾ من الرزق.

﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلًّا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

(٨-١١) ﴿وَالَّذِينَ مِن قُرْبَىٰ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ذِكْرًا ۖ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ۖ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوِيلُ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرْجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النَّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يَدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسول، أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم^(٤) شيئاً، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة.

ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوِيلُ الْأَلْبَابِ﴾، أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين. ثم ذكر عباده المؤمنين، بما أنزل عليهم من كتابه، الذي

وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَقَكُمْ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مُّسَلِّمَتٍ مُّؤْمِنَتٍ قَلِيلٌ يَّكْثُرٌ عِدَّتٌ سَعَتْ ثِيَابُ وَاتِّكَارًا ۝
هَذَا عتاب من الله لنبية محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سريته «مارية» أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة.

فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى امتك. ﴿تَبْنِي﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(١) أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة^(٢) بعد الحنث.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا﴾ إلى أن قال: ﴿كَفَرْتُمْ بِهٖ ۖ إِطْعَامٌ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةٌ بِأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

فكل من حرم حلالاً عليه: من طعام أو شراب، أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث، أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾، أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يتدفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرا ذممكم.

﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به.

فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله]: ﴿وَإِذَا أَسْرَ الْأَتَىٰ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنها. وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فَعَرَفَهَا ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه كرمًا منه ﷺ، وحلمًا.

ف ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَبَاكَ هَذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَ الْأَتَىٰ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَ هَاهُ، قَالَتْ مَنْ أَبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبُوًّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَجَبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَقَكُمْ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مُّسَلِّمَتٍ مُّؤْمِنَتٍ قَلِيلٌ يَّكْثُرٌ عِدَّتٌ سَعَتْ ثِيَابُ وَاتِّكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجَزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

منا؟.

﴿قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

[وقوله]: ﴿إِنْ نُبُوًّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يجبه.

فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما^(٣) قد صغت، أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ، واحترامه، وأن لا يشفقن عليه.

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾، أي: تعاونتا^(٤) على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَجَبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان

(١) في ب: فقال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين. (٢) في ب: وما به تكفر. (٣) في ب: أن قلوبكما. (٤) في ب: تعاونتا.

هؤلاء أعوانه^(١)، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخدول^(٢).

وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة] وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.

ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ﴾، أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق^(٣) عليه الأمر، ولم يكن مضطراً ليكن، فإنه سيلقى^(٤)، ويبدله الله أزواجاً خيراً منك، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده.

فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تَتَّبِعْتِ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله. ﴿تَتَّبِعْتِ وَأَتَّكِرَا﴾، أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﷻ فيما يحب.

فلما سمعن - رضي الله عنهن - هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه، دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: يا من آمن بالله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

ف ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله، ويوجب العذاب.

ووقاية الأهل [والأولاد] بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله.

فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما

يدخل^(٥) تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال:

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾.

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ﴾، أي: غليظة أخلاقهم، عظيم^(٦) انتهارهم يفزعون بأصواتهم ويخيفون^(٧) بمرأهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون^(٨) فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب^(٩)، وأوجب عليهم شدة العقاب. ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

(٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا نُحَرِّجُكُم مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ﴾ [أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال. وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيِّنَاتٍ أَيْدِيهِمْ وَيَآمِنُهُمْ بِقَوْلِ رَبِّنا أَتَمَّ لَنَا نُورُنَا وَأَغْفِرَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ فَعِزٌّ﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيايته، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طففت الأنوار التي تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم^(١٠) لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما^(١١) معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه^(١٢)، والقرب منه،

(١) في ب: أنصاره. (٢) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخدول. (٣) في ب: لا يضيق. (٤) في ب: سيجد. (٥) في ب: وفيمن يدخل. (٦) في ب: شديد. (٧) في ب: ويزعجون. (٨) في ب: وينفذون. (٩) في ب: بالعذاب. (١٠) في ب: يتم. (١١) في ب: بما. (١٢) في ب: إلا وجهه الله.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الْفُتُورُ﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأتابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَاتِرٍ طِبَاقًا﴾، أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾، أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر، والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، قال:

﴿فَاتَّجِعِ الْبَصَرَ﴾، أي: أعذه إليها، ناظرًا معتبرًا ﴿هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾، أي: نقص واختلال.

﴿ثُمَّ أَتَّجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿يَقْلَبَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، أي: عاجزًا عن أن يرى خللاً أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسننها، فقال:

(١٠-٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وللذين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ ﴿إِذَا الْفُلُؤُا فِيهَا سَمْعُؤَا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: ولقد جملنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم.

﴿بِمَصَابِيحَ﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلمًا، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء، [وجمالاً] ونورًا، وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن

ابن مريم [عليه السلام] الرسول الكريم والسيد العظيم. ﴿وَصَدَقَتْ يَكْمَلَتِ رَبِّهَا وَكُنْهِهَ﴾، وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية.

والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال]:

﴿وَكُنْتُ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، أي: المطيعين لله المداومين على طاعته^(١) بخشية وخشوع.

ولهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها - رضي الله عنها - صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل.

تمت والله الحمد.

تفسير سورة الملك

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿بَنَزَلَ الَّذِي يَدُهُ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَاتِرٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَآتِجِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ ثُمَّ أَتِجِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿بَنَزَلَ الَّذِي يَدُهُ الْمُلْكُ﴾، أي: تعاطم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه.

من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدريّة، والأحكام الدينيّة، التابعة لحكمته.

ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

و ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أخلصه وأصوبه، فإن^(٢) الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن اتقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

(١) في ب: أي: المداومين على طاعة الله. (٢) في ب: وذلك أن.

الكواكب فيها.

﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، أي: المصابيح ﴿رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء.

فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين اخبار الأرض، فهذه الشهب، التي ترمى من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فهذا قال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُومُونَ الصَّيْرُ﴾ التي يهان به أهله^(١)، غاية الهوان.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سَمِعُوا لَهَا شَيْعًا﴾، أي: صوتًا عاليًا فظيعًا.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا، وتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟!!

ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كُلَّمَا أُنْفِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟﴾ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله.

ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالًا كبيرًا، فأثّر عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟.

﴿وَقَالُوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل والعقل

الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع [لهم] ولا عقل.

وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علمًا ومعرفة وعملاً.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر.

وهم - في الإيمان - بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من

سُورَةُ الْمَلِكِ

٥٦٢

سُورَةُ الْمَلِكِ

سُورَةُ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَقْوٍ فَارْجِعْ أَبْصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن قُطُوبٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعْ أَبْصَرَ كَرَرًا يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُومُونَ الصَّيْرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَيْعًا وَهِيَ تَقُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بَيْنَهُم فُجُورًا فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم:

(١١) ﴿فَاعْرِضْ بَيْنَهُمْ فُجُورًا فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: بُعدًا لهم وخسارة وشقاء.

فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفتدنتهم!

(١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار^(٢)، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به^(٣).

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم

(١) في ب: التي يهان بها أهلها. (٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء. (٣) في ب: ولا يقصرون عما أمرهم به.

شرها، ووقاهم عذاب الجحيم.

﴿و﴾ لهم ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم في الجنة من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات [المتوصلات]، والمستهيات والقصور [والمنازل] العاليات، والخور الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن الذي يحله الله على أهل الجنان^(١).

(١٣، ١٤) ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟ هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه، فقال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾، أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية.

ف﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟! ثم قال - مستدلًا بدليل عقلي على علمه -: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، فمن خلق الخلق وأتقنه، وأحسنه، كيف لا يعلمه؟!.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبائيا [والخفايا، والغيوب] وهو الذي ﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخَفَى﴾.

ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبدته ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكارة، ليتوصل بها، إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة.

(١٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض، وذلها؛ لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء، وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأفطار النائية، والبلدان الشاسعة.

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب. ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحانًا، وبلغت يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

(١٦-١٨) ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ؟ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ؟ هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديبه، وعصيانه الموجب للنكال، وحلول العقوبة، فقال: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وهو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٦٣

سُورَةُ الْمُلِكِ

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جَدُّ لَكُمْ بِصُرُوفِ دُونَ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ الْآفِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

الله تعالى، العالي على خلقه.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب، حتى تلتفكم وتهلككم^(٢).

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، أي: عذابًا من السماء، يحصبكم، ويتنقم الله منكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾، أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

فلا تحسبوا أن أمنتكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان^(٣) أو قصر.

فإن من قبلكم كذبوا كما كذبتهم، فأهلكهم الله تعالى، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف

(١) في ب: الذي يحله على ساكني الجنان. (٢) في ب: حتى تهلكوا وتلفوا. (٣) في ب: الأمد.

تُحْشَرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ يقول تعالى - مبيناً أنه المعبود وحده، وداعياً عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة - : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾، أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظاهر.

ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود، بالسمع والأبصار والأفئدة التي هي أنفع أعضاء البدن^(٢)، وأكمل القوى الجسمية.

ولكنه^(٣) مع هذا الإناعام ﴿فَلَيْلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بشكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تنتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة.

ولكن هذا الوعد بالجزاء، ينكره هؤلاء المعاندون ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تكذيباً: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، جعلوا علامة صدقهم، أن يخبروا^(٤) بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد.

فإنما العلم عند الله لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر، وبين الإخبار بوقته، فإن الصدق يعرف بأدله.

وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته، ما لا يبقى معه أدنى شك، لمن ألقى السمع وهو شهيد.

(٢٧-٣٠) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ قَوْلُنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا، فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾، أي: قريباً، ساءهم ذلك، وأفظعهم، وقلقل أفئدتهم فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

فالיום رأيتموه عياناً، وانجلي لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب، ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

ولما كان المكذبون للرسول ﷺ، [الذين] يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول

(١) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها. (٢) في ب: وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن. (٣) في ب: ولكنكم. (٤) في ب: أن يخبروهم.

فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه، بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن^(١) في حالة مستعدة للطيران.

فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُبْصِرُونَ﴾، فهو المدبر لعباده، بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

(٢٠، ٢١) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾، أي: ينصرمكم، إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصرمكم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد، لم ينفعوه مثقال ذرة، على أيّ عدو كان.

فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفاهة.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾، أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرزاق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة.

ولكن الكافرون ﴿لَجُّوا﴾ أي: استمروا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾، أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿وَنُفُورٍ﴾، أي: شرود عن الحق.

(٢٢) ﴿أَمَّنْ يَبْنِئُ مِثْلًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَبْنِئُ سَوًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله، وجميع أحواله؟.

فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

(٢٣-٢٦) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

٥٦٤

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَاهُمْ مِنْ خَيْرِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَاسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿١٠﴾

سُورَةُ الْقَائِمَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَعْجُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْهُ وَابْصُرْ ﴿٥﴾ بِأَيِّتِكُمُ الْمَقْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْلِهِ ﴿١٠﴾ هَازِمٌ مَشَاءً بِنِعْمِهِ ﴿١١﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَشِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتِلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ أَيْتُنَا قَالَ أَسْطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

وذلك أن القلم، وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على براءة نبيه محمد ﷺ، مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون^(١) بنعمة ربه عليه، وإحسانه، حيث منَّ عليه بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، ولهذا هو السعادة في الدنيا. ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ أي: عظيماً، كما يفيد التكرير، ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر.

وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة.

ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عاليًا به، مُستَعْلِيًا بخلقك الذي منَّ الله عليك به. وحاصل خلقه العظيم ما فسرت به أم المؤمنين [عائشة رضي الله عنها] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»،

(١) في ب: إنكم. (٢) في ب: أميتكم. (٣) في ب: ثم تفسير سورة الملك، والحمد لله. (٤) في ب: عنه ذلك.

لهم: أنتم^(١) وإن حصلت لكم أمانيتكم^(٢)، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئاً، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتهم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟.

فإذا، تعبك وحرصكم على هلاكي غير مفيد ولا مُجْدٍ عنكم شيئاً، ومن قولهم: إنهم على هدى، والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقتلوا.

فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله، وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة.

ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا كانت هذه حال الرسول، وحال من اتبعه، وهي الحال التي تعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان [لهم] ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين.

ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصاً بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أي: غائراً ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم، وأشجاركم، وزروعكم؟.

وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدر أحد على ذلك، غير الله تعالى.

تمت والله الحمد^(٣).

تفسير سورة ن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ○ مَا أَنْتَ بِمَعْجُونٍ ○ فَسَبِّحْهُ وَابْصُرْ ○ بِأَيِّتِكُمُ الْمَقْتُونُ ○ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ○ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ○ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها [أنواع] العلوم، ويسطر بها المنشور والمنظوم.

وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ الْقَوْلَ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ لَكَ الْبَاطِلَ﴾ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمَهْجَرِ، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ [الآية] ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، و[الآيات] الحاثات على الخلق العظيم^(١)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا.

فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سألَه، لا يحرمه، ولا يرده خائباً.

وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم.

وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له، إلا أتم عشرة وأحسنها: فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ به بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال:

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّرْهُ وَبُحِّرْهُ﴾ يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ، وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس، [وشر الناس]^(٢) للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلواهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه المحاسب المجازي.

و﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْجَرِينَ﴾، وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية دون غيره.

(١٦-٨) ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكَذِبِينَ﴾ وَذُو لَو تَذْهَبُ فَيَذْهَبُونَ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ هَازِمٌ مَّشَاهِدٌ يَمِينٌ مِّنَّا لِلْحَرِّ مَعْتَدٌ أُتِيَ عِثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَمِعَهُ عَلَى الْفَرْطِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَنبِيهِ ﷺ: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكَذِبِينَ﴾ الذين كذبوك، وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرُونَ إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مُقَدِّمٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن

والتكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال:

﴿وَذُوَا﴾ أي: المشركون ﴿لَوْ تَذَهَبُ﴾ أي: توافقه على بعض ما هم عليه، إما بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه.

﴿يَذْهَبُونَ﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يصاده، وعيب ما يناقضه.

﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلْفٍ﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب.

ولا يكون كذاباً، إلا وهو ﴿مَّهِينٌ﴾، أي: خسيس النفس، ناقص الحكمة، ليس له همة^(٣) في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة.

﴿هَازِمٌ﴾ أي: كثير العيب [للناس] والطعن فيهم^(٤)، بالغية والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿سَمَاءٌ يَمِينٌ﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء.

﴿مِّنَّا لِلْحَرِّ مَعْتَدٌ﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿مُعْتَدٌ﴾ على الخلق في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض^(٥)، أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عِثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس، غير منقاد للحق. ﴿زَيْبٌ﴾ أي: دعي، ليس له أصل ولا [مادة] ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زمة، أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سىء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، بالغية والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين - كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله

(١) في ب: على كل خلق جميل. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: ليس له رغبة. (٤) كذا في ب، وفي أ: في الناس. (٥) في ب: يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

سورة النازعات

٥٦٥

سورة النازعات

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُومِ ﴿١٧﴾ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٨﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٩﴾ فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ ﴿٢١﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٣﴾ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٤﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٥﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَأَصْٰلُونَ ﴿٢٧﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْأَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا لَوْلَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٢﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَ لَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا لَنُؤْتِيهِنَّ مِن دُونِهِم جَنَّتٍ نَّعِيمٍ ﴿٣٥﴾ أَفَنَجْعَلُ لِلْمُؤْمِنِينَ كَالْمُخْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٨﴾ إِن لَّكُمْ فِيهِ لَمَذْهَبٌ لَّا تُخَبِّرُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا تُلَاقُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِن لَّكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٤٠﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤١﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صٰدِقِينَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٣﴾

من الحيرة والانزعاج: ﴿إِنَّا لَأَصْٰلُونَ﴾ [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها.

فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة.

ف﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم، وأحسنهم طريقة: ﴿أَلْأَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تزهدون الله عما لا يليق به، ومن ذلك ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استئثمت، فقلتم: «إن شاء الله» وجعلتم مشيئكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى.

ف﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم الذي لا يرفع.

ولكن لعل تسييحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قَالُوا﴾

(١) في ب: على الخرطوم. (٢) في ب: من حيث لا يعلمون. (٣) في ب: لها.

من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كله، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم تودع تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطومه^(١) في العذاب، ليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

(١٧-٣٣) ﴿إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ إلى آخر القصة. يقول تعالى: إِنَّا بَلَوْنَا هَٰؤُلَاءِ الْمَكِيدِينَ بِالْخَيْرِ، وأمهلتهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم، من حيث لا يشعرون^(٢).

فاغترارهم بذلك، نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم، وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثم مانع يمنعهم منها.

ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها، أي: يجذونها مصبحين.

ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

﴿فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِبُونَ﴾، فأبادها، وأتلفها ﴿فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ﴾، أي: كالليل المظلم، ذهب الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا، يقول بعضهم لبعض:

﴿اعْبُدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ ﴿فَأَنطَلَقُوا﴾ قاصدين له^(٣) ﴿وَهُمْ يَخْفَوْنَ﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾، أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين.

ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافته، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء.

﴿وَعَدُوا﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قَالُوا﴾

فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والالتقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْبِ﴾ وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام.

أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب في البحر، فافتزع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها، أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقع القرعة عليه ﴿وَالْقَمْعَةُ الْكُوْبُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

[وقوله: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا:

﴿وَلَا أَنْتَ تَذَكَّرُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَيْدٌ بِالْعَرَاءِ﴾، أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، ولكن الله^(١) تخمده برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال:

﴿فَاجْنِبْ رَبُّهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر.

﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم، ونياتهم [وأحوالهم].

فامثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم.

حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم، أي: يصيبوه^(٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحققهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلية، والله حافظه وناصره.

وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالًا بحسب ما توحى

٥٦٦

خَشِيعَةً أَنْصَرُّهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ

﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ هَذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ وَلَا تَذَكَّرُكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَيْدٌ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْخَاقَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَاقَةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَالِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

إليهم قلوبهم، فيقولون تارة: «مجنون»، وتارة: «ساحر»، وتارة: «شاعر».

قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: وما لهذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ○ ﴿مَا الْخَاقَةُ﴾ ○ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَاقَةُ﴾ ○ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ○ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ○ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَالِيَةٍ ○ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه. (٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبوهم.

كفرون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البيّنات، ما يتقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين.

﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُ﴾ أي: قرى قوم لوط، الجميع جاءوا ﴿بِالْحَاطِطَةِ﴾، أي: بالفعلة الطاغية، وهي ^(٥) الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش ^(٦) والفسوق.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا اسم جنس، أي: كل من هؤلاء كذب ^(٧) الرسول الذي أرسله الله إليهم.

فأخذ الله الجميع ﴿أَنذَةً رَّابِيَةً﴾، أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم.

ومن جملة أولئك قوم نوح أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجه] الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتنَّ الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿فِي الْبَارِيَةِ﴾، وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاهم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال:

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أي: الجارية، والمراد جنسها لكم ﴿تَذَكُّرًا﴾ أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به، واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكّر بأصله.

وقوله: ﴿وَتَبَيَّنَّا أَذُنَ وَعِيَةٍ﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها، وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلاة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله ^(٨).

(١٣-١٨) وقوله: ﴿إِذَا فُجِعَ فِي الْأُصُورِ نَفْعُهُ وَحِدَةً﴾ ○ وَحُلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكُّوا ذِكَّهُ وَحِدَةً ○ يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ○ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ○ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ○ يَوْمَئِذٍ تَرْضَوْنَ لَا تَخَفُ مِنْكُمْ خَافَةٌ ○ لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم، وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة.

فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك

فَرَكَّ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ غَحَلٍ خَاوِيَةٍ ○ فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ○ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبات الصدور.

فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كثره من قوله: ﴿الْحَاقَّةُ ○ مَا الْخَاقَةُ ○ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْخَاقَةُ ○ فَإِنَّ لَهَا شَأْنًا عَظِيمًا، وهولاً جسيماً، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل] ^(١).

ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما ^(٢) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته، وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرب الخلق بأحوالها.

وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعومهم إلى عبادة الله [وحده] فكذبوه، وكذبوا بما أخبر به ^(٣) من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل ^(٤).

﴿فَأَنَّا نُمَوِّدُ فُلْهَ الْكَوْكَبِ بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى، لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

﴿وَأَنَّا عَادٌ فَأُلْهِكُوا بِرِيحٍ صَرْسَرٍ﴾ أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف] ﴿عَاصِيَةٍ﴾ [أي: عنت على خزائنها، على قول كثير من المفسرين، أو عنت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: نحساً وشرّاً فظيعاً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم.

﴿فَرَكَّ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾، أي: هلكى موتى، ﴿كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ غَحَلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض.

﴿فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المقرر.

(٩-١٢) ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤَيَّدَاتُ بِلَحَاطِطَةٍ ○ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَلَاخَذَهُمْ أَذْنُ رَابِيَةٍ ○ إِنَّا لَمَّا طَعَا أَلْمَاءُ حَمَلْنَاكَ فِي الْبَارِيَةِ ○ لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذَكُّرًا وَتَبَيَّنَّا أَذُنَ وَعِيَةٍ﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطائغيتين: عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة،

(١) من هامش: أ. (٢) كذا في ب، وفي أ: ومما. (٣) في ب: وأنكروا ما أخبر به. (٤) في ب: العاجل. (٥) في ب: هو. (٦) في ب: المعاصي. (٧) في ب: كذبوا. (٨) في ب: وشكرهم بآياته.

أنه ينفخ إسرافيل ﴿فِي الصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة.

﴿نَفْخَةُ وَجْدَةٍ﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتْ دَكَّةً وَجْدَةً﴾ أي: فتنت الجبال، واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها.

وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل، أوهأها وأضعفها.

﴿وَاللَّكَّ﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿وَيُجَلَّ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ غَنِيَّةً﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم، بعدله وقسطه وفصله.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخَفْنَ مَكَرَ خَائِفَةٍ﴾ لا من أجسادكم وأجسادكم^(١)، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً عُراءَ غُرلاً، في أرض مستوية، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

(١٩-٢٤) ﴿فَأَنَّا مَن أَوْفَىٰ كُنُوبِهِ بِسَمِيعِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ۚ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَةَ ۚ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۚ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۚ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۚ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۚ وَهُؤُلَاءِ هُم أَهْلُ السَّعَادَةِ ۚ يُعْطَوْنَ كِتَابَهُمَ الَّتِي فِيهَا أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ بِأَيْمَانِهِمْ ۚ تَمَيِّزًا لَهُمْ ۚ وَتَنْوِيهًا بِشَأْنِهِمْ ۚ وَرَفَعًا لِّمَقَادِرِهِمْ ۚ

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومخبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هَٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ﴾، أي: دونكم كتابي، فاقراءوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.

والذي أوصليني إلى هذه الحال، ما مَنَّ الله به عليّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال:

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَةَ﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين.

سورة الحاقة

٥٦٧

سورة الحاقة

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿١﴾ فَعَصَوُا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَّابِيَةً ﴿٢﴾ إِنَّا لَنَالُمَطَاعًا لَّأَمَاءَ حَمَلَتْ كُفًى لِّلْبَارِيَةِ ﴿٣﴾ لَنَجْعَلَنَّهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيماً أَدْنَىٰ وَعِيَةٍ ﴿٤﴾ فَإِنَّا نَفْخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ﴿٥﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٧﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٨﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيُجَلَّ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ غَنِيَّةً ﴿٩﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كُنُوبَهُ بِسَمِيعِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴿١١﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَةَ ﴿١٢﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿١٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٤﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٥﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كُنُوبَهُ بِسَمِيعِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿١٧﴾ وَلَمْ أَدْر مَا حَسْبِيَةَ ﴿١٨﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿١٩﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٢٠﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٢١﴾ خَذُوهُ قُتْلُوهُ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لِمَحْجَمٍ صَلَواتُهُ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢٦﴾

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازل والقصور، عالية المحل.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة تناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين.

ويقال لهم إكراماً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من كل طعام لذيق، وشراب شهيق.

﴿هَنِيئًا﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر، ولا منغص، وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة^(٢): من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله،

(١) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم. (٢) هكذا في المخطوطتين، وقد جاءت جملة: (ترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال، فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك في الطبقات السابقة وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.

وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

(٢٥-٣٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأَيْتُ كَيْدِيَّةً ۖ وَلَرَأَيْتُ مَا جَسَّادِيَّةً ۖ يَلَيِّنِيهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةُ ۖ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ خُدُوهُ فَعَلُوهُ ۖ ثُمَّ لَجَّجِمِ صَلَوَهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ دَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَشْكِينِ ۖ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهْنًا حَمِيمٌ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشَلِينَ ۖ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۖ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الشَّقَاءِ ۖ يُعْطَوْنَ كِتَابَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ۖ﴾ بشمالهم، تمييزاً لهم، وخزياً، وعاراً، وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم، والغم، والخزي^(٢): ﴿يَلَيِّنِي لَرَأَيْتُ كَيْدِيَّةً﴾ لأنه يبشر بدخول النار، والخسارة الأبدية.

﴿وَلَرَأَيْتُ مَا جَسَّادِيَّةً﴾ أي: ليتني كنت نسياً منسياً، ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال:

﴿يَلَيِّنِيهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ﴾، أي: يا ليت موتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانته، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله^(٣)، فيقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةُ﴾، أي: ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾، أي: ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة ولا العُدُدُ الخطيرة^(٤)، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفانت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بذله الهموم والغموم والأتراح.

فحينئذ يؤمر بعذابه، فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُدُوهُ فَعَلُوهُ﴾ أي: اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه.

﴿ثُمَّ لَجَّجِمِ صَلَوَهُ﴾ أي: قلبوه على جمرها ولهبها.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ دَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره، وتخرج من فمه، ويعلق فيها. فلا يزال يعذب بهذا العذاب الفظيع، فيش العذاب والعقاب، وواحدة من له التوبيخ والعتاب، فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل:

﴿إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ بأن كان كافراً بربه، معانداً لرسله، راداً ما جاءه به من الحق.

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَشْكِينِ﴾ أي: ليس في قلبه رحمة، يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه.

وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله،

الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهْنًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿حَمِيمٌ﴾ أي: قريب أو صديق يشفع له؛ لينجو من عذاب الله، أو يفوز بشواب الله ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

وليس له طعام ﴿إِلَّا مِنْ غَشَلِينَ﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، وتتن الريح، وقبح الطعم ومرارته.

لا يأكل هذا الطعام اللذيم ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلخوا سبل الجحيم^(٥)، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

(٣٨-٥٢) ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُشِّرُونَ ۖ وَمَا لَا بُشْرُونَ ۖ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۖ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ ۖ نَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالِينَ ۖ وَلَوْ قَوْلُ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ فَمَا مَكَرَ مِنْ أَمِدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ ۖ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُنْفِقِينَ ۖ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مَكْرَهُ مُكَذِّبِينَ ۖ وَإِنَّهُ لَكَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۖ فَسَجَّ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء، وما لا يبصرونه.

فدخل في ذلك كل الخلق، بل يدخل^(٦) في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى.

ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك، عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا، لعلما ما ينفعهم ويضرهم.

ومن ذلك أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمراً مثل الشمس، يدلهم على أنه رسول الله حقاً، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول البشر^(٧)، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده. وأيضاً، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته.

فإنه لو تقول عليه^(٨) وافترى ﴿بَعْضَ الْأَقْوِيلِ﴾ الكاذبة،

(١) في ب: كتبهم المشتبهة على أعمالهم السيئة. (٢) في ب: الحزن. (٣) في ب: ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب. (٤) في ب: فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العدد ولا العدد. (٥) في ب: وسلخوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم. (٦) في ب: بل دخل. (٧) في ب: قولاً للبشر. (٨) في ب: علينا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٧) ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ○ ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ ○ ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ○ ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ○ ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ ○ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ○ ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ ○ يقول تعالى مبينًا لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعتًا وتعجيزًا:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾، أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ○ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لا استحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ ○ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: ليس لهذا العذاب - الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين - أحد يدفعه قبل نزوله،

﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ○ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْأَوْتِينَ، وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع مات ^(١) منه الإنسان.

فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلا - تقول على الله، لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير.

فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته.

وقوله: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ أي: لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لَلْمُكَذِّبِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكروهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهيدين.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ به، وهذا فيه تهديد، ووعد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم، بالعقوبة البليغة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾، أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل، ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقُدِّسه بذكر أوصاف جلاله، وجماله، وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، على كماله وأفضاله وعدله.

أو يرفعه بعد نزوله.

فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يُظهرُ لعباده في يوم القيامة، من عظمتهم وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملأك والأرواح، صاعدة ونازلة بالتدابير الإلهية، والشئون في الخليقة^(١).

في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرًا جميلًا، لا تَصْغُرْ فيه ولا ملل، بل استمِرَّ على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيرًا كثيرًا.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا﴾ الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب، أي: إن حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشقوة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور. والله يراه قريبًا، لأنه رفيق حلیم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

(١٨-١٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمَجْزِمْ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَفْسِهِ وَصَنْجِيهِ وَأَخِيهِ وَفَصْلَتِهِ الَّتِي تُتَوَى وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلَّا إِنَّا لَطَائِفُ نَزَاجَةٍ لِلشَّوْى تَدْعُوا مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

أي: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة ف﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباءً متثورًا، فتضمحل.

فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبء الضعيف، الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟.

أليس حقيقًا أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل

وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين^(١)، فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة^(٢).

فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمتهم، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولا تسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمتهم ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال:

﴿ذِي الْعَمَاجِ ۝ تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: ذو العلو والجلال، والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة، بما دبرها^(٣) على تدبيره، وتعرج إليه الروح.

وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة.

فأما الأبرار، فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتُحْيِي ربها وتُسَلِّم عليه، وتَحْطِي بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه النشاء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح^(٤)، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة، وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد، مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملائكة الأعلى.

فهذا المُلْك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العَلِيُّ الأعلى.

فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه^(٥)، ما معهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فَبُؤْسًا لأقوام جهلوا عظمتهم، ولم يقدره حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان.

وسبحان الحلیم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]،

(١) في ب: المكذبين. (٢) في ب: وما أن يدخر لهم في الآخرة. (٣)

في ب: بما جعلها. (٤) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٥) في ب: وإحسانه. (٦) في ب: والشؤون الربانية.

أحد؟ ولهذا قال:

﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيًّا حَمِيمًا﴾ أي: يشاهد الحميم - وهو القريب - حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومحببتهم، ولا يهمله إلا نفسه.

﴿يُودُّ الْمُجْرِمَ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنِهِ﴾ وصحبته، أي: زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ وفصيلته، أي: قرابته ﴿أَلَيْ تَتُوبُ﴾ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر، ويعين بعضها بعضاً.

ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفندي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم ينجي له لم ينفعه ذلك.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون^(١)، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّمَا لَطَىٰ زُرَّاعَةٌ لِلشَّوَىٰ﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها^(٢).

﴿تَدْعُوا إِلَيْهَا﴾ من أدبر وتوكل وجمع فأوعى، أي: أدبر عن اتباع الحق، وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

(١٩-٣٥) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إذا مسه الشر جُرَّوعًا وإذا مسه الخير مَنُوعًا. ﴿إِلَّا الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين هم على صلاتهم دَائِمُونَ. ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ للَسَّائِلِ وَالْمَعْرُومِ. ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّوتَ الَّذِينَ﴾ والذين هم من عذاب ربهم مُشْفِقُونَ. ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ والذين هم لفرؤجهم حَافِظُونَ. ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فمن ابتغى ذلك فأولئك هم العَادُونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ والذين هم يشهدون قَائِمُونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أولئك في جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ. وهذا الوصف للإنسان من حيث هو، وصف طبيعته الأصلية، أنه هُلُوع.

وفسر الهلوع بأنه: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرَّوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له: من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

﴿إِلَّا الْمُسْلِمِينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا مسهم الخير، شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا

٥٦٩

يُبْصِرُونَهُمْ يُودُّ الْمَجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنِهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ زُرَّاعَةٌ لِلشَّوَىٰ ﴿١٥﴾ تَدْعُوا مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَكَّلْ وَجْهَ قَاوَعَىٰ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٧﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرَّوعًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٩﴾ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٢﴾ لِلَسَّائِلِ وَالْمَعْرُومِ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّوتَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣١﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٢﴾ فَاَلَّذِينَ كَفَرُوا فَبِأَنفُسِكُمْ هُمْ مَطْعِينَ ﴿٣٣﴾ عَنِ الْمِيمِينَ وَعَنِ الشَّامِلِ عِزِينَ ﴿٣٤﴾ أَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٥﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

وقوله [في وصفهم]: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها. وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ من زكاة وصدقة ﴿لِلَسَّائِلِ﴾ الذي يتعرض للسؤال ﴿وَالْمَعْرُومِ﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يفتن له فيصدق عليه.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّوتَ الَّذِينَ﴾ أي: يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للآخرة ويسعون لها سعيها، والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسول، وبما جاءوا به من الكتب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقرّبهم من عذاب الله.

(١) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك. (٢) في ب: أي: النار التي تنطلق تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة. (٣) في ب: إلى نفسها.

معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم^(٢)، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

(٣٦-٣٩) ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِمَّ مِثْلُ مَا كُنْتُمْ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۝ أَطِيعُوا كُلَّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَن يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِمَّ مِثْلُ مَا كُنْتُمْ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: قطعاً متفرقة وجماعات متوزعة^(٣)، كل منهم بما لديه فرح.

﴿أَطِيعُوا كُلَّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَن يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بأي سبب أطعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود برب العالمين، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ [أي: ليس الأمر بأمانهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم].

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

(٤٠-٤٤) ﴿فَلَا أَقِيمَ رَبِّ الْمُسْقَى وَالْعَرْبِ إِنَّا لَلْقَدِيرُونَ ۝ عَلَّ أَنْ يُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ۝ فَذَرَهُمْ حَوْضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ ۝ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ ۝ خِصْفَةً أَصْرَهُمْ رَهَقَهُمْ ذَلِكَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب، للشمس والقمر والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِثْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله:

﴿فَذَرَهُمْ حَوْضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ﴾، أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدنيهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ﴾، فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال، ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم، ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم^(٤) الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿سِرَاجًا﴾ مجبيين لدعوة الداعي، مهطعين إليها.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾ أي: [كانهم إلى علم] يؤمنون ويسرعون^(٥)، أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مهقورين، للقيام بين

﴿إِنَّا عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَفْرُجُهُمْ حَقِظُونَ﴾ فلا يطأون بها وطأ محرماً، من زنا، أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك. ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: سرياتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في وطنهم، في المحل الذي هو محل الحرث.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: غير الزوجة، وملك اليمين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله.

ودلت هذه الآية على تحريم [تكاح] المتعة لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُغْنِيهِمْ وَهُمْ غَيْرُ غِنَى﴾ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها.

وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار.

وكذلك العهد شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه أم رفضه وخانه، فلم يقم به؟

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَشْهَدَتُهُمْ قَائِبُونَ﴾ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بها^(١) وجه الله.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بمدوامتها على أكمل وجوهاها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ تَجْرُمُونَ﴾ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة والمدامة عليها والأعمال القلبية كخشية الله الداعية لكل خير؛ والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن

(١) في ب: القصد بإقامتها. (٢) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٣) في ب: متنوعة. (٤) في ب: اليوم. (٥) في ب: ويقصدون.

يدي رب العالمين.

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ رَهْفَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ وذلك أن الذلة والقلق، قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات.

فهذه الحال والمال، هو يومهم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعده الله.

[تمت والحمد لله].

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٢٨) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ إلى آخر السورة، لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك.

فأخبر تعالى أنه أرسله ^(١) إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً.

فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به، وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً.

فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به ^(٢)، فقال: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ﴾ وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالثواب.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمتنعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى، أي: مقدار البقاء في الدنيا، بقضاء الله وقدره، [إلى وقت محدود]، وليس المتاع أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال:

﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لما كفرتم بالله وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربه:

﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه.

سُورَةُ نُوحٍ

٥٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿١﴾ عَلَيَّ أَنْ تَبْدِلَ خَيْرًا مِثْلَهُمْ وَمَا تَحْتِ بِمُسْتَوِقِينَ ﴿٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُونَ وَيُلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ رَهْفَهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥﴾

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُمْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا بِأَيْمَانِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٧﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٨﴾

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق.

﴿جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام.

﴿وَاسْتَعْصَمُوا بِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق، وبغضاً له.

﴿وَأَصْرُوا﴾ على كفرهم وشركهم ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ على الحق ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: بسمع منهم كلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود ^(٣).

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غَفَّارًا﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم

(١) في ب: أنه أرسل نوحاً. (٢) في ب: وأمرهم بأصل ذلك. (٣) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من حصول الثواب،
واندفاع العقاب.

ورغبتهم أيضًا بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي: مطرًا متتابعًا، يروي الشهاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

﴿وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا، وأولادكم.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبتها.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: خلقًا [من] بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق^(١)، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد.

وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم، واستدل أيضًا عليهم بخلق السماوات، التي هي أكبر من خلق الناس، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: كل سماء فوق الأخرى.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ لأهل الأرض ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ يَرْكَبُهَا﴾.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ حين خلق أبابكم آدم وأنتم في صلبه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: ميسوطة مهياة للانتفاع بها.

﴿لِتَسْلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَازًا﴾ فلولا أنه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها، وزرعها، والبناء والسكون على ظهرها.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ شاكيًا لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير، ما نجع فيهم ولا أفاد.

﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به ﴿وَاتَّبَعُوا مَا لَزَّ رِذَّةَ مَالِهِمْ وَلَوْلَدُهُ

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَازًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَا لَزَّ رِذَّةَ مَالِهِمْ وَلَوْلَدُهُمْ لَأَنْذَرْتُكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢١﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٢﴾ مِمَّا خَطَبْتُمْ إِلَيْهِمْ فَأَعْرَفُوا أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْرَادًا فَأَلْهَمَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٣﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَاضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يُلِدُوا إِلَّا أَفْرَاجًا كَفَرًا ﴿٢٥﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَأْسًا ﴿٢٦﴾

إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارًا، أي: هلاكًا وتفويتًا للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! **الحق.**

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾، أي: مكرًا كبيرًا بليغًا في معاندة الحق.

﴿وَقَالُوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ فدعواهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون. ثم عينوا آلهم، فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة، إذا رأوها.

ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر،

(١) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

سُورَةُ الْجِنِّ ٥٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِك بِرَبِّنَا أَحَدًا ۚ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبُهُ وَلَا وَلَدًا ۚ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۚ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۚ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۚ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۚ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَحِذُّ لَهُ شُهَابًا ۚ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۚ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طِرَافٍ قِدَادًا ۚ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۚ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهَذَّىٰءَ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۚ

لا ملجأ منه إلا إليه.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهَذَّىٰ﴾ وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا ف﴿آمَنَّا بِهِ﴾.

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ إيمانًا صادقًا ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، أي: لا نقصًا ولا طغيانًا، ولا أذى يلحقه^(٥)، وإذا سلم من الشر، حصل له الخير، فلا إيمان سبب داع إلى حصول كل خير، وانتفاء كل شر.

(١٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الجاثرون، العادلون عن الصراط المستقيم. ﴿فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

(١) في ب: سلكتا طريقه. (٢) في ب: من الخلق. (٣) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزع، ويعبدونهم. (٤) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن. (٥) في ب: فقالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: من آمن به إيمانًا صادقًا فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه.

فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه^(١)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس^(٢)، يعارض الهدى.

(٦) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم، عند المخاوف والأفزع^(٣)، فزاد الإنس الجن رهقًا، أي: طغيانًا وتكبرًا، لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم.

ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن ضمير الواو^(٤)، أي: زاد الجن الإنس ذعرًا وتخوفًا لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه».

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والطغيان.

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ عن الوصول إلى أرجائها، [والدنو منها].

﴿وشُهَبًا﴾ يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادة الأولى، فإننا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء. (٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ﴾ فتتلفف من أخبار السماء ما شاء الله.

﴿فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَحِذُّ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: مُرصدًا له، معدًا لانتلافه وإحراقه، أي: ولهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم. وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثًا كبيرًا، من خير أو شر، فلهذا قالوا:

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرًا أنكروه، فعرفوا بفطنتهم، أن هذا الأمر يريد الله، ويحدثه في الأرض.

وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تادبًا مع الله.

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: فساق وفجار وكفار.

﴿كُنَّا طِرَافٍ قِدَادًا﴾ أي: فرقًا متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله، وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض، ولن نعجزه إن هربنا، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته،

(١٥) ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم.
(١٦) فإنهم لو ﴿اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ المثلث ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ أي: هنيئًا مريئًا، ولم يمنعم ذلك، إلا ظلمهم وعدوانهم.

(١٧) ﴿لَفَتْنَهُمْ نِيرًا﴾، أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم ل يظهر الصادق من الكاذب.

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه، ويُتَقَدَّ له، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذابًا صعدًا، أي: شديدًا بليغًا.

(١٨) ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته.

(١٩) ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، أي: يسأله ويتعبد له، ويقرأ القرآن، كاذ الجن من تكاثروهم عليه أن يكونوا ﴿عَلَيْهِ لَيْدًا﴾، أي: متلبدين متراكمين، حرصًا على سماع ما جاء به من الهدى.

(٢٠) ﴿قُلْ لَهُمْ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ! مَبِيتًا حَقِيقَةً مَا تَدْعُو إِلَيْهِ: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾، أي: أوحده، وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذ المشركون من دونه.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾، أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله. وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله [شيئاً]، إن أراد به سوء، فغيره من الخلق، من باب أولى وأحرى.

﴿وَلَنْ أَحِدٌ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، أي: ملجأً ومتصراً.
(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِي﴾، أي: ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني ببلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا^(١) تقوم الحجة على الناس.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخرى المحكمة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ،

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٦﴾ وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿١٧﴾ لَفَتْنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٩﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لَيْدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِي وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعف ناصرًا وأقل عددًا ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٦﴾ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ عِيشَةٍ أَحَدًا ﴿٢٧﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضْنِي مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٨﴾ لَعَلَّوْنَ قَدْ أَبْلَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٩﴾

وأجمع عليه سلف الأمة، وأئمة هذه الأمة.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: شاهدوه عياناً، وجزموا أنه واقع بهم.

﴿فَيَسْأَلُونَ﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿مَنْ أضعف ناصرًا وأقل عددًا﴾ حين لا ينصرهم غيرهم، ولا أنفسهم يتنصرون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة.

(٢٥) ﴿قُلْ لَهُمْ إِنْ سَأَلُوكَ [فقلوا]: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ؟﴾: ﴿إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾، أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله.

(٢٦) ﴿عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ عِيشَةٍ أَحَدًا﴾ من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار، والغيب.

(٢٧) ﴿إِلَّا مَنْ أَرَضْنِي مِنْ رَسُولٍ﴾، أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته، أن يخبره به.

وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على

تفسير سورة المزمّل

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ○ قُرْ الْإِلَّالَ قَلِيلًا ○ نَفْصُهُ أَوْ أَنْفَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ○ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ○ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلًا ○ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ○ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ○ وَادْكُرْ أَتَمَّ رَبِّكَ وَنَبِّئْ لَهُ تَبْيِيلًا ○ رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ○ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ○ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي الْأَلْمَعَةِ وَمَهْلِكُ قَلِيلًا ○ المزمّل: المتغطي بشيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال [وحيه بإرسال] جبريل إليه، فرأى أمراً لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك^(١) انزعاج، حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائضه.

ثم جاء جبريل، فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئ»، فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين. فسيحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف، الذي وجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه^(٢)، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله. فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، ويؤكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قُرْ الْإِلَّالَ قَلِيلًا﴾.

ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نَفْصُهُ أَوْ أَنْفَضَ مِنْهُ﴾، أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ﴾، أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر

حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا^(٣) يزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال:

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، أي: يحفظونه بأمر الله.

(٢٨) ﴿لَعَلَّكَ بِذَلِكَ ○ أَنْ قَدْ أَنْبَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ﴾ بما جعله لهم من الأسباب.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه.

﴿وَأَخَصَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عَدْدًا﴾.

وفي هذه السورة فوائد كثيرة:

منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس^(٤)، فإن الله صرف نفر الجن، ليستمعوا ما يوحى إليه، ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن، ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به.

فحين ابتدأت بشارت نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشداً، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه، ومعرفته في الأرض، ما تبتهج له القلوب، وتفرح به أولو الأبواب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن لاستماع الرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأن الرسول محمداً ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط^(٥) اتخاذ من هذا وصفه إلهاً [آخر] مع الله.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصه^(٦) بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحى إلي، والله الحمد^(٥).

(١) في ب: من غير أن تقربه الشياطين فلا. (٢) في ب: مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس. (٣) في ب: من الخطأ والظلم. (٤) في ب: واختصه. (٥) في ب: تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين. (٦) في ب: فاعتراه عند ذلك. (٧) في ب: على أذية قومه.

والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيو والاستعداد التام له.

فإنه قال: ﴿إِنَّا سُلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتبها له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه.

ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي: أقرب إلى تحصيل^(١) مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن^(٢) القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

ولهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٣)، ولهذا قال:

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾، أي: ترددًا في حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه للتفرغ التام. ﴿وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَيَتَنَبَّلُ إِلَيْهِ تَبَيُّلًا﴾، أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله، والإجابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس، يشمل المشارق والمغارب [كلها]، فهو تعالى رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء، وخالقه، ومدبره.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال:

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، أي: حافظًا ومدبرًا لأمرك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصًا، وبالذكر عمومًا، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية، في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٤) من الأعمال، أمره بالصبر، على ما يقول فيه المعاندون له ويسبون، ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصد عنه صاد، ولا يرد راد، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا، وهو الهجر، حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم^(٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدهم بالنبي هي أحسن.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم، فلا أهملهم.

وقوله: ﴿أُولَى النِّعْمَةِ﴾، أي: أصحاب النعمة والغنى،

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

٥٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَّخِذُ الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٢﴾ نَصْفَهُ وَأَوْنَاقُصُ مِنْهُ قِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزَدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنُ أَنْ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سُلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبَيُّلًا ﴿٨﴾ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النِّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَصْنِ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَنْفَعُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَكْفَرُ أَلَّا يَرَاهُ اسْتَفْقَى﴾.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

(١٢-١٤) ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا﴾ و﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا. أي: إن عندنا ﴿أَنْكَالًا﴾، أي: عذابًا شديدًا، جعلناه تنكيلًا للذي لا يزال مستمرًا على الذنوب^(٦).

﴿وَحِمِيمًا﴾، أي: نارًا حامية ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكرهه طعمه وريحه الخبيث المتن. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: موجعًا مقطوعًا، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم.

﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿كَيْبًا مَهِيلًا﴾، أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهاء المشور.

(١) في ب: حصول. (٢) في ب: عليه. (٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد. (٤) في ب: وفعل المشق. (٥) في ب: بل يعاملهم. (٦) في ب: على ما يغضب الله.

يمضي منهما، ويبقى.

﴿عَلِمَ أَنْ لَوْ تَحْصُوا﴾، أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهًا، وعناء زائدًا، أي: فخفض عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدّر، أو نقص.

﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، أي: مما تعرفون، ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأمورًا بالصلاة ما دام نشيطًا، فإذا فتر، أو كسل، أو نعنس، فليستريح ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل، أو نصفه، أو ثلثه، فليصل المريض، المتسهل عليه^(٣)، ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحًا].

﴿وَأَخْرُجُوا بَصِيرَتَكُمْ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، أي: وعلم أن منكم مسافرين، يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عن الناس^(٤)، أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

وكذلك ﴿أَخْرُجُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾، فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفًا للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول.

وتخفيفًا للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك^(٥)، فإنه أيضًا يراعي ما لا يكلفه.

فلله الحمد والشاء، الذي ما جعل على الأمة في الدين^(٦) من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده، ومصالح دينهم، وأبدانهم وديانهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أمُّ العبادات وعمادها. إقامة الصلاة التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها.

(١٥، ١٦) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ يقول تعالى: احمدا وربكم، على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهذه النعمة الجليلة.

وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون، حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذه الله أخذاً وبيلًا، أي: شديدًا بليغًا.

(١٧، ١٨) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۚ السَّمَاءُ مَطْفِئَةٌ بِوَيْءٍ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي: فكيف يحصل لكم الفكك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره^(١)، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتفطر به السماء وتنتثر به نجومها ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

(١٩) ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأحواله^(٢) تذكره يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا موصلًا إليه، وذلك باتِّباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح.

وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكّتهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

(٢٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۗ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَوْ تَحْصُوا فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ ۖ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ ۚ وَأَخْرُجُوا بَصِيرَتَكُمْ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَأَخْرُجُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تَقْرِضُوا لِلنَّفْسِ ۚ مِن حَرٍّ تَعْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ حَرًّا ۚ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ تَعْدُونَ عَنِّي ذُنُوبًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام.

وذكر في هذا الموضع، أنه امثل ذلك، هو وطائفة معه من المؤمنين.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال:

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أي: يعلم مقاديرهما، وما

(١) في ب: خطره. (٢) في ب: وأحواله. (٣) في ب: ما يسهل عليه. (٤) في ب: ويتكففوا عنهم. (٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره. (٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٥

سُورَةُ الْمَدْثَرِ

إِنْ رَيْكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِ أَيَّالٍ وَنِصْفَهُ، وَتُكَلِّمُ بِوَطْءِ يَدَيْكَ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

سُورَةُ الْمَدْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْذِرْ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا فَطَغِرْ ﴿٤﴾ وَالزَّجْرُ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَنْتَنْ تَسْتَكْذِرْ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نَفَرْنَا فِي النَّافِرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُتَمْهِدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾

ليكون ذلك ادعى لتركه.

﴿وَرَبِّكَ فَكْذِرْ﴾، أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وَيَا أَيُّهَا فَطَغِرْ﴾، يحتمل أن المراد بتيابه أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفصلات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب وتكبر وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصًا في الصلاة التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة. ويحتمل أن المراد بتيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصًا في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأمورًا بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

(١) في ب: أرحم بها من نفسها. (٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله. (٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، أي: خالصًا لوجه الله، من نية صادقة، وتبنيًا من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

ثم حث على عموم الخير، وأفعاله، فقال:

﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها^(١).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفي الأمر بالاستغفار، بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة.

وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلًا أو يفعله على وجه ناقص.

فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته، ومغفرته، فإنه هالك. تم تفسير سورة المزمّل^(٢).

تفسير سورة المدثر

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْذِرْ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا فَطَغِرْ ﴿٤﴾ وَالزَّجْرُ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَنْتَنْ تَسْتَكْذِرْ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ تقدم أن المزمّل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة والقاصرة، والصبر على أذى قومه.

وأمره هنا بإعلان الدعوة^(٣)، والصدع بالإنذار، فقال:

﴿قُمْ﴾ [أي:] بجِد ونشاط ﴿فَأَنْذِرْ﴾ الناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه،

﴿وَالرَّجَزُ فَاهْجُرْ﴾، يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها، ومما نسب إليها من قول أو عمل.

ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها^(١)، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿وَلَا تَمَنَّ تَشْكُرُ﴾، أي: لا تمنن على الناس، بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتشكر^(٢) بتلك المنّة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنّة.

بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره، على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحدا شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى.

فامثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر فيه، فأندر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله^(٣)، من الأصنام وأهلها، والشر وأهله.

وله المنّة على الناس - بعد منّة الله - من غير أن يطلب منهم على ذلك^(٤) جزاء ولا شكوراً.

وصبر الله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة^(٥)، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

(٨-١٠) ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ﴾، فذلك يوم يَوْمِ عِيسَى عَمَلُ الْكَافِرِينَ عَمَلُ يَسِيرٍ، أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق^(٦) للبعث والنشور.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ﴾ لكثرة أهواله وشدائده. ﴿عَمَلُ الْكَافِرِينَ عَمَلُ يَسِيرٍ﴾ لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

(١١-٣١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَيْنَ شُهُودًا، وَوَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا، سَأَرَفْنَاهُ صَعُودًا، إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ، فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَسَى وَبَسَّ، ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ

هَذَا إِلَّا بَعْرٌ يُؤْخِرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأَصْلِيه سَقَرٌ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ، لَا تُقِي وَلَا تَنْذَرُ، لَوَئِمَّةٌ لِلْبَشَرِ، عَلَيْنَا سَعَمَةٌ عَثَرٌ، وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْجِعُوا إِلَى آيَاتِنَا، وَلَا يَرْجِعَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ، هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذمّاً، لم يذمه^(٧) غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق وناذره، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، فقال:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، أي: خلقتني منفرداً، بلا مال، ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أنميّه وأربيّه^(٨).

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾، أي: كثيراً ﴿و﴾ جعلت له ﴿بَيْنَ شُهُودًا﴾، أي: ذكوراً ﴿شُهُودًا﴾، أي: دائماً حاضرين عنده [على الدوام]، يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستصير بهم.

﴿وَوَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾، أي: مكتته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على^(٩) ما يشتهي ويريد. ﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾، أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة، كما نال نعيم الدنيا. ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه.

وذلك لأنه ﴿كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا﴾، أي: معانداً عرفها، ثم أنكرها، ودعته إلى الحق، فلم ينفذ لها. ولم يكفه أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها، ويسعى في إبطائها، ولهذا قال عنه:

﴿إِنَّهُ فَكَرَ﴾ [أي: في نفسه]، ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه، ليقول قولاً يبطل به القرآن.

﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ، لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتَسَوَّرَ على ما لا يناله هو ولا أمثاله.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ما يقول، ﴿ثُمَّ عَسَى وَبَسَّ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له.

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾، أي: تولى ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ نتيجة سعيه الفكري،

(١) في ب: صغارها وكبارها. (٢) في ب: فتشكر. (٣) في ب: وهجر كل ما يعبد من دون الله وما يبعد منه. (٤) في ب: أن يطلب عليهم بذلك. (٥) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة. (٦) في ب: الخلائق. (٧) في ب: لم يذم به غيره. (٨) في ب: أربيّه وأعطيه. (٩) في ب: وحصل له.

والعلمي والقلوبي، أن قال:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا نَجْمٌ يُوقَرُ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضًا كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم، والأشرار، من كل كاذب سحار. فتبًا له، ما أبعد من الصواب، وأحرأ بالخسارة والتهاب!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئ المعيد^(١)؟

فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيه سَفَرًا ۝ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾، أي: تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئًا، إلا وبلغته. ﴿لَوَاسِمَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تلوهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقهرها.

﴿عَلَيْهَا تَتَعَثَّرُ﴾ من الملائكة خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنه، [كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾].

ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعديهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب ويدل على هذا، ما ذكره بعده في قوله: ﴿لَيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْجِدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا﴾، فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازدادوا يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها، وصدقوا، ازداد إيمانهم.

﴿وَلَا يَرَابُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليزول عنهم الرب والشك.

وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام، التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله، محصلًا لهذه الفوائد^(٢) الجليلة، ومميزًا للكاذبين من الصادقين.

ولهذا قال: ﴿وَلَقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، أي: شك وشبهة ونفاق.

﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ وهذا على وجه الحيرة

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

٥٧٦

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

إِنَّهُ فَعَرَ وَفَدَّرَ ١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ٢٩ عَلَيْهَا تَتَعَثَّرُ ٣٠ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْجِدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا وَلَا يَرَابُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ٣١ كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٢ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ٣٦ لَمَن شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤٠ مَأْسَلَكُكُمْ فِي سَقَرٍ ٤١ قَالُوا لَوْ نَرَاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ٤٢ وَلَوْ نَرَاكَ تُطْعِمُ الْمَسْكِينِ ٤٣ وَكَأَنَّا نَحْوُكَ مَعَ الْخَائِضِينَ ٤٤ وَكَأَنَّا كَذِبٌ يَوْمَ الدِّينِ ٤٥ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ٤٦

والشك والكفر منهم بآيات الله، ولهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه.

ومن أضله جعل ما أنزله على رسوله، زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم.

فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾، أي: وما هذه الموعظة والتذكار، مقصودًا به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

(٣٢-٥٦) ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٢ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤﴾

(١) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى. (٢) في ب: المقاصد.

ونجادل به الحق.

﴿وَكَاذِبٌ يَّوْمَ الدِّينِ﴾ هذا أثر الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق.

فاستمرنا على هذا المذهب الفاسد^(١) ﴿حَتَّىٰ آتَيْنَا لِيَقِينَ﴾ أي: الموت: فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل.

﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم^(٢).

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب مما^(٣) يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، أي: صادين غافلين عنها. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في نفرتهم الشديدة منها، ﴿حُمْرٌ مُّتَبَدِّلَةٌ﴾ أي: كأنهم حمر وحش، نفرت فنفرت بعضها بعضاً، فزاد عدوها. ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾، أي: من صائد ورام يريدّها، أو من أسد ونحوه.

وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوي الكبار.

﴿فَإِذْ كُلُّ مَرْيَدٍ أَرْىٰ أَنَّهُمْ لَا يُؤْقِنُ صُحُفًا مُّثَنَّرَةً﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا يتقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ لا نعطيه^(٤) ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز.

﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضع له الدليل.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئته^(٥) نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرة، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية

لِإِخْدَى الْكَرِّ ○ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ○ لِمَنْ شَاءَ يَنْكَرُ أَنْ يَتَّقِمَ ○ أَوْ يَنْفَرِ ○ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَتْهُ ○ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ○ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ○ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ○ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ○ قَالُوا لَوْ نَك مِنَ الْمَصْلُومِينَ ○ وَلَوْ نَك نُطْعِمُ الْمُسْكِينِ ○ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَافِيينِ ○ وَكُنَّا تُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ ○ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ○ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ○ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ○ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّتَبَدِّلَةٌ ○ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ○ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْفِكَ صُحُفًا مُّثَنَّرَةً ○ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ○ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ○ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ○ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُدْرَةِ أَهْلُ الْغَفَرَةِ.

﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية.

فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إداره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته وإحاطة علمه.

والمقسم عليه، قوله: ﴿إِنَّا لَإِخْدَى الْكَرِّ﴾، أي: لإحدى العظام الطامة والأمور الهامة.

فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدينه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته.

أو يتأخر [عما خلق له، و] عما يحبه الله [ويرضاه]، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ الآية.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رَوِيَتْهُ﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عتقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم لم يرتكبوا، بل أطلقوا وفرحوا. ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ○ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين: أي حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟.

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي ذنب استحققتموها؟.

﴿قَالُوا لَوْ نَك مِنَ الْمَصْلُومِينَ ○ وَلَوْ نَك نُطْعِمُ الْمُسْكِينِ﴾ فلا إخلاص للمعبود [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَافِيينِ﴾، أي: نخوض بالباطل،

(١) في ب: الباطل. (٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم. (٣)

في ب: وبين ما يفعل بهم. (٤) في الأصل (أن نعطيه) ولعل الصواب ما

أثبت. (٥) في ب: فإن مشيئة الله.

الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلًا، وجعل ذلك تابعًا لمشيئته.

﴿هُوَ أَهْلُ النَّوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ﴾، أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه، واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر، والله الحمد^(١).

تفسير سورة القيامة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ○ ﴿لَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ﴾ ○ أَيْحَسَبُ الْإِنْسَنُ أَنَّ تَجْمَعُ عِظَامُهُ ○ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِنَافَةِ ○ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ○ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ○ [ها] هنا نافية [ولا] زائدة، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح، فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

﴿لَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت «لوامة» لكثرة تردها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت^(٢)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه من تفریط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة.

فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء، ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال:

﴿أَيْحَسَبُ الْإِنْسَنُ أَنَّ تَجْمَعُ عِظَامُهُ﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟.

فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله:

﴿بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِنَافَةِ﴾، أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصورًا بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع]

فَأَنفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿١٨﴾ فَأَلْهَمَهُمَ عَنِ التَّذَكُّرِ مُعْرِضِينَ ﴿١٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَفِيرَةٌ ﴿٢٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٢١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُفُتِّيَ صَحْفًا مُّذْشَرَةً ﴿٢٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يُخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ﴿٢٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ ﴿٢﴾ أَيْحَسَبُ الْإِنْسَنُ أَنَّ تَجْمَعُ عِظَامُهُ ﴿٣﴾ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِنَافَةِ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا رَأَى الْبَصَرَ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرَ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَرْءُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبِّئُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ لَقِيَ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُمْ وَقُرْآنُهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْفَعْ قُرْآنُهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّمَا عَلَيْنَا بَيَانُهُ ﴿١٩﴾

ذلك منه، أن قصده وإرادته أن يكذب^(٣) بما أمامه من البعث.

والفجور: الكذب مع التعمد.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

(١٥-٧) ﴿فَإِذَا رَأَى الْبَصَرَ ○ وَخَسَفَ الْقَمَرَ ○ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ○ يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَرْءُ ○ كَلَّا لَا وَزَرَ ○ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ○ يُنَبِّئُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ○ بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ○ وَلَوْ لَقِيَ مَعَاذِيرَهُ﴾ أي: إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾. مَهْطِعَاتٍ مُّقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ.

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرَ﴾، أي: ذهب نوره وسلطانه.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما، أنهم كانوا كاذبين.

(١) في ب: تمت لله الحمد والمنة. (٢) في ب: على ما فعلت. (٣) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن لا يبادر برده أو قبوله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه.

وفيها: أن النبي ﷺ، كما بين للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه.

(٢٥-٢٠) ﴿لَا يَلْجَأُ الْفَالِجَةَ﴾ ○ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ○ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِهَا ○ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرٌ ○ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَيُّهَا ○ تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَاوِرٌ ○ أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿يُحْيُونَ الْفَالِجَةَ﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها، وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكان هذه الدار هي دار القرار التي تبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آتاء الليل والنهار، وبهذا انقلب عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل.

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل، لأنجحتم، وربحتم ربحاً لا خسارة معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

ثم ذكر ما يدعو إلى إثارة الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَيُّهَا نَاطِرٌ﴾، أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح. ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرٌ﴾ أي: تنظر إلى ربها^(٥)، على حسب مراتبهم:

منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثل شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور، ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا جمالاً إلى جمالهم، ففسأل الله الكريم أن يجعلنا منهم.

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة: ﴿وَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَيُّهَا نَاطِرٌ﴾، أي: معبسة ومكدرة^(٦)، خاشعة ذليلة ﴿تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات: ﴿إِنَّ الْفَرْ؟ أَي: أين الخلاص والفرار، مما طرقتنا وأصابنا^(١)؟.

﴿لَا يَلْجَأُ لَاحِدُونَ﴾، أي: لا ملجأ لأحد دون الله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الشَّعْرُ﴾ لسائر العباد، فليس في إمكان أحد، أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه، ليجزى بعمله، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، أي: بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

﴿وَلِئَلَّ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، أي: شاهداً ومحاسباً.

﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرَهُ﴾ فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد^(٢)، فيقر به، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره، لا يفيدانه شيئاً، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعنا به، قد ذهب وقته، وزال نفعه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

(١٦-١٩) ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ بِهِ﴾ ○ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ○ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ○ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ○ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ، من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ بَقِيلٍ أَنْ يَفْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

وقال هنا: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ بِهِ﴾، ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقراه، ويجمعه الله في صدره فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك، فلا موجب لذلك.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، أي: إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله^(٣) إليك، فحيثما اتبع ما قرأه وأقرأه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه، وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم، قبل أن يفرغ من^(٤) المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأل عما أشكل عليه.

(١) في ب: والفلك مما طرقتنا وألم بنا. (٢) في ب: بل يقرر بعمله. (٣) في ب: إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك. (٤) في ب: أن لا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم. (٥) في ب: أي: ينظرون إلى ربهم. (٦) في ب: كدرة.

تفسير سورة هل أتى على الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدانهم، ﴿كَلَّمَآ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. وهذا العذاب دائم لهم أبدًا، مخلدون فيه سرمدا.
وأما ﴿الْأَبْرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم، بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم^(٢)، واستعملوها بأعمال البر.

أخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾، أي: شراب لذيق من خمر قد مزج بكافور، أي: خلط بكافور، ليبرده، ويكسر حدته، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا، تعدم في الآخرة^(٣).
كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُيهِ الْأَنفُسُ وَكَذَلِكَ أُعْهِتُ﴾.

﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، أي: ذلك الكأس اللذيذ، الذي يشربون به، لا يخافون فغاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيرا، أنى شاءوا، وكيف أرادوا.

فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور، والمسكن المزخرفات، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات المونقات.
وقد^(٤) ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ﴾، أي: بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات.

وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب^(٥) عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى.
﴿وَيَكُونُونَ يَوْمًا كَأَن شَرُّهُم مُّسْتَبْرِكًا﴾، أي: مستشرا فاشيا، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك.

﴿وَيُطْعَمُونَ اَلطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ﴾، أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم ﴿وَمُسْكِينًا وَنِيَمًا وَأَسِيرًا﴾.

ويقصدون بإِنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُوهُ لِيَمِثَّ إِلَهُهُ لَا تُبَدِّلُ مَنَكُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾، أي: لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً.

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها. (٢) في ب: أعمالهم. (٣) في ب: الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة. (٤) في ب: ثم ذكر. (٥) في ب: الذي هو غير واجب.

(١-٣) ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ أَسْبِيلًا إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِنَّمَا كَفَرَ﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة، أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها.

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم بل ليس مذكورا.

ثم لما أراد الله تعالى خلقه، خلق [أباه] آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلا ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾، أي: ماء مهين مستقذر ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بذلك، لنعلم هل يرى حاله الأولى، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟.

فأنشأ الله، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة، كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتىها له وجعلها سالمة، يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهذه الطريق الموصلة إلى الله^(١)، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكتها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكِر لنعمة الله عليه، قائم بما حملة الله من حقوقه. وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردّها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى خال الفريقين عند الجزاء فقال: (٤-٢٢) ﴿إِنَّمَا أَتَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْتَدْنَا وَسْعِيرًا﴾. إِنَّمَا الْأَبْرَارُ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ إلى آخر الثواب.
أي: إنا هيأنا، وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجرا على المعاصي.

﴿سَكِينًا﴾ في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾.

﴿وَاعْتَدْنَا﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم، ويوثقون بها. ﴿وَسَوْعِيرًا﴾ أي: نارا تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾، أي: شديد الجهمة والشر ﴿فَطَوَّيْرًا﴾، أي: ضنكنا ضيقا.

﴿فَوَقَّهَمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ فلا يحزنهم الفرع الأكبر، وتلقاهم الملائكة، [هذا يومكم الذي كنتم توعدون].

﴿وَلَقَّهَمُ﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نَصْرَةً﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

﴿وَجَزَّيْنِيَا صَبْرًا﴾ على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلم يتسخطوها.

﴿جَنَّةٍ﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص.

﴿وَجَزَّيْرًا﴾ كما قال [تعالى]: ﴿وَلَبَّاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الانكاء: التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك: هي السرر التي عليها اللباس المزين.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿شَمْسًا﴾ يضرهم حرها، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: بردًا شديدًا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تألم من حر ولا برد.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا نَذِيلًا﴾، أي: قرب ثمراتها من مريدها تقريبًا ينالها وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان^(١) ﴿بَيْنَ يَمِينٍ وَآفَاقٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ، أي: مادتها من فضة، [وهي] على صفاء القوارير، ولهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة، من صفاء جوهرها، وطيب معدنها، على صفاء القوارير.

﴿فَقَدَرُوا نَفِيرًا﴾، أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر رِيقِهِمْ، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف بريقهم^(٢).

ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

﴿وَسَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة من كأس وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، ﴿كَأَن مِرَاجِئَهَا﴾ أي: خلطها ﴿زَجْجِيلًا﴾ ليطيب طعمه وريحه.

﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿سَعْنٌ سَكِينًا﴾ سميت بذلك لسلستها ولذتها وحسنها.

﴿وَيَطُوفُ﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم

وخدمتهم.

﴿وَلَدَانٌ مَخْلُودَانِ﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن.

﴿إِنَّا رَأَيْنَاهُمْ﴾ متشربين في خدمتهم ﴿حَبِيبَتَهُمْ﴾ من حسنهم ﴿لَوْ لَوْ مَشُورًا﴾، وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون، وتطلبه نفوسهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتُمْ﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم^(٣)، ﴿رَأَيْتُمْ نَيْعًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف.

ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطيور

(١) في ب: ﴿وَسَقَّوْنَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.

(٢) في ب: لم تكفهم لريقهم. (٣) في ب: أي: رمت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل.

المطربة [المشجية] ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس. وعنده من الزوجات اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورًا، ولذة وجورًا.

وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤيدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة. ثم علاوة ذلك ومعظمه، الفوز برؤية^(١) الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربيه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم، كل وقت وحين.

فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفذ خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه، فلا نهاية لبره وإحسانه.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ﴾، أي: قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج^(٢)، والاستبرق: ما رق منه.

﴿وَحُلُواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، ولهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولا، لأنه لا أصدق منه قِيلًا ولا حديثًا. وقوله: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَايَا طَهْرًا﴾، أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرًا لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على ما أسلفتموه، من الأعمال. ﴿وَكَانَ سَعِيرٌ مُّشْكُورًا﴾ أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم، ما لا يمكن حصره.

(٢٣) وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد. وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

(٢٤) ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَاتًا أَوْ كُفْرًا﴾، أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿ءَايَاتًا﴾ أي: فاعلًا إثمًا ومعصية ولا ﴿كُفْرًا﴾، فإن طاعة الكفار والفجار والفساق، لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمرهم^(٣) إلا بما تهواه أنفسهم.

(٢٥) ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله^(٤)، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك، فقال: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك

الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات. (٢٦) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَّهُ﴾، أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة^(٥).

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، وقد تقدم تنقيح هذا المطلق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ۚ لَئْلَآ لَآ قِيلَآ﴾ الآية^(٦).

(٢٧) [وقوله]: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول! بعد ما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يفد فيهم ذلك شيئًا، بل لا يزالون يؤثرون ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ ويطمثون إليها.

﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون العمل، ويهملون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا نَّيْلًا﴾ وهو يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون.

وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾. فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا، والإقامة فيها.

(٢٨) ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾، أي: أوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدْنَا أَرْهَامَهُمْ﴾، أي: أحكمنا خلقهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده.

فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهاون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

﴿بَدَلًا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾، أي: أنشأناهم للبعث نشأة أخرى، وأعدناهم بأعيانهم^(٧)، وهم بأنفسهم أمثالهم. ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾، أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ لِكُ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا موصلًا إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها، أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم^(٨).

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئة الله نافذة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فله الحكمة في هداية

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا بد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: وذلك متضمن لكثرة الصلاة. (٦) في ب: أكمل الآيات ﴿يُسَبِّحُهُ أَوْ أَقْسَمُ بِهِ قِيلًا أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ﴾. (٧) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان، والله الحمد والمنة^(١).

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ ^١ ^٢ ^٣ ^٤ ^٥ ^٦ ^٧ ^٨ ^٩ ^{١٠} ^{١١} ^{١٢} ^{١٣} ^{١٤} ^{١٥} ^{١٦} ^{١٧} ^{١٨} ^{١٩} ^{٢٠} ^{٢١} ^{٢٢} ^{٢٣} ^{٢٤} ^{٢٥} ^{٢٦} ^{٢٧} ^{٢٨} ^{٢٩} ^{٣٠} ^{٣١} ^{٣٢} ^{٣٣} ^{٣٤} ^{٣٥} ^{٣٦} ^{٣٧} ^{٣٨} ^{٣٩} ^{٤٠} ^{٤١} ^{٤٢} ^{٤٣} ^{٤٤} ^{٤٥} ^{٤٦} ^{٤٧} ^{٤٨} ^{٤٩} ^{٥٠} ^{٥١} ^{٥٢} ^{٥٣} ^{٥٤} ^{٥٥} ^{٥٦} ^{٥٧} ^{٥٨} ^{٥٩} ^{٦٠} ^{٦١} ^{٦٢} ^{٦٣} ^{٦٤} ^{٦٥} ^{٦٦} ^{٦٧} ^{٦٨} ^{٦٩} ^{٧٠} ^{٧١} ^{٧٢} ^{٧٣} ^{٧٤} ^{٧٥} ^{٧٦} ^{٧٧} ^{٧٨} ^{٧٩} ^{٨٠} ^{٨١} ^{٨٢} ^{٨٣} ^{٨٤} ^{٨٥} ^{٨٦} ^{٨٧} ^{٨٨} ^{٨٩} ^{٩٠} ^{٩١} ^{٩٢} ^{٩٣} ^{٩٤} ^{٩٥} ^{٩٦} ^{٩٧} ^{٩٨} ^{٩٩} ^{١٠٠} ^{١٠١} ^{١٠٢} ^{١٠٣} ^{١٠٤} ^{١٠٥} ^{١٠٦} ^{١٠٧} ^{١٠٨} ^{١٠٩} ^{١١٠} ^{١١١} ^{١١٢} ^{١١٣} ^{١١٤} ^{١١٥} ^{١١٦} ^{١١٧} ^{١١٨} ^{١١٩} ^{١٢٠} ^{١٢١} ^{١٢٢} ^{١٢٣} ^{١٢٤} ^{١٢٥} ^{١٢٦} ^{١٢٧} ^{١٢٨} ^{١٢٩} ^{١٣٠} ^{١٣١} ^{١٣٢} ^{١٣٣} ^{١٣٤} ^{١٣٥} ^{١٣٦} ^{١٣٧} ^{١٣٨} ^{١٣٩} ^{١٤٠} ^{١٤١} ^{١٤٢} ^{١٤٣} ^{١٤٤} ^{١٤٥} ^{١٤٦} ^{١٤٧} ^{١٤٨} ^{١٤٩} ^{١٥٠} ^{١٥١} ^{١٥٢} ^{١٥٣} ^{١٥٤} ^{١٥٥} ^{١٥٦} ^{١٥٧} ^{١٥٨} ^{١٥٩} ^{١٦٠} ^{١٦١} ^{١٦٢} ^{١٦٣} ^{١٦٤} ^{١٦٥} ^{١٦٦} ^{١٦٧} ^{١٦٨} ^{١٦٩} ^{١٧٠} ^{١٧١} ^{١٧٢} ^{١٧٣} ^{١٧٤} ^{١٧٥} ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨} ^{٣٥٩} ^{٣٦٠} ^{٣٦١} ^{٣٦٢} ^{٣٦٣} ^{٣٦٤} ^{٣٦٥} ^{٣٦٦} ^{٣٦٧} ^{٣٦٨} ^{٣٦٩} ^{٣٧٠} ^{٣٧١} ^{٣٧٢} ^{٣٧٣} ^{٣٧٤} ^{٣٧٥} ^{٣٧٦} ^{٣٧٧} ^{٣٧٨} ^{٣٧٩} ^{٣٨٠} ^{٣٨١} ^{٣٨٢} ^{٣٨٣} ^{٣٨٤} ^{٣٨٥} ^{٣٨٦} ^{٣٨٧} ^{٣٨٨} ^{٣٨٩} ^{٣٩٠} ^{٣٩١} ^{٣٩٢} ^{٣٩٣} ^{٣٩٤} ^{٣٩٥} ^{٣٩٦} ^{٣٩٧} ^{٣٩٨} ^{٣٩٩} ^{٤٠٠} ^{٤٠١} ^{٤٠٢} ^{٤٠٣} ^{٤٠٤} ^{٤٠٥} ^{٤٠٦} ^{٤٠٧} ^{٤٠٨} ^{٤٠٩} ^{٤١٠} ^{٤١١} ^{٤١٢} ^{٤١٣} ^{٤١٤} ^{٤١٥} ^{٤١٦} ^{٤١٧} ^{٤١٨} ^{٤١٩} ^{٤٢٠} ^{٤٢١} ^{٤٢٢} ^{٤٢٣} ^{٤٢٤} ^{٤٢٥} ^{٤٢٦} ^{٤٢٧} ^{٤٢٨} ^{٤٢٩} ^{٤٣٠} ^{٤٣١} ^{٤٣٢} ^{٤٣٣} ^{٤٣٤} ^{٤٣٥} ^{٤٣٦} ^{٤٣٧} ^{٤٣٨} ^{٤٣٩} ^{٤٤٠} ^{٤٤١} ^{٤٤٢} ^{٤٤٣} ^{٤٤٤} ^{٤٤٥} ^{٤٤٦} ^{٤٤٧} ^{٤٤٨} ^{٤٤٩} ^{٤٥٠} ^{٤٥١} ^{٤٥٢} ^{٤٥٣} ^{٤٥٤} ^{٤٥٥} ^{٤٥٦} ^{٤٥٧} ^{٤٥٨} ^{٤٥٩} ^{٤٦٠} ^{٤٦١} ^{٤٦٢} ^{٤٦٣} ^{٤٦٤} ^{٤٦٥} ^{٤٦٦} ^{٤٦٧} ^{٤٦٨} ^{٤٦٩} ^{٤٧٠} ^{٤٧١} ^{٤٧٢} ^{٤٧٣} ^{٤٧٤} ^{٤٧٥} ^{٤٧٦} ^{٤٧٧} ^{٤٧٨} ^{٤٧٩} ^{٤٨٠} ^{٤٨١} ^{٤٨٢} ^{٤٨٣} ^{٤٨٤} ^{٤٨٥} ^{٤٨٦} ^{٤٨٧} ^{٤٨٨} ^{٤٨٩} ^{٤٩٠} ^{٤٩١} ^{٤٩٢} ^{٤٩٣} ^{٤٩٤} ^{٤٩٥} ^{٤٩٦} ^{٤٩٧} ^{٤٩٨} ^{٤٩٩} ^{٥٠٠} ^{٥٠١} ^{٥٠٢} ^{٥٠٣} ^{٥٠٤} ^{٥٠٥} ^{٥٠٦} ^{٥٠٧} ^{٥٠٨} ^{٥٠٩} ^{٥١٠} ^{٥١١} ^{٥١٢} ^{٥١٣} ^{٥١٤} ^{٥١٥} ^{٥١٦} ^{٥١٧} ^{٥١٨} ^{٥١٩} ^{٥٢٠} ^{٥٢١} ^{٥٢٢} ^{٥٢٣} ^{٥٢٤} ^{٥٢٥} ^{٥٢٦} ^{٥٢٧} ^{٥٢٨} ^{٥٢٩} ^{٥٣٠} ^{٥٣١} ^{٥٣٢} ^{٥٣٣} ^{٥٣٤} ^{٥٣٥} ^{٥٣٦} ^{٥٣٧} ^{٥٣٨} ^{٥٣٩} ^{٥٤٠} ^{٥٤١} ^{٥٤٢} ^{٥٤٣} ^{٥٤٤} ^{٥٤٥} ^{٥٤٦} ^{٥٤٧} ^{٥٤٨} ^{٥٤٩} ^{٥٥٠} ^{٥٥١} ^{٥٥٢} ^{٥٥٣} ^{٥٥٤} ^{٥٥٥} ^{٥٥٦} ^{٥٥٧} ^{٥٥٨} ^{٥٥٩} ^{٥٦٠} ^{٥٦١} ^{٥٦٢} ^{٥٦٣} ^{٥٦٤} ^{٥٦٥} ^{٥٦٦} ^{٥٦٧} ^{٥٦٨} ^{٥٦٩} ^{٥٧٠} ^{٥٧١} ^{٥٧٢} ^{٥٧٣} ^{٥٧٤} ^{٥٧٥} ^{٥٧٦} ^{٥٧٧} ^{٥٧٨} ^{٥٧٩} ^{٥٨٠} ^{٥٨١} ^{٥٨٢} ^{٥٨٣} ^{٥٨٤} ^{٥٨٥} ^{٥٨٦} ^{٥٨٧} ^{٥٨٨} ^{٥٨٩} ^{٥٩٠} ^{٥٩١} ^{٥٩٢} ^{٥٩٣} ^{٥٩٤} ^{٥٩٥} ^{٥٩٦} ^{٥٩٧} ^{٥٩٨} ^{٥٩٩} ^{٦٠٠} ^{٦٠١} ^{٦٠٢} ^{٦٠٣} ^{٦٠٤} ^{٦٠٥} ^{٦٠٦} ^{٦٠٧} ^{٦٠٨} ^{٦٠٩} ^{٦١٠} ^{٦١١} ^{٦١٢} ^{٦١٣} ^{٦١٤} ^{٦١٥} ^{٦١٦} ^{٦١٧} ^{٦١٨} ^{٦١٩} ^{٦٢٠} ^{٦٢١} ^{٦٢٢} ^{٦٢٣} ^{٦٢٤} ^{٦٢٥} ^{٦٢٦} ^{٦٢٧} ^{٦٢٨} ^{٦٢٩} ^{٦٣٠} ^{٦٣١} ^{٦٣٢} ^{٦٣٣} ^{٦٣٤} ^{٦٣٥} ^{٦٣٦} ^{٦٣٧} ^{٦٣٨} ^{٦٣٩} ^{٦٤٠} ^{٦٤١} ^{٦٤٢} ^{٦٤٣} ^{٦٤٤} ^{٦٤٥} ^{٦٤٦} ^{٦٤٧} ^{٦٤٨} ^{٦٤٩} ^{٦٥٠} ^{٦٥١} ^{٦٥٢} ^{٦٥٣} ^{٦٥٤} ^{٦٥٥} ^{٦٥٦} ^{٦٥٧} ^{٦٥٨} ^{٦٥٩} ^{٦٦٠} ^{٦٦١} ^{٦٦٢} ^{٦٦٣} ^{٦٦٤} ^{٦٦٥} ^{٦٦٦} ^{٦٦٧} ^{٦٦٨} ^{٦٦٩} ^{٦٧٠} ^{٦٧١} ^{٦٧٢} ^{٦٧٣} ^{٦٧٤} ^{٦٧٥} ^{٦٧٦} ^{٦٧٧} ^{٦٧٨} ^{٦٧٩} ^{٦٨٠} ^{٦٨١} ^{٦٨٢} ^{٦٨٣} ^{٦٨٤} ^{٦٨٥} ^{٦٨٦} ^{٦٨٧} ^{٦٨٨} ^{٦٨٩} ^{٦٩٠} ^{٦٩١} ^{٦٩٢} ^{٦٩٣} ^{٦٩٤} ^{٦٩٥} ^{٦٩٦} ^{٦٩٧} ^{٦٩٨} ^{٦٩٩} ^{٧٠٠} ^{٧٠١} ^{٧٠٢} ^{٧٠٣} ^{٧٠٤} ^{٧٠٥} ^{٧٠٦} ^{٧٠٧} ^{٧٠٨} ^{٧٠٩} ^{٧١٠} ^{٧١١} ^{٧١٢} ^{٧١٣} ^{٧١٤} ^{٧١٥} ^{٧١٦} ^{٧١٧} ^{٧١٨} ^{٧١٩} ^{٧٢٠} ^{٧٢١} ^{٧٢٢} ^{٧٢٣} ^{٧٢٤} ^{٧٢٥} ^{٧٢٦} ^{٧٢٧} ^{٧٢٨} ^{٧٢٩} ^{٧٣٠} ^{٧٣١} ^{٧٣٢} ^{٧٣٣} ^{٧٣٤} ^{٧٣٥} ^{٧٣٦} ^{٧٣٧} ^{٧٣٨} ^{٧٣٩} ^{٧٤٠} ^{٧٤١} ^{٧٤٢} ^{٧٤٣} ^{٧٤٤} ^{٧٤٥} ^{٧٤٦} ^{٧٤٧} ^{٧٤٨} ^{٧٤٩} ^{٧٥٠} ^{٧٥١} ^{٧٥٢} ^{٧٥٣} ^{٧٥٤} ^{٧٥٥} ^{٧٥٦} ^{٧٥٧} ^{٧٥٨} ^{٧٥٩} ^{٧٦٠} ^{٧٦١} ^{٧٦٢} ^{٧٦٣} ^{٧٦٤} ^{٧٦٥} ^{٧٦٦} ^{٧٦٧} ^{٧٦٨} ^{٧٦٩} ^{٧٧٠} ^{٧٧١} ^{٧٧٢} ^{٧٧٣} ^{٧٧٤} ^{٧٧٥} ^{٧٧٦} ^{٧٧٧} ^{٧٧٨} ^{٧٧٩} ^{٧٨٠} ^{٧٨١} ^{٧٨٢} ^{٧٨٣} ^{٧٨٤} ^{٧٨٥} ^{٧٨٦} ^{٧٨٧} ^{٧٨٨} ^{٧٨٩} ^{٧٩٠} ^{٧٩١} ^{٧٩٢} ^{٧٩٣} ^{٧٩٤} ^{٧٩٥} ^{٧٩٦} ^{٧٩٧} ^{٧٩٨} ^{٧٩٩} ^{٨٠٠} ^{٨٠١} ^{٨٠٢} ^{٨٠٣} ^{٨٠٤} ^{٨٠٥} ^{٨٠٦} ^{٨٠٧} ^{٨٠٨} ^{٨٠٩} ^{٨١٠} ^{٨١١} ^{٨١٢} ^{٨١٣} ^{٨١٤} ^{٨١٥} ^{٨١٦} ^{٨١٧} ^{٨١٨} ^{٨١٩} ^{٨٢٠} ^{٨٢١} ^{٨٢٢} ^{٨٢٣} ^{٨٢٤} ^{٨٢٥} ^{٨٢٦} ^{٨٢٧} ^{٨٢٨} ^{٨٢٩} ^{٨٣٠} ^{٨٣١} ^{٨٣٢} ^{٨٣٣} ^{٨٣٤} ^{٨٣٥} ^{٨٣٦} ^{٨٣٧} ^{٨٣٨} ^{٨٣٩} ^{٨٤٠} ^{٨٤١} ^{٨٤٢} ^{٨٤٣} ^{٨٤٤} ^{٨٤٥} ^{٨٤٦} ^{٨٤٧} ^{٨٤٨} ^{٨٤٩} ^{٨٥٠} ^{٨٥١} ^{٨٥٢} ^{٨٥٣} ^{٨٥٤} ^{٨٥٥} ^{٨٥٦} ^{٨٥٧} ^{٨٥٨} ^{٨٥٩} ^{٨٦٠} ^{٨٦١} ^{٨٦٢} ^{٨٦٣} ^{٨٦٤} ^{٨٦٥} ^{٨٦٦} ^{٨٦٧} ^{٨٦٨} ^{٨٦٩} ^{٨٧٠} ^{٨٧١} ^{٨٧٢} ^{٨٧٣} ^{٨٧٤} ^{٨٧٥} ^{٨٧٦} ^{٨٧٧} ^{٨٧٨} ^{٨٧٩} ^{٨٨٠} ^{٨٨١} ^{٨٨٢} ^{٨٨٣} ^{٨٨٤} ^{٨٨٥} ^{٨٨٦} ^{٨٨٧} ^{٨٨٨} ^{٨٨٩} ^{٨٩٠} ^{٨٩١} ^{٨٩٢} ^{٨٩٣} ^{٨٩٤} ^{٨٩٥} ^{٨٩٦} ^{٨٩٧} ^{٨٩٨} ^{٨٩٩} ^{٩٠٠} ^{٩٠١} ^{٩٠٢} ^{٩٠٣} ^{٩٠٤} ^{٩٠٥} ^{٩٠٦} ^{٩٠٧} ^{٩٠٨} ^{٩٠٩} ^{٩١٠} ^{٩١١} ^{٩١٢} ^{٩١٣} ^{٩١٤} ^{٩١٥} ^{٩١٦} ^{٩١٧} ^{٩١٨} ^{٩١٩} ^{٩٢٠} ^{٩٢١} ^{٩٢٢} ^{٩٢٣} ^{٩٢٤} ^{٩٢٥} ^{٩٢٦} ^{٩٢٧} ^{٩٢٨} ^{٩٢٩} ^{٩٣٠} ^{٩٣١} ^{٩٣٢} ^{٩٣٣} ^{٩٣٤} ^{٩٣٥} ^{٩٣٦} ^{٩٣٧} ^{٩٣٨} ^{٩٣٩} ^{٩٤٠} ^{٩٤١} ^{٩٤٢} ^{٩٤٣} ^{٩٤٤} ^{٩٤٥} ^{٩٤٦} ^{٩٤٧} ^{٩٤٨} ^{٩٤٩} ^{٩٥٠} ^{٩٥١} ^{٩٥٢} ^{٩٥٣} ^{٩٥٤} ^{٩٥٥} ^{٩٥٦} ^{٩٥٧} ^{٩٥٨} ^{٩٥٩} ^{٩٦٠} ^{٩٦١} ^{٩٦٢} ^{٩٦٣} ^{٩٦٤} ^{٩٦٥} ^{٩٦٦} ^{٩٦٧} ^{٩٦٨} ^{٩٦٩} ^{٩٧٠} ^{٩٧١} ^{٩٧٢} ^{٩٧٣} ^{٩٧٤} ^{٩٧٥} ^{٩٧٦} ^{٩٧٧} ^{٩٧٨} ^{٩٧٩} ^{٩٨٠} ^{٩٨١} ^{٩٨٢} ^{٩٨٣} ^{٩٨٤} ^{٩٨٥} ^{٩٨٦} ^{٩٨٧} ^{٩٨٨} ^{٩٨٩} ^{٩٩٠} ^{٩٩١} ^{٩٩٢} ^{٩٩٣} ^{٩٩٤} ^{٩٩٥} ^{٩٩٦} ^{٩٩٧} ^{٩٩٨} ^{٩٩٩} ^{١٠٠٠} ^{١٠٠١} ^{١٠٠٢} ^{١٠٠٣} ^{١٠٠٤} ^{١٠٠٥} ^{١٠٠}

الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَطِيعُوا إِيَّايَ مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿أَطِيعُوا إِيَّايَ ظِلِّي ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾، أي: إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في خلاله ثلاث شعب، أي: قطع من النار، أي: تتعاوره وتتناوبه، وتجتمع به.

﴿لَا ظِلِيلٌ﴾ ذلك الظل، أي: لا راحة فيه، ولا طمأنينة. ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ من مكث فيه ﴿مِنْ أَلْهَبٍ﴾، بل اللهب قد أحاط به، يمنة ويسرة، ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجَزِّي الظَّالِمِينَ﴾. ثم ذكر عظم شرر النار، الدال على عظمها وقطاعتها، وسوء منظرها، فقال:

﴿إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمْلَتٌ صُفْرٌ﴾ وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة لخبثها وجمهرها وشررها، وأنها سوداء، كريهة المראה^(٤)، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها، [من الأعمال المقربة منها].

﴿وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٥-٤٠) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤَدِّنُكُمْ فَيَقْدِرُونَ ۝ وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ۝ وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد.

﴿وَلَا يُؤَدِّنُكُمْ فَيَقْدِرُونَ﴾، أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِذَرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ لفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ تقدرون على الخروج من ملكي، وتنجون به من عذابي، ﴿فَيَكِيدُونَ﴾، أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿يَمَعَسَرُ إِلَيْنِ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَغْنَمُ أَنْ تَفْعَدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْعَدُوا لَا تَنْفَعُوكُمْ إِلَّا سُلْطَانِي﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم ﴿وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٤١-٤٥) ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُمٍ غَمْرٍ ۝ وَوَكَّاهُ بِمَا يُشْهَرُونَ ۝ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُتِبَ لَهُمْ لَا يَخْلَوْا إِلَّا كَذَلِكَ نُجَزِّي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب^(٥)

نَقَلَ بِالْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين، ثم تتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة، في كل مجرم لا بد من عذابه^(١)، فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والمثلثات.

(٢٠-٢٤) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فِعْماً الْقَدِيرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾، أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ وهو الرحم، به يستقر وينمو. ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ووقت مقدر.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فِعْماً الْقَدِيرُونَ﴾ [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعاً للحكمة موافقاً للحمد^(٢).

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبيانات.

(٢٥-٢٨) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَجَاجَةٍ وَأَسْفِنًاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما امتنا^(٣) عليكم، وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كِهَاتًا﴾ لكم ﴿أَحْيَاءً﴾ في الدور ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنتها، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وستراً لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات، أي: الطوال العراض.

﴿وَأَسْفِنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾، أي: عذاباً زلزالاً، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسْمَعْ أَلَمَاءُ الَّذِينَ تَشْرَبُونَ ۝ أَنَّهُمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُنْزَلِ ثُمَّ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا شُكْرُكُمْ﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم الله من النعم التي انفراد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب.

(٢٩-٣٤) ﴿أَطِيعُوا إِيَّايَ مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ ۝ أَطِيعُوا إِيَّايَ ظِلِّي ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَا ظِلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنْ أَلْهَبٍ ۝ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمْلَتٌ صُفْرٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا من الويل

(١) في ب: عذابه. (٢) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد. (٣) في ب: أما امتنا. (٤) في ب: كريهة المنظر. (٥) في ب: ثواب.

المحسنين، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق، في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم.

ولا يكونون كذلك، إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿فِي ظِلِّهِ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية.

﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من السلسيل، والرحيق وغيرهما.

﴿وَفَوَاحٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: من خيار الفواكه وطيبها،

ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من المأكَل الشهية، والأشربة اللذيذة، ﴿هَبِيتًا﴾، أي: من غير منغص ولا مكدّر.

ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب، من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع، ولا زائل.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم، هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم^(١) المقيم.

ولهكذا كل من أحسن في عبادة الله، وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ، ولو لم يكن لهم من هذا الويل، إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرماناً وخسراناً^(٢).

(٤٦-٥٠) ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا فَلَا تَكْفُرُوا﴾ ○ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ○ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكُوا لَا يَرْكَبُوا ○ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ○ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا تهديد ووعد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا، وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات.

ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿أَرْكَبُوا﴾ امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟!

﴿وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ﴾، ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، ألباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب، أفاك مبین؟.

فليس بعد النور المبین، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والافك المبین^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

سورة التوبة

٥٨١

سورة التوبة

أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كَهَانًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٢٨﴾ أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٩﴾ أَطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا تَرْمِي بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جُمُلَتُ صُفْرٍ ﴿٣٣﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلُ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاحٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكُوا لَا يَرْكَبُوا ﴿٤٨﴾ وَيَلْزَمُ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

فتباً لهم، ما أعماهم! وويحاً لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية، [إنه جواد كريم. تمت].

تفسير سورة عم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿عَمَّ بَسَاءٌ لَّوْنٌ ○ عَنِ النَّكِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ○ كَلَّا سِعْقُونَ ○ قُلْ كَلَّا سِعْقُونَ﴾ أي: عن أي شيء يتساءل المكذوبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّكِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك، ولا يدخله

(١) في ب: إلى جنات النعيم. (٢) في ب: حزناً وحرماناً. (٣) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين.

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَفُونَ (٣)
 كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ يُجْعَلِ لَآرَضٍ مِهْدًا (٦)
 وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
 (٩) وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا
 فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا
 مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَعَلْنَا
 أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الْأُصُورِ
 فَنُتُونُ أَقْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ
 الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ
 مَنَابًا (٢٢) لِّلنَّارِ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
 (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا
 لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ
 أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة (٧) التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عدها كيف [تكفرون به، و] تكذبون ما أخبركم به، من البعث والنشور؟ أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه، وتجدونها؟! (١٧-٣٠)

(١٧-٣٠) (١) عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (٢) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٣) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَفُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ يُجْعَلِ لَآرَضٍ مِهْدًا (٦) وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الْأُصُورِ فَنُتُونُ أَقْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَنَابًا (٢٢) لِّلنَّارِ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحد المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَاتًا﴾ للخلق ﴿يُفْعُخُ فِي الْأُصُورِ فَنُتُونُ أَقْوَاجًا﴾، ويجري فيه من الزعازع

الرب، ولكن المكذبون بقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية، حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)، أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب، ما كانوا به يكذبون، حين يدعون إلى نار جهنم دعا.

ويقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

ثم بين (١) تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت (٢) به الرسل، فقال:

(٦-١٦) ﴿أَلَمْ يُجْعَلِ لَآرَضٍ مِهْدًا﴾ (٦) وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا (١٦) أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جلييلة، فجعلنا لكم ﴿الْأَرْضَ مِهْدًا﴾، أي: ممهدة مهيأة (٣) لكم ولمصالحكم، من الحروث، والمسكن والسبل.

﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾ (٧) تمسك الأرض لثلاث تضطرب بكم وتميد. ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨)، أي: ذكورا وإناثا، من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون (٤) المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان بلذة المنح.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٩)، أي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم التي متى تمادت بكم، أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس، لتقطع (٥) حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢)، أي: سبع سماوات، في غاية القوة، والصلابة والشدة.

وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (١٣) نبه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها، وما فيها من المصالح (٦).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ (١٤)، أي: السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (١٤)، أي: كثيرا جدا.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ (١٥) من برّ وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك مما يأكله آدميون.

﴿وَنَبَاتًا﴾ (١٥) يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتًا

لمواشيهم.

﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾ (١٦)، أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

(١) في ب: ثم ذكر. (٢) في ب: على ما جاءت به الرسل. (٣) في ب: مثله. (٤) في ب: فتكون. (٥) في ب: لتسكن. (٦) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج، وهي حرارتها على ما فيها من الانضاج والمنافع. (٧) في ب: الجلييلة.

ومنجى، ويُعَذَّبُ عن النار.

وفي ذلك المفاز لهم ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق. ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿كَوَاعِبَ﴾ وهي النواهد اللاتي لم تتكسر نديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن^(٦).

والأتراب: اللاتي على سن واحد متقارب. ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات، متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب^(٧).

﴿وَكُلًّا دِهَاقًا﴾، أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، أي: كلامًا لا فائدة فيه ﴿وَلَا كَذِبًا﴾، أي: إثمًا. كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] ﴿جَزَاءَ مَن رَّبَّكَ﴾ لهم ﴿عَطَاءَ حِسَابًا﴾، أي: بسبب أعمالهم التي وفقههم الله لها، وجعلها ثمنًا لجنته ونعيمها^(٨).

(٣٧-٤٠) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۚ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ۝ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا ۝ أَيُّ الَّذِي أُعْطَاهُم هَذِهِ الْعَطَايَا هُوَ رَبِّهِم ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي خَلَقَهَا وَدَبَّرَهَا ۝ الرَّحْمَنُ ۝ الَّذِي رَحِمْتَهُ وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا.

ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكتون لا يتكلمون، و ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين:

أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي الْكَلَامِ، وَأَنْ يَكُونَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ صَوَابًا. لأن ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا يروج فيه الباطل،

والفلاقل ما يشيب له الوليد، وتترعج له القلوب.

ففسير الجبال، حتى تكون كالهواء الميثوث، وتشقق^(١) السماء حتى تكون أبوابا، ويفصل الله بين الخلائق، بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله، وأعددها للطاغين وجعلها مئوى لهم ومأبأ، وأنهم يلثون فيها أحقابًا كثيرة، و «الحقب» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها^(٢) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾، أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم. ﴿إِلَّا حِمِيمًا﴾، أي: ماء حارًا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم.

﴿وَسَفَاقًا﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية التن، وكراهة المذاق.

وإنما استحقوا هذه العقوبات القضيعة جزاء لهم ووفاقًا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق، بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وَكَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ كَذِبًا﴾، أي: كذبوا بها تكذيبًا واضحًا صريحًا، وجاءتهم البينات فعاندها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَخْصَيْنَتْهُ كِتَابًا﴾ أي: كتبناه^(٣) في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون، أنا عذباهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المكذبون! هذا العذاب الأليم، والخزي الدائم ﴿فَلَن تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم. [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها].

(٣١-٣٦) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ۝ وَكُلًّا دِهَاقًا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كَذِبًا ۝ جَزَاءَ مَن رَّبَّكَ عَطَاءَ حِسَابًا﴾ لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي^(٤): الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه^(٥) فلهم مفاز

(١) في ب: وتنشق. (٢) في ب: فإذا وردوها. (٣) في ب: أثبتناه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين. (٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم تنكسر نديهن من شبابهن ونضارتهن وقوتهن. (٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب. (٨) في ب: وجعلها سببًا للوصول إلى كرامته.

ولا ينفع فيه الكذب.

وفي ذلك اليوم ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام،
الذي هو أشرف الملائكة^(١).

﴿وَالْمَلِكُ﴾ ﴿يُضَا يَقُومُ الْجَمِيعُ﴾ ﴿أَصَفًا﴾ خَاضِعِينَ لِلَّهِ ﴿لَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ ﴿إِلَّا بِمَا أذنَ لَهُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ ^(٢).

فلما رَغِبَ، ورَهَّبَ، وبَشَّرَ، وأَنْذَرَ قال:

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾، أي: عملاً وقدّم صدق، يرجع إليه يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أُرِفَ مُقْبِلًا ، وكل ما هو
آت فهو قريب .

﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْ تَأْتُوا بَدَايَ﴾، أي: هذا الذي بهمه،
 ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه ^(٣) كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الآيات.

فإن وجد خيرًا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.
تم تفسير سورة عم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النازعات

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤-١) ﴿وَالنَّارِ عَنِّي غَرًّا ۖ وَالنَّيْطَلِ نَشْطًا ۖ وَالسَّيْحَةِ سَهْمًا ۖ فَالْسَّيْحَتِ سَهْمًا ۖ فَالْمَدْرِيَّتِ أَمْرًا ۖ يَوْمَ رَجَفُ الْأَافِقَةُ ۖ تَنْبَعْهَا الرَّاغِبَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۖ يَقُولُونَ أَوْنَانَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ ۖ أَوْذَا كُنَّا عِظَمًا تَحْرَهُ ۖ قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرِهَ خَاسِرَةٌ ۖ فَلَيْتَا هِيَ رَجَرَةٌ وَجِدَةٌ ۖ فإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه: الجزء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك.

ويحتمل أن المقسم عليه، والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة.

ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه
الملائكة عند الموت وقبله، وبعده، فقال:

﴿وَالنَّزْعَتِ غَرْقًا﴾ وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة،

الجزء الثاني ٥٨٣ سورة النبأ

০৮২

إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ
حَسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمُوتُ
لَا يَأْكُلُ لَحْمٌ مِّنْهُ خَطَبًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَن أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن
شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ عِذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
نَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنتُ رَجُلًا

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّزَعَتِ غَرَقًا ﴿١﴾ وَاللَّيْشَ طَلَّتْ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيْحَةَ سَبْحًا
 ﴿٣﴾ فَالسَّيْقَتِ سَبْعًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْرِيَّتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّائِفَةُ
 ﴿٦﴾ تَنْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا
 خَشَعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا ذَاكُنَا
 عِظْمًا نَخْرَءُ ﴿١١﴾ قَالُوا لَيْتَكَ إِذَا كَرَّ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
 وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴿١٥﴾

وتغرق في نزعها ، حتى تخرج الروح ، فتجازى بعملها .

﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشَاطًا﴾ وهم الملائكة أيضًا، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النشاط يكون لأرواح المؤمنين، والنزع لأرواح الكفار^(٤).

﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: المترددات في الهواء صعودًا ونزولًا
﴿سَبْعًا﴾.

﴿فَالسَّيِّئَاتِ﴾ لغيرها ﴿سَبَقًا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله، حتى لا تسترقة^(٥).

﴿فَالْمَذِيْرَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيراً من أمور العالم^(٦)، العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار [وغير ذلك].

(١) في ب: أفضل الملائكة. (٢) في ب: إلا ياذنه. (٣) في ب: فليظفر في هذه الدار ما قدم لدار القرار. (٤) هكذا في ب معدلاً في هامش النسخة بخط الشيخ، وفي أ: أن النزاع يكون لأرواح المؤمنين والنشط لأرواح الكفار. (٥) في ب: ثلثا تسترقه. (٦) في ب: الذين جعلهم الله يديرون كثيراً من أمور العالم.

فرعون مما دعاه إليه موسى .

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ ، أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينفى تعددها ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ .

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَعَصَى﴾ الأمر، ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ ، أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته .

﴿فَحَسَرْتُ﴾ جنوده أي: جمعهم ﴿فَنَادَى﴾ ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتْلُوهُنَّ﴾ فاذعنوا له، وأقروا بباطله، حين استخفهم .

﴿فَأَنذَرَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي: صارت عقوبته ^(١) دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ، فإن من يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر .

فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قبله، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها] .

(٢٧-٣٣) ﴿أَنَّهُ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسْهَلُ﴾ رَفَعَ سَكَتَهَا ﴿فَسَوَّيْتُهَا﴾ وَأَغْطَشْتُ لَيْلَهَا وَأَخْرَجْتُ ضُحَاهَا ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿وَالْجِبَالُ أَوَّسَهَا﴾ مَنَعًا لِّكُلِّ لَاقٍ ﴿وَلَا تُفْصِحُ﴾ يقول تعالى - مبيناً دليلاً واضحاً لمنكري البعث، ومستعدي إعادة الله للأجساد -:

﴿أَنَّهُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسْهَلُ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بِئْسَ مَا يَكُونُ﴾ .

﴿رَفَعَ سَكَتَهَا﴾ ، أي: جرمها وصورتها ﴿فَسَوَّيْتُهَا﴾ بإحكام وإتقان، بغير العقول، ويذهل الأبواب .

﴿وَأَغْطَشْتُ لَيْلَهَا﴾ ، أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض .

﴿وَأَخْرَجْتُ ضُحَاهَا﴾ ، أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد ^(٢) الناس في مصالح دينهم ودنياهم .

﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماء ﴿دَحَاهَا﴾ ، أي: أودع فيها منافعها .

وفسر ذلك بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ﴿وَالْجِبَالُ أَوَّسَهَا﴾ ، أي: ثبناها في الأرض .

فَدَحَّى الْأَرْضُ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة] .

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي كُنْتُ لَكَفُورًا وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى أن

(١) في ب: وابتعته بالوحي واجتبه . (٢) في ب: أي: جعل الله عقوبته . (٣) في ب: فانشر .

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ وهي قيام الساعة .

﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: الرجفة الأخرى التي تردفها، وتأتي تلوها .

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: موجفة ومتزعجة من شدة ما ترى وتسمع .

﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ أي: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف، [واستولت عليهم] الحسرة .

يقولون، أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿أَوَدَّا كُنَّا عِظَمًا تَحَرَّةً﴾ ، أي: بالية فتانا .

﴿قَالُوا نَلَكَ إِذَا كَرِهَ خَاسِرَةٌ﴾ ، أي: استبعدوا أن يعيظهم الله، ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتجرؤا عليه .

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فَاتَّخَذَ مِنْ زَجْرِهِ وَجِدَةً﴾ ، ينفخ فيها في الصور .

فإذا الخلائق كلهم ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ ، أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم .

(١٥-٢٦) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبَ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخُذْ ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ فكَذَّبَ وَعَصَى ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ ﴿فَحَسَرْتُ فَنَادَى﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَخْلَى﴾ فَأَنذَرَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ يقول [الله] تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ، وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه .

أي: هل أتاك حديثه ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتّن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي، والاجتباء ^(١) فقال له:

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ، أي: فانه عن طغيانه، وشركه، وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف لعله ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾

﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبَ﴾ ، أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الأبواب، وهي أن تُركي نفسك، وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ، أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه .

﴿فَخُذْ﴾ الله، إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع

قال: ﴿ثُمَّ أَسْرَوْنِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَمَّا وَلاَئِضَ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتْ أَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١).

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزاء^(٢)، فقال:

(٣٤-٤١) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَىٰ ۖ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۚ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ۚ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ وَآثَرَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَبَّ النُّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ أَي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، [وكل محب عن حبيب].
و ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسنة، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾، أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد قد برزت^(٣) لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾، أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وَآثَرَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [له] أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف القيام عليه، ومجازاته بالعدل فأثر هذا الخوف في قلبه، فنهى نفسه عن هواها الذي يقيد^(٤) عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة، الصادين عن الخير.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [المشتلة على كل خير وسرور ونعيم] ﴿هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ لمن هذا وصفه.

(٤٦-٤٢) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا ۖ إِنَّهَا آتٌ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّحْشُهَا ۖ كَانَتْ يَوْمَ يَرْوُهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوِ ضُحَاهَا ۖ أَي: يسألك المتعنتون

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾
فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٨﴾ فَأَرِنَهُ
آيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٩﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ ۖ فَجَحْشَرَ
فَنَادَىٰ ﴿٢١﴾ فَقَالَ أَنَارِبُكُمْ عَلَیَّ ۖ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٢﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنِ يَخْشَىٰ ﴿٢٣﴾ إِنَّكُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَوْ أَسْمَاءُ بَنَدًا
﴿٢٤﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٢٥﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٦﴾
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٧﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢٨﴾
وَالْجِبَالَ أَرْسَسَهَا ﴿٢٩﴾ مِّنْعًا لَّكُمْ وَلَا تُنْعِمُكُمْ ﴿٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ
الْكُبْرَىٰ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٢﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ
لِمَنْ يَرَىٰ ﴿٣٣﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٤﴾ وَآثَرَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴿٣٥﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٦﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَبَّ النُّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٧﴾
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا
﴿٣٩﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٠﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا ﴿٤١﴾ إِنَّهَا آتٌ مُنْذِرٌ
مِّنْ يَّحْشُهَا ﴿٤٢﴾ كَانَتْ يَوْمَ يَرْوُهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٣﴾

سُورَةُ عَبَسَ

المكذبون بالبعث ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ متى وقوعها ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، فأجابهم الله بقوله:

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾، أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها، ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة. ولهذا لما كان علم العباد للساعة، ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا﴾، أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِوقِهَا إِلَّا هُوَ ۚ تَقُولُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْلَةً ۚ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِي عَثَرًا ۚ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥).

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَسْرَوْنِي إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وضواب ذلك ما أثبتته. (٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء. (٣) في ب: هبت. (٤) في ب: الذي يصدها. (٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة أ، ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأنتمتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨٥

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى ۚ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَعَى ۚ (٥) فَأَنْتَ لَهُ مُصْدَقٌ ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ الْأَلْبُرَى ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ لَهْفَى ۚ (١٠) كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۚ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ (١٢) فِي ضُحًى مَكْرَمَةٍ ۚ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ (١٦) قِيلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ ۚ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ (١٨) مَنْ نُطْفَعَهُ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۚ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۚ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۚ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ۚ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ (٢٦) فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضْبًا ۚ (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۚ (٣٠) وَفُكْهَةً وَأَبَّا ۚ (٣١) مَتَّعْنَاكُمْ وَلَئِنَّمَا لَكُمُ ۚ (٣٢) فَادْجَا بَاتِ الصَّاحَةِ ۚ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ (٣٥) وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ۚ (٣٦) لِكُلِّ أُمَرٍ يَوْمَئِذٍ شَانٌ ۚ (٣٧) يُغْنِيهِ ۚ (٣٨) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ ۚ (٣٩) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۚ (٤٠) وَوُجُوهٌ ۚ (٤١) يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۚ (٤٢) تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ۚ (٤٣) أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۚ (٤٤)

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٠) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنْ اسْتَعَى ۚ فَأَنْتَ لَهُ مُصْدَقٌ ۚ وَمَا عَلَيْكَ الْأَلْبُرَى ۚ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ لَهْفَى ۚ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُرِيمَاتِ أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْمَى يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ .

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصًا على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصدَّ عن الأعمى الفقير رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعًا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال:

﴿عَبَسَ﴾ [أي:] في وجهه ﴿وَتَوَلَّى﴾ في بدنه لأجل مجيء الأعمى له .

ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه فقال:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى﴾ أي: الأعمى ﴿يُزَكَّى﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة؟ .

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ ؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل^(١) بتلك الذكرى .

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فأقبالك على من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك منك^(٢)، هو الأليق الواجب .

وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل، ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتركك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر .

فدل هذا على القاعدة المشهورة أنه: «لا يترك أمر معلوم

لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متروكة» .

وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه أزيد من غيره .

(١-٣٢) ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۚ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ فِي ضُحًى مَكْرَمَةٍ ۚ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ قِيلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ ۚ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ مَنْ نُطْفَعَهُ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۚ ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۚ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۚ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ۚ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَبْنَا وَقَضْبًا ۚ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۚ وَفُكْهَةً وَأَبَّا ۚ مَتَّعْنَاكُمْ وَلَئِنَّمَا لَكُمُ ۚ فَادْجَا بَاتِ الصَّاحَةِ ۚ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ أُمَرٍ يَوْمَئِذٍ شَانٌ ۚ يُغْنِيهِ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ ۚ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۚ وَوُجُوهٌ ۚ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۚ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۚ

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها فقال:

(١) في ب: فيتنفع . (٢) في ب: مفتقرًا لذلك مقبلاً .

الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

(٣٣-٤٢) ﴿وَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ۖ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّيهِ ۖ وَأَبِيهِ ۖ وَصَدِيقِهِ ۖ وَبَيْنَهُ ۖ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۖ وَوُجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْفَعُهَا قَدَرٌ ۖ أُولَئِكَ هُمْ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ۖ أَي: إذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماك، وتنزع لها الأفتدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ۖ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّيهِ ۖ وَأَبِيهِ ۖ وَصَدِيقِهِ ۖ أَي: زوجته﴾ ﴿وَبَيْنَهُ ۖ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۖ أَي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء.

فأما السعداء فوجههم [يومئذ] ﴿مُسْفِرَةٌ ۖ أَي: قد ظهر فيها السرور والبهجة من ما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم. ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهُهُمْ ۖ الْأَشْقِيَاءُ ۖ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْفَعُهَا ۖ أَي: تغشاها﴾ ﴿قَدَرٌ ۖ فِيهِ سُدَاءٌ ۖ مَظْلَمَةٌ مَدْلُهَا قَدْ أَيسَتْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ۖ وَعُرفتْ شَقَاؤُهَا وَهَلَاكُهَا. الذين بهذا الوصف﴾ ﴿هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ۖ أَي: الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجروا على محارمه.

نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم، [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة التكويم

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٤) ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۖ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۖ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۖ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۖ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۖ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ وَإِذَا الْكُلُوبُ رُجِحَتْ ۖ وَإِذَا الْآلَمُودَةُ سُجِّلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قِيلَتْ ۖ وَإِذَا الْخُفُوفُ سُيِّرَتْ ۖ وَإِذَا الْكُتُوبُ أُنْفِلَتْ ۖ وَإِذَا الْكُتُوبُ أُنْفِلَتْ ۖ عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۖ أَي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة تميز الخلق، وعلم كل أحد ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أي: تجمع وتلف ويخسف القمر ويلقيان في النار.

﴿فِي صُفُوفٍ مُكْرَمَةٍ ۖ مَرْفُوعَةٍ ۖ الْقَدْرَ وَالرَّتَبَةَ ۖ مُطَهَّرَةً ۖ﴾ [من الآفات] وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها.

بل هي ﴿يَأْتِي سَفَرٌ ۖ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ ۖ الَّذِينَ هُمْ السَّفَرَاءُ ۖ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ.

﴿كَرَامٌ ۖ أَي: كثيري الخير والبركة﴾ ﴿بَرَكَةٌ ۖ قُلُوبُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِنْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْذَرُ ۖ لَعَمْرُ اللَّهِ ۖ وَمَا أَشَدَّ مَعَادَتَهُ لِلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ۖ وَهُوَ مَا هُوَ ۖ هُوَ مِنْ أضعف الأشياء خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَ ۖ أَي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل [وبيَّنه] وامتحنه بالأمر والنهي.

﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُكَ فَاعْبُدْ ۖ أَي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرْنَاهُ ۖ أَي: بعثه بعد موته للجزاء. فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك.

وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير في طعامه، وكيف وصل إليه بعد ما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره له فقال:

﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۖ أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۖ أَي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة.

﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ لِلنَّاتِ ۖ شَقًّا ۖ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا ۖ أَصْنَافًا مُصَنَّفَةً ۖ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَطْعَمَةِ اللَّذِيذَةِ وَالْأَقْوَاتِ الشَّهِيَةِ ۖ حَبًّا ۖ وَهَذَا شَامِلٌ لِسَائِرِ الْحَبُوبِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا.

﴿وَعَبْنَا وَصَبًّا ۖ وَهُوَ الْقَتْلُ ۖ وَزَيَّنَّا وَنَحْلًا ۖ وَخَصَّنَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ لَكثرة فوائدها ومنافعها.

﴿وَسَدَّقْنَا عَلَيَّ ۖ أَي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة. ﴿وَفَكَّهْنَاهُ وَابًّا ۖ الْفَاكِهَةُ ۖ مَا يَتَفَكَّهُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ تِينٍ وَعَنْبٍ وَخَوْخٍ وَرَمَانٍ، وغير ذلك.

والآب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَعْمِيكُمْ ۖ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم.

فمن نظر في هذه النعم أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل

وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحت أولي الأبواب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأيي عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

(١٥-٢٩) ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَّلِعٌ أَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝ وَقَدْ رَأَى الْآفَاقَ الْآخِرِينَ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أقسم تعالى ﴿بِالْحَقِّسِ﴾ وهي الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: «الشمس»، و «القمر»، و «الزهرة»، و «المشتري»، و «المريخ»، و «زحل»، و «عطارد»، فهذه السبعة لها سيران: سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك^(٤).

وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها. فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها وفي حال كنوسها أي: استارها بالنهار. ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم^(٥): الكواكب السيارة وغيرها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ أي: أدبر، وقيل: أقبل. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ أي: بانت^(٦) علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس. وهذه آيات عظام أقسم الله بها على علو سند القرآن^(٧) وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم فقال:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لِتُزِيلَ بِهِ السُّجُودَ ۝ وَنُزِّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾. ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ على ما أمره الله به. ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي: تغيرت، وتساقطت^(٨) من أفلاكها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: صارت كتيلاً مهيلًا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثًا، وسيرت عن أماكنها.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: عطل الناس حينئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبه بالعشار - وهي: النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم - على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وَإِذَا الْخُشُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت ليوم القيامة ليقصص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه ليقصص من القراء للجما^(٩)، ثم يقول لها: كوني ترابًا.

﴿وَإِذَا الْيَحَاوُ سُحِرَتْ﴾ أي: أوقدت فصارت - على عظمها - نارًا تتوقد.

﴿وَإِذَا الْنُفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحوار العين، والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، ﴿أَخْرَجُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن النبات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: ﴿يَايَ ذُنُبٍ قُتِلَتْ﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب ففي هذا توبيخ وتقرير لقاتليها^(١٠).

﴿وَإِذَا الشُّحُفُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَىٰ مَا عَمَلَهُ الْعَامِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ نُثِرَتْ﴾ وقرت على أهلها، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

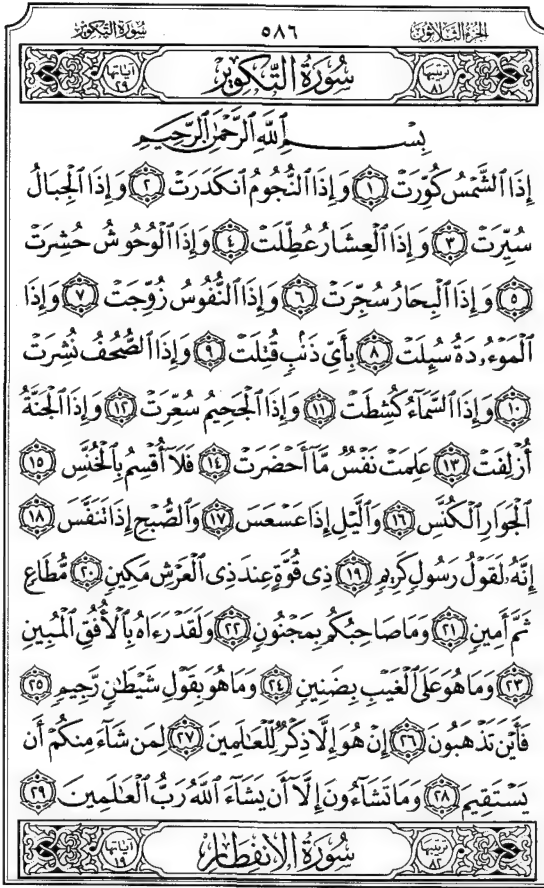
﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي: أزيلت كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ الْكُتُبِ﴾، ﴿وَالْأَرْضُ جَبَبًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أي: أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ﴾ أي: قُرِبَت للمؤمنين.

﴿عِلْمٌ نَفْسٍ﴾ أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط. ﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ أي: ما حضر لديها من الأعمال [التي قدمتها] كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

(١) في ب: وتناثر. (٢) في ب: حتى إنه يقتص للشاء الجماء من الشاة القراء. (٣) في ب: ولكن هذا فيه توبيخ وتقرير لقاتليها. (٤) في ب: مع سائر الكواكب والفلك. (٥) في ب: الكواكب. (٦) في ب: بدت. (٧) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.



﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها.

﴿مَكِينٌ﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿مُطَاعٌ﴾ أي: جبريل مطاع في الملأ الأعلى، لديه^(١) من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه.

﴿أَمِينٌ﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حد له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة.

والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن ودعا إليه الناس فقال:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿يَمْجُوتُ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذوبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به ما شاءوا وقدروا عليه.

بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْبَيْنِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرءوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأجباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ لما ذكر جلالة كتابه^(٢) وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه فقال:

﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿فَإِنَّ تَذَهُبُونَ﴾ أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات

الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون، [وأرذل] وأسفل الباطل؟!!

هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والردائل [والأمثال] ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمناع.

وفي هذه الآية وأمثالها رد على فرقتي القدرية النفاة والقدرية المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

(١) في ب: لأنه. (٢) كذا في ب، وفي أ: جلالته.

تفسير سورة الانفطار

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ٥ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ٦ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ٧ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ٨ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ٩ ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ١٠ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ١١ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ١٢ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ١٣ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ١٤ كَرَامًا ١٥ كَنِينٌ ١٦ يَعْلَمُونَ مَّا تَفْعَلُونَ ١٧ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٨ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ١٩ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ٢٠ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ٢١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ٢٢ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ٢٣ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ٢٤﴾

فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيًا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسائر.

هنالك بعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي (٣). [وهناك] يفوز المتقون - المقدمون لصالح الأعمال - بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

(٦-١٢) ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ١٠ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ١١ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ١٢ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ١٣ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ١٤ كَرَامًا ١٥ كَنِينٌ ١٦ يَعْلَمُونَ مَّا تَفْعَلُونَ ١٧﴾ يقول تعالى معاتبًا للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرىء على مساخطه (٤): ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ١٠﴾ أنها ونا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟.

أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ﴾ في أحسن تقويم؟. ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وركبك تركيبًا قويًا معتدلًا في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات.

فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟.

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات.

[فلهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أي: مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

٥٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ٥ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ٦ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ٧ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ٨ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ٩ ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ١٠ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ١١ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ١٢ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ١٣ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ١٤ كَرَامًا ١٥ كَنِينٌ ١٦ يَعْلَمُونَ مَّا تَفْعَلُونَ ١٧ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٨ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ١٩ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ٢٠ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ٢١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ٢٢ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ٢٣ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ٢٤﴾

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا لَوْاعَىٰ ٢ أَلَّا يَظُنُّوا أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ٣ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٥﴾

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كرامًا يكتبون أقوالكم وأفعالكم يعلمون أفعالكم، ودخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكموهم وتجلوهم وتحترموهم.

(١٣-١٩) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٨﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ١٩ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ٢٠ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ٢١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ٢٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ٢٣ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ٢٣ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ٢٤﴾ المراد بالأبرار القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا [وفي دار البرزخ وفي] دار القرار.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الذين قصرُوا في حقوق الله وحقوق عباده الذين فجرت قلوبهم فجرت أعمالهم ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي: عذاب أليم في دار الدنيا، و[دار] البرزخ وفي دار القرار.

(١) في ب: وتناثر. (٢) في ب: بأن أخرج. (٣) في ب: إذا رأى ما قدمت يده وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي. (٤) في ب: المقصر في حقه المتجرى على معاصيه.

من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعده تعالى المطففين وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه فقال:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدي الله، يحاسبهم^(٩) على القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه. (١٧-٧) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ۝ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ۝ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من أنواع الكفرة والمنافقين والفاشرين ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ ثم فسر ذلك بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْمُومٌ﴾ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجّين: المحل الضيق الضنك، و «سجين» ضد «عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار، ومستقرهم في معادهم.

﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم بين المكذبين بأنهم^(١٠) ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أَثِيمٌ﴾ أي: كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب، ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب له] كبره رد الحق ولهذا:

﴿إِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا﴾ الدالة على الحق والحق [على] صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها و ﴿قَالَ﴾: هذا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله، تكبراً وعناداً.

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ولو كانت لها قرية [أو حبيبة] مصافية فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يفصل بين العباد ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [والله أعلم].

تفسير سورة المطففين

وهي مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿وَيَلَّيْ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ﴾. ﴿وَيَلَّي﴾ كلمة عذاب ووعيد^(٢) ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾. وفسر الله المطففين بقوله^(٣) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قيلهم يستوفونه كاملاً من غير نقص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي للناس^(٤) عليهم بكيل أو وزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان أو نحو ذلك، فهذا سرقة [لأموال] الناس^(٥) وعدم إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد^(٦) على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات.

بل يدخل في [عموم هذا]^(٧) الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد [منهما] يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجج^(٨) [التي لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان

(١) في ب: وهي مدنية. (٢) في ب: وعقاب. (٣) في ب: بأنهم. (٤) في ب: لهم. (٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس. (٦) في ب: وعيداً. (٧) في ب: يدخل في ذلك. (٨) في ب: الحجة. (٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم. (١٠) في ب: ثم بينهم بقوله.

وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب يوم الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار^(١)، بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه فإنه محبوب عن الحق.

ولهذا جوزي على ذلك بأن حُجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله.

﴿ثُمَّ يَأْتِيهِمْ﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.

ثم يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾.

فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويتهجون بخطابه ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطي شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض^(٢) عقوبات الذنوب.

(٢٧-١٨) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ۝ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْمَقَرُونَ ۝ إِنَّ الْآبِرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى الْآرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ۝ خَتَمَهُمْ مِسْكَ ۝ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝ وَمِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۝ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ فِي أَسْفَلِ الْأَمْكَنَةِ وَأَضْيَقُهَا، ذَكَرَ أَنَّ كِتَابَ الْآبِرَارِ فِي أَعْلَاهَا وَأَوْسَعُهَا وَأَفْسَحُهَا.

وأن كتابهم المرقوم ﴿يَشْهَدُهُ الْمَقَرُونَ﴾ من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، ويُنَوِّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى.

و«عليون» اسم لأعلى الجنة.

فلما ذكر كتابهم ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿عَلَى الْآرَائِكِ﴾ أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى

وجه ربهم الكريم.

﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي:

بهاء النعيم^(٣) ونضارته ورواقه.

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

٥٨٨

الْأَلِفُ

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا لَأْكُلُ مَعْدِي أَيْمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُنْزِلُ عَلَيْهِ الْبَنَاتُ قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْآبِرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمَقَرُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْآبِرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْآرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُ مِسْكَ ۝ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

فإن توالي اللذة والسرور^(٤) يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة والذها.

﴿مَخْحُومٍ﴾ ذلك الشراب ﴿خَتَمَهُ مِسْكَ﴾.

يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك، ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر.

فهذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة.

﴿فِي ذَلِكَ﴾ النعيم المقيم الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه

(١) في ب: وصار لبصارتهم بمنزلة الشمس للأبصار. (٢) في ب: من أعظم. (٣) في ب: أي: بهاء. (٤) في ب: فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح.

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، وأروهم^(٥) في العذاب والنكال الذي هو عقوبة الغي والضلال. نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥-١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِهِ ۖ فَمَا مِنْ أَوْفٍ كُتِبَ بِسَيِّئِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كُتِبَ وَرَاءَهُ ظُهُورُهُ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ۖ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۖ يقول تعالى مبينًا لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ أي: انفتحت وتمايز بعضها من بعض، وانثرت نجومها وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاحت لخطابه.

وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدّها الله تعالى مد الأديم حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فصير قاعًا صافصفاً، لا ترى فيها عوجًا ولا أمًا.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِهِ﴾ أي: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه،

(١) في ب: المحسنين. (٢) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين. (٣) في ب: وهذا أشد. (٤) في ب: مع الأمن. (٥) في ب: حين أروهم.

والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تراحمت للوصول إليه فحول الرجال.

(٢٨) ومزاج هذا الشراب من تسنيم وهي عين ﴿يَتَرَبَّهَا الْمُعْرَوُونَ﴾ صرْفًا وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

(٢٩-٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ۖ فَأَلْيَمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۖ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَقُولُونَ ۖ هَلْ ثُوبٌ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المؤمنين^(١)، و[ذكر] ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم ويضحكون منهم ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقارًا لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ صباحًا أو مساءً ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مغتبيين^(٢).

وهذا من أعظم^(٣) ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن^(٤) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجروا على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرسوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم.

قال تعالى: ﴿فَأَلْيَمُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون.

والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ﴾ وهي السرر المزينة.

﴿يَقُولُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هَلْ ثُوبٌ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

٥٨٩

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُوْبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًا فَمَنْعَكَ قِيَمَهُ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِعَمَلِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصِلُ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

لأوامره ونواهيه.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَذِبُونَ﴾ أي: يعاندون الحق بعد ما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عنادا لا حيلة فيه.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يعملونه ويتوونه سرا، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر في البشارة سرورا أو غما.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله فأمنوا بالله وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة، والله الحمد.

(١) في ب: جزء بالفضل أو العدل بالفضل إن كنت سعيدا، وبالعبوة إن كنت شقيئا. (٢) في ب: من وراء ظهره. (٣) في ب: ولا.

ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلافي الله يوم القيامة فلا تعدم منه جزاء، بالفضل إن كنت سعيدا؛ أو بالعدل إن كنت شقيئا^(١).

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِعَمَلِهِ﴾ وهم أهل السعادة.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى]: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم».

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله من خلفه^(٢).

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها.

﴿وَيَصِلُ سَعِيرًا﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ لا يخطر البعث على باله وقد أساء، ولم^(٣) يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

(١٦-٢٥) ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَفَقِ﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ○ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ○ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ ○ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ○ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ○ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَذِبُونَ ○ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ○ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ○ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ○ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتاح الليل.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: امتلا نورا بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ [أي: أيها الناس ﴿طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ﴾ أي: أطوارا متعددة وأحوالا متباعدة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح.

ثم يكون وليداً وطفلاً ثم مميزاً، ثم يجري عليه قلم التكليف والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله.

فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده، بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير، عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم.

ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: لا يخضعون للقرآن ولا يتقادون

تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٢٢) ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ ○ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ○ وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ ○ قِيلَ أَصْحَبُ الْأُحْدُوْدِ ○ النَّارُ ذَاتَ الْوُوقُوْدِ ○ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُوْدٌ ○ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ○ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ○ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ○ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ○ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ○ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ○ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ○ إِنَّهُمْ هُوَبٌ مَبْدُؤٍ وَبُعْدٍ ○ وَهُوَ الْغُفُورُ الْوَدُودُ ○ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ○ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ○ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ○ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ ○ بَنِي الْأَدْنَى كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ○ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ○ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ○ فِي لَوْحٍ مَحْضُومٍ ○ ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ ○ أَي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته وسعة علمه وحكمته.

﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله الميعاد. ﴿وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف، أي مُبْصِرٌ ومُبْصَرٌ وحاضر ومَحْضُورٌ، وراءٍ ومُرْتَبِيٌّ. والمقسم عليه ما تضمنه هذا القسم، من آيات الله الباهرة وحكمه الظاهرة ورحمته الواسعة. وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قِيلَ أَصْحَبُ الْأُحْدُوْدِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و «الأحدود»: الحفر التي تحفر في الأرض. وكان أصحاب الأحدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول^(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أحدودًا [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها. فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، ولهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قِيلَ أَصْحَبُ الْأُحْدُوْدِ﴾. ثم فسر الأحدود بقوله: ﴿النَّارُ ذَاتَ الْوُوقُوْدِ ○ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا

سُورَةُ الْبُرُوجِ
٥٩٠
سُورَةُ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ (٣)
قِيلَ أَصْحَبُ الْأُحْدُوْدِ (٤) النَّارُ ذَاتَ الْوُوقُوْدِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُوْدٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ○ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُمْ هُوَبٌ مَبْدُؤٍ وَبُعْدٍ (١٣) وَهُوَ الْغُفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ ○ بَنِي الْأَدْنَى كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ (١٨) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (١٩) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ (٢٠) فِي لَوْحٍ مَحْضُومٍ (٢١)

سُورَةُ الطَّارِقِ

قُعُوْدٌ ○ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ○. وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تنفطر منه القلوب. وحضورهم إياهم عند إلقاءهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة^(١) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه^(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا. أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله أن يطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم ممالك لله^(٤)، ليس لأحد

(١) في ب: على الدخول. (٢) في ب: حالة. (٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء. (٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم ممالك لله.

فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا يراحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فله الحمد والثناء وصفو الوداد، ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!!

﴿ذُو الْعَرْشِ الْجَدِيدِ﴾، أي: صاحب العرش العظيم الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي.

فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لساثر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر يكون «المجيد» نعتاً للعرش.

وأما على قراءة الرفع فإن المجيد نعت لله^(٥)، والمجد سعة الأوصاف وعظمته.

﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وليس أحد فعلاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد. ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله فقال: ﴿هَلْ أُنْكِرُ حَلِيَّتَ الْجُودِ ۝ فَرَعَوْنَ وَمُودَ﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين.

﴿بَلِ الْبَلِيِّ كُفْرًا فِي تَكْذِيبِ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدره، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾.

فيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة.

على أحد سلطة من دون إذن المالك؟.

أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجاز لهم على فعالهم^(١)؟.

كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى^(٢) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم وعرض عليهم التوبة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا وَهُمْ قُلُوبُهُمْ كُفْرًا فَهُمْ يَدْعُونَ بِنُوحٍ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَآءٍ قَدْ بَعَلْنَا لَهُمْ أَنْبِيَآءَهُمْ وَكُنَّا عَادَافًا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْأَلُوا هَٰؤُلَاءِ مَا كَانَتْ عِقَابُهُمْ قُلُوا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أوليائه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثواب المؤمنين فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَبَلَّغُوا عَمَلَهُمْ إِلَىٰ السَّعَادَةِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز^(٣) برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام، [لقوية] شديدة وهو بالمرصاد للظالمين.

كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَكْبَرُ سَبِيحٍ﴾.

﴿إِنَّمَا هُوَ يُبَدِّلُ وَيُبَدِّلُ﴾ أي: هو المتفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك^(٤).

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأتاب.

﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء.

فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال، فمحبة في قلوب خواص خلقه التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب.

ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها كانت عذاباً على أهلها.

وهو تعالى الودود الواو لأحبابه كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية.

وفي هذا سر لطيف حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأتابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت،

(١) في ب: مجازيهم عليها. (٢) في ب: والجاهل في عمى وضلال.

(٣) في ب: حصل لهم الفوز. (٤) في ب: فلا يشاركه في ذلك

مشارك. (٥) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٧) ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنْهُمْ عَلَى جَوِيمٍ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝ وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُمْ لَفَقُولٌ قَصَلٌ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا فَرْقُلٌ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُويًا﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾.

ثم فسر الطارق بقوله ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي: المضيء الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [فينفذ حتى يرى في الأرض] والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها^(١)، فيرى منها.

وسمي طارقاً لأنه يطرق ليلاً.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه فإنه مخلوق ﴿مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو المني الذي ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾. يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد: المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائب، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفعه هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى لقال: «من بين الصلب والثديين» ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء].

وقد قيل: إن معناه أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر، ولهذا - وإن كان المعنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده:

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان

سورة الطارق

٥٩١

الجزء الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُمْ عَلَى جَوِيمٍ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ لَفَقُولٌ قَصَلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا فَرْقُلٌ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُويًا ﴿١٧﴾

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَتَقَرُّنَاكَ ﴿٦﴾ فَلَا تَسْئَلُ ﴿٧﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٨﴾ وَيُخَوِّدُكَ ﴿٩﴾ لِلْيَسْرَى ﴿١٠﴾ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿١١﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٢﴾ وَيَنْجِنُهَا الْأَشْفَى ﴿١٣﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٤﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ ﴿١٥﴾ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٦﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَى ﴿١٧﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٨﴾

في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَيِّنُ وَجْهُهُ وَيَسُودُ وَجْهُهُ﴾.

ففي الدنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة فيظهر برّ الأبرار وفجور الفجار وتصير الأمور علانية.

﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ يدفع بها عن نفسه^(٢) ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ خارجي^(٣) ينتصر به، فهذا القسم على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن فقال: ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتتصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقار والشتون الإلهية كل وقت، وتتصدع الأرض عن الأموات.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: القرآن ﴿لَفَقُولٌ قَصَلٌ﴾ أي: حق وصدق بين واضح.

(١) في ب: وينفذها. (٢) في ب: أي: من نفسه يدفع بها. (٣) في ب: من خارج.

ويذكر فيها نعمه الدينية.

ولهذا امتنَّ الله بأصلها ومنشأها^(٤)، وهو القرآن فقال:

﴿سَنُفِّثُكَ فَلَا تَنسَى﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب ونوعيه قلبك فلا تنسى منه شيئاً.

وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه علماً لا ينساه.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة.

﴿إِنَّهُمْ يَكْمُرُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد^(٥).

﴿وَيُنِيرُكَ لِلنَّارِ﴾ وهذه أيضاً بشارة كبيرة^(٦)، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسيراً^(٧).

﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِنْ نَعَى الذِّكْرَى﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهياً عنها.

فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَفَى﴾ الله تعالى فإن خشية الله تعالى وعلمه بأن سيجازيه على أعماله^(٨) توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي^(٩)، والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين فذكرهم بقوله: ﴿وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الذي يصلي النار الكبريى وهي النار الموقدة التي تطلع على الأفق. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي: يعذب عذاباً أليماً من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ أي: قد فاز وريح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوىء الأخلاق.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصْلَى﴾ أي: اتصف بذكر الله وانصبغ به

﴿وَمَا هُوَ بِالْقَلِيلِ﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقاتلات، وتفصل به الخصومات.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون؛ ولدفع ما جاءوا به من الباطل؛ ويعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحق من أن يغالب القوي العليم في كيده.

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمُ رُبُّيًا﴾ أي: قليلاً، فيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سبج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩-١) ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ○ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ○ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ○ فَجَعَلَ عِثَاءً أَحْوَى ○ سَنُفِّثُكَ فَلَا تَنسَى ○ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ○ وَنُيِّنُّكَ لِلنَّارِ ○ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعِيَ الذِّكْرَى ○ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَفَى ○ وَنَجِّنَبُهَا الْأَشْقَى ○ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ○ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ○ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ○ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصْلَى ○ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ○ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ ○ وَأَبْقَى ○ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ○ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ○ يَأْمُرُ تَعَالَى بِتَسْبِيحِهِ المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم^(١). وتذكر أفعاله التي منها: أنه خلق المخلوقات فسواها أي: أتقنها وأحسن خلقها.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرًا تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

ولهذه الهداية العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي: أنزل من السماء ماء، فأنبث به أنواع^(٢) النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم، وكل حيوان^(٣).

ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته وصورَّ عشب.

﴿فَجَعَلَ عِثَاءً أَحْوَى﴾ أي: أسود أي: جعله هشيمًا رميمًا،

(١) في ب: بمعناها العظيم الجليل. (٢) في ب: أصناف. (٣) في ب: وجميع الحيوانات. (٤) في ب: وماداتها. (٥) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد. (٦) في ب: أخرى. (٧) كذا في ب، وفي أ: يسيراً. (٨) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال. (٩) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.

قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة.

وأما من فسر قوله: ﴿زَكَاةً﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلًا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل، على الآخرة.

[وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى] وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب ﴿وَأَبْقَى﴾ لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء.

فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد.

فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة ﴿لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى اللذين هما أشرف المرسلين، سوى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة سبح، والله الحمد.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٦) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ○ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ○ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ○ تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ عَانِيَةٍ ○ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ○ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ○ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمٌ ○ لَسَعِبَهَا رَاضِيَةٌ ○ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ○ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةٌ ○ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ○ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ○ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ○ وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ○ وَزَكَرَاتُ رَبِّهِ يُذَكِّرُ تَعَالَى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأحوال الطامّة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار:

﴿وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَاشِعَةٌ﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ ٥٩٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ عَانِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمٌ (٨) لَسَعِبَهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةٌ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَكَرَاتُ رَبِّهِ يُذَكِّرُ (١٦) تَعَالَى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأحوال الطامّة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي: تاعبة في العذاب تُجرُّ على وجوها وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ○ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة هباءً منثورًا.

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها^(٢)؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان ﴿تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ عَانِيَةٍ﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وَلَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وَلَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وَلَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أي: حارة شديدة الحرارة.

(١) في ب: بعد. (٢) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

وأما طعامهم ف﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال.

وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والتن والخسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير فوجوههم يوم القيامة ﴿نَاعِمَةٌ﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور.

﴿لَسَوْفَ﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله.

﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تمناه.

وذلك أنها ﴿وِي جَنَّاتٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها ﴿عَالِيَةٍ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عِلِينَ، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿فَنُفِثُوا فِي دَائِنَةٍ﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول، بحيث يتناولونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿لَغِيَّةٌ﴾ أي: كلمة لغو وباطل فضلًا عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى وذكر نعمه المتواترة عليهم، و[على] الآداب المستحسنة^(١) بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب ويشرح الصدور.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأتوا أرادوا.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ و «السُرر» جمع «سرير» وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْسُوعَةٌ﴾ أي: أوإن ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿وَنَزَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصُفُّوها بأنفسهم.

﴿وَنَزَارِقٌ مَثْبُوتَةٌ﴾ والزرايبي [هي]: البسط الحسان، ماثوبة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

(١٧-٢٦) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وَإِلَى السَّائِ

كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿يقول تعالى حثًا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحده:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض^(٢) وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: مدت مددًا واسعًا وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلاق^(٣) على ظهرها، ويتمكنوا من حراثتها وغراسها والبناء فيها وسلوك الطرق الموصلة^(٤) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر^(٥) الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعد. فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة^(٦) فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: ذكّر الناس وعظهم وأنذروهم وبشروهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلًا بأعمالهم. فإذا قمت بما عليك فلا عليك بعد ذلك لوم كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي: الشديد الدائم ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: رجوع الخليفة^(٧) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر. آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين.

(١) في ب: الحسنة. (٢) في ب: الاستقرار للأرض. (٣) في ب: العباد. (٤) في ب: طرقها. (٥) في ب: كثير. (٦) في ب: الذي هو كبير جدًا واسع. (٧) في ب: الخلاق.

تفسير سورة الفجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤
 هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦
 إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨
 وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠
 الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢ فَصَبَّ
 عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَيَا لَمْرَصَادٍ ١٤ فَأَمَّا
 الْإِنْسَنُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥
 وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦
 كَلَّا بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحْضُونِ عَلَى طَعَامِ
 الْيَتِيمِ ١٨ وَأَتَاكُمُ الثَّرَاثُ أَكَلًا لَّمًّا ١٩ وَتُحِبُّونَ
 أَمْوَالَ حُبَّامٍ ٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا
 دَكًّا ٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ
 بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَنُ وَآفَى لَهُ الذِّكْرَى ٢٣

(١-٥) ﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾

يَسِرُ ٥ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥ الظاهر أن المقسم به، هو المقسم عليه، وذلك جائر مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مُهِمّاً، وهو كذلك في هذا الموضع.

فأقسم تعالى بالفجر الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، ما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال نذرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر ^(١) لجميع الأمور الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها.

ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رُئي الشيطان أحقر ولا أدر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة.

ولهذه أشياء معظمة مستحقة لأن يقسم الله بها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون، ويطمثون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ ٥﴾ المذكور ﴿قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥﴾ أي: [لذي] عقل؟

نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٦-١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ

رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَيَا لَمْرَصَادٍ ١٤ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ ٤﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إِرَمَ ٦﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ ٧﴾ أي: القوة الشديدة والعتر والتجبر.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا ٧﴾ أي: مثل عاد ﴿فِي الْبِلَادِ ٨﴾ أي: في جميع البلدان [في القوة والشدة] كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٨﴾.

﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبثوا ملكه، كما ثبَّت الأوتاد ما يراد إمساكه بها.

﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ١١﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأدوا عباد الله في دينهم ودنياهم، ولهذا قال:

(١) في ب: وأنه تعالى هو المدبر.

تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ○ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَالِيَةَ ○ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

(٢١-٣٠) ﴿كَلَّا إِذَا ذُكِّرَ الْأَرْضُ ذِكًّا ذَكًّا ○ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ○ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّ لَهُ أَلْذَكْرَى ○ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاثِي ○ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ○ وَلَا يُؤْتِي وَكَافَّةً أَحَدٌ ○ يَتَأَنَّبَا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ ○ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ○ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ○ وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ○ كَلَّا ○ أَي: ليس [كل] ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بياق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تجعل قاعًا صافصافًا، لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام.

وتجيء الملائكة الكرام أهل السماوات كلهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفا يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذلل للملك الجبار.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل. فإذا وقعت هذه الأمور ف ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّ لَهُ أَلْذَكْرَى﴾ فقد فات أوانها وذهب زمانها. ﴿يَقُولُ﴾ متحسراً على ما فرط في جنب الله: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاثِي﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْدًا ○ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا حَلِيلًا﴾.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها^(٢) وفي تميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له.

﴿وَلَا يُؤْتِي وَكَافَّةً أَحَدٌ﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين.

وأما من اطمأن إلى الله وآمن به، وصدق رسله فيقال له: ﴿يَتَأَنَّبَا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله.

(١) في ب: لمن يعصيه. (٢) في ب: السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها.

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله.

فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً ووسط عذاب. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَيَلْمِزُكَ﴾ لمن عصاه^(١)، يمهله قليلاً ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(١٥-٢٠) ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ○ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ ○ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ○ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ ○ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَّمًّا ○ وَتُخَيِّبُونَ أَلْمَالَ حُجًا جَمًّا﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه.

وأنه إذا ﴿قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحساب بقوله:

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نعمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي.

وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل ممن ليس كذلك فيقله إلى العذاب الوبيل.

وأيضاً، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لا مهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال:

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، ولهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ أي: لا يحض بعضهم بعضاً على إطعام المحاويع من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال:

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذريعاً لا يتقون على شيء منه.

﴿وَتُخَيِّبُونَ أَلْمَالَ حُجًا جَمًّا﴾ أي: كثيراً شديداً، وهذا كقوله

﴿أَرْجِيهِ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحابه ﴿رَاضِيَةً مَّرْثِيَةً﴾ أي: راضية عن الله وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِذْرِي﴾ ○ وادْخُلِي جَنِّي ○ وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به في حال الموت ^(١).

[والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد ^(٢)

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠-١) ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ○ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ○ وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدٌ ○ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ○ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْقَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ○ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ○ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ○ أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ ○ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ○ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ○ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ○ فَكَّرَقِيَّةٌ ○ أَوْ لُطْعَةُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ○ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ○ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ○ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ○ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانَةِ ○ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ○ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ○ يَصْطَرِجُونَ فِيهَا ○ أَفْضَلُ الْبُلْدَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، خصوصًا وقت حلول الرسول ﷺ فيها.

﴿وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدٌ﴾ أي: آدم وذريته. والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريجه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبداً الأباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقه، مقدر ^(٣) على التصرف والأعمال الشديدة.

ومع ذلك [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزع، ولهذا قال تعالى:

﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْقَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٠﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يُوَفَّقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٢﴾ يَتَابَعَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٣﴾ أَرْجِيهِ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْثِيَةً ﴿٢٤﴾ فَادْخُلِي فِي عِذْرِي ﴿٢٥﴾ وَادْخُلِي جَنِّي ﴿٢٦﴾
سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْقَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكَّرَقِيَّةٌ ﴿١٣﴾ أَوْ لُطْعَةُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾
سُورَةُ الْبَلَدِ

الأموال على شهوات نفسه، ف ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ أي: كثيراً بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً، لأنه لا يتنفع المتفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي: أَيْحَسِبُ ^(٤) في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟.

بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله، وוכל به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ○ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا.

(١) في ب: وقت السباق والموت. (٢) في ب: سورة البلد. (٣) في ب: يقدر. (٤) في ب: أيظن.

تفسير سورة والشمس وضحاها وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ وَمَا حَمَلَهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَكَدَمَدُمْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝ أَقْسَمُ تَعَالَى

بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة فقال:

﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا﴾ أي: نورها ونفعها الصادر منها.
﴿وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهَا﴾ أي: تبعها في المنازل والنور.
﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه.
﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي: يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها مظلمًا.

فتعاقب الظلمة والضياء والشمس والقمر على هذا العالم بانتظام وإتقان وقيام^(٥) لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده الذي كل معبود سواه فباطل.

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسما وبانيها الذي هو الله تبارك وتعالى.

ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسما وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان.

ونحو ذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا حَمَلَهَا﴾ أي: مدها ووسعها، فتمكن الخلق حيثئذ من الانتفاع بها بجميع وجوه^(٦) الانتفاع.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية كما يؤيد هذا العموم.

ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقةً بالإقسام

ثم قال في نعم الدين: ﴿وَعَدَيْتَهُ الْجَدَّيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال والرشد من الغي.
فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه^(١)، ولكن لهذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعِقْبَةَ﴾ أي: لم يقتحمها وعبر عليها، لأنه متبع لشهوته^(٢).

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هذه] العقبة بقوله:
﴿فَلَا رَقِيَّةً﴾ أي: فكها من الرق بعقتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أَوْ يُطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مجاعة شديدة بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: جامعا بين كونه يتيما فقيرا ذا قرابة.

﴿أَوْ مَشْكِيكًا ذَا مَرَبٍ﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٣) أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم من كل قول^(٤) وفعل واجب أو مستحب.

﴿وَتَوَّاصَوْا بِالْقَمَرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضا على الانقياد لذلك، والإتيان به كاملا منشركا به الصلح مطمئنة به النفس.

﴿وَتَوَّاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ للخلق من إعطاء محتاجهم وتعليم جاهلهم والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكُونُونَ﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به] ولا عملوا صالحا، ولا رحموا عباد الله.

﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي: مغلقة في عمد ممددة، قد مدت من ورائها، لئلا تفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة.

[والحمد لله].

(١) في ب: على معاصي الله. (٢) في ب: لهواه. (٣) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وَعَسَىٰ أَنتُمْ الْكَافِرِينَ﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأقيمت التفسير. (٤) في ب: فدخل في هذا كل قول. (٥) كذا في ب، وفي أ: وانتظام. (٦) في ب: أوجه.

بها^(١)، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية من الهم والإرادة والقصد والحب والبغض.

وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه^(٢)، آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدسس بالذائل، والدنو من العيوب والافتراق للذنوب، وترك ما يكملها وينميها واستعمال ما يسيئها ويدسيها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق وعتوها على رسل الله^(٣).

﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأتى لهم.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام محذراً:

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها.

فكذبوا نبيهم صالحاً ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جائعين على ربهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

﴿فَسَوَّاهَا﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة^(٤) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي: تبعثها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت والله الحمد.

تفسير سورة الليل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٢١) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ○ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ○ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ○ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ○ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ○ فَسَنَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ○ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ○ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ○ فَسَنَسِرُهُ

٥٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا ○ وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا ○ وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ○ وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا ○ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ○ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ○ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ○ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ○ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ○ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ○ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ○ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ○ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ○ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ○ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ○

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ○ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ○ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ○ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ○ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ○ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ○ فَسَنَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ○ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ○ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ○ فَسَنَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ○ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ○ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ○ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ○ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ○

لِلْعُسْرَى ○ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ○ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ○ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ○ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ○ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ○ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ○ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ○ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ○ وَمَا لِإِخْوَانِهِ عِنْدُ مَنْ يَتَّقَى ○ إِلَّا آيَاتُهُ وَجِدَ رَبَّهُ الْأَخْلَى ○ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ○ هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم فقال:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [أي: يعم] الخلق بظلامه فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحيهم.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ إن كانت «ما» موصولة كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه^(٥) خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثى.

وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى ليبقى النوع ولا

(١) في ب: يحق الإقسام بها. (٢) في ب: على ما هي عليه. (٣) في ب: على رسولهم. (٤) في ب: في العقوبة. (٥) في ب: بكونه.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله ويدين من رضاء.

وأما الضلال فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وَلَا لَكَ لُكْزَةٌ وَأَلَوَّلَىٰ﴾ ملكًا وتصرفًا ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، وليقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْتَظُنَّ﴾ أي: تستعر وتتوقد.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ﴾ الذي كَذَبَ بالخبر ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر.

﴿وَسَيَجْزِيَنَّكَ الْآلَتَىٰ﴾ التي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ بأن يكون قصده به تركية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب^(٤)، قاصدًا به وجه الله تعالى.

فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الاتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأه بها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبدًا لله، لأنه رقيق إحسانه وحده.

وأما من بقي^(٥) عليه نعمة الناس لم يجزها وكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد؛ منه لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل. فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَنْفَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَكْلَىٰ﴾ ولَسَوْفَ يَرْضَىٰ هذا الاتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات. والحمد لله رب العالمين.

يضمحل، وقاد كلاً منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة. وجعل كلاً منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له^(١) ببقائه وينتفع به صاحبه أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي بطلانها ويضمحل باضمحلها؟.

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى بهذا الوصف.

ولهذا فصل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ [أي: ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والكفارات والنفقات، والصدقات والإنفاق في وجه الخير.

والعبادات البدنية كالصلاة والصوم نحوهما.

والمرغبة منهما كالحج والعمرة [ونحوهما].

﴿وَأَتَّقَىٰ﴾ ما نهى عنه من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: صدق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فَسَيَسِّرُ اللَّهُ سُبُلَهُ﴾ أي: يسهل عليه أمره ونجعله ميسراً له^(٢) كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخُلْ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله.

﴿وَأَسْتَفْتَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

﴿فَسَيَسِّرُ اللَّهُ سُبُلَهُ﴾ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح^(٣).

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبالاً عليه إذ لم يقدم منه آخرته شيئاً.

(١) في ب: العمل له. (٢) في ب: أي: يسهل له أمره ونجعله مسهلاً عليه. (٣) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح. (٤) في ب: والأدناس. (٥) في ب: بقيت.

تفسير سورة والضحي

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا فَلَىٰ ۝ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾
أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحي، وبالليل إذا سجدى وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال:

﴿مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركت منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وَمَا فَلَىٰ﴾ كَ اللهُ، أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوت كمال.

فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها وترقيته في درج^(١) الكمال ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلية فقال: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج^(٢) المعالي، ويمكن له الله دينه وينصره على أعدائه ويسدد له أحواله حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل^(٣) إليها الأولون والآخرين من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام.

ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله^(٤) [الخاصة] فقال:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي: وجدك لا أم لك ولا أب، بل قد مات أبوه وأمّه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب حتى أيدّه الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب

سُورَةُ الضُّحَىٰ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيَجُنَبُهَا
الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ
نِعْمَةٍ تُجْرَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝

سُورَةُ الشَّرْحِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا فَلَىٰ ۝
وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝

سُورَةُ الشَّرْحِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۝
أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝

ولا الإيمان، فعلّمك ما لم تكن تعلم، ووفّقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ أي: فقيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بما فتح الله عليك^(٥) من البلدان التي مجبت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال:] ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تسئ معاملته اليتيم ولا يضق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل^(٦) كلام، يقتضي رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان

(١) في ب: درجات. (٢) في ب: درجات. (٣) في ب: ما وصل.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الأحوال. (٥) في ب: فأغناك الله بما فتح

عليك. (٦) في ب: لا يصدر منك كلام للسائل.

العسر يسراً». وتعريف «العسر» في الآيتين يدل على أنه واحد، وتكثير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين. وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له.

ثم أمر الله رسوله أصلاً والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من أشغالك ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء.

﴿وَلِلَّهِ رِيكٌ﴾ وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك^(١).

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها فانصب في الدعاء.

والى ربك فارغب في سؤال مطالبك. واستدل من قال بهذا القول على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك. تمت، والله الحمد.

تفسير سورة والتين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ○ وَطُورِ سِينِينَ ○ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ○ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ○ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ○ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ○ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّنِّ ○ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ○. «التين» هو التين المعروف، وكذلك «الزيتون» أقسم بهاتين الشجرتين لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي: طور سيناء محل نبوة موسى ﷺ. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهي مكة المكرمة محل نبوة محمد ﷺ.

(١) في ب: دعواتك.

المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

﴿وَأَمَّا يَنْتَعِمَ رَبُّكَ﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فَمَحَذَّ﴾ أي: أثني على الله بها وخصَّصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

ولا فحشد بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

تفسير سورة ألم نشرح [لك صدرك]

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ○ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ○ أَلَمْ نَقْضِ ظَهْرَكَ ○ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ○ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ○ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ○ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ○ وَلِلَّهِ رِيكٌ فَارْغَبْ ○ يقول تعالى - ممتناً على رسوله - : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: نوسع له لشرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات.

فلم يكن ضيقاً حرجاً لا يكاد ينقاد لخير ولا تكاد تجده منبسطاً.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: ذنبك ﴿أَلَمْ نَقْضِ﴾ أي: أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الشناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق.

فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلی الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ. وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم، ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالى. فجزاه الله عن أمته أفضل ما جرى نبياً عن أمته.

وقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ○ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع

شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعبث به^(٢) وأذاه.

تمت والله الحمد.

تفسير سورة القدر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ يقول تعالى - مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره - : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ وذلك أن الله [تعالى] ابتداءً بإنزاله^(٣) في رمضان [في] ليلة القدر ورحم الله بها العباد رحمةً عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا.

وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدرية.

ثم فحَم شأنها وعظم مقدارها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أي: فإن شأنها جليل وخطرها عظيم. ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر [خالية منها].

وهذا مما تحير فيه^(٤) الألباب، وتدهش له العقول، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نبياً وثمانين سنة.

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ أي: يكثر نزولهم فيها ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ سَلَّمَ هِيَ: أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر^(٥).

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان وفي العشر الأواخر منه خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة

بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق وتكون رسلاً للناس، تنوب مناب خطابهم.

فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها، على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق.

ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً طغى ويغى وتجبر عن الهدى، ونسى أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينبى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان، يقول الله لهذا المتمرد العاتى:

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى ﴿إِنْ كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَىٰ الْهَدَىٰ﴾ العلم بالحق والعمل به ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ غيره ﴿بِالتَّقْوَىٰ﴾.

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى. ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ الناهي بالحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ﴿أَلَمْ يَكُنْ يَدْعُو اللَّهَ رَبًّا﴾ ما يعمل ويفعل؟.

ثم توعده إن استمر على حاله فقال: ﴿كَلَّا لَنْ نُرْ بَنِيَّ﴾ عما يقول ويفعل ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنأخذن بناصيته أخذاً عنيقاً، وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبِيَّةٌ خَاطِئَةٌ﴾ أي: كاذبة في قولها خاطئة في فعلها.

﴿فَلْيَعْلَمْ﴾ هذا الذي حق عليه العقاب^(١) ﴿نَادِيَةً﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه، ومن حوله ليعينوه على ما نزل به. ﴿لَنَسْفَعُ الرَّبَّائِيَةَ﴾ أي: خزنة جهنم لأخذه وعقوبته.

فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعده من العقوبة.

وأما حالة المنهي فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فقال:

﴿كَلَّا لَا طُعْمُهُ﴾ [أي:]: فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين.

﴿لَنَسْفَعُ﴾ لربك ﴿وَأَقْدَبُ﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدني من رضاه وتقرب منه، ولهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي عنه، وإن كانت نازلة في

(١) في ب: العذاب. (٢) في ب: وعذبه. (٣) في ب: ابتداءً بإنزال القرآن. (٤) كذا في ب، وفي أ: به. (٥) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف، ويكثر من التعبد في العشر
الأواخر من رمضان رجاء لليلة القدر، [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۖ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۖ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۚ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۚ﴾ يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: [من] اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

﴿مُتَفَكِّينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم لا يزيدهم مرور السنين^(١) إلا كفراً.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال:

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال:

﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

فإذا جاءتهم هذه البينة، فحيثئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا

سُورَةُ الْقَبَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۚ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۚ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ۝

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۚ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۚ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۚ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۚ﴾

وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق.

ولكنهم لرداءتهم ونذاتهم لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد.

فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزلفى لديه.

﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد.

وخص الصلاة والزكاة [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما

سواء فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعد ما جاءتهم البينة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُهَا، واشتد عليهم عقابها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب وهم فيها مبلسون.

﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها.

﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم

من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات.

﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته^(١).

[نمت والحمد لله].

تفسير سورة إذا زلزلت^(٢)

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ

أَنْفُسَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۖ بِأَنَّ رَبَّكَ

أَوْحَىٰ لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ ۚ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تنزلزل

وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم^(٣).

فتتدك جبالها، وتُسَوَّى تلالها، وتكون قاعاً صافصفاً لا

عوج فيه ولا أمت.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفُسَهَا﴾ أي: ما في بطنها من الأموات

والكنوز.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم

مستعظماً لذلك: ﴿مَا لَهَا؟﴾ أي: أي شيء عرض لها؟.

﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على

العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من

جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

٥٩٩

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ ۚ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفُسَهَا

ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ

أَوْحَىٰ لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ

سُورَةُ الْعَنَادِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَنَادِيَاتِ صُبْحًا ۚ فَالْمُورِتِ قَدْحًا ۚ فَالْمُعِيرَتِ صُبْحًا

ۚ فَاتْرَنَ بِهِ نَقْعًا ۚ فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ

لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۚ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۚ وَإِنَّهُ لِحَبِ

الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۚ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۚ

ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [أي: وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي^(٤) لأمره.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْنَاءًا﴾ أي: فرقا متفاوتين.

﴿لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: ليربهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويربهم جزاءه موفرا.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله،

لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، ﴿وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرا.

(١) في ب: بما أوجب عليه. (٢) في ب: الزلزلة. (٣) في ب: ومعلم. (٤) كذا في ب، وفي أ: ولا تستعصي.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق^(٤) ربه، وكلُّ هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار وغفل عن الآخرة.

ولهذا قال - حاثًا له على خوف يوم الوعيد - :

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: هلَّا يعلم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم.

﴿وَحِصِّلْ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها و] ما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية ومجازيهم عليها.

وخص خبره ^(٥) بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك، الجزء بالأعمال ^(٦) الناشئة عن علم الله وإطلاعه.

تفسير سورة القارعة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١) ﴿الْفَارِغَةُ﴾ ۝ مَا الْفَارِغَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفَارِغَةُ ۝
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَنْ نَقَلَ مَوَازِينَهُ ۝ هُوَ فِي عِشْقِهِ
رَاضِيَةً ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١﴾

﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة سميت بذلك، لأنها
تقرع الناس وترزعجهم بأهوالها.

ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ○ مَا ○ أَدْرَاكَ ○ مَا ○ الْقَارِعَةُ ○ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ ○ من ○ شدة ○
الفرع والهول، ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ○ أي: كالجراد المتشر ○
الذي يمرج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي ○
تكون في الليل، يمرج بعضها ببعض لا تدري أين توجه.

فإذا أوقد لها نار تهافت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول.

(١) في ب: عَذَّوْهَا. (٢) في ب: تَنْقَلِحْ. (٣) في ب: لِّلَّهِ عَلَيْهِ. (٤) في ب: عَلَى رِضَا رِيهِ. (٥) في ب: خَيْرَهُمْ. (٦) في ب: الْمَرَادِ بِهَذَا الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ.

تفسير سورة العاديات

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالْعَذِيبَتِ صَبِيحًا ۝ فَأَلْمَزْتِ بِهِمَا ۝ فَأَلْعِزَتِ صَبِيحًا ۝ فَأَتَيْنَ بِهِ تَقَعًا ۝ فَوَسَّطَنَ بِهِمَا جَمْعًا ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّمَا عَلَىٰ ذَٰلِكِ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّمَا لِحَبِيءٍ الْخَبِيرُ لَشَدِيدٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بالخيال لما فيها من آيات الله الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها
من أنواع الحيوانات فقال :

﴿وَالْعَدِيَّةِ صَبْحًا﴾ أي: العاديات عَدَوًا بليغًا قويًا، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العَدُوِّ^(١).

﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ بحوافره من ما يطأ عليه من الأحجار ﴿قَدَّ﴾ أي: تقدح^(٢) النار من صلابة حوافره [وقوتهن] إذا عدون. ﴿فَالْعِزَّتِ﴾ على الأعداء ﴿صُبْحًا﴾ وهذا أمر أعلي، أن الغارة تكون صباحًا.

﴿فَأَنزَلَ بِهِ﴾ أَي: بعدوهن وغارتهن ﴿نَمْعًا﴾ أَي: غبارًا.
﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أَي: براكبهن ﴿جَمْعًا﴾ أَي: توسطن به جموع
الأعداء الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي: لمنوع للخير الذي عليه لربه (٣).

فطبيعة [الإنسان] وجبلته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤذيها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمرين واضحين.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه
لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد والتهديد الشديد
لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وَأِنَّهُ﴾ أي: الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾
أي: كثير الحب للمال.

وأما الجبال الصم الصلاب فتكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: كالصوف المنفوش الذي بقي ضعيفاً جداً تطير به أدنى ريح.

قال تعالى: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْجَبًا جَاوِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾. ثم بعد ذلك تكون هباءً منثوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في جنات النعيم. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فَأُتُوهُ حَاوِيَةٌ﴾ أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسماؤها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

وقيل: إن معنى ذلك فأم دماغه هاوية في النار أي: يلقي في النار على رأسه.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرنا بقوله هي: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: شديدة الحرارة قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً نستجير بالله منها.

تفسير سورة ألهاكم التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفة والإجابة إليه وتقديم محبته على كل شيء:

﴿الْهَنُكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿التَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى (١).

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعدما تعذر عليكم استنافته.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

٦٠٠

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (٢)

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُتُوهُ حَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ (١٠) نَارُ حَامِيَةٍ (١١)

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

ودل قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية (٢)، لأن الله سماهم زائرين ولم يسمهم مقيمين.

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال (٣)، في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون. ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي: لتروا القيامة فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: رؤية بصرية كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في دار (١) في ب: وليس المقصود منه وجه الله. (٢) في ب: الآخرة. (٣) في ب: على الأعمال.

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا آدْرَكَكَ مَا الْخُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

سُورَةُ الْفَيْتَنِكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْفَتْرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

تفسير سورة الهمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٩) ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدُهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا آدْرَكَكَ مَا الْخُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

﴿وَبَلِّ﴾ أي: وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الذي يهزم الناس بفعله ويلمزمهم بقوله، فالهماز: الذي يعيب الناس ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللاماز: الذي يعيهم بقوله.

ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا هم له سوى جمع المال

الدنيا، هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْتَئَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية.

تفسير سورة والعصر

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ أقسم تعالى بالعصر الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابع.

والخاسر مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خساراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها: الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله وحق عباده^(١)، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان^(٢) نفسه وبالأمرين الآخرين يكمل غيره.

وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالريح [العظيم].

(١) في ب: بحقوق الله وحقوق عباده. (٢) في ب: العبد.

وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهابات دعوته ومقدمات^(١) رسالته، فله الحمد والشكر.

تفسير سورة إيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿لَيْلَافٍ قُرَيْشٍ ۝ إِلَيْهِمْ رَحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب. فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب حتى احترامهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا.

ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليوحده ويخلصوا له العبادة. ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة. وخص الله بالربوبية البيت^(٢) لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون

[وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٧) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْبَيْتِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ۝ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَسْمَعُونَ أَلْمَاعُونَ﴾ يقول تعالى ذامًا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده:

(١) في ب: أدلة. (٢) في ب: الربوبية بالبيت.

وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذلك.

﴿يَحْسَبُ﴾ بجمله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخَذَ﴾ في الدنيا، فذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله الذي يظن أنه ينمي عمره.

ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

﴿كَلَّا لَيَكِيدَنَّ﴾ أي: ليطرحن ﴿فِي الْخُطْمَةِ ۝ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ تعظيم لها وتهويل لشأنها.

ثم فسرهما بقوله:

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿الَّتِي﴾ من شدتها ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِ﴾ أي: تنفذ من الأجساد إلى القلوب.

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوبون فيها، قد أسوا من الخروج منها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ﴾ أي: مغلقة ﴿فِي عَمَلٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مُّصَدَّةٌ﴾ لتلا يخرجوا منها.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية].

تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ۝ فِجَعَلَهُمْ كَعْصَفٍ مَأْكُولٍ﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه.

فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قيل للعرب به من الحيشة واليمن.

فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، أي: متفرقة تحمل حجارة محماة من سجيل.

فرمتهم بها، وتبعت قاصيهم ودانيهم، فحمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة].

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

٦٠٢

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ① إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ
 ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
 مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ④

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ① فَذَلِكَ الَّذِي
 يَدْعُ الْيَتِيمَ ② وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ③
 فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
 ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ②
 إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③

والفضل الغزير الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة من النهر الذي يقال له: «الكوثر».

ومن الحوض (٧) طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، آتيته كنجوم (٨) السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

ولما ذكر منته عليه أمره بشكرها فقال:

«فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» خصّ هاتين العبادتين بالذكر لأنهما من أفضل العبادات وأجلّ القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتقلها في أنواع العبودية.

وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

«إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» أي: مبغضك وذامك ومتنقصك «هُوَ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ» أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

«فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ» أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه؛ ولأنه لا يرجو ثواباً ولا يخشى (١) عقاباً.

«وَلَا يُحِصُّ» غيره «عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ» ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

«فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ» أي: الملتزمون (٢) لإقامة الصلاة ولكنهم «عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» أي: مضيعون لها تاركون لوقتها مفوتون لأركانها (٣).

وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم (٤).

وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد حتى من النبي ﷺ.

ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة، وعدم الرحمة، فقال:

«الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ» أي: يعملون الأعمال لأجل رياء الناس.

«وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة، كالإناء والدلو والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها، والسماحة به (٥).

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة الحث على إكرام (٦) اليتيم والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] وفي جميع الأعمال.

والحث على [فعل] المعروف وبإبدل الأمور الخفيفة كعارية الإناء والدلو والكتاب ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ
 إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ
 مبتثلاً عليه: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» أي: الخير الكثير

(١) في ب: يخاف. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون. (٣) في ب: مخلون بأركانها. (٤) في ب: الذم والوعيد. (٥) في ب: يبذله والسماح به. (٦) في ب: إطعام. (٧) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض الذي يقال له: الكوثر. (٨) في ب: عدد نجوم السماء.

الْأَكْبَرُ أَي: المقطوع من كل خير مقطوع العمل مقطوع الذكر.
وأما محمد ﷺ فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن
في حق المخلوق من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع.

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أَي: قل للكافرين معلناً
ومصرحاً ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَي: تبرأ مما كانوا يعبدون من
دول الله ظاهراً وباطناً.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم لله في
عبادته^(١)، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة.
ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني
على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

ولهذا ميز بين الفريقين وفصل بين الطائفتين فقال:
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى
شَاكِرَةٍ﴾، ﴿أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تفسير سورة النصر

وهي مدنية^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ
كَانَ تَوَّابًا﴾ في هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله عند
حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول
الناس في دين الله أفواجا، بحيث يكون كثير منهم من أهله
وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به.

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن
يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره.

وأما الإشارة فإن في ذلك إشارتين:

إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين^(٣) ويزداد عند حصول
التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر

سُورَةُ الْكَافُرُونَ ٦٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦

سُورَةُ النَّصْرِ ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ٣

سُورَةُ الْمُنَادِ ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ٢ سَبَّحْنَاهُ نَارَ آذَانِ لَهَبٍ ٣ وَامْرَأَتُهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٥

والله يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه
الامة، لم يزل نصر الله مستمراً، حتى وصل الإسلام إلى ما لم
يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره،
حتى حدث من الامة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم
الله^(٤) بتفريق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هذا] فلهذه الامة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما
لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ
قد قُرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به.

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة
والحج وغير ذلك.

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال إشارة
إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره
بأفضل ما يجده، صلوات الله وسلامه عليه.

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله. (٢) في ب: وهي مكة. (٣)
في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين. (٤) في ب: فابتلوا.

فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي».

تفسير سورة تبت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين ولا حمية للقرابة - قَبَحَهُ الله - .

فَذَمَّهُ الله بهذا الذم العظيم الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة فقال:

﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ﴾ أي: خسرت يداه وشقي ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يربح.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي كان عنده وأطغاه ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: ستحيط به النار من كل جانب هو ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿وَمِن مَّسَدٍ﴾ أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلاً من مسد.

وعلى كل، ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله. فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا. وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان. فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ

وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ قولاً جازماً به معتقداً له عارفاً بمعناه.

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: المقصود في جميع الحوائج.

فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته، الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه.

ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لكمال غناه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ متعوذاً: ﴿أَعُوذُ﴾ أي: الجأ والوذ واعتصم ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، أي: فائق الحب والنوى، وفائق الإصباح.

﴿وَمِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات، فيستعاض بخالقها من الشر الذي فيها.

ثم خص بعدما عم فقال:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية.

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي: ومن شر السواحر اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد التي يعقدنها على السحر.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب.

فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده.

ويدخل في الحاسد العاين؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس.

فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر عموماً وخصوصاً.

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه، [ومن أهله].

تفسير سورة الناس

وهي مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْغَيْثِ وَالْكَائِبِ ۝ وَهَذِهِ السُّورَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْإِسْتِعَاذَةِ بِرَبِّ النَّاسِ وَمَالِكِهِمْ وَإِلَهُهُمْ، مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الشُّرُورِ كُلِّهَا وَمَادَّتُهَا الَّذِي مِنْ فِتْنَتِهِ وَشَرِّهِ أَنَّهُ يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، فَيَحْسِنُ [لَهُمْ] الشَّرَّ وَيُرِيهِمْ إِيَّاهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ وَيَنْشِطُ إِرَادَتَهُمْ لِفَعْلِهِ.

وَيَقْبِحُ لَهُمُ الْخَيْرَ وَيُشْطِطُهُمْ عَنْهُ وَيُرِيهِمْ إِيَّاهُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ.

وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويختس، أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه، واستعان به على دفعه.

فينبغي له أن [يستعين] ويستعِذ ويعتصم ببروبية الله للناس كلهم.

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها، وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس.

ولهذا قال: ﴿وَمِنَ الْغَيْثِ وَالْكَائِبِ﴾.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبًا لنا حالت^(٢) بيننا وبين كثير من بركاته وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته.

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا،

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ ٦٠٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

سُورَةُ الْفَلَقِ ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

سُورَةُ النَّاسِ ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغَيْثِ وَالْكَائِبِ ⑥

فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون.

وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه، وحسن توفيقه، على يد جامعته، وكاتبه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله» المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ^(٣).

(١) عدلت بخط مغاير في ب: إلى: مكية. (٢) في ب: ذنوبنا التي حالت.

(٣) في ب: وقع النقل في شعبان ١٣٤٥، ربنا تقبل منا وعاف إنك أنت الغفور الرحيم.

الملاحق

١- أصول وكميات: من أصول التفسير وكمياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات الذي اختلفت فيها النسختان.

أصول وكمليات

من أصول التفسير وكملياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.^(١)

في الأمم، ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركون والملحدن بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرّد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيزَ وحقق وُجد شرًّا وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمت ما دلّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمنًا، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى فما لا يتم الخبر إلا به، فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة للاتقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتًا للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكمليات: أنه إذا وضع الحق وظهر ظهورًا جليًا، لم يبق للمجاذلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجاذلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف بعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفردًا مضافًا إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كمليات القرآن، أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دونه الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ، وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به، إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضًا أيامه

المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح. والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده. وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده: الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين. وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن، من الصلاح. وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا: الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المستفدون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم

العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه. والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة.

وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المنتفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع^(١)].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص.

وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبير والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك:

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -.

واللطف، والتأيد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العباد، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.

ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب والمكاسب. والخبيث: ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْزَّيْنُ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١).

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.

وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المتفعلون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حَجَرٌ، وَلُبٌّ، ونُهِى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده: الجهل.

لفظ الأمة في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس وهو الغالب. ويراد به المدة، ويراد به الدين والملة، ويراد به الإمام في الخير.

لفظ استوى في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّيَ به «على» كان معناه العلو والارتفاع، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وإن عُذِّيَ به «إلى» فمعناه قصد، كقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾.

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، وبتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُوا الْخَيْبَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَكُنْتُمْ بِآيَاتِهِ إِلَّا أَنْ تُخْشَوْا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عِنْدَ حَكِيمٍ﴾

التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. الصدق هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه؛ التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام. مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة.

النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.

القرآن، كله مُحْكَمٌ، وأُحْكِمَت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابهٌ من جهة اتفاه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة،

في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

(العليم الخبير) وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي، والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

(الحكيم) وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَافِرِ يُوقُونَ﴾ فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها. (الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب).

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته. (السميع) لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

(البصير) الذي يبصر كل شيء وإن رق وصغر، فيبصر ديبب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء. ويبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السماوات السبع. وأيضاً سميع بصير، بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة. (الحميد) في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

(المجيد، الكبير، العظيم، الجليل) وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال، في قلوب أوليائه وأصفياه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه.

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمُلَ»، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾.

التوبة: ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله ﷺ.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسم (الرب) في آيات كثيرة.

و«الرب» هو: المربي جميع عباده، بالتدبير، وأصناف النعم، وأخص من هذا، تربيته لأصفياه بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم، ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

(الله) هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

(الملك، المالك) الذي له الملك، فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخلق، والأمر، والجزاء، وله جميع العالم، العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

(الواحد الأحد) وهو الذي توخَّد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك، ويجب على العبيد توحيده، عقداً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

(الصمد) وهو الذي تقصده الخلائق كلها، في جميع حاجاتها، وأحوالها وضروراتها، لما له من الكمال المطلق،

وصحة ما جاؤوا به .

(المهيمن) المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً .

(القدير) كامل القدرة . بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها . وبقدرته يحيي ويميت، ويعيث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قاله له: «كن فيكون» . وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد .

(اللطيف) الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والباطن، والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخير» وبمعنى «الرؤوف» .

(الحسيب) هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها .

(الرقيب) المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها، على أحسن نظام وأكمل تدبير .

(الحفيظ) الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه، من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم، وجزأها .

(المحيط) بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً . (القهار) لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته، وكمال اقتداره .

(المقيت) الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات . وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء، بحكمته وحمده .

(الوكيل) المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته . الذي تولى أوليائه، فيسره لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور . فمن اتخذه وكيلًا كفاه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ .

(ذو الجلال والإكرام) أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة، والجود، والإحسان العام والخاص . المكرم لأوليائه وأصفياه، الذين يجلوونه، ويعظمونه، ويحبونه .

(الودود) الذي يحب أنبياءه ورسله، وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وُدًا، وإخلاصًا، وإنابة من جميع الوجوه .

(العفو، الغفور، الغفار) الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفوان والصفح عن عباده، موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو، لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَكَفَلَ صَالِحَاتٍ مَّا هَدَيْتُهُ﴾ .

(التواب) الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم .

(الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ) أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتمتزة عن جميع العيوب، والمتمتزة عن أن يقاربه أو يماثله، أحد في شيء من الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سُمِّيَتْ﴾ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ .

فالقُدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى، ثبت الكمال كله .

(العلي، الأعلى) وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى .

(العزیز) الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته .

(القوي، المتين) هو في معنى العزيز .

(الجبار) هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذبه، ولجأ إليه .

(المتكبر) عن السوء، والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه .

(الخالق، البارئ، المصور) الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها، وسواها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل، ولا يزال على هذا الوصف العظيم .

(المؤمن) الذي أنثى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين . وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم

فجميع المصالح والمنافع، منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء، بحكمته ورحمته. (الشهيد) أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات، خفيها وجليها. وأبصر جميع الموجودات، دقيقتها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده، وعلى عباده، بما عملوه.

(المبدئ، المعيد) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ابتدأ خلقهم؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم، ليجزي الذين أحسنوا بالحسن، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك، هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

(الفعال لما يريد) وهذا من كمال قوته، ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريد به فعله بلا ممانع، ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له: «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فإن ارادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

(الغني، المغني) فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه، غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه، بما أفاض على قلوبهم، من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية.

(الحليم) الذي يدير على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم. ويستعذبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينبوا.

(الشكور، الشكور) الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة، تقرب الله منه أكثر.

(القريب، المجيب) أي: هو تعالى، القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده، ومن

(الفتاح) الذي يحكم بين عباده، بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء. الذي فتح بلفظه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة، ومحبة، والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة، والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب، التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

(الرزاق) لجميع عباده، فما من دابة في الأرض، إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البر والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

(الحكم، العدل) الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة، بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يُحمّل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(جامع الناس) ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

(الحي، القيوم) كامل الحياة والقائم بنفسه، القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، «الحي»: الجامع لصفات الذات، و«القيوم»: الجامع لصفات الأفعال.

(النور) نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته، والإيمان به، ونور أفئدتهم بهديته، وهو الذي أنار السموات والأرض، بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

(بديع السموات والأرض) أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

(القابض، الباسط) يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

(المعطي، المانع) لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع،

آثاره الإجابة للداعين، والإنابة^(١) للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة، للداعين، مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا، الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة، للمستجيبين له، المتقادين لشعره، وهو المجيب أيضًا للمضطربين، ومن انقطع رجائهم من المخلوقين، وقوي تعلقهم به، طمعًا، ورجاءً، وخوفًا. (الكافي) عباده جميع ما يحتاجون، ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

(الأول، والآخر، والظاهر، والباطن).

قد فسرها النبي ﷺ تفسيرًا جامعًا واضحًا، فقال يخاطب ربه: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

(الواسع) الصفات، والنوع، ومتعلقاتها، بحيث لا يُحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة، والسلطان، والملك، واسع الفضل، والإحسان، عظيم الجود والكرم.

(الهادي، الرشيد) أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل

قلوبهم منية إليه، متقادة لأمره.

وللرشيد معنى، بمعنى الحكيم فهو: الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير، ورشد، وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

(الحق) في ذاته وصفاته. فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنوع، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

ف قوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق وكل شيء ينسب إليه فهو حق، ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾، ﴿فَمَا بَدَأَ الْهَقَّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين. قال ذلك، وكتبه، العبد الفقير إلى ربه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي». غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين. آمين

ملحق بتفسير الآيات الذي اختلفت فيها النسختان

المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التبرص أربعة أشهر وعشراً، على وجه التحتم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخاطرها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ حَرَجَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

(٢٤١، ٢٤٢) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿لما بين في الآية السابقة، إمتناع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره.

وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء.

ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقته للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

(٢٣٨، ٢٣٩) ثم قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾ ۝ فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿يأمر تعالى بالمحافظة ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ عموماً، وعلى ﴿الصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها. وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته، فصلوا ﴿رِجَالًا﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعدور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد. وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم، الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم آخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ حَرَجَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢٤٠) اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وأن الأمر كان على الزوجة، أن تترصد حولاً كاملاً، ثم تسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيئون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط النسخ أن يتأخر عن

أَنْتَبَتَ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ يَأْتُهُ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المتفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق منًا ولا أذى؛ ولا مبطلًا ومنقصًا.

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَدِيَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَعْثَرَ لَنَا مَلِيكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزامًا تامًا، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

(٢٤٧) وأنه عيّن لهم نبيهم طالوت ملكًا، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتًا وأكثر مالًا.

فأجابهم نبيهم: أن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

(٢٤٨) ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ النَّبُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَيَقُتِلَ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ وكان

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فرارًا من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضل وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالايعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلًا متواترًا عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفًا من الأعداء، وجبنًا عن لقاءهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال، وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الإحتمالين فإن فيها ترغيبًا في الجهاد، وترهيبًا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئًا. ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

(٢٤٤، ٢٤٥) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ مَن ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۖ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرجعون﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأميرين، وحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله ﴿سميعٌ﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليمٌ﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضًا، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، وعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فحيثئذ سلّموا وانقادوا.

(٢٤٩) فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهزم، ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ تمرّون عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، ووفور جزعه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لصدقه وصبره، ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به نكولهم. وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذَنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

(٢٥٠) ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ ﷺ ﴿جَالُوتَ﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وَأَنكَرَهُ اللَّهُ﴾ أي: داود ﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

(٢٥١) ثم بين تعالى فائدة الجهاد فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

(٢٥٢) فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ تَنَلُّوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها

وحيًا من الله، مطابقًا للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلًا، فإنهم سيتعبون طويلًا.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء: إنه ينبغي للأمير للجيش أن يتفقدوها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله الثبوت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفس، هو الرضا الحقيقي.

(٢٥٣) وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ قَضَلْنَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعَمِيَ عَنْهُمْ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلُّوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل؛ واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم

ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكمال وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهيته وآياته، وإلا فمن جاء هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي. فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقله ضعيف، لفظاً ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين:

قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته. ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً، ومعذب عذاباً سرمدياً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكتنه الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

(٢٥٧) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا بِخَيْرِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿هذه الآية مرتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافي، أنه وليهم، يتولاهم بولايتهم الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم

كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا بِنَايَ الرَّحْمَنِ عِندَ اللَّهِ ﴿فَهُوَ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يُشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعته حتى يأذن لهم. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّمْ يَكُنْ لِّلْمُتَّقِينَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَكِيلُ﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضى إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعات نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلاق، من الأمور المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به - وهم الرسل والملائكة - ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

ثم أخبر عن عظمتهم وجلاله، وأن كرسى، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك ف ﴿لَا يَدُودٌ﴾ أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمتهم، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمه صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

﴿الْعَظِيمُ﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء - وإن جلت عن الصفة - فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فأية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبراً متفهماً، أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان.

(٢٥٦) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهيته، واتضح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم،

لبسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولا هم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكّلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم وأشقّوهم، وحرّمهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرّمهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَيُحْيِي وَأُوتِيَتْ قَالَتْ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليفه إبراهيم عليه السلام، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرد^(١) البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاوته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره مُلكه وأطغاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد ﷺ.

فقال إبراهيم منازلاً له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَيُحْيِي وَأُوتِيَتْ أَي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتاً: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُوتِيَتْ﴾ وعنّى بذلك أنني أقتل من أردت قتله، وأستبقني من أردت استبقاءه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميّز العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا

يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

(٢٥٩، ٢٦٠) ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء،

فقال: ﴿أَو كَأَن لَّيْسَ عَلَى قَبْرِهِ وَهْيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْسَتْ قَالَتْ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْسَتْ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْوَلَدِ الَّذِي فَرَسْتَ هُوَ أَعْزَمُ فَانْظُرْ أَنَّى بَعَثْنَاهُ لَمَّاعًا قَالَ كَيْفَ تَحْيِيهِ يَوْمَ تَأْتِي سَآتِيكَ لِحُمَاتِكَ تَرَ أَصْفَادَهُمْ عَلَيْهِمْ نَرُوحُهُمْ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَكَ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَقُولُ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمَلَكِ لَا تُجِيبُنِي إِلَّا بِكَ لَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قُلْتُ لَكَ إِنَّ لِي لَكَلْبًا أَتَنبِئُكَ بِفَنَاءِ مَا يَدْعُونَ بِآيَتِكَ سَعِيًا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذان دليلان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحد أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليفه إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾ أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كَمْ لَيْسَتْ قَالَتْ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بَلْ لَيْسَتْ مِائَةَ عَامٍ﴾ والظاهر أن هذه المجاورة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فَانْظُرْ إِلَى

(١) كذا في الأصل وسيأتي بعد قليل تسميته (بنمرود).

ف فعل ذلك، و فرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سرعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخص الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفس المبجلة، فجعلن متعددات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نجاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات. فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته. وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتام عدله وفضله.

(٢٦٢، ٢٦١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ يَأْتِي حَبُّهُ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلى ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين. وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمئة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزء من جنس العمل. ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه مناهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية. فهو لاء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفي عنهم المكروه

طعامك وشراكك لم يتسنة أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب - خصوصاً ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام، ﴿وَقِيلَ لَهُ: ﴿انظُرْ إِلَى جَمَارِكَ﴾ فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظاماً نخرة.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْأَطْطَارِ كَيْفَ تَنْشُرُهَا﴾ أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾ ثم نعيد فيها الحياة. ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ رأي عين لا يقبل الرب بوجه من الوجوه، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فاعترف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي من الأنبياء، إما عزيز أو غيره، وأن قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً، وأن الله أماته، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت عامرة، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل ينافيه، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، يرجع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

(٢٦٠) وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ ليزيل الشبهة عن خليفه.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿يَا رَبِّ، قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّكَ تَحْيِي الْمَوْتَى، وَتَجَازِي الْعِبَادَ، وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ يَطْمَئِنَّ قَلْبِي، وَأَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ عَيْنِ الْيَقِينِ.﴾

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فَصَرِّهِنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمنهن، واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المتفق متاً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عمن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي: التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً.

فالخير المحض - وإن كان مفضولاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤدي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحق والجهل.

﴿وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

﴿حَلِيمٌ﴾ مع كمال غناه، وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

(٢٦٦-٢٦٤) ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً نَّالٍ وَلَا يُؤْنِسُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرِ فَمَنْ لَّهُ كَمِثْلُ مَقْصُودٍ عَلَيْهِ رَآبٌ فَاصْبِرْ وَابْتَغِ فَرَقَ لَهُ صُلْحًا لَّا يَفْزِدُوكَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ ءَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيْهِ مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمِثْلِ جَنَّةٍ يَّرْبُوْنَ ءَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتِ أَكْثُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُغِيْبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

○ أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُوْنُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ءَأْنَهَارٌ لَّهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ ضِعْفًا فَاصْبِرْ فِيهِ نَارٌ فَاحْرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَلَايِكُمْ لَمْ تَفْكَرُوا﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمتفق ابتغاء وجهه ولم يتبع نفقته متاً ولا أذى.

ولمن أتبعها متاً وأذى. وللمرائي.

فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيْهِ مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو: الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فلينز العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وَلِئَلَّا يَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ءَلْيَوْمًا وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ءَلْيَوْمًا لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَأَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومنّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه. والحكمة هي: العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام. ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران: وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها للناس».

(٢٧٠، ٢٧١) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْوَاهَا الْفُتْرَةَ فَبُخْسٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَعْيِكُمْ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه

(٢٨٧، ٢٨٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبَتْهُ وَمِمَّا أَرْجَبَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُوا وَلَسْتُمْ بِتَائِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُحْيُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ السَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدْكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يحث البارئ عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض، من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة التقدين، والعروض كلها - المعدة للبيع والشراء - والخارج من الأرض: من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها الغرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزئ عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشربه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة. وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين.

داعي الرحمن، يدعوه إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا. فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليشرب بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق لا إلى الخلق.

ومع ذلك فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويع حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْهَرَسِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فإن الله يظلمهم بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات، ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال ووقعها في الموقع الأكبر كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب، فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يري أحدكم فلهو، حتى تكون مثل العجل العظيم».

(٢٧٥-٢٨١) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا إِنَّمَا اتَّبَعْنَا مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ○ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ○ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ○ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ○ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَلْتَقْظَرُوا إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله من الخيرات، وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات،

أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

وأخير أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وَلَا يَنْفِقُوا وَمَا يَنْفِقُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، وربما كان الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الديني والأخروي، بتكفير السيئات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كلأ بعمله، بحسب حكمته.

(٢٧٢) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُلَاقِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا اتَّبَعَهُ وَجِبَ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فبيد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتزكية للمؤمنين ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص.

وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضع عنده مثقال ذرة: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٢٧٤، ٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَظْهِرُونَ صَرْفًا فِي الْأَنْفُسِ يَخَسِّمُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ○ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْهَرَسِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

ءَامِنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴿الآية﴾
 لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب
 الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء
 الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وإن الزكاة
 إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم
 وإساءة عليهم.

ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه ويذروا ما
 بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأنهم
 إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من
 أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصر عليه
 محارباً لله ورسوله.

(٢٧٩) ثم قال: ﴿وَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ يعني من المعاملات
 الربوية.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا
 ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سالفة فله ما
 سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب
 عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على
 الربا.

وفي هذه الآية بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم
 للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب
 لنظامهم.

ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي:
 وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب
 على غريمه أن يُنظره إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح أن يوفي
 ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو
 خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية، واجتناب
 المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له
 يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة كما
 ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى
 كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(٢٨٢، ٢٨٣) ثم قال تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
 نَذَرْنَاهُمْ يَدْيَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَكَذَّبُوا وَلِيَكُنَّ بَيْنَكُمْ كِتَابًا
 بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتَبْ وَلِيُمْلَلِ
 الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَمَنَّى اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي
 عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَوِيعًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ

ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم
 يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب
 المكاسب الخبيثة كالمجانين عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم
 لا يقومون من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ
 الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على
 مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا أَلِيتُمْ عَلَىٰ رُءُوسِكُمْ﴾ فجمعوا
 - بجراعتهم - بين ما أحل الله وبين ما حرم الله، واستباحوا
 بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرايين وغيرهم فقال: ﴿فَمَنْ
 جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فَأَنذَرَتْ﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ مما
 تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على
 توبته فإله لا يضع أجر المحسنين.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا
 ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ في هذا: أن الربا
 موجب لدخول النار والخلود فيها وذلك لشناعته، مالم يمنح
 من الخلود مانع الإيمان.

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها
 وانتفاء موانعها وليس فيها حجة للخوارج كغيرها من آيات
 الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن
 العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى
 مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار.

ومن استحقاق هذه المويقات لدخول النار إن لم يتب
 منها.

ثم أخبر تعالى أنه يمحى مكاسب المرايين ويربي صدقات
 المنفقين عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق
 ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته
 من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره.

فالمترجئ على الربا، يعاقبه بنقص مقصوده وهذا مشاهد
 بالتجربة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

﴿وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَتَمٍّ﴾ وهو الذي كفر نعمة الله
 وجحد مئة ربه وأتم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء ثاباً
 من المآثم والذنوب.

ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل معروفاً بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبراً عدلاً عند الناس رضيعاً، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلًا بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد، التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين: من الصغار والمجانين والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمته في معاملة وفوضته فيها فقلوه في ذلك مقبول وهو نائب منابك لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله ولا يبخس الحق الذي عليه، فلا يتقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا جَوَازِينَ فَجُزْئًا وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ وَتُصَدِّقَ الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوفَ يَكُفُّمُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ فليؤدِّ الَّذِي أُوتِئَ أَمْنَتُهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِمَّ قُلُوبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝

احتوت هاتان الآيتان على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم، إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة، والإصلاحات التي لا يترشح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المداينات وحلول الإجازات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون.

وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية كأموال اليتامى، والأوقاف والوكلاء والأمناء وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحصاً للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال والمقتضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقراءة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور،

أو أحدهما.

وفي هذا أيضًا أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، ف ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾.

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا أن يتم إحسانه، بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت، لأنه حق أوجهه الله على الكاتب والشاهد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، ومع هذا: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون» بل قال: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ بفقد خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: علمًا تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضًا تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه بيان كل شيء.

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعًا حاضرًا فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات: بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبًا، وقوة حافظته الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته فذكره الشاهد الآخر فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا فَتُخَكِّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو للداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشاهد بأن يدعي في وقت أو حالة تضرهما.

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضًا نهى للكاتب والشاهد أن يضار المتعاملين

حدث به العبد نفسه ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تتحدث بها النفوس التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس: أوصاف الخير وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: استقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف. وأخبر أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

(٢٨٥، ٢٨٦) ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه أي: من جميع الشرور، وذلك لما اجتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية. وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل، وجميع الكتب ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين. وفيه أنه ﷺ مشارك للامة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت».

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار

والضمانات التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل برّاً أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد يكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فَرِهْنُ مَقْبُوضَةً﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولاً أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود، لقوله: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُوْزِ الَّذِي أَؤْتِنَ آمَنَتُمْ﴾ ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معاملته فقد عمل معه معروفاً عظيماً، ورضي بدينه وأمانته فيؤكد على من عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتنالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء وذلك لأن كتمها كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فللحاجة إليه، لعدم الكاتب والشاهد.

وختم الآية بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة والترهيب من المعاملات السيئة.

(٢٨٤) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض وإحاطة علمه بما أبداه العباد وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه الأبواب إليه إنه ﴿كَانَ لِلَّهِ عَرْشٌ﴾.

ويعذب من يشاء وهو المصير على المعاصي في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما

الجهالات، وفرقه بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والآجل.

و ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه.

ومن تمام قيومته تعالى أن علمه محيط بالخلق ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ حتى ما في بطون الحوامل. فهو ﴿الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متقلبن في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص، أو ينعت بدم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه. (٨، ٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُ لَكَ أُمُورَ الدُّنْيَا وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين الذي لا يشبهه غيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزغ وانحرف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم، ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فعلعنهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة، لتانقص العلم

والأغلال ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ: في العبادات وفي حقوق الله تعالى وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتيان بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة والله الحمد والثناء وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿الْعَلَمُ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ زَلَّ عَلَىكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا لِلنَّبِيِّينَ وَآزَلُ الْقُرْآنِ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾، ﴿الْعَلَمُ﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله

فأخبر تعالى أنه ﴿الْحَيُّ﴾ كامل الحياة ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها وصدق من جاء بها من المرسلين.

﴿و﴾ كذلك ﴿أَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿مِنْ قَبْلِ هَٰذَا﴾ الكتاب ﴿هُدًى لِلنَّبِيِّينَ﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق من الضلالات، واستنقذهم به من

وناقص المعرفة.

لما ذكر يوم القيامة ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وعجل لهم العقوبات الدنيوية متصلة بالعقوبات الأخروية.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فإياكم أن تستهينوا بعقابه فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

(١٢، ١٣) ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا سَتَلْبُوتُ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُكَذِّبِينَ كَذِبُهُمْ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الْأَنْفَاقِ ۖ فَمَنْ قَتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرِجَ كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ مَثَلَهُمْ زُلُفٍ عَلَى الْأَعْيُنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وهذا خبر وبشرى للمؤمنين، وتخويف للكافرين أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم. وفئة الكافرين يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزمهم بإذن الله ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزقه واضمحل الباطل، لكان - بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس.

(١٤، ١٥) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْرُ الْمَعَادِ ۝ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مَنَ دَلَيْكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْمَعَادِ﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينتهم لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل متقضى في مدة يسيرة.

فهذا ﴿مَتَكُعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْرُ الْمَعَادِ﴾. ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم

فيردون المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكمًا، ويقولون: ﴿أَمَّا بِهٖ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأموال النافعة والعلوم الصائبة ﴿إِلَّا أَزْوَاجُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي: أهل العقول الرزينة. ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَكْمِلُنَّ أَتْرَابَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه تعين الوقوف على «إلا الله»، حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم أنهم يعلمون كيف يتزولون نصوص الكتاب والسنة محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعوا الله تعالى أن يشتهم على الإيمان فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَقَّابُ﴾ أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه أن لا يزيع قلوبهم بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزيع قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَنْصَرَفَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ سَرِفٌ﴾.

فالعبد إذا تولى عن ربه ووالى عدوه، ورأى الحق فصدف عنه، ورأى الباطل فاختره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاع قلبه عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمانة بالسوء والله أعلم.

(٩) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ هذا من تنمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعده وذلك يستلزم موجه ومقتضاه؛ من العمل والاستعداد لذلك اليوم فإن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرغبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات.

(١٠، ١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي كله عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جور بوجه من الوجوه بل هو في غاية الحكمة والإحكام والجزاء على الأعمال الصالحة والسيرة كله قسط وعدل.

﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَهْدَةً قُلِ اللَّهُ﴾ فتوحيد الله ودينه جزاؤه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيد الله ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره.

(١٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا أَخْتَلَفَ الَّذِينَ أُولُوا أَلْكَتَبَ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمْ أَلَيْسَ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الدين الذي لا دين لله سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الْأَسْلَمُ﴾ وهو الانقياد لله وحده ظاهراً وباطناً بما شرعه على السنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يدين الله حقيقة لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على السنة رسله.

ثم أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فأنحرفوا عنه عناداً وبغياً وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون.

(٢٠) ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَقُلْ سَأَلْتُ رَبِّي وَمِنْ آتَيْنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ إِنَّ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ هَدَوْا وَإِلَّا تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَمَلِ﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك أن يقول ويعلن أنه قد أسلم وجهه أي: ظاهره وباطنه

خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولههم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولههم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَمَلِ﴾ فيسر كلاً منهم لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا ما يعينهم على عبادة الله وطاعته. وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمنون بها، ويتخذونها قراراً.

(١٦، ١٧) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالْكَلْبِرِينَ وَالْقَنِينَ وَالنَّافِلِينَ وَالشَّكُورِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي: هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب.

ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله. ويصبرون عن معاصيه. ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم. وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة مع مصاحبة الخشوع والخضوع وبالنفقات في سبيل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات. وبالاستغفار خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

(١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا أَلِيمٍ قَالِمًا بِالْقُسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله وقيامه بالقسط. وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة والجلال ونبوغ الجود والبر والرحمة والإحسان. والجمال وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء

إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ﴾.

(٢٦، ٢٧) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه معلناً بتفرد بصرف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويدل من يشاء.

فليس الأمر بأمني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا ويزيد في هذا ما ينقص من هذا، ليقم بذلك مصالح خلقه.

ويُخرج الحي من الميت كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر والميت من الحي. كما يخرج الحبوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي يخرج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر^(١).

وقوله ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي: الخير كله منك ولا يأتي بالחסنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى لا وصفاً ولا اسماً ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله فلا يقال: «بيدك الخير والشر» بل يقال: «بيدك الخير» كما قاله الله وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض ملحظهم حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي ينال بها رزقه كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد أثرت إبقاءه على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.

لله، وأن من اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم من أهل الكتاب والأميين أي: الذين ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

(٢١، ٢٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ يَغْتَرِبُونَ فِي الْأَرْضِ بِأَمْوَالِهِمْ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَنَشِيرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ أي: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجنابة العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

فهؤلاء قد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

(٢٣-٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَبِيًّا مِنْ آلِكَاتِبٍ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَسْمَعَكَ النَّارُ إِلَّا آيَاتًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَقْتُلُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ يَوْمَ لَا رَبَّ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَبِيًّا مِنْ آلِكَاتِبٍ﴾ و ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذي يصدق ما أنزله على رسوله.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن اتباع الحق فكأنه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تسهم إلا آيَاتاً معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة، كان تدبير الملك راجع إليهم حيث قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَؤُلَاءِ أَوْ نَصَرَكَ﴾ ومن المعلوم أن هذه أمانتي باطلة شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله واغترروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترروا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله في عبادته، فهناك لا تسأل عما يصلون

يَجْعَلُ لَهُ جَزَاءً ۖ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٨﴾

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

(٢٨) ﴿لَا يَجِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَلَا يَجِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض والله وليهم. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلكم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصره.

﴿وَيَحْذَرُ اللَّهُ اللَّهَ تَعَالَى﴾ أي: فخافوه واخلشوه، وقدموا خشيتهم على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون، وسيصيرون إليه فيجازي من قدم خوفه ورجاءه على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب الويليل.

(٢٩، ٣٠) ﴿قُلْ إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا بِعَلْمِ اللَّهِ وَعِلْمِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ مُدْرِكًا ۚ إِنَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۚ وَيَحْذَرُ اللَّهُ اللَّهَ تَعَالَى وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه وهو أنهم كلهم صائرون إليه وأعمالهم - حيثنذ من خير وشر - محضرة.

فحيثنذ يغتبط أهل الخير بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً، ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة وأنه

لا بد أن يلاقي ربه ويلاقى سعيه أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُ اللَّهُ اللَّهَ تَعَالَى﴾ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمتهم، وكمال عدله، وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد وزجرهم عن الغي والفساد كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذَلِكَ يُؤْتِي اللَّهُ بِهِ عَبْدًا يُخَيَّرُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالْإِثْمِ﴾ فرافته ورحمته سهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تقضي بهم إلى المكروهات.

فسأله تعالى أن يتم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق التي تقضي بسالكها إلى الجحيم.

(٣١، ٣٢) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامه محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعتهم وجميع ما يدعو إليه طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصفها؟

فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بامتنال الأمر واجتناب النهي وتصديق الخبر ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك فهذا هو الكفر والله ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

(٣٣، ٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ بِأَدَمَ وَهُوَ وَمَا لَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا لَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۚ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى آخر القصة.

لله تعالى من عباده أصفاء يصطفهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية والنعوت السامية، والعلوم النافعة والأعمال الصالحة والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار وما احتوت عليه من كمل الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذرايعهم، وشمل ذكورهم ونساءهم. وهذا من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

(٣٦، ٣٥) فلما قرر عظمة هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة وكيف تنقلت بهما الأحوال من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت - متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القربة التي يحبها التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته - : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: خادمًا لبيت العبادة المشحون بالمتعبدين.

﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ هذا العمل أي: اجعله مؤسسًا على الإيمان والإخلاص، ثمرة للخير والثواب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ.

كان في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرًا بناء على أنه يكون ذكرًا، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجير الله قلبها، وتقبل الله نذرًا، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

(٣٧-٣٩) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: ربيت تربية عجيبة دينية أخلاقية أدبية كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها ويسر الله لها زكريا كافيًا. وهذا من منة الله على العبد أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين.

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلاكد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به.

إذ ﴿لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ وهو محل العبادة وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ هنيئًا معدًا.

﴿قَالَ يَتَرَمَّ إِنِّي لَأَلِدُ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من الله بها ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فَتَدَاوَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُمَدِّدًا يَكْتُمُونَ مِنَ اللَّهِ اسْمَهُ أَي: الكلمة التي من الله «عيسى ابن

مريم».

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم والتصديق له، والشهادة له بالرسالة.

فهذه الكلمة من الله كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي: هذا المبشر به وهو «يحيى» سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: و «الحصور» قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي غُصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين. ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية.

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنتُ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴿فَهَذَانِ مَانِعَانِ مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ - يَارَب - يَحْصِلُ لِي ذَلِكَ، مع ما ينافي ذلك؟!﴾

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقَعُ مَا يُشَاءُ﴾ فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة ما بلغت.

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ ليحصل السرور والاستبشار وإن كنت - يارب - متيقنًا ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف.

﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْرًا﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة ﴿أَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أول النهار وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر.

وكونه لا يقدر على مخاطبة آدميين، ولسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه آية أخرى.

فحيث حصل له الفرح والاستبشار وشكر الله. وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والأبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فإن ما من الله به عليها من ذلك الرزق الهني الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أمورًا محبوبة على يد من يحبه ليرفع الله قدره ويعظم أجره.

(٤٢) ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة

النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهدي فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿مَنْ أَفْضَلُ مِنْهُ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه وألستهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ وهذا من الأمور المستغربة ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير وأنه لا ممانع لإرادته.

(٤٨، ٤٧) ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَيَعْلَمُ الْكِتَابُ أَي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس ويعطيه النبوة.

(٤٩) ﴿و﴾ يجعله ﴿رُسُلًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ويؤيده بالآيات والنبات والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدلهم أي رسول الله حقًا.

وذلك ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينيه ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وَأَمَّا الْمَوْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بِيَدَ يَدَيِ رَبِّكَ التَّورَةِ﴾ فأيده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة والدين الذي جاء به وأنه دين التوراة ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاءت به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضا فقلوه: ﴿وَلَا تُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولا تخفف عنكم بعض الأصار والأغلال.

(٥١، ٥٠) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴿وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ جَمِيعُ الرُّسُلِ﴾: عبادة الله وحده لا شريك له وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحيثما اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

والكمال مبلغًا عظيمًا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا اللَّهُ أَصْطَفٰكَ﴾ أي: اختارك ووهب لك من الصفات الجليلة والأخلاق الجميلة.

﴿وَطَهَّرَكَ﴾ من الأخلاق الرذيلة ﴿وَأَصْطَفٰكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

(٤٣) فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك لتغبط بنعم الله وتشكر الله وتقوم بحقوقه، وتستغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يَمْرُؤُا أَتَيْنَا لِرَبِّكَ﴾ أي: أكثرى من الطاعة والخضوع والخشوع لربك، وأدبى ذلك ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به وبرزت وفاقته في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم لا يتعلم من الناس - قال تعالى - ﴿ذَلِكَ مِن أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُم أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرِّمَ﴾ حيث جاءت بها أمها فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فآلقوا أقلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص، أنه يحصل بها العبرة وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث، وغيرها من الأصول الكبار.

(٤٥) ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجة وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

(٤٦) ومن تمام هذه البشارة أنه: ﴿يَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَدْيِ﴾ فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالخلق ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كَهَلًا﴾ أي: في حال كهولة، وهذا تكليم

أهل الأديان السابقة.

ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين ونسخت رسالته الرسائل كلها، ونسخ دينه جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذا القرآن العظيم الذي فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار حسن الأحكام.

(٥٩-٦٢) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۚ فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحُكْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَإِبْنَاءَنَا وَزُرْعَاءَنَا وَنَفْسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۚ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية فقد كذب على الله وكذب جميع أنبيائه وكذب عيسى ﷺ فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أم بلا أب دعوى من أبطل الدعاوى.

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله حيث زعموا إلهيته.

فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد اتضح لهم الحق ولكن العناد والتعصب منعاهم منه. فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً وأنهم - إن باهلوهم - هلكوا هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يرحجهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن

(٥٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ والاتفاق على رد دعوته ﴿قَالَ: نَادَا بُنِي إِسْرَئِيلَ عَلَىٰ مَوَازِينَهُ﴾ مَن أَصْحَارِي إِلَى اللَّهِ فَالْتَحَوْرِيُونَ ﴿أَي: الأنصار.

﴿نَحْنُ أَصْحَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وهذا من منه الله عليهم وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به، والانقياد لطاعته، والنصرة لرسوله.

(٥٣) ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَ وَأَتَّبَعْنَا أَلْسُونًا﴾ وهذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ النَّبِيِّينَ﴾ لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق.

(٥٤) وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مَكْرُوا﴾ بعيسى ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ بهم ﴿وَاللَّهُ حَيُّ الْمُنِيرُ﴾ فاتفقوا على قتله وصلبه وشبهه لهم شبه عيسى.

(٥٥) فقبضوا على من شبه لهم به وقال الله لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فرفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وصلبوا من قتلوه ظانين أنه عيسى وباؤوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبع ما جاء به محمد ﷺ ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون. وقوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ تَوَكُّوْا إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ فكانوا هم أتباعه حقاً، فأبدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

ولكن حكمة الله عادلة فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجرأ على معاصيه إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء والله عزيز حكيم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(٥٦، ٥٧) فقد بين ما يفعله بهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَيْتُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع

المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين .

(٦٢) ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْمُ الْحَقُّ﴾ أي: الذي لا ريب فيه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَرِيزُ﴾ الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات وأذعنت له سكان الأرض والسموات .

ومع ذلك فهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها^(١) .

(٦٤) ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوِيَّةٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قُولُوا ۖ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية .

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية .

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا .

وإن ﴿تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ كقوله تعالى ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها .

(٦٥-٦٨) ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمُ مِنَ الْوَحْيِ وَالْإِنجِيلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَاءَ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿مَا كَانَ إِِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا الْكِتَابُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَكَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿كَانَتِ الْأَدْيَانُ كُلُّهَا: اليهود والنصارى والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم يدعون أنهم على ملة إبراهيم .

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ .

وأما اليهود والنصارى والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم، لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين .

وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل .

فكيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يُعلم فساد دعواهم .

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَكَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوي إيمان العبد تولاه الله بلطفه ويسره ليسرى وجنبه العسرى .

(٦٩-٧٤) ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِرِآيَتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الْذِّكْرِ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَآخِرُ الْعَجْرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ وَبَنَىٰ قُلْ إِنَّ الْهَدْيَ هَدَى اللَّهُ أَن يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ يُخَصِّصُ رَحْمَتَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ هذا من منه الله على هذه الأمة حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكرات الخبيثة .

فقالت طائفة منهم: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الْذِّكْرِ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارَ﴾ أي: أوّله وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا .

هذا مكرهم والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل يختص به من يشاء فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم .

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزد صاحبه - على طول المدى - إلا إيماناً وقيناً .

ولم تزد الشبه إلا تمسكاً بدينه وحمداً لله، وثناء عليه حيث منّ به عليه .

وقولهم: ﴿أَن يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغي، وخشية الاحتجاج عليهم .

كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام التجار بإضافة تفسيرها من عنده .

الكتاب وهم كذبة في ذلك ويصرحون بالكذب على الله وهم يعلمون حالهم وسوء مغبتهم.

(٧٩، ٨٠) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعَمَلَ وَالنُّصُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۚ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
 أي: يتمتع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده!!

هذا من الممتنع لأن حاله وما هو عليه وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا: أتأمرنا - يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبين الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.
 (٨١، ٨٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنَ النَّبِيِّينَ لَمَّا أَنْبَأَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصَرُنَّ لَهُ قَالَ أَعِزَّنِي عَلَى ذَلِكَ إِنْ أَرَادْتُمْ أَنْ تَفْهَمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الْغَالِبِينَ ۚ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط، والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه.

فأقروا على ذلك واعترفوا، والتزموا وأشهدهم وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقت وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم، وأقروا به واعترفوا. فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول - الذي يزعم أنه من أتباعه - مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن

يُؤْمِنُكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا آتَا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۚ الْآيَةُ.

(٧٥، ٧٦) ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَاعٍ يُودِعَهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۚ بَلْ مِنْ أَوْفَىٰ بِهِدِهِ وَأَتَقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْمُتَّقِينَ﴾
 يخبر تعالى عن أهل الكتاب أن منهم طائفة أمانة بحيث لو أتمته على قناطر من النقود، وهي المال الكثير يؤده إليك ومنهم طائفة خونة يخونك في أقل القليل. ومع هذه الخيانة الشنيعة فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس علينا جناح إذا خانهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن عليهم أشد الحرج فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله وهم يعلمون ذلك ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلاً.

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا. فإنه ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِهِدِهِ وَأَتَقَىٰ﴾ أي: قام بحقوق الله وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي والله يحبه. أي: ومن كان بخلاف ذلك فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله فإن الله يمقته وسيجازهيه على ذلك أعظم النكال.

(٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحطام القليل من الدنيا ويتوسلون إليها بالآيمان الكاذبة، والعهود المنكوثة فهؤلاء ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه وحرموا ثوابه ومنعوا من التزكية وهي التطهير.

بل يردون القيامة وهم متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب والعظائم.

(٧٨) ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْعَنُونَ أَلَيْسَتْ لَهُمْ لِكِتَابِهِمْ لِحَسْبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، ﴿يَلْعَنُونَ أَلَيْسَتْ لَهُمْ لِكِتَابِهِمْ لِحَسْبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من

وذنوبهم، المصلحين لعبوبهم فإن الله يغفر لهم ما قدموه ويعفو عنهم ما أسلفوه.

ولكن من كفر وأصرّ على كفره، ولم يزد إلا كفرًا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملء الأرض ذهبًا ليفتدوا به لم ينفعهم شيئًا فعليًا بالله من الكفر وفروعه.

(٩٢) ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمِمَّا تُنْفِقُونَ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلِيمٌ﴾ يعني: لن تنالوا وتدرکوا البر الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون من أطيب أموالكم وأزكاها. فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق ورحمتها وورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووقفه أعمالًا وأخلاقيًا لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضًا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره فإن الله به عليم.

وسيجزي كل منفق بحسب عمله سيجزيه في الدنيا بالخلف والعاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

(٩٤، ٩٣) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فَلَمَّا أَتَوْا بِالتَّوْرَةِ قَاتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فمن جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوّة عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالًا لبني إسرائيل إلا أشياء يسيرة حرّمها إسرائيل - وهو: يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة فيها من التحريمات التي نسخت ما كان حلالًا

بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلمهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

(٨٣-٨٥) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿قُلْ أَمَّا بِنَايَ اللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ومن يتبع غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

(٨٦-٩١) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمَكَادُورُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءَ فَلَنْ يَبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةَ الْأَرْضِ ذَكَاً وَلَوْ افْتَدَيْنَا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يعني: أنه يبعد كل البعد أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم ناكسين ناكثين لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه والباطل فأثره، فولاه الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ خالدين في اللعنة والعذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ إذا جاءهم أمر الله، لأن الله عمرهم ما يتذكر فيه من تذکر وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد التائبين من كفرهم

قبل ذلك شيء كثير.

قل لهم - إن أنكروا ذلك - ﴿قَاتِلُوا بِالْأَوَّلَةِ قَاتِلُوا هَٰذَا كُنتُمْ صِدْقِي﴾ بزمعكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم. وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه، وبطلان ما هو عليه وهو الواقع من اليهود.

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً، وقد بين في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وإبراهيم دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك بإبراهيم وحجج، تتصدع لها الجبال وتخضع لها الرجال.

فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة. فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

(٩٦، ٩٧) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ فيه آيات بينت مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حجج أليست من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غيى عن المؤمنين آياتهم يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل وتقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن^(١) الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودينياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم

حج بيته فهو خارج عن الدين، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

(٩٨، ٩٩) ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَآلِهِ شَيْدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوِجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لما أقام - فيما تقدم - الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - وبخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصددهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(١٠٠، ١٠١) ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - والله الحمد - أنتم - يامعشر المؤمنين - بعدما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله - الذي هو دينه - يستحيل أن يردكم عن دينكم لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

(١٠٢-١٠٥) ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا رِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَآلِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمن وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون فيقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟! ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(١٠٨، ١٠٩) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلَوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلُمًا لِلْعَالَمِينَ ○ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿يُنْيِ تَعَالَى عَلَى مَا قَصَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مِنْ آيَاتِهِ، الَّتِي حَصَلَ بِهَا الْفِرْقَانُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ وَمَا أَعَدَّهُ لَهُوَلَاءَ مِنَ الثَّوَابِ وَلِلْآخَرِينَ مِنَ الْعِقَابِ، وَأَنْ ذَلِكَ مُقْتَضَى فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ وَحُكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَظْلَمْ عِبَادَهُ، وَلَمْ يَنْقُصْهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ أَوْ يَعْذِبَ أَحَدًا بِغَيْرِ ذَنْبِهِ أَوْ يَحْمِلَ عَلَيْهِ وَزَرَ غَيْرَهُ.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة بين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة.

ومن سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

(١١٠، ١١١) ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْفُتُونُ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ○ لَنْ يَفْزَعُوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يُولَوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرَفُونَ﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحاً ومحبة للخير، ودعوة وتعليماً وإرشاداً، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك فلن يضرؤا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم لولوا

بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته مخلصين له بذلك وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء ونهج بهم طريق السعادة.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿يَذْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو الدين أصوله، وفروعه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْقُرْآنِ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبيئات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، ففارقوا واختلفوا وصاروا شيعاً ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء، وبغي من بعضهم على بعض ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ﴾.

(١٠٦، ١٠٧) ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ○ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة وأنه تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وامثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات، ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها

الأدبار ثم لا يتصرفون. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين قاموا بالخيرات وتركوا المحرمات لقصد رضا الله وطلب ثوابه.

(١١٦، ١١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بَيَّنَّ تعالى أن الكفار الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله أنه لا يقذهم من عذاب الله متقد ولا ينفعهم نافع، ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئاً، وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل.

وأن مثلاً ﴿كَمَثَلِ﴾ حرث أصابته ﴿ريح﴾ شديدة ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد - أو نار محرقة - فأهلك ذلك الحرث وذلك يظلمهم، فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب وإنما ظلموا أنفسهم.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْزِعُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُعَذِّبُونَ﴾.

(١١٨-١٢٠) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُعَقِّلُونَ ۝ هَئَانَتْ أُولَآءِ خِيَابُهُمْ وَلَا يَجِئُونَكَ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاؤُكُمْ عَلَيْكُمْ الْآثَامُ مِنَ الْفَيْضِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ إِنْ تَسْتَكْسِمُ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُبْغِمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء يسرون إليهم ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالاً أي: هم حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم، وفلتات ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعداوة أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم.

فإن كانت لكم فهم وعقول فقد وضع الله لكم أمرهم.

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا الموضع إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعة بين القوسين المركبين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

وقد وقع ما أخبر الله به فإنهم لما قاتلوا المسلمين ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

(١١٢) ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الرِّدَّةَ أَنْ مَنِ انْفَقُوا إِلَّا يَجْعَلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِي مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ يَأْتَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الدلة، فهم خائفون أينما نفقوا ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة وسبب يأمنون به يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

أو ﴿بِحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم [كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى وتمهيدهم لهم كل سبب^(١)].

﴿وَبَاءَ بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: قد غضب الله عليهم وعاقبهم بالدلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق أي: ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغى وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيتهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل وجنائاتهم الفظيعة.

(١١٣-١١٥) ﴿لَبِئْسَ سَوَاءً مَنِ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهَ آتِيلٌ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب بَيَّنَّ حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالنَّحْيِ وَبِهِ يَتَّبِعُونَ﴾.

﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمساواة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها وتكملها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه من خير قليل أو كثير فإن الله تعالى سيقبله حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ يعني: لن ينكر ما عملوه ولن يهدر.

وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين، وفي مقابلة إسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: ﴿ثُلَّ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم وتموتون بغيظكم، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلذلك بين لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿إِنْ تَسْتَكْمِلْهُمْ سَتُنَلَّهِمْ عِزَّ اللَّهِ وَتَصْرِفُ عَنْهُمْ رَحْمَةً﴾ عز ونصر وعافية وخير ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ لِيُظْهِرُوا لَوْنَهُمْ مِنَ الْغَيْظِ﴾ من إدالة العدو أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يَقْرَحُوا يَهَايَ﴾ وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لما بين تعالى شدة عداوتهم وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضروركم شيئاً فلا تشكوا في حصول ذلك.

(١٢١-١٢٣) ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْفِتَنِ﴾ إلى آخر القصة. وذلك يوم «أحد» حين خرج بالمسلمين حين وصل المشركون - بجمعهم - إلى قريب من «أحد» فزّلهم ﷺ منازلهم ورتبهم في معادهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياسة والحرب، كما كان كاملاً في كل المقامات.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم. ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة لكن تولاهما البارئ بلطفه ورعايته وتوفيقه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم. وفي هذه الآية ونحوها وجوب التوكل، وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافع ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أحد» وما

جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربه وليخفف هذا هذا فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في عددكم وعددكم فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر في قلة ظهر، وورثة سلاح وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسلاح.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ الذي أنعم عليكم بنصره. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ مبشراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مثبتاً لجنانهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّجِينَ﴾ بل إن نصيروا وتقفوا وتأثروا من قورهم هذا أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين علامة الشجعان.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلَظْمِينَ قُلُوبِكُمْ﴾ وما ألصق إلا من عند الله العزيز الحكيم. وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمَ فَيَنْفَلِتُوا خَائِبِينَ﴾ أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف من الكفار أو يقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيراً كما أرجعهم يوم الخندق بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين أرجعهم الله بغيظهم خائبين.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت رابعيته وشج في رأسه جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رابعيته» فأُنزل الله تعالى هذه الآية وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربه، مدبرون لا مدبرون.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم ووقفهم للدخول في الإسلام وقد فعل فإن أكثر أولئك هدام الله فأسلموا، وإن شاء عذبهم فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يخبر تعالى أنه هو المتصرف

في العالم العلوي والسفلي وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

تم الجزء - المجلد الأول - من «تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن» بخط مؤلفه عبدالرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين .

وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ويليّه المجلد الثاني أوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾.

الفهرس

٧٠٣	٢٧- تفسير سورة النمل	٥	- كلمة الناشر
٧١٧	٢٨- تفسير سورة القصص	٧	- مقدمة صاحب الفضيلة: عبدالله بن عبدالعزيز بن عكيل
٧٣٤	٢٩- تفسير سورة العنكبوت		- مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين رحمه
٧٤٧	٣٠- تفسير سورة الرُّوم	٨	الله تعالى
٧٥٨	٣١- تفسير سورة لقمان	٩	- مقدمة المحقق
٧٦٦	٣٢- تفسير سورة السجدة	١٨	- تنبيه
٧٧٢	٣٣- تفسير سورة الأحزاب	١٩	- مقدمة المؤلف
٧٩١	٣٤- تفسير سورة سبأ		- فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد
٨٠٣	٣٥- تفسير سورة فاطر	٢٠	لابن القيم رحمه الله تعالى
٨١٣	٣٦- تفسير سورة يس	٢٧	١- تفسير سورة الفاتحة
٨٢٣	٣٧- تفسير سورة الصافات	٢٩	٢- تفسير سورة البقرة
٨٣٤	٣٨- تفسير سورة ص	١٢٥	٣- تفسير سورة آل عمران
٨٤٤	٣٩- تفسير سورة الزمر	١٧٤	٤- تفسير سورة النساء
٨٦٠	٤٠- تفسير سورة المؤمن (غافر)	٢٣٨	٥- تفسير سورة المائدة
٨٧٦	٤١- تفسير سورة السجدة (فصلت)	٢٧٧	٦- تفسير سورة الأنعام
٨٨٦	٤٢- تفسير سورة الشورى	٣١٧	٧- تفسير سورة الأعراف
٨٩٨	٤٣- تفسير سورة الزخرف	٣٥٧	٨- تفسير سورة الأنفال
٩٠٩	٤٤- تفسير سورة الدخان	٣٧٣	٩- تفسير سورة براءة (التوبة)
٩١٣	٤٥- تفسير سورة الجاثية	٤٠٩	١٠- تفسير سورة يونس
٩١٨	٤٦- تفسير سورة الأحقاف	٤٣٢	١١- تفسير سورة هود
٩٢٥	٤٧- تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)	٤٥٣	١٢- تفسير سورة يوسف
٩٣٣	٤٨- تفسير سورة الفتح	٤٧٦	١٣- تفسير سورة الرعد
٩٤٢	٤٩- تفسير سورة الحجرات	٤٨٧	١٤- تفسير سورة إبراهيم
٩٤٧	٥٠- تفسير سورة ق	٤٩٧	١٥- تفسير سورة الحجر
٩٥٣	٥١- تفسير سورة الذاريات	٥٠٥	١٦- تفسير سورة النحل
٩٥٩	٥٢- تفسير سورة الطور	٥٢٦	١٧- تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٩٦٥	٥٣- تفسير سورة النجم	٥٤٥	١٨- تفسير سورة الكهف
٩٧١	٥٤- تفسير سورة اقترت (القمر)	٥٦٩	١٩- تفسير سورة مريم
٩٧٦	٥٥- تفسير سورة الرحمن	٥٨٤	٢٠- تفسير سورة طه
٩٨١	٥٦- تفسير سورة الواقعة	٦٠٣	٢١- تفسير سورة الأنبياء
٩٨٧	٥٧- تفسير سورة الحديد	٦٢٢	٢٢- تفسير سورة الحج
٩٩٥	٥٨- تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)	٦٤٠	٢٣- تفسير سورة المؤمنون
١٠٠٠	٥٩- تفسير سورة الحشر	٦٥٦	٢٤- تفسير سورة النور
١٠٠٧	٦٠- تفسير سورة الممتحنة	٦٧٥	٢٥- تفسير سورة الفرقان
١٠١٢	٦١- تفسير سورة الصف	٦٨٩	٢٦- تفسير سورة الشعراء

- ٩١- تفسير سورة الشمس وضحاها (الشمس) ١٠٩٢
 ٩٢- تفسير سورة الليل ١٠٩٣
 ٩٣- تفسير سورة الضحى ١٠٩٥
 ٩٤- تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح) ١٠٩٦
 ٩٥- تفسير سورة والتين ١٠٩٦
 ٩٦- تفسير سورة اقرأ (العلق) ١٠٩٧
 ٩٧- تفسير سورة القدر ١٠٩٨
 ٩٨- تفسير سورة لم يكن (البينة) ١٠٩٩
 ٩٩- تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة) ١١٠٠
 ١٠٠- تفسير سورة العاديات ١١٠١
 ١٠١- تفسير سورة القارعة ١١٠١
 ١٠٢- تفسير سورة أهاكم التكاثر (التكاثر) ١١٠٢
 ١٠٣- تفسير سورة والعصر ١١٠٣
 ١٠٤- تفسير سورة الهمزة ١١٠٣
 ١٠٥- تفسير سورة الفيل ١١٠٤
 ١٠٦- تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش) ١١٠٤
 ١٠٧- تفسير سورة الماعون ١١٠٤
 ١٠٨- تفسير سورة الكوثر ١١٠٥
 ١٠٩- تفسير سورة الكافرون ١١٠٦
 ١١٠- تفسير سورة النصر ١١٠٦
 ١١١- تفسير سورة تبت (اللهب) ١١٠٧
 ١١٢- تفسير سورة الإخلاص ١١٠٧
 ١١٣- تفسير سورة الفلق ١١٠٧
 ١١٤- تفسير سورة الناس ١١٠٨
 الملاحق ١١٠٩
 أصول وكميات من أصول التفسير وكمياته لا يستغني
 عنها المفسر للقرآن ١١١١
 تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان ١١١٨

- ٦٢- تفسير سورة الجمعة ١٠١٦
 ٦٣- تفسير سورة المنافقين ١٠١٨
 ٦٤- تفسير سورة التغابن ١٠٢٠
 ٦٥- تفسير سورة الطلاق ١٠٢٥
 ٦٦- تفسير سورة التحريم ١٠٢٨
 ٦٧- تفسير سورة الملك (تبارك) ١٠٣٢
 ٦٨- تفسير سورة ن (القلم) ١٠٣٦
 ٦٩- تفسير سورة الحاقة ١٠٤٠
 ٧٠- تفسير سورة سأل سائل (المعارج) ١٠٤٤
 ٧١- تفسير سورة نوح ١٠٤٨
 ٧٢- تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن) ١٠٥٠
 ٧٣- تفسير سورة المزمل ١٠٥٣
 ٧٤- تفسير سورة المدثر ١٠٥٦
 ٧٥- تفسير سورة القيامة ١٠٦٠
 ٧٦- تفسير سورة هل أتى على الإنسان (الدهر) ١٠٦٣
 ٧٧- تفسير سورة المرسلات ١٠٦٦
 ٧٨- تفسير سورة عم (النبا) ١٠٦٨
 ٧٩- تفسير سورة النازعات ١٠٧١
 ٨٠- تفسير سورة عبس ١٠٧٤
 ٨١- تفسير سورة التكوير ١٠٧٥
 ٨٢- تفسير سورة الانفطار ١٠٧٨
 ٨٣- تفسير سورة المطففين ١٠٧٩
 ٨٤- تفسير سورة الانشقاق ١٠٨١
 ٨٥- تفسير سورة البروج ١٠٨٣
 ٨٦- تفسير سورة الطارق ١٠٨٥
 ٨٧- تفسير سورة سبح (الأعلى) ١٠٨٦
 ٨٨- تفسير سورة الغاشية ١٠٨٧
 ٨٩- تفسير سورة الفجر ١٠٨٩
 ٩٠- تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد) ١٠٩١